



٣٥

الإحالة

وآثرها في تَمَاسِكِ البَصِّ في القِصَصِ القرآني



الشيخ الأستاذ بن محمد ومحمد

من إصدارات نادي الأحساء الأدبي

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

الجزء الأول

١

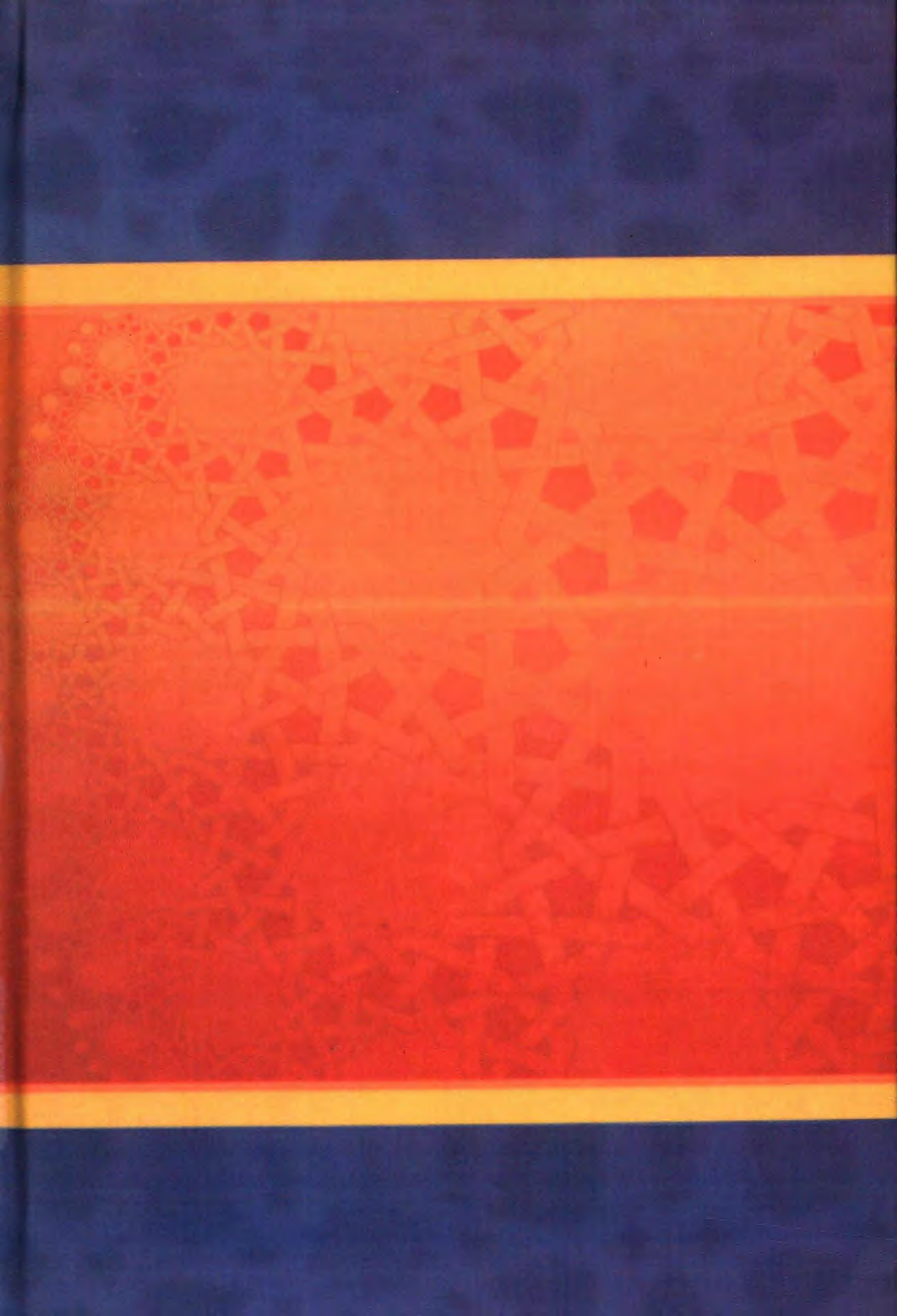
٢

٣

والتوقيف في كتاب التفسير

حالة

الكتاب الأول





الإحالة

وَأَرْشَادًا وَتَمَامًا لِلْبَصَرِ فِي الْقَصَصِ الْقُرْآنِيِّ



الإحالة

وآثارها في تفسير النسخ في القصص القرآني

تأليف

الدكتور أنس بن محمد ومجيد

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

من إصدارات نادي الأحساء الأدبي

عام ١٤٣٤ هـ

ح) نادي الأحساء الأدبي ، ١٤٣٤ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فجّال ، أنس بن محمود

الإحالة وأثرها في تماسك النص في القصص القرآني. / أنس بن

محمود فجّال .. - الأحساء ، ١٤٣٤ هـ .

٧٢٤ ص ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٥-٦-٩٠٢٩٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- نحو ٢ - القرآن - لغة ٣- القرآن- بلاغة أ.العنوان

١٤٣٤/٥٨٤٦

ديوي ٢٢٤،٢

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٥٨٤٦

ردمك: ٥-٦-٩٠٢٩٤-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

نُشر هذا الكتاب من قِبَل نادي الأحساء الأدبي، وما ورد فيه من معلومات

تحت مسؤولية المؤلف، ولا تعبر عن وجهة نظر النادي بأيّ حال من الأحوال.

نادي الأحساء الأدبي

ص.ب. ٤٨٩ الأحساء ٣١٩٨٢

الهاتف : ٠٣٥٨٢٤٨٢٩ / ٠٣٥٨٦٥٠١٤

الفاكس : ٠٣٥٨٦٤٧٦٢

البريد الإلكتروني : adabiahsa@hotmail.com

adabiahsa.net

الموقع الإلكتروني :

البريد الإلكتروني للمؤلف

iwan.anas@hotmail.com

أصل هذا الكتاب

رسالة دكتوراه منح فيها الباحث الدرجة في قسم اللغة العربية
والترجمة في كلية اللغات بجامعة صنعاء في يوم الأربعاء
٣٠ رجب ١٤٣٠ هـ الموافق ٢٢/٧/٢٠٠٩ م .

بإشراف كل من :

أ.د. محمود العباسي مشرفاً رئيساً
د. ذكري القبيلي مشرفاً مشاركاً

وعضوية كل من :

أ.د. عدنان الدوري ممتحناً داخلياً من جامعة صنعاء
د. عبد الله الهنادوة ممتحناً خارجياً من جامعة الحديدة



تقدير أ. د. محمود علي العباسي

المشرف على الرسالة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فقد باتت الألسنية تحتل مكاناً بارزاً وأساسياً في المؤسسات العلمية وبرامج الجامعات والحياة الفكرية ، وفي مختلف النشاطات الإنسانية التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالعلوم العصرية في العالم .

وكذلك ما تميّزت به من علاقة وثيقة باللغة ، وذلك لما بينهما من شراكة صميمية ، كون اللغة تمثل واقعاً اجتماعياً ، وتعبّر عن الصلة الفدّة بين الأفراد والمجتمعات ، والتواصل بين الماضي والحاضر، وبين القريب والبعيد.

فالألسنية بامتدادها وتفرّعاتها وتنوّع تخصصاتها تعتمد اليوم منهجية جديدة تركز على مفاهيم علمية وموضوعية ، وتهتم بكثير من المجالات ، كعلم الأصوات وعلم التراكيب وعلم الدلالات واللهجات ، والخطاب والنص ، وكذلك صلتها بالدراسات السوسiolوجية والسيكولوجية والإنثربولوجية ، والفلسفة والتاريخ والنقد الأدبي الألسني ، وطرق تعليم اللغات والترجمة الألسنية الآلية ، والمنطق الرياضي والإحصائيات وغيرها من المواد التي تربو على أكثر من مئة مجال .

وعندما كنت محاضرًا لمادة الألسنية في كلية اللغات بجامعة صنعاء لفت انتباهي أحد طلابها في صف الماجستير ، وهو أنس بن محمود فجّال الذي أشرفت عليه في أطروحة الدكتوراه أيضًا ، والحقيقة أنّه كان طالبًا متميزًا مواظبًا على الدراسة ومتابعًا جدًا للدرس والمادة العلمية ، لا يألو جهدًا من أجل الحصول على المصدر والمرجع والبحث ، وماله علاقة بالدراسات الألسنية ومجالاتها المختلفة ، فكان بحقّ ذا شخصية علمية تميّزت بالحوار العلمي والنقاش والتحليل ، ومتابعًا جدًا فيما يكلف به من بحوث وتقارير علمية ، ينجزها بهمة عالية ، يُشعر الآخرين أنّه يطمح بالتعلّم واقتناء الجديد . ويمكن القول : إنّ كان ينتزع الإعجاب من الآخرين لذكائه المفرط وعطائه الكثير .

وعندما أبدى رغبته في اختيار موضوع ألسني لأطروحة الدكتوراه يتعلّق بالنص ونحو النص بعنوان : « الإحالة وأثرها في تماسك النص في القصص القرآني » أدركت حينها أنّه الشخص الباحث الذي يعوّل عليه في إنجاز تلك المهمة .

وفعلًا بعد أن عمل بجِدٍّ منقطع النظير بجمع المادة العلمية والتتبّع ومواكبة كلّ ما يصدر في مجال تخصصه بالدراسات الألسنية وغيرها من علوم العربية فكان بحقّ ذا قدرة عالية على المناقشة وإبداء الرأي ومعرفة الجديد ، ووجدت فيه الاستقلالية في الرأي ، بل كان ذا رأي حصيف وإمكانية عالية في الحوار العلمي .

وقد تتبّعنا عمله البحثي فوجدناه إسهامًا جديدًا في الدراسات اللغوية التي تهدف إلى إعادة قراءة تراثنا اللغوي والنحوي قراءة لسانية معاصرة . وقد سارت هذه الدراسة على خطى المنهج الذي برز في الثمانينات من القرن العشرين الميلادي متّخذًا من النص وحدة لغوية كبرى على دراسة النصوص وتحليلها ، ومع هذا فالباحث تبصّر خطى السابقين من أئمة اللغة والمفسرين ، وتزوّد من فوائد اللاحقين ممن أثروا الجانب اللغوي بالمادة العلمية واستطاع ربط القديم بالحديث ، وقد أفاد من التراث وما أفرزته

الدراسات اللسانية رغبة منه في الاطلاع المزدوج على كيفية تفكير القدماء وتفكير المحدثين ثم الوصول إلى تصوّر خاص واستقلالية في الرأي غير مقلّد للآخرين. وهنا يكمن الإبداع في الإفادة من الأصالة والمعاصرة، وأثبت جدارة بالغة بالنهل والاستقصاء والجمع والتحليل .

وقد اعتمد المنهج الوصفي من دون تجاهل المستوى الدلالي والأسلوبي والتداولي ، كما لجأ إلى المنهج الإحصائي والتحليلي في إحصاء بعض الأدوات الإحالية ثم تصنيفها بهدف الكشف عن آليات التماسك النصّي ووظائفه ، وتجديد المقولات والمصطلحات لوصف الظواهر التي وقف عليها.

فدراسة أي ظاهرة لغوية من منظور نحو النص تسعى غالبًا إلى تجريد قواعد تبيّن كيفية تشكيل النصوص ، كما عني بالجانب التنظيري لنظرية الإحالة وأدواتها ، فأورد آراء علماء النص الغربيين وقابلها بين مناهجهم ونظرياتهم مع ما ورد في كتب التراث النحوي العربي ، وقد ظهر ذلك جليًا في أثناء الحديث عن وظائف الأدوات الإحالية .

وقد أوضح أهمية علم اللغة النصي على يد هاريس وفان دايك وبوجراند وآخرين . وكذلك فقد بيّن أنّ أهمية الدراسات النصيّة أيضًا تكمن في تقديم تفسيرات مقنعة لكثير من الظواهر التي توصف بالشذوذ في قواعد اللغة ، من خلال معطيات نحو الجملة ، وكذلك فقد استطاع براءة أن يُظهر الدراسات النصيّة التي أسهمت في إعادة النظر في بعض المفاهيم اللغوية السائدة من خلال تعميقها أو تعديلها ، مما جعل نحو النص عند اللسانيين المعاصرين ضرورة لا اختيارًا .

وأبان عن أن المكون النصي له دور فاعل ومهم في التحليل اللغوي الذي لم تتوقف اهتماماته عند حد تحليل الجملة بصفاتها الوحدة اللغوية الكبرى ، بل عند النص كونه الوحدة اللغوية الكبرى في دراسة النصوص وتحليلها.

فالمنهج النصي عنده يعدّ مصدرًا مهمًا للدرس اللغوي وينبوعًا ثريًا يسهم في إخصاب الدرس اللغوي، ويعمل على توسعة آفاقه ومجالاته من خلال القضايا التي يطرحها كمعيار التماسك النصي وعنصرها الأساس (الإحالة) .

ويبين أنّ المناهج التراثية كانت تعتمد في دراستها للنص على شرح المفردات أكثر من اعتمادها على التحليل المتكامل لأدوات بناء النص وعناصره ، ومع هذا فإن علماء النحو والبلاغة والتفسير القدامى لم يكونوا بمنأى عن (المنهج النصي) إذ كان لهم العديد من الإشارات إلى ذلك المنهج، ولكنه لم يكن منهجًا متكامل الأركان ولم يصلح لتكوين نظرية مستقلة ذات قواعد ووسائل وأهداف ، كما نجده عند ابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) والحاتمي (ت ٣٨٨ هـ) وابن جني (ت ٣٩٢ هـ) وأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) والسكاكي (ت ٦٢٦ هـ) والقرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) والسهيلي (ت ٥٨١ هـ) وابن هشام (ت ٧٦١ هـ) وغيرهم من علماء العرب والمسلمين.

ولقد أوضح اهتمام العلماء بنحو الجملة الذي يمثل تحليلًا جزئيًا للنص ، ولم يعد النص لديهم تتابعًا متسلسلًا من الجمل فحسب ، بل أصبح مبنى فريدًا قائمًا بذاته ، وأصبح للنحو دور كبير في تفسير النص من خلال النظرة الشاملة والمتكاملة للنص الذي كان من ثماره ظهور الدراسات اللغوية النصية التي تتناول تركيب النص .

وأشار إلى أنّ الاعتماد على نحو النص لا يلغي الاعتماد على معطيات نحو الجملة ، إذ أنه من المقرر أنّ نحو الجملة يشكل جزءًا جوهريًا من نحو النص ، فالجملة هي النواة الأساسية للنص ، فلا نص من دون جملة ، أما الظواهر التي تخصّ نحو الجملة فبوصفها محطة انطلاق الناقد إلى فضاء أوسع وهو النص .

ومع هذا ذكر أنّ اشتقاق النصّ ليس دخليلاً على الثقافة العربية ، حيث ورد في المعجمات العربية وعند علماء أصول الفقه ، وقد مرّ بمراحل متعددة في استخدامه مما يعكس دور الثقافة العربية في تجليته وإبرازه ، وقد مارس المتقدمون التعامل مع النصّ ، وارتبط النصّ لديهم بالقرآن الكريم ، وقد أولى علماء العرب القدامى عناية واضحة تتجاوز حدود الجملة .

أمّا النصّ (مصطلحاً) فلم يظهر إلّا في اللسانيات الحديثة بعد العقد السادس من القرن العشرين الميلادي ، وقد تعددت مفاهيمه بتعدد المدارس والاتجاهات كما جاء في الدراسة .

ونحو النصّ مصطلحٌ ناشئٌ جاء في مقابل نحو الجملة ، وقد ظهرت ملاحظه في العقد الثامن من القرن العشرين الميلادي .

وقد عنت الدراسات النصّية بالوظيفة الاجتماعية للغة ، وضرورة وجود الدور التواصلية الذي يعده علماء اللسانيات جوهر العمليات الاجتماعية ، فاجتزأ الجمل يحيل اللغة الحية فتاتاً وتفارق من الجمل المصنوعة أو المجمدة ، ويظهر ذلك جلياً في الأمثلة والشواهد النحوية المصنوعة أو المتزوعة من سياقاتها وهو ما جعل التماسك النصي يمثل حجر الأساس في التحليل النصي المعاصر .

لقد أوضح الباحث أن التماسك النصي ليس المراد منه البحث عن وسائل تربط أول النصّ بآخره فحسب وليس المقصود الربط بين المتباعدات فقط ، بل يحقق التماسك النصي من خلال الربط بأي مسافة تزيد على الجملة الواحدة ، ولا شك أن تعدد تلك الروابط على مستوى الجملة في النص الواحد له أكبر الأثر في جعل النصّ كلاً موحداً .

وبيّن أنّ وصف النصّ بـ (التماسك) أفقره مجمع اللغة العربية في القاهرة من خلال ما جاء في (المعجم الوسيط) أو (المعجم الوجيز) فالنصّ بناء له أجزاء متعددة، وجمل

متراكبة ، فالتماسك عنده هو الترابط بين هذه الأجزاء والعناصر ، وقد أشار إلى أنه لا داعي إلى الفرار إلى مصطلحات أخرى مثل (الاتساق) و (السبك) وغيرها بزعم أن (التماسك) مصطلح لا أصل له في العربية .

فالنصيون بدأوا يولون (التماسك) عناية فائقة - كما أشار - ، ويذكرون أنه خاصية دلالية للخطاب تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى ، ويشرحون العوامل التي يتم بها الترابط ، وتعد دراسة الروابط المرتكز الأساس في عملية التماسك النصي .

وهي القضية الكبرى التي شغلته ، وقد تنوعت تلك الوسائل وامتدت إلى علوم كثيرة مثل البلاغة والنحو والتاريخ والمنطق والفلسفة والاجتماع وعلم النفس بل والثقافة عامة.

وأبرزت الدراسة أن بعض الباحثين العرب قاموا بدراسات تطبيقية في نصوص عربية على تلك الروابط ، فظهرت المفارقة التي أكدت خطأ هذا التطبيق ، فلا يصح استعارة المناهج الأجنبية وإقحامها في الخطاب العربي بصورة مطلقة .

أما النصيون فقد عرضوا أمثلة كثيرة للأدوات والعلاقات التي تقوم بعملية الربط بين عناصر الكلام وأجزائه ، واهتموا بصورة ملفتة ببعض تلك الروابط ، على رأسها إعادة اللفظ (التكرار) والتضام والتعريف والاستبدال والحذف والربط الوصفي والإحالة .

وقد كشف الباحث عن الإحالة بصفاتها إستراتيجية عقلية يستند إليها منشئ النص حين يقوم بعملية الاقتصاد في الفقرة ، فالإقتصاد حاصل بالإضمار فقط من دون الإحالة ، وإن الإحالة هي مسوغ الاقتصاد عقلياً.

إن أهمية هذه الدراسة تأتي من خلال القيام على رصد ظاهرة لغوية نصية وتحليل عناصرها وبيان آثارها في حدود النص القرآني وهي ظاهرة الإحالة التي لم تأخذ نصيبتها الكافي ، ولم تحظ باستقلال على الرغم من أهميتها في الدرس اللساني ، أما في الدراسات القديمة فلم تعط تصوراً شاملاً يكشف عن عناصرها وعلاقتها بشكل محدد ، وإن كانت جميع خيوط هذا العلم ماثلة في تلك الدراسات .

وتعد الإحالة أكثر الظواهر اللغوية انتشاراً في النصوص ، فلا تكاد تخلو منها جملة أو نص ؛ لأنها تقدم على التحكم في مسار الرسالة المبثوثة مجبرة المتلقي على التنقل في فضاء النص القرآني ، فهي أهم معطيات النص التي تسهم في نصّيته وكفاءته .

فمراعاة النصّية جعله يتجاوز النمط القديم الذي تناول به أسلافنا قضية الإحالة في أثناء حديثهم عن مرجع الضمير ومفسره ، فلم يكن الهدف الأول من هذه الدراسة بيان مرجع الضمير وسائر أدوات الإحالة في النص ، فقد تحدث عن دور تلك الأدوات والعناصر الإحالية في بناء النص وتشكيله وتماسكه ، ووُضِل النص اللغوي بالسياق ، والاهتمام ببيان عناصر التماسك بين أجزاء النص والسعي إلى فهم النص وتفسيره استناداً إلى مقولات لغوية بالإضافة إلى مقولات غير لغوية ، وما يرتبط بذلك من مشكلات مثل دور القارئ في تحديد المعنى وتحديد قصد منشئ النص ثم تفسير عناصر النص في إطار وحدة كلية له .

وأوضح أن تطبيقات العرب جاءت قليلة في مجال علم اللغة النصي لكون الإحالة أهم أداة تسهم في عملية التماسك النصي وترابط أجزاء النص بعضه ببعض بحيث لا يستقل جزء منه عن الآخر .

واستطاع الباحث أن يخرج بتعريف شامل للإحالة فهي عنده « عملية معنوية ، ينشؤها المتكلم في ذهن المخاطب عن طريق إيراد ألفاظاً مبهمّة الدلالة يشير بها إلى

أشياء أو مواقف أو أشخاص أو عبارات أو ألفاظ خارج النص أو داخله، سابقة عليها أو لاحقة في سياق لغوي أو غير لغوي ، يقصد بذلك الاقتصاد في اللفظ ، وربط اللاحق بالسابق والعكس بما يحقق الاستمرارية والتماسك في النص » .

ويؤكد هذا التعريف دور العملية التواصلية بأركانها الثلاثة : (المتكلم والنص والمخاطب) ودور السياق اللغوي وغير اللغوي ، والهدف من عملية الإحالة ، ثم الأثر الذي تتركه في الحديث التواصل .

وقد قام الباحث بتطبيق نظرية الإحالة على أحد أهم النصوص التي بنى عليها اللغويون والنحويون قواعدهم وهو النص القرآني ، ويّين الباحث أن الأبحاث السابقة والمشابهة التي تناولها وجدها بعيدة عن دراسة الإحالة في القصة القرآنية من خلال المنهج النصي ، وجاءت مختصرة للغاية وسارت في منحى آخر غير المنحى الذي سلكه .

لقد أكدّ البحث أن للخطاب القرآني عناصر سياقية خاصة تتمثل في (المخاطب والمخاطب وموضوع الخطاب وغرضه ومكان نزوله وزمانه وسبب نزوله) وذلك بيان لخصوصية النص القرآني من بين سائر النصوص في عملية التحليل اللغوي والنصي ؛ لأن القرآن رسالة ، والمرسل هو الله عزّ وجلّ ، والمتلقي الأول هو الرسول الكريم محمد ﷺ ، وهناك مخاطبون آخرون تتم مخاطبتهم عن طريق المتلقي الأول ، وقد أدى تنوع المخاطبين إلى تنوع الخطاب القرآني ، وتدرّجه في مستويات عدّة بحسب المخاطبين وظروف الخطاب .

إذن تكتسب هذه الدراسة أهمية بالغة لما اقترنت به وهو النص القصصي في القرآن الكريم، فالقرآن الكريم هو خير ما يتناوله الدارسون النصيون ، إذ يتعاملون معه على أنه وحدة واحدة يترابط بعضها ببعض وتتعلق أجزاءه على نحو تكاملي بحيث لا يستقل منه جزء عن الآخر .

أما اختياره القصة القرآنية من دون غيرها فذلك لكونها نصاً واضح المعالم لما تميزت به من ثراء ووفرة في أدوات الإحالة .

فالقصة القرآنية كما بيّنها الباحث أسلوب من أساليب الخطاب الرباني تقوم على مجموعة من الأسس والمقومات ،وتحوي كثيراً من الخصائص والمميزات ، فهي نسيج لغوي متماسك له مبتدأ ومنتهى تظهر فيه خصائص النصية واضحة جلية ، فيه لمسات بيانية وجمالية وتصور مهني فريد وتركيب موضوعاتي مثير ، له بنية حكاية توهجت بالحركة والحياة من خلال اعتماده على الحوار والشخص والزمان والمكان، ومن خلال ارتباطه الوثيق بعالم النص ، فالقصة تعبّر عن مفهوم الحكاية والإنباء والرواية والإخبار وسرد الأحداث وتسجيل مامرّ في غابر الزمان وتوثيق ماعاشته الأقسام وما أتت به عليهم الأيام .

الحقيقة أن الدراسة كشفت عن دلالات ونتائج مهمة أظهرتها العلاقات بين عناصر النص بعد إخضاعها للقواعد التي تحكم الترتيب والتتابع والتعقيب الذي يقود بدوره إلى النتيجة المقصودة لإظهار التماسك الشديد بين أجزاء السياق القرآني المتمثل بالقصص القرآني ، وذلك من خلال الوسائل اللغوية المتمثلة بالإحالات المتنوعة ووسائل الربط المتنوعة التي أبرزتها النتائج التي جاءت مبثوثة في هذه الدراسة .

ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث وتتوافر معالجته في إطار النص ونحو النص والإحالة، لعلّ الباحث يُسهم في قراءة جديدة لمعرفة تراثنا اللغوي ، بالإضافة إلى محاولته الجريئة في تطبيق النظريات اللسانية على النص القرآني الأمر الذي أحجم كثير من الباحثين عن الخوض فيه خشية إقحام النص القرآني في النظريات اللسانية الغربية الحديثة لسبب أو لآخر .

ويمكن القول: إنّ الباحث بدراسته هذه - والله أعلم - يعدُّ رائداً في مجال الدراسات اللسانية التي تتناول علم النص ونحو النص والإحالة في كلية اللغات بجامعة صنعاء بل بكل الجامعات اليمنية .

ولا يفوتني أن أقول: إنّ الباحث عانى ما عانى في سبيل إنجاز هذا العمل من التعب والجهد والتعب والبحث والاستقصاء والتنقير والجمع والتحليل والاستنتاج مما يدلُّ على قدرة كبيرة وهمة عالية فضلاً عن استخدامه المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، العربية والأجنبية ، التي تربو على أكثر من خمس مئة ما بين مصدر ومرجع ودراسة وبحث ، وكذلك الاتصال المباشر أو عن طريق (الإنترنت) بذوي العلم والتخصص في مجال الألسنية .

وكذلك فقد جاءت أطروحته بلغة عربية سليمة وممتازة ومتينة واضحة في التعبير والسبك ، ومعرضة في خطة متماسكة .

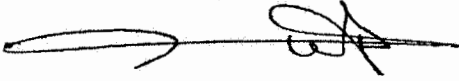
وقد برزت جديته أيضاً في عمل الفهارس التي تتعلّق بالآيات والسور القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والرسوم والمخططات وأبيات الشعر وبحورها، والمسرد الجاد الذي وضعه للمصطلحات الأجنبية وما يقابلها باللغة العربية Terms linguistics كمشروع مستقبلي لعمل مسرد أو معجم لمصطلحات علم اللغة (A Dictionary of modern linguistics) .

إذن قدّم الباحث أنس بن محمود فجّال عملاً دؤوباً طيباً وجهداً علمياً متميّزاً نال به شهادة الدكتوراه بتميّز ، الأمر الذي أوصت به لجنة المناقشة بطبع أطروحته على نفقة جامعة صنعاء لقيمتها العلمية، ومناقشته الممتازة ، وما حوته من مادة علمية متخصصة سترفد المكتبات العربية ، فعمله الذي قدّمه بهذه الصورة الرائعة يستحق عليه الثناء والتقدير ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى مثل هذا الصنف من الشباب المثقّف الجاد

الواعي لثراث أمته ، والمخلص لوطنه وإعلاء شأن لغته، وأنا بدوري أُكبر فيه هذه الهمة والطموح ، وإن شاء الله سيؤدي دوراً متميزاً في المستقبل وسيرفد الدراسات الألسنية في مجال تخصصه ، وأرجو له كل توفيق وتقدم وازدهار بأعماله المستقبلية . والله الموفق .

المشرف الرئيس على الرسالة

أ.د. محمود علي العباسي



دكتوراه دولة بالدراسات الألسنية ، جامعة السوربون بباريس ، فرنسا
والأستاذ في جامعة صنعاء

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه . أمّا بعدُ :

فإنّ التحليل اللُّغوي للنصوص يقوم على أساس خمسة مكّونات (مستويات) حدّدها علماء اللغة ، هي : (المكوّن الصوتي ، والصرفي ، والنحوي ، والمعجمي ، والدلالي) .

لقد كَشَفَ الدارسون اللغويون في الآونة الأخيرة عن مكوّنٍ سادسٍ له دورٌ فاعلٌ ومهمٌّ في التحليل اللُّغوي ، وهو (المكوّن النصّي) الذي لم تتوقف اهتماماته عند حدّ تحليل الجملة بصفتها الوحدة اللغويّة الكبرى ، بل عند النصّ بكونه الوحدة اللغويّة الكبرى في دراسة النصوص وتحليلها .

ولذا ؛ فإنّ الحاجة ما تزال قائمة إلى وضع ضوابط وقواعدٍ للتحليلات اللُّغوية التي تُتيح لها الخروج من نطاق الجملة إلى نطاقٍ أوسع يربط بين جمل النصّ وفقراته وفصوله وأبوابه .

ولم يكن علماء النحو والبلاغة والتفسير القدامى بمنأى عن (المنهج النصّي) ، إذ كان لهم العديد من الإشارات إلى ذلك المنهج ، ولكنه لم يكن منهجاً متكامل الأركان ، ولم يصلح لتكوين نظريّة مستقلة ذات قواعد ووسائل وأهداف . ومن ذلك :

ما نجده عند ابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) وإشاراته المبكرة إلى فكرة التماسك ، ومن أقواله : « يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة ، في اشتباه أولها بآخرها نسجاً وحُسناً »^(١) .

والحاتمي (ت ٣٨٨ هـ) الذي تحدّث عن وحدة القصيدة وأنها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض^(٢) .

وابن جني (ت ٣٩٢ هـ) حين قال : « إنّ الكلام إنّما وضع للفائدة ، والفائدة لا تُجنى من الكلمة الواحدة ، وإنّما تُجنى من الجمل ومدارج القول »^(٣) .

وبعض ما جاء به أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) من ربط مفهوم الفصل والوصل بالمعنى^(٤) .

وكذلك نظريّة النّظم^(٥) لدى عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) التي أكّد فيها تعلّق أجزاء الكلام ببعضه ببعض ، مشبّها واضع الكلام بمن يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة . وأنّ المستوى العالي من النّظم هو الذي يتّسم بالتماسك . وقد سبق بمقولاته التي كشفت عن سبل التماسك والانسجام النصي ما توصّلت إليه الدراسات اللغوية النفسية الحديثة التي تتناول عملية إنتاج النص اللغوي بعدة قرون .

(١) « عيار الشعر » ابن طباطبا ، ٢١٣ .

(٢) انظر « بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث » د. يوسف بكار ، ٢٩٧ .

(٣) « الخصائص » ٢ : ٣٣١ .

(٤) انظر « الصنائع والشعر » أبو هلال العسكري ، ٤٣١ .

(٥) انظر « دلائل الإعجاز » ١٣ .

والسكاكي (ت ٦٢٦ هـ) من خلال حديثه عن الجامع العقلي والجامع الوهمي بكونهما مفهومين دلاليين ، والجامع الخيالي بكونه مفهوماً تداولياً^(١) .

والقرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) من خلال حديثه عن تماسك الفصل وتماسك الفصول وعلاقة الجزء بالكل ، وعلاقة الخاص بالعام^(٢) .

والسهيلي (ت ٥٨١ هـ) ، وابن هشام (ت ٧٦١ هـ) ... وغيرهم ، إضافة إلى علم المناسبة لدى مفسري النص القرآني .

ومع مبتدأ النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي لاحت في أفق الدرس اللغوي إرهاصات علم اللغة النصي - بوصفه منهجاً مستقلاً - على يد هاريس ، ثم تطوّر على يد فان دايك ، الذي يعدّ مؤسس علم اللغة النصي ، ثم وُضِعَ دي بوجراند الأسس العامة لنظرية (نحو النص) في الثمانينات من القرن العشرين ، ثم انتقلت هذه المذاهب اللسانية النصية إلى اللغويين العرب ، وهنا بدأت مرحلة جديدة متطورة ناتجة عن دراسات لغوية مكثفة ، نقلت الباحثين من إطار النحو الجُملي إلى النحو النصي .

أهمية البحث ودوافعه :

يندرج هذا البحث في إطار الدراسات الحديثة التي تهدف إلى إعادة قراءة تراثنا النحوي قراءة لسانية معاصرة ، وهي دعوى أطلقها بعض الدارسين ، فلاقت آذاناً مُصغية في الآونة الأخيرة ، ويعدّ هذا البحث استجابة لها .

(١) انظر « مفتاح العلوم » للسكاكي ، ١١٠ .

(٢) انظر « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » حاتم القرطاجني ، ٢٩٠ . والمقصود بالفصل عنده : البيتان إلى الأربعة أبيات التي تعالج معنى واحداً .

والمنهج النصي الذي تناوله اللسانيون المعاصرون يعدّ مصدرًا مهمًا للدرس اللغوي في العربية ، وينبوعًا ثريًا ، يُسهم في إخصاب الدرس اللغوي ، ويعمل على توسعة آفاقه ومجالاته ، من خلال القضايا التي يطرحها ، كمعيار التماسك النصي وعنصره الأساس (الإحالة) .

وتبرز أهمية هذا المنهج من خلال الحاجة إليه ، فالمناهج التراثية كانت تعتمد في دراستها للنص على شرح المفردات أكثر من اعتمادها على التحليل المتكامل لأدوات بناء النصّ وعناصره . نلاحظ ذلك عند شراح الدواوين ، وكثير من مفسري النصّ القرآني . وما كان لهذا المنهج في تناول النصوص أن يؤدي إلى الفهم الكامل في دلالاتها ومقاصدها . وقد دفع هذا الشعور بعدم التكاملية بعض مفسري النصّ القرآني إلى العناية بالكشف عن العلاقات التماسكية في النصّ ، فأدركوا أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا (في إطار العلاقات الداخلية) ، كما يُفسّر ما جاء منه مجملًا بالسنة النبوية (في إطار العلاقات الخارجية) .

وقد برّز كثير من علماء اللغة بنحو الجملة ؛ لأنّ الوقوف عندها فحسب يمثل تحليلًا جزئيًا للنصّ ، ولم يعد النصّ لديهم متابعًا مسلسلًا من الجمل فحسب ، بل أصبح مبنى فريدًا قائمًا بذاته ، وأصبح للنحو دورٌ كبيرٌ في تفسير النصّ من خلال النظرة الشاملة والمتكاملة للنص التي كان من ثمارها ظهور الدراسات اللغوية النصّية التي تتناول تركيب النصّ .

وتبرز أهمية الدراسات النصّية أيضًا في تقديم تفسيرات مقنعة لكثير من الظواهر التي توصف بالشذوذ في قواعد اللغة ، من خلال معطيات نحو الجملة ، وكذلك أسهمت الدراسات النصّية في إعادة النظر في بعض المفاهيم اللغوية السائدة من خلال تعميقها أو تعديلها . مما جعل نحو النص عند اللسانيين المعاصرين ضرورة لا اختيارًا .

كما تبرز أهمية الدراسات النصية في عنايتها بالوظيفة الاجتماعية للغة، وضرورة وجود الدور التواصلي الذي يعدّه علماء اللسانيات جوهرَ العمليات الاجتماعية، فاجتزاء الجمل يحيل اللغة الحية قُتاتًا وتفارق من الجمل المصنوعة أو المجففة أو المجمدة . ويظهر ذلك جليًا في الأمثلة والشواهد النحوية المصنوعة أو المنزوعة من سياقاتها ، وهو ما جعل التماسك النصي يمثل حجر الأساس في التحليل النصي المعاصر.

إذن فالذي ميّز المنهج النصي وجعله وسيلة مهمة لتحليل الخطاب اللغوي هو كون علم اللغة النصي جاء نتاج تفاعل وامتزاج بين مجموعة من العلوم المتنوعة، منها ما هو لغويّ ، مثل : النحو والصرف والأصوات والبلاغة ...، ومنها ما هو غير لغوي، مثل: الفلسفة والمنطق والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والاجتماع .. إلخ . فهو علمٌ متداخل الاختصاصات .

ومما زاد أهميته أنه أُسِّسَ على تفاعل مجموعة من الثقافات المختلفة (أوروبية ، وأمريكية ، وعربية ..) التي تنوّعت وامتزجت معطياتها فيما بينها .

وقد ركّز الخطاب اللغوي الحديث في نحو النصّ على المعايير النصية السبعة التي كانت تنضوي تحت بؤرة اهتمام أيّ باحثٍ يريد الولوج إلى (نحو النص) ، وتلك المعايير هي : السبك (التماسك) ، والحبك (الانسجام) ، والقصد ، والقبول ، والإعلامية ، والمقامية (الموقفية) ، والتناصّ .

وهذه المعايير السبعة منها ما يتعلّق بخارج النصّ وهي : القصديّة ، والإعلاميّة ، والقبول ، والمقاميّة ، والتناصّ . ومنها ما يتعلّق بداخل النصّ ، وهي : التماسك والانسجام .

ويعدُّ معيارا التماسك (cohesion) والانسجام (coherence) الأهمَّ في دراستنا هذه، حيث نال هذان المعياران النصيب الأوفر من الدراسة عند كلِّ باحث في نحو النصِّ ؛ لأنَّ التماسك النصِّي من أهمِّ أهداف تحليل الخطاب .

ومن هنا بدأ النصيِّون يولون التماسك عناية فائقة، ويذكرون أنَّه خاصية دلالية للخطاب، تعتمد على فهم كلِّ جملة مكوِّنة للنصِّ في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى، ويشرحون العوامل التي يتمُّ بها الترابط .

وتعدُّ دراسة الروابط المرتكزَ الأساس في عملية التماسك النصِّي، وهي القضية الكبرى التي شغلته، وقد تنوَّعت تلك الوسائل وامتدَّت إلى علوم كثيرة، مثل البلاغة والنحو والتاريخ والمنطق والفلسفة والاجتماع وعلم النص، والثقافة العامة... إلخ . وعَرَّض النصيِّون أمثلة كثيرة للأدوات والعلاقات التي تقوم بعملية الربط بين عناصر الكلام وأجزائه، واهتمُّوا بصورة واضحة ببعض تلك الروابط وعلى رأسها : إعادة اللفظ (التكرار) ، والتضام ، والتعريف ، والاستبدال ، والحذف ، والربط الرصفي ، والإحالة . كما قام بعضُ الباحثين بدراسات تطبيقية في نصوص عربية على تلك الروابط، فظهرت المفارقة التي أكَّدت لنا خطأ هذا التطبيق ، فلا يصحَّ استعارة المناهج الأجنبية وإقامها في الخطاب العربي بصورة مطلقة .

وهذا ما جعلَ الحاجةَ ملِّحةً إلى إيجاد مشروعٍ نحويٍّ نصِّ يحتويه منهجٌ عربيٌّ، يراعي ظروف البيئة العربية والسياق والثقافة والمجتمع والهويَّة العربيَّة . وقد بدأ هذا المشروع على يد بعض الباحثين من أمثال: د. تمام حسان ، ود. محمد حماسة عبد اللطيف ، ود. سعد مصلوح ، ود. صلاح فضل ، ود. محمد خطَّابي ، ود. محمد العبد ، ود. سعيد بحيري ... وغيرهم . حيث تضافرت جهودهم لإخراج علم النصِّ من عباءته الأجنبية. ومن هذا المنطلق اخترت بحث : « الإحالة وأثرها في تماسك النص في القصص القرآني » .

دفعني إلى ذلك قلة التطبيقات العربية في مجال علم اللغة النصّي ، وهو ما أكّده عددٌ من الدارسين النصّيين وغيرهم^(١) . وحاجة الدرس النصّي إلى مزيد من التطبيقات على النصوص العربية، حيث أثبت الدارسون أنّ فهم اللغة يكمن في دراسة النصوص ، ولكون الإحالة أهمّ أداة تُسهم في عملية التماسك النصّي ، وترابط أجزاء النصّ بعضه ببعض ، بحيث لا يستقل جزء منه عن الآخر .

إنّ رصد حركات الإحالة في النصّ ومعرفة أدواتها تعدّ من أهمّ مفاتيح الناقد اللغوي للولوج إلى بنية النصّ وتحليله . ومن ذلك حركة الضمائر على سطح النصّ، وتنوعها وتحوّلها ، واحتواء بعضها لبعض ، وما ينتج عن كلّ ذلك من حركات دلالية

(١) من تلك الدعوات ما جاء عن د. أحمد عفيفي في بحث له بعنوان : (الإحالة في نحو النصّ دراسة في الوظيفة والدلالة) ، الذي خلص فيه إلى أنّ الإحالة قضية مهمّة من قضايا نحو النصّ ... ومن هنا فهي في حاجة ضرورية إلى كثير من التطبيقات على القرآن الكريم ، ونصوص الشعر العربي ، قديمه وحديثه ، لتظهر لنا دقائقها وأسرارها في أشكالها وتقسيماتها المتنوعة . ورأى الباحث أنّ بحثه الذي كتبه في عَجالة من أمره لا يستطيع أن يقدم كلّ ما يتّصل بالإحالة من معلومات، ودعا إلى خوض هذا الموضوع من قبل الباحثين قائلًا : « وربّما كان هذا البحث بداية لبحوث أخرى عن الإحالة أكثر شمولًا وأغزر تطبيقًا » .

ومن ذلك أيضًا ما جاء عن د. عباس السوسوة في بحث له بعنوان : (تطبيقات عربية على نحو النصّ) المنشور ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية المقام في جامعة القاهرة في عام ٢٠٠٥ م . عرّض فيه الباحث أربع محاولات تطبيقية في نحو النصّ ، ثم ختم بقوله : «وبعد أن رأينا تنوّع التطبيقات نظنّ أنّ هذا اللون من الدرس اللساني ما زال وليدًا عندنا ، وما زال محتاجًا لكثير من الدراسات التطبيقية » .

وكذا ما جاء به د. صالح الناصر في خاتمة بحث له بعنوان : (من أسباب اختلاف المفسرين المتعلقة بمرجع الضمير) حيث قال : « وأنبّه أخيرًا إلى أنّ هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة والاستقصاء لآيات القرآن الكريم » .

في النص نفسه تعدّ انعكاسًا لحركة الضمائر ، وكذا الجمل المحورية ، وأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة ، وأل التعريف ، والتكرار بأنواعه .

وتعدّ الإحالة أكثر الظواهر اللغوية انتشارًا في النصوص ، فلا تكاد تخلو منها جملة أو نص ؛ لأنها تقدم على التحكم في مسار الرسالة المبثوثة مجبرة المتلقي على التنقل في فضاء النص القرآني، فهي أهم معطيات النص التي تسهم في نصّيته وكفاءته .

ومراعاة النصية تجعلنا نتجاوز النمط القديم الذي تناول به أسلافنا قضية الإحالة في أثناء حديثهم عن مرجع الضمير ومفسّره، فلم يكن الهدف الأول من هذه الدراسة بيان مرجع الضمير وسائر أدوات الإحالة في النص ، إذ هذا مظأنه في كتب التفسير ، ولا حاجة للتكرار والإعادة في سرده وبيانه ، لذا صرفت وجهتي إلى الحديث عن دور تلك الأدوات والعناصر الإحالية في بناء النص وتشكيله وتماسكه، ووصل النص اللغوي بالسياق ، والاهتمام ببيان عناصر التماسك بين أجزاء النص ، والسعي إلى فهم النص وتفسيره استنادًا إلى مقولات لغوية، بالإضافة إلى مقولات غير لغوية، وما يرتبط بذلك من مشكلات، مثل دور القارئ في تحديد المعنى، وتحديد قصد منشئ النص، ثم تفسير عناصر النص في إطار وحدة كلية له، فدلالة المفردات والجمل خارج النص ليست هي بالضبط دلالتها داخله .

وقد سعيّت في هذا البحث إلى الخروج بنتائج يمكن الإفادة منها في وصف البنى الإحالية للنص الذي تناولته ، ولنصوص أخرى قياسًا عليه .

وتكتسب هذه الدراسة أهميتها من أهمية ما اقترنت به ، وهو النص القصصي في القرآن الكريم .

فالقرآن الكريم هو خير ما يتناوله الدارسون النصيون ، إذ يتعاملون معه على أنه وحدة واحدة ، يترابط بعضها ببعض ، وتتعلق أجزاءه على نحو تكاملي ، بحيث لا يستقل منه جزء عن الآخر .

وقد نقل السيوطي عن الفخر الرازي قوله : « إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط »^(١) .

وعن ابن العربي قوله : « ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني ، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله لنا فيه »^(٢) .

والقصة القرآنية أسلوب من أساليب الخطاب الرباني، تقوم على مجموعة من الأسس والمقومات ، وتحوي كثيراً من الخصائص والمميزات ، فهي نسيج لغوي متماسك، له مبتدأ ومنتهى ، تظهر فيه خصائص النصية واضحة جلية ، فيه لمسات بيانية وجمالية، وتصوير فني فريد، وتركيب موضوعاتي مثير ، له بنية حكاية توهجت بالحركة والحياة من خلال اعتماده على الحوار والشخص والزمان والمكان، ومن خلال ارتباطه الوثيق بعالم النص ، فلا بد في فهمه من امتلاك ثقافة خاصة تكتسب من خارج النص القصصي ، إما من خلال السياق القرآني نفسه، سباقاً أو لاحقاً ، أو من خلال السنة وما ورد فيها من أسباب النزول ونحوها مما يعين على تفسير كثير من مجملات النص القصصي ومبهماتة .

(١) « الإتيان » ٢ : ٢٨٩ .

(٢) « الإتيان » ٢ : ٢٨٨ ، عن ابن العربي في « سراج المريدين » .

وأقصد بالقصة هنا : مفهوم الحكاية والإنباء والرواية والإخبار وسرد الأحداث وتسجيل ما مرّ في غابر الأزمان ، وتوثيق ما عاشته الأقوام وما أتت به عليهم الأيام .

أمّا عن اختيار القصة القرآنية من دون غيرها في هذا البحث فذلك لكونها نصّاً واضح المعالم ، ولما تميّزت به من ثراء ووفرة في أدوات الإحالة ، لا سيما الضمائر وتنوعها وفاعليتها في التماسك .

والتطبيق على النّظم المحكم الذي انفرد به القرآن الكريم يساعدنا في الحصول على نتائج أكثر دقّة ووضوحاً ، نستطيع من خلالها أن نتوصّل إلى القواعد العامة التي تحكم البنية الإحالية في النصّ القرآني ، وغيره من النصوص قياساً عليه .

فالنّحاة القدماء حينما قعدوا القواعد وقتنوها كان القرآن الكريم منطلقهم الأوّل في كلّ ما قدّموه من قواعد وقوانين تحكم الجملة وتسيطر على نظامها .

إن أهمية هذه الدراسة تأتي من خلال القيام على رصد ظاهرة لغوية نصيّة ، وتحليل عناصرها وبيان آثارها في حدود النصّ القرآني ، وهي ظاهرة - أي : الإحالة - لم تأخذ نصيبها الكافي ، ولم تحظّ باستقلال - على الرغم من أهميتها - في الدرس اللساني .

وقد كثر تناولها في الدراسات الحديثة بوصفها جزءاً من ظاهرة أعم ، وهي ظاهرة الربط ، والعلاقة - بلا شكّ - قائمة بين الظاهرتين ، لكن هذا أدّى إلى إغفال بعض آثارها في فهم النصّ وتأويله .

أمّا في الدراسات القديمة فلم تعطّ الإحالة تصوّراً شاملاً يكشف عن عناصرها وعلاقتها بشكل محدّد ، وإن كانت جميع خيوط هذا العلم ماثلة في تلك الدراسات ، وهذا ما شكّل دافع الدراسة عسى أن تقوم بسدّ تلك الثغرة .

فالنّاظر في إحالات القصص القرآني يدرك أنها قضية معقّدة تلبّدت في كثير من مواضعها بالغموض الذي ينتاب المتلقّي ويثيره في أثناء فهمه للنصّ ويقذف في نفسه

الحيرة ، الأمر الذي تسبب في اختلاف المفسرين والنحويين في توجيههم الأدوات المحيلة إلى أكثر من مُحال عليه ، في داخل السياق النصي أو خارجه ، مما يجعل المهمة أمامي بحاجة إلى مزيد من التأمل والدقة واللجوء إلى مناهج أخرى تساعد في فهم تلك الإحالات كالمناهج السياقي وغيره .

والقرآن الكريم نَزَلَ منجّماً في أكثر من عشرين عامًا - كما هو معلوم -، فهل يعني ذلك أن تنجيّمه هذا يؤثر في تماسكه النصّي ؟!

إنّ من أسمى أهداف هذه الدراسة التي يسعى البحث إلى تحقيقها ومحاولة الإسفار عنها الإبانة عن وجوه إعجاز القرآن - على الرغم من نزوله منجّماً - من خلال البنية الإحالية التي تسهم في عملية التماسك النصي في القصة القرآنية .

وأختم في بيان أهمية هذا البحث بالقول : إنّ مهمّة هذا البحث في تناوله لقضيّة التماسك النصّي لا تقتصرُ على الرّبط بين معاني النّحو فحسب كما فعَلَ عبدُ القاهر، ولا على التّقييد النّحويّ كما فعَلَ النُّحاة، بل يرمي إلى تحقيق أهدافٍ عمليّةٍ تتعلّق بتنمية المهاراتِ الكتابيّة والتعبيريّة ، إضافةً إلى ما لَهُ من أبعادٍ نقديةٍ نظريّةٍ لِسانيّةٍ ، وما لها من صلةٍ بالجانبِ الدّلاليّ والتخاطبيّ للنّصّ، مُدركين بأنّ أشدَّ ما يزعجُ المتلقي قراءةُ نصٍّ مُهلَهِلٍ مُبعثرٍ العناصرِ، لا يجمّعُها جامعٌ، ولا يربطُها رابطٌ .

وأرى فيما سبق من دواعٍ ودعواتٍ دافِعًا إلى العمل على تطبيق هذا المنهج .

الصعوبات التي واجهتني :

وهناك كثيرٌ من الصعوبات واجهتني في أثناء كتابتي هذا البحث، بدءًا بجمع المدوّنات التي قامت عليها الدراسة وهي (القصص القرآني) ، وذلك بسبب اضطراب مفهوم القصة ، واختلاط قصص الأنبياء والأمم السابقة بأخبارهم .

ونظرًا إلى ذلك فقد استعنت بكثير من النصوص المجاورة لنص القصة لما لها من تعلق وثيق بالنص القصصي واحتوائها بعض العناصر القصصية التي حددها النقد.

ومن تلك الصعوبات : ضبابية مصطلح الإحالة ، واتساع مدلولها ، وتداخل أدواتها ، يظهر ذلك من خلال الكم الهائل من تعريفات الإحالة التي أوردها الباحثون الغربيون والعرب ، وقد قمت بصياغة تعريف للإحالة اعتمدت عليه في رصد الظواهر الإحالية في النص القصصي القرآني . وذلك مراعاة لطبيعة البحث وخشية ترهله وتشتت وجهته .

ومنها أيضًا : إشكالية المصطلحات التي ارتكز عليها البحث، فلا نكاد نجد إجماعًا على توحيدها، بدءًا من مصطلح: النص (text)، والخطاب (discourse)، والتماسك (cohesion)، والانسجام (coherence)، والإحالة (reference) ... وغيرها ، ولنلاحظ الحشد الحاشد من المقابلات العربية لبعض المصطلحات الأجنبية التي تكاد تختلف باختلاف الباحثين . وأود الإشارة هنا إلى أنني اعتمدت ترجمة مصطلح (cohesion) بالتماسك ، وهو ما درج بعض المحدثين على تسميته بـ (السبك) ، ومصطلح (coherence) بالانسجام ، وهو ما درج بعض المحدثين على تسميته بـ (الحبك) . ولم أفرق كثيرًا بين مصطلحي (النص) و (الخطاب) ؛ نظرًا إلى طبيعة النص القرآني الذي يحتمل كونه خطابًا مسموعًا ، أو نصًا مكتوبًا.

ومنها : أن الإحالة ظاهرة لا تكاد تخلو منها آية من آيات القصص القرآني ، مما جعلني أسلك سبيل الاستقراء الجزئي ، وذلك لأن الاستقراء التام في مثل هذه الحالة يؤدي إلى تناول البحث كمًا وزمنًا ، فلجأت إلى اختيار بعض القصص ، وترك الحديث عما يشبهها .

ومنها : أنّ علم النصّ نما في أحضان الدرس اللغوي عند الغرب ، فجاءت بعض الظواهر اللغوية التركيبية مطابقة للغتهم ، ولكن يصعب قسرها على اللغة العربية ، لما لها من خصائص مختلفة ، وهو ما جعلني أهمل الحديث عن بعض الظواهر الإحالية التي وردت عند الغرب لما فيها من التكلّف والقسر في تطبيقها على النصّ القرآني ، كالإحالة بالمقارنة ، وبعض الخصائص المتعلقة ببنية الضائرات ، ونحوها .

وأودّ الإشارة في هذا الصدد إلى أنّ الانطلاق من معطيات نحو النصّ لا يعني إثارة النتائج الغربي فيه ، بل المراد اعتماد القوالب الفكرية التي يتناولها هذا العلم بغضّ النظر عن المادة (الآراء والتحليلات) أهى عربية أو غربية ؟ تراثية أو محدثة ؟ وذلك لخصوصية النصّ القرآني المعجز من جهة ، ولإبراز الجهود العربية في هذا المضمار من جهة أخرى .

وقد حاولت جاهداً ربط النظريات الحديثة بما جاء به أسلافنا النوابغ ؛ إظهاراً لفضلهم ، ولعدم التجنّي على تراثنا اللغوي المبدع بنسبة ما سبقوا في الكشف عنه إلى غيرهم من المحدثين الغربيين .

ومن تلك الصعوبات أيضاً : اتساع المجال المرجعي في هذه الدراسة ، حيث تداخلت الاختصاصات التي رفدت النظر والتحليل فيها ، فنهلْتُ من كتب التفسير ، وعلوم القرآن ، والإعجاز ، وأصول الفقه ، والبلاغة ، والمنطق ، والدلالة ، وغيرها .

والاستفادة من هذه المجالات لا يعني غياب هُويّة البحث بوصفه بحثاً لغوياً نصياً ؛ لأنّ محور النظر الذي استقطب الآراء هو الظاهرة اللغوية .

والمع في نهاية تلك الأمور إلى أنّ الاعتماد على نحو النصّ لا يلغي الاعتماد على معطيات نحو الجملة ، إذ إنه من المقرر أنّ نحو الجملة يشكّل جزءاً جوهرياً من نحو النصّ . فالجملة هي النواة الأساسية للنصّ ، فلا نصّ من دون جملة ، وهو ما دفعني إلى

تناول الظواهر التي تخصّ نحو الجملة بوصفها محطة انطلاق الناقد إلى فضاء أوسع وهو النصّ .

منهج البحث :

أما المنهج الذي اعتمدت عليه في الدراسة فهو المنهج الوصفي ، من دون تجاهل للمستوى الدلالي والأسلوبي والتداولي، فاللغة عندما تعمل تكون هذه المستويات مندمجة ببعضها . كما لجأت إلى المنهج الإحصائي والتحليلي في إحصاء بعض الأدوات الإحالية ثم تصنيفها وتحليلها بهدف الكشف عن آليات التماسك النصي ووظائفه . وقمت باستقراء العناصر الإحالية وأنواع الإحالة وأدواتها ووظائفها، وتحديد المقولات والمصطلحات لوصف الظواهر التي وقفت عليها. فدراسة أي ظاهرة لغوية من منظور نحو النص تسعى غالبًا إلى تجريد قواعد تبين كيفية تشكيل النصوص . كما عانيت بالجانب التنظيري لنظرية الإحالة وأدواتها، فأوردت آراء علماء النص الغربيين وقابلت بين مناهجهم ونظرياتهم مع ما ورد في كتب التراث النحوي العربي، ويظهر ذلك جليًا في أثناء حديثي عن وظائف الأدوات الإحالية .

الأبحاث السابقة والمثابرة :

لم أقف على بحثٍ خاصّ بدراسة الإحالة في القصة القرآنية من خلال المنهج النصّي - بحسب اطلاعي - ، ولكن هناك بعض الأبحاث التي تناولت عنصر الإحالة، وسارت في منحى آخر غير الذي سلكته ، أذكر من ذلك ما يأتي :

١ - الإحالة وأثرها في دلالة النصّ ، د. محمد محمد يونس علي .

وهو بحث يقع في ٣٩ صفحة، نُشر في مجلة الدراسات اللغوية، الصادرة عن مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث، مج ٦، ع ١، ٢٠٠٤ م .

ابتدأ فيه الباحث بمقدمة عن علم تحليل الخطاب وازدهاره في الغرب في الربع الثالث من القرن العشرين ، ثم عرض فيها لمفهوم الإحالة باختصار ، أعقبها بذكر أنواع الإحالة ، واقتصر على أربعة أنواع فقط ، هي : الإحالة الشخصية ، والإحالة الإشارية ، والإحالة بأداة التعريف (أل) ، والإحالة بالمقارنة . ثم جاء بخاتمة فيها عرض موجز لما قدّمه في بحثه .

وقد تنوعت أمثله وشواهد ما بين النصوص القرآنية ، واللغة الإعلامية ، وبحثه أقرب إلى الاتجاه التقليدي منه إلى الدرس الحديث ، وغلبت عليه دراسة الإحالة في حدود الجملة أو الجملتين ، ولم يكثر من الأمثلة النصية .

وأستطيع القول : إنّ البحث مفيد في عرضه لبعض الجوانب النظرية لعنصر الإحالة ، لكنه يفتقر إلى الجانب التطبيقي النصّي الذي يرسخ ويؤكد في الوقت نفسه ما ذهب إليه في الجانب النظري .

٢ - الإحالة في نحو النصّ دراسة في الوظيفة والدلالة ، د. أحمد عفيفي .

وهو بحث يقع في ٣٥ صفحة ، نُشر ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية في جامعة القاهرة ، ٢٠٠٥ م .

ابتدأ فيه الباحث بتمهيد مقتضبٍ عن الاتساق النصّي ووسائله التي منها الإحالة ، دلف من بعدها إلى بيان معنى الإحالة ، ثم عناصرها ، ثم وسائلها ، وبعض قضاياها .

وتنوّعت أمثله ما بين آية قرآنية ، وحديث نبوي ، وخطاب إعلامي ، وبحثه مغاير في طريقة طرحه وتناوله عن البحث السابق (د. محمد يونس) ، لكنّه تميّز في عنايته بالجانب التطبيقي ، إذ كانت دراسته للإحالة من خلال مجموعتين قصصيتين ، إحداهما : (البحث عن قطعة صابون) ، لأحمد الزعبي ، والأخرى : (قبل أن تنطفئ النار) لإبراهيم سعفان .

وهو بحث مفيدٌ ، ولكنه يبيّن الاقتضاب ، وسطحيّ التناول لجانب الدلالة وباقي جوانب الإحالة ، إذ اكتفى - غالباً - بالوصف ، ولم يتعمّق في الكشف عن أسرار الإحالة في هاتين المجموعتين القصصيتين اللتين تناولهما .

وقد ختم بحثه بخاتمة لا تتجاوز نصف الصفحة ، خلاص فيها إلى أنّ الإحالة قضية مهمة من قضايا نحو النصّ ... ومن هنا فهي في حاجة ضرورية إلى كثير من التطبيقات على القرآن الكريم ، ونصوص الشعر العربي ، قديمه وحديثه ، لتظهر لنا دقائقها وأسرارها في أشكالها وتقسيماتها المتنوعة .

ورأى الباحث أنّ بحثه الذي كتبه في عُجالة من أمره لا يستطيع أن يقدم كلّ ما يتّصل بالإحالة من معلومات ، ودعا إلى خوض هذا الموضوع من قبل الباحثين قائلًا : « وربّما كان هذا البحث بداية لبحوث أخرى عن الإحالة أكثر شمولاً وأغزر تطبيقاً » . ولأجل ما سبق ، عزمْتُ فتوكّلتُ على الله ، وشمّرتُ عن ساعد الجدِّ لخوض تلك الدراسة ، سائلًا المولى التوفيق والسداد .

هيكل البحث :

هذا، وقد انتظم عقد بحث (الإحالة وأثرها في تماسك النص في القصص القرآني) في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ، على النحو الآتي :

الفصل الأول : (علم اللغة النصي) .

هو مدخل تمهيدي إلى المنهج النصي الذي اعتمدته في هذه الدراسة، بينت فيه أهم مرتكزات (علم اللغة النصي) أو (لسانيات النص) من خلال مباحث ثلاثة:

المبحث الأول : (مفهوم النص لغة واصطلاحًا) . تحدّث فيه عن مفهوم النص في الثقافة العربية والدراسات الأجنبية .

المبحث الثاني : (نحو النص) . بيّنت فيه مفهوم نحو النص ونشأته ووظيفته .

المبحث الثالث : (التماسك النصي) . وضّحت فيه مفهوم التماسك، ومظاهر العناية به، في الدراسات اللغوية التراثية والحديثة، وذكرت فيه أبرز أدوات التماسك الشكلية والدلالية .

الفصل الثاني : (الإحالة : وظيفتها وأنواعها وأثر السياق فيها) ، وبنيت على أربعة مباحث :

المبحث الأول : (مفهوم الإحالة لغة واصطلاحاً) .

المبحث الثاني : (وظيفة الإحالة) .

المبحث الثالث : (أنواع الإحالة) .

المبحث الرابع : (أثر السياق في دراسة الإحالة في القصة القرآنية) . وهو مدخل نظري إلى نظرية السياق : ماهيته ، وخصائصه ، وعناصره ، وأثره في تماسك النص ، وأثر السياق في فهم الإحالة، ذيلته بأمثلة تطبيقية على السياق القصصي في النص القرآني .

الفصل الثالث : (أدوات الإحالة) ، هو الفصل الأخير في هذا البحث ، تحدّث فيه عن أبرز أدوات الإحالة النصية ، وقد خصصتُ مبحثاً لكل أداة ، صدرتها بتمهيد ، ثم عرض نظري لمعنى الأداة ووظائفها اللغوية ثم جلوتها بأمثلة تطبيقية . وكان ذلك في ستة مباحث :

المبحث الأول : (الإحالة بالضمير) . المبحث الثاني : (الإحالة باسم الإشارة) .

المبحث الثالث : (الإحالة بالاسم الموصول) . المبحث الرابع : (الإحالة بالتكرار) .

المبحث الخامس : (الإحالة بأل التعريف) . المبحث السادس : (الإحالة باللفظ الواسف) .

بعد ذلك يأتي دور الخاتمة ، وفيها أبرز النتائج التي عالجها الباحث .

ثم المحتوى بأقسامه المتنوعة : (الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأشعار ، والمصطلحات العلمية ، والمراجع والمصادر ، والموضوعات) .

شكرو عرفان :

وفي نهاية المطاف لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر والثناء على العلامة المعطاء سعادة الأستاذ الدكتور محمود العباسي حفظه الله ، الذي شرفت برعايته لهذه الأطروحة بخطى وثيقة ، منذ أن كانت بذرة حتى أصبحت شجرةً باسقة ، وقد كان حريصاً أشد الحرص على أن تكون هذه الأطروحة مميزة في كل جوانبها ، وأن تقدم جديداً في مجال الدراسات النصية ، ولم يأل جهداً في توجيهي وإرشادي ، وقد نهلت من معين علمه وخلقه ، حتى غدت لمساته واضحة في هذه الدراسة ، وقد شملني برعايته وعلمه وخلقه ، وذلك ليس بمستغرب على العلماء الأجلاء ، أسأل الله عز وجل أن يحفظه ويمجزه كل خير .

كما أشكر الدكتورة ذكرى القبيلي ، المشرف المشارك على هذه الأطروحة ، لما لمست منها من حسن المتابعة والتوجيه ، فقد كان للملاحظات أثر طيب في هذا البحث فجزاها الله خيراً .

ولا أنسى كذلك أستاذي الدكتور محمد الخري المشرف المشارك السابق على هذه الرسالة، فقد أسدى إليّ كثيراً من الملاحظات في الفصول الأولى من البحث قبل أن تحوّل الظروفُ بينه وبين هذه الأطروحة ، فشكري له وامتناني ، حفظه الله أينما حلّ وارتحل .

وأقدم بخالص الشكر والعرفان إلى أساتذتي الكرام أعضاء لجنة الحكم والمناقشة :
الأستاذ الدكتور عدنان الدوري والأستاذ الدكتور عبد الله الهنادوة حفظهما الله على
تفضلهما بقبول مناقشة هذا البحث .

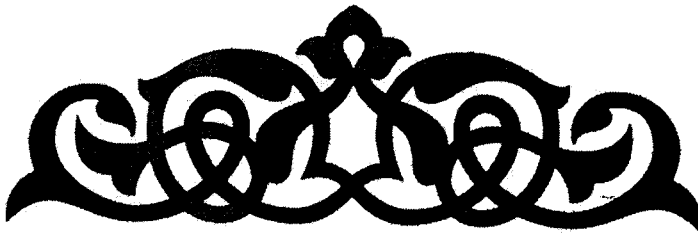
وكلُّ عبارات الشُّكر والوفاء تتقاصرُ حيَّاءَ دونَ مقام من أَمَرَ الله بشكرهما حيث
قال : ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذِيكَ﴾ لقمان: ١٤ ، فقد كان لمتابعتيها - أطال الله بقاءهما - دورٌ
كبير في رعاية هذه الأطروحة من بدئها إلى منتهاها ، وأخصَّ سيدي ووالدي الأستاذ
الدكتور محمود فجَّال ، الذي أحاطني بعنايته ورعايته منذ نعومة أظفاري ، وأغدق عليَّ
من علمه وعطائه ، أمدَّه الله بسحائب آلائه ونعمائه .

وأشكُرُ كلَّ من قدَّم لي يدَ العونِ والمساعدة في إنجازِ هذا البحث ، جامعةَ صنعاء ،
في بلد الإيمان والحكمة والعطاء ، ممثلةً في نيابة الدراسات العليا ، وأشكُرُ كليةَ اللغاتِ
ممثلةً في عميدها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن عبد ربه حفظه الله ، وقسمَ اللغة العربية
والترجمة ممثلاً في رئيس القسم وسائر أساتذتي الأجلاء .

أسألُ اللهَ الكريمَ في عملي هذا التوفيقَ والسَّدادَ ، والهدايةَ إلى سُبُلِ الحقِّ والرَّشادِ ،
كما أسأله السلامةَ من الزلزلِ والخطَلِ ، في القولِ والعملِ ، إنَّه نعم المولى ونعم النصير .

د . أنس بن محمود فجَّال

١٥ / جمادى الآخرة / ١٤٣٠ هـ



إِفْضِيلُ الْأَوَّلِ
عِلْمُ اللِّغَةِ النَّصِي



المبحث الأول مفهوم النص لغةً واصطلاحاً

١. النص لغة :

تدورُ معاني النص في اللغة العربية حول معنيين اثنين ، يندرج تحتها معاني متعددة :
الأول : الرفع ، أو الارتفاع . الثاني : منتهى الشيء ومبلغ غايته .

ويندرجُ تحتَ المعنى الأول (الارتفاع) بعضُ المعاني ، منها ^(١) :

١ - الظهور أو الإظهار ؛ لعلاقة التلازم بين الارتفاع والظهور ، فكل مرفوع ظاهر ، ولأجل هذا الظهور قيل : نصُّ الكتاب والسُّنة ، أي ما دلَّ عليه ظاهرُ لفظهما .

٢ - التعيين ، فكلُّ شيءٍ رفعته فقد أظهرته وعيّنته .

٣ - حركة البعير إذا نهَضَ من الأرض ؛ لأنه يرفع رقبته وقوامه .

٤ - ما أقبل على الجبهة من الشعر ؛ لأنه في مكان رفيع .

(١) انظر هذه المعاني في «مجمَل اللغة» (نص) ٢ : ٨٤٣ ، و«لسان العرب» (نصص) ٧ : ٩٧ -

٩٩ ، و«تاج العروس» (نصص) ٤ : ٤٤٠ .

- ٥ - الاستواء والاستقامة ؛ لأنَّ فيها رفعًا للظهر والعُنُق .
- ٦ - تحريك اللسان ؛ لارتفاعه وهبوطه في الفم ، أو لرفع الصَّوت به .
- ٧ - الإسناد إلى القائل ؛ لأنَّ الإسناد رفعٌ معنويٌّ ، وقد سَمِيَ الحديثُ إذا عُرِيَ إلى النبي ﷺ مرفوعًا . ومنه قول طرفة بن العبد ^(١) :
- وَنُصَّ الحديثَ إلى أهله فإنَّ الوثيقةَ في نصِّه
- ٨ - جعل المتاع بعضه فوق بعض ؛ لما فيه من الارتفاع .
- ٩ - جعل العروس على المنصَّة ؛ لترتفع فُتْرى من بين النساء .
- ويندرج تحت المعنى الثاني (منتهى الشيء وغايته) بعضُ المعاني التي تطوَّرت عنه ،
منها :
- ١ - السير الشديد والحثُّ ؛ لأنَّه منتهى سرعة الناقة ، وأقصى ما تقدَّر عليه .
- ٢ - شدَّة الأمر .
- ٣ - السؤال المستقصي ؛ لأنَّه يستخرجُ منتهى الإجابة ^(٢) .
- ٤ - نقاشُ الرجلِ غريمه ؛ لأنَّه يحاوره ويستقصي عليه في السؤال . ومنه ما روي عن كعب رضي الله عنه أنَّه قال : « يقول الجبار : احذروني ، فإنِّي لا أناصُّ عبدًا إلَّا عَذَّبْتُهُ » . أي لا أستقصي عليه في السؤال والحساب إلَّا عَذَّبْتُهُ ، وهي مفاعلةٌ من النَّصِّ ^(٣) .

(١) « شرح ديوان طرفة بن العبد » ، د. سعد الضناوي ، ١٧١ .

(٢) انظر « قراءة نقدية في مصطلح النص في الفكر الأصولي » ، لأيمن علي صالح ، ٥١ .

(٣) « تاج العروس » (نصص) ٤ : ٤٤٠ .

ويرى الزنجشيري أن المعنى الرئيس للنص هو (الرفع والانتصاب) ، وما سوى ذلك المعنى هو من باب المجاز^(١).

ويعدّ مصطلحُ (المتن) المقابل للإسناد عند علماء مصطلح الحديث هو أقرب المصطلحات عند القدماء إلى (النص)^(٢).

ويمكننا القول استنادًا إلى قانون تطوّر الألفاظ من الدلالة على المحسوسات إلى الدلالة على المعنويات : إنّ المعنى الأوّل وهو (الرفع) أسبق إلى الوجود من المعنى الثاني وهو (منتهى الشيء) ؛ لأنّ الأوّل من خلال الأمثلة أكثر حسّية من الثاني .

ولا يبعدُ الدّمجُ بين هذين المعنيين في معنى واحدٍ ، وهو (رفعُ الشيء إلى أقصى غاياته) ، أي أنّ النصّ في أصله اللغوي لم يكن يعني رفعًا مجردًا ، وإنّما رفعًا مخصوصًا بكونه بلغ الغاية^(٣).

لذا قال الباجي في تعريف النصّ : « هو ما رُفِعَ في بيانه إلى أقصى غاياته »^(٤).

وهذا ما أكّده ابنُ فارس - من قبل - بقوله : إنّ النون والصاد أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على رفعٍ وارتفاعٍ وانتهاءٍ في الشيء^(٥).

(١) « أساس البلاغة » (نصص) ٦٣٥ - ٦٣٦ .

(٢) أشار إلى ذلك هانز فير في « معجم اللغة العربية المعاصرة » (مت) ٨٩٠ .

(٣) انظر « قراءة نقدية في مصطلح النص في الفكر الأصولي » ٥١ .

(٤) « الحدود في الأصول » ٤٢ .

(٥) « معجم مقاييس اللغة » ٥ : ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

الربط بين المعنى اللغوي للنص والمعنى الاصطلاحي :

إن تأملنا ما أورده اللغويون القدامى حول دلالات مادة (ن ص ص) واشتقاقاتها نستطيعُ الربطَ بينها وبين المعاني الاصطلاحية التي أوردها اللغويون المحدثون في تعريفهم للنص :

١ - ف (منتهى الشيء وغايته) هو صفة من صفات النص كما جاء في تعريف درسلر (R.Dressler) إذ يرى أن النص هو : « القول اللغوي المكتفي بذاته والمكتمل في دلالاته » ^(١) ، فتمام المعنى الذي قصده درسلر يشير إلى المعنى اللغوي السابق (منتهى الشيء وغايته) .

٢ - و (السير الشديد والحث) هو تتابع الخطأ التي ابتدأت من مكان وتنشُد غايةً معينة ينتهي عندها السير ، وهذا التابع هو صفة من أهم صفات النص كما جاء في تعريف كلاوس برينكر (H. Brinker) ، الذي يرى أن النص هو : « تتابع متماسك من الجمل » ^(٢) ، وكما جاء في تعريف زليج هاريس (Z. S. Harris) بأنه : « تابع من جمل كثيرة ذات نهاية » ^(٣) ، وفي تعريف أديث كرزويل بأنه : « الطريقة التي تشكّل بها الجمل نظامًا متتابعًا تُسهّم به في نسق كلي متغاير ومتّحد الخواص ... » ^(٤)

(١) « علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات » د. سعيد بحيري ، ٩٦ .

(٢) « التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج » لكلاوس برينكر ، ترجمة : د. سعيد بحيري ، ٢٤ . و « انظر علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات » ٩٦ .

(٣) « مدخل إلى علم لغة النص مشكلات بناء النص » لزيسيلاف واورزنيك ، ترجمة : د. سعيد بحيري ، ٥٤ .

(٤) « عصر البنيوية » أديث كرزويل ، ترجمة : جابر عصفور ، ٣٧٩ .

وغيرهم^(١). وهذا التابع الجُملي مع الوحدة الموضوعية يشيرُ ويلمَحُ إلى المعنى اللغوي السابق وهو (السير الشديد) وما فيه من تابع الخطأ نحو غاية معيَنة .

٣ - (و) جعل الشيء بعضه فوق بعض) مع ما في هذا الجعل من الصفِّ والتراصِّ والتضامِّ والتلاحم والترايط والتماسك .

وهذه المعاني هي من أهم صفات النص ومقوماته ، كما جاء في أحد تعريفات كلاوس برينكر ، أنَّ النصَّ «مجموعة منظَّمة من القضايا أو المركبات القضوية تترايط بعضها مع بعض على أساس محوريٍّ موضوعيٍّ ، أو جملة أساس ، من خلال علاقات منطقية دلالية»^(٢) ، وكما جاء في أحد تعريفات هارفج (R. Harweg) للنص بأنَّه : « ترابطٌ مستمرٌّ للاستبدالات الستجميمية التي تظهر الترابط النحوي في النصَّ »^(٣) ، أو تعريف هلبش : « النصُّ هو تتابعٌ متماسك من الجمل على نحوٍ أدقٍّ من الوحدات النصيَّة »^(٤) ، أو تعريف إيزنبرج (Isenberg) هو: « تتابع من الجمل يترابط من خلال وسائل التنصيص »^(٥) .

(١) كما في تعريف هارفج : « تتابع لوحداث لغوية بُنيَّ من خلال تسلسل ضميري متصل » انظر

« أساسيات علم لغة النص » ١٣٦ ، وتعريف هلبش وبليرت (Bellert) وإيزنبرج وغيرهم .

انظر « مدخل إلى علم لغة النص مشكلات بناء النص » ٥٤ - ٥٥ .

(٢) « علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات » ١٠١ .

(٣) « علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات » ٩٩ . وانظر « أساسيات علم لغة النص » ١٣٦ .

(٤) « مدخل إلى علم لغة النص مشكلات بناء النص » ٥٤ .

(٥) « مدخل إلى علم لغة النص مشكلات بناء النص » ٥٤ .

- ٤ - أما (التحريك والنقاش) ، فهو صفة من أهم صفات النص ، فالنص حوارٌ بالدلالة^(١) . وفي المناقشة والحوار استخراج للرأي وإحضاره .
- ٥ - و(إذا كانت العروس تُنصّ على المنصّة لِتُرى في أبي حُلّة) ، فكذا شأن النصّ الذي لا يُخرجه صاحبه إلى الناس إلّا بعد أن تكتمل فيه عناصر الإبداع والجمال ، ومن هنا كانت (الحوليات) في الشعر الجاهلي^(٢) .
- ٦ - و(التعيين) وما فيه من معنى (التحديد) هو أحد المكونات الثلاث للنصّ عند لوتمان (L. Lotman) وهي : التعبير ، والتحديد ، والخاصية^(٣) .
- ٧ - و(الرفع والإسناد إلى القائل) يشير من خلال الإطار التداولي إلى أنّ النصّ يُرفع إلى منشئه ، ممّا يُفسّر العلاقة المتينة بين النصّ وصاحبه^(٤) .
- ٨ - و(الإظهار) يشير إلى أنّ النصّ له بدايةً ونهايةً تفهمان من بروزه وظهوره ، ولا يُمكن أن يُدرَس نصٌّ إلّا إذا كانت له بداية ونهاية^(٥) .

(١) انظر « النصّ لغةً واصطلاحاً » لخليل موسى ، جريدة الأسبوع الأدبي ، ع ٨٢٣ ، سنة ٢٠٠٠ م .
 (٢) انظر « النصّ لغةً واصطلاحاً » لخليل موسى ، وانظر « نحو لسانيات نصيّة عربيّة مقاربة في مفهوم النص والتماusk النصّي » ، لعمران رشيد ، بحث منشور في شبكة المعلومات (موقع رابطة أدباء الشام) .

(٣) انظر تعريف (لوتمان) في : « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ١٠٥ .

(٤) انظر « المداخلة وإشكالاتها النصيّة » د. جمعان عبد الكريم ، ٨ .

(٥) انظر « المداخلة وإشكالاتها النصيّة » ٨ .

ويمكن التوسّل بها سبق في فهم إجراء (النصّ) في الاصطلاح على كائن لغوي ، فهو يُطلَق على ما يَظْهَرُ به المعنى ، أي : الشكل الصوتي المسموع من الكلام ، أو الشكل المرئي منه عندما يترجم إلى المكتوب .

وهذا الشكل الصوتي يمثّل آخر طور يبلغه الكلام في تولّده (البنية السطحية) . إذ ينطلق تركيب الملفوظ من الأساس (Base) حيث تجتمع العناصر المقولية (Catégories) بالصيغ الصرفية الحاصلة في المعجم (Lexicon) ، ثمّ تنتظمها القواعد التركيبية في بنية تطابقها بنية دلالية (البنية العميقة) ، ثمّ تجري على هذه البنية تحولات (Transformations) تأخذ بعدها شكلاً صوتياً هو ما يمثّل حدثاً يُسمع ويُنقل عن طريق قناة ما^(١) .

مفهوم النصّ في الثقافة العربية :

لم يخلُ التراث العربي من استخدام مصطلح (النص) ، ويظهر لنا ذلك جلياً في أعظم علم أنتجته الثقافة العربية الإسلامية (علم أصول الفقه) ، إذ نجد تطبيقات نصيّة مبكرة وراقية ، تجاوزت إطار التحليل على مستوى الجملة .

ومع ذلك فإننا لم نجد اتفاقاً بين العلماء على دلالة هذا المصطلح ، بل تفاوت استخدام الأصوليين له على مستويات مختلفة .

(1) Chomsky N. 1981, lectures on Government and Binding, Dordrecht, Foris. P: 5. وانظر « نسيج النصّ » ١٢ .

ولعلَّ الإمامَ الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) (مؤسَّس علم الأصول) مِنْ أوائلِ مَنْ تَطَرَّقَ إلى هذا المصطلح ، حيث ذَكَرَ أَنَّ النَّصَّ : « ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه ، فلم يحتج مع التنزيل فيه إلى غيره »^(١) .

ويندُر في لغةِ الشافعي استخدامُ لفظ (النص) مجرَّدًا ، بل يغلب عليه إضافته ، نحو : نصَّ الكتاب و نصَّ السنَّة و نصَّ التنزيل و نصَّ الخبر .

كما نجدُه يقابل بين : (النص والدلالة) أو (النص والجملة) أو (النص والاستنباط) أو (النص والقياس) أو (النص والسنَّة)^(٢) .

(١) « الرسالة » للشافعي ، ٣٢ .

(٢) أمَّا مقابلته بين (النص والدلالة) فقد قال في القرآن : إِنَّ اللَّهَ « يَبَيِّنُ فِيهِ مَا أَحَلَّ وَمَا حَرَّمَ وَمَا حُدِّمَ وَمَا ذَمَّ وَمَا يَكُونُ عِبَادَةً وَمَا يَكُونُ مَعْصِيَةً ، نَصًّا أَوْ دَلَالَةً » . « أحكام القرآن » للشافعي ، ١ : ١٨ ، وقوله : « قلت للشافعي : وهكذا نصُّ السنَّة ؟ قال : لا ، ولكن هكذا دلالتها » « الأم » للشافعي ، ٤ : ٧٢ . وأمَّا مقابلته بين (النص والجملة) - بمعنى المَجْمَل - فقد قال في السنَّة : « إِنَّمَا هِيَ تَبَعٌ لِلْكِتَابِ بِمِثْلِ مَا نَزَلَ نَصًّا ، وَمَفْسَّرَةٌ مَعْنَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْهُ جَمَلًا » « أحكام القرآن » ١ : ٣٣ . وقال : « أصل التحريم نصُّ كتابٍ أَوْ سُنَّةٍ ، أَوْ جُمْلَةٍ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ أَوْ إِجْمَاعٍ » « الأم » ٢ : ٢٤٧ . وأمَّا مقابلته بين (النص والاستنباط) فقد قال في القرآن : « حَقٌّ عَلَى طَلِبَةِ الْعِلْمِ بُلُوغُ غَايَةِ جَهْدِهِمْ فِي الْاِسْتِكْثَارِ مِنْ عِلْمِهِ وَالصَّبْرُ عَلَى كُلِّ عَارِضٍ دُونَ طَلِبِهِ ، وَإِخْلَاصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ فِي اسْتِدْرَاكِ عِلْمِهِ نَصًّا وَاسْتِنْبَاطًا » « أحكام القرآن » ١ : ٢١ . وأمَّا مقابلته بين (النص والقياس) فقولُه : « لَمَّا كَانَ الْأَقْرَبُونَ وَرَثَةً وَغَيْرُ وَرَثَةٍ ، أَبْطَلْنَا الْوَصِيَّةَ لِلْوَرَثَةِ مِنَ الْأَقْرَبِينَ ، بِالنَّصِّ وَالْقِيَاسِ » « الأم » ٤ : ١١٣ . وأمَّا مقابلته بين (النص والسنَّة) ، فقد قال : « وَنَحْنُ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ جَائِزًا لَنَا فِيمَا لَيْسَ فِيهِ نَصٌّ وَلَا سُنَّةٌ أَنْ نَقُولَ فِيهِ بِالْقِيَاسِ » « الأم » ٧ : ٢٨٤ . وهو في كُلِّ هذه المواطن يعني بـ (النص) : الخطاب الشرعي ذا الدلالة الواضحة . وانظر « قراءة نقدية في مصطلح النص في الفكر الأصولي » ٥٤ .

وقد مرّ اصطلاح النصّ في علم أصول الفقه بمراحل ثلاث :

الأولى : في بداية نشأة هذا الاصطلاح أطلق (النصّ) على اللفظ أو الخطاب واضح الدلالة أو الظاهر ، سواء أكان قطعياً أم ظنيّاً . ويدلّ على هذا الاستخدام ما جاء في لغة الإمام الشافعي ، وقد سبق بيانه . ولعلّ هذا الاصطلاح هو الذي شاع في لغة المتقدمين من الأصوليين .

الثانية : في النصف الأخير من القرن الرابع الهجري نشأ إلى جوار استخدام مصطلح (النص) بمعنى (الواضح) استخدام آخر خاصّ بنوع واحد من الواضوح ، وهو : الواضح الذي بلغ الغاية التي لا مزيد عليها ، وهي (القطع) .

ومن هنا نشأ استخدام النصّ بمعنى اللفظ غير القابل للاحتمال ، كأسماء الأعداد وأسماء الأعيان ، وهو ما نجده عند الجصاص (ت ٣٧٠ هـ)^(١) .

كما نجد أنّ أبا حاتم المروزي (ت ٣٦٢ هـ) يُعرّف النصّ أنّه : (ما عرّي لفظه عن الشّرْكة ، وخلص معناه من الشبهة)^(٢) . ووجدنا أبا علي الطبري (ت ٤٠٠ هـ) يقول بـ (عزّة النصوص)^(٣) وندرة وجودها ، ثم فشا هذا المصطلح على يد الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) ومن بعده .

(١) انظر أيضًا « المعونة في الجدل » للشيرازي ، ١٢٨ .

(٢) نقله عنه الزركشي في كتابه « البحر المحيط في أصول الفقه » ١ : ٤٦٤ ، وقال : « حكاه القاضي أبو الطيب وابن الصباغ » .

(٣) « البحر المحيط » للزركشي ، ١ : ٤٦٣ . وانظر « قراءة نقدية في مصطلح النص في الفكر الأصولي » ٥٤ .

الثالثة : استخدام النص بمعنى الخطاب الشرعي من كتاب أو سنة بغض النظر عن دلالة .

ويرى د. نصر أبو زيد أنه اصطلاح حديث ومعاصر لم يكن يعرفه الأسلاف ، قال : « وإذا كنّا لا نجزم يقيناً بكيفية التحوّل الدلالي الذي حدث للدالّ (نص) ، فلعلّ فيما يذكره ابنُ خلدون (ت ٨٠٨ هـ) عن المشتغلين بالفلسفة أنّهم كانوا يطلقون على كتاب المنطق لأرسطو اسم (النص) ما يساعدنا قليلاً على استشفاف جذور التحوّل » ^(١) .

وقال في دلالة (النص) على معنى اللفظ الواضح : « ظلّت تلك الدلالة الاصطلاحية هي السائدة في الخطاب العربي حتى القرن السابع الهجري » ^(٢) .

ويخلو هذا الرأي من الدقة التاريخية ؛ لأنّ الأصوليين استخدموا النصّ بهذا المعنى من أواسط القرن الخامس الهجري على الأقل ، بل إنّ بعضهم عرّفه كابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) حينما قال : « النصّ هو اللفظ الوارد في القرآن أو السنّة ، المستدلّ به على حكم الأشياء » ^(٣) ، والغزالي (ت ٥٠٥ هـ) حينما قال : « وأشرنا بالنصّ إلى الكتاب والسنّة » ^(٤) .

(١) « النص ، السلطة ، الحقيقة » لنصر حامد أبو زيد ، ١٥٨ .

(٢) « النص ، السلطة ، الحقيقة » ١٥٣ - ١٥٤ .

(٣) « الإحكام في أصول الأحكام » لابن حزم ، ٤٣ .

(٤) « المنحول في تعليقات الأصول » لأبي حامد الغزالي ، ٤٦٣ .

اتّضح لنا مما سبق أنّ النّصّ في اصطلاح الأصوليين ورد بمعانٍ مختلفة تعكس مستويات دلالية متفاوتة ، تحددها درجة الظهور أو الخفاء في النّصّ ، ونجمل تلك المعاني في الآتي^(١):

١- عبارة النّصّ : يطلق على المعنى الحرفي للنص ، أي المعنى الذي يتبادر من خلال الصيغ التي تُكوّن مفردات النّصّ وجمله ، فهو المعنى الظاهر الذي يبرز سطحياً في النّصّ .

٢- إشارة النّصّ : هو المعنى الذي لا يتبادر فهمه من ألفاظه ، ولا يقصدُ من سياقه ، ولكنه معنى لازم للمعنى المتبادر من مقصود السياق .

٣- دلالة النّصّ : هو ما يفهم من روح النّصّ ومعقوله .

٤- اقتضاء النّصّ : هو المعنى الذي لا يستقيم الكلام إلا بتقديره .

ويفهم منها أنّهم يطلقون تلك الاصطلاحات على كلّ ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب والسنة ، سواء أكان ظاهراً أم نصّاً أم مفسّراً ، أي إنّ كلّ ما ورد عن صاحب الشرع فهو نصّ^(٢) .

ويبدو أنّ الدلالة كانت المعيارَ الوحيدَ الذي احتكم إليه الأصوليون لأوّل وهلة ، ولكن تلك الدلالة تكون مرتبطة باللفظ المركّب سواء أكان منطوقاً أم مكتوباً .

(١) انظر « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوي ، ٤ : ٢٢٦ ، وانظر « نحو لسانيات نصيّة عربيّة »

لعمران رشيد ، بحث منشور في شبكة المعلومات (موقع رابطة أدباء الشام) .

(٢) « التّصوّر اللغوي عند الأصوليين » للسيد أحمد عبد الغفار ، ١٤٦ .

ويُجَلِّي د. نصر أبو زيد نظرة الأصوليين إلى (النص) جاعلاً (النص) جزءاً من العلاقة بين المنطوق اللفظي والدلالة ، ثم يقول في ذلك : « النص هو الواضح وضوحاً بحيث لا يحمل سوى معنى واحد ، ويقابل (النص) (المجلد) الذي يتساوى فيه معنيان يصعب ترجيح أحدهما ، ويكون (الظاهر) أقرب إلى النص من حيث إنّ المعنى الراجع فيه هو المعنى القريب .. »^(١).

مفهوم النص في الدراسات الغربية :

النص علامة كبيرة ذات وجهين : وجه الدال ، ووجه المدلول . ويتضمن مصطلح (نص) في العربية و (Text) في الغربية معنى (النسيج)^(٢).

والنص في المعجم الفرنسي (texte) مأخوذ من مادة (textus) اللاتينية ، التي تعني (النسيج) (Tissue) ، وتطلق كلمة (texte) على الكتاب المقدس ، أو كتاب القديس ، وتعني منذ العصر الإمبراطوري ترابط حكاية أو نص ، والنص منظومة عناصر من اللغة أو العلاقات ، وهي تشكل مادة أو إنتاجاً شفهياً كتابياً .

ونلاحظ في المعنى اللغوي لكلمة (texte) أنّها تدلّ دلالة صريحة على التماسك والترابط والتلاحم بين أجزاء النص ، وذلك من خلال معنى كلمة (النسيج) التي توحى بسلسلة من الجمل والملفوظات المنسوجة بنيوياً ودلالياً ، وتشكل وحدة بفعل تماسكها اللساني والدلالي^(٣) ، كما تشير إلى الانسجام والتضام والتماسك بين مكونات

(١) « مفهوم النص دراسة في علوم القرآن » د. نصر حامد أبو زيد ، ١٨٠ .

(٢) انظر « لسان العرب » (نصص) ، و (Encyclopedia Universalis) مادة (Text) .

(٣) انظر « النص بوصفه إشكالية راهنة في النقد الحديث » فاضل ثامر ، مجلة الأقلام ، ع ٣ ، ٤ ،

١٩٩٢ م ، ص ١٦ .

الشيء المنسوج مادياً ، كما تُشير معنوياً إلى علاقة الترابط والتماسك من خلال حبك أجزاء الحكاية .

ونرى من خلال ما سبق أنّ كلمة (نصّ) في التعريف الفرنسي أقرب في الدلالة على مفهوم التماسك النصّي ، فهي تدلّ على الترابط بين أجزاء الحكاية .

وكلمة (النسيج) - المقابل المعجمي لمادة نصّ - في أبسط معانيها تدلّ على الانسجام والتماسك والترابط والتناسق بين خيوط المنسوج ، ذلك المنسوج الذي يُشكّل قيمةً فنيةً ترتفعُ جماليّتها كلّما ازداد تماسك خيوطها ^(١) .

« فالنصّ نسيجٌ من الكلمات يترابط بعضها ببعض ، هذه الخيوط تتجمّع عناصره المختلفة والمتباعدة في كلّ واحدٍ هو ما يُطلق عليه مصطلح (نصّ) . وقد قامت علومٌ عديدة ومناهج كثيرة للبحث في هذا الترابط ، وتعددت هذه العلوم منذ أقدم العصور وتقاطعت مناهجها بحكم التقائها في موضوع بحث واحد هو (النصّ) . ثمّ تفرّدت به اللسانيات في زمن متأخّر جداً بالقياس إلى قدم المعارف البشرية ، وهذا التفرّد نفسه مرّ بمراحل عديدة ، عند كلّ واحدة منها يقوم حدّ بين تلك العلوم المشتركة في النصّ » ^(٢) . وذلك ما جعل رولان بارت يعرف نظرية النصّ بأنها : « علم صناعة نسيج العنكبوت » ^(٣) .

نخلص من خلال ما ورد في المعجمات القديمة والحديثة إلى أنّ الدلالات الحديثة لمصطلح النصّ لم تكن غائبة عن المعجم العربي ، وهي تلتقي أيضاً مع دلالة المصطلح في

(١) انظر « نحو لسانيات نصيّة عربية » لعمران رشيد ، بحث منشور في شبكة المعلومات .

(٢) انظر « نسيج النص » ١٢ .

(٣) انظر « لذة النص » رولان بارت ، ترجمة : د. منذر عياشي ، ١٠٤ .

اللاتينية التي تشير إلى معنى بلوغ الغاية والاكتمال في الصنع ، وهذا المعنى لا بد أن ينقل إلى النصّ الأدبي الذي ينبغي أن ينماز عن النصّ العادي ^(١) .

ب . مفهوم النصّ اصطلاحاً :

إنّ الاتفاق على مفهوم محدّد للنصّ أمرٌ لا يمكن الوصول إليه ، ولا يمكن أن تتطابق رؤى الباحثين في فهمهم له ، وكلّ تعريف ينطلق من المرجعية المعرفية والمدرسة اللغوية التي ينتمي إليها صاحب هذا التعريف .

مما جعل إيجاد مفهوم جامع مانع للنصّ أمراً غير منطقيّ من جهة تصوّر اللغوي ، وذلك لاختلاف المدارس اللغوية التي ينتمي إليها علماء اللغة ، واختلاف حدود المصطلحات التي تركز عليها أبحاثهم ^(٢) .

والمستبعد لمفهوم النصّ في ظلّ تلك الاتجاهات المتباينة يصادفُ كما هائلاً من التعريفات، جعلت الباحثين يصنفونها على وفق معايير وضوابط كثيرة ، فصنّفها فريق بحسب الاتجاهات النقدية التي أفرزتها ^(٣) ، وفريق آخر بحسب صلتها بالبنى والسياقات النصّية ، وفريق ثالث بحسب صلتها بالجملة ^(٤) .

وإذا نظرنا في جهود الباحثين العرب الذين تناولوا مصطلح (النصّ) نجد أنهم درجوا على البحث في كونه مصطلحاً موجوداً بلفظه ، أو بمعادله المعنوي في التراث

(١) انظر « من النصّ إلى الجنس الأدبي » ، أحمد الخديري ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، ٤٢ .

(٢) انظر « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ١٠٧ .

(٣) انظر « النصّ الغائب تجليات التناصّ في الشعر العربي » محمد عزّام ، ١١ - ٢٥ .

(٤) انظر « الخطاب وأثره في بناء نحو النصّ تطبيقاً على المعلّقات السبع » عبد المهدي الجراح ، ١٩ -

العربي ، وأخذوا يربطون بين المعنى اللغوي الاشتقاقي والمعنى الاصطلاحي له ، فوجدوا أنّ الجذر (ن ص ص) قديم في العربية ليس دخيلاً ولا مولّداً ، وأنّ معاني النص في العربية لا تبعد عن الرفع والإظهار بالمعنى الحسي ، والرفع والإسناد بالمعنى المجرد ، ولكن لا موقع للنصّ بمفهومه المعاصر في المعجمات العربية القديمة ، وكذا الحال في المعجمات العربية الحديثة لم تتناوله من حيث هو مفهوم أدبي ونظرية نقدية ^(١) .

و(النصّ) مفهومًا ومصطلحًا يعدّ غريبًا عن الدراسات النحوية العربية والغربية قديمها وحديثها ، ولم يظهر إلا في اللسانيات الحديثة التي ظهرت بعد العقد السادس من القرن العشرين ، وقد كان ظهوره في اللسانيات الغربية بعد إرهابات قديمها هيلمسليف (Hjelmslev) وهاريس (Z. Harris) ، إذ عدّ الأوّل النصّ قسمًا أكبر قابلاً للتّحليل ، وتجاوز الثاني الجملة واهتمّ بتحليل الخطاب ^(٢) .

ومصطلح (نص) ليس بأبعد حالاً من مصطلح (جملة) ، فثمّة اختلاف شديد بين هذه الاتجاهات في تعريف النص - كما سنرى - إلى حدّ التناقض أحياناً ، والإيهام أحياناً أخرى ، فلا يوجد تعريف معترف به من قبّل عدد مقبول من الباحثين من اتجاهات علم لغة النص بشكل مطلق ^(٣) .

وستبقى محاولة الوصول إلى تعريف يضمّ أكبر عددٍ من الملامح الفارقة للنصّ محاولة طموحة ، نسعى إليها بمناقشة عدد من هذه التعريفات التي طرحها أهمّ ممثلي

(١) انظر « نحو النصّ : دراسة تطبيقية على خطب عمر بن الخطاب ووصاياه ورسائله للولاية » عثمان أبو زيد ، ٧ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية تأسيس نحو النصّ » لمحمد الشاوش ، ١ : ١٦١ - ١٦٢ ، و« علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ٢٩ - ٣١ .

(٣) انظر « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ٩٤ .

هذا الاتجاه الجديد ، على الرغم من أنها لم تقدّم إلّا بضع تحديدات ، نتيجة لعزوف بعضهم عن هذه المسألة ، تجنّبًا للجدل الدائر حولها ، وحرصًا على تناول قضايا أكثر عمقًا تتعلّق بصُلب النص^(١) .

ويمكن تقسيم التعريفات الواردة تبعًا لمنطلقات أصحابها إلى ما يأتي :

١ - تعريفات بنيوية :

يرى أصحاب هذا المنهج ضرورة قطع النصّ عن مبدعه ، وعن سياقه التاريخي والاجتماعي والنفسي ، ويركزون على البنية النصّية نفسها ، ويتعاملون مع النصّ في مستواه النحوي والدلالي على أنّه بنية مغلقة .

ومن هؤلاء تودوروف (Todorov) الذي يرى أنّه « يمكن للنصّ أن يكون جملة ، كما أنّه يكون كتابًا تامًا ، ويُعرّف باستقلاله وانغلاقه »^(٢) .

ويتابعه فاينريش (H. Weinrich) فيعرّف النصّ بأنّه « تكوين حتمي ، أجزاؤه ثابتة ، بمعنى أنّه وحدة كلّية مترابطة الأجزاء ، تتابع الجمل فيها على وفق نظام ، وتسهم كلّ جملة في فهم ما تليها ، كما تُسهم المتقدمة في فهم المتأخرة ، بحيث يتحقّق المعنى من خلال معاني الأجزاء ، وتأزرها في بنية كلّية كبرى »^(٣) .

ونلاحظ في تعريفه اعتماده في تحقيق وحدة النصّ على مجموعة من السياقات الدلالية التي تتضافر معًا لتكوين التماسك الكلي .

(١) انظر « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ٩٩ .

(٢) « الأسلوبية وتحليل الخطاب » د. منذر عياشي ، ١٢٢ . وانظر « مقالات في الأسلوبية » د. منذر عياشي ، ١٢٨ .

(٣) « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ٩٩ ، ١٦٣ .

وفي هذا الصدد تأتي محاولة برينكر (Brinker) وإيزنبرج (Isenberg)
وشتاينتز (Steinitz) وهارفج (Harweg) التي تعرّف النصّ بأنه : « تتابعٌ مترابطٌ
من الجمل ... » ^(١).

وكذا أديث كرزويل الذي يرى أنّ النصّ هو : « الطريقة التي تشكّل بها الجمل
نظامًا متتابعًا تسهم به في نسق كلّ متغير ومتّحد الخواص ، وعلى نحو يمكن معه أن
تتألف الجمل في نظام بعينه ، لتشكيل نص مفرد ، أو تتألف النصوص نفسها في نظام
متتابع لتشكّل خطابًا أوسع ينطوي على أكثر من نصّ مفرد » ^(٢).

ونلاحظ أنّه يؤكّد على كون النصّ نظامًا بنيويًا مؤلفًا من جمل متتابعة .

وكذلك محاولة الأزهر الزناد ، إذ يعرف النصّ بأنه : « نسيج من الكلمات يترابط
بعضها ببعض ، ويمثّل علامة كبيرة ذات وجهين : الدالّ ، والمدلّول » ^(٣).

ونلاحظ من تعريف الزناد تقاربًا كبيرًا مع بارت (Barthes) الذي يرى أنّ
« النصّ هو السطح الظاهري للأثر الأدبي ، وأنّه نسيج الكلمات المشتبكة والمنظّمة
بطريقة تفرض معنًى متينًا راسخًا ووحيدًا » ^(٤) . فالنصّ كما يقول يشاطر الأثر الأدبي

(١) « علم اللغة والدراسات الأدبية دراسة الأسلوب ، البلاغة ، علم اللغة النصي » لبرند
شبلنر ، ترجمة : د. محمود جاد الرب ، ١٨٨ . وانظر « أساسيات علم لغة النص » ١٣٦ .

(٢) « عصر البنيوية » ٣٧٩ .

(٣) « نسيج النصّ بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا » للأزهر الزناد ، ١٢ .

(٤) « النصّ الغائب » ١٤ .

هالته الروحية ، وهو مرتبط تشكيلاً بالكتابة ، ربما لأن رسم الحروف ولو أنه يبقى تخطيطاً فهو إجماء بالكلام وبتشابك النسيج^(١) .

فالمنهج النبوي يعدّ النصّ بنيةً مغلقةً داخلها علاقات منظّمة ، بحيث إنّ اختلال النظام في طرف معيّن يؤثّر في الأطراف الأخرى ، ويتعامل مع كلّ نصّ باستقلالية وخصوصية ، ولا يتجاوز النصّ في رصد المعطيات التي يصوغها ويتّجهها^(٢) ، فهو يستبعد علاقات النصّ بمبدعه وبالواقع ، ويرى أنّ التحليل النبوي الشكلي وحده الكفيل بإبراز السمات النصّية ولمس الظاهرة الأدبية في النصّ ، وبيان علاقاته الداخلية ، وعلاقاته بالقارئ^(٣) ، وهو بذلك يعزل العمل الأدبي عن بيئته الكاملة ، ومجتمعه الذي ألّف فيه ، والمنعكس في النصّ نفسه .

ومع أنّ فهم النصّ فهماً بنوياً كاملاً يسهّل فهم سياقاته الاجتماعية والسياسية ، ويعدّ إحدى الخطوات المهمة في التعامل مع النصّ تعاملًا كلياً ، فإنّه لا يكفي ولا يحسن التوقف عنده .

٢ - تعريفات سيميائية :

ظهرت ما بعد البنيوية اتجاهات عايشة الاتجاه النبوي وخلفته ، منها السيميائية التي كان لها الإسهام الأكبر في تعريف النصّ ، وقرنت مصطلح النصّ بـ (التناص) ، ونظرت إلى النصّ على أنّه مجموعة من النصوص المتداخلة ، ورأت أنّ النصّ لا يكون بالضرورة هو العبارات التي تكتب ، بل قد يتمثل في الإشارات أو الرسومات التي

(١) انظر « الأسلوبية وتحليل الخطاب » د. منذر عياشي ، ١٢٥ .

(٢) « حدود النصّ الأدبي دراسة في التنظير والإبداع » لصدوق نور الدين ، ٧ .

(٣) « النصّ الغائب » ١٩ ، و« دليل الناقد الأدبي » لميجان الرويلي وسعد البازعي ، ٢٦٢ .

توضع لغاية معلومة ، مثل إشارات المرور ، وإشارات التحذير من خطر ، أو التنبيه على منع عمل معين^(١) .

وجاءت أهم التعريفات السيميائية للنص على يد فيليب سولرز (Philippe Sollers) وجوليا كريستيفا (J. Kristiva) ، حيث ميّز سولرز بين ثلاثة مستويات للنص :

- الطبقة السطحية للنص : هي الألفاظ والجمل والمقاطع ... ، أو ما هو مكتوب فعلياً ، وهي تُقرأ بوضوح .

- الطبقة الوسطى : هي التناص ، أو الجسد المادي للنص ، ولا يكتب من أجل أو كلمات ، بل هو من نصوص ، حيث تتقاطع الكتب فيما بينها وتحمل إلى نطاق أبعد من حدودها ، وذلك داخل النص المجلد ، ويمثل سولرز للتناص بالكوميديا الإلهية لدانتي ، وهو ما أطلق عليه (اختراقية الكتابة) .

- الطبقة العميقة : هي (الكتابة) أو انفتاح اللغة .

وانتهى سولرز إلى أنّ النص المكتوب ليس بنهائي ؛ لأنه مكوّن من متاليات لا تأخذ دلالتها إلا من خلال علاقاتها ، وقارئ النصّ مرغم على أن يصير طرفاً في النصّ ، والتقى بذلك مع مفهوم بارت للكتابة في مرحلته المتأخرة^(٢) .

أمّا جوليا كريستيفا فترى أنّ النصّ أكثر من مجرد خطاب أو قول ، لأنه موضوع لعدد من الممارسات السيميولوجية التي يعتدّ بها على أساس أنّها ظاهرة عبر لغوية ،

(١) انظر « نظرية ، نص ، أدب : ثلاثة مفاهيم نقدية بين التراث والحداثة » عبد الملك مرتاض ، ٢٣٧ .

(٢) « النص الغائب » ٢١ ، وانظر « درس السيميولوجيا » لرولان بارط ، ترجمة : عبد السلام بنعبد

العالى ، ٢١-٢٧ .

بمعنى أنها مكوّنة بفضل اللغة ، لكنها غير قابلة للانحصار في مقولاتها. وبهذه الطريقة فإنّ النصّ «جهاز عبر لغوي ، يعيد توزيع نظام اللغة ، بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية ، مشيرًا إلى بيانات مباشرة ، تربطها بأنماط مختلفة من الأقوال السابقة والمتزامنة معها ، والنصّ نتيجة لذلك إنّما هو عملية إنتاجية»^(١).

وهذا يعني أمرين :

الأول : إنّ علاقته باللغة التي يتموقع فيها هي علاقة تفكيك وإعادة بناء.

الثاني : إنّ ترحالاً للنصوص وتداخل نصّي ، ففي فضاء نصّ معيّن تتقاطع ملفوظات وأقوال متعددة مجتزأة من نصوص أخرى ، ممّا يجعل بعضها يقوم بإغفال الآخر أو نقضه^(٢).

كما نستخلص من ذلك أيضًا أنّ تحليل النص لا ينحصر في مقولات اللغة ، على الرغم من أنه متشكّل منها ، لكنّه يراعي جوانب خارج اللغة ، تعبّر عن مقولات خارج النصّ ، ممّا يعطي النصّ حرية التشكيل ، والقارئ حرية الفهم والتأويل^(٣).

ومن هنا نفهم نظرة بارت إلى النصّ على أنّه عملية إنتاجية ، تتشكّل من أصداء اللغات والثقافات الأخرى ، وأنّه نسيج توليدي تنحلّ فيه الذات المبدعة ، ويرى بأنّ نظرية النصّ هي علم صناعة نسيج العنكبوت^(٤).

(١) « بلاغة الخطاب وعلم النص » د. صلاح فضل ، ٢٩٤. وانظر «علم النص» جوليا كريستيفا ، ترجمة : فريد الزاهي ، ١٢ .

(٢) انظر « بلاغة الخطاب وعلم النص » د. صلاح فضل ، ٢٩٤. و« تداخل النصوص في الرواية العربية » ، حسن محمد حماد ، ٢٤.

(٣) انظر « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ١٠٣ .

(٤) انظر « لذة النصّ » رولان بارت ، ترجمة : منذر عياشي ، ١٠٤ .

وتعرّفه كريستيفا أيضًا من خلال نفيها لوجود نصّ غير متداخل مع نصوص أخرى ، فتقول : « إنّ كلّ نصّ هو عبارة عن لوحة فسيفسائية ، وكلّ نصّ هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى »^(١).

ونلاحظ هنا اهتمامها بقضية التناصّ وتداخل النصوص التي تسهم بدور بارز في صناعة النصّ .

وجاء تعريف هارتمان (P. Hartmann) للنصّ بأنّه « علامة لغوية أصلية ، تبرز الجانب الاتصالي والسميائي »^(٢) ، وهو أكثر عمومية من تعريف كريستيفا ، إذ يقدّم خاصية ارتباط النصّ بموقف اتصالي من جهة ، وإمكان تعدّد تفسير العلامة النصية من جهة أخرى ، ويحدد النصّ على وفق ذلك أنّه : « أيّ قطعة ذات دلالة وذات وظيفة ، ومن ثمّ فهي قطعة مثمرة من الكلام »^(٣).

وبهذا فإنّ دراسة النصّ على وفق هذه المميزات الدلالية لا تقف عند اللسانيات ، وإنّما تنطلق منها ، وتتجاوزها إلى معظم العلوم الإنسانية ، حتى يمكن الوصول إلى ماسمته كريستيفا (النصّ المولّد) ؛ وهو ما يتولّد عن النصّ الظاهر ، ويكون خارج الزمانية والشخصية ، ويمثّل مجموع الدوالّ النهائي للنصّ الظاهر^(٤) ؛ لأنّ النظام اللغوي نسق رمزي ، والرموز دلالات لا تنضب ، وإحالات لا تتوقف^(٥).

(١) انظر « الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريعية » د. عبد الله الغدامي ، ٣٢٢.

(٢) « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ٩٩ .

(٣) « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ٩٥ .

(٤) « النصّ الغائب » ٢٢ - ٢٣ .

(٥) « لعبة المعنى » علي حرب ، ٦٩ .

وهذا يفضي إلى أن النص إشكالي ، بمعنى أنه اختلافي ، مما يجعل اللغة تفقد طباعتها الرمزية من خلال تشتت دلالاتها وتباين تأويلها ، وينأى بها عن كونها وسيلة للتواصل المباشر .

ولا يقف السيميائيون عند انفتاح النص اللغوي وتعدد حقوله الدلالية واختلاف تأويلاته فحسب ، بل يتجاوزونه إلى اعتبارهم مفهوم النص غير مقتصر على الأشياء المكتوبة ، وإثما يتعدّها إلى الفنون التعبيرية كالرسوم والموسيقا^(١) ، فالنص ممارسة دلالية إنتاجية لا تقتصر على الوصف اللساني ، بل يضاف إليها ما للرياضيات والمنطق وعلم النفس^(٢) .

يعكس هذا آفاق المتاهات الممتدة إلى جذور فلسفية تأويلية، غير محكومة بضوابط ومحدّدات مرجعية ثابتة، وهذه لا يمكن أن نفيدها منها إلا بمحاولة تأطيرها، وإعادة القربى بينها وبين الحقل اللساني، حتى لا نتجاوز خلفية النص الثقافية وعوالمه الممكنة .

٣ - تعريفات علماء اللغة الاجتماعيين :

درّس علماء اللغة الاجتماعيون كيفية تفاعل اللغة مع محيطها الخارجي والعوامل التي تؤثر في استعمالها ، وتركزت بحوثهم على مجال التحليل المستفيض للحوارات اليومية ، وقواعد متتاليات الجمل ، وأفعال الحديث ومحتواه المتعلّق بالمعتقدات وأنماط السلوك للأفراد في المجتمع خاصّة في إطار تحليل الوسائل في وسائل الاتصال الجماعي .

(١) « نظرية النص » لرولان بارت ، ترجمة : محمد خير البقاعي ، ٨٧ - ١٠٢ .

(٢) « مفهوم النص في اللسانيات الحديثة » شفيق البقاعي ، ١٦١ - ١٦٢ .

كما وقفوا عند أثر المعنى والتشكيل الاجتماعي ، والتفاوت الفردي بين المتكلمين في اللغة المستعملة ، وأدّت هذه المحاولات في علم اللسان الاجتماعي والعلوم الإنسانية بوجه عام إلى تعريف العلاقات المطردة بين السياقات المجتمعية والثقافية ، وبين بنيات اللغة وأشكالها ووظائفها^(١).

ولاحظ الباحثون في الغرب أنّ القدر الأوفر من الدراسات المهمة المتعلقة بالخطاب والنص قد أُجري خارج نطاق علم اللغة ، وبخاصّة في علوم مثل (الإثنوبولوجيا والاجتماع) ، وتكون فرعاً مهماً في مباحث علم الأناسة يسمّى (إثنوجرافيا الكلام) ، حيث تدرس الأنماط المختلفة للخطابات المستعملة في الثقافات العديدة ، مثل : القصّ والألغاز واللعب بالكلمات والسّباب .. وغيرها في أساليب السرد والأسطورة.

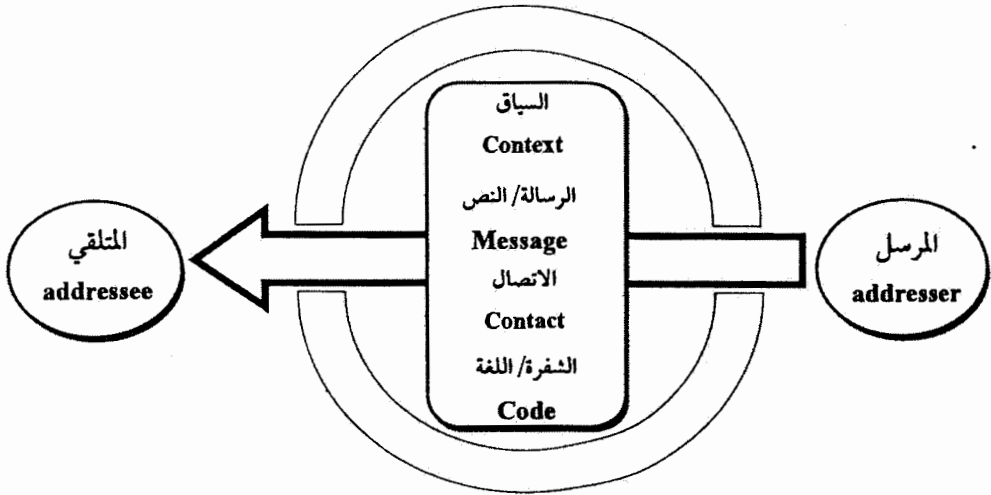
ومع تنامي هذه الوجهة في البحث ربط النقاد النص الأدبي بأرضيته الاجتماعية التي نبت فيها، وعرفوا النص على أنّه « بنية دلالية تتجه ذاتاً ، ضمن بنية نصيّة منتجة في إطار بنية أوسع اجتماعية وتاريخية وثقافية »^(٢) . مما جعل البحث النصّي يتطلّب معرفة العوالم الموضوعية للنص ، والهدف منه ، وموضوعه ، والجمهور الذي تلقّاه ، والصلاّات الاجتماعية بينه وبين المستمعين ، وسياقه الزماني ، والمكاني ، والأقوال المتضمنة فيه ، وعلاقتها بكل ما يرتبط به مُلَقّ ومُتلَق وظروف إلقاء^(٣) ، على نحو ما جاء في دائرة

(١) انظر « النص والسياق : استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي » فان دايك ، ترجمة : عبد القادر قنيني ، ١٣ .

(٢) « انفتاح النص الروائي : النص والسياق » سعيد يقطين ، ١٢ .

(٣) انظر « علم اللغة والدراسات الأدبية » شيلنر ، ١٦٦ - ١٦٧ .

التواصل الدلالي لرومان جاكبسون^(١) (Roman Jakobson) المتمثلة في الشكل الآتي :



ويقتضي السياق الاجتماعي للنص من محلّله النظر في السياق الترتيبي لكلمات النص وتراكيبه ، بحيث يوضع المعنى المعجمي لكلمات النص في مستوى وسط بين المستويين : الواقفي (المقامي) والنحوي ، ثم يوضع هذا الترتيب السياقي في موضعه المناسب داخل سياق الثقافة^(٢) ، وذلك حتى يتمكن من رصد العلاقة بين النص والسياق ، إذ إن الوحدات المعجمية والدلالية والتركيبية في النص لا تنفصل عن المصالح الاجتماعية المكونة له^(٣) ، واللغة ليست مجرد أصوات وصيغ وجل ودلالات ،

(١) انظر « الألسنية : علم اللغة الحديث ، المبادئ والأعلام » د. ميشال زكريا ، ٥٢ . و « النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون : دراسة ونصوص » د. فاطمة الطبال بركة ، ٦٥ .

(٢) انظر « الخطاب القرآني : دراسة في العلاقة بين النص والسياق » د. خلود العموش ، ٣١ .

(٣) انظر « النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي » حميد حمداني ، ٧٢ .

بل هي أداة لممارسة اجتماعية على أساس أنّ النصّ اللغوي في جملته إنّما هو « نصّ في موقف » تؤثر في أبنيته عوامل معرفية ووجدانية^(١).

وقد كان الإلحاح على ارتباط العلوم الاجتماعية بالنص يدفع اللسانيين الاجتماعيين إلى تبني الرأي القائل بأنّ التفاعل بين الأفراد والجماعات يحدث من خلال نصوص تكشف عن المقاصد والمواقف وأشكال السلوك المختلفة^(٢)، وهذه النصوص تنشأ في سياق اتصالي ومحيط خاص يتكوّن من خلال سلطة ما أو وظيفة محدّدة - كالقاضي أو الراهب أو المدير - تؤثر في مضمون النص وشكله المعبر عنه^(٣). مما جعل بحث العلاقات الاجتماعية وقضايا الاتصال المحيطة بالنص يأخذ الجانب الأكبر في فهم النصوص والتعامل معها^(٤).

وهذه الطريقة في التعامل مع النص تفرض عليه بُعدًا أحاديًا يقيده، ولا تسمح له بتجاوز المجتمعات واختراقها، ولا تعطيه الانفتاحية التأويلية التي تضمن خلوده^(٥).

(١) انظر « اتجاهات لغوية معاصرة » د. سعيد بحيري، ١٣٩.

(٢) انظر « النقد الروائي والإيديولوجيا » ٧٢.

(٣) انظر « علم النصّ : مدخل متداخل الاختصاصات » فان دايك، ترجمة : د. سعيد بحيري، ٢٧.

(٤) انظر « مدخل إلى علم اللغة النصي » فولفجانج هاينه من و ديتر فيهفيجر، ترجمة : د. فالح العجمي، ٧٦-٧٨.

(٥) انظر « النص الغائب » ١٨.

٤ - تعريف لسانيات النص وتحليل الخطاب :

بدأ التوجّه إلى اللسانيات النصّية مدفوعاً بإحساس قوي بأنّ الجملة لم تعد مجالاً كافياً لإشباع حاجة المحلل اللغوي ، وأنها لا تمثّل غير جزء يسير مما يقدمه المعنى الكلي للنص^(١) ، فشعر اللسانيون بضرورة تجاوز حدود الجملة في درس قواعد الكلام إلى فضاء لغوي أوسع هو فضاء النصّ^(٢).

جاء هذا التوجّه في البحث النصّي ثمرة لتضافر معارف لسانية واجتماعية وفلسفية أشبعت بحثاً وعناية ، بعد أن وصلت اتجاهات البحث اللغوي في مراحل متأخرة إلى قدر كبير من النضج مما هيأ المناخ لضمّ أفكارها وتصوّراتها لتأسيس مبادئ أوليّة للبحث النصّي^(٣).

ومع بداية اللسانيات النصّية في أواخر الستينات من القرن العشرين كثف رواد هذا العلم جهودهم على بيان القصور الذي مُنيت به الدراسات اللسانية التي كانت ترى أن الجملة أكبر وحدة لغوية وذلك لإضفاء الشرعية على هذا العلم الناشئ^(٤) ، ثم انتقلوا بعد ذلك - على اختلاف مناهجهم ومدارسهم - لتقديم صيغها ومنظومة مصطلحاتها المميزة لها في هذا المضمار^(٥) ، فاختلفت تعريفاتهم للنص ، وربطوها بالجملة والدلالة النصّية .

(١) انظر « علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق » د. صبحي الفقي ، ١ : ٤٩ .

(٢) انظر « نسيج النص » ٥ .

(٣) انظر « اتجاهات لغوية معاصرة في تحليل النص » ، د. سعيد بحيري ، مجلة علامات في النقد، مج

١٠ ، ج ٣٨ ، ديسمبر ٢٠٠٠ م . ص ١٣٨ .

(٤) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٧٩ .

(٥) انظر « نحو آجرومية للنص الشعري : دراسة في قصيدة جاهلية » ، د. سعد مصلوح ، ضمن

كتاب : « في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة » ٢٢٥ .

ويمكن تصنيف هذه التعريفات على النحو الآتي :

أ- تعريفات اعتمدت تكوّن النصّ من بنى سطحية ، وهي نوعان :

الأول : يقوم على درجة من العموم التي لا تفيد في تمييز النص عن غير النص ، ولا تنبئ عن المقومات البنيوية التي تمثل قوام الوحدة النصيّة ، ومن تعريفات هذا النوع ما يأتي :

- تعريف هارتمان : « النصّ متتالية من الكلمات تكون ملفوظاً منجزاً »^(١) .
- تعريف ليونز (Lyons) : « النصّ هو ناتج السلوك اللغوي العادي الذي يمكن أن يكتب كتابة فونولوجية »^(٢) .
- تعريف تيتزمان (Titzmann) : « يمكن أن يطلق النصّ على ملفوظات شديدة التنوع ، مستعملة في مقامات شديدة التنوع أيضاً ، ويمكن أن تصدر عن متكلم واحد أو أكثر من متكلم »^(٣) .
- تعريف بيلش (Pilch) : « النصوص هي أجزاء الخطاب المختلفة الطول الشفوية أو المكتوبة ، وكل جزء من أجزاء النصّ يكون قولاً »^(٤) .
- تعريف هيلمسليف (Hjelmslev) : « النصّ ملفوظ لغوي قد يكون محكيّاً أو مكتوباً ، قصيراً أو طويلاً ، قديماً أو حديثاً »^(٥) .

(١) « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٧٢ .

(٢) « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٨٣ .

(٣) « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٨٣ .

(٤) « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٨٣ .

(٥) « التراكم العلاماتي بين النصّ المكتوب والنصّ المنطوق » محمد إسماعيل بصل ، ٦٧ .

- تعريف الأزهر الزناد : « النص يطلق على ما به يظهر المعنى أي الشكل الصوتي المسموع من الكلام أو الشكل المرئي منه عندما يترجم إلى المكتوب ، وهذا الشكل الصوتي يمثل آخر طور يبلغه الكلام في تولده (البنية السطحية) »^(١).

- تعريف روبرت (Robert) : « النص مجموعة من الكلمات والجمل التي تشكل مكتوبًا منطوقًا »^(٢).

ولا نستطيع من خلال هذه التعريفات التمييز بين ما هو نص مما ليس بنص ، كما أنها لا تبين كيف ومتى يكون النص نصًا ، لكنها تتفق على أن النص يتحقق نتيجة سلوك لغوي ، وتشير إلى أن مجال النص مفتوح ، ويتنوع تمثيله ، فقد يكون منطوقًا أو مكتوبًا ، وأنه يتكون من ألفاظ منجزة ، ولكنها أيضًا لا تعرض لأثر قائل النص أو كاتبه أو متلقيه ، كما لا تلقي للمقام والسياق النصي أي بال.

الثاني : يقوم في معالجته النص على الجملة بصورة مباشرة ، ولا يكتفي ببنية النص ، بل يدرس أحيانًا وظيفته ومحتواه وموقعه التداولي ، مما أفضى إلى بحث النص في إطارين أنتجا تعريفات تفتقر إلى الدقة والتحديد .

• الإطار الأول : إطار النص الأحادي الجملة .

وقد حاز هذا الإطار على اهتمام بالغ من لسانيات النص ، ولم يخل من الحديث عنه مقال يتحدث عن اللسانيات النصية كعلم جديد ، وذلك لما أثاره من إشكاليات نحو :

(١) « نسيج النص » ١٢ .

(٢) « النص الغائب » ١٢ .

تحديد بنية متميزة للنص ، ومتى تكون الجملة نصًّا^(١).

وتتمّ التغلّب على مآزق النصّ الأحادي الجملة بربط الجملة المستعملة بالمقام والتداول، فعندما تصبح الجملة قولاً منجزاً يمثل رسالة تبتّ لمستقبل فيستقبلها فتكون حينئذ نصًّا .
التدخين ممنوع



فجملة (التدخين ممنوع) التي تكتب في الحافلات والطائرات والإدارات ، هي نصّ ؛ لأنها تتضمن كلّ المواصفات المقاميّة والتداوليّة المطلوبة لذلك ، فهي :
جملة + مستلزمات = قولاً منجزاً = نصًّا .

وتفصيل ذلك :

- ١ - أنها رسالة .
- ٢ - أنها بثّت بقصد أن يتلقاها الزبائن أو المسافرون أو الزوّار .
- ٣ - بقرائتهم إيّاها (ونفترض أن تكون في مجتمع غير أمّي) فقد استقبلوها .
- ٤ - أنها أدّت غايتها كأّي نصّ طويل النفس^(٢) .

ومن ذلك نتيّن أن الجملة نظرياً نوعان :

- جملة نظام (System Sentence) : وهو شكل الجملة المجرّد الذي يولّد جميع الجمل الممكنة والمقبولة في لغة ما .

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٨٤ .

(٢) انظر « نص ، نظرية ، أدب » لمرتاض ، ٢٧٣ .

- جملة نصية (Text Sentence) : وهي الجملة المنجزة فعلاً في المقام ^(١).

وهذا يفضي إلى قيام تقابل بين الجملة باعتبارها وحدة من وحدات النظام، والنصّ باعتبارها إنجازاً لتلك الجملة ، أو لعدد أكبر من الجمل ، وبذلك تصبح عندنا ثنائيتان - تضافان إلى ثنائيّتي : اللغة والكلام ، والقدرة والإنجاز - وهما : النظام والاستعمال ، والجملة والنصّ ^(٢).

• الإطار الثاني : إطار النص متعدد الجمل :

أقام كثير من لسانيي النص تعريفاتهم له على الجملة ، فقد عرّف بتوفي (Petofi) النصّ بأنّه : « وحدة لغويّة متكوّنة من أكثر من جملة » ^(٣) ، وعرّفه فيرر (Wirrer) بأنّه : « مجموعة من الجمل المنسجمة » ^(٤) ، وعرّفه برينكر (Brinker) بأنّه : « تابع مترابط من الجمل » ^(٥) ، وعرّفه هارفع (Harweg) بأنّه : « ترابط مستمر للاستبدالات الستتجميمية التي تظهر الترابط النحوي في النص » ^(٦).

(١) انظر « نسيج النص » ١٤ .

(٢) « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٩٢ ، ١١٤ .

(٣) « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٨٣ .

(٤) « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٨٣ . وهو نفس التعريف الذي أورده برينكر في بحثه : اللسانيات

النصية (Texlinguistik) في مجلة : الحاضر والمجتمع (Gegenwartssprache und

Gesellschaft) ص ٥٠ . انظر « نحو نظرية أسلوبية لسانية » فيلي سانديرس ، ترجمة : د.

خالد محمود جمعة ، ١٤٦ .

(٥) التحليل اللغوي للنص : مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج « كلاوس برينكر ، ترجمة : د.

سعيد بحيري ، ٢٤ . و « علم لغة النص : المفاهيم والاتجاهات » ٩٦ .

(٦) « علم لغة النص : المفاهيم والاتجاهات » ٩٩ .

والنظر في مثل هذه التعريفات يبيّن أنّ أصحابها صَدَرُوا عن تصوّر باهت للنصّ بنية وتكوينًا ، فهي لا توضّح الخواصّ النوعية المميّزة للنصّ ، ولا تومئ إلى درس النصّ دلاليًا أو وظيفيًا ، كما أنّها لا ترسم له هيكلًا بنيويًا واضح المعالم ، يبيّن كيفية تكوّن الجمل وترابطها للحصول على النصّ.

وسرّع الدارسون النصّيون بعد ذلك في القيام بإجراءات تنظيمية للنصوص تقوم على الوصف اللغوي الشكلي إلى حدّ ما ، وانقسموا حيال النصّ قسمين :

الأول : أرجع مختلف نصوص الخطاب إلى عدد من الجمل التامة التي تكون منجزة في عملية تواصل ، فيتولّد النصّ من ضمّ جملة إلى جملة على منوال النحو التوليدي :

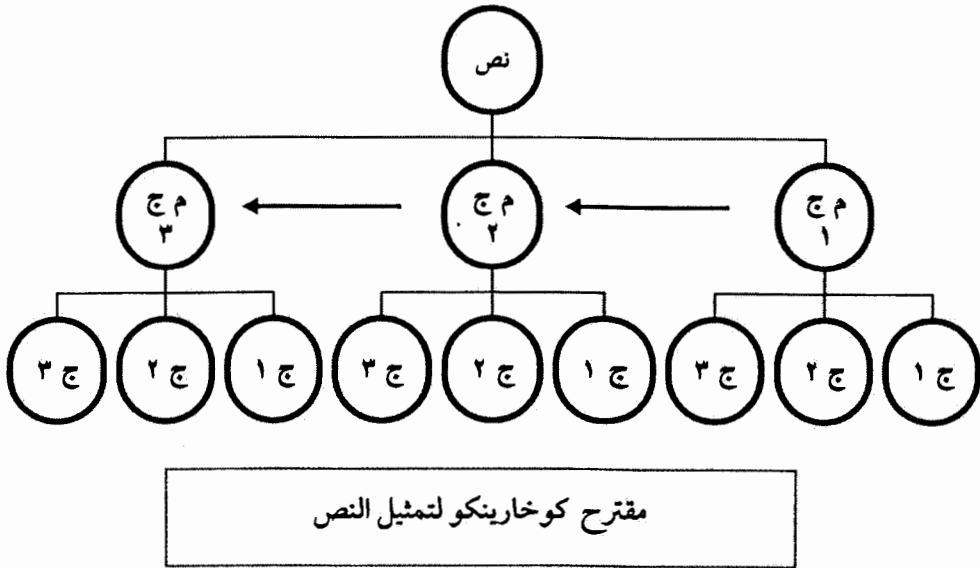
$$\text{جملة ٣} + \text{جملة ٢} + \text{جملة ١} = \text{نص}$$

ويعرّفون النصّ بأنّه متتالية متوالية من الجمل المجراة ، أي الأقوال المنجزة^(١).

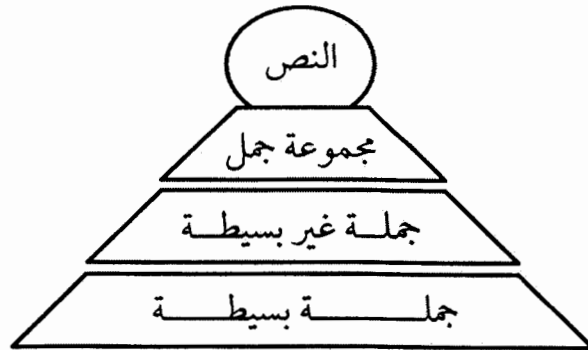
والثاني : يرى أنّ النصّ يتكوّن من مجموعات من الجمل قد ضمّ بعضها إلى بعض ، لا من جمل مفردة ، فاقترح كوخارينكو (Kokharensko) الشكل الآتي لتمثيل النصّ^(٢) :

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٩٠ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٩١ . ونلاحظ من خلال الشكل أنّ النصّ مكوّن من (م ج) أي مجموعة جمل ، وكل مجموعة تحوي عددًا من الجمل (ج ١ ، ج ٢ ، ج ٣) . انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٩١



وأقام لانجليين (Langleben) - بناءً على ذلك - التقابل بين الثلاثية الآتية:



مقترح لانجليين لتمثيل النص

وجعل هذه الثلاثية : (نص و مجموعة جمل و جملة) بدلاً من ثنائية : (جملة و نص) ، ولكنه تعامل دلاليًا مع كلفة النص ، فاعتبر أن بنية النص بنية حرة مفتوحة ، في حين تكون بنية مجموعة الجمل والجملة غير البسيطة والجملة البسيطة بنية مقيدة مغلقة^(١) .

واشترط بيرتينيتو (Bertinetoo) لقيام النص باعتباره مجموعة من الجمل وجوب توافر ثلاثة شروط ، هي :

١ - أن تكون الجمل منسجمة من حيث الموضوع .

٢ - أن تكون ذات وظيفة تواصلية .

٣ - أن تكون منجزة في عملية تواصلية^(٢) .

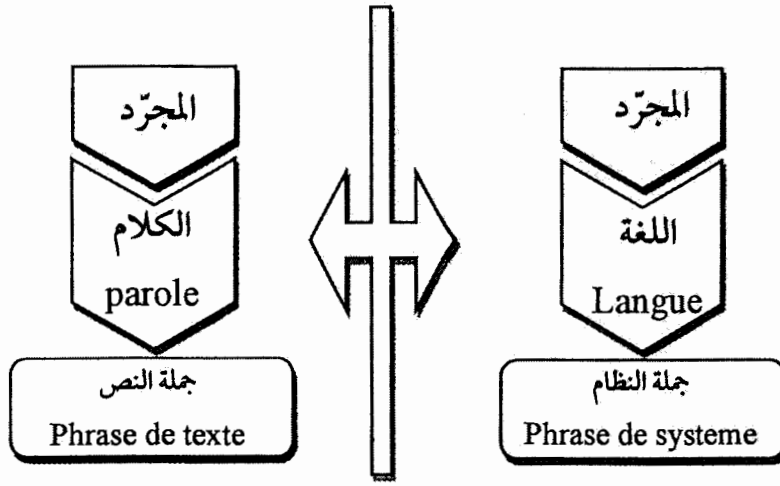
ب - تعريفات تغلب المضمون والجانب الدلالي على الجانب الصياغي ، وتنقسم هذه التعريفات قسمين :

١ - قسم يعرف النص بأنه متتالية من الأقوال وليس من الجمل ، باعتبار أن الجملة وحدة نظامية من وحدات اللغة ، أما القول فهو استعمال متكلم لها ، ولا وجود للنص قبل أن ينجزه متكلم^(٣) . ويتضح ذلك من خلال الشكل الآتي :

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٩١ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ١٠٦ .

(٣) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٩٢ .



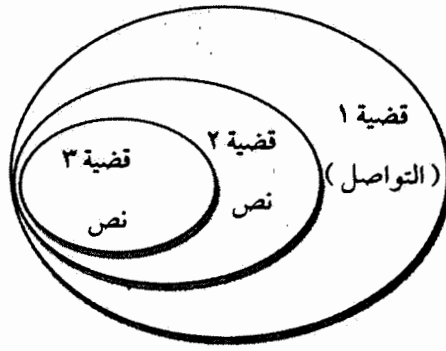
التقابل بين وحدات جملة النظام وجملة النص

٢ - قسم يعرف النصّ بأنه متالية من القضايا ، ويقتصر على محتواه القضوي المستفاد من الأقوال ومقتضياتها ومستلزماتها التي يمكن استخلاصها من المعرفة اللغوية والعوالم الممكنة^(١) .

ويرى أصحاب هذا التعريف أنّ مجال النصّ هو الدلالة ، وأن مفهوم الاتساق هو مفهوم دلالي ، ولا حاجة للالتفات إلى الجمل - التي لا تمثل إلا البنية السطحية - إلا بمقدار مساهمتها بتحقيقها لاتساق النصّ^(٢) ، وهذا النظام قائم على تعدد المستويات ، وتتركّب فيه القضايا بتضمين بعضها في بعض واحتواء بعضها لبعض كما يتضح في الشكل الآتي :

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٩٩ .

(٢) انظر « لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب » ١٣ ، ١٥ .



تركيب النصّ بكونه متتالية من القضايا

((قضية ١ (قضية ٢ (قضية ٣))

فيبدأ بأولى القضايا وأوسعها ، وهي قضية (التواصل) ، التي ليس لها ما يوافقها في صيغة القول ، لكنها تعدّ من مقتضيات القول ومستلزماته ، ويمكن تمثيلها بشيء يشبه قولك : (صحيح أنّه في الزمان كذا ، والمكان كذا يبلغ (Communicate) فلانٌ فلاناً...) ، وبعد هذه القضية ينتقل إلى القضايا التي يتضمّنهما نص القول . وذلك بحسب ما جاء في منوال بيتوفي (Petöfi)^(١).

وبالتركيز على القضايا في النص فقد أقيمت نصيّته على المعنى الكلي له ، واعتبر ما قد يكون من فساد في بعض جملة لا أهميّة له ، إذ إنّ الصّحّة النحوية لكلّ جملة من الجمل المكوّنة للنص لا تقتضي بالضرورة صلاحه من حيث هو كل بفضل استقامة المعنى الكليّ له^(٢).

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٩٩ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٩٩ - ١٠٦ .

ج - تعريفات مزجت بين الدلالة والصياغة ، واعتمدت على تحقيق النص للوحدة
والتمام المفوضين إلى الاستقلال :

إن دراسة النص من حيث هو بنية مجردة ، وإهمال مقاميّه - المقالي والمقامي -
ومضمونه وتاريخه ، لم تعد طريقة مرضية عند كثير من لساني النص ، إذ وجدوا أنّ
إهمال ما يحيط بالنص نفسياً واجتماعياً وتداولياً ، والاقتصار على بحث ما يكون به
الملفوظ نصّاً يحرم الباحث من الوقوف على الخواص النصيّة المميزة للنص ، ويمنعه من
توظيف معرفته بالعالم واستخدام أدواتها في الكشف عن درجات التماسك النصي^(١).

ورأت اللسانيات النصية الحديثة - بعد أن طرحت نفسها بديلاً شاملاً للبلاغة
والاتجاهات الأسلوبية - ضرورة دراسة النصوص من زاوية السيكلولوجيا أو النقد
الأيديولوجي ، وربط الآثار النصيّة المستخرجة ببعض الخصوصيات البنائية للنص ،
والاهتمام بالنص المعالج تاريخياً ، والوضع الاجتماعي للكاتب ، والاختيار الذي يتبنّاه
من بين الوسائل التي تملئها الظروف بالنظر إلى الجمهور الذي وجّه إليه النص^(٢) ،
إضافة إلى وصف الخواص التي تحقق الوحدة والاستمرارية البنيوية للنص ، ووصف
وسائل الربط والسبك اللغوية والمضمونية ومناقشة النص في سياق الإبلاغ من حيث
الإنتاج والاستقبال والعوامل الاجتماعية والنفسية التي تؤثر في النص^(٣).

(١) انظر « علم النص : مدخل متداخل الاختصاصات » تون أ. فان دايك ، ترجمة : د. سعيد
بحيري ، ١٤ - ١٨ . وانظر « نسيج النص » ١٨ .

(٢) انظر « البلاغة والأسلوبية : نحو نموذج سيميائي لتحليل النص » هنريش بليث ، ترجمة : محمد
العمرى ، ١٦ ، ٢٨ .

(٣) انظر « نحو آجرومية للنص الشعري » د. سعد مصلوح ، ضمن كتاب « في البلاغة العربية
والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة » ٢٢٥ .



وفي ضوء التصوّرات التي طوّرتها طرق البحث النصي والتداخل المعرفي فيه ، فقد تحوّل علماء النص عن التعامل مع الجملة على أنّها بنية مستقلة ، ونظروا إلى النص - مهما صغر حجمه - على أنّه « وحدة كلية مترابطة الأجزاء ، أو بنية معقدة متشابكة ، مكتفية بذاتها دلالياً ، يتحقق التماسك بين عناصرها المضمونية والائتلاف أو الترابط بين عناصرها الشكلية »^(١).

ورأى دي بوجراند (Beagrande) أنّ الكيان اللغوي المتعدد المستويات لا بدّ أن يكون هو النص ، ولكن لا يمكن للسانيات النص أن تعمل على تهيئة جو تجريدي لتوليد كل النصوص الممكنة في اللغة ، واستبعاد كل ما ليس نصّاً ، فمجال التوليد أوسع من أن يحاط به ، ولذلك فإنّ العمل الأهمّ للسانيات النص هو دراسة مفهوم النصّية، ويمكن تعريف النص أيضاً من هذا المفهوم^(٢).

واقترح دي بوجراند لفهم النص وإنتاجه واستعماله سبعة معايير ، وجعلها محطّات يمرّ بها الباحث النصّي بالنص كي يتأكّد من نصّيته ، ولا يشترط تحقيقها جميعاً في نصّ ما حتى يكون النصّ نصّاً ، وإنّما يمثل بعضها مقتضيات تكميلية ليكون النصّ صيغة لغوية منجزة تامّة الإنجاز من تعيين للهدف والفائدة ، والحلول في السياق المقامي^(٣). وهذه المعايير هي^(٤) :

١ - التماسك أو السبك (Cohesion) : هو ترابط العناصر السطحية التي تحقق الترابط الرصفي ، وتشمل وسائل التضام النحوية .

(١) « اتجاهات لغوية معاصرة في تحليل النص » ١٤٠ .

(٢) انظر « النص والخطاب والإجراء » روبرت دي بوجراند ، ترجمة : د. تمام حسان ، ٩٥ .

(٣) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١٠٦ : ١ .

(٤) انظر « النص والخطاب والإجراء » ١٠٣ - ١٠٥ .

٢ - الانسجام أو الالتحام أو الحبك (Coherence) : يشمل عناصر المعرفة اللازمة لإيجاد الترابط المفهومي مثل العناصر المنطقية ، وتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع الموضوع .

٣ - النية أو القصد (Intentionality) : هو أن يكون تتالي النص خاضعاً لقصد المتكلم وغايته .

٤ - القبول (Acceptability) : يتضمن موقف متلقي النص واستعداده لقبوله نصاً .

٥ - المقامية أو مراعاة الموقف (Situationality) : تشمل العوامل التي تجعل النص مرتبطاً بموقف .

٦ - الإفادة أو الإعلامية (Informativity) : هي العامل المؤثر بالنسبة إلى عدم الجزم في الحكم على الوقائع النصية ، أو الوقائع في عالم نصي ، في مقابلة البدائل الممكنة .

٧ - التناص (Intertextuality) : يتضمن العلاقات بين النص ونصوص أخرى مرتبطة به .

ويذكر دي بوجراند أن أكثر هذه المعايير صلة بالنص هما الاتساق والانسجام ، فالأول ربط بين علامات لغوية ، والثاني ربط بين تصورات عالم النص .

أما التناص ورعاية الموقف فهما عاملان نفسيان ، والإعلامية فهي بحسب التقدير ، ولكن لا يمكن فهم أحد هذه المعايير دون التفكير في العوامل الأربعة جميعاً : اللغة والعقل والمجتمع والإجراء^(١) .

(١) انظر « النص والخطاب والإجراء » ١٠٦ .

وقد عرّف النص بناء على ذلك بأنه : « حدثٌ اتصاليٌّ ، تتحقّق نصّيّته كاملةً باجتماع معايير سبعة ، وهي : الاتساق والانسجام والنية والقبول والمقامية والإفادة والتناصّ »^(١) .

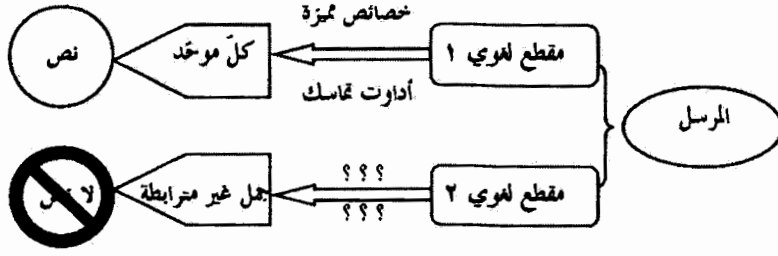
وإذا نظرنا في هذه المعايير وجدنا أنّها مثلت الثمار التي جناها دي بوجراند مما زرعه غيره من علماء نحو النصّ الذين ألحّوا في محاولاتهم المتكررة والمتتابعة على تطوير قواعد نصّية من علوم مختلفة ، ودي بوجراند نفسه يشير إلى ذلك ويشيد بجهود كل من هاليداي ورقية حسن وفان دايك وبتوفي وفاينريش وبالمز ، وغيرهم .

ومع أنّ مثال دي بوجراند لمفهوم النصّ يعدّ الأكثر شمولاً فإنّ إنجازات هاليداي ورقية حسن (Halliday M. A. K. & Hasan, Ruqaya) ، وفان دايك (Dijk T. A. Van) تستحوذ على اهتمام الدارسين النصّيين ، وذلك لأنّها مثلت الخطوات قبل الأخيرة في مجال اللسانيات النصّية ، فقد كان لدراسات هاليداي ورقية حسن للعلاقة بين اللغة والبنى الاجتماعية أثرٌ فعّال في الانتقال من مستوى الجملة إلى مستوى النصّ^(٢) .

وبيّنا في كتابهما أنّ أيّ مقطع لغوي لا يشكل نصّاً أو كلاً موحّداً إلّا إذا توافرت فيه خصائص معينة تعدّ سمة في النصوص ولا توجد في غيرها ، وأنّ الدافع إلى تأليف كتابهما (Cohesion in English) هدفه الكشف عن هذه الخصائص في نصوص اللغة الإنجليزية ، ومن ثمّ الكشف عمّا يميّز النصّ عن متتالية مكوّنة من جمل غير مترابطة ، يتضح ذلك من خلال الرسم الآتي :

(١) انظر « النص والخطاب والإجراء » ١٠٦ .

(٢) انظر « نظرية النقد الأدبي الحديث » ٨٢ .



وبيّن هاليداي ورقية حسن أنّ النصّ « وحدة دلالية ، ينجز في شكل جمل متعلقة ، ويمثّل أي جزء من الكلام الشفوي أو المكتوب يكون كلّاً »^(١) ، وأنّ النصّ ليس وحدة نحوية أوسع من الجملة ، ولكنه وحدة معنوية سياقية ، وتقوم علاقته بالجملة على الإجراء والإنجاز^(٢) ، أمّا وحدة النصّ فتقوم عندهما على عنصرين^(٣) :

الأول : بنية النصّ ، وتتحكّم فيها ثلاثة عناصر ، هي :

- ١ - المجال (Field) : وهو الموضوع الأساسي في الخطاب بين المشاركين فيه .
- ٢ - نوع الخطاب (Mode) : هو نوع النصّ المستخدم لإكمال عملية الاتصال ، ويشمل طريقة بناء النصّ والبلاغة المستخدمة فيه ما إذا كان مكتوباً أو منطوقاً ، وما إذا كان نصّاً سرديّاً أو جدليّاً أو غيره .
- ٣ - المشتركون في الخطاب (Tenor) : هو طبيعة العلاقة القائمة بين المشاركين في الخطاب ، أهي رسمية أم غير رسمية ؟ ونحو ذلك .

(١) « لسانيات النص » ١٣ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ١٤٥ .

(٣) انظر « نظرية النقد الأدبي الحديث » ٨٧ .

الثاني : عنصر النظم ، ويعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تساهم في وحدة النصّ ، وتشمل الإحالة والمقارنة والاستبدال والحذف وأدوات الربط والتكرار.

ويعدّ فان دايك علمًا بارزًا في اللسانيات النصّية ، ومثلت دراساته للنص في الجانبين الدلالي والتداولي منهلاً عذبًا لأغلب دارسي نحو النصّ ، لا سيما بعد أن ربط تماسك النص بضروب الروابط التداولية والدلالية معًا ، وجعل التداولية تربط أفعال الكلام بمستعمليه ، وأمّا الروابط الدلالية فتصل قضايا النصّ بعضها ببعض^(١).

ومع أنّه ارتكز في محاولاته لوصف شكل النصّ ومعناه على أسس دلالية منطقية فقد وُصفت هذه المحاولات بأنّها متقدّمة إلى حدّ بعيد في شرح عمليّات الترابط (النحوي) بين المتواليات النصّية ، والتماسك (الدلالي) بين الأبنية النصّية الكبرى ودور القراءة والتأويل^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أنّ فان دايك قدّم عدّة أمثلة نصّية في مراحل مختلفة في إطار محاولاته لحل الإشكاليات التي تنجم في أثناء عمليّات وصف النصوص وتحليلها وتفسيرها ، ولم يصفها بالشمول ، ولم يكف عن محاولة تعديل عناصر مكونات التحليل، وإضافة عناصر جديدة سعيًا لوضع مثال يصلح للتطبيق على أكثر عدد من النصوص المختلفة ، وفي لغات مختلفة^(٣).

وبعد هذا التطواف بين تعريفات النص في ضوء الاتجاهات والمدارس المختلفة أستطيع الوقوف على تعريف شامل للنص ، فالنصّ هو: نظامٌ كليّ ، ينطوي على أبعاد

(١) انظر « النص والسياق » ٢٩ .

(٢) انظر « علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات » ٢٢٠ .

(٣) انظر « اتجاهات لغوية معاصرة في تحليل النص » ١٨٤ .

دلالية ، ومحمولات معرفية ، تشكّل وحدة تواصلية في فضاء نصّي ، مركّب من مجموعة من العلاقات المتبادلة بين مجريات لغوية ومعطيات إنجازية ، خاضعة للدلالة العميقة المنتجة له ، ولإطار التلقي المفترض في مرحلة الإنتاج^(١).

(١) انظر « نحو النص دراسة تطبيقية على خطب عمر بن الخطاب » ٢٢ .

المبحث الثاني

نحو النص (text grammar)

ضبطُ المصطلح :

نحو النص هو أحدُ مصطلحات عديدة وُضعت لترجمة مصطلح لساني حديث شاع في الدراسات النصية الأوروبية ، وهو في الإنجليزية (Text Grammar) ، وفي الفرنسية (Grammaire du Texte) .

وقد عبّر عنه بعض المترجمين بـ (نحو النص) ، وبعضهم بـ (نحو النصوص) ، أو بـ (علم اللغة النصّي) أو بـ (نظرية النصّ) ، أو بـ (علم النص) أو بـ (علم لغة النصّ) أو بـ (آجرومية النص) أو بـ (لسانيات النص) ، أو بـ (لغويات النص) .

وهذا الاضطراب ناشئ عن عدم استقرار هذا المصطلح في الغرب ، فقد عبّر عنه في الإنجليزية أيضًا بـ (Linguistics of Text) ، و (Text Linguistics) ، إلى أن أصبح (Text Grammar) أكثرها قبولاً ودوراً^(١) .

(١) انظر « نسيج النص » ٦ ، ١٤ ، و « علم اللغة والدراسات الأدبية » ١٨٣ ، و « النص والخطاب والإجراء » ٦٢٨ ، و « علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات » ١٣٤ ، ٢١٨ ، و « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٢١٠ ، و « الأسلوبية ونظرية النص مقالات وبحوث » لإبراهيم خليل ، ١٢٦ ، و « بلاغة الخطاب وعلم النص » ٢٩٤ ، ٣١٨ ، وغيرها .

ومصطلح (نحو) هنا ذو دلالة خاصة ، فهو يعني كل القوانين التي تحكم نظامًا ما، وليس مجموعة من القواعد أو القيود الصارمة التي تطبق على النص وتحتّم على النصّ أن يخضع لها مهما اختلف جنسه ، وإنّما يتضمّن مجموعة من القوانين الاختيارية التي تستخلص من النص ذاته بوصفه بنية كلية أو بنية شاملة^(١).

وبما أنّ النحو في اصطلاح النحويين : « علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعرابًا وبناءً » ، وغرضه : معرفة صواب الكلام من خطئه^(٢) ، فإنّ نحو النص في اصطلاح النصيين : « علمٌ بمبادئ وأصول يعرف بها تماسك النصّ انسجامًا واتساقًا » ، وغرضه : معرفة مدى تحقق نصيّة النصّ^(٣).

تعريفُ نحو النصّ ، ونشأته :

هو فرع من فروع علم اللسانيات العامّة ، يدرس النصّ باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى ، ويبيّن جوانب عديدة فيه ، منها : التماسك والترابط وأنواعه وأدواته ، والإحالة وأنواعها ، والسياق النصي ودور المشاركين في النص عند إنتاجه وتلقّيه ، سواء كان منطوقًا أو مكتوبًا^(٤).

ونحو النصّ هو « نمطٌ من التحليل ذو وسائل بحثية مركّبة ، تمتدّ قدرتها التشخيصية إلى مستوى ما وراء الجملة ، بالإضافة إلى فحصها لعلاقة المكونات التركيبية داخل الجملة (intra sentential constituents) ، وتشمل علاقات ما

(١) انظر « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) « العوامل المثة النحوية في أصول علم العربية » لعبد القاهر الجرجاني ، تح : البدرابي زهران ، ١٤٦ .

(٣) « نحو النصّ : دراسة تطبيقية على خطب عمر بن الخطاب ... » ٢٣ .

(٤) انظر « علم اللغة النصي » ١ : ٣٦ .

وراء الجملة مستويات ذات طابع تدرّجي ، يبدأ من علاقات ما بين الجمل (intersentential relations) ، ثمّ الفقرة (paragraph) ، ثمّ النص (text) (أو الخطاب discourse) بتمامه ^(١) .

ويوصف بعلم لغة النص « العلم الذي يهدف إلى وصف شروط الاتصال الإنساني وقيوده ، ووصف تنظيمها أيضًا » ^(٢) .

ويذهب أغلب المؤرخين لنحو النص إلى صعوبة نسبة هذا العلم إلى عالم معيّن أو حصره ببلد أو بمدرسة أو باتجاه محدّد ، كما يصعب التأريخ له بسنة معيّنة ، ولكنهم يرون أنّ ملاحظه المميّزة ظهرت في العقد الثامن من القرن العشرين ^(٣) ؛ إذ شهدت الدراسات اللسانية في تلك المدة توجّهًا نحو الاهتمام بقضايا النصّ واتخاذ موضوعًا للدراسة ^(٤) .

وبما أنّ الدراسات اللسانية التقليدية تتخذ الجملة وحدة لغوية كبرى للتحليل ، فإنّ من أغرقوا في البحث في بدايات الاهتمام بالنصّ أخذوا يلتمسون إشارات - أوردها بعض الباحثين تفتح المجال لتجاوز الجملة ولا تشترط الوقوف عندها - ليعدّوها بدايات أولية لنحو النصّ .

(١) « العربية من نحو الجملة إلى نحو النص » ٤٠٧ . ضمن الكتاب التذكاري للأستاذ عبد السلام هارون ، جامعة الكويت ، ١٩٩٠ م .

(٢) « أساسيات علم لغة النصّ : مدخل إلى فروضه ونماذجه وعلاقاته وطرائقه ومباحثه » كليمير وآخرون ، ترجمة : د. سعيد بحيري ، ٥١ .

(٣) انظر « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ١ .

(٤) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٧٧ .

ولذلك فقد أشير سنة ١٨٨٧ م إلى عمل مبكر لفايل (H. Weil) ، علّق فيه تتابع اللفظ على تتابع الأفكار ، وفصل هذا التابع عن النحو ، وقدم من خلال ذلك المعايير الوظيفية للجملة ، كما أشير إلى فصل من أطروحة باحثة أمريكية اسمها (I. Nye) تناولت فيه الربط بين الجمل وعلاقتها الداخلية على أسس نصيّة ، وكان ذلك سنة ١٩١٢ م^(١) ، وعُدّت إشارة هيلمسليف (Hjelmslev) إلى ظاهرة التناسق والترابط وشبه الاعتراف بوجود النص كيّانًا لغويًا محطةً أخرى من محطات نحو النص^(٢) .

ولكنّ محاولات زيليج هاريس (Zellig Harris) لنقل المناهج البنيوية التوزيعية في التحليل وإقامة الأقسام إلى مستوى النصّ وربط النصّ بسياقه الاجتماعي تعدّ في نظر أغلب الباحثين البدايات الفعلية في نحو النص ، وكان ذلك في بحث نشره سنة ١٩٥٢ م بعنوان (تحليل الخطاب) (Discourse Analysis)^(٣) .

ويجدر بنا أن ننبّه إلى أنّ أحد البلاغين العرب المحدثين قد فطن إلى هذه الأسباب سنة ١٩٣١ م ، ودعا إلى تجاوز مستوى الجملة إلى ما وراء الجملة في الفقرة والنص^(٤) ، يقول أمين الخولي : « أمّا وراء بحث الجملة فلا تجد شيئًا ، بل تجد أنّ الأبحاث التي كان المرجو لها أن تتجاوز الجملة قد وردت إليها ، وألّزمت حدودها فقط ، فالبحت في

(١) انظر « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ١٨ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٢٩ ، و« انظر بلاغة الخطاب وعلم النص » ٢٩٨ .

(٣) انظر « علم اللغة النصّي » ١ : ٢٣ ، و« علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ١٨ ، و« البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة » د. جميل عبد المجيد ، ٦٥ ، و« النصّ والخطاب والإجراء » ٨٣ ، وغيرها .

(٤) انظر « في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية » ٤٤ ، وانظر « بلاغة النصّ مدخل نظري ودراسة تطبيقية » د. جميل عبد المجيد ، ١١ - ١٣ .

الإيجاز والإطناب والمساواة مثلاً كان يصحّ فيه النظر إلى غرض الأديب كلّهُ ، وكيف تناوله ، وهل أسهب في ذلك أم أوجز... ، لكنّهم لم ينظروا من ذلك إلّا إلى الجملة أو ما هو كالجمله ، وراحوا يفاضلون بين جملة « القتل أنفى للقتل » ، وجملة « في القصاص حياة » (كذا) بعدد حروفهما ، فهذا التضيق في دائرة البلاغة أثرٌ تسويتها بالاستدلال ، ورجعها إلى المنطق وأخذها بنظامه بعدما اشتدّت الصلة بينهما وزاد عليها ضغطه ... ، إنّنا اليوم نمثّل البحث بعد الجملة إلى الفقرة الأدبيّة ، ثمّ إلى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر ، ننظر إليها نظرتنا إلى كلّ متماسك ، وهيكل متواصل الأجزاء ، نقدّر تناسقه وجمال أجزائه ، وحسن اتّلافه... »^(١) .

فهذه دعوة قيمة ومبكرة جدّاً ، وقد كانت حريّة - لو وجدت من يتابعها - أن تُحدث ثورةً في الدرس اللساني والبلاغي في العربية ، تتقلّ به من نحو الجملة إلى نحو النص^(٢) ، وتبدو هذه الرؤية ناضجة ، وصاحبها يُشخص أسباب ضيق مجال الدراسة اللغوية وعدم إتيانها بشيء ذي بال قياساً على ما يتوقع من توسيع دائرة البحث ، ولكنها ذهبت أدراج الرياح^(٣) .

وما تشترك فيه هذه الدعوات والمحاولات - بغض النظر عن أصحابها - هو أنّ نحو النص كان إفرازًا حتميًا لمجموعة من التحوّلات المعرفية والمنهجية التي جدّت في نظرية اللغة وأصولها ومستوياتها ووظائفها ، والفلسفة العلمية الكامنة وراءها ، وقد بدأ هذا الإفراز يتشكّل منهجيّاً مع الدراسات التي توغّلت في التنظيم الداخلي

(١) « فن القول » أمين الخولي ، ٥٢ ، ١٨٦ .

(٢) انظر « في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية » ٤٦ .

(٣) انظر « نحو النص : دراسة تطبيقية على خطب عمر بن الخطاب » ٢٦ .

لنصوص ، ولا سيّما محاولات هارفيج (Harweg) وإيزنبرغ (Isenperg) ورقية حسن التي ظهرت سنة ١٩٦٨ م .

إذ حاول الأوّل وصف التنظيم الداخلي للنص من خلال الحديث عن بعض العلاقات فيه ، مثل : علاقة الإحالة والاستبدال والتكرار والترادف والعطف والترتيب .

واعتنى الثاني بالبحث في العوامل المتحكّمة في اختيار صاحب النص ، وعلاقة المجاورة بين الجمل . وجعلت الثالثة بحثها الموسوم بـ (علاقات التماسك النحوية في الإنجليزية المكتوبة والمنطوقة) منصباً على كشف علاقات الاتساق في داخل النصوص ، ومعرفة القواعد النحوية التي تنظم النص^(١) .

وبعد ذلك تسارعت الأبحاث في هذا الإطار ، ونشر هاليداي (Halliday) بحثاً عدّ فيه النصّ والسياق وجهين لعملة واحدة ، وأنّ فهم اللغة يستوجب فهم الكيفية التي تعمل بها النصوص ، ويبيّن أثر سياق الموقف في بناء النصّ^(٢) ، كما نشر فان دايك (Van Dijk) كتاباً بعنوان : بعض مظاهر نحو النص (Some Aspects of Text Grammar) سنة ١٩٧٢ م ، اعترض فيه على النحو التقليدي ، ودعا إلى اتباع طرق جديدة في تحليل النصّ والتعامل مع النص على أنّه بنية كبرى ، ومحاولة تحديد القواعد التي تحكم بنية المعنى الكلي للنص^(٣) .

(١) انظر « الأسلوبية ونظرية النص » ١٢٩ ، ١٣٥ .

(٢) انظر « نظرية النقد الأدبي الحديث » ٨٢ ، ٨٤ .

(٣) انظر « علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات » ٢١٩ .

وظهر في سنة ١٩٧٦م كتابٌ مشتركٌ لهاليداي ورقية حسن شكّل أوّل دراسة نصيّة متكاملة ، بعنوان : الاتساق في الإنجليزية (Cohesion in English) عالج فيه مؤلّفاه مفاهيمَ مثل : النص ، والنصيّة ، والاتساق ، وبحثا مظاهر الاتساق مثل : الإحالة والاستبدال والحذف والوصل والاتساق المعجمي ^(١) ، واعتبرا الاتساق جزءاً من مفهوم اللغة ، ومفهوماً دلاليّاً قوامه العلاقات المعنوية الموجودة في النصّ ، وهو في الآن نفسه ما يكون به النصّ نصّاً .

وبعد ذلك بعام ، أعاد فان دايك صياغة ما تجمع له من آراء العلماء المتفرّقة ، ونشر كتاباً بعنوان : النصّ والسياق (Text and Context) ، ركّز فيه على الظواهر الدلالية والتداولية ، وبحث في مفاهيم الترابط والاتساق ومحلل الخطاب ، والعلاقات بين دلالية الخطاب وتداوليته ^(٢) . وقد عدّه بعضهم مؤسّس علم اللغة النصي الذي انبثق منه نحو النصّ ^(٣) .

ثمّ جاء كتاب (النصّ والخطاب والإجراء) لدي بوجراند سنة ١٩٨٠ م ، يمثّل مرحلة متقدّمة ، ويوضّح القضايا الأساسية التي عولجت بشكل أعمق وأشمل ، وأهمّ ما امتاز به هذا الكتاب أنّه يبيّن أنّ الصفة المميزة للنص هي استعماله في الاتصال ، وأنّ الخطاب مجموعة من النصوص ذات العلاقة المشتركة ، ويبيّن معايير النصية لأيّ نصّ ^(٤) ، بعد أن أقام مقارنة بين النصّ والجملّة ^(٥) .

(١) انظر « لسانيات النص » ١١ .

(٢) انظر « النص والسياق » ١٤ .

(٣) انظر « بلاغة الخطاب وعلم النص » ٢٥٢ ، و « دراسة لغوية لصور التماسك النصي » ٤٤ ، و «

نحو النص : اتجاه جديد في الدرس النحوي » ١١ .

(٤) انظر « النص والخطاب والإجراء » ١٠٣ .

(٥) انظر « النص والخطاب والإجراء » ٨٩ .

ومن أهم الدراسات التي عدّها بعض الدارسين نقلة نوعية في نحو النصّ وتحليل الخطاب ما قدّمه براون ويول (G. Brown & G. Yule) بعنوان : تحليل الخطاب (Discourse Analysis) ، ويتمثّل الفرق بين دراستهما وسائر المقاربات التي تناولت النصّ أو الخطاب في أنّهما عدّا الخطاب مادّة وموضوعًا وغاية ، وقد اختزلا وظائف اللغة في وظيفتين هما نقل المعلومات والتفاعلية ^(١) ، كما ركّزا اهتمامهما على المتلقّي للنص أكثر من مُنشئه ، وجعلا تأويل المتلقّي للنصّ من أهمّ عوامل انسجامه ^(٢).

وهذه المحاولات والدراسات - التي بحثت عن وسائل تحليل تجاوزت فيها إطار الجملة - جاءت بمفاهيم وتصورات جديدة ، ولكن ما يجمع بينها أنّها استندت - في القليل النّصي - بصورة متفاوتة إلى أربع مقولات جوهرية ، هي : الاستعمال ، والتأثير ، والتفاعل ، والاتصال ^(٣).

وظيفةُ نحو النصّ :

إنّ الاتساع المعرفي الذي يختص به نحو النص يجعل أداء مهمّته لا يعرف الاجتزاء ، ولا يتوقّف عند حدّ ، ولا يقبل شروطًا مسبقة ، وإنّما ينتقل من مستوى إلى آخر ، وفي إطار وحدة كلية ، وفي صورة منظّمة ، بحيث يعالج ظواهر نصيّة مختلفة ، مثل : علاقات التماسك النحوي النّصي ، وأبنية التطابق والتراكيب المحورية ، والتراكيب المجتزأة ، وحالات الحذف ، والجمل المفسرة ، والتحويل إلى الضمير ، والتنويعات

(١) انظر « تحليل الخطاب » يول وبراون ، ترجمة : د. الزليطني والتركلي ، ١ .

(٢) انظر « لسانيات النصّ » ٤٧ - ٥٠ .

(٣) انظر « اتجاهاات لغوية معاصر في تحليل النص » ١٤٨ . وانظر « نحو النص : دراسة تطبيقية على

خطب عمر بن الخطاب » ٢٧ .

التركيبية وتوزيعاتها في نصوص فردية ، وغيرها من الظواهر التركيبية التي تخرج عن إطار الجملة المفردة ، التي لا يمكن تفسيرها تفسيرًا كاملاً دقيقاً إلا من خلال وحدة النص الكلية^(١) .

وقد حاول د. الفقي^(٢) ترتيب خطوات هذا الأداء بما يأتي :

أولاً : إحصاء الأدوات والروابط التي تسهم في التحليل .

ثانياً : وصف شكل النص ، وموضوعاته ، ووصف هذه الأدوات والروابط .

ثالثاً : التحليل ، بإبراز دور هذه الروابط في تحقيق التماسك النصي مع الاهتمام بالسياق والتواصل .

وهذه المحاولة هي إحدى المحاولات الرامية إلى وضع منهاج علمي يحدد العلاقات النحوية في النص ، ويدرس الترتيب والتنظيم الداخلي، مع التنبيه على أهم الروابط التي تسهل على كل من المبدع والقارئ إدراك التماسك النصي الداخلي وربطه بالمستوى التداولي^(٣) .

وبذلك يمكن لنحو النص أن يقدم تفسيراً مقنعاً لكثير من الظواهر التي توصف بالشذوذ في قواعد اللغة ، ويمكن أن يكون معيناً على تفسيرها تفسيراً مقنعاً ، وكثيراً من الظواهر التي تستعصي على الوصف في اللسانيات المعاصرة يمكن أن تعالج أو تصاغ بطريقة أفضل إذا وصفت من جهة العلاقات القائمة بين الجمل في نص يتصف

(١) « اللغة والإبداع الأدبي » د. محمد العبد ، ٣٣ .

(٢) انظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١ : ٥٦ .

(٣) « الأسلوبية ونظرية النص » ١٤٧ .

بالتماسك، لذلك أصبح نحو النص عند كثير من اللسانيين المعاصرين ضرورة لا اختياراً^(١).

فنحو النصّ ينظرُ إلى النصّ بصورةً كليةً ، ولا يقف عند بنائه التركيبي إلا بقدر ما يؤثر هذا الركن البنائي في النص الكلي .

ومن مهمات نحو النص الأخرى التي توقعها فان دايك أن يمكن من صياغة القواعد التي تمكننا من حصر كل النصوص النحوية في لغة ما^(٢) ، كما توقع دي بوجراند أن تؤثر مساهمات نحو النصّ في دراسات الترجمة لأنها أمر من أمور الأداء التي عَجَزَت اللسانيات التقليدية عن تقديم ما يساعدها في الترجمة الآلية^(٣) .

وهكذا فمهمة نحو النصّ توضيح السمات والخواص الفردية وأشكال الأبنية وأنواع السياقات ومستويات اللغة ودرجات الربط النحوي والترابط الدلالي ، وتحليل الخواص المعرفية العامة التي تجعل من الممكن إنتاج البيانات النصية المعقدة في مرحلة الأداء ، وإعادة إنتاجها في مرحلة التلقي^(٤) .

(١) « العربية من نحو الجملة إلى نحو النص » د. سعد مصلوح ، ٤١٦ .

(٢) « علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات » ١٥٦ .

(٣) « النص والخطاب والإجراء » ٥٧٦ .

(٤) « علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات » ١٤٣ .

المبحث الثالث التماسك النصي

مفهوم التماسك النصي :

أ. التماسك لغة :

تُحصر المعاجم العربية (التماسك) في ثلاثة معاني : الاحتباس والاعتدال والارتباط ^(١) ، فقد ورد في الأصل (م س ك) : تماسك ، وتمسك واستمسك ، ومَسَكَ تَمْسِيكًا ، كُلُّهُ بمعنى : احتبس .

وفي صفته ﷺ أنه كان (بَادِنًا مَتَمَسِكًا) ^(٢) ، أي : أنه معتدل الخلق كأنَّ أعضاءه يمسك بعضها بعضًا .

وقيل : فلانٌ يَتَفَكَّكُ ولا يَتَماسك ، وقيل : إنه لذو مَسَكَةٍ وتماسك ، أي : ذو عقل .
وقيل : ما به تماسكٌ ، إذا لم يكن فيه خيرٌ ^(٣) .

(١) انظر « لسان العرب » (مسك) ١٠ : ٤٨٦ .

(٢) كما ورد في حديث هند بن أبي هالة ، وقد أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » ٢٢ : ١٥٥ ،
والترمذي في « الشرائع » ٢٠ ، والبيهقي في « دلائل النبوة » ١ : ٢٨٦ ، وابن قتيبة في « غريب
الحديث » ١ : ٤٨٨ .

(٣) انظر « أساس البلاغة » (مسك) ٤٢٩ .

وفي المعجم الوجيز (م س ك) : « مَسَكَ بالشيء مَسْكًا : أَخَذَ به وتعلَّق واعتصم . ويُقال : تَمَسَكَ البناءُ : قَوِيَ واشتَدَّ . والتماسُكُ : ترابطُ أجزاء الشيء حسيًّا أو معنويًّا . ومنه : التماسُكُ الاجتماعيّ ، وهو ترابطُ أجزاء المجتمع الواحد »^(١) .

ولم ترد في المعجمات اللغوية إشارة إلى ارتباط هذا الجذر بالنصّ اللغوي ، سواء أكان منطوقًا أم مكتوبًا .

ولم أقف على ذكر لهذا المصطلح في الدراسات اللغوية العربية القديمة أو الدراسات الأدبية النقدية ، وهذا لا يعني إهمال الدراسات العربية مبدأ التماسك في النصوص ، وارتباط أجزائها مكوّنة كلاً متكاملًا ، فقد استعملت مصطلحات متعددة تدلّ على التماسك ، كمصطلح (السبك) و (الانسجام) و (الاتساق) و (النظم) و (الضم) وغيرها ، بيد أن دوران تلك المصطلحات كان محصورًا في كتب البلاغة والنقد .

و الواقع أنّ الثقافة العربية لم تكن بمنأى عن مفهوم التماسك ، لكن المصطلحات المستخدمة فيها والدالة على التماسك تحتاج إلى بعض التحرير ، إذ لم تكن مستقرّة استقرار المصطلحات المعروفة .

من أجل ذلك احتيج إلى مصطلح يكون جامعًا ودالًّا على الإفادة من الدراسات اللسانية الحديثة ، خاصة في ميدان علم اللغة النصي وتحليل الخطاب ، فكان ذلك المصطلح هو مصطلح (التماسك) ، لاسيما أنّ مجاز الاستعمال في هذا الجذر يسمح لنا بالقياس عليه ، ولو أننا تمسكنا بالمصطلح القديم لظنّ ظانُّنا لن نخرج عما أسَّسه الأوائل ، ولن نُعنى بمقولات المحدثين ، وليس ذلك ما نريد .

(١) « المعجم الوجيز » (مسك) ٥٨١ ، ٥٨٢ . مجمع اللغة العربية في القاهرة .

الربط بين المعنى اللغوي للتماسك والمعنى الاصطلاحي :

بالتأمل فيما أورده أصحاب المعجمات العربية من معانٍ يدلُّ عليها الجذر (م س ك)
يمكننا الربط بينها وبين المعنى الاصطلاحي على النحو الآتي :

١ - ف (الاحتباس) في النص ، يعني أن يكون للنص بداية ونهاية ، والرسالة
محبوسة بينهما.

٢ - و (الاعتدال) في النص ، يعني أن يكون للنص معنى وهدف.

٣ - و (الارتباط) في النص ، يعني أن تكون الأفكار فيه والمعاني متعلّقة بعضها
ببعض تعلّقاً منطقيّاً .

٤ - وفي صفة جسد النبي ﷺ أنّه كان (بادئاً متماسكاً) ، فلو أننا شبّهنا النصّ
بالجسد الذي أورده صاحب اللسان لرأينا أنّ التماسك فيه يعني أن يكون
النصّ مشدوداً بعضه إلى بعض ، فلا ينفك منه جزء عن الآخر ، حتى كأنّ
أجزائه يمسك بعضها بعضاً ، كأجزاء الجسد التي تعمل في تكامل عضويّ
واعتبار متبادلٍ بينها ، فلا يستغني عضوٌ فيه عن الآخر ، وهكذا هي الحال في
النصّ ، إذ تعمل جملة وقضاياها في تكاملٍ عضويّ ، تعتمد الجملة اللاحقة على
السابقة ، ولا تستغني عنها .

٥ - و (يتفكّك ولا يتماسك) ، فالمزاوجة بين التفكّك وعدم التماسك دليلٌ على
أنهما شيء واحدٌ ، وإذا علمنا أنّ التفكك هو الانفصال وعدمُ التعلّق
والارتباط تبيّن لنا أنّ الضدّ هو التلاحم والتعلّق ، وذلك من أبرز خصائص
النصّ .

٦ - و (إنّه ذو مَسَكَةٍ وتماسك ، أي : ذو عقل) ، فإذا كان التماسك هو
العقل ، فإنّ من معاني العقل الربط والإيثاق . والربط هو من أبرز خصائص
النصّ .

٧ - و (ما به تماسكٌ إذا لم يكن فيه خيرٌ) فهذا المجاز يمكن أن يشير إلى كون النص لا يعدّ نصّاً متماسكاً ما لم يكن محتوياً على موضوع ، ولم تكن أفكاره مترابطةً ترابطاً منطقيّاً معتدّاً به ^(١).

٨ - و (تماسك البناء : قوّي واشتدّ ، والتماسك : ترابط أجزاء الشيء حسياً أو معنوياً) من خلال هذه المعاني التي أقرّها مجمع اللغة العربية في معجميه : الوسيط ^(٢) ، والوجيز ، أرى صحّة استعمال مصطلح (التماسك النصي) ؛ لكون النصّ بناء له أجزاء وعناصر ، يحتاج إلى دعائم وروابط تقويه وتشدّ بعضه إلى بعض ليكون كالشيء الواحد . ويمكننا حملُ الترابط الحسّي على (التماسك عن طريق الأدوات الشكلية : النحوية والمعجمية) ، وحمل الترابط المعنوي على (التماسك الدلالي) وهو ما يسمّى بـ (الانسجام) .

ويمكننا أن نخرج من ذلك بتعريف للتماسك النصّي فنقول : إنّهُ تعلّق عناصر النصّ بعضها ببعض ، بوساطة أدوات شكلية أو علاقات دلالية ، تسهم في الربط بين عناصر النصّ الداخلية ، والنصّ والبيئة المحيطة من ناحية أخرى ، لتكون في النهاية رسالة يتلقّاها متلقٌ فيفهمها ويتفاعل معها سلبيّاً وإيجابيّاً ^(٣).

(١) انظر « التماسك النصي دراسة تطبيقية في نهج البلاغة » عيسى جواد الوداعي ، ٢١ - ٢٢ .

(٢) انظر « المعجم الوسيط » (م س ك) ٢ : ٨٦٩ .

(٣) انظر « التماسك النصي دراسة تطبيقية في نهج البلاغة » ٢١ - ٢٢ .

التماسك النصي عند النحويين العرب :

لعل من أبرز مآخذ النصيين الغربيين على من سبقهم من المدارس اللسانية كونهم اتخذوا من الجملة الوحدة الكبرى في التحليل اللغوي ، وقد تبعهم المحدثون العرب الذين اهتموا بعلم اللغة النصي ، فردّوا ما قال أولئك ، متّهمين النحو العربي بأنّه نحو جملة ، وأنّه لم ينظر إلى النصوص على أنّها وحدة متماسكة .

وحقيقة الأمر أنّه ينبغي أن ننظر إلى هذا الادّعاء بشيء من التريث والاستقراء لما جاء من عند النحويين العرب من إشارات ترتبط بهذا الموضوع ، كما فعلوا مع غيرهم من البلاغيين والمفسرين ، حيث أثبتت البحوث في هذا الميدان أن للبلاغيين والمفسرين العرب دورًا كبيرًا في الوقوف على كثير من قضايا التماسك النصي .

وما قدمه محمّد خطابي في دراسته الرائدة عن انسجام الخطاب خير دليل على ما نحن بصددّه ، فقد تتبع الإسهامات العربية التي عُيّنت بالتماسك النصي ، وعرض لجهود البلاغيين والنقاد والمفسرين ، ويّين إسهام كلّ فريق ، معضدًا ذلك بكثير من الشواهد والنقول^(١).

لكنّه غيّب جهود النحويين فيها قدّمه ، ممّا يوهم بعدم اهتمام النحويين العرب بقضية التماسك النصي ، وهو أمر الملح إليه إلماحًا ، وصرّح به د. محمد العبد في قوله : « لا يكاد يتقدّم أحدٌ من النحاة أو اللغويين باختبار قواعده أو مسائله اللغوية من خلال النصوص الأدبية ذاتها ، ولا تكاد هذه الصورة تلتئم في تراثنا إلّا على يد طائفة من

(١) « لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب » ٩٥ - ٢٠٥ .

المفسرين ، الذين انطلقوا من منطلق لغوي ، تسانده المعرفة البلاغية الواسعة ، والذوق السليم ، والحس المرهف ^(١) .

والحق أن هذه دعوى تحتاج إلى دليل ، لما فيها من مخالفة لبدييات التأليف النحوي ، إذ إن النحويين بدءاً من سيبويه لم يقعدوا قاعدة - خلا مسائل التمرين - إلا حشدوا لها من النصوص الأدبية - منظومها ومثورها - ما يؤكدها ويعززها ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أكثروا من التدقيق والتحقيق في معرفة النص الأدبي الذي يرومون التقييد عليه من حيث قائله وزمانه ومكانه ، وبذا يبدو غريباً كل الغرابة الزعم بأن النحويين لم يختبروا قواعدهم من خلال النصوص الأدبية ^(٢) .

وإن كان المقصود من تلك الدعوى عدم استشهاد النحويين بنصوص تامة غير مبتورة ، فإن ذلك خاضع لطبيعة الاستشهاد نفسه ، إذ يساق من النص موضع الشاهد لا غير ، ولو أنهم نقلوا النص كاملاً في كل مرة يستشهدون بجزء منه لاختلطت القواعد ، ولألبس على المتعلم والدارس موطن الاستشهاد ، وبذلك يبطل الهدف من وضعهم الكتب ، إذ الهدف منها تعليم الطلاب وتحصين ألسنتهم من الوقوع في اللحن .

وقد نفى د. سعد مصلوح أي صلة للنحو العربي بالدراسة النصية ، وذكر أن هناك نمطين من النحو ، الأول : نحو الجملة ، والثاني : نحو النص . أما نحو الجملة فإنه ينتمي النحو العربي بصورته المعروفة ، وهو طراز من التحليل النحوي يقيد معالجته بحدود الجملة ، ويرى فيها أكبر وحدة لغوية يطمح إلى تحليلها وتقعيدها ، على خلاف بين المدارس اللسانية في مفهوم التقعيد نفسه . وأشار إلى أن نحو الجملة يعدّ قواعدها

(١) « اللغة والإبداع الأدبي » ١٧ .

(٢) انظر « التماسك النصي دراسة تطبيقية في نهج البلاغة » ٢٤ .

متهى همّه ومبلغ علمه ، فلا يقرّ للنصّ بكونه متميزة توجب معالجة تركيبه معالجة نحوية تستجيب لمقتضيات بنيته ، وتكون مؤهلة لتشخيصها ووصفها ، وبهذا يقع النصّ خارج مجال الدرس النحوي^(١) .

وبالنظر في كتب النحو نجد أنّ النصّ ومعايره لم يكن خارج مجال الدرس النحوي العربي ، وإنّ غابت المصطلحات الدالّة عليه ، ولا أقصد بذلك القول إنّ النحويين العرب والبلاغيين والمفسرين قد أرسوا قواعد الدراسة النصيّة كما هي عليه الآن ، بل كانوا على علمٍ بقضيّة ترابط النصّ واعتباره كلّاً متماسكاً ، يرتبط كلّ جزء منه بالآخر ، وكذا أثر السياق والجانب التداوليّ في النصّ ، نلاحظ ذلك كلّهُ ضمناً في أعمالهم ، ولم يصرّحوا بذلك إلّا في مواطن قليلة ، ومن ذلك :

قول ابن جنّي (ت ٣٩٢ هـ) : « إنّ » الكلام إنّما وُضِع للفائدة ، والفائدة لا تُجنى من الكلمة الواحدة ، وإنّما تُجنى من الجُمْلِ ومدارج القول ، فلذلك كانت حالُ الوصلِ عندهم أشرف وأقوم وأعدل من حال الوقف^(٢) .

وإذا كانت الفائدة لا تتحصّل من الكلمة الواحدة ، فإنّ الفائدة التامة كذلك لا تتحقّق من خلال جملة واحدة مبتورة من سياقها ، ذلك أنّ المتكلم بحاجة للإبانة عما في نفسه إلى أكثر من جملة ، وهذا ما يمكن فهمه واستنباطه من استخدام ابن جنّي للفظ (الجُمْل) مجموعاً ، ولتفضيله حال الوصل على الوقف ، فالوصل تتابع من الجمل المتناسكة .

(١) انظر « العربية من نحو الجملة إلى نحو النصّ » ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(٢) « الخصائص » لابن جنّي ، تح : محمد علي النجار ، ٢ : ٣٣١ .

كذلك فإنّ للسياق الذي ترد فيه الجملُ دورًا في تحديد المعنى، فقد تعني الاستفهام في مقامٍ ، وتعني التعجب أو غيره في مقام آخر، كما أنّ السياقات قد تتعدّد ، وهذا ما يستفاد من قوله : (مدارج القول) الذي استخدمه مجموعًا.

ولعلّ هذا الفهم والاستنباط يخالف ما ذهب إليه بعضُ المحدثين، حيث يرى أنّ التحليل النحوي لدى النحويين القدامى كان يبدأ « باجتزاء الجمل ، وعزلها تقريبًا عن سياقها في النص أو الخطاب »^(١) ، لكن حقيقة الأمر أنّ النحويين العرب أولوا السياق الذي ترد فيه الجملة عنايةً كبرى ، ووضحوا ما لا يدع مجالًا للشك أهميته في فهم الجمل^(٢).

وقول السهيلي (ت ٥٨١ هـ) في (أم) المنقطعة المشوبة لمعنى الإضراب والاستفهام : إنها « لا ينبغي أن تكون في القرآن ، وإن كانت فعلى جهة التقرير ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي ﴾ الزخرف : ٥٢ ، وأحسبُ جميع ما وقع منها في القرآن إنّما هو على أصلها الأوّل من المعادلة ، وإن لم يكن قبلها ألف استفهام ، نحو قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ الطور : ٣٠ ، و﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ الكهف : ٩ ؛ لأنّ القرآن كلّهُ مبنيٌّ على تقرير الجاحدين ، وتبكيّ المعاندين ، وهو كلّهُ كلامٌ واحدٌ ، كأنّه معطوفٌ بعضُهُ على بعض ... »^(٣).

وهذا التصوّر الذي نجده عند السهيلي لا يبعدُ عن تصوّر المحدثين للنصّ المتناسك.

(١) « العربية من نحو الجملة إلى نحو النص » ٤٠٧ .

(٢) انظر « التماسك النصي في نهج البلاغة » ٢٥ .

(٣) « نتائج الفكر في النحو » للسهيلي ، تح : محمد إبراهيم البنا ، ٢٦١ .

وابن هشام (ت ٧٦١ هـ) يصرح « بأن القرآن كله كالسورة الواحدة ، ولهذا يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى ، نحو : ﴿ وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ الحجر : ٦ ، وجوابه : ﴿ مَا أَنْتَ بِعَمَةٍ رَّبِّكَ يَمْجُرُونَ ﴾ القلم : ٢ » ^(١) .

فالقرآن - بما ينطوي عليه من موضوعات مختلفة ، وقصص متعددة ، وتشريعات كثيرة ، وغير ذلك - نص واحد ، مما يؤسس لنظرة شاملة للنص القرآني ، يمكن بمقتضاها تتبع التلاحم والتماسك بين آياته وسوره ، وتلك نظرة أفاد منها مفسر كبير هو الإمام البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) ، إذ أدار حديثه في تفسيره الموسوم بـ (الدرر في تناسب الآيات والسور) على تبيان تماسك الآيات ، وارتباط كل سورة بسابقتها ولاحققتها ، حتى إنه يبين ارتباط سورة الناس وهي آخر سور القرآن بالفاتحة وهي أول سورة .

ولم يكتف النحويون بالتنظير ، بل عاجلوا بعض المسائل منطلقين من كون النص وحدة متماسكة ، ومن ذلك على سبيل التمثيل معالجة السهيلي لإفراد الخبر مع (كل) وهي غير مضافة إلى شيء بعدها ، وذلك في قوله تعالى ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَيْهِ ﴾ الإسراء : ٨٤ ، و ﴿ كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ ق : ١٤ إذ لم يقل : كذبوا ؛ لأن « في هاتين الآيتين قرينة تقتضي تخصيص المعنى بهذا اللفظ دون غيره ، أما قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَيْهِ ﴾ فلاّن قبلها ذكّر فريقين مختلفين ، وذكر مؤمنين وظالمين ، فلو قال : (كل يعملون) وجمعهم في الإخبار عنهم لبطل معنى الاختلاف ، فكان لفظ الأفراد أدل على المراد ، كأنه يقول : كل فريق يعمل على شاكلته .

(١) « مغني اللبيب » لابن هشام ، تح : مازن المبارك وآخرون ، ١ : ٢٤٩ .

وأما قوله تعالى : ﴿ كُلُّ كَذِّبٍ أَلْسِنَةٌ ﴾ ؛ فلا تَه ذكر قرونا وأما ، وختم ذكرهم بذكر قوم تبع ، فلو قال : (كل كذبوا) - و (كل) إذا أفردت إنما تعتمد على أقرب المذكورين إليها - فكان يذهب الوهم إلى أن الإخبار عن قوم تبع خاصة ، أنهم كذبوا الرسل ، فلما قال : (كل كذب) عُلِمَ أنه يريد كل قرن منهم كذب ؛ لأن أفراد الخبر عن (كل) حيث وَقَعَ إنما يدلُّ على هذا المعنى كما تقدّم ^(١) .

هذا ، ولم تقتصر معالجة النحويين النصية على النص القرآني ، بل تعدت ذلك إلى مستويات أخرى من النص المنشور والمنظوم ، وضحوا من خلالها ارتباط أول النص بآخره ، ومن ذلك :

معالجة السهيلي لمسألة إثبات (أل) التعريف وحذفها من لفظة (السلام) في الكتب والرسائل ، حيث قال : « وأما أوائل الرسائل فقد أجمع على إسقاط الألف واللام فيها ؛ إذ قد تقدّم أنها مشعرة بالعموم ، والكاتب مؤكّد لخصوص نفسه بالتسليم ، مشعر بسلامة وُدّه للمكتوب إليه ، لا سيما عند افتتاح الكلام ، ليستشعر المكتوب إليه الأناس والسلامة من الكاتب على الخصوص ، من غير التفات إلى طلب العموم ، وهذا المعنى كلّه إنما يحصل بإسقاط الألف واللام ، فإذا ختم الرسالة قال : (والسلام عليك) معرّفًا ، وذلك لثلاث فوائد : ... والفائدة الثالثة بديعة جدًا ، وهي أن الواو العاطفة توجب بناء الكلام على ما تقدّم ، لا نقول كما قال القُتَيْبِيُّ : إنهم أرادوا السلام المتقدم عليكم ، لما رأى أن الألف واللام تكون للعهد ، فإن في ذلك نقصًا للأدب ، وشحًا بسلام مُجَدِّدٍ ، وإخلالًا بمقاصد السلف ؛ لأنهم لا يريدون : السلام

(١) « نتائج الفكر في النحو » ٢٨٠ .

المتقدّم عليك ، وهذا غثٌ من القول ! ولكن أشعرت الواو بعطف فصلٍ على فصلٍ من الكتاب ، فلمّا فرغ منها قال : والسلام ، يريدُ : وبعد هذا كلّهُ السلام عليك «^(١) .

وجدير بالملاحظة أنّ قول السهيلي : « ولكن أشعرت الواو بعطف فصلٍ على فصلٍ من الكتاب » يعني ارتباط فصول الكتاب ببعضها ، ممّا يجعله كلّاً متماسكاً ، يفضي فصلُهُ الأوّل إلى الثاني ، ويكون الثاني مفسّراً للأوّل أو متممًا له .

وليس هذا النوع من العطف ببعيد عن التفكير النحوي ، فقد ذكروا من أقسام العطف ما سمّوه (عطف القصة على القصة) ، وهو « أن يعطف جملاً مسوقة لغرضٍ على جملٍ مسوقة لغرضٍ آخرٍ لمناسبة بين الغرضين ، فكلّما كانت المناسبة أشدّ كان العطف أحسن ، من غير نظر إلى كون تلك الجمل خبريّة أو إنشائيّة ، فعلى هذا يشترط أن يكون المعطوف والمعطوف عليه جملاً متعددة ... ، فقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ البقرة : ٢٤ إلى قوله : ﴿ وَيَبْشِرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ البقرة : ٢٥ ، ليس من باب عطف الجملة على الجملة ، بل من باب ضمّ جملٍ مسوقة لغرضٍ إلى جملٍ أخرى مسوقة لغرضٍ آخر ، والمقصودُ بالعطف المجموعُ »^(٢) .

فإذا لحظنا بُعد ما بين الآيتين اللتين استشهد بهما علمنا لا محالة ارتباط هذا العدد الكثير من الجمل بمحاور متعددة ، تشكّل في نهايتها نصّاً متماسكاً ؛ إذ المقصود بالعطف (المجموع) ، وهو ما يرادف النصّ في هذا السياق .

أمّا ما جاء به النصّيون من دور المتلقي في إنتاج النصّ وفهمه ، فلم يكن بمنأى عن تفكير النحويين الأوائل ، الذين عُتوا بالمخاطب ، بوصفه أحد أركان النصّ ، ذلك أنّ

(١) « نتائج الفكر في النحو » ٤١٧ .

(٢) « كشاف اصطلاحات الفنون » ٢ : ١١٨٩ .

العمليات النصية التي يجريها المتكلم إنما تكون وجيهة إذا أُخِذَ المخاطب في الاعتبار ،
وإلا عُدَّت من قبيل الطلاس اللغوية التي لا يُهتدى إلى معرفتها ، يقول سيبويه : « إنما
تُضمَرُ اسمًا بعدما تعلم أن من يُحدِّث قد عرف من تعني وما تعني ، وأنتك تريد شيئًا
يعلمُهُ » ^(١) .

إذن فليس المتكلم هو الوحيد في عملية الإنتاج اللغوي ، بل للمخاطب دورٌ
مركزيٌّ فيها ، وحديث النحويين عن المخاطب يدلُّ على تنزيله المنزلة الأولى في عملية
الاتصال اللغوي ، ذلك أن « الكلام صفة قائمة في نفس المتكلم ، يعبرُ للمخاطب عنه
بلفظ أو لحظ أو بخط ، ولولا المخاطب ما احتيج إلى التعبير عما في نفس المتكلم » ^(٢) .

ويؤكد السهيلي هذه الفكرة فيقول : إنه « لولا المتكلم المخاطب ما احتيج إلى التعبير
عن الكلام القائم بالنفس بعبارة ولا إشارة ، فعمدة الكلام الذي هو اللفظ إنما هو
المتكلم المخاطب » ^(٣) .

كما لاحظ النحويون أن المخاطب في حقيقته مشارك المتكلم في معنى الكلام ، وهو
ما يعبرُ عنه المحدثون بالمتلقي الإيجابي ودوره في تحقيق معنى النص ، فإنه « لما كان
المخاطب مشاركًا للمتكلم في معنى الكلام ، إذ الكلام مبدؤه من المتكلم ومنتهاه عند
المخاطب ، ولولا المخاطب ما كان كلام المتكلم لفظًا مسموعًا ، ولا احتاج إلى التعبير

(١) « الكتاب » لسيبويه ، تح : عبد السلام هارون ، ٦ : ٢ .

(٢) « نتائج الفكر » ٢١٨ .

(٣) « نتائج الفكر » ٢٢٢ .

عنه ، فلمّا اشتركا في المقصود بالكلام وفائدته اشتركا في اللفظ الدال على الاسم الظاهر»^(١) .

ولو أمعنا النظر في تلك الأمثلة لوجدنا أنّ النحويين قد أصلوا لقضية ترابط النصّ ، من خلال حديثهم عن النصّ القرآني ، وغيره من النصوص الثرية والشعرية ، وقد أداروا النقاش على هذه الفكرة كما تقدّم ، وتمكّنوا بعملهم هذا أن يكشفوا « عن جهاز يتجاوز نظريّة العامل به ويفسر تركّب الخطاب ، وأسرار خطيّة مكوّناته ، وبه تدبّروا لما خذلتهم البنية العلامية ضرباً آخر من العلاقات بين مكوّناته ، وبه فسروا ما يقوم عليه التخاطب من حيث هو إجراء وحدثان من حركيّة »^(٢) .

يتبيّن لنا مما سبق أنّ النحويين لم يكونوا بمعزلٍ عن قضية النص المترابط ، بل إنهم كانوا - كغيرهم من بلاغيين ونقاد ومفسّرين - ينظرون إلى النصّ بوصفه كُلاًّ واحداً متماسكاً ، وأنّ تلك النظرة كانت مستبطنّة في أعمالهم ، فلم يصرّحوا بها إلا في بعض المواطن ؛ وذلك لغلبة المنهج التعليمي المرتبط بمستوى الجملة الواحدة^(٣) .

التماسك النصّي في الدراسات الغربية :

اعتنت الدراسات النصّية الغربية بمفهوم التماسك بوصفه العمود الفقري لما يُفرّق بين النصّ وغير النصّ ، بيد أنّ هذا المفهوم ظلّ مشوباً بشيء من الغموض والتداخل ، إذ لم تتفق الدراسات النصّية الغربية على تعريفٍ محدّد له ، وتلك مشكلة يرى بعض

(١) « نتائج الفكر » ٢١٩ .

(٢) « أصول تحليل الخطاب » ١ : ٢٦٨ .

(٣) انظر « التماسك النصّي في نهج البلاغة » ٣٠ .

الباحثين أنّها « تنبثق من طبيعة النص ذاته ، إذ تنصبّ عليه بحوثٌ متعددة الاختصاصات والتوجّهات ، مما يجعل تحديد مفهوم عامّ للتماسك أمرًا عسيرًا »^(١) .

وبالوقوف على هذا الرأي نجده قد احتوى وجهين :

الأول : كون النص قد نُظِرَ إليه من زوايا متعددة ، فتتج من تلك الزوايا تعريفاتٌ كثيرةٌ للنص ، فهذا واضح لا شك فيه .

والآخر : أنّ تحديد مفهوم للتماسك قد بات أمرًا عسيرًا ، فهو بحاجة إلى مزيد تأمل ونقاش ، ذلك أنّ تعريفات النصّ المتعددة باختلاف توجهاتها كانت تتفق في كون التماسك المؤشّر الأبرز في وجود النصّ ، وآته الرابط بين أجزاء النصّ ، وهو الذي يحقق للنصّ وجوده ، فيفرّق بين النصّ وغير النصّ .

وإذا تتبعنا تعريفات (التماسك) المختلفة ، والفروق المذكورة بينهما ، فإنّه يمكننا حصر مفهوم (التماسك) في الدراسات الغربية في اتجاهين رئيسين :

الأول : يرى أنّ التماسك خاصيّة نصيّة تتحقّق من خلال النصّ ذاته ، وينقسم القائلون بهذا إلى أقسام ثلاثة :

- ١ - من يرى أنّ التماسك أمرٌ شكليّ .
- ٢ - من يرى أنّه أمرٌ دلاليّ .
- ٣ - من يمزج بينهما ، فيرى أنّ التماسك مركّب من الشكل والدلالة ، ولا يمكن الفصل بينهما ، وأنّ وجود أحدهما مؤشّر على وجود الآخر .

(١) « بلاغة الخطاب وعلم النص » ٣٤٠ .

الثاني : يرى بأنه لا يمكن أن نصف نصًا ما بأنه متماسك أو غير متماسك بعيدًا عن المتلقي ، بل إنَّ المتلقي هو الذي يحكم على النصِّ بالتماسك أو عدمه ، وعلى هذا فالتماسك أمرٌ خارجي^(١).

ونشأ الخلاف في تعريف (التماسك) عند أصحاب المذهب الأول من اعتماد مصطلحين في اللغة الإنجليزية ، هما : (cohesion) و (coherence) ، فقد عدهما بعض الباحثين شيئًا واحدًا ، في حين رأى آخرون أنَّ فرقًا بينهما يجب أن يُلاحظ ، باعتبار الأول مرتبطًا بالبنية السطحية للنص ، في حين يرتبط المصطلح الثاني بالبنية العميقة للنص^(٢).

وعند العودة إلى تعريفات كلا المصطلحين في الدراسات النصية والمعاجم اللسانية المتخصصة ، نجد أنها لم تتفق على تعريف واحد لأيٍّ منهما ، فالخوئي يجعل التماسك (cohesion) في حدود ضيقة لا تتعدى الكلمة الواحدة ، وذلك في تعريفه التماسك بأنه: « درجة التجاذب بين عنصرين لغويين في جملة واحدة ، مثلًا : تتماسك (ly) مع (quick) في كلمة (quickly) أكثر من تماسك (quickly) مع (came) في (He came quickly) »^(٣).

ومثل هذا التعريف نجده في (معجم المصطلحات اللغوية) إذ جاء فيه أنَّ التماسك (cohesion) هو « مدى الترابط بين عنصرين لغويين (مورفيمين أو كلمتين) أو أكثر . ويكون هذا الارتباط أقوى ما يكون بين المورفيم الحر ، والمورفيم المقيد الذي

(١) وإليه ذهب براون ويول ، انظر « تحليل الخطاب » ك . وانظر « لسانيات النص » ٥١ .

(٢) انظر « التماسك النصي في نهج البلاغة » ٣٢ .

(٣) Muhammad Ali Al Kholi : A Dictionary of Theoretical Linguistics . P 45 .

يتصل به ، نحو : أخذت (أخذ + ت) . ومن المواضع التي تظهر فيها قوة الترابط ما ذكر النحاة العرب أنه لا يجوز فصله بالأجنبي ، ولا سيما المضاف والمضاف إليه »^(١) .

وهذان التعريفان غير صالحين لوصف التماسك النصي ؛ لاعتمادهما على المفردة الواحدة في حال استقلالها أو ارتباطها بغيرها في حالة الإضافة ، أو الجار والمجرور ، وبحسبنا إنما هو في النص باعتبار الوحدة الكبرى في التحليل اللغوي .

أما رقية حسن فإنها تعرف التماسك (cohesion) بأنه : « ما يجعل النص مترابطاً ، وقد يكون ذلك الترابط نحوياً أو معجمياً ، أو صوتياً كما في النصوص الشفاهية »^(٢) .

ونلاحظ في هذا التعريف عمومته ، وعدم تحديده بشيء ، ومن ثم لا يصلح أن يكون تعريفاً جامعاً ، فما الذي يجعل النص مترابطاً ؟ وهل هو مجرد ربط شكلي تدل عليه أداة نحوية أو صرفية ؟ وماذا يقال في نص يرتبط بعضه ببعض ، من غير وجود روابط نحوية أو صرفية ؟ وهذا ما أخذه ريتشاردز (J. Richards) على مثل هذا التعريف ، فإنه قد ترتبط جملتان أو أكثر من غير أن يكون بينهما رابط نحوي أو معجمي ، وساق على سبيل المثال جملتين :

A: Could you give me a lift home ?

B: Sorry, I'm visiting my sister .

(أ: هل بإمكانك أن توصلني إلى البيت ؟ ب: عفواً ، أنا ذاهب لزيارة أختي)

(١) « معجم المصطلحات اللغوية » رمزي بعلبكي ، ٩٧ .

(2) Ruqaya Hasan : Gramatical cohesion in spoken and written English, P : 3 .

إذ لا توجد روابط نحوية أو معجمية بين السؤال والإجابة ، لكن حَدَثَ التماسكُ؛
لأنَّ كلاً من (A) و (B) يعرف أنَّ أخت (B) تعيش في الاتجاه المقابل لمنزل (A) .
ثم يستنتج ريتشاردز أنَّ النصَّ « يصبح متماسكاً إذا وجدت سلسلة من الجمل
تطور الفكرة »^(١) .

وقد تأثر بوسمان (Hadumod Bussmann) بتعريف رقية حسن السابق،
فقال: « يعتمد التماسك على عدّة معانٍ لسانية (نحوية و معجمية وصوتية) تلتصق
بوساطتها الجمل بعضها ببعض ، مكوّنة وحدة أكبر ، كالفقرة أو المقطع النصّي » .

ويضيف قائلاً : « إنَّ التماسك قد ينتج بوساطة أمور عدّة ، منها :

- ١ - تكرار بعض عناصر النص .
- ٢ - ضغط بعض عناصر النصّ بوساطة الحذف .
- ٣ - استخدام بعض العناصر النحوية أو الصرفية لإظهار بعض العلاقات بين
الجمل ، كاستخدام الروابط أو العلاقات الإسنادية أو غيرها »^(٢) .

ويقال فيما أورده بوسمان ما قيل في تعريف رقية حسن ، ونزيد عليه : ما المقصود
بالالتصاق (stick together) هنا ؟ ألا يحيلنا إلى مجرد عملية ميكانيكية شكلية ؟
أليس في استخدام مفردة (stick) إحالة إلى الصمغ أو الغراء الذي يلصق الأشياء
بعضها ببعض ؟ وإذا قلنا بهذا فإنَّ الغراء قد يلصق جسمين مختلفين ، ولا يكونان
بالضرورة شيئاً واحداً ، فهاتان جملتان ارتبطتا برابط نحوي ، ولا تعدّان مع ذلك
متماسكتين ، وعلى الرغم من وجود الرابط (لأنّ) بين الجملتين : (يدور القمر حول

(1) J. Richards : Longman Dictionary of Applied Linguistics, P: 45.

(2) Hadumod Bussman : Routledge Dictionary of Language and
Linguistic, P: 81 .

الأرض ؛ لأنّ الطّقس جميلٌ) لكنهما لا تكونان نصّاً متماسكاً ؛ لأنّ الوقائع غير مترابطة ، فليس لواقعة (الطّقس الجميل) أية علاقة بالواقعة العامة ، وهي أنّ القمر يدور حول الأرض ^(١) .

ولعلّ هذا ما جعل هاليداي ورقية حسن يعتبران مفهوم (cohesion) متضمّناً علاقات المعنى العام لكلّ طبقات النصّ ، تلك العلاقات التي « تميّز النصّي من اللانصّي، وتكوّن علاقة متبادلة مع المعاني الحقيقية المستقلة للنص مع الآخر ، فالتماسك (cohesion) إذن لا يركّز على ماذا يعني النصّي بقدر ما يركّز على كيفية تركيب النصّ باعتباره صرحاً دلاليّاً » ^(٢) .

ومن هنا رأى نصيّون آخرون أن يميّزوا بين مصطلحين اثنين ، يختصّ الأول وهو (cohesion) بوصف التماسك الشكلي الذي يبرز على سطح النص في صيغة معجمية أو صرفية أو نحوية ، في حين يصف الثاني وهو (coherence) التماسك الدلالي الذي يكون على مستوى البنية العميقة للنص .

ولمّا كان التماسك حاصلًا بامتزاج الشكليّ والدلالي ، إذ يكون أحدهما دليلًا على وجود الآخر ، فقد رأى بعض النصيين أن يوحدوا بينهما ، ويجعلوا مصطلح (cohesion) دالًّا على الأدوات الشكلية ، كالروابط النحوية ، ودالًّا في الوقت نفسه على العلاقات الدلالية التي تفيد في جعل النصّ وحدة واحدة ^(٣) .

(١) انظر « علم النص مدخل متداخل الاختصاصات » ٥٣ ، وانظر « التماسك النصّي في نهج البلاغة » ٣٣ .

(2) Halliday & Hasan : Cohesion in English, P:26 .

وانظر « علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق » ٩٥ : ١ .

(٣) انظر « علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق » ٩٦ : ١ .

التماسك النصي في الدراسات العربية الحديثة :

أفاد كثير من الدارسين العرب المحدثين من معطيات العلوم اللسانية الغربية ، وكان لنحو النص وتحليل الخطاب وجود في تلك الدراسات ، ويمكن تقسيم الدراسات العربية التي اهتمت بنحو النص وتحليل الخطاب ثلاثة أقسام من حيث الاهتمام بقضية التماسك النصي :

القسم الأول : لم يعرف مصطلح التماسك ، بل قرر أن تحديد مفهوم التماسك أمرٌ عسيرٌ ، ومن أجل ذلك جاء الحديث عن التماسك عائماً غير محدد ، ذلك أنه « يمكن القول إن التماسك النصي ليس مجرد خاصية تجريدية للأقوال، ينبغي أن نعالجها في علم الدلالة أو في نظرية الخطاب أو في نحو النص ، ولكنه ظاهرة تأويلية ديناميكية من الفهم المعرفي ، تتدخل فيها أنواع عديدة من المعارف الذاتية »^(١) .

في حين اكتفى د. محمد مفتاح بالقول إن مقولة التماسك مقولة عامة ، وأدرج تحته كلاً من التنضيد والتنسيق والاتساق والانسجام والتشاكل والترادف ، وقد وزّع تقنيات التماسك وأدواته الشكلية والدلالية على هذه الأنواع من غير أن يبين ماهية التماسك نفسها^(٢) .

القسم الثاني : اكتفى بعرض ما قيل في النظرية النصية الغربية ، فراح يعرض كتباً ودراسات غربية ، متبّعاً ما قاله هذا النصي أو ذاك . ولعل أبرز الدراسات العربية

(١) « بلاغة الخطاب وعلم النص » ٣٤٠ .

(٢) انظر « التلقي والتأويل : مقارنة نسقية » د. محمد مفتاح ، ١٥٧ - ١٥٩ . وانظر « التشابه

والاختلاف : نحو منهجية شمولية » د. محمد مفتاح ، ١٢٥ - ١٤٤ .

المثلة لهذا القسم هي دراسة محمد خطّابي ، الموسومة بـ (لسانيات النص : مدخل إلى انسجام الخطاب) ، إذ عرض آراء هاليداي ورقية حسن وبراون ويول وغيرهم ^(١) .

وقد سار على الطريق نفسها عمر أبو خزيمة في دراسته الموسومة بـ (نحو النصّ : نقد النظرية وبناء أخرى) ، حيث اختصر كثيراً من القضايا ، وحاول مناقشة بعضها الآخر .

القسم الثالث : حاول الاقتراب من مفهوم التماسك وعرفه ، ثم طبّقه على نصوص عربية . وقد انقسم باحثو هذا القسم فئتين :

الأولى : فرّقت بين ما يفيد التماسك الشكلي ، وهو المرادف لمصطلح (cohesion) ، وما يفيد التماسك الدلالي ، وهو المرادف لمصطلح (coherence) في الدراسات الغربية ، ومن هذه الفئة د. سعد مصلوح ، الذي جعل للتماسك الشكلي مصطلح (السبك) ، وعرفه بأنّه « الوسائل التي تتحقق بها خاصية الاستمرارية في ظاهر النص . ونعني بظاهر النص الأحداث اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني ، والتي نخطها أو نراها ، بها هي كمّ متصلّ على صفحة الورق » ^(٢) .

أما التماسك الدلالي فقد سمّاه (الحبك) ، وعنى به « الاستمرارية المتحققة في عالم النصّ ، ونعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم » ^(٣) .

(١) انظر « لسانيات النص » ٩٢ - ١١ .

(٢) « في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة » ٢٢٧ .

(٣) « في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة » ٢٢٨ .

والأخرى : قدّمت تعريفاً للتماسك ، وأفادت من مزج الغريبيين المصطلحين في مصطلح واحد هو (التماسك) ، فانطلقوا من تعريفهم التماسك من منطلق المزج بين المستوى الشكلي والمستوى الدلالي ، ومن أولئك د. صبحي الفقي الذي عرّف التماسك النصّي بأنّه « العلاقات أو الأدوات الشكلية والدلالية التي تُسهم في الربط بين عناصر النصّ الداخلية ، وبين النصّ والبيئة المحيطة من ناحية أخرى »^(١) .

ومنهم د. سمير استيتية الذي لم يذهب بعيداً عن تعريف د. الفقي ، فالتماسك عنده « مجموعة من العلاقات اللفظية أو الدلالية بين أجزاء النص ، إذ تلتحم هذه الأجزاء ويتماسك بعضها مع بعض ، بحيث إذا غاب هذا الالتحام ظهر النصّ وكأنّه أشلاء ومزق لا رابط بينها »^(٢) .

ويؤخذ على هذين التعريفين أنّهما ليسا تعريفين بماهية التماسك ، بل هما تعريفٌ بأدواته التي يتحقق بها ، فليس التماسك هو العلاقات أو الأدوات ، سواء أكانت شكلية أم دلالية .

ويؤخذ على تعريف استيتية - إضافة إلى المأخذ السابق - دخول الدور فيه بقوله : (ويتماسك بعضها مع بعض) ، كما يؤخذ عليه استعماله (أو) في قوله : (مجموعة من العلاقات اللفظية أو الدلالية بين أجزاء النص) ، إذ كان الأولى استعمال (الواو) هنا ؛ لعدم إمكان فصل الشكليّ عن الدلالي في التماسك .

(١) « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١ : ٩٦ .

(٢) « منازل الرؤية : منهج تكاملي في قراءة النص » د. سمير استيتية ، ٢٧ .

ويجدرُ التنبيهُ إلى أنَّ الدراسات العربية التي عُنيت بالتماسك النصّي لم تتفق فيما بينها على مصطلح واحد ، ففي حين يطلق بعضُ الباحثين مصطلح (التماسك) نجد باحثين آخرين يطلقون مصطلح (الاتساق) و (الانسجام) و (الحبك) و (السبك)^(١) .

أدوات التماسك النصّي :

للنصّ أدواتٌ متنوعةٌ تسهمُ في تماسكه ، تعدّدت أقوالُ العلماء النصّيين فيها ، وقد اتفقوا على بعض الأدوات ، واختلفوا في بعضها الآخر ، وما هذا الاتفاق إلا دليل على أهمية تلك الأدوات التي اشتركوا في ذكرها ، فهي تمثّل الأدوات الرئيسة للتماسك النصّي .

ومعظم هذه الأقوال اعتمدت على الجانب النظري ، ولم تتطرق إلى التوضيح التطبيقي إلا قليلاً ، وهو ما دفعني إلى تطبيق بعضها على النص القصصي في القرآن الكريم .

لا أريد من خلال هذا التطبيق أن أمتحن النصّ القرآني ، هل هو متماسك أم لا ؟ كما نفعل مع سائر النصوص ، بل سأنتقل من كون هذا النص ذا خصوصيّة بيانيّة عمّا سواه من أجناس الخطاب ، ونريد أن نُثبت كيف أسهمت الإحالة بوصفها أداة من أدوات التماسك في تماسك النص القصصي القرآني .

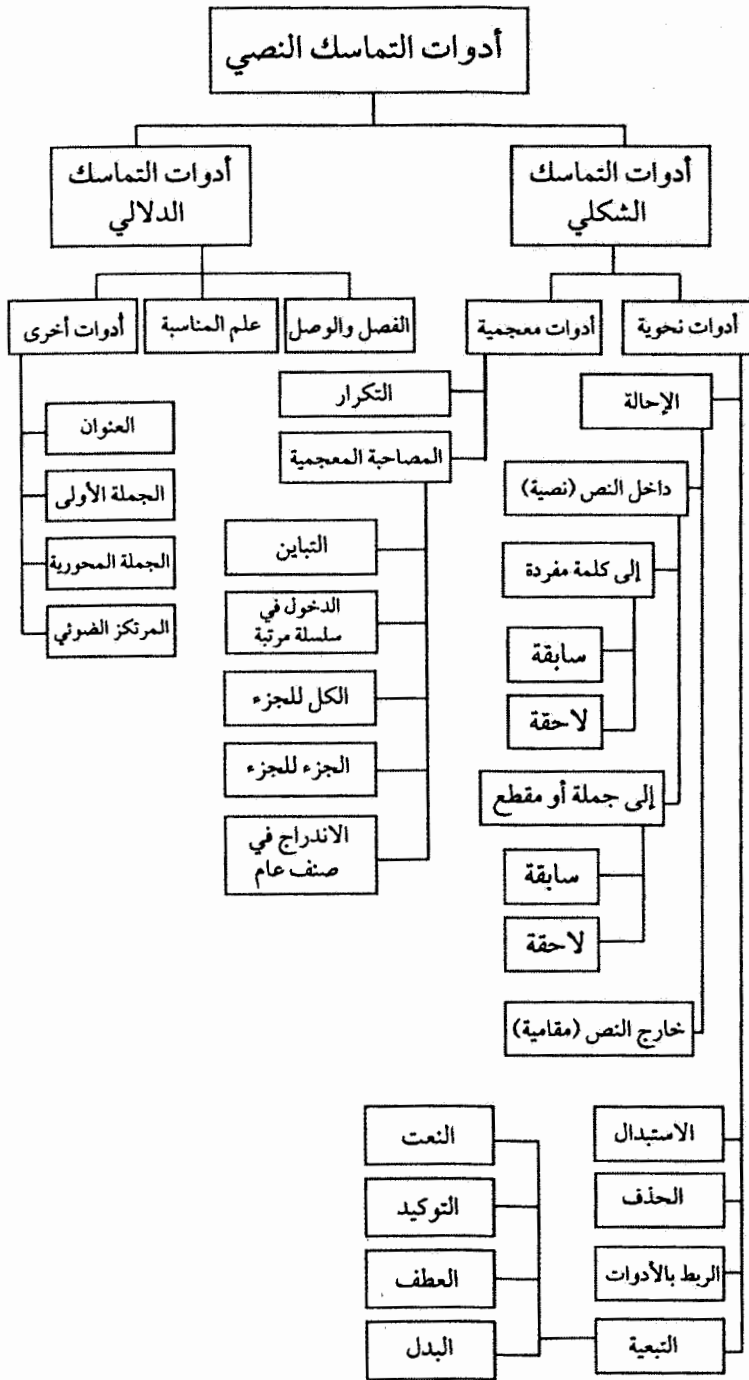
ومعلوم لدينا أنّ علم اللغة يسعى إلى وضع نظريات تصلح لمعالجة أي لغة ، وعلم اللغة النصّي استقلّ بوصفه نظرية على يد علماء الغرب ، مع التأكيد على أنّ جذوره واضحة في ذخائر العربية كما سبق بيانه ، ومع كون هذه النظرية استقلّت بصورة غربية ، ونماذجها غربية ، وذكرت أدوات تتفق مع اللغات الغربية ، فإنّ هناك أدوات كثيرة

(١) انظر « في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية » ٢٢٥ - ٢٢٩ . و « لسانيات النص » ١٣ - ٢٥ .

تتفق مع الأدوات المستعملة في اللغة العربية ، بل تكاد كلها تكون مندرجة أو قابلة للتطبيق على اللغة العربية ^(١) ، وما لم يتطابق مع العربية فإنني سأستبعده عن التطبيق ، حتى لا نقوم بقسر النصوص العربية - وبخاصة النص القرآني - لنطبق عليها النظريات الغربية .

وسأعرض في الصفحات الآتية أبرز أدوات التماسك النصي بصورة موجزة قبل أن أفصل القول في أكثر هذه الأدوات استخدامًا في النصوص وهي الإحالة .

(١) انظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١ : ١١٥ .



للتماسك النصي وسائل وأدوات يتحقق بها ، وهي ضربان :

الأول : وسائل شكلية ، عبر عنها النصيون بـ (السبك) أو (التماسك) ، وهي ترجمة لمصطلح (Cohesion) .

الثاني : وسائل دلالية ، وعبر عنها النصيون بـ (الحبك) أو (الانسجام) ، وهي ترجمة لمصطلح (Coherence) .

أولاً : وسائل التماسك الشكلي (Cohesion)^(١) :

(١) لقد ترجم مصطلح (Cohesion) إلى عدة ترجمات ، منها :

أ . الاتساق : هي ترجمة محمد خطابي ، حيث ترجم مسمى كتاب هاليداي وحسن (Cohesion in English) إلى (الاتساق في اللغة الإنجليزية) . انظر « لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب » ١١ .

ب . الترابط النحوي : هي ترجمة د. سعيد بحيري لمصطلح (Kohäsion) بالألمانية ، حيث فرق بين الربط الذي يتحقق من خلال أدوات الربط النحوية (الروابط) ، والتماسك الذي يتحقق من خلال وسائل دلالية . انظر « علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات » ١٣٢ . و (الترابط) أيضاً هي ترجمة د. محمود قرّاج ، انظر « معرفة اللغة » لجورج يول ، ١٤٥ .

ج . التماسك : هي ترجمة الأزهر الزناد ، حيث ذكر أن بعضهم يطلق كلمة (النص) على كل الوحدات اللغوية ذات الوظيفة التواصلية الواضحة التي تحكمها جملة من المبادئ، منها الانسجام (Coherence) والتماسك (Cohesion) والإخبارية (Informativeness) انظر « نسج النص » ١٥ . وانظر « الترجمة وعلوم النص » لألبرت نيوبيرت و غريغوري شريف ، ترجمة: د. محيي الدين حميدي ، ١٣٩ .

د . التنضيد : هي ترجمة د. محمد مفتاح ، حيث يتحدث عن الالتحام الذي يشتق منه التنضيد والتنسيق ، ثم يقول : « فإننا سنعني بالتنضيد : الجمل التي نجد فيها أدوات العطف ومختلف الروابط الأخرى التي تعلق جملة بجملة . وبالتنسيق : العلاقات المعنوية والمنطقية بين الجمل

=

يرتبط هذا النوع من التماسك بالعلاقات النحوية أو المعجمية بين العناصر الشكلية للنص التي تؤدي إلى التواصل والتتابع والترابط بين أجزاء النص ، وهي « وسائل تتحقق بها خاصية الاستمرارية في ظاهر النص (surface text) ، والمراد بظاهر النص : الأحداث اللغوية التي نطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني ، والتي نخطها أو نراها بما هي كم متصل على صفحة الورق ، وهذه الأحداث أو المكونات ينتظم بعضها مع بعض تبعاً للمباني النحوية »^(١).

ويلتقي هذا المعنى مع حديث دي بوجراند عن الترابط الرصفي ، يقول : « وأريد بالتتابع الرصفي (Sequencing) أن أشير إلى كل نشاط وكل إجراء غايته رصف عناصر اللغة في ترتيب نسقي مناسب ، بحيث يمكن للكلام أو الكتابة أو السماع أو القراءة أن تتم في توالٍ زمني »^(٢).

والمراد بالترابط الرصفي هنا ما كان أقرب إلى ظاهر النص ، ويرتبط بالدلالة النحوية التي تعنى بكيفية انتفاع المتلقي بالأنماط والتتابعات الشكلية في استعمال المعرفة

=

حيث لا تكون هناك روابط ظاهرة بينها . انظر « دينامية النص تنظير وإنجاز » ٤٤ . وانظر « التشابه والاختلاف : نحو منهجية شمولية » ١٢٥ - ١٣٢ .

هـ . السبك : هي ترجمة د. سعد مصلوح ، حيث يرى أن معيار السبك يختص بالوسائل التي تتحقق بها خاصية الاستمرار في ظاهر النص (surface text) . انظر « في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية » ٢٢٧ . وكذا استخدمها د. تمام حسان في مواضع من ترجمته لكتاب دي بوجراند « النص والخطاب والإجراء » ٢٩٩ .

(١) « البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية » ٢٢٧ .

(٢) « النص والخطاب والإجراء » ١٣٦ .

والمعنى ونقلها وتذكرهما^(١).

ويمكننا أن نقسم أدوات التماسك الشكلي ووسائله إلى قسمين :

١ - أدوات نحوية .

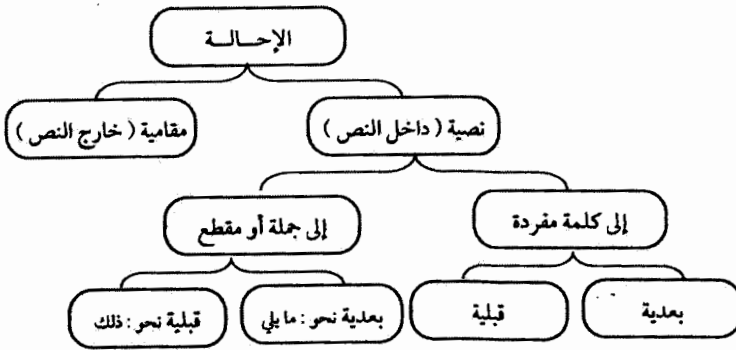
٢ - أدوات معجمية .

القسم الأول : أدوات التماسك الشكلي النحوية :

التماسك النحوي يعتمد على النحو ، أي: النحو التفسيري ، بوصفه البنية العميقة التي تعطي الجملة معناها ، فالنحو كما قدمه علماءنا الأوائل علمٌ نصي ؛ لأنه يتعامل مع التراكيب ، ولا يمكن فهم تركيب ما إلا من خلال بنيته النحوية في سياقها اللغوي والحالي^(٢). ومن أبرز أدوات التماسك النحوي ووسائله الآتي :

١ . الإحالة (Reference) :

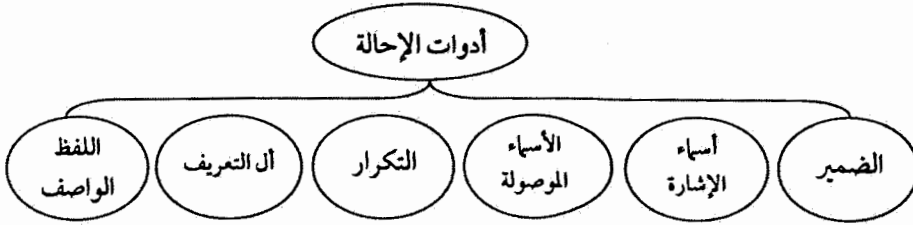
وهي أكثر أدوات التماسك انتشارًا في النصوص ، وسيأتي تفصيل الحديث عنها في الفصل الثاني من هذا البحث . وتتلخص في الشكل الآتي :



(١) انظر « نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي » د. أحمد عفيفي ، ١٠٣ .

(٢) انظر « الإبداع الموازي : التحليل النصي للشعر » د. محمد حماسة ، ٢٩ .

وتتحقق الإحالة بواسطة الأدوات الآتية :



وهناك وسائل أخرى تدخل في المفهوم الواسع لمعنى الإحالة ، ذلك أنها تبقى مبهمة حتى يدرك الذهن إحالاتها إلى عناصر مفسرة لها ، قبلية أو بعدية ، ولم يجمع النصيون على إدراجها تحت مفهوم الإحالة ، بل صنفوها على أنها أدوات مستقلة ، ولها دور بارز في تحقيق التماسك النحوي الشكلي للنص^(١) ، ومن تلك الوسائل :

التكرار (Recurrence) ، والاستبدال (Substitution) ، والحذف (Ellipsis) ، والتبعية كالعطف (Conjunction) وغيره .

٢ . الاستبدال (Substitution) :

يعدّ الاستبدال وسيلة من وسائل التماسك الشكلي في النص ، التي تتم في المستوى النحوي والمعجمي بين كلمات أو عبارات .

ومعظم حالات الاستبدال النصي قبلية (Anaphora) ، وهي علاقة بين عنصر متأخر وعنصر متقدّم .

وكثيراً ما يلتبس الاستبدال بالإحالة المعجمية ، التي يحيل فيها لفظ معجمي على كلمة أو جملة أو فقرة سابقة .

(1) Cohesion in English, P: 40 .

ويرى د. خطابي أن الاستبدال هو علاقة اتساق قائمة بحد ذاتها ، وأنه وسيلة أساسية تعتمد في اتساق النص ، شأنه في ذلك شأن الإحالة ، ويختلف عنها في كونه علاقة تتم في المستوى النحوي / المعجمي ، بين كلمات أو عبارات ، بينما الإحالة علاقة معنوية تقع في المستوى الدلالي . ولئن كانت العلاقة بين عنصري الإحالة (المحيل ، والمحال عليه) علاقة تطابق، فإن العلاقة بين عنصري الاستبدال (المستبدل ، والمستبدل منه) علاقة تقابل تقتضي إعادة التحديد والاستبعاد (repudiation) ، أي استبعاد وصف وإحلال آخر محله ^(١).

ومثال ذلك قوله تعالى في قصة فتح مكة :

﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ يُهْدِيَكُمْ سِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ ^(٢) وَلِأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾ (الفتح : ٢٠-٢١).

فنلاحظ في هذه الفقرة من النص القرآني استبدال كلمة (أخرى) بـ (مغانم) السابقة عليها بخمس جمل تقريباً ^(٣) ، وهذا الاستبدال أسهم في عملية الربط والتماسك

(١) انظر « لسانيات النص » ٢١ .

(٢) كلمة (أخرى) لفظ مبهم، لا يمكن فهمه وتفسيره إلا بالعودة إلى الجمل السابقة في النص نفسه، حيث يستوقفنا قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾ ، فلفظ (أخرى) صفة لموصوف محذوف ، دلّ عليه (مغانم) في الآية قبلها ، أي: هي نوع آخر من المغانم صعبة المنال ، ومعنى المغانم يقتضي (غانمين) ، فعلم أنها لهم ، أي : غير التي وعدهم الله بها . ولم نجعل (أخرى) عطفًا على قوله تعالى : (هذه) من باب عطف المفرد على المفرد ؛ لأن المراد ليس غنيمة واحدة، بل غنائم كثيرة . والمعنى : ومغانم أخرى لم تقدرُوا على نيلها قدر الله عليها فأنا لكم إياها . انظر « التحرير والتنوير » شبكة المعلومات (موقع التفاسير) ، و« الكشف » ٤ : ٣٤٣ .

بين أجزاء النص ، حيث لم نتمكن من فهم مدلول (أخرى) وتفسيرها إلا بالرجوع إلى الجمل السابقة من النص القرآني .

كما نلاحظ أن المستبدل هنا احتفظ بجزء من المعلومة السابقة ، وهي (مغانم) ، واستبعد أجزاء أخرى تتصل بـ (مغانم) وتتعلق بها ، وهي الوصف الذي بعدها (كثيرة) و(تأخذونها) .

فهذه العلاقة لا تقوم على التطابق بين عنصري الاستبدال ، بل على التقابل والاختلاف الذي ينتج عنه الاستبعاد ، من دون أن يلغي ذلك وظيفة التماسك التي أدتها كلمة (أخرى) ، بل من تلك العلاقة استمدت قيمتها التماسكية .

وينقسم الاستبدال إلى ثلاثة أقسام^(١) :

أولاً : الاستبدال الاسمي (**Nominal Substitution**) :

يتم باستخدام عناصر لغوية اسمية ، مثل : (آخر ، وآخرون ، ونفس) ، ومثاله الآيات السابقة .

ثانياً : الاستبدال الفعلي (**Verbal Substitution**) :

يتم باستخدام عناصر لغوية فعلية ، مثال ذلك :

— هل يهمل الطالب المجتهد دروسه ؟

— لا أظنه يفعل .

فـ (يفعل) استبدلت بكلام كان المفترض أن يحل محلها ، وهو : (يهمل

دروسه) .

(1) Cohesion in English, P: 88

ثالثاً : الاستبدال القولي (Clausal Substitution) :

يتم باستخدام ألفاظ مثل : (ذلك ، ولا ، ونعم) وغيرها ، مثال ذلك :
قوله تعالى في قصة موسى والرجل الصالح : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۝١٣٠ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْسَلْنَا عَنْهُ غَمَامًا فَصَلَا ۝١٣١﴾ الكهف : ٦٣ ، ٦٤ .

فاستبدل (ذلك) بعنصر كان يجب أن يذكر دلّ عليه سياق الكلام السابق وهو (نسيان الحوت عند الصخرة) . وقد عدّ النصيون اسم الإشارة (ذلك) أداة من أدوات الإحالة ، مما يشير إلى تداخل كثير من أدوات التماسك بالإحالة .

وكقولنا : - هل ستحضر الحفل ؟ - لا .

فكلمة (لا) قد استبدلت بجملة سابقة كان من المفترض أن تذكر ، وهي :
(لا لن أحضر الحفل) .

وهذا النوع (القولي) من الاستبدال هو أكثر الأنواع إظهاراً لأهمية الاستبدال في تماسك النص ، حيث إنه يوجب الرجوع إلى جملة كاملة وقول برمته كي نفهم المقصود منه ، كما نجد في كلمة (لا) ، فهو أكثر الأنواع تداولاً وأكثرها اختصاراً للنص .

والاستبدال هو وسيلة مهمة لإنشاء الرابطة بين الجمل ، ولا يخفى دوره في عملية التماسك في الأمثلة السابقة ، حيث يستحيل علينا فهم ما تعنيه العناصر (أخرى ، ويفعل ، وذلك ، ولا) إلا بالعودة إلى ما هي متعلقة به قبلياً ، وهذا هو معنى الاستبدال^(١) .

(١) انظر « نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي » ١٢٣ ، و« دراسة لغوية لصور التماسك النصي » د. مصطفى قطب ، ١٧٣ .

٣. الحذف (Ellipsis) :

أجازت العربية حذف أحد العناصر من التركيب عند استخدامها « وذلك لا يتم إلا إذا كان الباقي في بناء الجملة بعد الحذف مغنياً في الدلالة ، كافياً في أداء المعنى . وقد يحذف أحد العناصر لأنّ هناك قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه وتدّل عليه ، ويكون في حذفه معنى لا يوجد في ذكره » ^(١) ، فكان الحذف « ناتجاً عن أنّ المعنى المفهوم في كلّ موضع زائدٌ على عناصر اللفظ المذكورة » ^(٢).

ويرى ديفيد كريستال أنّه « حذفُ جزء من الجملة الثانية ، دَلٌّ عليه دليل في الجملة الأولى » ^(٣).

وإذا كان الحذف على مستوى الجملة يراعي القرائن المعنوية والمقالية فلا شك أنّ نحو النصّ أكثر اعتماداً على ذلك ؛ لأنّه يدخل السياق والمقام من أساسيات الحذف ، حيث تكون الجمل المحذوفة أساساً للربط بين أجزاء النص من خلال المحتوى الدلالي، مما جعل دي بوجراند يقول عن الحذف : إنّ « استبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن ، أو أن يوسع أو أن يعدّل بوساطة العبارات الناقصة » ^(٤) ، وعلى هذا تكون البنية السطحية لأيّ نصّ غير مكتملة غالباً على الرغم ممّا يبدو في تقدير المتلقي ^(٥).

(١) « بناء الجملة العربية » د. محمد حماسة عبد اللطيف ، ٢٠٨ .

(٢) « ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي » د. طاهر سليمان حمودة ، ٢٣ .

(٣) D. Crystal, A Dictionary of linguistics, P : 107 – 108 .

(٤) « النص والخطاب والإجراء » ٣٠١ .

(٥) « نحو النص : اتجاه جديد في الدرس النحوي » ١٢٤ .

والحذف كما يحدده هاليداي ورقية حسن هو « علاقة داخل النص ، وفي معظم الأمثلة يوجد العنصر المفترض في النص السابق عليه ، وهذا يعني أن الحذف عادة علاقة قبلية »^(١).

والحذف بوصفه وسيلة من وسائل التماسك النصي لا يختلف عن الاستبدال ، سوى أن الحذف هو استبدالاً بالصفر (Substitution by Zero)^(٢) ، أي أنها لا تترك أثراً في النص ، بخلاف الاستبدال الذي يترك أثراً وهو وجود أحد عناصر الاستبدال في النص ؛ ولهذا فإنّ المستبدل يبقى مؤشراً يسترشد به القارئ للبحث عن العنصر المفترض ، مما يمكنه من ملء الفراغ الذي يتركه الاستبدال ، بينما الأمر على خلاف ذلك في الحذف ، إذ لا يحل محل المحذوف أي شيء ، فنرى في الجملة التي تحتوي على الحذف فراغاً بنيوياً يهتدي القارئ إلى ملئه اعتماداً على ما ورد في النص أو الجملة السابقة عليها^(٣). مثال ذلك قوله تعالى:

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ ﴿ قَالُوا خَيْرٌ ﴾ النحل : ٣٠ .
أي : قالوا أنزل ربنا خيراً .

فالمكان الخالي في الجملة الثانية من الآية يعدّ صفراً ؛ لأنه خالٍ من الكلام ، ومن ثمّ فهناك استبدال بين (أنزل ربكم) في الجملة الأولى ، والصفر أو الحذف المقدّر في الجملة الثانية ، وهنا تبرز العلاقة التماسكية بين الجملتين .

على أن الحذف في هذا المستوى غير مهمّ من حيث التماسك ، لأنّ العلاقة بين طرفي الجملة علاقة بنوية لا يقوم فيها الحذف بأي دور في عملية التماسك النصي ، وبناء عليه

(1) Cohesion in English, P: 144

(2) Cohesion in English, P: 145

(٣) « لسانيات النص » ٢١ .

فإن أهمية دور الحذف في التماسك ينبغي البحث عنها في العلاقة بين الجمل وليس داخل الجملة الواحدة^(١).

ومما يجدرُ بي التنبيه إليه أننا عندما نتعامل مع القرآن الكريم فمن حقنا أن نحترز من نسبة الحذف إلى القرآن ، فإذا قلنا : إنَّ في القرآن حذفًا فلسنا ننسب الحذف إلى مضمون القرآن ، بل ننسبه إلى تركيب اللغة ، ذلك بأنَّ اللغة تجعل للجملة العربية أنماطًا تركيبية معينة ، ففي الجملة أركانها ومكملاتها ، وفي عناصرها ما يفتقر إلى غيره ، وما لا يستغني المعنى عن تقديره ، فإذا لم تشتمل الجملة على أحد أركانها ، أو ما يقتضيه المعنى ، أو يقتضيه التركيب من مكملاتها وعناصرها الأخرى ، ثم اتضح المعنى من دون ذكر هذه العناصر لوجود الدليل على الحذف عدداً ذلك حذفاً جيء به لطلب الحقة اختصاراً أو تجنباً للحشو أو لسبب آخر غير ذلك^(٢).

ومعنى ذلك أنَّ ما لم يكتب في القرآن مما يخص الجانب التركيبي لا يعدّ قرآناً ، كما أننا لا نستطيع أن نتلو تلك التقديرات في أثناء تلاوتنا للقرآن^(٣).

(١) « لسانيات النص » ٢٢ .

(٢) انظر « البيان في روائع القرآن » ١٠٩ .

(٣) انظر « أساليب حذف المضاف من القرآن الكريم » سلوى عبد الفتاح حسن ، رسالة ماجستير ، جامعة الأزهر ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية ، القاهرة ، ١٩٩١ م . ص ٣٥ .

دور الحذف في التماسك النصي :

يتحقق التماسك النصي بوساطة الحذف من خلال محورين أساسيين يحتوي عليهما^(١) :

١ - التكرار : حيث اشترط النحويون كون المحذوف من لفظ المذكور ما أمكن، أو من مرادف له ومتعلق به^(٢)، بمعنى أن يكون التكرار باللفظ أو بالمعنى أو بكليهما .

٢ - الإحالة : وذلك بنوعيهما القبلية أو البعدية .

وقد أدرك السيوطي أن الحذف يحقق التماسك بين عناصر النص ، وأطلق عليه مصطلح (الاحتباك) ، « وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول ... وقال الزركشي : هو أن يجتمع في الكلام متقابلان ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه . اهـ .

ومأخذ هذه التسمية من الحبك الذي معناه الشد والإحكام ، وتحسين أثر الصنعة في الثوب ، فحبك الثوب شد ما بين خيوطه من الفُرَج وشدّه وإحكامه ، بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسن والرونق . وبيان أخذه منه من أن مواضع الحذف من الكلام شُبِّهت بالفُرَج بين الخيوط ، فلما أدركها الناقد البصير بصوغه الماهر في نظمه وحوكه ، فوضع المحذوف مواضعه كان حابكاً له مانعاً من خلل يطرقة ، فسدّ بتقديره ما يحصل به الخلل^(٣) .

(١) انظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ٢ : ٢٢١ .

(٢) انظر « مغني اللبيب » ٢ : ١٦٢ .

(٣) « الإلتقان في علوم القرآن » للسيوطي ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٣ : ١٨٢ - ١٨٣ .

ونلاحظ من خلال الآية السابقة ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾^(١) النحل: ٣٠ ، أن التماسك فيها تمّ عن طريقين :

- ١ - التكرار : فالمحذوف هو عينه الدليل المذكور في السؤال السابق .
- ٢ - الإحالة : لأنّ المتلقي لم يتعرّف على المحذوف إلا بالرجوع إلى الدليل ، عن طريق الإحالة الداخلية القبلية .

ولا بدّ من الإشارة إلى دور المتلقي في ملء هذا الفراغ الذي أحدثه الحذف ، وذلك عن طريق الدليل الموجود في النص ، سواء أكان ملفوظاً أو ملحوظاً أم استبدالياً ، ولأجل أن يقوم المتلقي بهذا الدور فلا بدّ من إحالة ، وهذه الإحالة تكون إلى الدليل كما سبق بيانه ، وكلما كانت المسافة بين الفراغ (المحذوف) والدليل عليه أبعد كان أثر الحذف أقوى في تماسك النص وربط جملة ومكوناته .

أنماط الحذف :

للحذف تقسيمات متنوعة ، منها ما ذكره هاليداي ورقية حسن ، على النحو الآتي^(١) :

- ١ - الحذف الاسمي (Nominal Ellipsis) .
 - ٢ - الحذف الفعلي (Verbal Ellipsis) .
 - ٣ - الحذف داخل ما يشبه الجملة (Clausal Ellipsis) .
- ومنها ما أورده النحاة والبلاغيون ، وهو :

(1) Cohesion in English, P : 142 .

١ - الاقتطاع : هو حذف بعض حروف الكلمة ، أو ما هو بمثابة الكلمة الواحدة ، تخفيفاً لمخارج الحروف ، أو لداعي السرعة ، أو لأجل القافية في الشعر ، أو الفاصلة في النثر ، أو التحجب في النداء ، وغير ذلك .

ومثاله قول الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ الكهف : ٨٢ . حيث حذف التاء في (تستطع) .

٢ - الاكتفاء : هو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط ، فيكتفي بأحدهما عن الآخر لنكتة ، ويختص غالباً بالارتباط العطفى . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ الأنعام : ١٣ . أي : وله ما سكن وتحرك في الليل والنهار .

٣ - التضمين : هو تضمين كلمة معنى كلمة أخرى ، وجعل الكلام بعدها مبنياً على الكلمة غير المذكورة ، كالتعدي بالحرف المناسب لمعناها ، فتكون الجملة بهذا التضمين في قوة جملتين ^(١) .

٤ - الاحتباك : هو أن يحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر ، ويحذف من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل . وهو من حبك الشوب ، أي : سد ما بين خيوطه من الفرج وشده وإحكامه إحكاماً يمنع عنه الخلل مع الحسن والرونق . وأطلق عليه الزركشي مصطلح (الحذف المقابل) .

(١) انظر « البلاغة العربية » د. عبد الرحمن حبنكة ، ٢ : ٤٩ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ آل عمران : ١٣ ، أي : فئة (مؤمنة) تقاتل في سبيل الله ، و (فئة) أخرى كافرة (تقاتل في سبيل الطاغوت). فقد دللنا على (مؤمنة) في الجملة الأولى ما يقابلها في الجملة الثانية ، وهو (كافرة) ، ودلنا على المحذوف (فئة) في الجملة الثانية ما يقابلها في الجملة الأولى وهو (فئة) ، ودلنا على (تقاتل في سبيل الطاغوت) في الجملة الثانية ما يقابلها في الجملة الأولى (تقاتل في سبيل الله) .

ومنه أيضًا قوله تعالى في قصة موسى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ النمل : ١٢ . والتقدير : وأدخل يدك في جيبك (تدخل غير بيضاء) ، (وأخرجها) تخرج بيضاء . فدل لفظ (بيضاء) في الأواخر على عبارة (غير بيضاء) المحذوفة من الأوائل ، ودلت عبارة (وأدخل) في الأوائل على عبارة (وأخرجها) المحذوفة من الأواخر، فتم الاحتباك^(١) .

ومصطلح (الاحتباك) له أهميته عند دارسي التماسك ؛ لأنه يشير إلى الخيوط الأولى لنظرية التماسك النصي في تراثنا العربي . ومنه اشتق النصيون مصطلح (الحبك) للدلالة على الانسجام المعنوي في النص .

٥ - الاختزال : هو كل حذف في الكلام لا يدخل في واحد من الأقسام الأربعة السابقة^(٢) ، ويدخل تحته الأنواع الآتية :

(١) انظر « البلاغة العربية » ٢ : ٥٦ .

(٢) انظر « البلاغة العربية » ٢ : ٥٧ .

أ- حذف الحرف : كحذف حرف النداء من قوله تعالى : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يوسف : ٢٩ . أي : يا يوسف .

ب- حذف الاسم : كحذف القسم من قوله تعالى : ﴿وَلَيْنَ لَمَّ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾ يوسف : ٣٢ . أي : والله لئن لم يفعل .

ج- حذف الفعل .

د- حذف الجملة .

هـ - حذف أكثر من جملة .

ويعدّ النوعان (د) و (هـ) من أدخل الأنطاط في باب التماسك النصي .

فمن (حذف الجملة) ما جاء في قصة موسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ البقرة : ٦٠ . حيث حُذِفَ مَسَبِّ ذِكْرِ سَبَبِهِ ، والتقدير : فضربه فانفجرت ، فحذف جملة الفعل والفاعل والمفعول ، ويشير هذا الحذف إلى سرعة إجابة موسى - عليه السلام - وامثاله لأمر ربه .

ويدخل في (حذف أكثر من جملة) نمطٌ مهم في التحليل النصي ، هو حذف بعض الأحداث من دون بعضها الآخر في التسلسل الزمني للقصة ، وقد تحذف الشخصيات والأزمنة والأمكنة .

مثال ذلك ما جاء في قصة يوسف - عليه السلام - في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (١٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴿ يوسف : ٤٥ ، ٤٦ .

والتقدير : فأرسلوني إلى يوسف ؛ لأستعبره الرؤيا ، فأرسلوه إليه ، فأناه ، وقال له :
يا يوسف أيها الصديق أفتنا ...^(١).

ومثله قوله تعالى في قصة سليمان والهدهد : ﴿ أَذْهَبَ بِكُنْتِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٢٨) قَالَتْ يَكُنْ أَيْهَا الْمَلُوءُ إِنِّي أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ ﴿ النمل : ٢٨ - ٢٩ .
والتقدير : فذهب الهدهد إليهم ، وألقى الكتاب عليهم ، فأخذته ملكة سبأ ،
وقرأته ، فكان سائلاً قال لها : ماذا فيه ؟ فقالت : يا أيها الملاء ...

ويكثر هذا النمط من الحذف في النظم القرآني ، ولا سيما في ميدان القصص ، حيث
يستغنى عن التفاصيل الجزئية التي تعرف من السياق وقرائن الأحوال بهدف إبراز
القضايا الجوهرية في القصة بعيداً عن التفاصيل الجزئية التي لا فائدة في ذكرها ، كما في
ذلك الحذف تحريك لمشاعر المتلقي ، وإثارة لذهنه ، وهو أسلوب من أساليب النظم
القرآني المعجز^(٢).

والحديث عن الحذف يطول ، وقد أفرد له النحويون أبواباً خاصة^(٣) ، كما أفرد له
المحدثون مؤلفات خاصة ، واكتفيت هنا بالحديث عن الحذف بوصفه وسيلة من
وسائل التماسك الشكلي النحوي .

(١) انظر « البرهان في علوم القرآن » ٣ : ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) انظر « علم المعاني : دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني » د. بسيوني فيود ، ٢ : ١٩٤ .

(٣) انظر « الخصائص » ٢ : ٣٦٢ ، ٣٨ . و« مغني اللبيب » ٢ : ١٥٦ ، ١٥٨ . و« البرهان في علوم
القرآن » للزرکشي ، ٣ : ١١١ ، ١١٥ ، ٢٥٩ ، و« الإتيان في علوم القرآن » ٣ : ١٦٣ . و« البيان
في روائع القرآن » ١ : ١٧٥ ، ١٧١ . و« ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي » د. طاهر حمودة .
وغیرها .

٤ . التبعيّة :

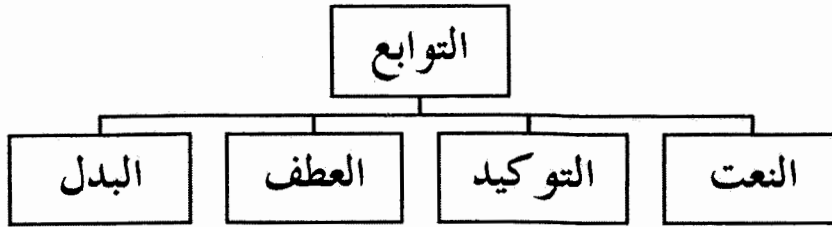
ينصرفُ الحديثُ عن المتوالياتِ أو التبعيّة المترابطةِ إلى تلك العناصرِ التي يجمعُها جامعٌ من سمت المتتابعاتِ برابط دلالي في التركيب تبعًا لمقتضيات الحال والمقام للموقف النفسي الذي يحدّده السّياق .

و « التوابعُ هي الثواني المساويةُ للأوّل في الإعراب بمشاركتها له في العوامل ، والمراد بالثواني : الفروع في استحقاق الإعراب ؛ لأنها لم تكن المقصود ، وإنما هي من لوازم الأوّل كاللّزمة له » ^(١) .

ومن ثمّ يرتبط به لدرجة جعلت عدّ بعض التوابع مع متبوعها كالكلمة الواحدة ، فعلى سبيل المثال نلاحظ أنّ النعت الحقيقي لا بدّ أن يشارك منعوته في إعرابه ، وتعريفه أو تنكيره ، وتأنيثه أو تذكيره ، وإفراده أو تثنيته أو جمعه ، فيمثّل التابع بذلك صدى نصيًّا للمتبوع ، وأيّ مخالفة في تلك المطابقة بين النعت والمنعوت قد تحدث خللاً في تماسك الجملة أو النص .

ومن هنا يأتي دورُ التوابع في عمليّة التماسك ، فالمتبوعُ مستمرٌّ في تابعه وكأنّه تكرر له ، والتكرار من وسائل التماسك كما سيأتي ، كما أنّ هناك رابطاً يربط التابع بمتبوعه ، وهو الضمير الذي يؤدي وظيفة الإحالة القبليّة .

(١) « شرح المفصل » لابن يعيش ، ٣ : ٣٨ . وقد نظرَ لذلك بالرجل ذي العبيد والأتباع « يدعى إلى الوليمة فينال العبيد من الكرامة مثل ما نال السيد لكن ذلك بحكم التبعيّة ، والمقصود بذلك السيّد كأنّهم ليسوا غيره ، لأنهم من لوازمه ، كذلك ههنا الإعراب ، يدخل التابع والمتبوع ، لكن المتبوع بحكم أنّه أصل ومقصود ، والتابع بحكم الفرعية وآتة تكملة للأوّل » ٣ : ٣٩ .



أولاً : دور النعت في عملية التماسك :

النعت بأنواعه (المفرد ، والجملة ، وشبه الجملة) له دور في تماسك النص .

فالنعت بالمفرد : يقوم بالتماسك عن طريق ارتباطه الشديد بالمنعوت ، ويتم هذا الارتباط بين النعت المفرد ومنعوته « بطريق العلاقة الوصفية ، وهي علاقة تؤدي إلى إزالة ما في المنعوت من إبهام ، وبيان معنى فيه بيان حقيقته »^(١).

ومن ذلك : « مررت برجلٍ ظريفٍ قبلُ ، فصار النعت مجروراً مثل المنعوت ؛ لأنهما كالاسم الواحد »^(٢).

فالنعت والمنعوت كالاسم الواحد ، ومن ثمّ كان المنعوت مستمراً في النعت كأنه تكرر له ، فالرجل هو الظريف ، والظريف هو الرجل ، والتكرار من وسائل التماسك .
ثمّ إنه للتعرف على النعت (الظريف) لائبة من الرجوع إلى المنعوت ومعرفته وهو (الرجل) وذلك عن طريق الإحالة القبلية ، وهي أبرز وسائل التماسك .

والارتباط الحاصل بين النعت والمنعوت يتحقق من خلال الشروط التي وضعت في النعت ، سواءً أكان حقيقياً أم سببياً ، من التطابق بينه وبين المتبوع في التعريف

(١) « نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية » ١٨٤ .

(٢) « الكتاب » ، لسيويه ، تح : عبد السلام هارون ، ١ : ٤٢١ .

والتنكير على مذهب الجمهور^(١) . وكذا المطابقة الإعرابية ، ويبرز النعت الحقيقي في اشتراط المطابقة في الأفراد والثنية والجمع ، والتذكير والتأنيث^(٢) .

أما النعت بالجملة : فهو يقوم بالدور الذي يقوم به النعت بالمفرد ، ولكن الإحالة في النعت بالجملة أقوى ؛ لوجود الضمير الرابط بين جملة النعت والمنعوت ، وهذا الضمير لا يفسر إلا بالرجوع إلى المنعوت وذلك عن طريق الإحالة القبلية .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ الأنعام : ٩٨ ، فالنعت هو جملة (يفقهون) وفيه رابط وهو واو الجماعة التي لا يفهم المراد بها إلا بالرجوع إلى كلمة (قوم) ، ومن هنا يحدث التماسك عن طريق الإحالة القبلية^(٣) .

وقد يسهم النعت^(٤) في التماسك بطريقة أخرى ، وذلك عندما يدخل عليه (أل) الموصولة ، لتؤدي الغاية التي من أجلها استعمل ضمير الموصول ، فيحلّ النعت محلّ الضمير في سياقٍ فيه ذكرُ صفة للمدح أو الذم ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة : ٩٨ ، أي : (لهم) ، فعبر بالنعت وهو (الكافرين) بدلاً من الضمير (هم) العائد على (مَنْ) ، فحلّ محله في عملية الربط وتماسك العبارة^(٥) .

(١) انظر « شرح الأشموني » ٣ : ٦٠ ، و« مع الهوامع » ٥ : ١٧٢ .

(٢) انظر « مغني اللبيب » ١ : ٢٤٧ . و« نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية » ١٨٥ .

(٣) انظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١ : ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٤) مرادي بـ (النعت) هنا ، كما هو عند د. تمام حسان ، من خلال المثال السابق : الوصف المشتق الواقع صلة (أل) ، وليس النعت المصطلح عليه عند النحاة .

(٥) انظر « البيان في روائع القرآن » ١ : ١٤٣ .

ثانيًا : دور التوكيد في عملية التماسك :

التوكيد إما أن يكون لفظيًا أو معنويًا ، وكلاهما له دور فاعل في عملية الربط والتماسك ، حيث إن اللفظ المؤكّد يعدّ استمرارًا للفظ المؤكّد ، هذا في التوكيد اللفظي .

أما التوكيد المعنوي فهو أشدّ تأثيرًا في عملية التماسك ، حيث إنه إضافة إلى كونه تكرارًا معنويًا فهو يشتمل على ضمير يعودُ على المؤكّد من قبيل الإحالة القبلية التي تقوّي عملية الربط ^(١) . وعلاقة الارتباط بين المؤكّد والمؤكّد وثيقة في حال وقوعه ، واحتاج إليه المتكلّم ؛ لأنّ دخول التأكيد في الكلام ليس أمرًا حتمًا ، ولا يكون على جهة الوجوب ؛ وإنّما يكون وروده على وجهين :

١ - أن يكون الكلام معلومًا في النفس ، لا يقع فيه شكٌ ، فما هذا حاله أنت فيه بالخيار بين تأكيده وتركه .

٢ - أن يكون غير معلوم ، أو يكون مشكوكًا فيه ، وما هذا حاله فالأولى تأكيده لإزالة احتماله ^(٢) .

ثالثًا : دور العطف في عملية التماسك :

العطف في اللغة : الميل والانصراف إلى الشيء أو عنه . يقولون : عَطَفَ يعطف عَطْفًا : انصرف ، ورجلٌ عطوف وعطاف : يحمي المنهزمين ، ورجلٌ عاطف وعطوف : عائدٌ بفضلِه حسن الخلق ^(٣) .

(١) انظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١ : ٢٦٦ .

(٢) انظر « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز » يحيى بن حمزة العلوي ، مطبعة

المقتطف ، مصر ، ١٣٣٢ هـ ، ١٩١٤ م . ٢ : ١٤٥ .

(٣) انظر « لسان العرب » (عطف) .

وللعطف دور كبير في ربط النص وتماسكه ، فلا يكاد يخلو نصٌّ من أدوات العطف، وهي كثيرة، منها : الواو ، والفاء ، وثمّ ، وأو ، وأم ، وبل ، ولا ، ولكن ... وغيرها ؛ لذا فقد حظي العطف بدراسات عديدة ، فقد تناوله النحويون في باب التوابع ، وتناوله البلاغيون في باب الفصل والوصل كونه أحد موضوعات علم المعاني ، وهو دراسة تركيبية تدخل في علم النظم .

وباب الفصل والوصل يمثل دورًا مهمًا في السبك والتناسب والتماسك بين الجمل، أي : بعطف الجمل على بعضها بحروف العطف ، أو بالامتزاج بين الجمل.

فالفصل : ترك العطف بين الجمل على أن تتلاحم الجملتان أو الجمل شريطة وجود امتزاج معنوي إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكي الأحوال على الجملة .

أما الوصل : فيطلق على عطف الجملة ببعضها بوساطة أحد حروف العطف ، - خصوصًا الواو - شريطة وجود صلة بينهما على أن تتفق الجملتان خبرًا وإنشاءً ، لفظًا ومعنى ، أو معنى فقط .

ويمكننا أن نتناول عالين جليلين اشتهرا بهذا العلم، هما: الجرجاني والسكاكي.

فالجرجاني يرى أنّ هناك صيغة أخرى للعطف ينتقل فيها من عطف جملتين متجاورتين إلى عطف جملتين مفصولتين عن بعضهما بكلام آخر ، حيث قال : « ممّا يقلّ نظر الناس فيه من أمر العطف أنّه قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها ، ولكن تُعطف على جملة بينها وبين هذه التي تُعطف جملةٌ أو جملتان »^(١) ، وهذا فنٌّ من القول خاصٌّ دقيقٌ يتعلّق بعطف الجمل .

(١) « دلائل الإعجاز » ٢٤٤ .

مثاله قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ آخَضَ اللَّهُ ذَنبًا كَثِيرًا وَلَا تَزِدَّ لِلْذَنْبِ إِلَّا وَجْهًا مَرْمُومًا ﴾ النساء : ١١٢ . فالشرط هنا في مجموع الجملتين ، لا في كل واحدة على الانفراد « لآتنا إن قلنا أنه في كل واحدة منهما على الانفراد جعلناهما شرطين ، وإذا جعلناهما شرطين اقتضتا جزاءين ، وليس معنا إلا جزاء واحد » ^(١) هذا من الناحية النحوية .

أما من الناحية المعنوية فـ « الجزاء الذي هو احتمال البهتان والإثم المبين ، أمرٌ يتعلّق بإيجابه لمجموع ما حصل من الجملتين ، فليس هو لاكتساب الخطيئة على الانفراد ، ولا لرمي البريء بالخطيئة ، أو الإثم على الإطلاق ، بل لرمي الإنسان البريء بخطيئة أو إثم كان من الرامي ... » ^(٢) .

وقد ذهب الجرجاني إلى ذلك ليظهر عطف المجموع على المجموع ، وذلك لإتمام الكلام وإيضاح تماسك الخطاب .

أما السكاكيني فقد سار في طريق غير التي سلكها الجرجاني ، بقوله : « مركوز في ذهنك ، لا تجد لردّه مقالاً ولا لا ارتكاب جحدّه مجالاً » ^(٣) .

وينطلق من أنّ العلاقة بين الجمل تصنّف إلى ثلاثة أصناف ، هي :

١ - إمّا أن يكون بين مفهومي الجملتين اتّحادٌ يحكم التأخي ، وارتباط لأحدهما بالآخر فتحكم الأواخر .

٢ - وإمّا أن يباين أحدهما الآخر مباينة الأجنب ؛ لانقطاع الوشائج بينهما من كلّ جانب .

(١) « دلائل الإعجاز » ٢٤٦ .

(٢) « دلائل الإعجاز » ٢٤٦ .

(٣) « مفتاح العلوم » ١٠٨ .

٣ - وإما أن يكون بين بين لأواصر وتلاحم ما هنالك . فيتوسط حالهما بين الأولى والثانية لذلك «^(١)» .

فالفصل والوصل عنده لا يمكن أن يدرك كمظهر خطابي إلا إذا اتقن المستعمل أصولاً أربعة يعتمد عليها العطف في باب البلاغة ، هي :

١ - معرفة موضع العطف ، ويقتضي من المستعمل التمييز بين نوعين من الإعراب الذي يتبع فيه الثاني الأول ، والإعراب الذي لا يتبع في الأول الثاني .

٢ - معرفة معاني حروف العطف ، كالفاء ، وثم ، وبل ، وحتى ... إلخ .

٣ - معرفة أن الواو كحرف عطف ، فائدته مشاركة المعطوف والمعطوف عليه في المعنى الإعرابي .

٤ - معرفة أن « كون العطف مقبولا لا مردودا هو أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جهة جامعة »^(٢) .

وبعد أن علمنا ذلك أكتفي هنا بإيضاح دور العطف في عملية التماسك دون الخوض في بيان معانيها واستعمالاتها .

فالعطف وسيلة للربط بين المفردات ، والربط بين المفرد والجملة ، والربط بين الجملة والجملة ، والربط بين عدة جمل ، والربط بين مجموعة جمل ومجموعة جمل أخرى .

مثال الربط بين المفردات قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الحديد : ٣ .

(١) « مفتاح العلوم » ١٠٨ .

(٢) « مفتاح العلوم » ١٠٩ .

فالواو ربطت بين المفردات (الأول) و (الآخر) و (الظاهر) و (الباطن) ؛
لتجعلها جملة تامة متماسكة بعد أن كانت مفردات متباعدة ، ثم نلاحظ العلاقة بين كل
زوج من هذه المفردات ، فالأول والآخر بينهما طباق ، وكذلك الظاهر والباطن ، وهذه
العلاقة تزيد من تماسك النص وترابطه .

ومثال الربط بين المفرد والجملة قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتْ
وَيَقْبِضْنَ ﴾ الملك : ١٩ .

حيث ربط بين لفظ (صافآت) وجملة (يقبضن) بالواو .

ومثال الربط بين الجملة والجملة قوله تعالى : ﴿ مَا أَمْنُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ
الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ ١٦ ﴿ أَمْ أَمْنُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ الملك : ١٦ ، ١٧ .
حيث ربط بين جملة (أأمنتم) الأولى وجملة (أأمنتم) الثانية بأداة العطف (أم) .

ومثال الربط بين عدة جمل قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢
وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٥ وَإِذَا الْبِحَارُ
سُجِّرَتْ ٦ وَإِذَا الْنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ٧ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ٨ أَيَّامٌ دُفِنَتْ ٩ وَإِذَا الْصُّحُفُ
نُشِرَتْ ١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِقَتْ ١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مِمَّا
أَحْضَرَتْ ١٤ ﴾ التكويد : ١ - ١٤ .

حيث ربط بالواو العاطفة بين تلك الجمل ، وبجملة جواب الشرط التي تأتي بعد
ثلاث عشرة آية متعاطفة بالواو يحدث التماسك بين أجزاء النص المتعددة .

ومثال الربط بين مجموعة جمل ومجموعة جمل أخرى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ
يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة : ٨ ، إلى قوله : ﴿ يَكَاذِبُ الْبَرُّ يُخَاطَفُ

أَبْصَرَهُمْ ﴿البقرة: ٢٠﴾، وهذه المجموعة من الجمل قد عطفت على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿البقرة: ٦-٧﴾^(١).

وهكذا يقوم العطف بالربط بين جمل النص، ومن ثم يسهم في تماسكه، ومما يقوي هذا التماسك أن العطف لا يكون مقبولا إلا إذا كان هناك جامع بين المعطوف والمعطوف عليه، وبخاصة إذا كان هذا العطف بالواو «وذلك أنا لا نقول: (زيدٌ قائمٌ وعمرو قاعدٌ)، حتى يكون عمرو بسبب من زيد، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حال الأول عنه أن يعرف حال الثاني، يدلك على ذلك أنك إن جئت فعطفت على الأول شيئا مما ليس منه بسبب، ولا هو مما يذكر بذكره ويتصل حديثه بحديثه لم يستقم، فلو قلت: (خرجتُ اليوم من داري)، ثم قلت: (وأحسن الذي يقول بيت كذا)، قلت ما يضحك منه»^(٢).

وقد تكون تلك المناسبة بين الجمل دقيقة خفية، فتحتاج عندئذ إلى تأمل السياق ومعرفة قرائن الأحوال، انظر إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿الغاشية: ١٧-٢٠﴾.

قد يُتَوَهَّمُ بالنظرة العابرة ضعفاً في التماسك ما بين المتعاطفات (الإبل، والسماء، والجبال، والأرض)؛ نظراً إلى عدم تجانسها ووجود الجامع بينها، ولكن بالتأمل وإطالة النظر تعرف أن أهل الوبر تكون عنايتهم مصروفة إلى الإبل، حيث

(١) انظر «الفصل والوصل في القرآن الكريم دراسة في الأسلوب» د. منير سلطان، ١٨٢-١٨٨.

(٢) «دلائل الإعجاز» للجرجاني، ٢٢٤.

يتفنون بها في معاشهم ، وانتفاعهم بها لا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب ، وذلك يكون
بنزول المطر ، فيكثر تقلب وجوههم في السماء ، ثم لا بدّ لهم من مأوى يتحصنون به ،
ولا شيء لهم في ذلك كالجبال ، ثم لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل
من أرضٍ إلى سواها... ، فيتضح لنا بهذا أنّ الإبل والسماء والجبال والأرض متناسبة في
ذهن أهل الوبر وأخيلتهم^(١) .

ومن هنا كانت قوّة التماسك ، فالجمل المتعاطفة تتصل فيما بينها اتصالاً وثيقاً ،
حيث إنّ لا بدّ من وجود علاقة بينهما ، ومن ثمّ يتماسك النصّ برمته ، وما كان هذا
التماسك وذلك السبك القويّ إلّا لوجود أدوات العطف التي تربط بين أجزائه ،
« وتجمع هذه الأدوات بمختلف معانيها في قسم واحد هو قسم الأدوات المنطقية
(Particules Logiques) ؛ لأنّها علامات على أنواع العلاقات القائمة بين
الجمل ، وبها تتماسك الجمل ويبين مفاصل النظام الذي يقوم عليه النصّ »^(٢) .

رابعاً : دور البديل في عملية التماسك :

البديل بأنواعه يمثل عاملاً من عوامل تماسك النص ، وإن كان وجوده في النص قد
يقلّ عن وجود العطف . وهو أربعة أنواع :

١ . البديل المطابق :

يسهم في التماسك من حيث كونه تكراراً معنوياً واستمراراً للمبدل منه في البديل ،
حيث إنني عندما أقول : (حضر القائد خالد) فكأنني قلت : (حضر القائد) (حضر

(١) انظر « علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني » ٢ : ١٧٤ .

(٢) « نسيج النص » ٣٧ . وانظر أيضاً عن دور العطف في تكثيف الخطاب وإيجازه وخلوّه من الحشو
في لسانيات النص ، ٢٢٨ - ٢٢٩ .

خالد) ، وهنا تكرار للفعل (حضر) ، ولكن البديل قام باختصار هذا الأسلوب إلى جملة واحدة خالية من التكرار ، « والبديل على نية تكرار العامل ، وهذا التكرار يمثل وسيلة أخرى من وسائل تماسك جملة البديل ، على الرغم من عدم ظهور هذا العامل المكرر مطلقاً »^(١) .

٢ ، ٣ . بديل البعض من الكل ، وبديل الاشتمال :

يسهمان بالدور السابق في تماسك النص ، ويزيدان عليه بوجود الضمير الرابط في البديل ، فهو يقوم بدور الإحالة القبلية ، وبخاصة في بديل البعض من الكل ، فإنه « لا يعرف المقصود بالبديل من غير معرفة المبدل منه ، مثاله قول الله تعالى : ﴿ قُرْآنًا لِّأَقِيلًا ﴾^(٢) نَصْفَهُ أَوْ أَتَقْصُ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿ المزمّل : ٢ - ٣ . فالعلاقة مستمرة بين المبدل منه والبديل ، ومن هنا نلاحظ التماسك القائم بين البديل والمبدل منه من خلال هذه الاستمرارية ، ومن خلال ذكر الضمير العائد على المبدل منه ، ومن خلال الدلالة أيضًا »^(٣) ، وبذلك تشارك بقية التوابع في الإسهام بدور فعال في تماسك النص .

٤ . البديل المباين :

يشمل بديل الغلط وبديل النسيان وبديل الإضراب . والذي أراه أن هذا النوع من البديل هو خطابي شفاهي ، وليس نصيًا كتابيًا ؛ لأنه يعتمد على سياق الموقف والاستماع ، ويستحيل أن نجده في القرآن الكريم ، وفي نصوص العرب الثرية أو الشعرية المكتوبة ؛ لأن الكاتب إذا أخطأ أو نسي فإنه يحذف اللفظ الغلط ، ويستبدل به اللفظ الصحيح الذي لا غلط فيه ولا نسيان .

(١) « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١ : ٢٦٩ .

(٢) « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١ : ٢٦٨ .

كما أرى أنّ هذا النوع من البديل مهمٌّ لدارسي التماسك في الخطاب الشفاهي ، وفيه إلماح إلى أنّ النحاة القدماء قد أعاروا الخطاب الشفاهي اهتمامًا واضحًا بذكرهم مثل هذه الأنواع في كتب النحو .

وفي نهاية حديثنا عن التبعية بوصفها وسيلة من وسائل التماسك الشكلي النحوي نلاحظ ما يأتي :

١ - أنّ معظم الحالات والأمثلة التي ذكرت تنتمي إلى تماسك الجملة ، مع وجود بعض حالاتها على مستوى النص .

٢ - ليس المراد بالتماسك النصي البحث عن وسائل تربط أول النص بآخره فحسب ، وليس المقصود الربط بين المتباعدات فقط ، بل يتحقق التماسك النصي من خلال الربط بأي مسافة تزيد على الجملة الواحدة ، ولا شك أنّ تعدد تلك الروابط على مستوى الجملة في النص الواحد له أكبر الأثر في جعل النص كلاً موحدًا .

٣ - أغلب تلك الوسائل قد قامت بدور الربط عن طريق أمرين هما المحور الأساس في عملية التماسك : أولهما : التكرار ، والآخر : الإحالة القبلية .

٥ . الربط بالأدوات (Cohesion by conjunction) :

تتصل ظاهرة الربط بناحيتين من نواحي النشاط العقلي ، هما : التعرف والتذكر . أما التعرف فيعتمد على إدراك المعالم والقرائن . وأما التذكر فيتصل بالتداعي والترابط . وفي كلا الحقلين : حقل القرائن وحقل التداعي ، لا بدّ من وجود الدوال والمثيرات ، وهي بصورتها داخلية في نطاق ظاهرة الربط . ولقدرة الإنسان على التعرف حدودٌ ، كما أنّ لاستطاعته التذكر حدودًا كذلك ، وهذه الحدود تجعل من المستحسن أن

نكثر من القرائن الدالة على موضوع التعرّف ، ومن المثيرات المؤدية إلى التذكّر ، بحيث يكون بعض ذلك نافلة وزيادة على المطلوب ^(١) .

ومن تلك الروابط : الأدوات ، وهي كثيرة ومتنوعة ، وتعدّ العمود الفقري لبناء أي نص من النصوص وتماسكه . فالكاتب يحتاج إلى رابط ليبدأ به الجملة ، وآخر ليستطرد به إلى فكرة موافقة أو مخالفة ، وثالث لتعليل وجهة نظر ، أو لإيضاح مكان حصول أمر ما أو زمانه ، أو لتلخيص موضوع ، أو الخروج بنتيجة للأمر ، أو لمقارنة ما ذكّر بشيء آخر ، أو استشهاد أو تمثيل ، ونحوها ^(٢) .

والرابط نوعان :

إمّا موضعي شرطي ، يعتمد على الروابط السببية المعتادة بين الوقائع التي تدلّ عليها الأقوال ، ويشير إلى العلاقات بين مساحات المعلومات ، أو بين الأشياء في هذه المساحات ^(٣) ، ويشار إليها بمجموعة من الأدوات الرابطة مثل : لأن ، وعليه ، ونتيجة لذلك ، ولهذا ... إلخ .

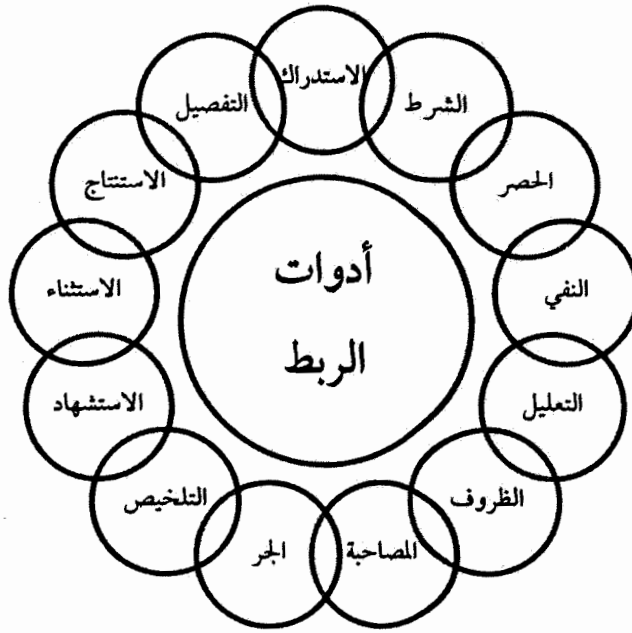
وإمّا وظيفي ، وهذا النوع من الربط (Junction) صعب التحديد ، فهو تماسك وظيفي ، لأنّه يحدث عندما يعزى إلى أحد الأقوال في النص وظيفة محددة بالنسبة إلى قول آخر سابق عليه ، وقد أطلق جريماس (Greimas) على هذه الوظائف والروابط تسمية (روابط بلاغية) .

(١) انظر « مقالات في اللغة والأدب » د. تمام حسان ١ : ١٦٩ .

(٢) انظر « مهارات الكتابة » د. محمد بن محمود فجال ، ١٣٣ .

(٣) « النص والخطاب والإجراء » ٣٤٦ .

وهذه الوسائل في التماسك تبدو أكثر ارتباطاً بإستراتيجية القول الدلالية والتداولية لإقامة علاقات متماسكة بين ثوبات القول^(١).



بعض أدوات الربط في العربية

وقد جددت أساليب وأدوات حديثة في الفصحى المعاصرة تُسهّم بشكل واضح في عملية الربط والتماسك^(٢)، منها ما يربط بين عناصر الجملة الواحدة، ومنها ما يربط

(١) انظر « بلاغة الخطاب وعلم النص » ٣٣٩.

(٢) وقد ذكر بعضها د. عباس السوسنة في كتابه: « العربية الفصحى المعاصرة وأصولها التراثية »

٢٦٢ - ٢٦٩، منها: (بينما) ويقوم بعملها في الفصحى المعاصرة (فيما). ومنها: (ما إذا)،

(عما إذا)، (فيما إذا). ومنها أدوات تربط بين الفقرات، نحو: (هذا)، (أما).

بين عناصر الجمل المتعددة . واستقصاء تلك الأدوات مع التمثيل لها يطول حتى نخشى أن نخرج عما نحن بصدده ، وأكتفي بسردها بعضها على النحو الآتي ^(١) :

النوع	الفاظه
أدوات الاستدراك	لكنْ و لكنَّ و بل و إنما
أدوات المصاحبة	أيضًا وكذلك و بالإضافة إلى، وإلى جانب ، وعلاوة على ذلك، وكما أنَّ ، ورغم
أسماء الشرط	مَنْ و ما و مهما و متى و أيانَ
الظروف	قبل و بعد و فوق و تحت و منذ و حيث و قطَّ
أدوات الحصر	إنها ، وما ... إلا ، والتقديم والتأخير
أدوات النفي	لم و لا و لن و ليس .

(١) انظر « النص والخطاب والإجراء » ٣٤٦ ، حيث جعل دي بوجراند من صور الربط ما يأتي:

- ١ - مطلق الجمع (conjunction) : يربط بين صورتين حيث يوجد اتحاد أو تشابه بينهما .
 - ٢ - التخيير (disjunction) : يربط بين صورتين تكون محتوياتها متماثلة وصادقة ، غير أنَّ الاختيار لا بدَّ أن يقع على محتوى واحد .
 - ٣ - الاستدراك (contrajunction) : يربط على سبيل السلب بين صورتين من صور المعلومات بينهما علاقة تعارض .
 - ٤ - التفريع (subordination) : يربط بين صورتين من صور المعلومات بينهما علاقة التدرج ، أي أن تحقق إحداها يتوقف على حدوث الأخرى .
- كما استخدم النحويون العرب القدامى أدوات أخرى للربط ، منها : حروف العطف ، واو الحال، واو المية ، أدوات نصب المضارع ، أدوات الشرط ، الفاء الواقعة في جواب الشرط ، أدوات الاستثناء ، حروف الجر . انظر « أنظمة الربط في العربية دراسة في التراكيب السطحية بين النحاة والنظرية التوليدية التحويلية » د. حسام البهنساوي ، ٢٣ - ٢٧ .

النوع	ألفاظه
التفصيل	بحيث
التعليل	بسبب ، وبفضل ، ونظرًا إلى ، ونظرًا إلى أن ، ولأن ، وحيث إن ، وإذ إن ، وبما أن
	اللام ، وكي ، وحتى ، ومن أجل أن ، وكيما ، وكيلا ، ولكيلا ، ولثلا
	خشية من ، ومخافة من ، وخوفًا من ، وخشية أن ، ومخافة أن ، وخوفًا من أن ، وخشية ألا ، ومخافة ألا ، وخوفًا من ألا .
الاستنتاج	وعلى هذا ، وعلى ذلك ، ونتيجة لهذا ، ونتيجة لذلك ، ونتيجة لـ ، ولهذا ، وبذلك ، ومن هنا ، ومن ثم ، وبناء عليه ، ولهذا كله
حروف الاستثناء	إلا ، وعدا ، وخلا ، وحاشا ، وسوى
الاستقبال	السين وسوف
الأمر	اللام
التوكيد	إنَّ وقد واللام
المقارنة	في المقابل ، ولكن ، وبشكل طبيعي ، ومع ذلك ، وما عدا ، وبالمقارنة ، وعلى عكس ذلك ، وبالنقيض ، ويشبه ذلك ، وفي الوقت نفسه ، وبالطريقة نفسها
الاستشهاد	مثل ، ونحو ، والكاف ، وعلى سبيل المثال ، ويمكن استخدام ، ومثلاً

النوع	ألفاظه
التلخيص	الخلاصة و النتيجة و عند الختام و باختصار ، وجملة القول .

وأودُّ الإشارةَ إلى أنَّ معظمَ تلك الأدواتِ المستخدمةِ في عمليةِ الربطِ إنّما تكثرُ في الربطِ بين عناصر الجملة الواحدة أو الجملتين في الغالب ، وهذه الروابط لا يكاد يخلو منها نص من النصوص ، والنص إنّما يقوم على الجمل المترابطة ، بمعنى أن تلك الروابط وإن كانت صورتها لربط الجملة لكنها هي أساس الترابط النصي في حقيقة الأمر.

والتماسك النصي في مثل تلك المواضع ليس قائماً على تلك الأدوات فحسب ، بل إنّ فهم المتكلمين واعتمادهم على تجاربهم السابقة ومعارفهم وأهدافهم ومنظورهم الشخصي، واعتمادهم على مواقفهم في إسناد هذا النوع من التماسك على النصوص التي يقرؤونها أو يشاركون فيها - إنّ هذا كلّهُ هو الذي يسهم في عملية التماسك النصي بصورة قوية .

فالتماسك النصي ليس مجرد خاصية تجريدية للأقوال نعالجها في علم الدلالة أو نظرية الخطاب أو نحو النص ، ولكنه ظاهرة تأويلية ديناميكية من الفهم المعرفي ، تتدخل فيها أنواع عديدة من المعارف الذاتية^(١).

(١) Van Dijk, Teun A. : La ciencia del texto,P:287 .

وانظر « بلاغة الخطاب وعلم النص » ٣٤٠ .

وأتناول هنا - بإيجاز - مثالين على الربط بالأداة :

١ - الربط بحرف الجر . ٢ - الربط بأداة الشرط .

أولاً : الربط بحرف الجر :

حروف الجر هي حروف ربط ؛ لأنها « تربط ما بعدها بالحدث الكامن في الفعل ، نحو : (خرجتُ في الصباح) . ويبدو أنّ العربية تتيح التعبير عن هذا المعنى بطريق الارتباط بين الحدث وزمانه ، فيقال : خرجتُ صباحاً »^(١) .

ومّا علّل به النحاة تسميتها بـ (حروف الجر) أنّها تحجّر معنى الفعل إلى الاسم ، وسماها الكوفيون (حروف الإضافة) ؛ لأنها تضيف الفعل إلى الاسم ، أي : توصله إليه وتربطه به^(٢) .

وقد يعجز الفعل عن أن يرتبط بالمفعول ، فيكون حرف الجر عامل ربط قوي ، حينما يعدّي الفعل ويربطه بالمفعول .

يقول ابنُ جنّي عن هذه الحروف : « إنّها جرّت الأسماء من قبل أنّ الأفعال التي قبلها ضُعفت عن وصولها وإفضائها إلى الأسماء التي بعدها وتناولها إيّاها ... فلمّا قصّرت هذه الأفعال عن الوصول إلى الأسماء رُفدت بحروف الإضافة ، فجُعِلت موصلة لها إليها ، فقالوا : عجبتُ من زيد ، ونظرتُ إلى عمرو »^(٣) .

(١) « نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية » مصطفى حميدة ، ١٧٥ .

(٢) « بديع التراكيب في شعر أبي تمام : الجمل والأسلوب » د. منير سلطان ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ط ١ ، دت .

(٣) « سر صناعة الإعراب » تح: د. هندأوي ، ١ : ١٢٣ .

وهو المعنى الذي أراده عبد القاهر الجرجاني مع زيادة مصطلح (التعدّي) حيث جعل من شأنها أن «تعدّي الأفعال إلى ما لا يتعدّى إليه بأنفسها من الأسماء»^(١).

ثانيًا : الربط بأداة الشرط :

الشرط هو « وقوع الشيء لوقوع غيره »^(٢). وقيل : « تعليق شيء بشيء ، بحيث إذا وُجدَ الأوّل وُجدَ الثاني »^(٣).

وهذه التعريفات وغيرها تدلّ على التماسك الذي تقوم به الأدوات الشرطية في أسلوب الشرط ، حيث تربط هذه الأدوات بين طرفي الجملة التركيبية ، سواء أكانت جازمة أم غير جازمة ، وتفيد الدلالة على علاقة الشرط القائمة على معنى الاستلزام^(٤)، ففي قولنا : (إن تُذاكِرَ تنجَحَ) تكوّنت الجملة من (إن) أداة الشرط + المركب الفعلي (تُذاكِرُ) الذي يشغل موقع فعل الشرط + المركب الفعلي (تنجَحُ) الذي يشغل موقع جواب الشرط . وفي حالة عدم وجود أداة الشرط فإنّ المركبين الفعلين يتفكّان تمامًا ، وتنتفي عنهما قواعد سلامة البناء التركيبى لنظام الجملة العربية^(٥).

(١) « دلائل الإعجاز » ٧٥ .

(٢) « المقتضب » ٤٦ : ٢ .

(٣) « التعريفات » ١٣١ .

(٤) المراد بالاستلزام : أنّ وقوع فعل الشرط يستلزم منه وقوع جواب الشرط ، ففي المثال المذكور (إن تذاكرَ تنجح) نرى أنّ حصول المذاكرة يستلزم منه حصول النّجاح ، ومن علاقات الاستلزام في غير باب الشرط قولنا : (رأيتُ أباك) . إذ يلزم من ذلك أنّ لك أبا .

(٥) انظر « قواعد الربط وأنظمتها في العربية » ٣٣ .

القسم الثاني : أدوات التماسك الشكلي المعجمية :

هو التماسك الذي تحدثه العناصر اللغوية (كلمة وعبرة وجملّة) في النص بوصفها عناصر معجمية . ويتم ذلك عن طريق التكرار والتضام .

١ . التكرار (Reiteration) :

يعدّ التكرار ظاهرة من الظواهر التي تتسم بها اللغات عامة ، والعربية خاصّة ، ولا يتحقق التكرار على مستوى واحد ، بل على مستويات متعددة ، مثل : تكرار الحروف والكلمات والعبارات والجمل والفقرات والقصص والمواقف كما هو واقع في القرآن الكريم^(١) .

والتكرار هو شكل من أشكال التماسك المعجمي التي تتطلب إعادة عنصر معجمي^(٢) ، أو وجود مرادف له ، أو شبه مرادف ، ويطلق بعضهم على هذه الوسيلة (الإحالة التكرارية) ، و« تتمثل في تكرار لفظ أو عدد من الألفاظ في بداية كل جملة من جمل النص قصد التأكيد »^(٣) ، وهذا التكرار في ظاهر النص يصنع ترابطاً بين أجزاء النص بشكل واضح ، وقد مثل هاليداي ورقية حسن بمثال للتكرار المعجمي :

- Wash And Core six cooking apples. Put the apples into a fireproof dish.

(اغسلي وانزعي نوى ست تفاحات للطبخ ، ضعي التفاحات في صحن يقاوم النار) ، ففي هذا المثال تمّ التماسك عن طريق تكرار كلمة (التفاحات) في الجملة

(١) انظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١٧ : ٢ .

(2) Cohesion in English, P: 278.

(٣) « نسيج النص » ١١٩ . وانظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة »

د. سعيد بحيري ، ٨٨ .

الثانية، وقد أسهم التعريف كذلك بدور واضح في التماسك النصي .

وسياقي تفصيل الحديث عن الإحالة بالتكرار في المبحث الرابع من الفصل الرابع .

٢ . التضام (Collocation) :

ذكر هاليداي ورقية حسن (التضام) على أنه أداة من أدوات التماسك المعجمية ، وعرفاه بأنه : « توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة ؛ نظرًا إلى ارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك » ، فحينما نقول :

- Why does this boy wriggle all the time ?
- Girls don't wriggle.

- ما لهذا الولد يتلوى في كل وقت وحين ؟

- البنات لا تتلوى .

فالولد والبنات ليسا مترادفين ، ولا يمكن أن يكون لديهما المحال إليه نفسه ، ومع ذلك فإن ورودهما في خطاب ما يسهم في النصية^(١) .

ويدخل في ذلك (المصاحبة المعجمية) التي تعني ارتباط كلمة ما بمجموعة من الكلمات ، وهذه العلاقات التي تربطها جميعًا علاقات متعددة ، منها :

١ - التباين (Complementarits): له درجات عديدة ، فقد يكون اللفظان:

- متضادين (Opposites) ، نحو : ولد / بنت .
- متخالفين (Antonyms) ، نحو : أحب / أكره .
- متعاكسين (Converse) ، نحو : أمر / أطاع .

(١) انظر « لسانيات النص » ٢٥ .

٢ - الدخول في سلسلة مرتبة (Ordered Series) ، نحو : (الثلاثاء /

الأربعاء) ، (الدرهم / الدينار) ، (اللواء / العميد) .

٣ - الكل للجزء (Part to Whole) ، نحو : (السيارة / الفرامل) ،

(الصندوق / الغطاء) .

٤ - الجزء للجزء (Part to part) ، نحو : الفم / الذقن .

٥ - الاندراج في صنف عام (General class) ، نحو : (الكرسي / الطاولة)

حيث تشملها كلمة (الأثاث) .

ويندرج تحت هذا النوع من السبك المعجمي الكثير من أبواب البلاغة العربية :
مراعاة النظر ، واللف والنشر ، والاستخدام ، والتورية المرشحة ^(١) .

وأنبه - في ختام الحديث عن وسائل التماسك الشكلية بقسميها النحوي والمعجمي - إلى أن التماسك الشكلي له درجات ، تتوقف على عدد الوسائل المستخدمة ، فكلما زاد عدد وسائل الربط ارتفعت درجة التماسك في النص ، ومن ثمّ يصبح الكلام أكثر نصية ، والعكس صحيح .

كما أنّ هذه الدرجات قد تتفاوت داخل النصّ الواحد ، فقد تزيد في جزء ، وتقلّ في آخر ، كما أنّها قد تكون عالية داخل الفقرات ، وهابطة فيما بين هذه الفقرات أو العكس ^(٢) .

(١) انظر « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية » ١٢٣ ، و« معايير النصية » ٩٦ .

(٢) انظر « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية » ١٢٣ .

ثانياً : وسائل التماسك الدلالية (Coherence)^(١) :

إذا كان معيارُ (التماسك) يُعنى بالتناسق الشكلي الذي يفرضه ظاهر النص ، فإنَّ (الانسجام) يُعنى بالتناسق المعنوي (الدلالي) الذي يفرضه المعاني وما بينها من

(١) يرجع المفهوم (Coherence) في الإنجليزية أو (Kohärenz) في الألمانية إلى الأصل اللاتيني (Gohaerentia) ، وهو مستعار من علم الكيمياء ، وقد ترجمه المعاصرون إلى عدّة ترجمات ، منها :

١ - الحبك : هي ترجمة د. سعد مصلوح ، ود. محمد العبد . انظر « في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية » ٢٢٨ . و«النص والخطاب والاتصال» ١٠٠ .

٢ - التماسك الدلالي : هي ترجمة د. سعيد بحيري لمصطلح (Kohärenz) . انظر «علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات» ١٣٢ .

٣ - الانسجام : هي ترجمة الأزهر الزناد ، ومحمد خطاي ، ود. صلاح فضل . انظر « نسيج النص » ١٥ . و«لسانيات النص» ٥ . و«بلاغة الخطاب وعلم النص» ٢٦٤ .

٤ - الالتحام : هي ترجمة د. تمام حسان . انظر «النص والخطاب والإجراء» ٥٩٠ . وترجمها إلى (التلاحم) د. محيي الدين حميدي . انظر «الترجمة وعلوم النص » لألبرت نيوبيرت وغريغوري شريف ، ترجمة : د. محيي الدين حميدي .

٥ - الارتباط : هي مفهوم د. مصطفى حميدة لمثل هذا المعنى ، حيث يرى أنَّ الارتباط هو ما «ينشأ بين المعنيين داخل الجملة الواحدة أو بين الجملتين إذا كانت العلاقة بينهما وثيقة ، تشبه علاقة الشيء بنفسه ، فتغني تلك العلاقة عن الربط بأداة » . « نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية » ١٤٦ .

٦ - التناسق : هي ترجمة د. فالح العجمي . انظر « مدخل إلى علم اللغة النصي » ١٤١ .

٧ - التقارن : هي ترجمة د. إلهام أبو غزالة . انظر « مدخل إلى علم لغة النص » ١١ .

٨ - التناغم : هي ترجمة د. محمود قراج . انظر « معرفة اللغة » لجورج يول ، ١٤٦ .

علاقات ذهنية ، هذه العلاقات هي التي تجعل المفاهيم مستمرة هذه الاستمرارية التي يمثلها سبب القضية الأولى أو نتیجتها أو تفصيلها أو تفسيرها ... إلخ .

فمعيارُ (الانسجام) « يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص (Textual World) ونعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم (Concepts) والعلاقات (Relations) الرابطة بين هذه المفاهيم »^(١).

فكما أن النص يتكوّن من ألفاظ وجمل متناسكة فإنّه يتكوّن أيضًا من معاني منسجمة، تلك المعاني هي التي يشير إليها الاقتباس السابق بمنظومة المفاهيم حتى يكون النص نصًا مفهومًا مقبولا لدى المتلقي حتى وإن كان ظاهر النص يبدو مفككا ، فإن المتلقي لا يلبث أن يتبين فيه بنية عميقة مترابطة .

ويؤكد ذلك رأي براون ويول الذي ذكره محمد خطابي قائلا : « لا يعتبران انسجام الخطاب شيئا مُعطى ، شيئا موجودا في الخطاب ينبغي البحث عنه للعثور عليه (على مجسّداته) ، وإنما هو في نظرهما شيء يبنى ، أي ليس هناك نصّ منسجم في ذاته ، ونص غير منسجم في ذاته باستقلال عن المتلقي ، بل إنّ المتلقي هو الذي يحكم على نصّ بأنه منسجم وعلى آخر بأنه غير منسجم »^(٢).

إذن فالترابط (Connectedness) بين النصوص لا يعتمد على وجود الروابط فحسب ، بل لا بدّ من وجود الانسجام والتناغم ، فهو الذي يميّز بين النصوص المترابطة ذات المعاني ، والنصوص المترابطة التي لا معنى لها .

(١) « في البلاغة العربية والأساليب اللسانية » ٢٢٨ .

(٢) « لسانيات النص » ٥١ .

ويتضح لنا أنّ الانسجام هو شيء موجود في الناس لا في اللغة، فالناس هم الذين يحددون معنى ما يقرؤون وما يسمعون ، وهم الذين يحاولون الوصول إلى تفسير ينسجم مع خبرتهم في الكون ، وفي الواقع لا تمثل قدرتنا على تفهم ما نقرأ إلا جزءاً يسيراً من قدرتنا العامة على تفهم ما ندركه وما نكتسبه في الحياة ، وهذا الفهم هو ما يجعلنا نملأ كثيراً من الفراغات في النص ، وننشئ علاقات دلالية لا توجد في ظاهر الكلمات والجمل^(١).

ومثال ذلك القطعة الآتية :

- أ : هاتف .
- ب : أنا في الحمام .
- أ : طيّب .

فهنا لا نجد روابط تسهم في تماسك هذا الجزء من الخطاب ، فكيف يمكن للمتلقي أن يفهم ما يقوله الآخر ؟ إنهم يفيدون مما يتاح لهم من معلومات في الجمل المنطوقة.

وتحليل النص السابق كالآتي : هناك شخص على الهاتف و (أ) يسأل (ب) هل يمكن أن يجيبه ؟ ، ولكنّ (ب) يبدي سبباً لانشغاله وعدم استطاعته تلبية هذا الطلب (لا ، لا يمكنني أن أجيبه فأنا في الحمام) ، لذا تولى (أ) القيام بهذا العمل بدلاً منه (إذن سأجيبه أنا)^(٢).

(١) انظر « معرفة اللغة » لجورج يول ، ترجمة : د. محمود فراج ، ١٤٦ . وقد ترجم مصطلح (Coherence) إلى (التناغم) .

(٢) « معرفة اللغة » ١٤٧ . وانظر « النص والخطاب والاتصال » ٩٨ .

ونلاحظ أن الاعتبارات التداولية أسهمت في انسجام الخطاب ، فالمنطوقات الثلاثة السابقة كوَّنت خطابًا منسجمًا بكونها أفعالًا إنجازية ، ويساعد هذا الفهم للعلاقات بين المنطوقات على تزويد المبادلة السابقة بالروابط القضية المفقودة التي تعيد إليها خاصية التماسك . ومن الأمثلة الأخرى هذه الدعاية الإعلانية :



حيث تحتوي على جمل وأرقام ورموز لا رابط بينها ، ولكن المتلقي قد اعتاد على فهم مثل هذه الدعايات الإعلانية وتأويل رموزها وملء فراغاتها .

وتحليله : تعلن أسواق الرأية التجارية عن تخفيضات في بضائعها تصل إلى ٥٠٪ وذلك في الفترة الممتدة من يوم ١٥ يناير إلى يوم ٢٠ يناير .

وأرى أن الاعتماد الكلي على المتلقي في الحكم على انسجام الخطاب من عدمه إنما يتجلى في بعض الخطابات المبهمة والموجزة ، كالرسائل القصيرة ، أو الخطابات ذات الطابع الرمزي ، وبعض الإعلانات^(١) ، التي تبدو في ظاهرها مفككة لا يفهمها إلا

(١) انظر « مدخل إلى علم اللغة النصي » لفولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر ، ترجمة : د. فالح العجمي ، ٣٩٦ .

المتلقي الذي يدرك ظروف نشأة النص ومناسبته وصاحبه ، مما يسهّل له عملية الربط بين عناصره ومحتوياته .

أما بقية النصوص فالأصل أنها تتضمن علاقة انسجام تسهم في الربط بين معاني النص، ومن ثمّ في فهمه وقبوله، ولن يجد المتلقي عناء في فهم هذه العلاقات، ومن ثمّ في فهم النص وتأويله . وإذا ما جدّت معلومة على هذا النص فإنّ « هذه المادة الجديدة تتطلب علاقة مقنعة على الأقلّ لربطها عند النقطة المناسبة »^(١).

أهمية الانسجام :

للانسجام أهمية كبرى في فهم النص وتأويله ، لذا جعله دي بوجراند المعيار الثاني من معايير النصية بعد (التماسك) قائلاً : « لذا كان من الضروري لمن يتواصلون من خلال النصوص أن يصوغوا هذه الوقائع مع وصلها بالوقائع الأخرى ، وإلا فهذا الترابط في الغالب يصعبُ التعرّفُ عليه ، وهكذا نرى كل علاقة يصعب التعرّف عليها بين الوقائع تمثّل إشكالاً ... إنّ الانهيار التامّ لعملية الاتصال بسبب عدم الالتحام مثلاً يمكن أن يكون عقبة »^(٢).

وهكذا تظهر أهمية الانسجام في فهم النص ، وأنّ غياب علاقاته قد تمثّل عقبة في طريق المتلقي فلا يفهم النصّ ، ويعدّ النص بالنسبة إليه مجموعة مشتتة من الجمل التي لا يجمع بينها شيء، حتّى وإن توافرت أدوات سطحية وعلاقات نحوية تربط بين جمل النص، فإنّه عندئذٍ سوف يفقد القبول الدلالي ، وسيعدّ نصّاً غير مقبول^(٣).

(١) « النص والخطاب والإجراء » ١١٩ .

(٢) « النص والخطاب والإجراء » ١١٨ .

(٣) انظر « معايير النصية » ١٠٤ .

ويسوق براون ويول مثالاً للتعبير عن ذلك هو : « اشترت سيارة فورد . كانت السيارة التي قادها الرئيس ولسن على طول طريق الشانزلييه سوداء . لقد تمّ بحث إنجليزية السود من طرف الكثير . انتهت المباحثات بين الرؤساء في الأسبوع الماضي . يوجد في الأسبوع سبعة أيام . كل يوم أأطعم قطتي . تمشي القطة على أربع . القطّ جالس على السجاد . تتكوّن كلمة سجّاد من خمسة أحرف » ^(١) .

فهذا النص يوحى لناظره أنه نص متكامل مترابط ، إذ يحتوي على العديد من وسائل الربط وأدوات التماسك الشكلية ، إلّا أنه يفتقد العلاقات المعنوية بين أجزائه ، فلا انسجام بين الجملة الأولى والثانية ، وربّما يكون القارئ قد حاول وهو يقرأ أن يقيم علاقة بين الجملة الأولى والثانية من خلال ربطه بين (سيارة / السيارة) وبين الثالثة والرابعة من خلال ربطه بين (سوداء / السود) ... إلخ ، ظلّنا منه بأن الجمل الآتية ستزوده بعناصر تمكّنه من فهم الجمل وربطها وجعلها كلّاً متماسكاً ، لكنه سرعان ما يفشل في ذلك الربط بسبب عدم الانسجام المعنوي بين تلك الجمل ودلالاتها ، ومن ثمّ يفتقد هذا النص القبول دلاليّاً مع كونه مقبولاً نحويّاً .

وسائل الانسجام :

الانسجام في نطاق الجملة له صلة وثيقة بمعايير النصية ، وفي كون الملفوظ نصّاً ، فالجملة في جوار الجملة تكون نصّاً ، بل قد تكون الجملة الواحدة نصّاً مما يجعل دراسة الانسجام على مستوى الجملة أمراً مهمّاً للوصول إلى معايير الانسجام على مستوى النص ، حيث إنّّه يجمع بين جمل النص وأجزائه ليكون نصّاً منسجماً مقبولاً .

(١) « تحليل الخطاب » ٢٣٦ .

وسأوجز الحديث عن الانسجام من خلال الوسائل الآتية :

أولاً : الفصل والوصل :

هو من المباحث التي تناولها علماء البلاغة العربية بالدرس والتحليل ، أمّا الوصل فهو ربط بالأداة ، لذا سأكتفي بالحديث عن الفصل لأنه يحقق الربط بين أجزاء الكلام من خلال العلاقات المعنوية التي لها أثر بارز في انسجام النص . ومن تلك العلاقات التي سوّغت للفصل ما يأتي :

- ١ - أمن اللبس .
- ٢ - التأكيد .
- ٣ - الاستفهام المقدّر .
- ٤ - نقصان المعنى .
- ٥ - الإيضاح .
- ٦ - التفصيل بعد الإجمال .
- ٧ - الاستطراد .

ثانياً : علم المناسبة :

يعد علم المناسبة من العلوم الوثيقة الصلة بالانسجام ، حيث إن « المناسبة في اللغة هي المشكلة والمقاربة ، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها ، عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي ، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني ، كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين ونحوه »^(١) .

(١) « الإيقان » ٣ : ٣٢٣ .

« وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء »^(١) .

ومن خلال ذلك يتضح لنا أهمية دراسة علم المناسبة كوسيلة من وسائل انسجام النص القرآني ، فالمناسبة تختص بالعلاقات الملفوظة التي تسهم في التماسك ، والملحوظة التي تسهم في الانسجام .

ومن الأمور المهمة التي تسهم في باب الانسجام وينبغي العناية بها في باب المناسبة على نطاق السورة المفردة ما يأتي :

أولاً : مناسبة اسم السورة لمضمونها :

اسم السورة له أهمية كبيرة في دراسة الانسجام في النص القرآني ، وذلك لعلاقته الوثيقة بمضمون السورة ، فاسم السورة قد يطلق على حدث مذكور فيها ، وقد يطلق على قصة مذكورة فيها ، وقد يدل على ما جاء في السورة كلها ، ولأن اسم السورة هو أول ما يواجه متلقي السورة فهو يعطي إشارة الولوج إلى أعماقها من خلال العنوان ، كما يعطي الانطباع الأول للمتلقي عن السورة أو النص بصورة عامة ، فيتوقع المعلومات التي سيقروها بعد ذلك .

ويرى جون كوين أن العنوان « يشكّل الموضوع أو المحور العام التي تكون كل أفكار النصّ مسنداتٍ إليه ، يكون هو الكلّ ، وتكون هي جزئياته »^(٢) .

والعنوان (اسم السورة) إجمالاً ، تفصيله في النص بأكمله ، ومن ثم فإن العنوان يمدنا بزاوية ثمين لتفكيك النص ودراسته ، إذ يقدم لنا معونة كبرى لضبط انسجام النص

(١) « الإيقان » ٣ : ٣٢٣ .

(٢) « بناء لغة الشعر » جون كوين ، ترجمة : د. أحمد درويش ، ١٩٣ .

وفهم ما غمض منه، إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه، وهو الذي يحدد هوية النص، فهو بمثابة الرأس للجسد والأساس الذي تبنى عليه، غير أنه إما أن يكون طويلاً فيساعد على توقّع المضمون الذي يتلوه، وإما أن يكون قصيراً، وحيثئذ فإنه لا بد من قرائن فوق لغوية توحى بما يتبعه^(١).

ومن ذلك سورة يوسف التي أوحى بمضمونها وهو الحديث عن قصة يوسف عليه السلام.

وتنقسم مناسبة اسم السورة لمضمونها إلى عدة محاور، هي:

١ - المناسبة بين اسم السورة وحدث مذكور فيها.

تتضمّن سورة الأعراف حديثاً عن موقف أصحاب الأعراف وهم بين الجنة والنار، وهذا يؤدي إلى الانسجام النصّي ليس بين الاسم والحدث فقط، لكن بين الاسم ومضمون السورة كلّها^(٢).

٢ - المناسبة بين اسم السورة وقصة مذكورة فيها.

هذا النمط يشبه السابق، ومن السور التي حوت مجموعة من القصص وسميت باسم إحداها: سورة مريم وسورة يونس وسورة هود، عليهم السلام.

٣ - المناسبة بين اسم السورة والسورة كلّها.

هذا النمط من أكثر الأنماط إبرازاً للمناسبة، حيث إنّ اسم السورة يشير إلى موضوعها كلّها، ومثاله قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - بتفاصيلها، وكذلك سورة الواقعة والحاقة والجن ونوح والفيل وغيرها.

(١) انظر «دينامية النصّ تنظير وإنجاز» د. محمد مفتاح، ٧٢.

(٢) انظر «معايير النصية» ١٣٢.

٤ - المناسبة بين اسم السورة والآية الأولى منها .

هذا نمط متحقق في كثير من السور ، حيث تلخص الآية الأولى مضمون السورة ، وقد تكون الآية الأولى هي اسم السورة نفسها ، نحو : سورة طه ، وسورة يس .

ومن السور التي تلخص مضمون السورة في آياتها الأولى سورة (المؤمنون) ، فقد تناولت آياتها الحديث عن الإيمان بكل قضايا ودلائله وصفاته ، ومنها سورة الإسراء وسورة الكوثر وسورة (الكافرون) وسورة النصر ، وغيرها .

ثانيًا : مناسبة أول السورة لآخرها :

من العلاقات التي تُحكم بناء النص وتجعله منسجمًا ومتربطًا ترابطًا شديدًا هي المناسبة بين أول النص ونهايته ، حيث إنّ البداية استمرت خلال النص إلى أن ظهرت بصورة أو بأخرى في نهايته ؛ لتذكر المتلقي بالبداية التي طال العهد بها ، وربما قد نسيها فتنشط ذاكرته مرة ثانية ويستعيد معنى النص كاملاً .

مثال ذلك سورة (ق) التي ابتدأت بقوله تعالى : ﴿ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ ۝١ ﴾ . ثم قال تعالى في عَجَبًا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿ ق : ١-٢ . ثم قال تعالى في وسط السورة : ﴿ فَأَصْبَرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ ق : ٣٩ ، وهو إحالة على قولهم الذي جاء في الآية الثانية السابقة الذكر ، ثم قال في آخر السورة : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذِكْرٌ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ق : ٤٥ . (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ) فيه إحالة على ذلك القول الذي ورد في أول السورة ووسطها ، (فَذِكْرٌ بِالْقُرْآنِ) فيه أيضًا إحالة على ذكر القرآن الذي ورد في الآية الأولى ، ولا شك بأن ذلك من أقوى وسائل التماسك والانسجام في النصوص .

ثالثًا : مناسبة آيات السورة لبعضها :

هذه المناسبة بين آيات السورة تجعل السورة كُلاً واحداً متماسكاً ومنسجماً ، وهذه المناسبة قد تكون من طريق :

أ- تكرار الفاصلة .

ب- الإجمال والتفصيل بين الآيات .

ج- ترتيب الجمل بحسب ترتيب الأحداث .

د- علاقة التضاد .

هـ- إشارة آية إلى آية أخرى من السورة نفسها .

وجميع السور القرآنية لا تخلو من أمثلة على تلك الأنواع السابقة .

ومن خلال هذا العرض الموجز للمناسبة ظهرت لنا علاقتها الوثيقة بانسجام النص ، والحديث عن المناسبة والفصل والوصل هو أهم ما تناولته الدراسات العربية في جانب الانسجام النصي في اللغة العربية .

وسائل أخرى تعمل على انسجام النص :

١ - العنوان^(١) .

٢ - الجملة الأولى في النص^(٢) .

٣ - الجملة المحورية (الجملة الهدف) .

٤ - المرتكز الضوئي^(٣) .

والفرق بين الجملة المحورية والمرتكز الضوئي هو أن الأولى جانب دلالي ، والثانية جانب تعبيرى ، وكلاهما مفضى إلى ما يفضى إليه الآخر .

أما الدراسات الغربية التي تناولت جانب الانسجام في النص فأبرزها :

١ - ما جاء به فان دايك في كتابيه : « علم النص : مدخل متداخل الاختصاصات »^(٤) ، و « النص والسياق : استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي »^(٥) .

٢ - ما جاء به براون ويول ، في كتابهما : « تحليل الخطاب »^(٦) .

وقد صوّرت لنا الكتب السابقة المنظور الغربي في دراسة انسجام النص ، بما يغني عن إعادة شرحه وبيانه هنا .

(١) انظر « دينامية النص » ٧٢ . و « بناء لغة الشعر » ١٩٣ . و « اللغة والإبداع الأدبي » ٤٩ .

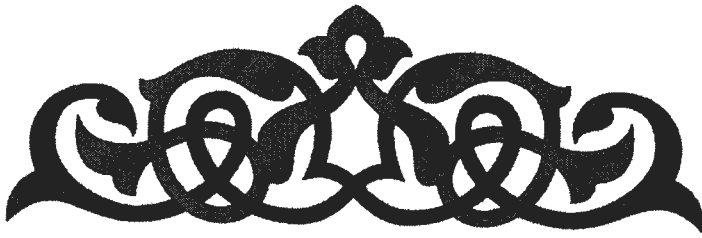
(٢) انظر « الإتقان في علوم القرآن » ٣ : ٣٣٧ .

(٣) انظر « الإبداع الموازي » ٣٨ . و « النحو والدلالة : مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي » د. محمد حماسة ، ٢٣٠ .

(٤) ترجمة د. سعيد بحيري .

(٥) ترجمه عبد القادر قنيني .

(٦) ترجمه د. محمد لطفي الزليطني ، ود. منير التريكي .



الفصل الثاني

الإحالة : وظيفتها وأنواعها
وأثر السياق فيها



المبحث الأول

مفهوم الإحالة لغةً واصطلاحاً

ظهر مصطلح الإحالة (Reference) عند علماء النص بكونها أداة من أدوات الربط والتماسك اللفظي (cohesion)، نلاحظ ذلك عند هاليداي ورقية حسن (١٩٧٦ م)^(١)، ثم قدّم دي بوجراند ودريسler (١٩٨١ م)^(٢) مصطلح الألفاظ الكنائية (pro - forms) وهو مصطلح عام يندرج تحته إضمار الاسم (pro - noun)، وإضمار الفعل (pro - verb)، وإضمار المكمل (pro - complement).

واستخدم براون ويول (١٩٨٣ م)^(٣) مصطلح الإحالة داخل النص (co - reference)، أو الإحالة النصيّة.

(1) See: Cohesion in English , P : 208 .

(2) See: Robert de Beaugrand & Dressler: Introduction to text linguistic, P : 66 . وانظر « النص والخطاب والإجراء » ، ٣٢٠ .

(٣) انظر « تحليل الخطاب » ، ٢٣٠ .

وقد عبّر بعض الباحثين عن الرّبط بوساطة الإحالة بمصطلح (المرجعية) ^(١)، أو (العائدية) ، ولا فرق بينهم ، والشائع في الدرس النصّي هو مصطلح (الإحالة) .

الإحالة لغة :

يُقال : أحال الرجلُ إحالةً : تحوّل من شيءٍ إلى شيءٍ ، وأحال الشيءُ حولاً وحؤولاً: مرّ عليه حوّلٌ كاملٌ ، وأحال الماءُ على الأرضِ : صبّه ، وأحال الماءُ من الدّلوي: صبّه ، وأحال بالمكانِ إحالةً : أقامَ حوّلًا ، وأحال الكلامَ يُحيلُهُ إحالةً : إذا أفسدَهُ ، وأحلتُ فلاناً بما له عليّ من دينٍ على رجلٍ لي عليه دينٌ ، أحيلُهُ عليه إحالةً وحوالةً ، وأحال فلانٌ بالسؤالِ على مَنْ ليسَ من عادتهِ الإجابةُ ، يُحيلُ إحالةً ، إذا خاطبَ الجُمادَ أو العجهاوات ^(٢) .

والإحالة هي الإقبالُ على الشيءِ والميلُ إليه ، يقال : « أحال الغريم : زجّاه عنه إلى غريمٍ آخر ، والاسم الحوالة كسحابة » ^(٣) ، والحوّل : الحركة ، يقال : حال الشخص

(١) المُراجعةُ : المعاودة . يقال : راجعةُ الكلامِ ، وراجعَ امرأته . وتراجعَ الشيءُ إلى خلفٍ ، والرُّجعى : الرجوعُ . تقول : أرسلتُ إليك فما جاءني رُجعى رسالتي ، أي مرّجوعُها . وكذلك المُرّجَعُ . ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لِي رِزْكٌ تَرَجَّعْتُ ﴾ (الأنعام : ١٦٤) وهو شاذٌّ ؛ لأنَّ المصادرَ من (فَعَلَ يَفْعِلُ) إنما تكون بالفتح . انظر « الصحاح » (رجع) ١ : ٢٤٤ ، والمرجعيةُ مصدرٌ صناعيٌّ مصوغٌ من اسمٍ مُشتقٍّ ، زيدت في آخره ياءٌ مشدّدةٌ بعدها تاءٌ للدلالةِ على مكانِ الرجوعِ المقصودِ من النصّ ، أو الدلالةِ على جهةِ الرجوعِ ، ويجوزُ استعمالُ هذا المصطلحِ كما يجوز استعمالُ الإحالة ، ولكنني أثرتُ مصطلحَ الإحالة ؛ لأنه الشائعُ في علم اللغة النصّي ونحو النصّ .

(٢) انظر « لسان العرب » (حول) ١١ : ١٨٤ وما بعدها .

(٣) « القاموس المحيط » للفيروزابادي (حول) ١٢٧٨ .

يحول إذا تحرك ... وفي حديث خبير : « فَلَمَّا رَأَوْهُ حَالُوا إِلَى الْحِصْنِ » ^(١) أي : تحولوا .
ويُروى : (أحوالوا) ، أي : أقبلوا عليه ... وفي حديث آخر : « فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ
وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » ^(٢) ، أي : يقبل عليه ويميل إليه » ^(٣) .

الربط بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للإحالة :

نستطيع القول - بعد التأمل في المعاني السابقة التي أوردها اللغويون ، التي تدور
حول معنى الإقبال على الشيء والميل إليه - : إن الإقبال على الشيء والميل إليه يكون في
الكلام من أجل الربط اللغوي والدلالي ؛ لأن الربط إما أن يكون بالإحالة أو بالمطابقة
أو بالأداة .

(١) أورده الحميدي في مسنده (١٢٥١) ٣ : ٣٠ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ
(أحوالوا) . وجاء في مقدمة « فتح الباري » لابن حجر العسقلاني ١ : ١٠٧ قوله : « قوله :
حولاً ، أي : سَنَةً ، قوله : لا حول ولا قوة ، أي : لا حركة إلا بالله ، وقيل : الحول الحيلة ، وقيل :
الانصراف ، قوله : ما حال بينهم ، أي : حجز ، قوله : ويحيل بعضهم على بعض ، من أحوال إذا
مال ، أي : يميل بعضهم على بعض من كثرة الضحك ، وكذا وقع عند مسلم قوله : (أحوالوا إلى
الحصن) قال أبو عبيد : أحوال إلى المكان ، أي : تحول » .

(٢) رواه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (كتاب الوضوء - باب إذا ألقى على
ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته) (٢٣٣) ١ : ٤٠٠ . وقال ابن بطال في شرحه
على البخاري : « ويحيل بعضهم على بعض - يعنى ينسب ذلك بعضهم إلى بعض من قولك :
أحلت الغريم إذا جعلت له أن يتقاضى ماله عليك من غيرك ، ويحتمل أن يكون من قول العرب :
حال الرجل على ظهر الدابة حولاً ، وأحوال : وثب ، وفي الحديث أن النبي ﷺ لما صبح أهل خيبر
غدوة فرآه أهلها ، أحوالوا إلى الحصن ، أي : وثبوا إليه » .

(٣) « النهاية في غريب الحديث » لابن الأثير ، ١ : ٤٦٣ .

كما أنّ الإحالة مصدرٌ للفعل (أحال) ، والمعنى العام لهذا الفعل هو التغيّر ونقل الشيء إلى شيء آخر ، وأنّ التغير والتحوّل ونقل الشيء إلى غيره ليس بعيداً عن الاستخدام الدلالي للإحالة النصّية ، فالتغير والتحوّل ونقل الشيء من حالة إلى أخرى لا يتمّ إلّا في ظلّ وجود علاقة قائمة بينهما ، تلك العلاقة هي التي سمحت بالتغيّر .

كما أنّ اللفظ المحيل يحمل معنى ما يشير إليه ، فهو تغيّر من حيث الجهة كالعودة إلى الوراء ، أو الانتقال إلى الأمام من خلال علاقة قائمة بين الأسماء والمسميات ، أو بين اللفظ وما يحيل إليه ، فإرجاع اللفظ إلى ما يشير إليه إنّما هو تغيّر في الجهة ، ونقل المتلقي بعقله من مكان إلى مكان آخر داخل النص أو خارجه ^(١) .

الإحالة عند علماء النص :

أعني بمصطلح الإحالة ما يُعرف في اللغة الإنجليزية بـ (Reference) ، وربّما تُرجم هذا المصطلح بـ (الإشارة) ، ولا ضير في ذلك من الناحية اللغوية المحضّة ، بيد أنّه قد يسبّب مشكلة اصطلاحية ومنهجية ، لالتباسه بما يعرف في العربية بأسماء الإشارة التي هي أداة من أدوات الإحالة ، ومن هنا يمكن القول بأنّ العلاقة بين الإحالة والإشارة علاقة عامّ بخاصّ ، إذ كلّ إشارة إحالة وليست كلّ إحالة إشارة ^(٢) .

(١) انظر « الإحالة في نحو النص » د. أحمد عفيفي ، ٢ : ٥٢٥ .

(٢) استعمل بعضهم مصطلح (الإحالة) بمعناها العام ، ويقصدون بها : مناسبة العنصر اللغوي لشيء في الخارج ، هو مرجعه .

واستعمل بعضهم مصطلح (الإحالة) مقابلاً لـ (الإشارة) ، ويقصدون بها : إشارة الأسماء إلى مسمياتها ، لا ذلك الصنف من الكلمات المسمّى (اسم الإشارة) نحو : (هذا) ، (ذلك) . انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ٩٦٥ .

والحديث عن الإحالة والإشارة يقودني إلى التفريق بين المراد بـ (العنصر الإشاري) ، و (العنصر الإحالي) ، وسيأتي إيضاح ذلك في نهاية هذا البحث .

والإحالة مصطلحٌ قديم^(١)، لكن بالتوسّع في استعماله في علم اللغة النّصيّ يكون مصطلحاً جديداً ، ولم يتفق اللغويون النّصّيون على تعريف مُوحّد له ، لذا سأبسّط القول في بيان مفهومه لدى العلماء ؛ لنستخلص ممّا طرحوه مصطلحاً للإحالة يقرب من فهم الجميع.

ذهب هاليداي ورقية حسن إلى أنّ الإحالة علاقةٌ دلالية لا تخضع لقيود نحوية ، بل تخضع لقيود دلالي ، وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال عليه^(٢) ، كما تشير إلى عملية استرجاع المعنى الإحالي في الخطاب مرّة أخرى . فيقع التماسك عبر استمرارية المعنى^(٣) . وقد أشارا بذلك إلى وظيفة مهمة من وظائف الإحالة وهي الاستمرارية التي تتحقق من خلال سماح الإحالة لمستخدمي اللغة بحفظ المحتوى مستمراً في المخزون الفعّال من دون الحاجة إلى التصريح به مرّة أخرى .

« والعناصر المحيلة عندهما كيفما كان نوعها لا تكفي بذاتها من حيث التأويل ، إذ لا بدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها »^(٤) .

(١) استخدمه سيويه الذي عقد في « الكتاب » (١ : ٢٥ ، ٢٦) باباً بعنوان : (باب الاستقامة من الكلام والإحالة) ، قسم فيه الكلام إلى خمسة أقسام هي : المستقيم الحسن ، والمحال ، والمستقيم الكذب ، والمستقيم القبيح ، والمحال الكذب . و (المحال) عنده : أن تنقض أول كلامك بآخره ، فتقول : أتيتك غداً ، وسأتيك أمس . ويبيّن الأخفش أنّ المحال هو ما لا يصلح له معنى ، ولا يجوز أن تقول فيه صدق ولا كذب ؛ لأنه ليس له معنى . فالكلام المحال ليس فيه خطأ في التركيب ، وإنما يأتيه الوصف بالإحالة من كسر الاختيار في المستوى المنطوق . انظر « النحو والدلالة » ٨٤ .

(٢) انظر « لسانيات النص » ١٧ .

(3) See: Cohesion in English , p: 31 .

(٤) انظر « لسانيات النص » ١٦ .

وهذه العناصر الإحالية هي ما تطرّق إليها ميرفي (Murphy) في أثناء تعريفه للإحالة ، إذ يقول : هي « تركيب لغوي يشير إلى جزء ما ذكر صراحة أو ضمناً في النص الذي سبقه » ^(١) .

وأشار دي بوجراند في تعريفه للإحالة (Reference) إلى أنها : «العلاقات بين العبارات ، والأشياء والأحداث والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات ذات الطابع البدائي في نصّ ما » ^(٢) .

وجاء في تعريف جون لاينز - الذي أشار إليه براون ويول - قوله في سياق حديثه عن المفهوم الدلالي التقليدي للإحالة : « إنّ العلاقة القائمة بين الأسماء والمسميات هي علاقة إحالة ، فالأسماء تُحيل إلى المسميات » ^(٣) .

ونلاحظ أنّ هذا التعريف هو أقرب إلى مصطلح (الإشارة) منه إلى (الإحالة) .

ويشير إلى أنّ هذا المفهوم التقليدي لا يزال شائعاً في الدراسات اللغوية التي تصف العلاقة بين لغة ما والكون ، ويعترضان على عدم ذكر جون لاينز شيئاً عن مستعمل اللغة في هذا التعريف ، غير أنّه استدرك ذلك فيما بعد قائلاً : « إنّ المتكلم هو

(1) Murphy, M. (1979). A Cross disciplinary approach to research and theory. ERIC Document Reproduction Service No. ED 185540.

وانظر « مهارات التعرف على الترابط في النص في كتب القراءة العربية المتوسطة والثانوية للبنات:

دراسة تقويمية » د. ريبا سعدو الجرف ، مجلة رسالة الخليج العربي ، مكتب التربية العربي لدول

الخليج ، ع : ٨٧ ، سنة ٢٠٠١ م . ص ٨٢ .

(٢) « النص والخطاب والإجراء » ٣٢٠ .

(٣) « تحليل الخطاب » ٣٦ .

الذي يُحِيل باستعماله لتعبير مناسب ، أي أنه يُحْمَل التعبير وظيفة إحالية عند قيامه بعملية إحالة ^(١) .

فالمتكلم أو الكاتب هو الذي يحْمَل التعبير دلالة تكشف عن وظيفة إحالية ، ولهذا يقول ستروسن : إن الإحالة ليست شيئاً يقوم به تعبيرٌ ما ؛ ولكنها شيء يمكن أن يحيل عليه شخصٌ ما باستعماله تعبيراً معيناً .

وكذلك في نظر سيرل حيث يشير إلى أننا إذا كنا نعني أن المتكلمين يحيلون ، فإن التعبيرات لا تحيل أكثر من أن هؤلاء المتكلمين يصدرون وعوداً وأوامر ^(٢) .

ومن هنا خرج بروان ويول بنتيجة مؤداها أنه « في تحليل الخطاب يُنظر للإحالة على كونها عملاً يقوم به المتكلم أو الكاتب » ^(٣) .

وهذا الكلام وإن كان صواباً لكننا لا نستطيع إغفال دور اللفظ الذي يحمل المعنى ، فاللفظ هو الذي يحيل في نهاية الأمر بقصد المتكلم أو الكاتب ، إذ دور الكاتب رئيس لاشك ، فهو الذي ينشئ النص ، وهو الذي يحْمَل الألفاظ دلالتها ، ويستطيع أن يخرج بها عن طبيعتها ، لكنه في النهاية لابد أن يستعمل تلك الألفاظ الدالة على الإحالة ، ومن دونها لن تستقيم الإحالة ، ومن هنا لا نقلل من دور اللفظ الذي يحْمَل الإحالة ، ومن الضروري أن نحكم له بأنه عنصرٌ مهمٌ من عناصر الإحالة .

(١) « تحليل الخطاب » ٣٦ .

(٢) انظر « تحليل الخطاب » ٣٦ .

(٣) « تحليل الخطاب » ٣٦ .

وفي الإحالة يشير الكاتب أو المتكلم إلى أن حَدَثًا ما أو شيئًا ما ارتبطَ بشيءٍ آخر، تقدّم أو سيأتي ذكره، لكن لن يذكره الكاتب في هذا الموقف، بل يُكَنِّي عنه بلفظٍ مبهم الدلالة مثل الضمير أو اسم الإشارة أو الموصول، دون ذكره صراحةً.

ويرى سيمون ديك (Dik, S.C) أن الإحالة هي « فعلٌ تداوليٌّ تعاوُنِيٌّ بين متكلّم ومخاطَب في بنيةٍ تواصليةٍ مُعيّنة وفقًا للنموذج الآتي: يُحيلُ المتكلمُ المُخاطَبَ على ذاتٍ بواسطة حَدٍّ »^(١).

فالإحالة فعلٌ تداوليٌّ؛ لأنها ترتبط بموقفٍ تواصلِيٍّ معيّن، أي بمخزون المُخاطَب كما يتصوّره المتكلم في أثناء التّخاطَب.

والإحالة على ذاتٍ ما تتمُّ بواسطة حَدٍّ لغويٍّ كالضمير أو الاسم أو المركّب الاسميّ وفقًا لتقدير المتكلم للإمكاناتِ المُتاحة للمُخاطَب للتعرّف على الذاتِ المُعيّنة بالإحالة.

والإحالة عمليةٌ تعاوُنِيّةٌ نسبةً لمبدأ التعاون كما يحدّده جرايس (١٩٧٥م)، لأنها تستهدف تمكين المُخاطَب من التعرّف على الذاتِ المقصودة، ويتمّ ذلك عن طريق إمداد المُخاطَب بكلّ المعلوماتِ التي يمتلكها المتكلم عن الذاتِ المقصودة^(٢).

أمّا تنيير (L. Tesniere) فقد قدّم تصوّرًا خاصًا للإحالة، إذ إنّ دراسة العلاقات الإحاليّة في النصّ تثير البنية فيها، فالإحالة ربطٌ دلاليّ إضافي، لا يطابقه أي ربط تركيبِي، ثمّ يعدل عن ذلك إلى قوله: وتقوم كلّ إحالة على نوعين من الربط الدلالي:

(١) « بنية الخطاب من الجملة إلى النص » لأحمد المتوكل، ١٤٥.

(٢) انظر « بنية الخطاب من الجملة إلى النص » لأحمد المتوكل، ١٤٦.

١ - ربط دلالي يوافق الربط البنيوي (التركيبى) .

٢ - ربط دلالي إضافي يمثل الإحالة ، وهو الربط الإحالي (Connexion anaphorique) .

وهو الذي يمدّ جسور الاتصال بين الأجزاء المتباعدة في النص ، إذ تقوم شبكة من العلاقات الإحالية بين العناصر المتباعدة في فضاء النص ، فتجتمع في كلّ واحد عناصره متناغمة .

بيد أنّ كلامير (Kallmeyer) يقدم تصوّرًا أكثر وضوحًا ، إذ يذهب إلى أنّ الإحالة هي العلاقة القائمة بين عنصر لغوي يطلق عليه : (عنصر علاقة) ، وضماير يطلق عليها : (صيغ الإحالة) . وتقوم المكونات الاسمية بوظيفة عناصر العلاقة أو المفسّر أو العائد إليه ، ويمكن أن يسمّى أيضًا (عنصر إشارة) .

ويرى كذلك أنّ الضماير (للشخص الثالث الغائب) ليست وحدها هي التي تقوم بوظيفة (صيغ الإحالة) ، بل ثمة عناصر لغوية أخرى مركّبة من (أداة + اسم) تقوم أيضًا بتلك الوظيفة ، من خلال توسيع المركب القضوي (الإحالة) .

وكلمًا اتّسع مفهوم الإحالة زادت العناصر القائمة بتلك الوظيفة ، مثل : هناك ، وتبعًا لذلك ، وحيث ، وإذ ... التي تعدّ في النحو التقليدي من الظروف ^(١) .

ويخلص كلامير إلى نتيجة مهمّة في هذا السياق ، وهي : أنّ بحث قواعد وقوع صيغ الإحالة لا يمكن أن يجري على سلسلة من عناصر لغوية ، تتضمّن - في الأقل -

(١) See: W. Kallmeyer und Andere : Lekturrekolleg Zur Textlinguistik, Band I : Einfuehrung, S. 178 .

وانظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » ٨٢ ، ٨٣ . وانظر « قواعد الربط وأنظمتها في العربية » د. حسام البهناوي ، ٧٩ .

العناصر المشكلة في كلّ علاقة إحالة ، وهي عنصر العلاقة وصيغة الإحالة التابعة له .
وتتضمّن هذه السلسلة - في العادة - مع الاتجاه الخلفي للإحالة (القبلية) أكثر من
جملة ، ومع الاتجاه الأمامي للإحالة (البعدية) يبدو - على العكس من ذلك - في
حالات كثيرة أنّ الاختصار على الجملة بوصفها وحدة بحث ، يكون مشروعاً أو
ضرورياً^(١) .

ومن التعريفات البسيطة للإحالة ما ذهب إليه بوهوميل پاليك (Bohumil
Palek) بأنّها : أي تعبير لغوي يتعلّق بتعبير لغوي آخر في النصّ^(٢) .

وتناول بعض المؤلفين موضوع الإحالة ، لكنهم لم يذكروا شيئاً عن تعريفها ، منهم
الأزهر الزناد الذي وضع عنواناً هو : (في مفهوم الإحالة)^(٣) من دون أن يتناول
مفهومها ؛ فبدأ بالكلام عن عناصرها وأنواعها ؛ ثم عقد فصلاً مستقلاً بعنوان : (البنية
الإحالية في النصوص) من غير الإشارة إلى مفهومها أيضاً .

ويرى الزناد أنّ العناصر الإحالية تطلق على قسم من الألفاظ التي لا تملك دلالة
مستقلة ، بل تعتمد على عنصر معيّن آخر في النصّ ، فالأوّل يفترض الثاني ، حيث لا
يمكننا فكّ شفرته إلّا بالعودة إلى الثاني ؛ وذلك من أجل تفسيرها وتأويلها وفهمها
حتّى يتمّ اتساق النصّ . فشرط وجود هذه العناصر هو النصّ من جهة ، ومعرفة ما

(1) See: W. Kallmeyer , Textlinguistik , S. 183 , 184 .

وانظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » ٨٤ .

(2) Bohumil Palek, Textverweis (Cross - Reference) Ein Beitrag zur
Textlinguistik Hypersyntax . pp. 167 - 184.

من الكتاب الذي حرره دريسلر ، دار مشتابد ، ١٩٧٨ م . انظر « علم لغة النصّ نحو آفاق
جديدة » ، د. سعيد بحيري ، ٢١١ . مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٧ م .

(٣) انظر « نسج النصّ بحث فيما يكون به الملفوظ نصّاً » للأزهر الزناد ، ١١٨ .

تشير إليه أو تعوّضه تلك العناصر الإحالية من جهة أخرى . وهي تقوم على مبدأ التماثل بين ما سبق ذكره في مقام ما ، وبين ما هو مذكور بعد ذلك في مقام آخر ، مما يجعلها تتميز بالإحالة على المدى البعيد (Cross - Reference) ^(١) .

وهو التعريف نفسه الذي أورده بوهوميل باليك .

وكذلك محمد خطّابي ^(٢) الذي أورد مصطلح الإحالة مفرّغاً من التعريف ، فبعد عنوان الإحالة أشار إلى استعمال المصطلح استعمالاً خاصّاً ، ثم دلف سريعاً إلى العناصر المحيلة وتأويلها ^(٣) .

أمّا د. تمام حسان فيرى أنّ الإحالة هي : « أن يشير عنصر لاحق إلى عنصر آخر سابق في سياق النص » ^(٤) أو : « إشارة الدال إلى المدلول بصورة ما من صور اللفظ » ^(٥) وهذا العنصر اللاحق أو الإشارة اللفظية تتحقّق به الإحالة عن طريق « إعادة ذكره ، أو إعادة معناه ، أو الإضمار له ، أو بالإشارة إليه ، أو وصفه بموصول أو صفة ، أو إلحاقه بالألف واللام نيابة عن ذلك » ^(٦) .

ويلحظ أنه ركّز في تعريفه على ذكر وسائل الإحالة وأدواتها .

(١) Kittay J. (1988), On anaphora and antecedence; semiotica. p:

198 , 207.

وانظر « نسيج النص » ١١٨ .

(٢) انظر « لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب » لمحمد خطّابي ، ١٦ .

(٣) انظر « الإحالة في نحو النص دراسة في الدلالة والوظيفة » د. أحمد عفيفي ، ٢ : ٥٢٧ .

(٤) « اجتهادات لغوية » د. تمام حسان ، ١٥٥ .

(٥) « اجتهادات لغوية » ٥٣ .

(٦) « البيان في روائع القرآن » د. تمام حسان ، ٢٢٩ .

ومن خلال ما سبق نحاول وضع تعريف شامل للإحالة فأقول : إنها عملية معنوية ، ينشؤها المتكلم في ذهن المخاطب ، عن طريق إيراد اللفاظ مبهمّة الدلالة ، يشير بها إلى أشياء أو مواقف أو أشخاص أو عبارات أو ألفاظ خارج النص أو داخله ، سابقة عليها أو لاحقة ، في سياق لغوي أو غير لغوي ، يقصد بذلك الاقتصاد في اللفظ ، وربط اللاحق بالسابق والعكس ، بما يحقق الاستمرارية والتماسك في النص .

الإشارة والإحالة :

ألمحت فيما سبق إلى أن العلماء اللغويين لم يفرّقوا بين مصطلحي الإشارة والإحالة تفريقاً قاطعاً ، وما يزال المصطلحان مستعملين بطريقة فضفاضة ، ويميل الاستخدام الشائع إلى اعتبار مصطلح الإشارة مرادفاً للإحالة ^(١) ، ويمكننا بالتأمل الدقيق أن نعثر على فرق جوهري بين المصطلحين .

فالإشارة - كما يرى جون لاينز - هي : « العلاقة التي تربط بين تعبير ما ، وما يشير إليه في المناسبات المعينة التي يقال فيها » ^(٢) . أي أن الإشارة مرتبطة بالقولة ^(٣) المعينة ، فدالاتها خاصّة وليست عامّة ، بمعنى أنّها « مقيدة بسياق القول » ^(٤) .

(1) Robins, General Linguistics, P: 21 - 22 .

(2) See: Lyons, Semantics , 1:174 .

(٣) يرى د. محمد محمد يونس أنّ هناك فرقاً بين مصطلحي (الجملة) و (القولة) ، فالجملة: هي كيانات مجردة معزولة عن السياق ، أي إنها ليست مقيدة بأي زمان أو مكان معين ، فهي وحدات في نظام اللغة الذي تنتمي إليه . أمّا القولة : فهي مقيدة بسياق معين ، ومعناها هو نتاج لمعنى الجملة والسياق معاً . وبينما يدخل معنى الجملة في نطاق علم الدلالة ، فإنّ بحث معنى القولة هو جزء من علم التخاطب . انظر « المعنى وظلال المعنى أنظمة : الدلالة في العربية » ١٠١ . وانظر:

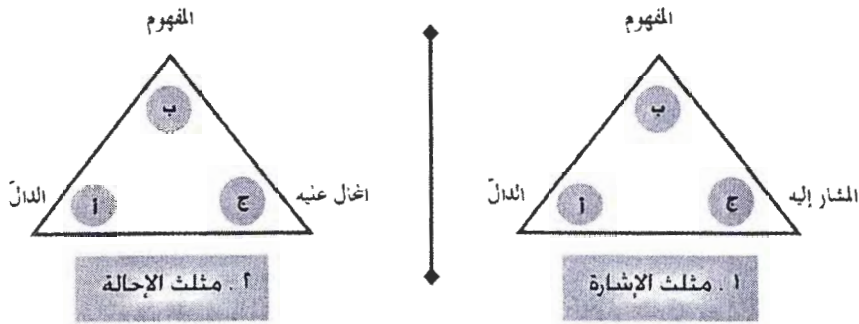
Lyons, Language and Linguistics, P: 164 – 165

(4) Lyons, Language and Linguistics, P: 168 .

في حين أنّ الإحالة هي العلاقة التي تصل بين التعبيرات اللغوية والعالم الخارجي ،
بصرف النظر عن السياق الخاصّ ، فالذي يفرّق الإشارة عن الإحالة هو العالم الخاص
الذي تقع فيه أي منهما وما تشير إليه .

فالعالم الإشارة غالباً ما يحدد بآته (خارج الكلام) ، أي : العالم غير اللغوي الذي
نطلق عليه السياق (context) ، في حين أنّ عالم الإحالة يحدّد بآته (داخل الكلام) ،
أي العالم اللغوي الذي نطلق عليه النصّ (text) ^(١) .

ومن خلال هذا الشكل :



يتضح لنا الفرق بين ما تشير إليه الوحدات المعجمية في سياق معيّن (في حالة
التعبيرات الخاصّة) ، وما تحيل عليه في عزلة عن السياق (في حالة التعبيرات
العامة) .

فنلاحظ أنّ الفرق بين المثلثين هو في الركن الثالث المرموز إليه بـ (ج) ، ففي مثلث
الإشارة أُطلق عليه (المشار إليه) أو (المرجع) ، وفي مثلث الإحالة أُطلق عليه (المحال
عليه) أو (الحقيقة) .

(1) See: De Borah Schifffrin, Between text and context, P:245 – 246.

وانظر « علم لغة النص النظرية والتطبيق » ، ١٢١ .

مثال ذلك قوله تعالى في قصة امرأة عمران : ﴿ إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥ ﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ آل عمران : ٣٥ - ٣٦ .

فكلمة (الذَّكَر) في الآية ، وكذلك كلمة (الأنثى) إذا عزلت عن سياقها فستحيل على كل من انطبقت عليه صفات الذكر ، بغض النظر عن السياق الوارد فيه ، وستكون دلالتها عامة في هذه الحال ، أما إذا نظرنا إليها في السياق الوارد فيه فقط فستشير إلى الذكر الذي طلبته امرأة عمران دون غيره إذا اعتبرنا (أل) للعهد ، أو إلى الذكر الذي ينتمي إليه ما طلبته امرأة عمران ، إذا اعتبرنا (أل) للجنس .

فننظرُ إلى السياق على أنه محدّد ومخصّص غالباً ، ونقصدُ هنا السياق بمفهومه الواسع الذي يشمل السياق اللغوي وسياق الموقف .

لذا فإنّ الفهم السليم لقوله تعالى : ﴿ اَلَمْ ۙ غُلِبَتِ الرُّومُ ١ ﴾ فِي آَذَانٍ اَلَا رَٰحِشٌ وَهُمْ مِنْۢ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ ۚ ﴿٢﴾ فِي يَضْعَ سِنِيكَ ۖ لِلّٰهِ اَلْاَمْرُ مِنْۢ قَبْلُ وَمِنْۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ اَلْمُؤْمِنُوْنَ ﴿٣﴾ الروم : ١ - ٤ ، يستلزم تحديد المدة الزمانية ، والمكان ، وكل الملابس التي تسهم في إيضاح المراد من الآية ، بل إدراك كلمة (الروم) نفسها يحتاج إلى معرفة سبب نزول الآية ، وكل الأحوال المحيطة بنزولها ؛ لأنّ كلمة (الروم) أخذت دلالات مختلفة عبر التاريخ من حيث المكان الذي يعيش فيه الروم ، وحدود البلاد ، ونحو ذلك ^(١) .

(١) انظر « المعنى وظلال المعنى : أنظمة الدلالة في العربية » د. محمد محمد يونس علي ، ١٠٣ -

الفرق بين (العنصر الإشاري) و(العنصر الإحالي) :

تحدثت فيما سبق عن اختلاف علماء اللغة النصيين في ترجمة مصطلح (Reference) ، إذ ترجمها بعضهم بـ (الإحالة) ، وبعضهم بـ (الإشارة) ، وبيّنت الفرق بين الإحالة والإشارة ، ويجدر بي هنا التفريق بين مصطلحي (العنصر الإشاري) و(العنصر الإحالي) اللذين يرد ذكرهما كثيرًا في تحليل البنية الإحالية للقصص القرآني فيما سيأتي .

١ - العناصر الإشارية (deictic elements) :

هي تلك الوحدات اللغوية التي تحيل مباشرة على شيء في الخارج^(١) ، فتشير إلى ذات ، أو موقع ، أو زمن ، إشارة أولية ، لا تتعلق بإشارة أخرى سابقة أو لاحقة . كإشارة الأسماء إلى مسمياتها .

فالعنصر الإشاري يمثل معلمًا (Index) لذاته ، لا يقوم فهمه أو إدراكه على غيره ، ويمكنه الاستغناء عما يفسره . « وتمثل العناصر الإشارية فيه جملة الذوات التي تكوّن العناصر الأساسية الدنيا في عالم الخطاب ، وتتصل هذه الذوات مباشرة بالمقام دون توسط عناصر إحالية أخرى ، فهي ترتبط بالحقل الإشاري (Deictic field) ارتباطاً آتياً محدوداً مباشراً لا يتجاوز ملابسات التلقظ التي يتقاسمها طرفا التواصل ، وهي في ذلك تقابل العناصر الإحالية التي ترتبط بالسابق وما يتعلق به من ملابسات »^(٢) .

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ٩٦٤ .

(٢) « نسيج النص » ١١٥ .

وهي نوعان :

أ . عنصر إشاري عامل :

هو الذي يرتبط به واحد أو أكثر من العناصر الإحالية في النص ، وهذا النوع يسهم بدور ملحوظ في عملية التماسك النصي . وقد أطلق عليه د. الفاسي الفهري مصطلح (العنصر المراقب) (controller) ، وقد يندرج تحته ما سماه النحاة بـ (مفسر الضمير)^(١) .

ب . عنصر إشاري غير عامل :

هو الذي يُذكر مرة واحدة في النص ، ولا يرتبط به شيء من العناصر الإحالية ، ولا يسهم بدور ملحوظ في عملية التماسك النصي .

٢ - العناصر الإحالية (Anaphors) :

هي ألفاظ لا تملك دلالة مستقلة ، بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب ، وقد يُطلق عليها أشباه الكلمات (pro-forms) أو الألفاظ الكنائية^(٢) ، وتسمى أيضًا (العناصر المراقبة)^(٣) ، وشرط وجودها هو النص ،

(١) انظر « اللسانيات واللغة العربية : نماذج تركيبية ودلالية » د. عبد القادر الفاسي الفهري ، ٧٦ : ٢ .

و « الدلالة النظرية لبعض الظواهر الإحالية » د. عبد القادر الفاسي الفهري ، ٣٧٦ ، و « اتساق النص في سورة الكهف » د. فريد عوض حيدر ، ١٩ .

(٢) انظر « اتساق النص في سورة الكهف » ٢٠ .

(٣) انظر « اللسانيات واللغة العربية : نماذج تركيبية ودلالية » د. عبد القادر الفاسي الفهري ، ٧٦ : ٢ . و « الدلالة النظرية لبعض الظواهر الإحالية » د. عبد القادر الفاسي الفهري ، ٣٧٦ .

وتقوم على مبدأ التماثل بين ما سبق ذكره في مقام ما ، وبين ما هو مذكور بعد ذلك في مقام آخر . وتتميز بالإحالة على المدى البعيد (Cross - reference)^(١) .

إذن هي ما لا يُحِيلُ على شيء في الخارج مباشرة ، وإنما يُحِيلُ على عنصر إشاري متقدّم عليها ، أو متأخر عنها ، يفسرها ويراقبها وتتمّ بوساطته الإحالة على شيء في الخارج^(٢) .

فالذي يفرّق الإشارة عن الإحالة هو العالم الخاص الذي تقع فيه أي منهما وما تشير إليه .

فعالم الإشارة غالبًا ما يحدّد بآته (خارج الكلام) ، أي : العالم غير اللغوي الذي نطلق عليه السياق (context) ، في حين أنّ عالم الإحالة يحدّد بآته (داخل الكلام) ، أي العالم اللغوي الذي نطلق عليه النصّ (text)^(٣) .

(١) انظر « نسيج النص » ١١٨ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ٩٦٤ .

(3) See: De Borah Schiffrin, Between text and context, P:245 – 246.

وانظر « علم لغة النص النظرية والتطبيق » ١٢١ .

المبحث الثاني وظيفة الإحالة

لكل لغة وسائلها الخاصة التي توظفها في عملية استرجاع المعلومات ، ومن هنا يأتي دور الإحالة في تلك العملية ، حيث إنها تشير إلى ما سبق ، وتعوض عنه بالضمير وغيره تجنباً للتكرار ^(١) .

وتجنب التكرار يحقق لنا الاقتصاد اللفظي ، إذ تختصر هذه الوحدات الإحالية تلك العناصر الإشارية ، وتجنب مستعملها إعادتها .

فالعقل البشري يعاني من المحدودية في قدرته على اختزان مواد سطح النص مدة زمنية كافية لمعالجتها . ويتم إيداع هذه المواد في أمكنة التخزين النشط ، أي : في ذاكرة عاملة تتوزع فيها موارد المعالجة بين عناصر المادة المعروضة بحسب أهمية تلك العناصر . وهذه المحدودية تدفع منشئ النص إلى الاستعانة بوسائل مختلفة « تتعلق بالأنهاط والبنى السابقة الاستعمال من حيث إعادة استعمالها أو تعديلها أو تلخيصها ، وهي

(1) See: Fraida Dubin & Elite Olshtain: The interface of writing and reading , p: 361 .

وسائل تسهم في جانبي الاستقرار والاقتصاد لكل من المواد وجهد المعالجة»^(١).

وتعدّ الإحالة من أهم تلك الوسائل التي تقوم بعملية تنشيط للذاكرة البشرية ، فتمكّنها من اختزان آثار الألفاظ السابقة ، وتقرن بينها وبين العناصر الإحالية الواردة بعدها أو قبلها وتحلّلها بنجاح دون ضير بالتواصل^(٢).

فالكاتب أو القارئ يثبت مرجعاً في تصوّره الذهني للنص أو الخطاب ، ثمّ يربط الإحالات اللاحقة لهذا تصوّره الذهني لا بالصياغة الأصلية في النص^(٣).

إذن فلا بدّ أن يكون للإحالة مثلاً ذهني مستمدّ من عالم الواقع ، ويتكوّن هذا المثال من عوامل وروافد عدّة ، منها : المعارف العامة ، و المعارف المقامية ، والمعارف السياقية ، ومعارف أخرى مستمدة عن طريق الاستدلال من إحدى المعارف السابقة. وهذا المخزون الذهني هو الذي يشكّل محطّ الإحالة.

ويمكننا القول من خلال ذلك إنّ تماسك النص يتمّ عن طريقين :

الأول : التماسك الداخلي ، ويتمّ بوساطة العلاقات القائمة بين عناصر بنية النص نفسها كالوظائف وقيود التوارد وغيرها .

والثاني : التماسك الخارجي - مجازاً - ، ويتمّ بوساطة الإحالة ، أي بربط النص بالعالم الذهني الذي يواكبه ويشكّل مرجعيته.

(١) « مدخل إلى علم اللغة النصّي : تطبيقات لنظرية روبرت دي بوجراند ، وولفجانج دريسلر » د.

إلهام أبو غزالة و علي خليل حمد ، ٧١ ، ٧٢ .

(٢) انظر « نسيج النص » ١٢١ .

(٣) انظر « تحليل الخطاب » ٢٤٠ .

وهذان الطريقتان معًا ضروريان لضمان تماسك النص واتساقه بوجه عام^(١).

وعلى هذا تقوم سلسلة من العلاقات الإحالية من العناصر المتباعدة في فضاء النص، فتجتمع في كل واحد عناصره بصورة منسجمة متناغمة.

كما تسهم الإحالة في السماح لمستخدمي اللغة بحفظ المحتوى مستمرًا في المخزون الفعّال دون الحاجة إلى التصريح به مرة أخرى، وبذلك تتحقق الاستمرارية.

إضافة إلى أن الإحالة تقوم بوظيفة تقديم المعلومات، حيث ترتبط بتقديم سلسلة من المعلومات الجديدة في شكل جزئي، فتسهم في تنظيم الفكرة الأساسية للنص، وتساعد على تعيين المرتكز الضوئي للنص وموضوعه العام.

و (المرتكز الضوئي): تركيب لغويّ وارد في النص، تتمحور فيه ذروة النص التي يكون ما قبلها مفضيًا إليها، وما بعدها ناتجًا عنها أو تفريعًا عليها^(٢).

ويمكن أن يشكّل (الذروة الإبلاغية) في النص، وكأنّه الغاية التي يسعى النصّ إلى إبلاغها. ويحسن التأقي إليها والتسلّل لها من وسائل مختلفة.

وقد تفهم غاية النص من خلال مجموعة جمل أو تراكيب، فعندئذ يكون مضمون هذه الجمل أو تلك التراكيب ممثلاً للمرتكز الضوئي.

والفرق بين (المرتكز الضوئي) و(الجملة المحورية): أنّ الأوّل جانب دلالي، والثانية جانب تعبيرى، وكلاهما مفضّ إلى ما يفضي إليه الآخر. والجانب التعبيري أوضح من الجانب الدلالي، لذا قد يختلف الأمر في تحديد المرتكز الضوئي في النص من

(١) انظر «بنية الخطاب من الجملة إلى النص» لأحمد المتوكل، ١٤٥.

(٢) انظر «الإبداع الموازي: التحليل النصّي للشعر» د. محمد حماسة عبد اللطيف، ٣٨.

قارئ لآخر ، ولا يكاد يكون هناك اختلاف في الجملة المحورية فيه . ومن هنا يتوقف فهم المرتكز الضوئي على قدرة المتلقي الخاصة ، وتمكّنه من الفهم والتذوق وخبرته في طرق تركيب النصوص^(١).

إذن قد يختلف ذلك المرتكز الضوئي باختلاف المتلقي ، فقد يتفق المتلقون على مرتكز واحد في النص ، وقد يرى كلّ منهم مرتكزاً ضوئياً غير الذي يراه الآخر ، المهم أن يقدم كلّ منهم الدليل اللغوي على ما ارتآه ، ويبيّن قدرة مرتكزه على الكشف والإنارة في النص ، نثراً كان أو شعراً.

والنص يتركّب من عدّة جمل ، وهذه المجموعة من الجمل فيها ما أسميناه بـ (المرتكز الضوئي) ، الذي قد يكون واحداً أو أكثر ، ويمكن تسليط هذا المرتكز الضوئي على النص فينيره ويكشفه .

وغالباً ما تكون كلمات هذا المرتكز الضوئي قد اختيرت - عفويّاً - بدقّة ، وأحكمت علاقته النحوية ، فاستحقّ بذلك أن يكون مفتاحاً للنص .

وهذا المرتكز في النص ليس شيئاً غيبياً ، أو فكرة مفروضة عليه من الخارج ، وليس للمرتكز الضوئي مكانٌ معيّن ينبغي أن يوضع فيه ، فقد يكون في أول النص أو وسطه أو آخره ، وقد يكون جملة أو عدّة جمل ، بسيطة أو مركّبة ، طويلة أو قصيرة^(٢).

وللإحالة أيضاً دور بارز في ضمان عملية التواصل ذاتها ، فمن شروط التواصل الناجح أن يكون المتخاطبان متفقين صراحة في التخاطب المباشر ، أو ضمناً في

(١) انظر « الإبداع الموازي : التحليل النصّي للشعر » ١٨٢ .

(٢) انظر « النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي - الدلالي » د. محمد حماسة عبد اللطيف ،

التخاطب غير المباشر ، على مجال واحد للخطاب ، وتبين أهمية الإحالة في ضمان التواصل حين يحتل هذا الشرط ، ونكون أمام خطاب مرجعية المتكلم فيه غير مرجعية المخاطب^(١).

ولا تقتصر وظيفة الإحالة على الربط فحسب ، بل لها إسهام كبير في تحسين الكلام ، وقد ساق الجرجاني^(٢) مثالا على ذلك قول البحري^(٣) :

بلونا ضرائب من قد نرى فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادث ت عزمًا وشيكا ورأيا صليبا
فاستخدام الضمير (هو) في بداية البيت الثاني - فضلًا عن أنه ربطه بالأول -
أضفى على معناه شيئًا من القوة^(٤).

والإحالة بوصفها عنصرًا من عناصر التماسك النحوي ترتبط بصورة واضحة أكثر من غيرها بالبناء اللغوي التلقائي للمعاني الذي يحمل غرضًا أساسيًا وهو تقديم جمل متوازنة ومرتبطة لا انقطاع فيها^(٥).

وتعدّ الإحالة الداخلية القبليّة (anaphora) هي الأكثر انتشارًا داخل النص ، ولها دور مهم في تحقيق التماسك ، وهذه الكثرة والاستمرارية تؤكد ضرورة وجود تلك العناصر المحال عليها وجودًا فاعلاً على مدار النص ، إذ تمثل الأساس

(١) انظر « بنية الخطاب من الجملة إلى النص » ١٤٦ .

(٢) انظر « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجاني ، تح : محمود شاكر ، ٨٥ .

(٣) ديوانه ، تح : عمر الطباع ، ١ : ١٢١ .

(٤) انظر « في اللسانيات ونحو النص » د. إبراهيم خليل ، ٢٢٨ .

(٥) انظر « نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص الشري » د. حسام فرج ، ٨٥ .

الذي يحمل معانيه وأفكار صاحبه .

أما الإحالة الداخلية البعدية (cataphora) فتستخدم في إيضاح شيء مجهول أو مشكوك فيه ، لهذا فهي تعمل على تكثيف اهتمام المتلقي ، وتحثه على مواصلة القراءة؛ لأنها في أثناء تلقي النص تثير مشكلة مؤقتة لدى المستقبل حيث تترك مكانًا فارغًا حتى يتم شغله بالمرجع المقصود⁽¹⁾ ، وهذا المكان الفارغ هو بمثابة مركز تجمع حتى نستطيع تحديد المرجع . ومع ذلك فإن تأخير التعبير يدعم قدرة المتلقي على استرجاع العناصر أو الصفات التي ارتبطت بالإحالة البعدية أكثر من قدرتهم على استرجاع أو تذكر الصفات التي ارتبطت بالإحالة القبلية .

ويرى هاليداي ورقية حسن أن الإحالة الداخلية فقط هي التي تربط النص ، في حين أن الإحالة الخارجية تُسهم في صنع النص ، بمعنى أنها تربط النص بسياق الموقف ، ولكنها لا تُسهم في دمج قطعة بأخرى⁽²⁾ .

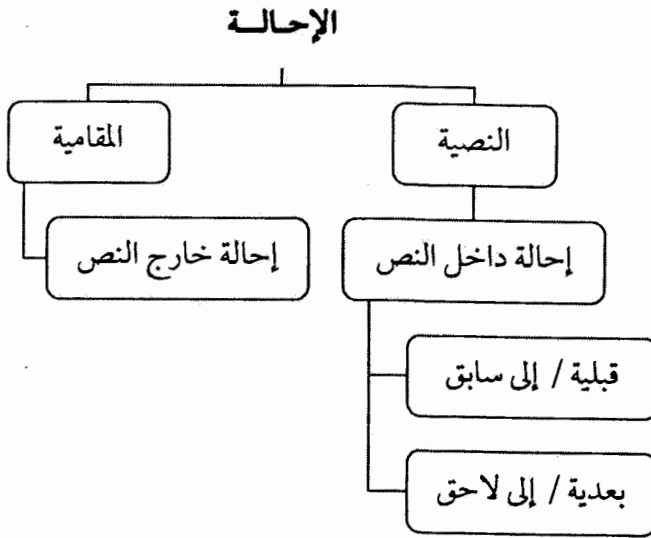
(1) See: Introduction to text linguistics , P : 61.

(2) See: Cohesion in English , P :37 .

المبحث الثالث

أنواع الإحالة

لقد غدا تقسيم هاليداي ورقية حسن للإحالة هو الأساس الذي سار عليه النصيون من بعدهم ، وهو كالآتي :



تقسيم لأنواع الإحالة عند هاليداي ورقية حسن

ونظرًا إلى سعة موضوع الإحالة ، وكثرة المسائل المتعلقة بها لم يعد لهذا التقسيم كبير جدوى ، حيث تنوعت تقسيمات الإحالة ، وتعددت أنواعها وأنماطها .

ولئن كان الدرس النحوي القديم قد عني ببيان الإحالة من خلال الحديث عن مرجع الضمير وعَوْدَه على متقدّم أو متأخّر ، فإنّ الدرس اللساني الحديث قد اهتمّ بجوانب أكثر دقّة وتفصيلاً من ذلك .

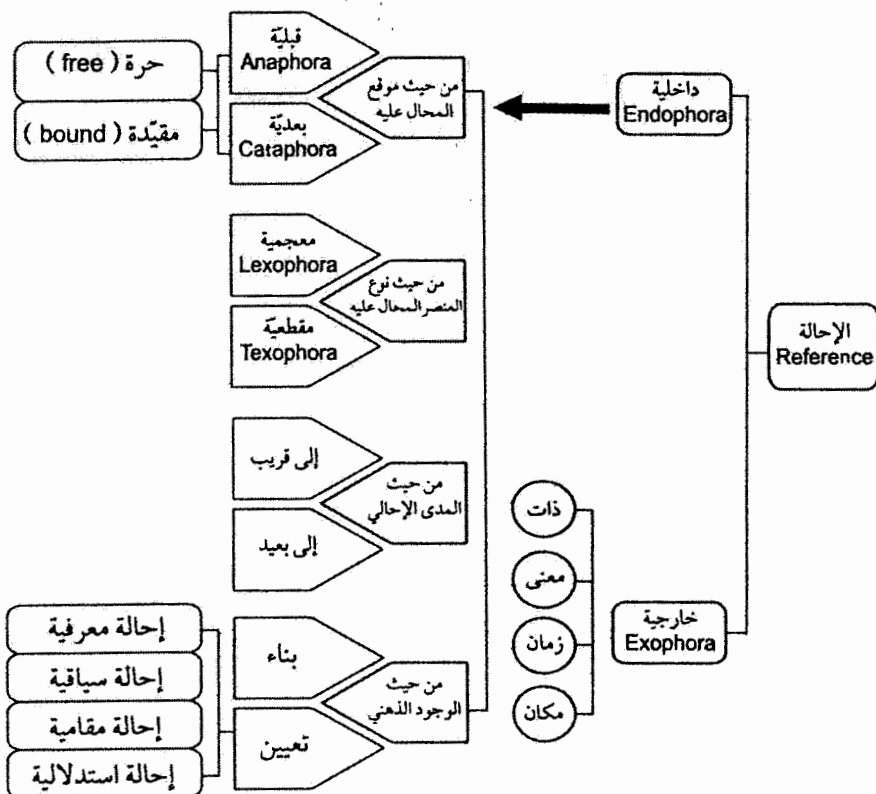
فَنَظَرَ إلى العملية الإحالية من خلال النص ، هل اقتصرت حركة الإحالة على حدود النص أو تجاوزته إلى العالم الخارج عنه ؟
وَنَظَرَ إليها من خلال موقع المحال عليه ، هل تمت الإحالة إلى عنصر إشاري سابق أو إلى عنصر لاحق ؟

وَنَظَرَ إليها من خلال نوع العنصر الإشاري المحال عليه ، هل هو لفظ معجمي مفرد ، أو هو جملة أو مقطع نصي ؟

وَنَظَرَ إليها من خلال المدى الإحالي والمسافة بين العنصر الإحالي والعنصر الإشاري ، هل هي إحالة إلى قريب أو إلى بعيد ؟

وَنَظَرَ إليها من خلال المخزون الذهني لدى المخاطَب ، هل أسهمت الإحالة في بناء عنصر إشاري جديد أو أنها اكتفت بالمعونة على تعيين المحال عليه فقط من بين العناصر الإشارية المتعددة في النص ؟ ... إلى غير ذلك من التفاصيل الجزئية المتنوعة التي ستوضح لنا فيما سيأتي .

وسأشرع في الحديث عن أنواع الإحالة انطلاقاً من الشكل الآتي الذي حاولت من خلاله أن أُلْمِ شعثَ التقسيمات الفرعية التي جاءت على صورة ثنائيات متعددة ويندرج معظمها تحت الإحالة الداخلية :



أولاً : الإحالة الخارجية (المقامية) :

الإحالة الخارجية (المقامية) (Exophoric reference) تهتم بالحديث عن مفهوم العنصر الإشاري (deictic element) الذي يتصل بالذوات والمعاني والأمكنة والأزمنة ، مما يعرف من خلال (المقام) ، إذ « يحيل عنصر لغوي على عنصر إشاري غير لغوي موجود خارج النص » ^(١) ، كأن يحيل ضمير المتكلم المفرد على ذات صاحبه المتكلم كما أشار إليه هاليداى ورقية حسن .

(١) « نسيج النص » ١١٩ .

ويشتمل العنصر الإشاري على^(١) :

١ - اللفظ المفرد الدالّ على حدث أو ذات أو موقع ما في الزمان أو المكان .

٢ - جزء من الملفوظ ، أو الملفوظ كاملاً .

والذي من خلاله تتضح لنا الإحالة الخارجية .

وسببُ وسمِّ هذه الإحالة بالخارجية أنّ الضميرَ يحيلُ على عائدٍ خارجِ التركيب سواء أكان هذا التركيب جملة أم نصًّا ، والمقام هو الذي يحدّد الاسم الذي تحيل عليه ، ولذا وسمها بعض الدارسين بالإحالة المقامية^(٢) ، أو إحالة السياق الاجتماعي .

وهذا النوع من الإحالة يرتبط بأنواع محددة من النصوص ، ويحتاج أحياناً إلى جهد أكبر للكشف عنه ، وإيضاح كلفيته وتأويل العنصر غير اللغوي الذي يحكمه في خارج النصّ وذلك باللجوء إلى السياق أو المقام الخارجي^(٣) .

التماسك النصّي في الإحالة الخارجية (المقامية) :

يذهب هاليداي ورقية حسن إلى أنّ الإحالة المقامية «تسهم في خلق النصّ ؛ لكونها تربط اللغة بسياق المقام ، إلّا أنّها لا تُسهم في اتّساقه بشكل مباشر»^(٤) .

والحقّ أنّ عدم جعل الإحالة المقامية من أدوات تماسك النصّ فيه ابتعاد عن روح النصّ ومفهومه ، إذ كيف يمكن للمتلقّي أن يربط أحداث النصّ ومجرياته إذا لم يعرف ما تحيلُ إليه العبارات الواردة في النصّ ؟ هب أنّ المتلقّي سمع جملة من لغة لا يعرفها

(١) انظر « نسيج النصّ » ١١٦ .

(٢) انظر « لسانيات النصّ » ١٧ .

(٣) انظر « لسانيات النصّ » ١٧ .

(٤) « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » ٨٩ .

فهل سيكون بمقدوره تمثّل معنى تلك الجملة والتفاعل معها ؟ إنّ فشله في ذلك راجعٌ إلى جهله بما تحيلُ إليه الجملة في العالم الخارجي ، وليس إلى تركيبها ، فقد تكون على قدرٍ كبير من الفصاحة والوضوح . وما ذهب إليه هاليداي ورقية حسن لا يستقيم مع اعتبارهما الاتساق مفهوماً دلاليّاً قوامه العلاقات المعنوية الموجودة في النصّ^(١) .

ولقد شكّك براون ويول في صحّة تمييز هاليداي وحسن بين الإحالة خارج النصّ والإحالة داخل النصّ ، ونظرا إلى تعريفهما للإحالة الداخلية والخارجية على أنّه معقول لخطّة وقتية دون أن تكون هذه الطريقة المثلى^(٢) .

ونلاحظ في هذا الصدد عناية علماء العربية والتفسير بالإحالات الخارجية التي تعتمد على السياق ، قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة : ٩٧ « الضمير في (نزله) للقرآن ، ونحو هذا الإضمار - أعني : إضمار ما لم يسبق ذكره فيه فخامة لشأن صاحبه ، حيث يجعله لفرط شهرته كأنه يدلّ على نفسه ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته »^(٣) .

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١ : ١٢٤ .

(٢) انظر « تحليل الخطاب » ٢٣٨ .

(٣) « الكشف » ١ : ٦٨ . وانظر « نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب » د. مصطفى النحاس ، ٢٤ .

فالزمنخشري هنا يشير إلى الإحالة المقامية ، وهي التي تحيل إلى خارج النص بأن يكون المحال عليه مفهوماً من المقام .

أمثلة الإحالة الخارجية من النص القرآني :

النص	اللفظ الإحالي	المحال عليه	نوع الإحالة
﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ مريم: ١٦	(أنت) ضمير المخاطب المفرد في (اذكر)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية
﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ مريم: ٤١	(أنت) ضمير المخاطب المفرد في (اذكر)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية
﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾ مريم: ٥١	(أنت) ضمير المخاطب المفرد في (اذكر)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية
﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ مريم: ٥٤	(أنت) ضمير المخاطب المفرد في (اذكر)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية
﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ مريم: ٥٦	(أنت) ضمير المخاطب المفرد في (اذكر)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية

النص	اللفظ الإحالي	المحال عليه	نوع الإحالة
﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ص: ١٧	(أنت) ضميرا المخاطب المفرد في (اصبر ، واذكر)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية
﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ص: ٤١	(أنت) ضمير المخاطب المفرد في (اذكر)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ٢٢﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ٢٣﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٤﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ ٢٥﴾ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرَوْنَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نُفِيلًا ٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ الإنسان: ٢٣ - ٢٨	(نا) + (نحن) ضمير الجمع المتكلم في (إِنَّا) و (نزلنا)	الله ، عز وجل	خارجية مقامية
	كاف المخاطب في (عليك)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية
	(أنت) ضمير المخاطب المفرد في (اصبر ، واذكر ، واسجد ، وسبح)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية
	(أنت) ضمير المخاطب المفرد في (اذكر)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية

النص	اللفظ الإحالي	المحال عليه	نوع الإحالة
	(هؤلاء) اسم الإشارة	الكفار من أهل مكة ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها	خارجية مقامية
﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَنُّ﴾ عبس: ١ - ٣	(هو) ضمير المفرد الغائب في (عبس، وتولى)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية
	كاف المخاطب في (يدريك)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر: ١	(نا) ضمير الجمع المتكلم . في (إنا، وأنزلنا)	الله ، عز وجل	خارجية مقامية
	هاء الغائب في (أنزلناه)	القرآن	خارجية مقامية
﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الكوثر: ١	(نا) ضمير الجمع المتكلم . في (إنا، وأعطينا)	الله ، عز وجل	خارجية مقامية
	كاف المخاطب في (أعطيناك)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية

النص	اللفظ الإحالي	المحال عليه	نوع الإحالة
﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ المائدة: ٢٧	(أنت) ضمير المخاطب المفرد في (اتل)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية
	(هم) ضمير الجمع الغائب في (عليهم)	كفار مكة	خارجية مقامية
﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ	(أنت) ضمير مفرد مخاطب ^(١)	الرسول محمد ﷺ	خارجية مقامية

(١) قال الرازي في « التفسير الكبير » ١٧ : ١٠٩ : « اعلم أنه سبحانه لما بالغ في تقرير الدلائل والبيّنات وفي الجواب عن الشبه والسؤالات شرع بعد ذلك في بيان قصص الأنبياء عليهم السلام لوجوه :

أحدها : أن الكلام إذا أطال في تقرير نوع من أنواع العلوم فربما حصل نوع من أنواع الملالة فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى فن آخر انشرح صدره وطاب قلبه ووجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلاً قوياً.

وثانيها : ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء، فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كلّ الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه كما يقال: المصيبة إذا عمت خفت.

وثالثها : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص وعلموا أن الجهال وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سبباً لانكسار قلوبهم ووقوع الخوف والوجل في صدورهم وحيث يقللون من أنواع الإيذاء والسفاهة .

ورابعها : أنا قد دللنا على أن محمداً عليه الصلاة والسلام لما لم يتعلّم علماً ولم يطالع كتاباً ثم ذكر

=

النص	اللفظ الإحالي	المحال عليه	نوع الإحالة
لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي شَايَنْتَ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِ ﴿٧١﴾ يونس :	(هم) ضمير الجمع الغائب في (عليهم)	كفار مكة	خارجية مقامية

هذه الأقاصيص من غير تفاوت ومن غير زيادة ومن غير نقصان دل ذلك على أنه ﷺ إنها عرفها بالوحي والتنزيل .

واعلم أنه تعالى ذكر في هذه السورة من قصص الأنبياء - عليهم السلام - ثلاثة : الأولى قصة نوح - عليه السلام - وهي المذكورة في هذه الآية وفيها وجهان من الفائدة : الأولى : أن قوم نوح - عليه السلام - لما أصروا على الكفر والجحد عجل الله هلاكهم بالغرق فذكر الله تعالى قصتهم لتصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار وداعية إلى مفارقة الجحد بالتوحيد والنبوة .

والثاني : أن كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذي يذكره الرسول - عليه السلام - لهم وكانوا يقولون له كذبت فإنه ما جاءنا هذا العذاب فالله تعالى ذكر لهم قصة نوح عليه السلام لأنه - عليه السلام - كان يخوفهم بهذا العذاب وكانوا يكذبونه فيه ثم بالآخرة وقع كما أخبر فكذا ... ١. هـ ، يتضح من هذا الكلام أن الخطاب في (اتل) موجه إلى النبي محمد ﷺ ، والضمير في (عليهم) أي : كفار مكة . وقد اتضح لنا هذا من خلال السياق الخارجي للآيات .

ثانيًا : الإحالة الداخلية (النصية) (Endophoric reference) :

المقصود بالإحالة الداخلية هي إحالة على العناصر اللغوية الواردة في داخل السياق اللغوي للنص ، سواء أكانت قبلية أو بعدية ، وسواء أكان التركيب جملة أم نصًا . أي أن العنصر الإحالي - كالضمير مثلًا - يحيل على عنصر إشاري آخر مفسر له داخل بناء النص^(١) .

ويطلق عليها أيضًا : الإحالة داخل النص ، أو الإحالة النصية . أو الإحالة داخل اللغة ، أو الإحالة اللغوية^(٢) .

ولهذه الإحالة صور متعددة ، تتمثل في الثنائيات الآتية :

الثنائية الأولى : من حيث اتجاه المحال عليه ، وهي نوعان :

١ - الإحالة القبلية (على سابق) (Anaphoric reference) :

ويطلق عليها أيضًا : الإحالة بالعودة ، أو الإحالة على متقدم . أو الإضمار بعد الذكر^(٣) .

والمراد بها : الإحالة على مفسر (Antecedent) سبق التلقظ به^(٤) . أو كما يقول دي بوجراند : هي « نوع من الإحالة المشتركة يأتي فيه الضمير [ونحوه] بعد مرجعه

(١) انظر « نسيج النص » ، ١١٨ . و« لسانيات النص » ١٧ .

(٢) انظر « الدلالة النظرية لبعض الظواهر الإحالية في اللغة العربية » للفاسي الفهري ، ٣٧٦ . و« نسيج النص » ١١٨ .

(٣) انظر « النص والخطاب والإجراء » ٣٠١ .

(٤) انظر « شرح الرضي على الكافية » تح : يوسف حسن عمر ، ٤٦٤ : ٢ .

في النص السطحي»^(١).

فيكون هذا العنصر الإشاري السابق ذكره مفسراً للعنصر الإحالي المبهم الذي يأتي بعده، كالضمير واسم الإشارة ونحوهما من العناصر المبهمة التي تحتاج إلى مفسر.

وفيها يجري تعويض لفظ المفسر الذي كان من المفروض أن يظهر حيث يرد المضمّر.

وليس الأمر كما استقرّ في الدرس اللغوي، إذ يعتقد أنّ المضمّر يعوّض لفظ المفسر المذكور قبله. فتكون الإحالة بناء للنص على صورته التامة التي كان من المفروض أن يكون عليها، فهي تحليل جديد له (Reprocessing) من حيث هي بناء جديد له^(٢).

وتشتمل الإحالة القبلية على نوع آخر من الإحالة يتمثل في تكرار لفظ أو عدد من الألفاظ في بداية كلّ جملة من جمل النص قصد التأكيد، وهو (الإحالة التكرارية) (Epanaphora)^(٣).

وتمثل الإحالة القبلية أكثر أنواع الإحالات شيوعاً في الكلام^(٤). وذلك لأنّ الاسم حين يُذكر، ثمّ يذكر بعده الضمير اختصاراً وعوضاً عن تكرار العنصر الإشاري، لا يجد متلقّي النص صعوبة في فهم المقصود من الضمير حيث إنّهُ ذُكر من قبل. « فالأصل في الشيء الموضّح أن يكون - في غير ضمير الشأن - متقدّماً على الضمير

(١) « النص والخطاب والإجراء » ٣٠١.

(٢) انظر « نسيج النص » ١١٨.

(٣) انظر « نسيج النص » ١١٩.

(4) See: Robert de Beaugrande & Dressler : Introduction to text linguistics, P: 61 .

ومذكوراً قبله «^(١)»، أما عندما يُذكر الضمير أولاً فإنَّ القارئ يقع في إبهامٍ لوقتٍ ما ، ولا يخرج منه إلاَّ بِذِكْرِ المفسّر لهذا الضمير ؛ ولأنَّ اللغة تميلُ إلى الوضوح وعدم الإبهام كانت أكثر ميلاً إلى الإحالة القبليّة^(٢) .

٢ - الإحالة البعدية (على لاحق) (Cataphoric reference) :

المراد بها : أن يُحيل العنصر الإحالي المبهم على عنصرٍ إشاري مفسّر له مذكور بعده في النص^(٣) . سواء أكان المحالُّ عليه كلمة ، أو نصّاً .

فالكلمة كضمير الشأن أو القصّة ، وغيره من الأساليب . كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ كُنَّا فِي عَفْوٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ الأنبياء : ٩٧ ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ الإخلاص : ١ . أو كقوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ المؤمنون : ٣٧ .

والنصّ ، كالنصوص التي يحالُّ عليها بلفظ (ما يأتي) أو (الآتي) ، أو ما يدلُّ على هذا المعنى نحو : (نبأ وخبر وحديث وقصة ...) وهو ما يعرف بالإحالة المقطعية ، إذ يحيلُ لفظٌ معجميٌّ مبهم على مقطع نصّي يفسّره ويوضّحه . وهو ما أشار إليه دي بوجراند بقوله : ويمكن في الإحالة على متأخر أن يكون المحالُّ عليه قدرًا من المحتوى يشتمل على رتل من الأقوال^(٤) .

(١) « النحو الوافي » لعباس حسن ، ١ : ٢٥٥ .

(٢) انظر « معايير النصية » ٣٩ .

(٣) انظر « نسيج النص » ١١٩ .

(٤) انظر « النص والخطاب والإجراء » ٣٢٧ .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿ هَلْ أَنتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَأَى إِلَهُكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَادَ مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَنَاتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَرَكَّابًا فِيهَا آيَةٌ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴿ الذاريات : ٢٤ - ٣٧ .

فقوله: ﴿ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ لفظ مبهم، جاء تفسيره عن طريق الإحالة البعدية في مقطع نصي بلغ ثلاث عشرة آية، بدءاً من قوله: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ إلى قوله: ﴿ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾.

ويرى دي بوجراند: أنه يمكن في الإحالة على متأخر أن يتم تسخيرها لإيجاد نقص في المعلومات يتم إكمالها فيها بعد (١).

ويؤكد أن الإحالة إلى السابق أكثر وروداً من الإحالة على اللاحق، وأنه من الأكثر صعوبة أن تتصور كيف يمكن التصرف بالنسبة إلى الإحالة على متأخر. عندئذ يتحتم على اللفظ الكنتائي - وهو العنصر الإحالي - أن يُركم حتى تأتي العبارة المشاركة له في الإحالة - وهي المفسر أو العنصر الإشاري -، أو يترك في حسبانته حالة نحوية تظل لا مرجع لها في تحليل مشوش (Fuzzy parsing) حتى يعثر لها في النهاية على مرجع.

(١) انظر «النص والخطاب والإجراء» ٣٢٧.

ويرى أنه ليس من المستحسن حيثئذ أن تترك مسافة كبيرة بين اللفظ الكنائي وما يشترك معه في الإحالة^(١). ويقول: «عندما يعود اللفظ الكنائي على متأخر لا بد أن نحدّد مكاناً فارغاً بشكل مؤقت، ويكون هذا المكان بمثابة مركز تجمع حتى نستطيع تحديد المرجع، وهنا نكون قد حدّدنا المحتوى الذي يرجع إليه الضمير، وهذه الآلية تحدّد عملها على نحو أفضل، إن كانت المسافة بين اللفظ الكنائي والتعبير الذي يعود عليه (العائد) محدّدة جدّاً، أي: أنّها داخل حدود الجملة»^(٢). وهكذا فإن القيود التي تنطبق على الإحالة على متأخر هي جزء من شروط الإجراء اللغوي في عمومها^(٣).

ونستطيع القول: إنّ للنحو العربي عناية فائقة بترتيب المكونات في الجملة بناءً على هندسة الجملة العربية على نظام المحلّات الإعرابية، ولقد وجدنا فيه مواضع الضمير المتقدّم على مفسّره محدّدة بدقّة، ولعلّ ذلك راجع إلى أنّ الإحالة على متأخر في العربية ظاهرة مميزة ربّما تكون في العربية أبرز مما هي عليه في كثير من اللغات.

ولقد لاقى هذه الظاهرة في اللسانيات الغربية الحديثة اهتماماً واضحاً في حين لم تحظَ باهتمام العرب المعاصرين، على الرغم من أنّ العرب القدامى قد نبّهوا إليها وقتئذها. وهو ما سأتناوله فيما يأتي.

(١) انظر «النص والخطاب والإجراء» ٣٢٧.

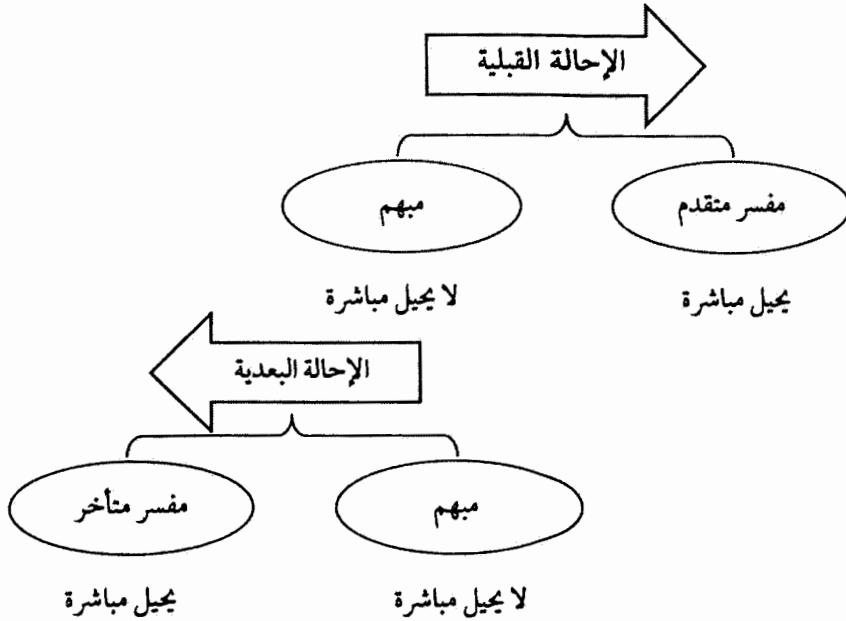
(٢) «الدلالة والنحو» ٢٣٨.

(٣) انظر «النص والخطاب والإجراء» ٣٢٨.

أثر الإحالة البعدية في تحقيق التماسك النصي :

تتفق الإحالة البعدية مع الإحالة القبلية من حيث الطبيعة ، وتختلف من حيث صورة الإجراء ، وكلتاها تقومان على صورة خاصة من الإحالة غير المباشرة بالنسبة إلى ضرب خاص من العناصر اللغوية ، تتمثل في قصور العنصر عن الإحالة بمفرده على مرجعه أو خارجه ، ولا يتم له ذلك إلا بالاتكاء على عنصر آخر يعضده في القيام بهذا الدور .

لكن الإحالة القبلية تقوم على تقدّم العنصر المتكأ عليه ، أمّا الإحالة البعدية فإتّما بخلاف ذلك ، تقوم على تأخّر ذلك العنصر ، وهو ما يمكن أن نمثله في الشكل الآتي ^(١) :



(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٢١٣ .

الإحالة البعدية في الدراسات الحديثة :

يرى محمد الشاوش أنّ ماجاء به هاليداي ورقية حسن في كتابهما (التماسك في الإنجليزية) عن الإحالة البعدية هو بداية حقيقة للاهتمام بهذه الظاهرة مصطلحًا ومفهومًا ، وهو اهتمام يقوم على البحث بين العلاقات الدلالية بين وحدات الخطاب من ناحية ، وعن البحث عن علاقتها بالخارج من ناحية أخرى . وقد ذكّي هذا الاهتمام اتّساع مجال الدراسة اللسانية وشمولها لما يتجاوز الأشكال المجردة وأقصاها الجملة ، إلى الاستعمال ومجالة الخطاب والنص .

كما خصّ (Marek Kesik) الإحالة البعدية بمؤلف مستقل يقع في (١٥٥) صفحة ، وهو (الإحالة البعدية اللغوية الجديدة) : (La cataphore, Linguistique nouvelle, P.U.F. 1980) ، عدّ فيه مصطلح الإحالة البعدية مصطلحًا حديث العهد ، وما يزال غريبًا حتى عن المشتغلين بالدراسة اللغوية ، ويؤرخ لظهوره بسنة ١٩٣٣ م .

وقسّم الإحالة البعدية قسمين :

- الإحالة البعدية الحرة (Free) : هي التي لا تخضع لقيود البنية التركيبية .
 - والإحالة البعدية المقيدة (Bound) : هي التي تخضع لقيود البنية التركيبية .
- فإذا اعتبرت المجال الذي تجريان فيه لاحظت أنّ جميع الإحالات البعدية المتجاوزة للجملة هي من قبيل الإحالة البعدية الحرة ، لكن ليست كل إحالة بعدية حرة جارية بالضرورة في حدود الجملة الواحدة^(١) .

(1) See : La cataphore, Linguistique nouvelle, P: 41 – 42 .

وانظر « أصول تحليل الخطاب » ١٢١٤ .

صور أخرى للإحالة البعدية :

إذا ربطنا عملية الإحالة بالمبهم ومفسره فإننا سنصادف مسائل كثيرة في النحو العربي تندرج كلها تحت عمليتي الإحالة القبلية أو البعدية . فأي إبهام يأتي ما يفسره قبله فهي إحالة قبلية ، وأي إبهام يأتي ما يفسره بعده فهي إحالة بعدية ، ومن أمثلة ذلك الظواهر اللغوية الآتية :

م	الوحدة اللغوية	ما يوافق الإحالة القبلية	ما يوافق الإحالة البعدية
١	الحذف	تقدم القرينة والدليل	تأخر القرينة والدليل
٢	الإضمار بعلامة	تقدم المفسر	تأخر المفسر
٣	اسم الإشارة	تقدم المشار إليه	تأخر المشار إليه
٤	الألف واللام	تقدم المعهود	تأخر المعهود
٥	حرف الجواب	تقدم متمم المعنى الكلامي	تأخر متمم المعنى الكلامي

والجامع بين هذه الحالات هو تأخر العنصر الذي يتم به رفع الإبهام عن العنصر المبهم أو عن موطن الإبهام^(١) .

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٢١٦ .

مناقضة الإحالة البعدية للأصل في الكلام :
الأصل في عملية الكلام هو أن المتكلم لا يستعمل في كلامه المبهم ؛ لأنه سيناقض
الغرض من الكلام مطلقاً ، ويخرج عن سنن الخطاب ؛ لأن الغرض من كل كلام هو
البيان والتبيين .

ومن هنا كانت الإحالة القبلية هي الأصل في استعمال المبهات ، باعتبار أن المتكلم
لا يستعمل منها إلا بعد أن يوفر ما يفسرها ويرفع الإبهام عنها فينقلها بذلك من صنف
المبهات الوضعية الإفرادية إلى صنف ما أصبح واضحاً بالتركيب والاستعمال .
والإحالة البعدية تبدو خارجة عن ذلك الأصل ، ومناقضة لسنن الخطاب بسبب
البدء بالمبهم .

ولئن بدا أن المفسر المتأخر مخرُج من هذا التناقض متى ما نظرت في الكلام بعد
الفراغ منه فإنه يفضي إلى القول بأن المتكلم بدأ كلامه قاصداً الإبهام . وليس بناء الكلام
بدءاً على ما يناقض الغرض بأقل خطراً ؛ لأنه يحدث في أصل البيان شرخاً لا يمكن أن
يقبل إلا متى قام الدليل على كون البدء بالمبهم إبهاماً حقيقياً ، أو أن المتكلم قصد إلى
الإبهام ليحقق به غرضاً لا يمكن أن يتحقق إلا به .

ويرى محمد الشاوش أن الإحالة البعدية هي حالة غريبة غريبة لا تقوم على الندرة
أو الغموض ، بل غريبة تقوم على مناقضة الغرض من الكلام ، وهو ما دفعه إلى الشك
في صحة القول بوجود هذه الظاهرة ، لما في ذلك من خطر الإفضاء إلى التناقض في
صلب النظرية ذاتها ، تناقضاً يتمثل في الجمع بين الأصل الذي هو البيان ، ونقيضه وهو
الإبهام^(١) .

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٢١٩ .

ويشير الشاوش إلى أنّ تعرّض الدارسين للإحالة البعدية كان من مدخلين اثنين ، تتحكّم في كلّ واحد غاية تختلف عن الغاية المتحكّمة في الآخر :

- مدخل يتصف بالشمول وعدم الحصر ، ويندرج في رصد وجوه الظاهرة دون التقيد بضرب معيّن من الوحدات اللغوية ، ولا مستوى خاص من مستويات الدراسة . والغالب على أصحابه تناول الظاهرة بصرف النظر عن الصور التي تتجلّى فيها .

- ومدخل يتصف بالانطلاق مما أصبح منتشرًا في الدراسات اللغوية من تجاوز لمستوى البنى التركيبية والبحث في العلاقات بين الجمل ، وقد وافقه ولوع عدد كبير من الدارسين بالبحث عمّا يحقق الترابط والانسجام والتماسك بين أجزاء النص .

ويذهب إلى أنّ النتائج التي حققها الضرب الأوّل من البحث كانت أقدر من النتائج التي حققها الضرب الثاني على تفسير حقيقة الإحالة البعدية ، وأبعد عن الوقوع في المبالغات التي وقع فيها الثاني ؛ لانطلاق الأوّل من اعتبار الإحالة غير المباشرة من الظواهر النظامية ، في حين زهد الثاني في اعتبارها منها .

ويرى في دراسته الرافضة لظاهرة الإحالة البعدية دليلًا على أنّ اعتماد النصوص المكتوبة قد قام حجابًا لإدراك طبيعة بعض الظواهر اللغوية وأفضى إلى تنزيل بعض الفروع والقواعد الثانوية منزلة القواعد الأصلية . مع عدم يقينه بأن النصوص المكتوبة هي ضروب خاصة من الكلام لها مميزات توجّه الظواهر اللغوية وجهة خاصّة ليست الوجهة التي تقوم عليها أصول التخاطب والنصوص غير المكتوبة^(١) . وهو رأي جدير بالتأمّل .

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٢٥٧ .

موقف النحاة من الإحالة البعدية :

إنّ رفض النحاة لقضية تأخر المفسّر على المضمّر يُفهم منه رفضهم للإحالة البعدية بصورة عامة ، وسنقف فيما يأتي مع بعض أقوالهم في هذا الشأن .

○ امتناع تأخر المفسّر لفظاً ومعنى :

ذكر ابنُ جنّي في باب (نقض المراتب إذا عَرَضَ هناك عارض) أنّهم يمتنعون من تقديم الفاعل في نحو : (ضَرَبَ غلامُه زيدًا) ، فهذا لم يمتنع من حيث كان الفاعل ليس رتبته التقديم ، وإنّما امتنع لقرينة انضمت إليه ، وهي إضافة الفاعل إلى ضمير المفعول ، وفساد تقدّم المضمّر على مظهره لفظاً ومعنى ، وهذا ما لا يجوّزه القياس^(١) .

ورفض هذه الحالة من قبل النحاة إنّما هو صيانة للمبدأ الأصلي الذي يقوم عليه الإضمار لإفضائها عند الخروج عنها إلى فساد الكلام .

وبالمقابل فإنّ هناك حالات لا يُفضي فيها الخروج عن هذا الأصل في الظاهر إلى فساد الكلام ، وهي تلك التي يكون فيها التقدّم في اللفظ والرّتبة لا في التقدير والمعنى .

○ جواز تأخر المفسّر لفظاً ورتبة لا تقديرًا ليس من الإحالة البعدية :

أشار النحاة إلى فساد المثال السابق (ضَرَبَ غلامُه زيدًا) ، وأجازوا نحو : (ضَرَبَ غلامَه زيدٌ) . فالقول الأوّل لم يُجْز ؛ « لأنّ الفاعل في موضعه فلا يجوز أن يقدر لغيره »^(٢) .

(١) انظر « الخصائص » لابن جنّي ، ١ : ٢٩٣ - ٢٩٥

(٢) « المقتضب » للمبرد ، ٢ : ٦٩ .

أما الثاني فإنه جائزٌ جيّدٌ ؛ « لأنّ الغلام في المعنى مؤخّر ، والفاعل في الحقيقة قبل المفعول .

ولو قلت : (ضربَ غلامُه زيدًا) كان مُحالًا ؛ لأنّ الغلام في موضعه ، لا يجوز أن يُنوى به غيرُ ذلك الموضع «^(١) .

ويمكّنتنا من خلال هذه الأقوال أن نستنتج جواز تأخر المفسّر على المضمّن ، وبالتالي جواز الإحالة البعدية ، على ما في ذلك من مناقضة الغرض ، والخروج عن الأصل العام المتحكّم في ظاهرة الإضمار .

وقد أدرك النحاة خطورة الخروج عن هذا الأصل على أصول الكلام فتوقّفوا عنده بالبيان والشرح ، وقرنوا هذه الحالة بالتمييز بين نوعين من تقدّم المفسّر وتأخّره :

أ- تقدّم المفسّر في اللفظ والرتبة دون المعنى والتقدير والنية .

ب- تقدّم المفسّر في اللفظ والرتبة ، مع التقدّم في المعنى والتقدير والنية .

ونلاحظ من خلال ما تقدّم من أقوال النحاة أمرين :

الأول : أنّ معظم الحالات التي ذكرها النحاة فيما يتعلّق بتأخّر المفسّر عن الضمير إنّما كان في نطاق الجملة الواحدة ، ولا تتجاوزها . فهي ليست من الحالات العابرة للحدود الجمالية ، وبالتالي فلا سبيل إلى أن تكون من مظاهر الربط بين الجمل على مستوى النص أو الخطاب .

الثاني : يتعلّق بالتفسير الذي قدّمه النحاة لهذه الظاهرة التي لا تكاد تتمثّل في نظرهم خروجًا عن الأصل ، فقد بدا لهم هذا التأخير تأخيرًا كلا تأخير ؛ لأنّه يتعلّق بالترتب

(١) «المقتضب» للمبرد، ٤: ١٠٢ .

اللفظية دون المواضع وما يقدّر للألفاظ ويُنوى لها من الأحكام والمعاني .

« فالكلام يتكوّن من عناصر يحتلّ كلّ واحد منها موضعًا ، ولهذه المواضع رتب أصلية ، بعضها محفوظ لا يمكن التصرّف فيه بالتقديم والتأخير ، وبعضها غير محفوظ يمكن التصرّف فيه بالتقديم والتأخير لتحقيق غايات معلومة » ^(١) .

ونحن أمام حالات الإضمار السابقة نختار بين تخريجين :

الأول : تخريج لا يتجاوز ظاهر اللفظ ، فيفضي القول به إلى جواز تقدّم المضمّر على المفسّر ، وبالتالي إلى القول بوجود الإحالة البعدية لما بين الظاهرتين من تناظر . ويبدو أنه التخريج الذي غلب على المحدثين من المولعين بالقول بالإحالة البعدية ، أي القول بجواز تأخر المفسّر بعد إعادة الاعتبار إليها ضمن مشاغل المهتمّين بالنصّ .

الثاني : تخريج يتجاوز ظاهر اللفظ ، ويحاول البحث فيما يفسّر الخروج عن أصل الإضمار ، وهو المذهب الذي ذهب إليه النحاة العرب في تناوّلهم لهذه الظاهرة ، وقد وجدوا في هذا المذهب ما به يسلم الأصل العام الذي تقوم عليه ظاهرة الإضمار . فقد بنوا تناوّلهم هذه المسألة على التمييز بين ضربين من العمليات : واحدة تقوم على الإضمار ، والأخرى تقوم على التصرّف في الرتب . ولو أنّهم وقفوا عند هذا الحدّ من التمييز واقتصروا عليه لما كانوا أسعد حظًا من اللاحقين في وصف هذه الظاهرة ، ولكنهم قطعوا في الوصف والتفسير مرحلة أخرى تتمثّل في تعيين الترتيب الذي يجري حسب هاتان الظاهرتان ، وحققوا في الوقت نفسه ضبطًا للمجال الذي تجري فيه ظاهرة الإضمار ^(٢) .

(١) « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٢٢١ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٢٢٢ .

ففي نظريّتهم قول بأن ظاهرة الإضمار تجري في مستوى البنية الأصلية ، ويكون إجراؤها في هذا المستوى مراعيًا لأصل الإضمار المقتضي لتقدّم المفسّر على المضمّر . فإذا رام المتكلّم التصرّف في الرّتب بالتقديم والتأخير لتحقيق ما يتحقّق بهما من الأغراض كان ذلك التصرّف بعد أن عمّل الإضمار عمله ، وأعطى حقّه من مراعاة القواعد الدلالية المعنوية التي يقوم عليها ، سواء منها ما تعلّق بدواعيه - وأهمّها تعطيل الإحالة على خارج جديد - ، أو بشروط استعماله وصحّته - من إمكان تأويله بارتفاع الإبهام متى توفّر شرط تقدّم المفسّر - ، فإذا رمت تناول هذه الظاهرة بتزيلها في البنية الأصلية ، وبتقديم إجراء عملية الإضمار على عملية التصرّف في رتب العناصر في اللفظ خرجت هذه الحالة من تلقاء نفسها من حالات الإحالة البعيدة ، وتنزّلت في أصل الإضمار وما يقتضيه من تقدّم المفسّر .

ويمكننا أن نقف من خلال ما سبق من الأقوال على بعض النتائج ، منها :

١ - قيامه دليلًا على وجود البناء الأصلي للجملة ، وهو بناء يتكوّن من عدد معيّن من المواضع ذات ترتيب أصليّ ، وهو بناء يتفرّع بحسب التصرّف في رتب المواضع . ونجد عبارات عديدة تدلّ على ذلك البناء ، منها : التقدير والنية والمعنى والحقيقة .

٢ - قيامه دليلًا على جواز تقدّم المضمّر في اللفظ والرتبة على المفسّر ، متى كان حقّ ذلك المضمّر التأخير ، أي متى كان موضعه الأصلي متأخرًا على موضع المفسّر . ويدعونا هذا إلى مراجعة الرّأي بشأن ذلك الاستعمال الذي يمثّل له عادةً بالمثال الآتي : (عند نزوله من الطائرة أدلى الوزير بالتصريح الآتي ...) ، ونسمع ذلك كثيرًا في النشرات الإخبارية والصحف الإعلامية ، وقد عدّ مثل هذا الكلام خروجًا عن قواعد اللغة العربية ، واعتبر حالة من حالات النسخ عن اللغات الغربية والتداخل بينها وبين

اللغة العربية ، ولعلّ في تجويز المبرّد لمثل : (في بيته يُؤتَى الحَكْمُ) ؛ و (لقيتُ في داره زيدا) - لأنّ حدّ الظرف أن يكون بعد الفاعل وبعد المفعول ^(١) - وفي اعتباره إياهما استعمالان صحيحان ما يغني عن الاستدلال على أنّ المثال السابق : (عند نزوله من الطائرة ...) هو استعمال صحيح ، يصحّ في العربية كما يصحّ في سائر اللغات ، وصحّته ليست راجعة إلى الاستنساخ ، إنّما ترجع إلى تحكّم قواعد الإضمار في هذه اللغات على النحو نفسه الذي تتحكّم عليه فيها في العربيّة ^(٢) .

٣ - قيامه دليلاً على أنّ القواعد اللغوية تجري بحسب ترتيب اعتباري معيّن ، ويتمثّل هذا الترتيب في تقدّم إجراء قواعد الإضمار على إجراء قواعد التصرّف في رتب العناصر في اللفظ ، باعتبار أنّ هذا التصرّف أساسه تقديم العنصر المخبر عنه - المعلوم أو القديم - ، وتأخير العنصر المخبر به - المجهول أو الجديد - في ما جرى على أصل الترتيب ، وعكسه فيما خرج عنه .

وعلى هذا الأساس تكون البنية العاملية المعنوية باعتبار عدم تأثرها بالتصرّف في رتب المكونات ضامناً لإمكان التأويل على الرغم من تقدّم المفسّر في اللفظ ، ومجوّزاً لإرجاع تأخّر المفسّر على المبهّم إلى تقدّمه عليه ، وعلى هذا النحو يستقيم ربط الفرع بالأصل ^(٣) .

ويعدّ ضمير الشأن أبرز ظاهرة في العربية تجلّت فيها الإحالة البعدية ، وهو ما سأتناوله في مبحث الإحالة بالضمير في فصل أدوات الإحالة .

(١) انظر « المقتضب » ٤ : ١٠٢ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٢٢٣ .

(٣) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٢٢٤ .

الثانية الثانية : من حيث نوع العنصر المحال عليه ، وهي نوعان :

١ - الإحالة المعجمية :

هي أن يكون العنصر الإشاري (المفسر) المحال عليه لفظاً معجمياً مفرداً غير مركّب ، سواء أكان اسم ذات أو زمان أو مكان أو أي مفهوم مفرد .

وهذا النوع من الإحالة موجود في كل النصوص ، ولا يعني ذلك أنها ضرورية . واقترح لها الأزهر الزناد مقابلاً من اللاتينية هو (Lexophora)^(١) .

ومثاله قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۚ ^(١١) أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ^(١٢) ۚ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ^(١٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاصِرًا بِهِ ۖ وَلَا تَحْنُثْ ۖ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۖ نَقِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ ص : ٤١ - ٤٤ .

فالضائر في : (ربه ، أني ، مسني ، اركض ، برجلك ، له ، أهله ، خذ ، بيدك ، اضرب ، تحنث ، وجدناه ، العبد ، إنه) كلها تُحِيلُ على مفسر معجمي واحد هو لفظ (أيوب) الذي يشير إلى ذات .

واسم الإشارة (هذا) يُحِيلُ على مفسر معجمي هو لفظ (مُغْتَسَل) الذي يشير إلى مكان .

(١) انظر « نسيج النص » ١١٩ .

٢- الإحالة المقطعية :

هي أن يكون العنصرُ الإشاري المحال عليه مقطعاً من ملفوظ ، سواء أكان جملة أو نصّاً أو مركّباً نحويّاً . وتوجد في نصوص دون أخرى . ويقترح الأزهر الزناد لها مقابلاً لاتينياً هو (Texophora) .

وغالباً ما تؤدّيها ألفاظ معجميّة من قبيل : (قصّة ونبأ وحديث وخبر ورأي وفعل ورؤيا ... إلخ) ، وقد تؤدّي بالضمائر أو الإشارة أو الأسماء الموصولة وغيرها .

وقد أطلق عليها الأزهر الزناد مصطلح (الإحالة النصيّة) ، وهو ما لا أراه ، لئلاّ تلتبس بالإحالة النصيّة التي نعني بها الإحالة داخل النص (الداخلية) (Endophora) .

ومن أمثلة هذا النوع ما نجده في قصّة يوسف - عليه السلام - التي تتوّعت فيها تلك العناصر الإحالية التي تحيل على مقطع من الملفوظ ، جملة كان أو نصّاً أو معنى مفهوماً من نصّ (فحوى نص) ، ولو استعرضنا بعض آيات سورة يوسف لظهرت لنا بعض الأمثلة من الإحالات المقطعية ، قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (١) قَالَ يَبْنَؤُ لَا نَقُصُّ رُبَّ بِكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيهِ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِصْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّالِكِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا نَزَلْنَاهُ لِيُؤْتِنَا مِنْ مَّا نَحْنُ فِيهِ مِنْ مِّمِّنْ (٨) ... ﴾ يوسف : ٣- ٨ إلى آخر القصة .

نوع الإحالة المقطعية	نوع المقطع	الآية	المقطع المحال عليه	نوع العنصر الإحالي	الآية	العنصر الإحالي
داخلية، بعدية	نص	٤ - ١٠٢	قصة يوسف كاملة ^(١) من قوله : (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لَأَيُّهُ) إِلَى (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) .	لفظ معجمي	٣	أحسن القصص
داخلية ، قبلية	جملة	٤	(إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)	لفظ معجمي	٥	رؤياك
داخلية ، قبلية	فحوى نص سابق	بدءاً من ٢٣	أي : أعرض عن ذكر ما كان من امرأة العزيز إليك فيما راودتك عليه ، فلا تذكره لأحد ^(٢)	اسم إشارة	٢٩	أعرض عن هذا
داخلية ، قبلية	جملة	٤٣	(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ)	لفظ معجمي	٤٣	رؤياي

(١) ويمكن أن نقول: إن قصة يوسف بدأت من قوله : (لقد كان في يوسف وإخوته آيات
للسائلين) ، فتكون جملة ابتدائية هي مبدأ القصص المذكور ، وما جاء قبله من الرؤيا يكون
كالمقدمة له المنبئة بنبأه شأن صاحب القصة ، فليس هو من الحوادث التي لحقت يوسف - عليه
السلام - ، ولهذا كان أسلوب هذه الجملة كأسلوب القصص . انظر « التحرير والتنوير » ١٢ :

٢١٨ .

(٢) انظر « تفسير الطبري » ١٣ : ١١٣ .

نوع الإحالة المقطعية	نوع القطع ع.	الآية	المقطع المحال عليه	نوع المنصير الإحالي	الآية	المنصير الإحالي
داخلية ، قبلية	جملة	٧٧	أي مقالة الاتهام : (إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) ^(١)	ضمير	٧٧	فأسرّها
داخلية بعديّة	جملة	٧٧	أو جملة : (أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا) ^(٢)			
داخلية ، قبلية	نص	٤ - ١٠٢	قصة يوسف كاملة من قوله : (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لَأَيِّهِ) إِلَى (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) .	اسم إشارة	١٠٢	ذلك من أنباء

- (١) هذا رأي أبي علي الفارسي وأبي حيان ، فتكون الإحالة على ذلك قبلية . انظر « التحرير والتنوير » ١٣ : ٣٤ . وانظر « مرجع الضمير في القرآن الكريم » د. محمد صبرة ، ٣٤٢ .
- (٢) هذا رأي الزجاج والزمخشري ، قالوا إن الضمير في (أسرّها) يعود على جملة : (قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا) ، أي : قال في نفسه . وهو يشبه ضمير الشأن والقصة ، لكن تأنيثه بتأويل المقولة أو الكلمة ، وتكون جملة (أَنْتُمْ شَرًّا مَكَانًا) تفسيرًا للضمير في أسرّها . وعليه فإن الإحالة هنا بعديّة . وقد أسماه : الإضمار على شريطة التفسير . انظر « الكشف » ٢ : ٣٣٦ ، و « التحرير والتنوير » ١٣ : ٣٤ . وفي « تفسير الطبري » ١٣ : ٢٧٥ تأييدٌ لكون الإحالة بعديّة ، وأن الضمير في (أسرّها) يعود على جملة (أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا) ، وقال : « كُنِيَ عن الكلمة ولم يحجر لها ذكرٌ متقدّم . والعرب تفعل ذلك كثيرًا إذا كان مفهومًا المعنى المراد عند سامعي الكلام » ، ثم ساق بعض الشواهد الشعرية والقرآنية التي تؤيد جواز الإحالة على متأخر .

وينضح لنا من خلال الجدول السابق دور الإحالة المقطعية في الاقتصاد اللفظي ، وإعمال الذهن ، وتنشيط الذاكرة ، وإسهامها في عملية التماسك النصي عن طريق الربط بين أول النص وآخره ، وقد تبين لنا أن الإحالة المقطعية قد تكون على جملة ، أو على نص متلفظ به ، أو على فحوى نص ، والمراد بالفحوى هنا هي التراكبات الدلالية والمعنوية التي لم نكتسبها بوساطة لفظ. بعينه ، وإنما فهمناها بوساطة مجموعة من الكلمات المتلفظ بها .

ومن الأمثلة الأخرى على الإحالة المقطعية ما يأتي :

١ - قال تعالى في قصة نوح مع قومه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٥ ﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسْرِ ٥٦ ﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُكْفَرُوا مِنَّا وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ٥٧ ﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ سِنَةٍ مِّن رَّيِّ وَءَاثَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْهُمْ كُفُّوا وَأَنْتُمْ لَهُمَا كِرْهُونَ ٥٨ ﴾ وَتَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّانِ أَنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ٥٩ ﴾ هود : ٢٥ - ٢٩ .

قوله : ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّانِ ﴾ يعود الضمير هنا على (تبليغ الرسالة) ^(١) ، ولم يذكر التبليغ هنا صراحة ، بل هو مفهوم الآيات السابقة ، بدءاً من قوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

(١) انظر « ضمير الغائب مستقصى في القرآن الكريم » د. علي النابي ، ٣٣٠ . و« مرجع الضمير في القرآن الكريم » د. محمد صبرة ، ٣١٩ .

٢- وما ورد في قصة نوح كذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَ الْمُجِيبُوْنَ ۖ وَيَجْعَلْهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيْمِ ۖ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِيْنَ ۖ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِيْنَ ۖ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَالَمِيْنَ ۖ إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِيْنَ ۖ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِيْنَ ۖ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِيْنَ ۖ ﴾ (٧٥-٨٢) الصافات : ٧٥-٨٢ .

إن فهم هذا المقطع لا يتأتى إلا بالاستعانة بالسياق الخارجي للنص ، فما هو ﴿ الْكَرْبِ الْعَظِيْمِ ﴾ ؟! إنه يحيل على ما ورد في قصة نوح والطوفان التي وردت في سورة هود من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية الثامنة والأربعين ، حيث وردت قصة نوح وقومه وهلاكهم بالغرق ، والذي يؤيد ذلك هو الإشارة إلى الغرق في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِيْنَ ۖ ﴾ .

فيمكننا أن نعدّ هذه الإحالة في (الكرب العظيم) إحالة مقطعية خارجية قبلية ، والمحال عليه هو ما ورد في سورة هود ، أو أن نعدّها إحالة داخلية بعدية مفهومة من مدلول الفعل (أغرقنا) ، فيكون الكرب العظيم هو الغرق . والله أعلم .

٣- قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوْنِي وَأُنِيَ إِلٰهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُوْنُ لِيْٓ أَنْ أَقُوْلَ مَا لَيْسَ لِيْ بِحَقِّ ۖ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعَلَّمْ مَا فِيْ نَفْسِيْ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلٰمُ الْغُيُوْبِ ۖ ﴾ المائدة : ١١٦ .

قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ الضميران هنا يحيلان على ما سبق من مقول القول : ﴿ اتَّخِذُوْنِي وَأُنِيَ إِلٰهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(١) .

(١) انظر « تفسير النسفي » لعبد الله بن محمود النسفي ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة . د.ت ، ١ :

المحال عليه السابق لا تتوافر فيه شروط النصية ، فهو كلام غير مفيد ، ولا تكتمل نصيته إلا بالضمير وما بعده ، حيث تتحقق الإفادة الدلالية . ويمكن أن نطلق على ذلك : الإحالة على متعدد ؛ لأنه يشترط في الإحالة على مقطع أن يكون المحال عليه نصًّا لا يمكن تجزئته بخلاف ما عليه الحال في هذه الآية .

الثنائية الثالثة : من حيث المدى الإحالي :

لم ينل عنصرا المدى أو المسافة (القرب والبعد) في العربية حظًّا وافراً من الدرس والتحليل كما نالته بقية محاور النحو ، ولم يجد هذا المحور عناية به إلا في حدود ضيقة في نظرية النحو العربية ، نجدها في حديثهم عن :

- اسم الإشارة الذي يشير إلى قريب أو بعيد .
- المنادى قد يكون قريباً أو بعيداً
- الضمير يعود إلى أقرب مذكور سابق .

ويقف الأمر عند هذا الحد .

ومن الواضح أن أية علاقة نحوية أو أسلوية بين عنصريين من عناصر السياق إنما تكون أكثر وضوحاً مع قرب أحدهما من الآخر . وليس ذلك محصوراً في المسائل الثلاثة المذكورة سابقاً ، وإنما يتخطاها إلى مجالات عديدة ، منها : طرفي الإسناد ، والفعل وما يتعدى إليه ، والموصوف وصفته ، والمعطوف ، والشرط وجوابه ، والمسافة بين المتلازمين ، والجار والمجرور ومتعلقه ، وطرفي الالتفات ، والتكرار ... وهلم جرا^(١) .

(١) انظر « خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم » د. تمام حسّان ، ٩ .

فالقرب بين الطرفين في ذلك يعين على وضوح المعنى ، ولكن أمن اللبس المترتب على وجود قرينة يتضح بها المعنى - سواء كانت لفظية أو معنوية - يسمح في الكثير من الأحوال بمطل أول الطرفين أو الفصل بينهما بعنصر أصلي أو زائد أو بجملة معترضة ، وبذلك يقع الترخص في قرب أحد العنصرين من الآخر مادام المعنى واضحاً واللبس مأموناً .

كما أن البعد أيضاً مع وجود قرائن يؤمن بها من اللبس يسهم بدور بارز في عملية ترابط النص وتماسكه واستمراريته .

ويتضح ذلك من خلال وقوفنا على المسافة الإحالية بين الضمير ومرجعه في الأمثلة الآتية :

١ - قال تعالى في قصة يوسف - عليه السلام - : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْمُتَلَدِّينَ ۖ﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ ﴿يُوسُفُ ۖ ٧-٨﴾ فالضمير في (قالوا) يعود إلى أبعد الجماعتين السابقتين منه وهم (الإخوة) ، لا إلى أقربهما وهم السائلون ، ويجوز عود الضمير إلى أبعد مذكور إذا وجدت قرينة على المعنى وأمن اللبس ، ويعضد ذلك في هذه الآية سبب تركيبى ، وقرينة عقلية .

أما السبب التركيبى : فلو أن مقول القول - وهو ما بعد (قالوا) - جاء بعد الإخوة مباشرة - وهم أقرب مذكور إلى مقول القول - لكان الضمير عائداً إلى أقرب مذكور ، ولبعدت المسافة بين كان واسمها إلى درجة تذهب بوضوح النص ويحسن تماسكه وانسجامه . ومن هنا وقع اسم كان وهو (آيات للسائلين) في مكانه من الآية فاصلاً بين الضمير في (قالوا) وبين مرجعه وهو الإخوة .

أما القرينة العقلية : فتتمثل في أمرين :

أحدهما : أن السائلين كانوا يخاطبون النبي ﷺ ، أي أنهم كانوا معاصرين له ، فلا

يفهم من الكلام أنهم إخوة يوسف وأبناء يعقوب .

والآخر : أن الإخوة أضيفوا إلى ضمير يوسف في لفظ (إخوته) كما أضيف الأب إلى ضميرهم في (أبينا) ، فاجتماع الإضافتين قرينة تدلّ على أن الإخوة هم مرجع الضمير في (قالوا) .

٢ - ومن ذلك ما نجده في قوله تعالى في قصة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَجِدُهَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ البقرة : ٦٧ ، ويستمر بنو إسرائيل في مناكفة موسى - عليه السلام - بتوجيه الأسئلة إليه حول البقرة المطلوب ذبحها حتى نهاية الآية (٧١) ، ثم يأتي قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَئْهَا فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مِمَّا تُكْتُمُونَ ﴾ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ البقرة : ٧٢ - ٧٣ . فالضمير في (بعضها) يعود على (البقرة المذبوحة) التي ابتداء ذكرها في الآية (٦٧) ، ولا شك في أن المسافة بين الضمير في (بعضها) وما يحيل عليه من البعد بحيث يتطلب إرجاع الضمير قدرًا من التذكّر ، وبخاصة أن القتل كان (نفسًا) بلفظ مفرد مؤنث يتفق في هذين المحورين مع الضمير في (بعضها) . غير أن الفعل (اضربوه) أضفى على النفس المقتولة من التذكير ما يحول بينها وبين أن تكون مرجعًا للضمير في (بعضها) ، وبهذا يعود إلى (البقرة) ويكون المعنى المراد : فقلنا اضربوه ببعض البقرة المذبوحة .

وهكذا يعود الضمير إلى المذكور البعيد عند وجود قرينة في السياق تدل عليه .

٣ - نوّكد ما سبق بمثال قصصي أخير نفتسه من قصص سورة الكهف ، إذ يقول سبحانه : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ (٣٢) كِلَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَظْهِرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ الكهف : ٣٢ - ٣٤ . فلو

أعدنا الضمير في (له) على أقرب مذكور مطابق لعاد على (نهر) ، ولكن جملة (فقال لصاحبه) في موقعها من الكلام ربطت بين الضمير في (له) والضمير في (صاحبه) فجعلتهما مرجع واحد ، وبهذا حالت دون عودة الضمير إلى (نهر) .

ونلاحظ من خلال ما سبق أنّ الاعتبارات الأسلوبية تحول دون ارتباط عود الضمير بقاعدة نحوية معيّنة ، وأنّ قول النحاة : (إن الضمير يعود على أقرب مذكور) غير مقبول على إطلاقه ، إذ قد يتطلّب الأسلوب والمعنى عودة الضمير إلى المذكور البعيد كما مثلنا .

نتقل بعد هذه المقدمة إلى بيان المسافة في عملية الإحالة وإسهامها في تماسك النص ، وذلك بتقسيم الإحالة إلى نوعين :

١ - إحالة قريبة المدى :

تجري في مستوى الجملة الواحدة ، حيث لا توجد فواصل تركيبية (Barrières) جمالية ^(١) .

وهذا النوع من الإحالة يعدّ أكثر وضوحًا ، حيث إنّ المسافة بين العنصر الإحالي ومفسّره قريبة ، فلا يحتاج المتلقي إلى جهد حتّى يتعرّف على المفسّر .

ولكنّها أقلّ فائدة في إحداث التماسك والانسجام بين أجزاء النص ؛ لأنّها تقتصر على حدود الجملة الواحدة ، ولا تتعداها إلى النص .

(١) انظر « نسيج النص » ١٢٣ .

٢ - إحالة بعيدة المدى :

تجري بين الجمل المتصلة أو المتباعدة في فضاء النصّ، وتتجاوز الفواصل أو الحدود التركيبية القائمة بين الجمل^(١).

وربما يكون هذا النوع أقل وضوحاً ، لبعد المسافة بين العنصر الإحالي ومفسره ، ولكنها أكثر فائدة في إحداث التماسك بين أجزاء النص ، وذلك لأنها تتعدى حدود الجملة الواحدة ، وتتجاوزها إلى فضاء النص ، لتربط بين الجمل المتباعدة .

فلا بدّ لقارئ النصّ إذا وصل إلى عنصر إحالي أن يرجع إلى الجمل السابقة له حتّى يصل إلى مفسر هذا العنصر الإحالي ، وهكذا يتمّ الربط بين هذه الجمل ليحدث التماسك بين أجزاء النص^(٢).

ولنا أن نتساءل فنقول : إن القصص والروايات قد تبدأ بذكر شخص في البداية ، ثم يختفي اسم ذلك الشخص لتحلّ محله الضمائر وغيرها من العناصر الإحالية ، وقد يطول هذا النص القصصي ويتجاوز صفحات عديدة ونحن لا نجد سوى ضمائر فقط تحيل إلى الشخص المذكور في أول القصة (البطل) ، وقد نصل إلى نهاية القصة وقد تجاوزنا عشرات الصفحات ومئات الجمل ولا نحتاج إلى إعادة ذكر الشخص صراحة ، بل نكتفي بالضمائر وغيرها من الكنائيات ، ومع ذلك نجد أن النصّ متماسك ومنسجم ، على الرغم من المسافة الإحالية البعيدة بين آخر ضمير ورد في القصة ومفسره الذي ورد في أول جملة في القصة ، فما هو السرّ في هذا التماسك والانسجام ؟

(١) انظر « نسيج النص » ١٢٤ .

(٢) انظر « معايير النصية » ٤٥ .

إنّ هناك أمرًا بالغ الأهمية يتعلّق بالجملة الأساس للنص (النواة) (Base of the text) التي تحوي العنصر الإشاري الأبرز في النص ، أو ما يمكن أن يطلق عليه (المرتكز الضوئي) في النص ، هذه الجملة تمثّل محورًا يرتبط به كلّ ما في النصّ من عناصر عن طريق شبكة من وسائل التماسك النصي في الشكل والدلالة ، ومن بينها إحالات الضمائر ، كما تمتلك هذه الجملة بمفردها القوّة التي تسمح للقارئ بالإفلات من قبضة النصّ وربط ما يقرؤه بالعالم الحقيقي . فالمتلقّي حينها يقرأ العبارة الأولى في النصّ ينشئ من خلالها تصوّرًا عقليًا ، وحينها يربط الإحالات بعدها في أثناء قراءته للقصة أو الرواية وغيرها فإنّه يربطها بذلك التصرّ العقلي ، وليس بالصيغة الأصلية للنص .

وهذا التصرّ العقليّ الذي يكتسب القارئ ملامحه الأولى من العبارة الأولى في النصّ إنّما يتطوّر بتطوّر الأحداث في النصّ ، وهنا أمرٌ يجب التنبيه إليه ، فنحن نلاحظ في القصص والروايات أنّ بطل القصة في بدايتها يكون طفلًا صغيرًا ، وفي نهايتها رجلًا شابًا مقبلًا على الزواج ، فالقارئ الذي لا يزال يحيل الضمائر في تلك القصة في بدايتها ونهايتها على ذلك الطفل الصغير لا شكّ بأنّه قارئٌ فاشلٌ ^(١) ، وإنّما يجب عليه أن يحيل الضمائر إلى ذلك البطل الذي رسمه في مخيلته وفي تصوّره العقلي الذي يتطوّر مع تطوّر الأحداث في القصة .

ولا يلتبس هذا التصرّ العقليّ بالإحالة الخارجية ، بل هناك فرقٌ واضح بين الإحالة الداخلية والخارجية ، فالمتلقّي في الإحالة الخارجية يملك تصوّرًا عقليًا لم يأخذه من الخطاب ، وإنّما أخذه من العالم الخارجي . أمّا في الإحالة الداخلية فإنّه يملك تصوّرًا

(١) انظر « تحليل الخطاب » ٢٤٢ .

عقلياً أخذه من الخطاب نفسه . وفي كلتا الحالتين يعود المتلقي إلى التصور العقلي لتحديد مواضع الإحالة^(١) .

وقد مثل براون ويول لذلك بقولهما : إنك قد تلتقي مع صديق يحدثك عن غرابة سلوك رجل كان قد قابله في المتجر، وربّما أخبرك عن سلسلة طويلة من الأحداث مستعملاً ضمير الغائب (هو) للإحالات اللاحقة على ذلك الشخص ، فهل تعتقد أنك في نهاية هذه القصة الخيالية الثرية بالمعلومات ستظل قادراً على تذكر الصيغة الأصلية لعبارة الإحالة بالضبط ؟ ولو كنت عاجزاً عن تذكر الصيغة بالضبط فهل يعني هذا أنك كنت عاجزاً عن فهم ما قيل ؟ إن أي شخص يدور الحديث عنه يمكن التعرف عليه عن طريق عدد هائل من عبارات الإحالة .

فلو أنك قرأت رواية ويعترضك بطل جديد تمّ إقحامه في أسفل إحدى الصفحات ، ثمّ تقلّب الصفحة ، وتجد أنّ هذا الشخص يحال عليه فيما يلحق بضمير (هو) ، فمن غير المحتمل كذلك أنك تحتاج أن تعود مسافة طويلة إلى الوراء في كلّ مرة عن طريق سلسلة الإحالة إلى الكلام السابق ، حتّى تعود إلى العبارة الأصلية لكي تفهم الشيء المحال عليه^(٢) .

هذا فيما يتعلّق بالمدى الإحالي البعيد للإحالة القبلية .

أما إن كانت الإحالة البعيدة المدى بعديّة ، فلا بدّ أن يكون المتلقي في حالة تأهب قصوى ينتظر ويترقّب ظهور المفسّر . ولا شكّ بأنّ هذا النوع هو أخطر أنواع الإحالات وأشدّها صعوبة ، لأنّ الإحالة البعيدة في حدّ ذاتها محطّ نظر عند كثير من

(١) انظر « تحليل الخطاب » ٢٤٠ .

(٢) انظر « تحليل الخطاب » ٢٣٩ .

النحاة لما فيها من الإبهام والإيهام ، فما بالك إذا تأخر مفسرها متجاوزًا حدود الجملة ؟ إن المتلقي حينئذ سيظل في حالة تشويش ما لم يعثر على العنصر الإشاري الذي يفسر له إبهام العنصر الإحالي السابق .

لذا قال دي بوجراند : إنه ليس من المستحسن أن تترك مسافة كبيرة بين اللفظ الكنائي وما يشترك معه في الإحالة^(١) . ويقول : « عندما يعود اللفظ الكنائي على متأخر لا بد أن نحدد مكانًا فارغًا بشكل مؤقت ، ويكون هذا المكان بمثابة مركز تجمع حتى نستطيع تحديد المرجع ، وهنا نكون قد حددنا المحتوى الذي يرجع إليه الضمير ، وهذه الآلية تحدد عملها على نحو أفضل ، إن كانت المسافة بين اللفظ الكنائي والتعبير الذي يعود عليه (العائد) محددة جدًا ، أي : أنها داخل حدود الجملة »^(٢) .

وهكذا تتضح لنا أهمية المدى الإحالي في تحليل النص ، ومدى إسهامه في التماسك النصي .

الثنائية الرابعة : الإحالة من حيث الوجود الذهني :

١ - إحالة بناء :

هي أن يكون المحال عليه ذاتًا لا يعرفها المخاطب ، ويطلب منه أن يبينها بناءً ، وأن يضيفها إلى مخزونه الذهني .

(١) انظر « النص والخطاب والإجراء » ٣٢٧ .

(٢) « الدلالة والنحو » ٢٣٨ .

٢- إحالة تعيين :

هي أن يكون المحال عليه موجودًا في مخزون المخاطب الذهني ضمن ذوات أخرى، ويُطلب منه تعيينه بانتقائه من بين هذه الذوات^(١).

ويتّضح من هذين التعريفين أنّ ثمة التقاء بين الإحالتين ، ووظيفتي المحور الجديد والمحور المعطى ، حيث إنّ إحالة البناء تكون عادة إلى ذات تشكّل المحور الجديد في الخطاب . في حين أنّ إحالة التعيين تكون إلى الذات التي تشكّل المحور المعطى .

ولعلّ مردّ التلاقي بين الإحالتين ووظيفتي المحور ، كامنٌ في مفهومي الجدة وغير الجدة - بالنظر إلى مخزون المخاطب الذهني - أكثر مما هو كامن في هاتين الوظيفتين من حيث هما وظيفتان ، وهذا يمكننا من تعميم هذا التلاقي بحيث يشمل أيضًا وظيفتي بؤرة الجديد وبؤرة المقابلة ، فيكون المحال عليه إحالة بناء بؤرة جديد ، والمحال عليه إحالة تعيين بؤرة مقابلة .

ويمكن توضيح التلاقي بين الإحالتين والوظائف التداولية بالشكل الآتي :

نوع الإحالة	محور جديد	محور معطى	بؤرة جديدة	بؤرة مقابلة
بناء	+	-	+	-
تعيين	-	+	-	+

ويقوم تعريف (إحالة التعيين) على فكرة أنّ المحال عليه موجود في مخزون المخاطب ، ويمكن أن يندرج المحال عليه في هذه الحالة في أحد أقسام مخزون المخاطب الآتية :

(١) انظر « بنية الخطاب من الجملة إلى النص » لأحمد المتوكل ، ١٣٩ .

- ١ - المعارف العامة . مثاله قولنا : فوائد الشمس لا تحصى .
 - ٢ - المعارف السياقية . مثاله : بلغني أنك اقتنيت كتابًا جديدًا . هل بإمكانك أن تعيرني ؟
 - ٣ - المعارف المقامية (الإدراكية) . مثاله : ناولني الكتاب الذي فوق المكتب .
- كما يمكن أن يُستدلَّ على المحال عليه انطلاقًا من أحد الأنماط المعرفية الثلاثة ، كما هو شأن ما يحيل عليه المركب الاسمي (المفتاح) في قولنا :
- وددت فتح الباب ، لكن لم يكن لدي مفتاح .
- المستنبط ممّا يحيل عليه المركب الاسمي (الباب) . فلفظ المفتاح يوحي بوجود الباب ويحيل عليه ذهنيًا .
- وإذا اعتمدنا هذا التقسيم لمخزون المخاطب أمكن أن نميّز بين أربعة أنماط من إحالة التعيين ، هي :
- ١ - الإحالة المعرفية .
 - ٢ - الإحالة السياقية .
 - ٣ - الإحالة المقامية .
 - ٤ - الإحالة الاستدلالية .
- وفيا يخصّ الإحالة السياقية يجدر بنا أن نشير إلى أنها الإحالة التي تُعرف بـ (مبدأ التحاول) (coreference) ، وفي هذا النمط تقوم علاقة إحالية بين عنصر إحالي عائد (ضمير أو غيره) ، وعنصر إشاري محال عليه ، كما هو شأن العلاقة الرابطة بين ضمير الغائب في (تعيرني) في المثال السابق ، والمركب الاسمي المحال عليه (كتابًا جديدًا) في الجملة نفسها^(١) .

(١) انظر « بنية الخطاب من الجملة إلى النص » لأحمد المتوكل ، ١٤١ .

ومبدأ التّحاول يُسهم في تحديد المحال عليه بدقّة ، ونعني به : « الأصرة الكلية التي تجمع مكرّرات الخطاب مضموم بعضها إلى بعض . فهي علاقة (ديناميّة) بين ضمير ومفسّره ، تتغيّر كلّما أدرجت ذات خطابية جديدة »^(١) .

وهناك كثيرٌ من المعطيات القرآنيّة يصعبُ أن نقرّرَ فيها تحديد المحال عليه إلّا من خلال هذا المبدأ ، كما في قوله تعالى في قصة موسى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾^(٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي السَّيِّءِ فَلْيَلْقِهِ الْيَمِّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿ طه : ٣٦ - ٣٩ .

إذا لا يمكننا إحالة الهاء في (فاقذفيه) على الأقرب وهو (التابوت) ، ولا يمكننا كذلك إحالتها على المتحدث عنه وهو (موسى)^(٢) ، وإنّما يحيل الضمير على ذات خطابية ، تستنبط من مساق الخطاب ، ونستطيع تحديدها هنا بأنّها (التابوت الذي بداخله موسى) ، فهو المحال عليه بالهاء .

وكذلك في قوله تعالى في قصّة البقرة : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ البقرة : ٧١ ، نجد أنّ الضمير في (فذبحوها) غير عائد على البقرة كما يذهب إليه أكثر

(١) « العائدية الخطابية مقارنة تداولية معرفية » . ذ. لحسن تويي ، مجلة اللسان العربي ، ع ٤٥ ، سنة

١٩٩٨ م . عن موقع المجلة على شبكة الإنترنت :

<http://www.arabization.org.ma/downloads/majalla/45/docs/33.doc>

(٢) يرى الزمخشري أنّ الضمائر في الآية (٣٩) جميعها تحيل على (موسى) ، وإلّا كانت هناك هجئة

تعارض مع إعجاز القرآن في نظمه . انظر « الإتقان في علوم القرآن » ٢ : ٣٣٨ .

و « عناصر السبك بين القدماء والمحدثين » . د. نادية النجار ، ٢ : ٥٧٤ .

اللغويين ، وإثنا يعود على ذات خطابية يمكن صياغتها على النحو الآتي : (البقرة المعفاة من العمل أي التي لم تُثَرَّ الأرض ، ولم تَسْقِ الحَرثَ ، الصفراء اللون ... إلخ)^(١) .

ومن خلال هذا المبدأ نستطيع أن نفرِّق بين دلالة الضمير ودلالة العبارة الأصلية التي يُحيل عليها ذلك الضمير (المُحال عليه) ومعرفة هذا الاختلاف يُساعدُ في فهم النصوص بصورة أدقِّ وأعمق .

وإذا عرضنا المثال الذي أورده يول وبراون : (نظَّفي ستَّ تفاحاتٍ للأكل ، ثم قطعيها، ثم ضعيها في طبق يتحمَّل حرارة النار) وتأملنا إحالات الضمائر فيه ، نجد أنَّ الماء في (ضعيها) لا تحيلُ من حيثُ الدلالة على التفاحاتِ الستَّ نفسها ، حيث إنَّ التفاحات الست في العبارة الأولى هي تفاحاتٌ قادمةٌ لتؤَها من السُّوق لم تغسل ولم تنظَّف ولم تقطَّع بعد ، أمَّا (ها) في (ضعيها) فتُحيلُ على التفاحات الست التي غُسِلَتْ ونُظِّفَتْ وقُطِّعَتْ .

والقارئ الذي لا يتنبه إلى أنَّ المحالَّ عليه في هذا النصِّ هو ذاتُ خطابية وعناصر متنوِّعة مضموم بعضها إلى بعض يكون إلى حدٍّ كبيرٍ قد فشل في فهم هذا النصِّ^(٢) .

وهذا هو ما عنيته من قبل في أثناء حديثي عن المدى الإحالي ، وعرضت لما نلاحظه في القصص والروايات إذ يكون بطلُ القِصة في بدايتها طفلاً صغيراً ، وفي نهايتها رجلاً شاباً مقبلاً على الزواج ، فالقارئ الذي لا يزالُ يحيلُ الضمائر في تلك القِصة في بدايتها ونهايتها على ذلك الطفل الصغير لا شك بأنَّ إحالته غير دقيقة .

(١) انظر « العائدية الخطابية مقارنة تداولية معرفية » ذ. الحسن توبي ، مجلة اللسان العربي ،

ع ٤٥ ، سنة ١٩٩٨ م .

(٢) انظر « تحليل الخطاب » ٢٤١ .

الإحالة الذهنية وطبيعة المحال عليه :

يقول ديك (Dik,S.C) عن (العالم) الذي تحيل عليه (أو داخله) العبارات اللغوية : إنه « ليس (عالم الواقع) ، وإنما هو عالم ذهني ، تمثيل ذهني أو (نموذج) »^(١) . ويسوق ديك ثلاث ملاحظات تدعم أن ما تحيل عليه العبارات اللغوية هو (نموذج) ذهني ، هي :

- ١ - أننا يمكن أن نحيل بواسطة عبارات لغوية على أشياء أو وقائع لا وجود لها في الواقع ، أشياء أو وقائع من نسج الخيال ، لكنها تشكل تمثيلات ذهنية لدى المتخاطبين . مثال ذلك ما يرد في الخرافات والأساطير .
 - ٢ - لا تتسنى الإحالة على بعض الذوات الموجودة في عالم الواقع إلا إذا توافر في مخزون المخاطب صورة ذهنية لهذه الذوات . فإذا أراد المتكلم أن يحيل على المنارة (منارة مراكش) مثلاً ، استوجب ذلك أن تكون لدى المخاطب صورة ذهنية (أو تمثيل ذهني) لهذا الأثر .
- مفاد هذا أن ما تحيل عليه العبارات اللغوية في الواقع ذاته ليس هذا الواقع ، بل تصوّرات المتخاطبين له ، أي الصورة الذهنية التي يخزنها له المخاطبان .

(1) See : Dik,S.C , The Theory of Functional Grammar .1997.
وانظر « بنية الخطاب من الجملة إلى النص » ١٤٢ . 1:129.

٣ - يمكن للمتخاطبين أن يحيلوا على ذوات واقعية ، من دون أن تكون هذه الذات خاضعة للإدراك المباشر في أثناء عملية التخاطب . معنى هذا أن ما يتيح الإحالة هي الصُّور الذهنية للموجودات لا الموجودات نفسها .
وأضاف د. أحمد المتوكل إلى هذه الملاحظات الثلاث ملاحظة رابعة تدعم أطروحة (ذهنية المحال عليه) ، هي :

٤ - أن العبارات المتقابلة في لغات مختلفة لا تحمل المفهوم نفسه وإن دلت كلها على نفس الذات أو الواقعة .

مثال ذلك : الفرق بين كلمة (حامل) في اللغة العربية ومقابلتها في الفرنسية (enceinte) اللتين تحملان معنيين مختلفين ، الحمل من جهة ، وعدم التمنطق من جهة أخرى ، وإن دلتا على الواقع نفسه (مرحلة ما قبل الوضع) .

ما يستتج من هذه الملاحظة هو أن ما تحيل عليه عبارات اللغات الطبيعية الصور الذهنية التي يكوّنها المتكلمون بها عن عالم الواقع لا عالم الواقع نفسه ^(١) .

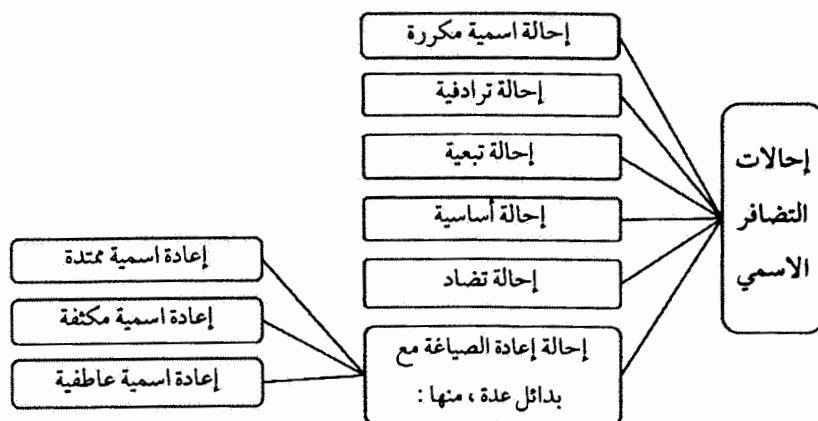
أنواع الإحالة في الدراسات الغربية :

تحت مسمى التضافر الاسمي (Nominal verflechtung) تحدّث زتسيسلاف واورزنيك (Zdzislaw Wawrzyniak) عن وسائل الإحالة بين الأسماء في نصّ ما ^(٢) .

(١) انظر « بنية الخطاب من الجملة إلى النص » ١٤٢ .

(٢) انظر « مدخل إلى علم النص : مشكلات بناء النص » زتسيسلاف واورزنيك ، ترجمة د. سعيد بحيري ، ١٢٣ .

ويبين أن الإحالات بين الأسماء بكل ما في الكلمة من معنى هي ظواهر نصية داخلية ، ومن ثم هي انعكاسات نصية لأفعال الإحالة النصية الخارجية ، أي لأفعال التعلق الداخلي بها هو خارجي . ومن أبرز تلك الإحالات الرئيسة بين الأسماء ما يأتي :



أولاً : الإحالة الاسمية المكررة :

تتحقق هذه الإحالة الاسمية بتكرير الاسم المتحدّث عنه ، ويكون ذلك إمّا عن طريق تكرار الاسم تكراراً حرفياً ، وهو ما أسماه واورزنيك (الصياغة المتساوية في الشكل) ، أو عن طريق الاشتقاق الصرفي لهذا من هذا الاسم المتسيد في النصّ .

وتندرج تحت الأسماء المتساوية في الشكل تلك الأسماء التي تقدّم تبعاً لتكرير التعيين الاسمي الانتقال من المستوى النصّي إلى الجدّة النصيّة إلى المعلومة النصيّة . ويتحقّق هذا الانتقال المسمّى بـ (التبئير) (Topikalisierung) في الألمانية غالباً بمساعدة أداة التعريف (أل) أو اسم الإشارة . مثال ذلك :

- ١ - في يوم من الأيام عاش رجلٌ . حكم الرجلُ بلداً كبيراً .
- ٢ - في يوم من الأيام عاش رجلٌ . حكم هذا الرجل بلداً كبيراً .

وتعرف هذه الأداة في العربية بـ (أ ل) العهدية . ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَيَبْلَا ۖ ﴾ الزمل : ١٥ - ١٦ . وسأخصص مبحثاً مستقلاً للحديث عن دورها في عملية الإحالة.

ويمكن أن يصبح هذا الاسم من خلال تكراره باستمرار معلومة مؤكدة (datum assertionis) أو ما يسمى بالوصف المحدد (definite description) ، ويكون حينذاك هو الاسم المتسيد في النص ، ويمكن أن يصبح موضوعاً للنص ، وقد مثل له واورزنيك بمثال قصصي فيه شيء من الصنعة ، يقول :

(في يوم من الأيام عاش ملك . حكم الملك بلداً كبيراً . عاش سكان هذا البلد . وعملوا للملك وحده . وكان الملك يقرر بنفسه دائماً مصائر من يحكمهم . وللملك السيطرة الكاملة على الدولة وعزتها . كان الملك الحاكم الأعلى وقائد الجيش . كان الملك أكبر معلم لشعبه . وكان على المحكومين أن يسلموا للملك سنوياً ثمار عملهم . من الملك وحده يمكنهم أن يتوقعوا المنّة أو النعمة ، المكافأة أو العقوبة ، الرفعة أو الإذلال . ينبغي عليهم أن يخدموا الملك بإخلاص آناء الليل وأطراف النهار) .

نلاحظ أن الاسم المكرر في كل جمل النص (ملك) قد جاء في صيغ ومواقع إعرابية متباينة . وأنّ (الملك) والمحكومين هما عنصران متسيدان في النص . حيث يُستأنف (ملك) من خلال إحالة اسمية مكررة صريحة ، ويقدم المحكومون على نحو متنوع في النص . فإلى جانب التعيينات الاسمية البديلة كالضمائر (هم) ونحوها نجد تلك التعبيرات الاسمية ، مثل : (سكان هذا البلد) ، و (الشعب) التي تحيل بوساطة إعادة الصياغة على المحكومين ، وهو سأوضحه في الحديث عن (إحالة إعادة الصياغة) ، أما الآن فيهمنا التمثيل على بناء قطعة نصية مترابطة عن طريق الإحالة الاسمية المكررة ،

وتكرير التعيين الاسمي . وهو ما حدث في المثال السابق ^(١) .

ثانيًا : الإحالة الضميرية :

هذا النوع من الإحالة يشبه النوع السابق ، ولكنه بدلًا من أن نحيل على الاسم المتقدم بتكرار الاسم بلفظه وحروفه نفسها إنما نحيل عليه بأداة بديلة كالضمير تغنيها عن التكرار اللفظي ، وهو ما أشار إليه واورزنيك بـ (الإحالة البديلة عن الاسم) ، ويرى أن التعيين الاسمي البديل هو إعادة نصية لاسم ما من خلال الضمير ، ويمكن أن ينظر أساسًا إلى ضمائر الشخص الثالث ، التي تسمى في العربية بضمير الغائب ، وضمائر الملكية للشخص الثالث ، وضمائر الموصول المحيلة إلى مذكور سابق ، على أنها ضمائر تنصيب مخصصة بوجه خاص .

والضمائر كثيرًا ما تتعاون مع الأسماء المتكررة في النص لتشكّل معًا شبكة أو ضفيرة اسمية إحالية . وحينما يضمّ النص عدّة شبكات إحالية فإنّ واحدة منها في الغالب هي موضوع النص .

ونلاحظ اهتمام واورزنيك بتحديد المحور النصّي من خلال عملية الإحالة ، سواء أكانت عن طريق التكرار الاسمي كما سبق بيانه ، أو عن طريق الضمائر المكررة . وهذا جانب مهمّ ينبغي العناية به في تحليل النص ، فلا بدّ من التركيز على دور الإحالة في الكشف عن المحور الرئيس الذي يدور حوله موضوع النص .

وقد أجرى تحليلًا إحاليًا على نصّ للكاتب إلياس كانيتي ^(٢) بعنوان : (المتأله) ، ونبّه في تحليله على أمور مهمة ينبغي على محلي النصوص أخذها بالحسبان ، ومن تلك

(١) انظر « مدخل إلى علم النص : مشكلات بناء النص » ١٢٥ .

(٢) كانيتي (١٩٧٦ : ٨٧) .

الأمور :

- عدد الأسماء المكررة التي تحيل على العنوان (الكلمة المفتاح) .
- عدد الضمائر التي تحيل على العنوان .
- محاولة الربط وإيجاد علاقة بين عدد المرات التي تكرر فيها الاسم المحيل على العنوان وعدد الفقرات التي بُني منها النص .
- عدد المرات التي تكرر فيها الاسم المحيل على العنوان في كل فقرة .
- موقع الاسم المكرر أو ضميره من الفقرة ، هل هو في أولها أو وسطها أو آخرها ؟

ونبه أيضًا على ما يسمّى بـ (الإحالة الضمنية) ، فيرى أنّه يجب أن يولي محلّل النص اهتمامًا خاصًا لتلك التعبيرات الاسمية التي لم تكرر في النص بشكل صريح وإنما تُحيل على الكلمات المفتاحية بشكل ضمني^(١) .

ثالثًا : الإحالة الترادفية :

- هي صيغ بديلة ذات أساس دلالي أو برامجتي ندرکها من خلال مترادفات نصية .
- وتقوم تلك الصيغ من خلال علاقة متبادلة لتطابق إحالي مناسب للنص المحدد .
- أو نقول : إنّ الترادف الإحالي هو اتفاق لفظين أو أكثر في المحال عليه . نحو : الأسد والليث والغضنفر التي تحيل جميعها على ذلك الحيوان المعروف^(٢) .
- ومن أمثلة ذلك ما نجده في هذه القطعة النصية لكانيتي^(٣) ، يقول :

(١) انظر « مدخل إلى علم النص : مشكلات بناء النص » ١٢٥ - ١٣٠ .

(٢) انظر « المعنى وظلال المعنى » ٤٠٥

(٣) كانيتي (١٩٧٦ : ٧٦)

« تجلس المتعبة في مطعمها وهي متبهة . فهي لم تعد شابة ، كما أنها ليست عجوزاً مطلقاً ، ولكنها كبيرة السن بما يكفي لتتحسر على عمل يفوق الحد . يحببها الزبائن الدائمون الذين يدخلون المطعم » . فلو تأملنا قوله : (لم تعد شابة) و (عجوزاً) و (كبيرة السن) لأدركنا أن هناك نوعاً من الترادف الإحالي . وهو أشبه ما يكون بإحالة إعادة الصياغة ، بحيث يصعب التفريق بينهما في كثير من الأحوال .

ويرى واورزنيك أن هناك فرقاً في درجة ضئيلة من التحديد المفهومي القائم على التجريب (Operationalisierung) بين الإحالة الترادفية وإحالة إعادة الصياغة .

وجدير بالذكر أن الترادف الإحالي لا يمكن الاعتماد عليه وحده في الحكم على الكلمات بأنها مترادفة ترادفاً حقيقياً أو لا ؛ لأن كثيراً من الكلمات تحيل على شيء واحد ، ولكننا نضطر في كثير من الأحيان إلى استخدام إحداها من دون غيرها للتعبير بدقة عما نريد التعبير عنه ، أو لأنها الكلمة الوحيدة من بين مرادفاتها الإحالية الملائمة لهذا الاستخدام . ومن ذلك مثلاً الكلمتان : (والد) و (أبت) ، فالأولى تستخدم في المواقف الرسمية ، وعند غياب الأب غالباً ، والثانية خاصة بالنداء ، ومع ذلك فإن الاختيار بينها ليس محكوماً بالمرجع الذي تحيل عليه ، بل إن ذلك راجع إلى عوامل أخرى « كشخصية المتكلم ، وحضور أبيه أو غيابه ، ومشاعره نحو أبيه ، ورسمية الموقف »^(١) .

والمترادفات النصية هي تعبيرات استبدال سبقت صياغتها في النظام ، قابلة للتوسيع أحياناً . والمركبات المعاد صياغتها هي محصلات عمليات محددة للمتكلم ،

(1) See: Burling, R. Man's Many Voices Language in Its Cultural Context. Holt, Rinehart and Winston. New York. 1970 . P: 6.

وانظر « المعنى وظلال المعنى » ٤٠٦ .

مثل : أوجه توسيع المعنى ، وتكثيف المعنى ، وإمكانية تشكيل التعبيرات ^(١) .

ويمكننا أن نضرب مثلاً لإحالة الترادف بها جاء في مفتاح سورة الكهف من قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ۝١ قِيمًا يَنْزِلَ وَأَسَا شَدِيدًا ۖ ۝٢ مِنْ لَدُنْهُ وَيُنْشِرُ الْمَوْتِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ۝٣ مَنَّكَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ۝٤ وَيُنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ۝٥ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ۝٦ ﴾ الكهف : ١ - ٥ .

فلو تأملنا ما ورد في هذا المقطع النصي لأدركنا الصلة الرابطة بينه وبين ما ورد في مفتاح سورة الإسراء التي قبله ومختمها ، وهي قوله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ الإسراء : ١ . وقوله في ختام السورة : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرٌ تَكْبِيرًا ﴾ الإسراء : ١١١ .

فقوله : (على عبده) في سورة الكهف هي إحالة على ما جاء في سورة الإسراء (بعبده) التي تحيل على الرسول الكريم إحالة خارجية تُعرف عن طريق السياق غير اللغوي للآيات ، وذلك بالرجوع إلى قصة الإسراء والمعراج التي اختص الله بها نبينا محمدًا ﷺ ، فعَبْدُهُ الذي أسرى به هو محمد - عليه الصلاة والسلام - ، فحينما اقترن لفظ العبودية بقصة الإسراء علمنا من المراد بـ (عبده) المذكور في أول الإسراء ، وسَهَّلَ علينا بذلك معرفة المراد بـ (عبده) الذي ورد في مطلع سورة الكهف .

(١) انظر « مدخل إلى علم النص : مشكلات بناء النص » ١٣١ .

فالإحالة في أول الإسراء هي إحالة خارجية تُفهم من السياق غير اللغوي للآيات ، والإحالة في أول الكهف إحالة داخلية قبلية بعيدة تفهم من خلال السياق اللغوي البعيد للآيات إذا اعتبرنا أن النص القرآني هو بنية واحدة . أمّا إذا نظرنا إلى النص القرآني على أنه سورة مستقلة ، فإنّ الإحالة في قوله : (على عبده) ستكون خارجية أيضاً ، تفهم من خلال السياق والقرائن غير اللغوية . هذا الرابط الأوّل بين السورتين .

أمّا الرابط الثاني ، فهو لفظ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذي جاء في أول الكهف ، مرتبطاً بما سبقه من الآيات في نهاية سورة الإسراء ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ، وهي إحالة عن طريق إعادة اللفظ .

وأمّا الرابط الثالث ، فهو تنزيه الله - سبحانه - عن اتّخاذ الولد ، ففي مطلع سورة الكهف يقول : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ، وهو يحيل على ما جاء في نهاية الإسراء : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ من باب الإحالة التكرارية وإعادة اللفظ .

ندرك من خلال ذلك شدّة التماسك البنائي في النص القرآني على مستوى السورة الواحدة كما مثلت له في مواضع متفرقة من البحث ، وعلى مستوى السور المتعددة كما أوضحته في هذا المثال . ويمكن أن نعدّ ذلك من قبيل الإحالة الترادفية ، حيث تتعدد الألفاظ والمحال إليه واحد ، وهو ما ذهب إليه د. أشرف عبد البديع ^(١) .

(١) انظر « الوظائف الإحالية لجملة الصلة في القرآن الكريم » ص ٧٥ .

رابعاً : الإحالة التبعية :

يمكن أن تبحث الإحالة التبعية للاسم من خلال جانبيين في الأقل :

١ - العمل التنصيصي لعلاقات الانضواء المعروفة من علم الدلالة المعجمي بين الوحدات المعجمية الاسمية .

٢ - بعض الظواهر المعينة للإحالة الضمنية ، بوصفها أوجه تبعية على أساس نصي .

وفي القطعة النصية الآتية يرد نوعان من التبعية الاسمية التي تفهم على هذا النحو ، يقول كانييتي :

« احتمت المهرة السحما في الإصطبل بين الأفراس . هناك وقفت إلى جانب أحد الحيوانات ، وريت على جانبيه الأملسين . هنا لم تقل كلمة واحدة . وتضرب الذبول هنا وهناك برفق . وترهف الأذان التي تدرك حضورها . وتهتز المناخر . وتتجه العيون إليها في صمت . لم تجفل أن تلاحظ بالأعين التي لم تؤذ أحداً »^(١) .

في هذا النص نوعان من الإحالة التبعية ، ندركهما من خلال التأمل في الألفاظ الآتية :

أ - (المهرة ، والأفراس ، والحيوانات) .

ب - (الأفراس = جانبان ، والذبول ، والأذان ، والمناخر ، والعيون) .

ففي (أ) نلاحظ أنّ المهرة نوع من الأفراس ، والأفراس هي نوع من الحيوانات . ولهذا التبعية الاسمية التقابلية بين هذه المفردات وظيفة تنصيص خاصة بمطابقة الإحالة ، ومن ثم ذات طابع شكلي .

(١) كانييتي (١٩٧٦ : ٧٠) .

أما في (ب) فنجد التقيض من ذلك ، فليست العلاقة هنا مطابقة ، بل هي علاقة كلّ بجزء (Totum – Partes Relation) فالكل هو (الأفراس) والجزء هو (الذبول ، والأذان ، والمناخر ، والعيون) . التي تشكّل مستقلة بذاتها بنيةً تنصيص^(١) .

خامساً : إحالة التساوي :

نلاحظ من خلال المثال السابق أنّ الأسماء الجزئية (جانبان ، وذبول ، وآذان ، ومناخر ، وعيون) يقع بعضها تحت بعض ، في علاقة إحالة تساوي اسمية .

وتطابق التعبيرات الاسمية الواردة هنا على نحو متساوي المحمولات المتساوية في المجالات الفعلية للنص إلى حدّ ما ، نحو :

- تضرب الذبول هنا وهناك برفق .

- وترهف الأذان .

- وتمتزّ المناخر .

- وتتّجه العيون إليها بصمت .

وتظهر هذه الأبنية المتساوية بوجه عام في أوجه السرد ، حيث تمثّل أبسط صورة للسرد ثنائية اسمية متساوية .

(١) انظر « مدخل إلى علم النص : مشكلات بناء النص » ١٣٢ .

سادسًا : إحالة التضاد :

التضاد هو الكلمة المقابلة ، أي : كلمة تعبر عن العكس من كلمة أخرى . وهناك الكثير من الصفات والأفعال المتضادة ، نحو : (حسن وسبى) و (يتكلم ويصمت) . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فِرْيُونٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرْيُونٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ الشورى : ٧ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ الشعراء : ٧٩ - ٨١ .

فين (الجنة) و (السعير) تضاد في الأسماء . وبين و (مرضت) و (يشفين) ، و (يميتني) و (يحيين) تضاد في الأفعال .

وهناك نوعان من التضاد الإحالي ، سأمثل لهما بالمثالين الآتين :

أ - قال تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ آل عمران : ١٨١ .

ب - قال أحد الكتاب : « دويبة قبيحة ، كل واحد يفسح لها طريقها ، وربما كان من غير اللائق أن نصور مظهرها البشع ، ويذكر أنه لم يكن لها أنف أبدًا . جحوظ عينيها ، وآذانها ، ورأسها ، وأسنانها السوداء العفنة ، الرائحة الكريهة المتعفنة التي تفوح من فمها ، نهاية تزييفها قريبًا ، صوتها المتحشرج ، أيديها العجينية - ما علينا ما علينا . هناك هل تستوقف أحدًا ، ويجد مكانه بإصرار أمام كل أوجه الجمال هذه ؟ » (١) .

(١) كانييتي (١٩٧٦ م : ٣٢) .

ففي الآية (أ) نلاحظ أن هناك علاقة تضادّ اسمي متناسق كمياً ، وذلك بين (فقر) و(أغنياء) .

وفي النصّ (ب) نلاحظ أن هناك علاقة تضادّ غير متناسقة كمياً ، وذلك بين (أوجه الجمال) مع سلسلة من التعبيرات الاسمية المتقدّمة التي تجسّد (القبّح) . فالظاهر أنّ القبّح قد جُزئ في النص إلى سمات فردية ، بينما ظلّ الجمال مدججاً لم يجرأ^(١) .

سابعاً : إحالة إعادة الصياغة :

يفهم من إعادة الصياغة بوجه عام : إعادة معنى كلمة ما أو تعبير ما من خلال كلمة أخرى أو استعمال آخر في اللغة ذاتها .

ويفرّق في نظرية إعادة الصياغة بين ما يأتي :

- ١ - إعادة صياغة من خلال أدنى تنوع .
- ٢ - إعادة صياغة من خلال تنوع كلي .
- ٣ - إعادة صياغة من خلال أقصى تنوع .

ولنمط إعادة الصياغة الأوّل فقط أهميّة بالنسبة إلى الإطار المقصود هنا للتضافر الاسمي النصّي ، وهو ما سيقصر عليه حديثنا .

تتميّز أوجه إعادة الصياغة من خلال أدنى تنوع بتغيّرات دنيا من الناحيتين النحوية والدلالية ، ويمكن التفريق داخل الفئة المعنية هنا لأوجه إعادة الصياغة الاسمية الدنيا على أساس نتائج تجريبية في الأقل بين الأقسام الأربعة الآتية :

- ١ - أوجه إعادة صياغة اسميّة مجتزأة (تكثيف اسمي) .

(١) انظر « مدخل إلى علم النص : مشكلات بناء النص » ١٣٤ .

- ٢ - أوجه إعادة صياغة اسمية مسهبة (توسيع اسمي) .
 ٣ - أوجه إعادة صياغة اسمية تعبيرية (تعبيرية اسمية) .
 ٤ - أوجه إعادة صياغة اسمية متكافئة نصياً (أوجه تكافؤ اسمي) .

وكل أنواع إعادة الصياغة الاسمية هي خواص نصية داخلية ، وتقوم في المقام الأول بوظائف وسائل التصنيف ، وهي وسائل أسلوبية مهمة ، لا تعمل بوصفها وسائل تنوع بسيطة فقط ، بل تسهم بوصفها أيضاً وسائل للتلفظ في التعبير والمبالغة والتعبير عن الموجب بضده المنفي ... إلخ في التشكيل الأسلوبي للنص^(١) .

واليك بيان تلك الأقسام الأربعة :

١ - أوجه إعادة الصياغة الاسمية المجتزأة :

تعدّ أوجه إعادة الصياغة الاسمية المجتزأة تعبيرات استبدال يشترطها السياق ، ويقع فيها التعبير الاسمي المستبدل في علاقة تكثيف للمعنى في مقابل التعبير المستبدل منه (في الأقل الجزء بالكل) .

وقد مثل لذلك واورزنيك بمثال محدد للاجتزاء الاسمي (Nominal ellipse) الخاص بإعادة الصياغة ، وذلك في القطعة النصية الآتية :

« لا يعمل الجرس على بابه منذ سنوات ، ربما تحاشى إصلاحه ، وأحياناً ما يُشاهد من نافذة مسكنه ، ويقف الناس أمام يافطة اسمه ، ويضغطون على الزرّ من دون جدوى »^(٢) .

(١) انظر « مدخل إلى علم النص : مشكلات بناء النص » ١٣٥ .

(٢) كانييتي (١٩٧٦م : ٧٩)

فقوله : (يضغطون على الزر من دون جدوى) هو إعادة صياغة لقوله : (لا يعمل الجرس) .

٢ - أوجه إعادة الصياغة الاسمية المسهبة :

تقع أوجه الإسهاب الاسمية (Nominal abundance) في مقابلة مباشرة مع أوجه إعادة الصياغة الاسمية المجتزأة . وتعني أوجه تعيين اسمية موسعة ، ينبغي أن تؤدي - بخلاف أوجه إعادة الصياغة - أغراضاً جانبية أخرى ذات طبيعة أسلوبية أيضاً .

ويتضح ذلك من خلال المثال الآتي الذي أورده واورزنيك عن كانيي :

« يذهب البكاء (ذو الدموع الحارة) يومياً إلى السينما ، لا يجب أن يكون شيئاً جديداً دائماً ، إذ تستهويه أيضاً البرامج الجديدة ، حيث تؤدي غرضها وتجعله يبكي بغزارة ، هناك يجلس المرء في الظلام لا يراه الآخرون ، ويستظر الامتلاء (بكاء) . إنه عالم بارد ، بلا قلب (حرارة) . ولا يرغب المرء أن يحيا من دون أن يشعر بالماء الحار على الوجنتين » ^(١) .

ف (الماء الحار على الوجنتين) ليست إعادة صياغة مسهبة للكلمة المذكورة في موضع سابق من النص (يبكي) فقط . بل تؤدي في النص وظيفة تقابلية مهمة أسلوبياً بالنظر إلى القطعة النصية المتقدمة مباشرة : إنه عالم بارد بلا قلب (حرارة) ... ^(٢) .

(١) كانيي (١٩٧٦ م : ١٧) .

(٢) انظر « مدخل إلى علم النص : مشكلات بناء النص » ١٣٧ .

٣ - أوجه إعادة الصياغة الاسمية التعبيرية :

تعد أوجه إعادة الصياغة الاسمية التعبيرية هي أوجه إعادة ذات ظلال عاطفية لتعبيرات اسمية في نصّ ما ، تعبّر عن موقف تقويمي لمنشئ النص أو الشخص (الوارد) في النص ، أي موقف إيجاب ، أو نفى أو تهكمي ... إلخ ، في مقابل المضمون الاسمي الموضوعي .

وتقسم التعبيرات الاسمية بوجه عام إلى :

١ - تعبيرات بسيطة .

٢ - تعبيرات موسّعة .

حيث تكون التعبيرات الاسمية الموسّعة موصولة ، ومن ثمّ مسهبة . وقد مثل واورزنيك على هذين القسمين بالمقاطع النصية الآتية :

أ - « الممرضة الجرائنية لم تبك أبدًا . فحين وقع زوجها تحت سنابك القدر (مات زوجها) استاءت منه أيّما استياء ، وحنقت عليه منذ ثماني سنوات لذلك ، وحين يسأل عنه الأطفال تقول : كان الأب غيبًا ، فقد أوقعه غباؤه تحت سنابك القدر » ^(١) .

ب - « المؤذي (محب الأذى للآخرين) متطلّع إلى كارثة . هناك منُ السماء له . فحاله بخير ، طالما علم بدرجة كافية عن كارثة لناس . وحين لا يسمع لمّدة طويلة شيئًا ينكمش ويدبل » ^(٢) .

(١) كانيبي (١٩٧٦ م : ٩٠) .

(٢) كانيبي (١٩٧٦ م : ٣٥) .

٤ - أوجه إعادة الصياغة الاسمية المتكافئة نصياً :

يُقصد بها أوجه إعادة المساواة للتعبيرات الاسمية المتشابهة في تعريفها ، والواردة في النص بصورة متتابعة .

وتُشبه أوجه إعادة الصياغة الاسمية التي أطلقنا عليها متكافئة نصياً المترادفات النصية.

ويمكن الفرق الأساسي بين كلا نوعي التضافر الاسمي في أن المترادفات متحققة في النص فعلاً ، بل قد سبقت صياغتها في النص بوصفها عناصر أُعيد تعيينها ، وفي أن أوجه إعادة الصياغة الاسمية المتكافئة نصياً لم ينشأ حقيقة إلا مؤلف النص .

وقد مثل واورزنيك لذلك بالقطعة النصية الآتية :

« للمؤذي (محب المصائب) وجهٌ منحرفٌ وأخنف . وهو يسيء الظنّ بالناس ، ويبحث عن أدلة . وهو لا يعرف الخلق إلا حين يفشلون في شيء . ولا يقنع بالأمراض التي تشيع ، بل الكوارث أفضل . وحين تسفر عن جروح عميقة فإنه تدبّ فيه الحياة ، ولا يوجد أي تفصيل عما يغيب عنه ، فكلما آلت الأمور إلى الأسوأ كانت الحال بالنسبة إليه أفضل »^(١) .

يوجد في هذه القطعة النصية علاقة ترادف بين (الناس) و (الخلق) ، وعلى العكس من ذلك تشكّل الأسماء غير المترادفة انطلاقاً من النص (أمراض ، ومصائب ، وكوارث ، وجروح) سلسلة من أوجه إعادة الصياغة المتكافئة نصياً ، أي المتساوية بالنسبة إلى هذا السياق النصي المحدد ، ذات طبيعة مشابهة بعضها بعضاً في التحديد ، إذ

(١) كانييتي (١٩٧٦ م : ٣٥) .

لا يمكن أن تعدَّ مُحدَّدات لمحدّد موضوع النصّ وهو (الأضرار)^(١).

كما نلاحظ أيضًا تلك العلاقة الإحالية الترادفية بين بعض المفردات في النصّ ،
ف (المؤذي) هو نفسه (محبّ المصائب) ، وهو صاحب (وجه منحرف أخنف) وهو
الذي (يسيء الظنّ بالناس) و (لا يعرف الخلق إلا حين يفشلون) ، كلّ هذه الصفات
تحيل على شخصية واحدة وهي شخصيّة (المؤذي) .

وهكذا اتضح لنا بعض أنواع الإحالة في الدراسات الغربية الحديثة ، ولو دققنا
النظر فيها لأدركنا أن معظمها موجود في اللغة العربية ، كالإحالة بالضمير ، والإحالة
باسم الإشارة ، والإحالة بأل التعريف ، والإحالة بالتضاد ، والإحالة بالتكرار ...
وغيرها .

(١) انظر « مدخل إلى علم النص : مشكلات بناء النص » ١٣٨ .

المبحث الرابع

أثر السياق في دراسة الإحالة في القصة القرآنية

أولاً : النصّ والسباق :

لاقي السياق عنايةً ظاهرةً من اللغويين والمفسّرين الذين درسوه لاستنباط الدلالات الحقيقية والمجازية ، مطبّقين ذلك على القرآن الكريم وغيره من النصوص . ونفوا أن يكون لمفردات القرآن علاقةً في إعجازه ، وذهبوا إلى أن إعجازه إنّما جاء من نظمه وترتيبه^(١).

(١) انظر «علم اللغة وعلم النقد الأدبي» د. عبده الراجحي، مجلة فصول، مج ١، ع ٢، يناير ١٩٨١م، القاهرة، ص ١٢٠ - ١٢١. ونحن إن كنّا نؤمن بأن المفردة إنّما اكتسبت إعجازها في القرآن بسبب النظم تتوقف في غيره ؛ لأنّ المفردة خارج السياق لها دلالات احتمالية ، وقد تستعمل في سياق تضعف فيه القرائن اللغوية والحالية ، وعندئذ يبقى في المعنى شيء من الاحتمال، ولا يتأكد معنى معيّن إلّا بقرائن سياقية أخرى. ولست مع مبالغة بعض اللغويين في نفي أي دلالة للمفردة خارج السياق. انظر « دلالة السياق في القصص القرآني » ٢٠.

وقد تنبّه المفسّرون إلى الظروف الملائمة لنزول النصّ القرآني ، وأنه يجب على من يتصدّى لاستخراج الأحكام من القرآن الكريم أمورٌ لا ينبغي أن يغفل عنها، هي في الواقع (مقامٌ) للفهم ، منها :

- معرفة أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا .
- معرفة أنّ القرآن قد يفسّر بالسُّنة ، أو بالشُّعر ^(١) .
- معرفة أسباب نزول الآيات .
- معرفة النظم الاجتماعية عند العرب ^(٢) .

كما تنبّهوا إلى ما يطلق عليه (مسرح الأحداث) بعنصريه الزماني والمكاني ، وقرّروا أهمية ذلك في التفسير .

ولم يغفل اللغويون العناية بالسياق ، ويبنّوا أنّ المعاني لا يمكن الوصول إليها إلا بمعرفة الظروف التي أحاطت بها ، ومن ثمّ لا ينبغي أن يكتفي اللغوي بـ (السماع) بل ينبغي أن يجمع إليه (الحضور والمشاهدة) ، أي : يحيط بظروف الكلام وملايساته .

ومن ذلك ما نجده عند سيبويه في قوله : « فاعرف فيما ذكرت لك أن الفعل يجري في الأسماء على ثلاثة تجارٍ : فعلٌ مظهرٌ لا يحسن إضماره ، وفعلٌ مضمرٌ مستعملٌ إظهاره وفعلٌ مضمرٌ متروكٌ إظهاره .

(١) قال ابن عباس : « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب » وكان إذا سُئل عن شيء من القرآن أنشد شعراً . انظر « العمدة » ١ : ٣٠ . و« المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » د. جواد علي ، ٨ : ٦٢٢ - ٦٢٣ .

(٢) انظر « اللغة العربية : معناها ومبناها » ٣٤٨ ، و« اللغة والنقد الأدبي » د. تمام حسان، مجلة فصول، مج ٤، ع ١، ١٩٨٣ م، القاهرة، ص ١٢٧ .

فأما الفعل الذي لا يحسن إضماره فإنه أن تنتهي إلى رجل لم يكن في ذِكْرٍ ضَرْبٍ ولم يخطر بباله فتقول : (زيداً) . فلا بُدَّ له من أن تقول له : (اضرب زيداً) .

وتقول له : (قد ضربت زيداً) .

أو يكون موضعاً يقبح أن يعرَى من الفعل نحو : (أن) و (قد) وما أشبه ذلك .

وأما الموضع الذي يَضْمَرُ فيه وإظهاره مستعمل ، فنحو قولك : (زيداً) ، لرجل في ذِكْرٍ ضَرْبٍ ، تريد : (اضرب زيداً) ... ^(١) .

فنلاحظ هنا أن نصبَ (زيداً) كان على إضمار الفعل المتروك إظهاره ، وتقديرُ هذا الفعل يعتمدُ على سياق الحال والموقف الملابس لعملية النطق ، فإذا كان الموقف فيه حديثٌ عن (الضرب) وذِكْرٌ له فإن تقدير الفعل سيكون (اضرب زيداً) ، وإن لم يكن في الموقف الكلامي ذِكْرٌ للضرب فلا بُدَّ للمتكلِّم من إظهار الفعل ، ولا يصحَّ تقديره .

وأشير هنا إلى إمكان تفسير قدرة المتلقي على فهم التعبيرات اللغوية الناقصة في ظل نظرية الحشو (redundancy) وهو « كمية من المعلومات المبلغة ، زائدة عن الحد الأدنى المطلوب » ^(٢) .

كما يمكن إرجاع حذف ما يُعرف بالعامل النحوي الذي يجوز حذفه في كثير من مواضعه إلى هذه النظرية نظرًا إلى إدراك المرسل أن المتلقي سيعتمد على خبرته وعلى القرائن في تقدير ذلك العامل المحذوف .

(١) « الكتاب » ١ : ٢٩٦ .

(2) Hartmann, R. R. K. and Stork, F.C. Dictionary of Language and Linguistics. Applied Science Publishers (Redundancy) .

وانظر « المعنى وظلال المعنى » ١٥٦ .

كما فطن ابنُ جني إلى ما رأيناه عند اللغويين المعاصرين من عناية بأثر الموقف - بما فيه من حضور ومشاهدة - في الاستغناء أحياناً عن بعض المنطوقات التي تكون معروفة بين المشاركين أو وقوع حذف فيها . وكان ابنُ جني يجعل من ذلك ما رواه سيبويه ، أن أحدهم يقول : (ألا تا) ؟ أي : ألا تفعل ، فيقول الآخر : (بلى فا) ، أي : بلى فأفعل ، ونحوه^(١) .

قال ابنُ جني : « أولاً تعلم أن الإنسان إذا عناه أمرٌ فأراد أن يخاطبَ به صاحبه ويُنعِمَ تصويره له في نفسه استعطفه ليقبل عليه فيقول له : يا فلان ، أين أنت ؟ أرى وجهك ، أقبل عليّ أحدثك ، أما أنت حاضر يا هنا . فإذا أقبل عليه وأصغى إليه ، اندفعَ يحذنه أو يأمره أو ينهاه أو نحو ذلك .

فلو كان استماعُ الأذن مغنياً عن مقابلة العين مُجَزَّئاً عنه لما تكلفَ القائل ، ولا كلفَ صاحبه الإقبالَ عليه والإصغاء إليه . وعلى ذلك قال^(٢) :

العينُ تبدي الذي في نفسِ صاحبها من العداوة أو ودِّ إذا كانا

وقال [أبو خراش خويلد بن مرة] الهنلي :

رَفَوْنِي وقالوا: يا خويلدُ لا تُرغ فقلت- وأنكرتُ الوجوه-: هُمُ هُمُ

أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه ، وجعلها دليلاً على ما في النفوس .

وعلى ذلك قالوا : (رُبَّ إشارة أبلغ من عبارة) ، وحكاية الكتاب من هذا الحديث وهي قوله : (ألا تا) و (بلى فا) .

وقال لي بعض مشايخنا رحمه الله : أنا لا أحسنُ أن أَكَلِّمَ إنساناً في الظلمة .

(١) انظر « الخصائص » ١ : ٢٨٥ . و « الكتاب » ٣ : ٣٢١ .

(٢) انظر « البيان والتبيين » للجاحظ ، تج : عبد السلام هارون ، ١ : ٧٩ .

ولهذا الموضع نفسه ما توقف أبو بكر عن كثير مما أسرع إليه أبو إسحاق من ارتكاب طريق الاشتقاق، واحتج أبو بكر عليه بأنه لا يؤمن أن تكون هذه الألفاظ المنقولة إلينا قد كانت لها أسباب لم نشاهدها، ولم ندر ما حديثها، ومثل له بقولهم: (رفع عقيرته) إذا رفع صوته.

قال له أبو بكر: فلو ذهبنا نشق لقولهم: (ع ق ر) من معنى الصوت لبعد الأمر جداً، وإنما هو أن رجلاً قُطعت إحدى رجليه، فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم نادى وصرخ بأعلى صوته، فقال الناس: (رفع عقيرته). أي: رجله المعقورة.

قال أبو بكر: فقال أبو إسحاق: لست أدفع هذا.

ولذلك قال سيبويه في نحو من هذا: أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر، يعني ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال والأوائل.

فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو وابن أبي إسحاق ويونس وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه وأبو الحسن وأبو زيد وحلف الأحمر والأصمعي ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها وتقصد له من أغراضها ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤدّيه الحكايات ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب وغوامض ما في أنفسها، حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقاً فيه غير متهم الرأي والنحيزة والعقل.

فهذا حديث ما غاب عنا فلم يُنقل إلينا وكأنه حاضر معنا مُناج لنا^(١).

(١) «الخصائص» ١: ٢٤٦.

وهذا الكلام يقودنا إلى التنويه بفطنة القدماء إلى محدّد دلالة الحال الذي يدنو من السياق الموقفى عند المحدثين . وقد عرّض ابنُ جني في (باب في أنّ المحذوف إذا دلّت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به) لما أسماه بـ (دلالة الحال) وجعل « من ذلك أن ترى رجلاً قد سدّد سهمًا نحو الغرض ثم أرسله ، فتسمع صوتًا ، فتقول : (القرطاس والله) ، أي : أصاب القرطاس . ف (أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتة ، وإن لم يوجد في اللفظ ، غير أنّ دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به »^(١) .

فالمتكلّم هنا يتوصّل إلى الحال بالرؤية ، ويدلّ عليه بالمنطوق الذي داخله الحذف ؛ لأنّه يدرك أنّ المستمع - وهو صاحب السهم - يمكنه أن يكمل المحذوف بدلالة الحال ، وهي إصابته الغرض . والرؤية ودلالة الحال على المحذوف عوامل ومحددات موقفية تداولية التفت إليها ابنُ جني منذ ألف سنة أو يزيد !^(٢) .

فضلاً عما سبق فقد عرفوا في اللغة المنطوقة ظاهرةً أسموها (الاستعانة) ، وهي تسمية تعود إلى المبرّد (ت ٢٨٥ هـ) ، وهي : أن يدخل في الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه ، ليتذكر به ما بعده ، وهذا ما لاحظته المبرّد في كثير من كلام العامة ، مثل قولهم : (ألسّ تسمع ؟) (أفهمت أين أنت ؟) ، وما أشبه ذلك^(٣) .

ولعلّ هذا يماثل ما أشار إليه جاكبسون في وظيفة إقامة الاتصال ، وهي وظيفة التنبيه التي تهدف إلى تأكيد الاتصال أو إبقائه أو إيقافه . وكان جاكبسون - بناء على هذا - يصنّف كلّ العلامات التي تقوم أساساً بإنشاء الاتصال ، أو تسعى إلى إطالته أو

(١) « الخصائص » ١ : ٢٨٤ . وانظر « الكتاب » ١ : ٢٥٧ ، ٢٩٥ .

(٢) انظر « العبارة والإشارة » د. محمد العبد ، ١٣٨ - ١٤٠ .

(٣) انظر « الكامل في اللغة والأدب » ١ : ١٩ .

إيقافه ، كما تعتمد إلى التأكد من فاعلية الاتصال : (ألو ، هل تسمعني ؟) أو إلى شدّ انتباه المتكلم أو الثبّت من عدم إهماله الخطّ (قل ، هل تسمعني ؟) أو كما يقال بأسلوب شكسبير : (أعربي سمعك) ، وفي الطرف الآخر من الخطّ الإجابة على شكل : (هُم ، هُم)^(١).

فهذه النصوص تُؤكّد إدراك اللغويين ومنهم سيبويه والمبرّد وابنُ جني لـ (سياق الحال) ، وهناك مواضع أخرى تناولوا فيها العوامل التي تؤثر في (المعنى) كالنبر والتنغيم والاستعانة بإشارات الوجه واليدين وغير ذلك .

كما عني البلاغيون بدراسة السياق بنوعيه : اللغوي وغير اللغوي ، واشتهر عنهم مقولة : « لكلّ مقام مقال »^(٢) ، و « لكلّ كلمة مع صاحبها مقام »^(٣) ، فجاؤوا بعبارتين مُحْكَمَتَيْن ، تصدقان على دراسة المعنى في كلّ اللغات ، لا في العربية الفصحى فقط ، ولم يكن مالىنوفسكي وهو يصوغ مصطلحه الشهير context of situation (سياق الحال / الموقف) يعلم أنّه مسبق إلى هذا المفهوم بألف سنة أو ما فوقها ، وقد دوّنه من عرفه من العرب في كتبهم بمصطلح (المقام) ، ولكنّ كتبهم لم تجد من الدعاية على المستوى العالمي ما وجده اصطلاح مالىنوفسكي من تلك الدعاية بسبب انتشار نفوذ

(١) انظر « علم الإشارة : السيمولوجيا » بيير جيرو ، ترجمة : د. منذر عياشي ٣٢٠ . دار طلاس ، دمشق ، ط ١٩٩٢ م .

(٢) قال العجلوني : « لكل مقام مقال » رواه الخطيب في الجامع عن أبي الدرداء ، والخرائطي في المكارم ، وابن عدي في الكامل ، عن أبي الطفيل موقوفاً . « كشف الخفاء » ٢ : ١٩٢ . ووردت كذلك في أبيات للحطينة (ت ٣٠ هـ) مخاطباً بها عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه .

(٣) انظر « البلاغة والأسلوبية » د. محمد عبد المطلب ، ٢٢٨ .

العالم الغربي في كلّ الاتجاهات ، وبراعة الدعاية الغربية الدائبة ^(١) .

فالزنجشري مثلاً جعل السياق اللغوي أساساً لمنهجه في (أساس البلاغة) ، حيث يورد الكلمة في سياقها ^(٢) . كما اهتم بالسياق اللغوي في توجيه إعراب مفردات القرآن في تفسيره (الكشاف) ^(٣) .

وابن الأنباري في دراسته لـ (الأضداد) ، كان يهتم إلى سياق الكلام أو مقامه ^(٤) .

ولم يغفل الجاحظ الظواهر غير اللغوية ، بل أشار إلى ذلك في حديثه عن الإشارة باليد والعين والرأس والحاجب والمنكب والثوب والسيف ^(٥) . كما دعا إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ونقل عن صحيفة بشر بن المعتمر قوله : « ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات » ^(٦) .

وابن خلدون تناول في مقدّمته سياق الموقف ، وأسماه (بساط الحال) ^(٧) .

إذن فالعرب اهتموا بدراسة المعنى اهتماماً بالغاً لأنه يتّصل بالأصل الذي صدرت عنه حركتهم العلمية كلها في كتب التفسير والأصول والفقه والشروح المختلفة .

(١) انظر « اللغة العربية معناها ومبناها » ٣٧٢ .

(٢) انظر « أساس البلاغة » للزنجشري ، ٣ .

(٣) انظر « العربية وعلم اللغة الحديث » د. محمد محمد داود ، ٢٠١ .

(٤) انظر « الأضداد » لابن الأنباري ، ٢ .

(٥) انظر « البيان والتبيين » للجاحظ ، ١ : ٧٧ . وانظر « نظرية علم النص : رؤية منهجية في بناء النص الشري » ٢٢ .

(٦) « البيان والتبيين » للجاحظ ، ١ : ٩٣ . وانظر « العربية وعلم اللغة الحديث » ٢٠٢ .

(٧) انظر « مقدّمة ابن خلدون » ٣٤٤ - ٣٤٥ .

وكانت أعمالهم تعرض لـ (أسباب النزول) أولـ (مراتب البيان) أولـ (مقتضى الحال) أو غير ذلك من الجوانب التي تمس ظروف الكلام من قريب .

وفي الدرس اللساني الحديث لاقى السياق عناية بالغة ، وما يهمني من ذلك في هذه الدراسة هو علاقة النص بالسياق .

فقد ظهرت مفهوماتٌ جديدةٌ للنص ، ولطريقة تحليله نحويًا ، شكَّلت النظرة إلى اللسانيات الراهنة ، فالنصّ المدروس نسيجٌ لغوي متماسك قبل كلّ شيء ، وتقتضي طبيعته اللغوية أن يشخّص بالأدوات اللسانية التي تقرب الفهم وتكشف المعنى ، وعلى رأسها منهج السياق ^(١) .

والنصّ بمفهومه الحديث يتجاوز كلّ حدود المعيارية لنحو الجملة ، كما أنّه يتجاوز كلّ العادات القرائية التقليدية وطرق التحليل اللغوي المعروفة عن طريق تقسيمه إلى وحدات ، ومن خلال المفاهيم اللغوية ندرك أنّ النصّ إبداعٌ يتفاعل مع اللغة وينسجم معها من خلال تحريك غير مقيد في فضاءات لا تُحدّد .

كما أنّه غير قابل لأن توضع له معايير من خارجه تحدّد جملة وتراكيبه ، ولا يفعل ذلك سوى النصّ نفسه بدلالاته القصصية ، ومن هنا فإنّ النصّ المنجز لا يتمّ تحليله لغويًا إلا عن طريق هذا التفاعل بين المبدع والمتلقي ، بين جسد النصّ ومدلولاتها الحديثة والزمانية والمكانية .

(١) انظر « أثر السياق في فهم النص القرآني » د. عبد الرحمن بودرع ، مجلة الإحياء ، ع ٢٥ ، ١٤٢٨ هـ ،

إنّه باختصار شديد كائنٌ حيٌّ يتشكّل مع القراءة الواعية ، والتحليل الهادف الذي يجعل للسياق والموقف اللغوي دورًا أساسيًا عند التحليل ، هذا السياق هو الذي يحدّد مكونات النصّ ويوجدتها^(١).

يقول جون لاينز (John Lyons) : إنّ النصّ ومحتوياته - من وجهة نظرنا - إنّما هما أمران متكاملان ، فكلّهما يعضد الآخر ويقوّيه ، ومن ثمّ فإنّ النصوص تعدّ مكونات للسياقات التي تظهر فيها ، أمّا السياقات فيتمّ تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بوساطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتاب في مواقف معينة^(٢). وهو ما أكّده براون ويول بقولهما : إنّ « النص يخلّق سياقه الخاصّ به »^(٣). ولهذا فإنّ المكونات الدلالية لأيّ نصّ لا تظهر إلّا من خلال السياق .

وجاء فيرث (Firth) الذي اعترف أنّه مدين للمالينوفسكي ، لكنّه يحسّ بأنّ سياق الحال عند مالينوفسكي كان ذلك « الجزء من العملية الاجتماعية الذي يمكن تأمله منفردًا » ، أو هو « تلك السلسلة المتتابعة من الأحداث التي تكون على هيئة صور في رسم (rebus) » (أي مجموعة فعلية من الأحداث يمكن ملاحظتها) .

ولقد فضّل فيرث أن ينظر إلى سياق الحال باعتباره جزءًا من أدوات عالم اللغة ، مثله مثل الفصائل النحوية التي يستخدمها . ولقد استخدم باعتباره « تنظيمًا تخطيطيًا

(١) انظر « نحو النص : اتجاه جديد في الدرس النحوي » د. أحمد عفيفي ، ٤٧ .

(2) See: Linguistic Semantics , p: 93 .

وانظر « اللغة والمعنى والسياق » لجون لاينز ، ٢١٥ .

(٣) « تحليل الخطاب » ٦٠ .

مناسباً « ينطبق على أحداث اللغة ^(١) .

ومن ثمّ يصرّح فيرث - الذي طوّر مقولات مالمينوفسكي وجعل لنظرية السياق حضوراً في الدرس اللغوي - بأنّ المعنى لا ينكشف إلّا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة ^(٢) .

وقد قسم فيرث السياقَ قسمين :

١ - السياق الداخلي : يتمثّل في العلامة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين الكلمات داخل تركيب معيّن .

٢ - السياق الخارجي : يتمثّل في السياق الاجتماعي ، أو سياق الموقف بما يحتويه، ويشكّل الإطار الخارجي للحدث الكلامي ^(٣) .

وقد أورد جيوفري فينش (Geoffrey Finch) تلك الثنائية ، ولكن مع اختلاف في التسمية ، وجعل السياق قسمين :

١ - السياق اللغوي .

٢ - سياق الموقف (situational context) . وهو ما أطلق عليه فيرث (سياق الموقف) ، أو ما أطلق عليها فرانك بالمر (السياق غير اللغوي) ^(٤) .

وتكمن أهمية سياق الموقف في أنّه يفسّر أموراً لا يستطيع السياق اللغوي وحده تفسيرها ، ويضمّ إليه مجموع العلاقات الاجتماعية القائمة بين المشتركين في الحدث ،

(١) « علم الدلالة إطار جديد » ف . ر . بالمر ، ترجمة : د . صبري إبراهيم السيد ، ٧٧ .

(٢) انظر « علم الدلالة » د . أحمد مختار عمر ، ٦٨ .

(٣) انظر « الكلمة : دراسة لغوية معجمية » حلمي خليل ، ١٦٧ .

(٤) انظر « مدخل إلى علم اللغة » د . محمود فهمي حجازي ، ١٥٩ .

ووسيلة التواصل ، والمكان ، والمحيط الثقافي بكل ما يفرضه من أعراف وتقاليد^(١) .

ومن هنا فمن الأجدي أن تتداخل كل السياقات وتتآزر في التحليل النصي إلى الحد الذي يمكن لنا أن نستخدم كلمة السياق دون تمييز بين السياق اللغوي من جانب ، والسياق الاجتماعي (سياق الموقف) من جانب آخر^(٢) .

ويقول دي سوسير : « إن الكلمة إذا وقعت في سياق ما لا تكتسب قيمتها إلا بفضل مقابلتها لما هو سابق ، ولما هو لاحق بها أو لكليهما معاً »^(٣) .

وهذه المقولة دفعت بعض اللغويين إلى دراسة السياق وعلاقته بالنص^(٤) ، والسياق وعلاقته بالمعنى^(٥) في إطار ما يعرف بـ (النظرية السياقية للمعنى) (The contextual theory of meaning)^(٦) .

وينبغي أن يراعى في السياقات (توافق الوقوع أو الرصف) ، هذا الرصف الذي عرّفه ستيفن أولمان (Stephen Ullmann) بأنه يعني « الارتباط الاعتيادي لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة »^(٧) ، أو : « استعمال وحدتين معجميتين منفصلتين ، استعمالهما عادة مرتبطين الواحدة بالأخرى »^(٨) .

(1) See : Geoffrey Finch : Linguistic terms and concepts , PP: 212 –

وانظر « نظرية علم النص : رؤية منهجية في بناء النص الثري » ٢٣ .. 213

(٢) انظر « مدخل إلى علم اللغة » ١٥٩ .

(٣) « دروس في الألسنية العامة » لفرديناند دي سوسير ، ١٨٦ .

(٤) منهم فان دايك ، في كتابه « النص والسياق » .

(٥) منهم جون لاينز ، في كتابه « اللغة والمعنى والسياق » .

(6) See: John Lyons: Semantics V.II , p: 607 .

(7) Meaning and Style, p: 9 .

(8) See: Dictionary of Language and Linguistics , p: 41 .

وانظر « علم الدلالة » لأحمد مختار عمر ، ٧٤ .

ويرى أولمان أنّ السياق بناء على ذلك ينبغي أن لا يقتصر على الكلمات والجمل السابقة واللاحقة فحسب ، بل ينبغي أن يشمل كلّ ما يتّصل بالكلمة من ظروف وملابسات ^(١) .

وإذا كانت نظرية السياق مهمّة بالنسبة إلى النظر النحوي على مستوى النص فإنّ لها أهميّة على مستوى الجملة، حيث إنّها « تحدّد مجالات الترابط والانتظام بالنسبة إلى كلّ كلمة ، مما يعني تحديد استعمالات هذه الكلمة في اللغة » ^(٢) .

ومن هنا فإنّه « لا يصحّ إغفال السياق الذي ترد فيه الكلمة » ^(٣) ؛ لأن الكلمة تنهل معناها من السياق الذي ترتبط به ^(٤) ، فيتّضح معناها من خلال الاستعمال ، وبناء على ذلك يمكن القول: « إنّ معنى الكلمة هو مجموع استعمالاتها » ^(٥) .

وقد أشار فندريس إلى ذلك بقوله : « الذي يعيّن قيمة الكلمة ... هو السياق ، إذ إنّ الكلمة توجد في كلّ مرة تستعمل فيها في جوّ يحدّد معناها تحديداً مؤقتاً ، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة ، على الرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدلّ عليها ، والسياق أيضاً هو الذي يخلّص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تراكُم عليها ، وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية » ^(٦) .

(١) انظر « دور الكلمة في اللغة » لستيفن أولمان ، ترجمة : د. كمال بشر ، ٦٨ .

(٢) « علم الدلالة » د. أحمد مختار عمر ، ٧٨ .

(٣) « علم الدلالة » د. أحمد مختار عمر ، ٨٠ .

(٤) انظر « علم الدلالة » لبيير جيرو ، ترجمة : د. منذر عياشي ، ٥٦ .

(٥) « علم الدلالة » لكلود جرمان ، وريمون لوبلان ، ترجمة : د. نور الهدى لوشن ، ٤٤ .

(٦) « اللغة » لفندريس ، ترجمة : عبد الحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص ، ٢٣١ .

وأكد ذلك أصحابُ نظرية الحقول الدلالية ، مما يؤدي إلى الإحساس بالترابط بين أجزاء الجملة أو أجزاء النص ، وقد أكد دي بوجراند ودريسلر دور السياق بقولهما : « يجب ألا نعزل النصوص عن السياقات الواقعية ، فنحن نبني النماذج حيث تستخدم اللغة في نصوص واقعية في ضوء المعرفة الإدراكية الواسعة »^(١) .

وقد خلص هاليداي ورقية حسن إلى القول إن مصطلح السياق مع النصّ هما مظهران للعملية نفسها ، فهناك نصّ ، وهناك نصّ آخر مصاحب له وهو السياق (context) . وتشمل فكرة (ما يصاحب النص) أشياء كثيرة ، لغوية وغير لغوية ، في البيئة العامة التي يظهر فيها النصّ^(٢) .

ماهية السياق (context) :

يعدّ مصطلح السياق من المصطلحات العصبية على التحديد الدقيق ؛ نظرًا إلى تشعب جوانبه ، واختلاف نظرة الدارسين له بحسب اتجاهاتهم اللغوية . فقد بحث د. طه عبد الرحمن^(٣) عن تعريف محدّد للسياق فلم يجد . كما صرح جون

(1) See: Introduction to text linguistics , P : 93 .

وانظر « نحو النص : اتجاه جديد في الدرس النحوي » ٤٨ - ٤٩ .

(2) See: Language, context and text, P: 5.

وانظر « علم لغة النص النظرية والتطبيق » د. عزة شبل ، ٨ .

(٣) انظر « ندوة البحث اللساني » منشورات كلية الآداب بالرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات ، رقم ٦ ، ص ٣٠٢ ، د. طه عبد الرحمن . وانظر « السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة » ، د. إبراهيم أصبان ، مجلة الإحياء ، ع ٢٥ ، جمادى الثانية ، ١٤٢٨ هـ ، الرباط ، ص ٥٤ .

لاينز بأنه « لا يمكن إعطاء جواب بسيط عن السؤال : ما هو السياق ؟ » ^(١) . وقال د. حبلى : « إذا كنّا نشعر بالصعوبة الواضحة في تجلية المقصود بالسياق بوصفه مصطلحاً فإنّ مرجع هذه الصعوبة - في نظري - هي محاولة العثور على تعريف للمصطلح من ذلك النوع الجامع المانع كما يقول المناطقة » ^(٢) ، وذلك ما جعله يتجاوز التعريف إلى بيان جوانب أخرى من السياق أقلّ تعقيداً .

وعلى الرغم من عدم وجود ذلك التعريف الدقيق للسياق ، يمكننا أن نعرض بصورة موجزة ما توصل إليه العلماء اللغويون من وصف لجوانبه المختلفة التي ترسم لنا صورة واضحة المعالم عن السياق والمراد به وأهميته في تحليل النصوص .

فالسياق في الدرس اللغوي الحديث يُطلق على « المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية ، سواءً أكانت كلمة أم جملة ، في إطار من العناصر اللغوية أو غير اللغوية » ^(٣) .

ويدلّ غالباً على الإطار الذي جرى فيه الخطاب بين شخصين أو أكثر ، ويشمل الزمن الذي دار فيه الخطاب ، والمفاهيم المشتركة بين المتخاطبين ، والكلام السابق للمحادثة ، فضلاً عن الوحدات اللغوية المكوّنة للنص ^(٤) .

(١) « اللغة والمعنى والسياق » ٢٤٢ . وعلى الرغم من أنّ جون لاينز قد ألف كتاباً بعنوان : « اللغة والمعنى والسياق » ، لم يحدّد مفهوماً واضحاً للسياق ، بل يكاد مفهوم السياق عنده لا يخرج عما عند الباحثين الذين سبقوه . انظر « النظم في المنظور النحوي البلاغي » د. هدى الحديثي ، ٣٤ .

(٢) « البحث الدلالي عند الأصوليين » لمحمد يوسف حبلى ، ٢٨ .

(٣) « دلالة السياق » د. ردة الله الطلحي ، ٥١ .

(٤) انظر « دلالة السياق في القصص القرآني » ١٦ .

وقد اختلفت نظرة اللغويين إلى السياق ، فذهب برونسلا مالىنوفسكي (Malinowsky) - الذي استعمل مصطلح (سياق الموقف) - إلى التأكيد على أهمية الخلفية الثقافية في فهم النصوص ، وأشار من خلال نظريته الواسعة إلى السياق إلى أن معنى الجملة يتحدّد في السياق المعين الذي ترد فيه ، والسياق الذي قصده مالىنوفسكي هو البيئة الطبيعية أو الواقع الثقافي للمجتمع^(١) .

وتتجلى فكرته بوضوح في قوله : « الكلام والموقف مرتبطان ببعضهما ارتباطاً لا ينقسم ، وسياق الموقف لا غنى عنه لفهم الألفاظ »^(٢) .

أمّا هاليداى فيرى أنّ السياق هو: « النصّ الآخر، أو النصّ المصاحب للنصّ الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية »^(٣) .

ويقول جون لاينز : « لا توجد إجابة بسيطة يمكن أن تقدّم عن السياق ، لكن هناك حقيقة مؤكّدة : إنّ النظريات المعروفة عن السياق وخاصة اللغوية تؤكّد الحاجة إلى الربط بين العلوم المختلفة منها علم النفس والاجتماع وعلم المجتمعات الإنسانية (الأنثروبولوجي) »^(٤) ، وكلّ هذه العلوم يمكن أن تساعد سياقياً في تحليل النص من خلال مزجها في عقل المتلقي ونفسيته .

(1) See: Semantics: An Introduction to the science of meaning , p: 50.

(٢) « اللغة ونظرية السياق » د. علي عزّت ، مجلة الفكر المعاصر ، ع : ٧٦ ، يونيو ١٩٧١ م ، ٢٢ . وانظر « دلالة السياق » د. ردة الله الطلحي ، ١٨٢ .

(3) See: Language, context and text, P: 5.

وانظر « علم النص ونظرية الترجمة » د. يوسف نور عوض ، ٢٩ .

(4) See: Linguistic Semantics , p: 229 . ٢٤٢ . وانظر « اللغة والمعنى والسياق » ٢٤٢ .

والربط هنا واضح بين السياق اللغوي والتحليل النصي إلى حد كبير ، فالأحداث الكلامية في اللغة الفصحى يمكن أن تختلف في تفسيرها ومفهومها بحسب الموقف اللغوي ، ولهذا يقول جون لاينز : « ينبغي علينا أن نحصر هذه الأحداث الكلامية من أجل وصف تراكيبها النحوية والدلالية » ، فالأمر ليس مقتصرًا على وصف التراكيب نحويًا ، بل يتطرق أيضًا إلى وصفها دلاليًا ، ويؤكد ضرورة التحديد الدلالي للتراكيب من خلال السياق بقوله : « يحدد السياق معاني الأحداث الكلامية »^(١) ، وعلى هذا فإن على محلّل الخطاب مهمة صعبة ، وهي أن يجعل السياق الذي ورد فيه النص في الحسبان ، وأن تتوافر لديه مجموعة من المعلومات عن السياق يمكن أن يحدد الاحتياج إليها كثرة أو قلة بحسب النص^(٢) .

وحينما تحدّث براون ويول عن دور السياق في عملية الفهم أشارا إلى ذلك صراحة إذ يقولان : « ومن الوحدات اللغوية التي تتطلب أكثر من غيرها معلومات عن السياق ليتيسر فهمها نورد الأدوات الإشارية مثل : هنا ، والآن ، وأنا ، وأنت ، وهذا... وذلك ... فإذا أردنا أن نفهم مدلول هذه الوحدات إذا ما وردت في مقطع خطابي استوجب ذلك منا - في الأقل - معرفة هوية المتكلم والمتلقي والإطار الزماني والمكاني للحدث اللغوي »^(٣) ، على حين توجد وحدات لغوية أخرى لا تحتاج إلى كبير معرفة بالسياق ، وذلك مثل الأحداث العامة ، والأحكام الشاملة ، التي تأتي في سياق الخطاب ، هذا الخطاب الذي يعدّ إنجازًا لغويًا يعادل الكلام .

(1) See: Linguistic Semantics , p: 263 .

(٢) انظر « نحو النص : اتجاه جديد في الدرس النحوي » ٤٩ .

(٣) « تحليل الخطاب » ٣٥ .

أما النصّ المكتوب أو الواقع على الصحيفة - كما تقول جوليا كريستيفا - فيكون دائماً مختلفاً عن كلامنا الصوتي^(١).

ولنا أن نتساءل هنا عن أمر يهّمنا في دراسة النص القصصي في القرآن الكريم هو : كيف ندرس السياق غير اللغوي في نصّ مكتوب ؟

إنّ التعرّف على السياق غير اللغوي في هذه الحالة يتأتّى من خلال الظروف والملابسات المصاحبة للنص ، والمسجلة كتابةً ، وكلّما كان الوصف المكتوب وافيّاً في بيان الموقف الذي تمّ فيه النص اللغوي أصبح السياق غير اللغوي واضحاً ، « فإذا كان (المقال) لا يقع - في أثناء قراءته في وقت لاحق - في مقامه الاجتماعي الذي كان له في الأصل ، فإنّ هذا المقام الأصيل من الممكن بل من الضروري أن يُعاد بناؤه في صورة وصف له مكتوب ، حتّى يمكن للنص أن يُفهم على وجهه الصحيح ، وفي بناء هذا المقام الأصيل بناء جديداً بواسطة وصفه كما كان ، لا بدّ من الرجوع إلى الثقافة عموماً ، والتاريخ بصفة خاصّة ، وكلّما كان وصف المقام أكثر تفصيلاً كان المعنى الدلالي الذي نريد الوصول إليه أكثر وضوحاً في النهاية ، حين تصبح كل عبارة من عبارات النص واضحة بما يجليها من القرائن الحالية التاريخية ، والقرائن المقالية التي في وصف المقام »^(٢).

ومن هنا أوجب العلماء على من يتصدّى لاستخراج الأحكام من القرآن الكريم أموراً لا ينبغي أن يغفل عنها، هي في الواقع (مقام) للفهم ، وتعدّ بمثابة الظروف والملابسة لنزول النصّ القرآني منها : معرفة أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، ومعرفة أنّ

(١) انظر «علم النص» لجوليا كريستيفا، ٦٥ .

(٢) « اللغة العربية : معناها ومبناها » ٣٤٦ ، وانظر « العربية وعلم اللغة الحديث » ٢٠٠ .

القرآن قد يفسّر بالسّنة ، ومعرفة أسباب نزول الآيات ، ومعرفة النّظم الاجتماعية عند العرب^(١) .

وفي معرض حديثنا عن النص المكتوب والنص المنطوق أشير إلى محاولة بعض اللغويين التمييز بين مصطلحي (الموقف) و (السياق) .

فالموقف بمفهومه العام هو : مجموعة العوامل الاجتماعية المختلفة التي تكوّن خلفية الحدث الاتصالي ومحيطه .

والسياق - فيما يرى مورلي (Morley) - هو : مستوى يقع بين الشكل (Form) والموقف (Situation) ، ويستخدم السياق عنده لجدولة مظاهر الموقف التي تؤثر في الشكل المختار^(٢) .

وهذا التمييز هو ما أشار إليه من قبل باحثون آخرون ، على نحو ما جاء في ملحوظة جان كوهين (Jean Cohen) بأنّ الحاضر يؤرّخ في اللغة المنطوقة من خلال الموقف ، بينما يؤرّخ في اللغة المكتوبة من خلال السياق^(٣) .

ونجد هذا التمييز أيضًا عند أوجينيو كوزيريو (Eugenio Coseriu) ، فالسياق عنده يعني : المحيط اللغوي الخالص للعلامة في النص ، أي القول من قبل ، وما يقال بعد ذلك .

(١) انظر « اللغة العربية : معناها ومبناها » ٣٤٨ ، و« اللغة والنقد الأدبي » د. تمام حسان، مجلة فصول، مج ٤، ع ١٤، ١٩٨٣ م، القاهرة، ص ١٢٧ .

(2) See: Morley, G. D. : An Introduction to Systemic Grammar, P: 5

وانظر « العبارة والإشارة : دراسة في نظرية الاتصال » د. محمد العبد، ٨٤ . 6 -

(٣) انظر « بناء لغة الشعر » لجون كوين ، ترجمة : د. أحمد درويش ، ١٨٥ .

أما الموقف فيعني : المحيط غير اللغوي للعلامة أو لسلسلة من العلامات ، بما في ذلك من ظروف وملابسات تصاحب الحدث اللغوي فضلاً عن معلومات يتجاوزها المتكلم والمستمع إذا كانت معلومة بينهما^(١).

وقد اتخذ لودفيج سول (Ludwig Soll) الموقف عاملاً من عوامل التمييز بين الرسالة المنطوقة والرسالة المكتوبة .

ففي الرسالة المنطوقة : يشترك المرسل والمستمع في موقف (غير لغوي) بعينه . وفي الرسالة المكتوبة : ينبغي للكاتب أن يخبر القارئ المتفصل عنه مكانياً بالموقف (وهو ما يمكن أن يحدث بطريقة لغوية فحسب) ، وإن أمكن التخلي عن مساعدة الموقف في الفهم .

ويؤكد سول أهمية معرفة الموقف في فهم اللغة المنطوقة ، وفي الوقت نفسه يشير إلى أن المحادثات المكتوبة لا تفهم من غير المشاركين فيها^(٢).

وعلى الرغم من وجود هذا التمييز بين (الموقف) و (السياق) مازال لغويون يخلطون بينهما ، ويجعلون الكلام عنهما معاً في باب واحد هو السياق^(٣).

(1) See : Coseriu, Eugenio: Textlinguistik, S: 94 .

وانظر « العبارة والإشارة : دراسة في نظرية الاتصال » ٨٥ .

(2) See: Soell, Ludwig: Gesprochene und geschriebenes

Fanzoesisch, S: 20 . . وانظر « العبارة والإشارة : دراسة في نظرية الاتصال » ٨٥ .

(٣) نرى ذلك في بحث بنية السياق عند فان دايك ، وفي قائمة السياق التي صنفها إنكست وجمع فيها بين ما أسماه عناصر السياق النصي ، وعناصر السياق الخارج عن النص . وليست الأخيرة إلا الموقف بالمفهوم السالف ذكره . انظر « النص والسياق : استقصاء البحث في الخطاب الدلالي

وتخلصاً من ذلك اللبس والخلط اقترح د. محمد العبد أن يكون هناك ثلاثة مفاهيم أساسية ، هي : الموقف ، والسياق ، والسياق الموقفى .

فالموقف : يُبنى على كلّ العوامل الاجتماعية والثقافية والفيزيائية والسلوكية الحركية التي تصاحب الحدث الاتصالي بين المشاركين فيه ، والعلاقات بينهم ، ومكان الاتصال ، وزمانه ومدته ، والمسافة الفاصلة بين المتكلم والمستمع ، ونحوها .

أما السياق : فيختصّ بالسياق اللغوي ، أي : بالمحيط اللغوي للمنطوق أو النص ، بما فيه من علاقات نحوية معجمية ودلالية، تربط بين الكلمات والجمل وأجزاء الكلام، مما يبرز أثره في ترابط المنطوقات وتماسكها ، من أجل إنجاز المضمون أو المقصد .

وأما السياق الموقفى : فيقترح أن يُجعل مبنياً على أثر العوامل المحددة للموقف في استخدام تنوع لغوي بعينه دون الآخر .

ويختص الموقف بالاتصال اللفظي المنطوق ، ويختص السياق بالاتصال اللفظي المكتوب ، أما السياق الموقفى فهو مشترك بين كلا النوعين ، ولكن يدلّ عليه فيزيقياً في الاتصال المنطوق ، بينما يخبر عنه لفظياً في الاتصال المكتوب ^(١).

نعود إلى ما كنّا بصده من حديث براون ويول عن دور السياق في عملية الفهم فنقول : إنّ شأن المتكلم - كما يقول هارفي ساكس (Harvey Sacks) - ألا يخبر الناس بما يفترض أنهم يعلمونه . وإن كان الأمر يأتي على غير ذلك ، فالكثير من مادة

والتداولي « لفان دايك ، ترجمة : عبد القادر قنيني ، ٢٥٧ - ٢٥٨ . وانظر :

- Enkvist, Nils Erik: Linguistic Stylistics, P: 58 - 59.

وانظر « العبارة والإشارة : دراسة في نظرية الاتصال » ٨٦ .

(١) انظر « العبارة والإشارة : دراسة في نظرية الاتصال » ٨٦ - ٨٧ .

المحادثة يكون معروفاً لكل المشاركين ، ولكن دي بوجراند يرى أنّ المجهول في هذا الصدد هو التكييف المحدّد لنموذج عالم النص في الخطاب ؛ لأنّ ثمة ما هو جديد من التجميعات والقيود والتعديلات والتوجيهات يستطيع نحو النص الكشف عنه من خلال السياق ومجموعة القواعد الحاكمة لنحو النص^(١) .

إذن فلا بدّ أن يؤجّل تحليل النص إلى ما بعد أن ينتهي منه المتكلّم أو المبدع ، فإذا كان هدف المبدع أن يكشف عمّا بداخله بفعل التعبير فإنّ هذا « الفعل اللازم لا يتعدّى إلى غير صاحبه إلّا بعد اكتماله أو انتهائه، فالفتان في لحظة التعبير لا يؤرّق نفسه بالمتلقي، إنّه منشغل بما في داخله فحسب »^(٢) .

فالتحليل النحوي لا يتمّ إلّا بعد الانتهاء التام من النطق أو الكتابة ، فيبدأ المتلقي في قراءة النصّ وتحليله ، حيث يكون النص قد وضع داخل سياقه اللغوي والاجتماعي فيؤوّل تأويلاً صحيحاً لا نقص فيه ولا التواء .

فمهمّة النص ترتبط ارتباطاً كبيراً بانتهائه وتواصله مع المتلقي ، وقد أكّد ذلك لوتمان بقوله : « ولا يمكن لأيّ نصّ فني أن ينجز مهمّته الاجتماعية إلّا بحضور تواصل جماليّ وتحققه في الجماعة التي يعاصرها »^(٣) .

ومهمّة نحو النص - بناء على ذلك - تحليل النص داخل هذا التفاعل الاجتماعي التواصلي ، مراعيّاً ظروف الكاتب والمتلقي^(٤) .

(١) انظر « النص والخطاب والإجراء » ٤٧ ، ٤٩٣ .

(٢) « نظريات معاصرة » د. جابر عصفور ، ٣٨ .

(٣) انظر « عتبات النص البنية والدلالة » د. عبد الفتاح الحجمري ، ١٤ .

(٤) انظر « نحو النص اتجاهاً جديداً في الدرس النحوي » ٤٧ - ٥١ .

خصائص السياق :

أشرت فيما سبق إلى أن براون ويول أكّدا على أنّ محلّ الخطاب ينبغي أن يأخذ بالحسبان السياق الذي ورد فيه مقطع ما من الخطاب ، والسياق لدهما يتشكّل من (المتكلّم / الكاتب ، المستمع / القارئ ، الزمان ، المكان)^(١) ؛ لأنّه يؤدّي دوراً فاعلاً في تأويل الخطاب ، بل كثيراً ما يؤدّي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين^(٢) .

وفي ذلك يرى ديل هايمس (Dell Hymes) أنّ للسياق دوراً مزدوجاً ، إذ يحدّد مجال التأويلات الممكنة ، ويدعم التأويل المقصود . يقول : « إنّ استعمال صيغة لغوية يحدّد مجموعة من المعاني ، وبإمكان المقام أن يساعد على تحديد عدد من المعاني ، فعندما تستعمل صيغة في سياق ما فإنّها تستبعد كل المعاني الممكنة لذلك السياق ، التي لم تشر إليها تلك الصيغة : والسياق بدوره يستبعد كل المعاني الممكنة لتلك الصيغة التي لا يحتملها السياق »^(٣) .

ويصنّف هايمس خصائص السياق (Features of context) على النحو

الآتي :

- ١ - المرسل : هو المتكلّم أو الكاتب الذي ينتج الصوت .
- ٢ - المتلقّي : هو المستمع أو القارئ الذي يتلقّى الصوت .

(١) سأفصّل القول في هذه العناصر الأربعة فيما سيأتي تحت عنوان : عناصر السياق ؛ لأنها هي الأهم في دراسة السياق النصّي المكتوب .

(٢) انظر « تحليل الخطاب » ٣٥ . وانظر « لسانيات النص » ٥٢ .

(٣) « تحليل الخطاب » ٤٧ .

٣ - الحضور : هم مستمعون حاضرون ، يُسهّم وجودهم في تحديد معنى الحدث الكلامي .

٤ - المقام : هو زمان ومكان الحدث التواصلّي ، وكذلك العلاقات الفيزيائية (الوضع الجسمي) بين الأطراف المشاركة في الحدث الكلامي بالنظر إلى الإشارات والإيحاءات وتعبيرات الوجه^(١) .

٥ - القناة : كيف تمّ التواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي (كلام أو كتابة أو إشارة) .

٦ - النظام (الشفرة) : اللغة أو اللهجة أو الأسلوب اللغوي المستعمل .

٧ - شكل الرسالة (صيغة الرسالة) : ما هو الشكل المقصود (دردشة أو جدال أو عظة أو خرافة أو رسالة غرامية ...) .

٨ - الطابع : يتضمّن تقييم الكلام (هل كانت الرسالة موعظة حسنة أو شرحاً مثيراً للعواطف ...) .

٩ - المفتاح : يشير إلى النعمة أو الطريقة أو النّفس الذي يؤدي به الحدث الاتصالي ، كأن تكون (هازئة أو جادة ، عدم اكتراث أو كدّ واجتهاد ، أداء ساخر أو جادّ أو غير مبالٍ أو أداء باهتنام)^(٢) .

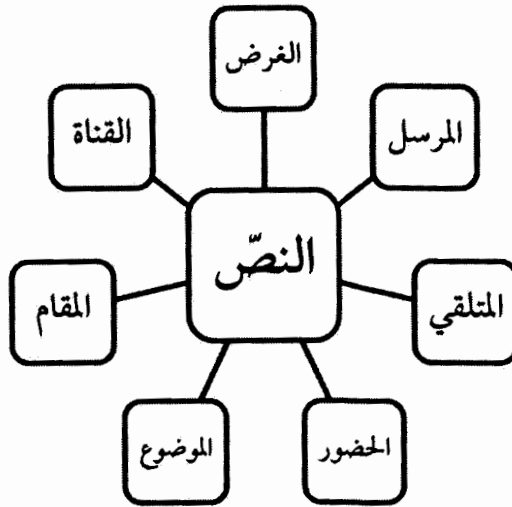
١٠ - الغرض : أي أنّ ما يقصده المشاركون ينبغي أن يكون نتيجة للحدث التواصلّي .

(١) انظر « تحليل الخطاب » ٤٨ .

(٢) انظر « العبارة والإشارة : دراسة في نظرية الاتصال » ٢٨ .

ويشير هايمس إلى أنّ هذه الخصائص ليست ضرورية كلها في جميع الأحداث التواصلية، ولكن « بقدر ما يعرف المحلل أكثر ما يمكن من خصائص السياق بقدر ما يحتمل أن يكون قادرًا على التنبؤ بما يحتمل أن يُقال »^(١).

وقد اشتهر تصنيف هايمس على نحو واسع، لكنه لم يخلُ من بعض الانتقادات التي أشارت إلى عدم اكتمال رؤيته، إذ لم تتضح فيها الخلفية المعرفية المشتركة بين المتكلم والسامع، والاختلافات الممكنة والعلاقات الاجتماعية بينهما التي يمكن أن تؤثر في الخطاب^(٢).



أهم خصائص السياق بحسب تصنيف هايمس

(١) « لسانيات النص » ٥٣ . وانظر « تحليل الخطاب » ٤٧ - ٤٩ ، و« السياق والنص الشعري من

البنية إلى القراءة » لعلّي آيت أوشان، ٩٦ - ٩٨ .

(2) See: Jan Renkema: Discourse studies , P: 44 .

وانظر « علم لغة النص بين النظرية والتطبيق » ٥ .

نخلص مما سبق إلى أنَّ الخطاب القابل للفهم والتأويل هو الخطاب القابل لأن يوضع في سياقه بالمعنى المحدد سلفاً ، إذ كثيراً ما يكون المتلقي أمام خطاب بسيط للغاية من حيث لغته ، ولكنه قد يتضمّن قرائن (ضمانات أو ظروفًا) تجعله غامضًا وغير مفهوم من دون الإحاطة بسياقه ، ومن ثمّ فإنّ للسياق دورًا فاعلاً في تواصلية الخطاب وفي انسجامه بالأساس ، وبعض الخطابات لولا الإلمام بسياقها لما كان لها معنى يُفهم^(١).

عناصر السياق :

لا بدّ للسياق من عناصر يقوم عليها ، منها ما هو شخصي ذاتي ، ومنها ما هو موضوعي ، ومنها ما يتعلّق بالذوات .

فالعنصر الذاتي : يتعلّق بمعتقدات المتكلّم (منشئ النص أو مرسل الخطاب) ، وبمقاصده ، وباهتماماته ، ورغباته ، فينبغي مراعاة ذلك في أثناء تحليل الخطاب وتحديد السياق .

والعنصر الموضوعي : يتعلّق بالوقائع الخارجيّة التي تمّ القول فيها ، وتشمل ظروف المكان والزمان وغيرها من العوامل التي تسهم في تحديد السياق .

والعنصر الذواتي : يتعلّق بذوات المخاطبين ، والمعرفة المشتركة بينهم ، وهي معرفة معقّدة التركيب^(٢).

وسأفصّل القول عن تلك العناصر من خلال التقسيم الآتي :

(١) « لسانيات النص » ٥٦ .

(٢) انظر « البحث اللساني والسميائي » طه عبد الرحمن ، ٣٠٢ . وانظر « إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية » عبد الهادي الشهري ، ٤٤ .

أولاً : (المرسل / المخاطب) :

هو أحد عناصر الموقف ، بل هو الذات المحورية في إنتاج الخطاب ، وتتعلق به وظيفة اللغة التعبيرية ، وعملية إنشاء النص تخضع لمراده وأغراضه .

فالنص لا يُكتب له الوجود إلا من خلال منشئه الذي يمتلك إستراتيجية خطابية ، فيشرع عادة في الحديث عندما يكون هناك مثير يحفز به إلى الكلام ، كأن ترد إلى ذهنه فكرة أو خاطرة ، أو يستمع إلى سؤال يدعوه إلى الإجابة ، فيتوسل باللغة باعتبارها علامات متواضعا عليها من قبل المجتمع ، تحقق له رغبته في توصيل الكلام إلى الآخرين . فيجد في اللغة قائمة طويلة من العلامات اللغوية ، والوحدات المعجمية التي ترتبط في ذهنه ترابطاً منطقياً ونفسياً ، وفقاً لعلاقات معينة كالتوارد والتلازم والتضاد والتشابه ، وغيرها ، فيختار منها عن وعي أو غير وعي ما يحتاج إليه في عملية التخاطب ، مراعيًا في ذلك القواعد النحوية والصرفية التي تبيحها اللغة ^(١) .

فاللغة الطبيعية لا تمارس دورها الحقيقي إلا من خلال (المرسل / المخاطب) ، ومن أجل ذلك « شك كثير من اللغويين في إمكانية دراسة الدلالة اللغوية بمعزل عن مستعملها ، ويكفي أن ننظر في النظام اللغوي عن مقولات (أنا وأنت وهنا والآن) لكي نتحقق من أن علم الدلالة في جانب لا بأس به يدخل تحت تعريف البراغماتية بأنها علاقة العلامات بمستعملها » ^(٢) .

(١) انظر « المعنى وظلال المعنى : أنظمة الدلالة في العربية » ١٥٢ .

(٢) « تقديم عام للاتجاه البراغماتي » لمحمد صلاح الدين الشريف ، ١٠٠ . ضمن كتاب « أهم المدارس اللسانية » المعهد القومي لعلوم التربية ، تونس ، مارس ، ١٩٨٦ م .

وبهذا الفعل التلّفظي ينتقل المرسل اللغة من المستوى الصوري إلى المستوى التداولي ، ويغدو الخطاب عندها مؤشرًا على كفاءته بالقدرة على التكيّف مع محيطه ؛ لأنّ « الخطاب باعتباره مقول الكاتب أو أقاويله - بتعبير الفلاسفة العرب القدماء - هو بناء من الأفكار ... ، فالخطاب من هذه الزاوية إذا كان يعبر عن فكرة صاحبه فهو يعكس أيضًا مدى قدرته على البناء »^(١) .

وحضور ذات المرسل لا يقتصر على لحظة التلّفظ الخطابية فحسب ، بل يظل حاضرًا في خطابه ما بقي الخطاب نفسه ، مما يشي باستمرار عملية التلّفظ كما هو الحال في الأوامر المكتوبة^(٢) .

وكما أنّ اللغة دورًا بارزًا في عملية التخاطب من حيث تزويد المخاطبين بالمادة اللغوية الخام فإنّ الكفاية اللغوية للمخاطب كفيلة بالقيام بتركيب الرسالة تركيبًا سليمًا ؛ لأداء مهمة الإبلاغ والإفادة إحدائًا وإفهامًا ، وتتكفل كفايته التخاطبية بنجاحه في استخدام القولات اللغوية استخدامًا مناسبًا للسياقات المختلفة ، ومعينًا على تحصيل غاية التفاهم بينه وبين مخاطبيه .

وتتجلّى مهمّة المتكلّم في عمليّة اختيار الأمثلة من اللغة وانتقائها ، ويخضع اختياره غالبًا لمقاصده البلاغية ، فيختار (ذهب) بدلًا من (خرج) أو (قام) في نحو (ذهب خالد) ، وهذا الاختيار لا بدّ منه كي تحصل عمليّة الإفادة (meaningfulness) المؤسسة على مبدأ أنّ « المعنى يستلزم اختيارًا »^(٣) ، وأنّه « لا يكون للعنصر معنى - أي

(١) « الخطاب العربي المعاصر » محمد الجابري ، ١٠ . وانظر « إستراتيجيات الخطاب » ٤٦ .

(٢) انظر « إستراتيجيات الخطاب » ٤٧ .

(3) Lyons. Firth's Theory of Meaning in (In Memory of J. R. Firth)

وانظر « المعنى وظلال المعنى » ١٥٣ . P: 298 .

مفيدًا - في سياق ما إلا إذا كان مختارًا من مجموعة عناصر يمكن لكل منها أن يكون له وجود في ذلك السياق»^(١).

والكلام يفهم في ضوء شخصية المتكلم التي تتكوّن من خصائص معيّنة، تكسب المتكلم في أثناء حديثه أسلوبًا خاصًا.

ومن أهم هذه الخصائص التي تساعد في تكوين شخصية المتكلم ما يأتي^(٢):

١ - طريقة الكلام : كالتفكير والتفصيح ، أو العيوب النطقية التي تظهر في الأداء ، وغيرها من المميزات الصوتية التي تشكّل بصمة خاصّة للمتكلّم .

٢ - جنس المتكلم : من حيث كونه ذكرًا أو أنثى ، فلكل منهما اهتمام خاصّ مختلف عن الآخر ، فضمير المتكلم الذي يرد في النص لا يمكن تفسير إحالته الخارجية إلا بالمشاهدة في حال الخطاب ، أو بالاتكاء على بعض الدوالّ اللفظية المميزة للنوع في حال كون النص مكتوبًا .

٣ - المستوى الثقافي والاجتماعي : هما مستويان متلازمان ، فكلما ارتفع المستوى الثقافي للمتكلّم ارتفع مستواه الاجتماعي ، والعكس صحيح .

ونلاحظ بناءً على ذلك اختلاف الأسلوب الأدائي ما بين (الطبيب والعسكري) ، و (الحضري والبدوي) ، و (المتعلّم والأمي) ، و (الغني والفقير) ، و (الكبير والصغير) ... وغيرها من المستويات .

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر « دلالة السياق » د. ردة الله الطلحي ، ٦٠١ .

وربما كان قول عليّ بن الجهم يمدح الخليفة :
أنت كالكلب في حفاظك للعهد يد وكالتيس في قِراع الخطوب
ثم قوله بعد تغيير ثقافته وإقامته في الرصافة :
عيونُ المها بين الرصافة والجسر
جَلَبَنَ الهوى من حيثُ أدري ولا أدري

مثالاً حسناً لأثر البيئة والمستوى الثقافي النصبي للمتكلم^(١).
إذن فالنص يفصحُ صاحبه ، فلكلّ متكلم معجمه الخاص المخزون في ذاكرته ،
يكتسب ألفاظه وأسانيه من خلال بيئته الثقافية والاجتماعية .
ولا بدّ من الإشارة إلى دور الحالة النفسية للمتكلم في إضفاء صبغة خاصة على
أسلوب خطابه ، كالمرض والوفاة والحزن والاكتئاب والنجاح ، وغيرها من
الحالات^(٢) .

كما ينبغي الإشارة إلى الغاية التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها من خلال خطابه ، ودور
هذه الغاية يبدو جلياً ومؤثراً في أسلوب الخطاب ، وفرضها نوعاً معيّناً من التعبير ،
فغاية الإقناع المنطقي المحض لا تقتضي - شحن الرسالة بالمؤثرات الإيحائية وظلال
المعاني ، في حين أنّ غاية التأثير - سواء أقرنت بغاية الإقناع كما في الآية الآتية أم لا -
تضفي على الكلام طابع الأدبية بما تقتضيه من صور فنية ومحسنات بديعية ، كما في قوله
تعالى : ﴿ اٰمِیْبُ اٰهْدُكُمْ اَنْ یَّاكُلَ لَحْمَ اَخِیْهِ مِیْنًا ﴾ الحجرات : ١٢ ، حيث كانت
الصورة التي تشمئز منها النفوس والاستفهام الإنكاري وسيلتين من الوسائل الفنية

(١) انظر « دلالة السياق » ٦٠٢ - ٦٠٣ .

(٢) انظر « دلالة السياق » ٦٠٤ .

المستخدمة في هذا الخطاب تحقيقاً لغاية التنفير من سلوك الغيبة^(١).

ثانياً : (المتلقي / المخاطب) :

المتلقي هو الطرف الآخر الذي يوجه إليه المرسل خطابه عمداً .

وهو الهدف في أي عملية اتصالية لغوية ، وتتعلق به الوظيفة الإفهامية ، فيتدخل بوجوده وصفته في بنية النص ، حيث يوجب على المخاطب (المرسل) (مراعاة حال المخاطب) ، فيكيف المتكلم النص على وفق حال المخاطب نفسياً واجتماعياً وثقافياً .

ويبرز دور المتلقي في عملية التواصل في مهمة التفكيك التي يقوم بها عند تلقيه الخطاب ، وتفكيك الرسالة اللغوية هو دور إيجابي من حيث كونه مكملًا لعملية التركيب التي قام بها المرسل ، ذلك أنه ليس هناك عملية تخاطب تنجز دون أن تمرّ بمرحلتَي التركيب والتفكيك .

وعندما تصل الرسالة الخطابية إلى المتلقي أيًا كان - قارئًا أو سامعًا - فإنه يتعامل معه بطريقة الخاصة في الفهم ، مستعينًا في ذلك بثقافته وتجاربه وأحواله الخاصة التي ينفرد بها عن غيره ، وإن كانت في معظمها مشتركة بين أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه لغويًا ، وهو ما يعطي لفهمه صبغة موضوعية إلى حد ما^(٢).

وقد تزداد إيجابية المتلقي ، فيتجاوز مهمة التفسير والتأويل ، وذلك حين يكمل النقص في الخطاب الذي يصل إليه ناقصًا بسبب ظروف سماعية أو كتابية سيئة ، مستعينًا في ذلك بالاحتمالات التي اكتسبها في تجاربه السابقة من خلال استخدامه اللغة باعتباره عضوًا من أعضاء المجتمع اللغوي .

(١) انظر « المعنى وظلال المعنى » ١٥٤ .

(٢) انظر « المعنى وظلال المعنى » ١٥٥ .

وما يعزز ذلك في إطار إبراز دور المتلقي الإيجابي في إكمال النقص في التعبيرات اللغوية التي يتلقاها أنّ الإضمار في التعبير لا يحول دون فهم المتلقي في كثير من الأحيان ، ومما يؤكد ذلك أننا لا نجد صعوبة في إكمال بقية كلمة (المنا) في قول لبيد بن أبي ربيعة ^(١) :

دَرَسَ الْمَنَابِمَتَالِ فَأَبَانَ فْتَقَادَمَتِ بِالْحَبْسِ وَالسُّوْبَانِ
يريد : درس المنازل .

ويمكن تفسير قدرة المتلقي على فهم التعبيرات اللغوية الناقصة في ظل نظرية الحشو (redundancy) وهو « كمية من المعلومات المبلغة ، زائدة عن الحد الأدنى المطلوب » ^(٢) .

كما يمكن إرجاع حذف ما يُعرف بالعامل النحوي الذي يجوز حذفه في كثير من مواضعه إلى هذه النظرية نظرًا إلى إدراك المرسل أن المتلقي سيعتمد على خبرته وعلى القرائن في تقدير ذلك العامل المحذوف .

ومن مظاهر إيجابية المتلقي في عملية التخاطب وعدم اقتصار دوره على العملية التفكيكية فحسب فرضه نمطًا معينًا يأتي عليه الخطاب ، وفقًا لحاله وبتوجيه من طبيعة العلاقة التي تربط بين المتخاطبين ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴾ ^(١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَمُّ بِهَا

(١) « ديوان لبيد بن أبي ربيعة العامري » ٢٠٦ .

(2) Hartmann, R. R. K. and Stork, F.C. Dictionary of Language and Linguistics. Applied Science Publishers (Redundancy) .
وانظر « المعنى وظلال المعنى » ١٥٦ .

عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ﴿١٧﴾ (طه : ١٧ - ١٨) ، فحرصُ موسى -عليه السلام - الشديد على إطالة الخطاب مع الله تعالى جعله يطيل ويطنب في وصف عصاه ، مع أنَّ المطلوب في السؤال هو بيان ما يمينه ، لا مدى أهميتها له ^(١).

وقد أشار اللغويون القدماء إلى تأثير المتلقي في المرسل عند إنتاج خطابه ، فأبرزوا دوره في مستوى الخطاب اللغوي ، مثل المستوى النحوي من حيث التذكير والتأنيث والعدد ، وتجسيده بعلامات لغوية هي إلصاق كاف الخطاب بأسماء الإشارة ، ولم يقفوا عند هذا الأمر ، بل أبرزوا دوره أيضًا في سياق الخطاب ، وأثر ذلك في الخطاب تداوليًا ^(٢).

فقد ذكر سيبويه تبريرًا معقولًا بقوله : « هذا بابٌ تُخبرُ فيه عن النكرة بنكرة ، وذلك قولك : ما كان أحدٌ مثلك ... ، وإِنَّمَا حَسُنَ الإِخبارُ ها هنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيءٌ أو فوقه ؛ لأنَّ المخاطبَ قد يحتاج إلى أن تُعلِّمه مثل هذا » ^(٣).

وذكر ابن يعيش أثر المعرفة اللغوية عنده في أثناء حديثه عن الظروف قائلاً : « ... ألا ترى أن (قبلاً) إِنَّمَا هو بالإضافة إلى شيء بعده ، و(بعدًا) إِنَّمَا هو بالإضافة إلى ما قبله ؛ فلذلك كان من حقها الإضافة ، نحو : جئت قبل يوم الجمعة ، ويعد يوم خروجك ، فلما حذف ما أضيفت إليه مع إرادته ، واكتفى بمعرفة المخاطب عن ذكره ، وفهم منها بعد

(١) انظر « المعنى وظلال المعنى » ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) انظر « إستراتيجيات الخطاب » ٤٧ - ٤٨ .

(٣) « الكتاب » ١ : ٥٤ .

الحذف ما كان مفهوماً منها قبل الحذف ، صارت بمنزلة بعض الاسم ^(١) .

إذن لم يكن نحاة العربية يعيدون عن إدراك دور (المتلقي / المخاطب) في الاتصال الكلامي ، بل قد جعله بعضهم الباعث إلى التعبير عما في نفس المتكلم .

قال السهيلي : « اعلم أن الكلام صفة قائمة في نفس المتكلم يعبر للمخاطب عنه بلفظ ، أو لحظ ، أو خط ، ولولا المخاطب ما احتيج إلى التعبير عما في نفس المتكلم » ^(٢) .

وهذا القول على إيجازه يشير إلى ثلاث قضايا أساسية :

إحداها : الإشارة إلى القدرة الكلامية الكامنة في نفس المتكلم ، التي يعبر عنها تشومسكي ومن لف لفه بمصطلحه المشهور (competence) .

والثانية : أن التعبير عنها يكون بوسائل لغوية (لفظ) ، وغير لغوية (لحظ) ، (خط) ، أو قل : منطوقة وغير منطوقة .

والثالثة : أن المخاطب شريك لا بد منه في الاتصال الكلامي ^(٣) .

وهو ما أكده اللغويون المحدثون ، حيث يقول هنتشل وويت (Hentschel & Weydt) : « فالتعريف يعتمد على ما يفترضه المتكلم من علم السامع بالأمر » ^(٤) .

ويقول هاز (Haas) : « إذا أراد المتكلم أن يجلب إلى ذهن السامع تصوّراً عن موضوع ما ، فإنّ عليه أن يفترض في سامعه علماً بالموضوع أو جهلاً به ، فالعلم به

(١) « شرح المفصل » لابن يعيش ، ٤ : ٨٦ .

(٢) « نتائج الفكر » ٢١٨ .

(٣) انظر « التعريف والتكثير بين الدلالة والشكل » ٨٢ .

(4) See: Hentschel & Weydt: Handbuch der deutschen Grammatik. S. 205. وانظر « التعريف والتكثير بين الدلالة والشكل » ٨١ .

يقتضي التعريف ، والجهل به يقتضي التنكير ^(١) .

أما عند البلاغيين فإن دور المتلقي يتجاوز ذلك ، وبناء الخطاب وتداوله مرهون إلى حد كبير بمعرفة حاله ، أو بافتراض ذلك الحال . والافتراض المسبق ركن أساس في النظام البلاغي العربي ؛ إذ العناية في المقام الأول موجهة إلى المتلقي ، حتى فيما يعرف بالمحسنات البديعية بوصفها تحقق هدف المرسل من الخطاب ، وذلك بالتأثير فيه ، فالعناية بها ليست من قبل الزخرفة اللفظية فحسب ، أو إبراز قدرات المرسل اللغوية ، كما يشاع عن ذلك .

ويدل على ذلك أن المتلقي حاضر في ذهن المرسل عند إنتاج الخطاب ، سواء أكان حضوراً عينياً أم استحضاراً ذهنياً . وهذا الشخوص أو الاستحضار للمتلقي هو ما يسهم في حركية الخطاب ، بل يسهم في قدرة المرسل التنويعية ، ويمنحه أفقاً للممارسة اختيار إستراتيجية خطابه ، وهذا جلاء لدوره من حيث كيفية تأثير « شروط متلق معين في ظروف محددة إلى تنظيم آليات خطابه ، إن هذه بوضوح مقارنة تتخذ من الوظيفة التواصلية للغة المجال الأولي لبثها ، وتسعى بالتالي إلى وصف الشكل اللغوي ، لا من حيث هو شيء ساكن ، وإنما بوصفه وسيلة حركية للتعبير عن المعنى المقصود » ^(٢) .

(1) See: Haas, J. : Fransösische Syntax. (Halle 1916) S.161 f.

وانظر « التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل » ٨١ .

(٢) « تحليل الخطاب » ٣٠ .

وأوردُ هنا قول عبد القاهر الجرجاني الذي نبّه إلى أنّ صحّة التراكيب لا يكفي فيها أن تجري على قواعد النحو ، بل لا بدّ فيها من مراعاة حال المخاطب ، يقول : « فإذا قلت : رجلٌ جاءني ، لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذي جاءك رجل لا امرأة ، ويكون كلامك مع من قد عرف أنّه قد أتاك آتٍ ... ، وكذلك إن قلت : رجل طويل جاءني ، لم يستقم حتى يكون السامع قد ظنّ أنّه أتاك قصير ، أو نزله منزلة من ظنّ ذلك » ^(١) .

فهو يتوقّف في الحكم على الجملة بالصواب أو الخطأ حتى يقف على حال المخاطب . ويقول أيضًا : « اعلم أنّك إذا قلت : زيدٌ منطلقٌ كان كلامك مع من لم يعلم أنّ انطلاقه كان لا من زيد ولا من عمرو ، فأنت تفيد ذلك ابتداءً . وإذا قلت : زيد المنطلق ، كان كلامك مع من عرف أنّ انطلاقه كان إمّا من زيد وإمّا من عمرو ، فأنت تعلمه أنّه كان من زيد دون غيره . والنكته أنك تثبت في الأوّل الذي هو قولك : زيد منطلقٌ فعلاً قد علم السامع أنّه كان ، وتثبت في الثاني الذي هو زيد المنطلق فعلاً قد علم السامع أنّه كان ، ولكنه لم يعلمه لزيد ، فأفدته ذلك » ^(٢) .

وظاهرٌ أنّه يلفت إلى أنّ المتكلّم يعتمد إلى نظم كلامه على النحو الذي يقتضيه علمه بحال المخاطب أو السامع ^(٣) .

(١) « دلائل الإعجاز » ١٤٣ .

(٢) « دلائل الإعجاز » ١٧٨ .

(٣) انظر « التعريف والتكثير بين الدلالة والشكل » ٨٣ .

وأهم ما يجب مراعاته في شأن المخاطب ما يأتي :

١ - درجة الانتباه : أكثر ما يكون ذلك فيما لو كان النص منطوقاً ، فإعاعي المخاطب الظروف المحيطة بالمخاطب ، من حيث الضوضاء ، أو كثرة عدد المخاطبين ، ونحو ذلك مما يستدعي من المخاطب (المرسل) أموراً ، كالتكرار والتوقف ، والشرح لفكرة ما ، والإيجاز أو الإطناب ، بسبب الضوضاء مثلاً ، أو عي السامع ، وعدم استيعابه السريع ، أو دقة الأمر المتحدث عنه وغموضه ، مما يؤثر في بنية النص نفسه .

٢ - جنس المخاطب : فمخاطبة الذكور تختلف عن مخاطبة الإناث ، حيث تخضع محادثة المرأة لأدبيات خاصة لا تخضع لها مخاطبة الرجال في بعض الأحيان .

ولا يقتصر ذلك على التزلف إلى الأنثى فحسب ، بل يتعداه إلى أن كثيراً من الألفاظ اللغوية في حقول معينة تكتسب دلالات إيائية عند الحديث إلى الأنثى ، فتفهم في باب الجنس والغزل ، وبخاصة إذا كانت محادثة المرأة في حضور نساء أخريات ، أو حضور رجال يختلف فهمهم وتفسيرهم للمسموح تبعاً لسوء نياتهم ، أو في الأقل تبعاً لمقبولية المسموع لهذه التفسيرات .

ومعنى ذلك أننا أمام نوعين من المقبولية : مقبولية البناء ، ومقبولية الفهم والتفسير ، وكلتاهما تخضعان لمحتوى النص ، إضافة إلى ما يحيط به من ظروف تتعلق بأطراف الحديث أو المشاركين فيه .

من ذلك قول أحد الشعراء يمدح زبيدة وهي تسمع :

أزبيدة ابنه جعفر	طوبى لزازرك المثاب
تعطين من رجلك ما	تُعطي الأكف من الرغاب

« فهم الخدم والحشم بضربه ، فقالت : دعوه فإنه لم يُرَدْ إلّا خيرًا ، ولكنه أخطأ الصواب ، فَضَّلَ المنهج »^(١).

٣ - المستوى الثقافي والاجتماعي للمخاطب : حيث تخضع النصوص لاعتبارات ثقافة المخاطب ومستواه الاجتماعي ، ويتضح الفرق من خلال مخاطبة (العالم لأصحاب الحِرَف) ، أو مخاطبة (الأب لأبنائه) أو مخاطبة (المعلم لطلابه) أو (المدير لموظفيه) ، والعكس كذلك . فلكل طبقة أدبيات خطابية خاصة تمتاز بها .

ومن أمثلة المآخذ على عدم مراعاة حال المخاطب ، قول جرير للخليفة عبد الملك بن مروان :

أتصحو أم فؤادك غيرُ صاحٍ عشيّة همّ صبحك بالرواح
« فقال عبد الملك : بل فؤادك يا ابن اللخناء »^(٢).

ومع كلّ ما يقال عن دور المخاطب في بناء النصّ فإنه لا بدّ من التأكيد على أنّ المخاطب يبدأ في فهمه على وفق ما يخضع له النصّ عند بنائه من وجهة نظر المخاطب ، فيتأثر تأويله من حيث هو نصّ أوّلاً بخبرة المخاطب باللغة تركيبياً ومعجمياً ، وما تثيره الكلمات من إيماءات^(٣).

(١) « نضرة الإغريض في نصرة القريض » ٤٢١ . وانظر « دلالة السياق » د. ردة الله الطلحي ، ٦٠٧ .

(٢) « نضرة الإغريض في نصرة القريض » ٤١٧ . وانظر « دلالة السياق » د. ردة الله الطلحي ، ٦١١ .

(٣) انظر « دلالة السياق » د. ردة الله الطلحي ، ٦١٢ .

ثالثًا ، ورابعًا : الزمان والمكان :

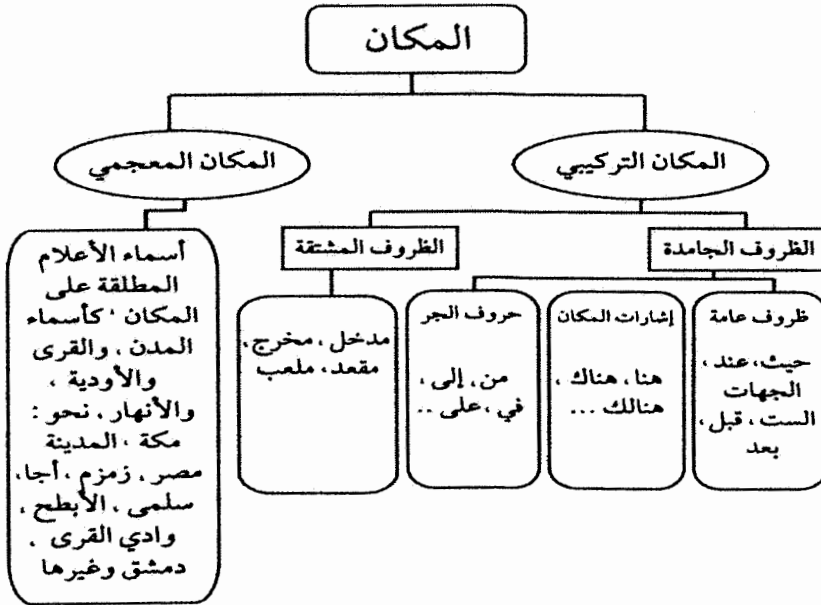
يبدو الزمان والمكان من حيث هما قيمتان خارجيتان تشكلان معًا أو إحداهما قيدًا على الحدث في النص ، وتظهران في النص بأشكال مختلفة على النحو الآتي :

١ - المكان :

يمكن ظهوره في النص من خلال أحد طريقتين من طرق التعبير اللغوي :

أ - بوساطة الظروف الدالة على المكان ، سواء أكانت جامدة أم مشتقة ، فالجامدة نحو : حيث وعند والجهات الست وقبل وبعد ... إلخ . والمشتقة نحو : اسم المكان ، والدلالة بالمشتق تكون ألصق بالحدث ، إذ هي مشتقة منه ، والتعبير بهذه الكيفية يمكن أن نسميه (المكان التركيبي) .

ب - بوساطة أسماء المواضع ، كمكة والمدينة . ويمكن أن نسمي هذه الدلالة المكانية على الرغم من جمود الأسماء المطلقة عليها بـ (المكان المعجمي) ، ويمكن إيضاح ما سبق من خلال الرسم الآتي :



وهذا العرض عن المكان في اللغة نهدف به إلى أن الارتباط بين النص والمكان بشكل يحيل فيه أحدهما على الآخر مسلّمة لغوية من جهة ، ومن جهة أخرى نشير إلى أن مكان الكلام (النص) ذو تأثير في دلالة والكشف عنها .

ومن ذلك لفظ (الشام) المراد به الإقليم المعروف ويشمل (سورية والأردن ولبنان وفلسطين) ، فإذا أُطلق من خارج الإقليم أُريد به هذه الدول الأربع ، وإن أُطلق من داخل هذه الدول أُريد به مدينة (دمشق) . وكذا الحال في (مصر) إذا أُطلق من خارج القطر المعروف أُريد به الدولة ، وإذا أُطلق من داخل القطر أُريد به (القاهرة) .

والعبرة في كل ذلك بمكان الحدث الكلامي الذي في ضوئه تتحدّد دلالة المكان في النص^(١) .

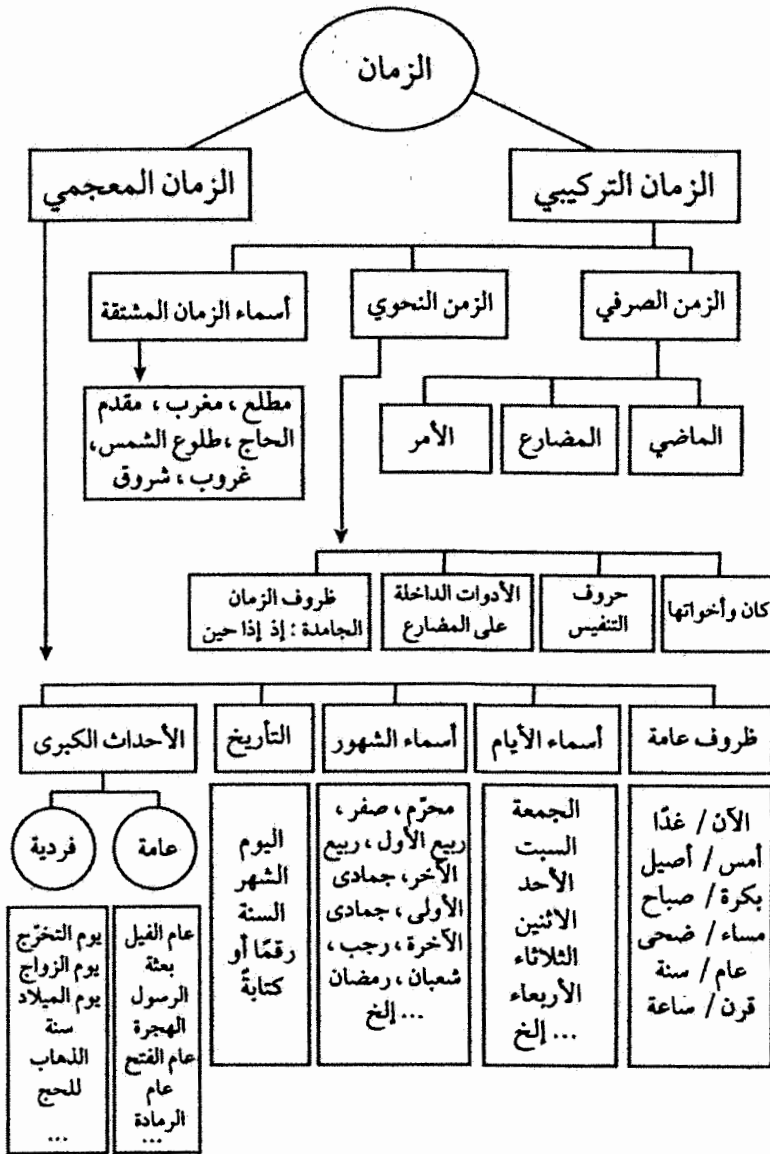
٢ - الزمان :

يستدلّ عليه في النص من خلال أحد طريقتين من طرق التعبير اللغوي :

أ - بوساطة صيغ الأفعال المختلفة ، وذلك هو الزمن الصرفي ، ثم ما يضام الأفعال من ضمايم من الأدوات (كان وأخواتها ، وحروف التنفيس ، وأدوات النصب والجزم) ، وكلا الزمنين الصرفي والنحوي يمكن أن يسمّى (الزمن التركيبي) ، ويضاف إلى هذين النوعين من الزمن التركيبي التعبير بأسماء الزمان المشتقة .

ب - بوساطة أسماء الأعلام للأيام والشهور ويلحق بها التأريخ العددي (الرقمي) لأوقات الأحداث ، ثم بالأحداث الكبرى المرتبطة بأزمان حدوثها حتى أضحت زمنًا عامًا مفصليًا من الناحية التاريخية ، تؤرّخ للأحداث الأخرى صغرت أو كبرت ، ويمكن رسم طرق التعبير عن الزمن بالشكل الآتي :

(١) انظر « دلالة السياق » لردة الله الطلحي ، ٦٢٢ .



وبهذا الشكل يتضح أن التعبير اللغوي عن الزمن يتخلل النص بطرق مختلفة تدرج عموماً وتحديداً حتى تصل إلى التعبير عن الزمن بالأرقام ، بالساعة واليوم والشهر والعام على النحو الذي نجده عند التعبير عن مولد شخص أو وفاته في أبسط النماذج المستعمل فيها الزمن .

وإذا كانت علاقة المكان والزمان تظهران في النص بوساطة هذه التعابير ، فإنَّ الأهمَّ من الإشارة إليها القول بأنَّ المكان والزمان المعجميين على وجه الخصوص - وهما يشكِّلان الشقَّ الأيسر من الرسمين السابقين - يؤثِّران في النصَّ تأثيرًا كبيرًا من حيث اتِّصاف الزمان (الحقيقة) والمكان من الناحية الفكرية والاقتصادية والاجتماعية بمقولات عامة لها أثرها في ساكني المكان ، ومن ثمَّ في النصوص الصادرة عنهم أو الموجهة إليهم ، ويظهر ذلك في النص بشكل موضوعي ، أعني يخص المضامين والقضايا التي تحملها النصوص .

وهذا الأمر هو ما أشار إليه المفسرون حين عرضوا للمكي والمدنيّ ، وذهبوا استنادًا إلى المكان (بأهله ومعتقداتهم) إلى تنوُّع الخطاب القرآني تبعًا لاختلاف حال المخاطبين بالقرآن في مكة والمدينة باعتبارهما مكانين أو زمانين وهو الوجه الثاني من أوجه فهم اصطلاح المكي والمدني .

(الفهم الثالث للمكيّ والمدنيّ) قبل الهجرة في مكة وبعدها في المدينة فحسب ، وإنما يترامى عند المفسرين - كما قلنا - للإفادة منه في معرفة أحكام الناسخ والمنسوخ ، وهو باب من الفهم لبعض أحكام القرآن الكريم يتَّصل بشدّة بالتوالي الزمني لتزول أي القرآن الكريم ، وله تعلق ببقاء الحكم الشرعي ، أو نسخه ، ولذلك كانت معرفة الناسخ والمنسوخ من أبواب علوم القرآن ، وأصول الفقه ، إذ التصدي للأحكام الشرعية (استنباطًا) لا بدّ أن يستند إلى مثل هذه المعرفة ^(١) ، وليس هذا الباب من مسائل السياق فأفصّل فيه القول .

(١) انظر « دلالة السياق » لردة الله الطلحي ، ٦٢٠ - ٦٢٥ .

عناصر السياق القرآني :

ما سبق ينطبق إلى حدّ كبير على النصّ القرآني ، ولكن عند تحليل أي نصّ منه ينبغي أن ندرك أن القرآن الكريم نزل مفرّقاً تبعاً لتنوّع الأحداث ، فلم ينزل كلّ في مكان واحد ، ولا زمان واحد ، ولا لحدث واحد ، ولهذا احتاج فهمه إلى معرفة مكان النزول وزمانه ومناسبته حتى يمكن تفسيره ، ولأجل هذا نلاحظ اهتمام العلماء بأسباب النزول . ويتّضح ذلك بجلاء حين يحدث الغموض في إحالة بعض الضمائر ، أمّحيل على سابق أو لاحق ؟ إلى داخل النصّ أو خارجه ؟ وهذا الغموض يحتاج إلى السياق المحيط به لمعرفة المحال عليه ^(١) .

إذن فالنصّ ليس إلّا « حالة خاصّة من البيئة المحيطة .. ، والإحالة القبلية أو البعدية كلتاهما تعتمد على الفكرة التي تسعى لاستقصاء المعاني من البيئة المحيطة .. » ^(٢) .

والحقّ أنّ معرفة أسباب النزول لم تكن مجرد ولع برصد الحقائق التاريخية التي أحاطت بتشكيل النصّ ، بل هدفت إلى فهم النصّ ، واستخراج دلالاته ، فإنّ « العلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب » ^(٣) .

كما أنّ دراسة الأسباب والوقائع تؤدي إلى فهم حكمة التشريع ، خاصّة في آيات الأحكام ، ممّا يساعد الفقهاء على نقل الحكم من الواقعيّة الجزئيّة أو السبب الخاصّ ، وتعميمه على الوقائع المشابهة ، وذلك بالاستناد إلى دوالّ في بنية النصّ ذاته تساعد على نقل الدلالة من الخاصّ والجزئي إلى العامّ والكلّي .

(١) انظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١ : ١٠٩ .

(2) See: Cohesion in English , P :84 .

(٣) « الإتقان في علوم القرآن » ١ : ٦٥ .

ومن أبرز مفردات هذا العلم مما له صلة مباشرة بنظرية النص والسياق القاعدةُ المعروفة لدى علماء القرآن : « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » ، وقد ناقش السيوطي هذه المسألة ، ودافع عن هذه القاعدة ، واستشهد عليها بأمثلة عديدة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ (الليل : ١٧ - ١٨) ، فإنها نزلت في أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - بالإجماع ، ومع ذلك فإن صيغة العموم منها تفيد أن هذا الحكم ليس مقصوراً عليه ، ولذا فإن عموم اللفظ وسياق الآيات فيصّل في الحكم الذي تضمّنته الآيات ^(١) .

ويقول السيوطي في ذلك أيضاً : « إن صورة السبب قطعية الدخول في العام ، وقد تنتزل الآيات على الأسباب الخاصة ، وتوضع مع ما يناسبها من الآي العامة رعاية لنظم القرآن وحسن السياق ، فيكون ذلك الخاص قريباً من صورة السبب في كونه قطعيّ الدخول في العام » ^(٢) .

وهذه الأقوال حول أسباب النزول المواكبة للأحداث والوقائع تندرج تحت ما نقصده بـ (السياق المقامي) للنص ، أو خاصية المقام التي أشار إليها هايمس ، وتشمل :

- ١ - زمن الخطاب .
- ٢ - أطراف الخطاب (المخاطب والمخاطب) ، (الرسول ﷺ وعلاقته بالمخاطبين) .
- ٣ - سياق التخاطب وأحوال المخاطبين .

(١) انظر « الإتيان في علوم القرآن » ١ : ٦٥ .

(٢) « الإتيان في علوم القرآن » ١ : ٦٦ .

ونلاحظ أن آيات أسباب النزول مناسبة لسياق الحال الذي نزلت فيه من جهة ، وهي مناسبة لسياق السورة التي توجد فيها من جهة أخرى ، وإن تباعد زمن النزول بين آيات السورة الواحدة ، فالقرآن نصّ واحد متنسق متماسك الأجزاء ، متلاحمها ، ولو قرأ القارئ النصّ القرآني بمعزل عن معرفته لأسباب النزول لما لحظ أي تفاوت أو تباين أو اختلاف في انسياب الخطاب وانسجامه أو تلاحم أجزائه .

ومع ذلك يبقى لسياق الحال المرافق للنصّ (الآية أو مجموعة الآيات) دوره الخاصّ في الكشف عن طبيعة تفاعل النصّ مع الظرف الذي نزل فيه وبسببه ، ويكشف عن تفاعل النصّ مع المخاطبين بصورة خاصّة ، كما أنّه لا يمكن تبين دقائق النصّ وفهم مراميّه بمعزل عن السياق المقامي ، لذا كان للنصّ القرآني أثره الواضح والمباشر في تغيير مفاهيم المتلقّين ؛ لأنّه كان يتنزّل على وفق وقائع حياتهم وأسئلتهم ، وهذا يؤيد النظرة الحديثة للنصّ والعالم^(١) .

ولا يمكن تجاهل حقيقة أنّ القرآن الكريم نزل في أوقات وفي أمكنة مختلفة ، وفي مناسبات مختلفة ، وقد استمرّ نزوله نيفاً وعشرين سنة ، ثمّ إنّ نزول القرآن الكريم منجّماً إنّما كان ليتناسب مع مقتضيات الأحوال الخارجيّة ، ومع ذلك فإنّه كالكلمة الواحدة على الرغم من الآيات مقطوعة الصلة بما قبلها . ويعني ذلك الترابط الواضح بين النصّ اللغوي والواقع الخارجي ، ويكشفُ أيضاً عن قضية أخرى هي قضية (السياق الداخلي) في النصّ القرآني ، فمسألة التنجيم ، وأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، كلّها قضايا قد توحى بوجود تناقض في العلاقات الداخلية للنصّ القرآني ، ولكنّها جميعاً تؤكد اتساق النصّ القرآني . فالقرآن رسالةٌ ، والمتلقّي الأوّل هو الرسول

(١) انظر « مباحث في علوم القرآن » لمناح القطان ، ٩٠ . و « الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النصّ والسياق » د. خلود العموش ، ٨٣ - ٨٦ .

ﷺ ، وهناك مخاطبون ، وقد تنزل القرآن إليهم معالجات مقتضيات حياتهم بخطابات متنوعة في الأسلوب والمضمون ، وإن تنوع الخطاب القرآني وتدرّجه في مستويات عدّة بحسب المخاطبين وظروف الخطاب ، هو أبرز دليل على أنّ هذا الخطاب هو خطاب الحياة ، الذي يكشف عن هذا الانسجام التام والتفاعل الشديد بين النصّ والمقام الذي يتنزّل فيه ، ومع ذلك يبقى منسجماً متسقاً مترابطاً ، فالتفاعل مع الواقع ينتج نصّاً متأكّفاً متناغماً .

ولا يخفى أنّ السبب الرئيس في بقاء النصّ القرآني متوحّداً كالكلمة الواحدة هو وحدة المخاطب سبحانه وتعالى ، وعلى الرغم من توخّده فهو متنوع يشمل خطابات عديدة ، تختلف باختلاف المقام داخل النسيج القرآني الواحد^(١).

ثانياً : أثر السياق في تماسك النص :

حظي موضوع التماسك النصي باهتمام الباحثين في علم اللغة النصي ، فذكروا أنّه « خاصة دلالية للخطاب تعتمد على فهم كلّ جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى »^(٢) ، ويقتضي البحث في تماسك النص دراسة العلاقات والروابط والوسائل التي يتعالق بها النصّ على المستوى السطحي والدلالي فضلاً عن علاقة النصّ بسياق الحال .

والوحدات المكونة للنصّ جملاً كانت أم غير جمل ليست مجرد وحدات متصلة بعضها ببعض في سلسلة ، وإنّما ينبغي ربطها بطريقة مناسبة من حيث السياق ، ولا بدّ

(١) « الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق » ٩٠ .

(٢) « بلاغة الخطاب وعلم النص » ٢٦٣ .

أن يتسم النص في مجمله بسيمات التماسك والترابط ^(١).

ولا يقتصر التماسك على علاقة الترابط بين الجمل والمتتاليات ؛ لأن ذلك يؤدي إلى تفسير جزئي لمكونات النص بوصفه عملاً كلياً فريداً ، وهذه البنية الكبرى لا تؤدي إلى التماسك الكلي فحسب ، بل إلى التماسك الجزئي الذي يتعلق بمتتاليات الجمل على المستوى العميق ، كما يقضي بهذا النحو التوليدي التحويلي ^(٢).

ويرى فان دايك أن اتساق الخطاب وتماسك النص دلاليًا يتعين بفضل البنيات الكبرى التي تتعالت مع جمل النص ، إذ يعبر أحياناً عن البنيات الكبرى بالجمل تعبيراً مباشراً ، وقد تكون البنيات الكبرى أقل تعلقاً بالجمل المتحققة ، ومع ذلك يمكن أن يستدل بتلك الجمل على البنيات الكبرى ^(٣).

إن الروابط النحوية غير كافية في التماسك النصي ، فهناك الجوانب الدلالية والتداولية التي تعمل على تماسك النص واتساقه ، فتحديد المعنى يتحقق من خلال وحدة النص ، ويعتمد على دلالات السياق التي يعبر عنها بمصطلح التماسك ، فالمنطوقات اللغوية تتماسك دلاليًا من خلال المعلومات السياقية التي يوفرها النص ، فتساعد المتلقي على ملء فراغات النص وثمراته.

وهذا النوع من التماسك (الانسجام) يخص المحتوى ، فما يقال في وحدة من وحدات النص يفترض أن يكون وثيق الصلة بما قيل في وحدات النص التي تسبقه

(١) انظر « اللغة والمعنى والسياق » جون لاينز ، ترجمة : د. عباس صادق الوهاب ، ٢١٩ .

(٢) انظر « بلاغة الخطاب وعلم النص » ٢٦٦ .

(٣) « النص والسياق » ٢٠٥ .

مباشرة ، ما لم يوجد مؤشر سياقي يفيد عكس ذلك ^(١) .

ويتجلى دور الجانب التداولي في التماسك النصي من خلال وظيفة المتلقي في قراءة النص ، وفك شفراته ، وسياق الموقف ، وهدف النص وموضوعه ، وطبيعة المتكلم ، والظروف التي صاحبت عملية التواصل .

وذهب هاليداي ورقية حسن إلى أن المتلقي حين يستجيب لمقطع منطوق أو مكتوب فإنه يستحضر بنيتين داخلية وخارجية ، أما البنية الداخلية فتتمثل في اعتماد الوسائل اللغوية التي تربط أواصر مقطع ما . أما البنية الخارجية فتكمن في مراعاة العلاقة بين المتكلم والمخاطب والظروف المحيطة بالكلام ، أي أن المتلقي يضع في اعتباره كل ما يعرفه عن المقام ^(٢) .

فالتماسك النصي يشمل الروابط الشكلية والدلالية التي تؤدي إلى تعالق عناصر الجمل بعضها مع بعض ، وكذلك فقرات النص ، ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل يشمل التعالق بين نصوص الكتاب كلها ، وهذا النوع من التماسك النصي يبدو ظاهرة مميزة للقصص القرآني ، فالجمل ترتبط في القصة الواحدة ، وتسهم في سرد أحداثها ومشاهدها ، وكل قصة يربطها مع غيرها من القصص روابط مختلفة ، وترابط القصص القرآني مع غيره من موضوعات القرآن الكريم على مستوى السورة الواحدة ، وعلى مستوى النص القرآني كله .

(١) انظر « اللغة والمعنى والسياق » ٢٢٠ . وانظر « دلالة السياق في القصص القرآني » د. محمد العبيدي ، ١٩٤ .

(2) See: Cohesion in English , p: 20 .

والتماسك النصي لا يتحقق على مستوى الجمل والنصوص المنجزة فحسب ، بل ينبغي أن نبحث عن التماسك بين النصوص وما يحيط بها في الخارج ، وهذا يقتضي البحث في العلاقة بين النص والسياق المحيط به ، فالعلاقات بين الجمل في متتالية نصية تشمل العلاقات الداخلية ، وامتداداتها الخارجية ، ويعبر عن هذا بالمبدأ الآتي : « ترتبط العبارتان فيما بينهما إذا كان مدلولهما - أي : الظروف المنسوبة إليهما في التأويل - مترابطة فيما بينهما »^(١) .

إنّ التحليل النصّي يعتمدُ على السياق في الكشف عن تماسك النصّ اتساقاً وانسجاماً، وتزداد أهمية السياق في التحليل النصي عند خفاء الروابط أو غيابها ، فقد يكون النصّ خالياً من الأدوات الشكلية المعروفة لتحقيق التماسك النصي حتى يكاد المتلقي يصل إلى درجة اليأس من فهم هذا النصّ، فيستعين بالسياق المحيط بالنصّ لصنع علاقات ضمنية غير محسوسة بين أجزاء النصّ ، ومن ثم يتماسك النصّ أمامه كما لو كانت أدوات التماسكية الشكلية موجودة^(٢) .

ويرى هاليداي ورقية حسن أنّ كلّ نصّ له سياق ، والنصّ يُميّز بالتماسك ، فأية نقطة أو جملة بعد بداية النصّ ترتبط بما قبلها وبما بعدها وبالبيئة المحيطة . وهناك عناصر أساسية تُسهم في تماسك النصّ منها : الإحالة والحذف والعطف والتماسك المعجمي ، وهي علاقات دلالية تُسهم في تحديد النصّ كما يُسهم السياق^(٣) .

ولعلّ عبد القاهر الجرجاني من أفضل من عالج موضوع التماسك النصي على المستوى الدلالي ، إذ بنى نظرية النظم على التعالق بين الألفاظ والجمل ، فهو يرى أن

(١) « بلاغة الخطاب وعلم النص » ٢٦٠ . وانظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١ : ٩٧ .

(2) See: Language context and text , p: 75 – 77 .

(3) See: Language context and text , p: 48.

المستوى العالي من النظم هو الذي يتسم بالتماسك ، وهو « أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول ، وأن يحتاج إلى أن تضعها في النفس وضعا واحداً ، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع يمينه هاهنا في حال ما يضع ييساره هناك . نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين ، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حدّ يحصره ، وقانون يحيط به ، فإنه يجيء على وجوه شتى ، وأنحاء مختلفة »^(١) .

ويرى « أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يُعلّق بعضها على بعض ، وتُجعل هذه بسبب من تلك »^(٢) .

وفي هذه المقولة نلاحظ إدراك العلماء العرب اللغويين القدامى لمفهوم التماسك النصي ، وإحساسهم بأهميته ، فقد أشاروا في مقولات متفرقة إلى النظم والارتباط والتلاؤم والسبك والتلاحم ، وأشاروا إلى أهمية معرفة سياق الحال في تحليل التماسك النصي ، سابقين بذلك أصحاب نظرية علم النص بمئات السنين^(٣) .

وقد كان المفسرون أكثر اهتماماً بعناصر التماسك الشكلية والدلالية ، مثل الإحالة والتكرار ، والمناسبة ، فقدّموا في هذا المضمار دراسات مهمة سواء أكانت عملية كما نجده في كتب علوم القرآن ، أم نظرية كما نجده في كتب التفسير .

(١) « دلائل الإعجاز » ٩٣ . وانظر « دلالة السياق في القصص القرآني » ١٩٧ .

(٢) « دلائل الإعجاز » ٥٥ .

(٣) انظر « دلالة السياق في القصص القرآني » ١٩٨ .

ثالثاً : أثر السياق في فهم الإحالة في القصة القرآنية :

السياق إطار عامٌ تتنظم فيه عناصر النصّ ووحداته اللغوية ، ومقياس تتصل بوساطته الجملُ فيما بينها وتترابطُ ، وبيئة لغوية وتداولية تُرعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النصّ للقارئ .

ويضبط السياق حركات الإحالة بين عناصر النص ، فلا يفهمُ معنى كلمة أو جملة إلا بوصلها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السياق .

وكثيراً ما يرد الشبه بين الجمل والعبارات مع بعض الفوارق التي تميز بينها ، ولا نستطيع تفسير تلك الفوارق إلا بالرجوع إلى السياق اللغوي ولحظ الفوارق الدقيقة التي طرأت بين الجمل ، فكلُّ مساق للألفاظ يجرُّ ضرباً من المعنى بجزئياته وتفصيله^(١) .

والسياق هو الصورة الكلية التي تنتظم الصور الجزئية ، ولا يفهمُ كلُّ جزءٍ إلا في موقعه من الكل .

ويعدُّ التحليل السياقي وسيلةً من وسائل تصنيف المدلولات ، لذلك يتعين عرض اللفظ القرآني على موقعه لفهم معناه ودفع المعاني غير المرادة .

وللسياق في النص القرآني أنواع ، لا بدّ من توجيه الانتباه إليها ، منها :
السياق المكاني : يعني سياق الآية داخل السورة ، وموقعها بين السابق من الآيات واللاحق ، أي مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة ، وسياق الجملة في موقعها من الآية ، فيجب أن تُربط الآية بالسياق الذي وردت فيه ، ولا تقطع عما قبلها وما بعدها .

(١) انظر « منهج السياق في فهم النص » د. عبد الرحمن بودرع ، ٢٧ .

والسياق الزمني للآيات أو سياق التنزيل : يعني سياق الآية بين الآيات بحسب ترتيب النزول .

والسياق الموضوعي : معناه دراسة الآية أو الآيات التي يجمعها موضوع واحد - سواء أكان الموضوع عامًا كالقصص القرآني، أو الأمثال ، أو الأحكام الفقهية، أم كان خاصًا كالقصة المخصصة بنبي من الأنبياء، وحكم من الأحكام أو غير ذلك-، وتتبع مواقعها في القرآن الكريم كله .

والسياق المقاصدي : معناه النظر إلى الآيات القرآنية من خلال مقاصد القرآن الكريم ، والرؤية القرآنية العامة للموضوع المعالج .

والسياق التاريخي : بمعنييه : العام ، وهو سياق الأحداث التاريخية القديمة التي حكاها القرآن الكريم ، المعاصرة لزمن التنزيل . والخاص : وهو أسباب النزول .

والسياق اللغوي : هو دراسة النص القرآني من خلال علاقات بين ألفاظه بعضها ببعض ، والأدوات المستعملة للربط بين هذه الألفاظ ، وما يترتب على تلك العلاقات من دلالات جزئية وكلية .

وغالبًا ما يكون السياق اللغوي هو المحيل إلى سياق الموقف فيما يسمّى بالإحالة الخارجية^(١) .

وعند دراسة النص القرآني ينبغي تحكيم كل هذه الأنواع من السياق عند إرادة دراسة النص القرآني بمنهج سياقي متكامل^(٢) .

(١) انظر «معايير النصية» ٤١٢ .

(٢) انظر «منهج السياق في فهم النص» د. عبد الرحمن بودرع ، ٣٠ .

والمتبَعُ للنصّ القرآنيّ يدركُ أنّ المساقاتِ فيه تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل ، مما هو معلوم في علمي البيان والمعاني^(١) ، فالضابط الذي يلزم في فهم النص هو الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها ممّا تبيّنه أسباب النزول . وبهذه الطريقة تتمكن من فهم مقاصد الشارع مقروناً بمعرفة أحوال نزوله ، أمّا إذا تفرّق النظر في الأجزاء بسبب الجهل بأسباب التنزيل فلا يتوصّل إلى إدراك المقاصد على الوجه المراد ، ويوقّع هذا الجهل في الشُّبه ، ويوردُ النصوص الظاهرة موردَ الإجمال فيقع الاختلاف والنزاع^(٢) .

والإحالة في كثير من أحوالها لا تفهم إلا من خلال السياق ، وإن كان فهمها في المقام الأول يعتمد على داخل النصّ فإنّ دي بوجراند ودريسلر يذكّران أنّه ليس في جميع السياقات يمكن استخدام الصيغ الكنائية (الضمير ، واسم الإشارة ، والموصول ، ...) حتى لا يحدث لبسٌ في المعنى ، فقد يعود الضمير إلى مرجعين ، فيصبح الضمير مرجعاً مشتركاً ، وعندئذ لا يسهم المعجم في حل هذا الإشكال ، وإنّما يحلّ بوساطة معرفة العالم (world Knowledge)^(٣) .

فالبحث في الإحالة يتأسس على السؤال الآتي : كيف تفسّر الإحالة ؟ وأيّ العوامل تُؤدّي دوراً في تفسير العملية ؟

فليست المعرفة النحوية فقط كافية في تحديد عودة الضمير ، بل إن الاكتفاء بها قد يكون سبباً في تضليل المتلقي ويُبعده عن الفهم الصحيح للإحالة ، ونلاحظ ذلك في مبدأ

(١) انظر « الموافقات » للشاطبي ، ٣ : ٤١٣ .

(٢) انظر « منهج السياق في فهم النص » ٤١ .

(3) See: Introduction to text linguistics , P : 65.

القرب الذي يرى أن الضمير يحيل إلى أقرب مذكور ! أضف إلى ذلك طول المدة التي قد تستغرقها القراءة ، مما يدلّ على أهمية معرفة القارئ العامة ، وهي عامل تداولي مهم عندما تكون المفاتيح النحوية ناقصة^(١) .

إنّ ما طرحه نانبورغ في الهجوم على معالجة الإحالة من منظور دلالي بحث ، واستبداله بطرح وظيفي أو مقامي هو ما أيده براون ويول في تحليلهما للخطاب ، ففهمنا لكلمات مثل (الدجاجة) و (الصحيفة) في الأمثلة الآتية :

(أ) نقرت الدجاجة الأرض (ب) كانت الدجاجة مع صلصة اللوبيا لذيدة .

(أ) تزن الجريدة خمسة أرطال (ب) أنهت الجريدة عقد جون .

يعتمد على معرفتنا المقامية بالمجال الإحالي لمثل هذه الكلمات ، وهو مجال شديد التحديد متأثر بطبيعة الإسناد وبسياق الكلام ، ولنا أن نقول هنا إنّ هذه العوامل تؤثر في تصوّر (السامع / القارئ) للكيانات الواردة في الخطاب^(٢) .

ويرى يول وبراون أنّ السبب في الغموض الذي يجعل بعضهم يعدّ ألفاظاً من مثل (رجل) و (فتاة) .. تعابير غير محيلة هو كونها تردّ من دون سياق تنتظم فيه .

ويريان أنّنا في تحليل خطاب طبيعي سنجد مؤشرات سياقية أو نصيّة تدلّ على كون هذه الألفاظ محيلة .

وهو ما أذهب إليه وأسوق له مثالا قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ الزخرف : ٣١ .

(1) See: Jan Renkema : Discourse studies, P: 75.

وانظر « علم لغة النص النظرية والتطبيق » ١٢١ .

(٢) انظر « تحليل الخطاب » ٢٥٥ ، و « علم لغة النص النظرية والتطبيق » ١٢٢ .

فيبدو للوهلة الأولى أنّ لفظ (رجل) غير محيل ، أو أنّ إحالته ضبابية ، لكننا نستنتج من سياق الآية ، ومعرفة سبب نزولها غير ذلك ، فقد قال المفسرون : « يعنون الوليد بن المغيرة في مكة ، أو عروة بن مسعود الثقفي في الطائف »^(١).

وهذا يعني أنّ في ذهن من أوردت الآية لفظ (رجل) على لسانهم محالاً عليه أو أكثر من محال عليه ، رجل من مكة هو (الوليد بن المغيرة) ورجل من الطائف هو (عروة بن مسعود) .

وأشير في هذا السياق إلى مسألة المنادى النكرة (المقصودة وغير المقصودة) ، فالمقصودة تعبيرٌ محيل بالتصوّر الذي يقدمه يول وبراون ؛ لأنّها في ذهن المرسل مرجعاً محدّداً ، لذا عدّ النحويون النكرة المقصودة من المعارف ، أمّا النكرة غير المقصودة فهي خلاف ذلك^(٢) .

رابعاً : عناصر السياق في القصص القرآني :

قبل أن أسوق نماذج من القصص القرآني أبين فيها دور السياق في فهم الإحالة أوّدأ أفضل القول في عناصر هذا السياق ؛ لننتقل من أساس واضح في تحليل إحالات النصوص القصصية في القرآن الكريم ، ودور السياق فيها .

وتعدّ الإحاطة بتلك العناصر من مقوّمات سياق الموقف ، ومن عوامل اكتشاف دلالات النصّ القرآني .

(١) « صفوة التفاسير » للصابوني ، دار الصابوني ، القاهرة ، ط ٩ ، د.ت . ٣ : ١٥٦ .

(٢) انظر « تحليل الخطاب » ٢٤٨ . و « الإحالة في القرآن الكريم » ١٤ .

١ - المخاطب :

يعدّ المخاطب عنصرًا رئيسًا في سياق التخاطب ، فهو الذي يوجه مقصد الخطاب بما يناسب المقام ، لذلك يختلف الخطاب تبعًا لاختلاف المخاطب ، ويظهر « فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلّموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم »^(١) .

واللغة ليست إلا وسيلة يتوسّل بها المتكلّم للتعبير عن مراده ، وعلى المخاطب أن يجتهد في معرفة مراد المخاطب ؛ لأنّ « الألفاظ لم تقصد لذواتها ، وإنّما هي أدلّة يستدلّ بها على مراد المتكلّم ، فإذا ظهر مراده ووضح بأيّ طريق كان عمل بمقتضاه ، سواء كان بإشارة ، أو بكتابة ، أو بإيماء ، أو دلالة عقلية ، أو قرينة حالية ، أو عادة له مطردة لا يخلّ بها ، أو من مقتضى كماله وكمال أسمائه وصفاته »^(٢) .

ومن المسلّم به في القصص القرآني ، وفي القرآن كلّهُ أنّ المخاطب هو الله تعالى ، لكنّه قد يأتي بالخطاب على لسان أحد الأنبياء أو الأقوام أو غيرها من شخصيات القصص القرآني ، وتختلف دلالة النصّ تبعًا لاختلاف المخاطب ، وقد كان المفسّرون يراعون حال المخاطب ؛ لأنّه أحد عناصر السياق .

والله سبحانه هو مخاطبُ أبلغ ما يقال فيه في هذه الجزئية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى : ١١ . من المخاطبين الذين تناولتهم الدراسات اللسانية الحديثة لقيامها على أرضية يحمل أصحابها أفكارهم وآراءهم ، بل وإيدلوجيتهم الخاصة لاجتهادات قرآنية

(١) « دلائل الإعجاز » ٤٣ .

(٢) « إعلام الموقعين عن رب العالمين » لابن القيم ، ١ : ٢١٨ .

من قبل النقاد ، قد تصيبُ وتخطئ ، وما ينتج من خطاب يخضعه بعضهم لما يحركه من دوافع نفسية فيزيولوجية ^(١) .

فخطابه عزيزُ المنال ، جاء على أجمل ترتيب وأروع تنظيم ، محققاً هدفه المنشود في الدعوة بالموعظة الحسنة ، مناسباً وملائماً لكل مخاطب ، وفقاً لحالته النفسية ، ومدعماً بالحجج والبراهين ، يكتنفه جمال التعبير ، ورقي التصوير .

فالقرآن الكريم امتاز ببيان أساليبه وتنوع خطاباته وسياقاتها التي جذبت أنظار العلماء والمفسرين والكتّاب والشعراء وغيرهم من أهل البيان والفصاحة ، فراحوا يتأملون جماله وسحر بيانه المتمثلة في تكوين خطابه وإيجازه وإطنابه ، وحسن سياقه ومقاطعته وقوافيه وجزالة ألفاظه وسلاستها ، وبديع نظمه ، فسخرُوا أqlامهم للأخذ من معينه ، مستنبطين ما به من بيان ومعان وبديع .

وبدراسة الخطاب يكون لزاماً علينا أن نتناول إحدى ركائزه الأساسية ، وهي مصدر الخطاب المستوجب لموجده ، وهو (المخاطب) ، إذ لا خطاب إن لم يكن هناك مخاطب ، وفيه دلالة على أسبقية المخاطب للخطاب .

والمخاطب لم يحظَ بالاهتمام الكافي عند النقاد ، فقد « درجت الدراسات التحليلية على العناية بموقف المتلقي من النص دون العناية بموقف منتج النص ... ولا نكاد نجد في تراثنا العربي من يعنى بجانب الصياغة (التي هي من عمل المخاطب) إلا عبد القاهر الجرجاني الذي اقترح للصياغة أربع مراحل ، هي : النظم والبناء والترتيب

(١) انظر « وصف اللغة العربية دلاليًا في ضوء مفهوم الدلالة » ١٣١ .

والتعليق ... وهو بذلك سابقٌ بعدة قرون للدراسات اللغوية النفسية الحديثة التي تتناول إنتاج النصّ اللغوي»^(١).

ومن اللافت للنظر أن كثيرًا من هذه الدراسات توسّلت بالخطاب ليكون مرآة تعكس الصورة الحقيقية للمخاطب، بل وأكثر من ذلك كي يفتتح به منطلقات المخاطب وأهدافه، ومقدار الأثر الذي يستطيع تركه في المخاطب، مما يعني أن يصبح الخطاب قوام الكشف لنمط التفكير عند صاحبه، فتكشف بذلك مقدار البراعة التي يمتلكها المخاطب وعبقريته^(٢).

وإذا كان الفعل الصادر من المخاطب يتمثل في عملية التركيب «أي: صياغة المفاهيم والتصورات المجردة في نسق كلامي محسوس يُنقل عبر القناة الحسية بواسطة الأداة اللسانية»^(٣) فإنّ «الغاية التي يسعى المخاطب إلى تحقيقها عن طريق الخطاب، ودور هذه الغاية يبدو في تأثيرها في أسلوب الخطاب وفرضها نوعًا معيّنًا من التعبير»^(٤).

ومما يحقق نجاح الغاية المرادة قدرة المخاطب في أداء مهمته المتمثلة في عملية الاختيار، فمهمة المخاطب تبدو بوضوح في انتقاء الأمثلة من اللغة، والتنوعات التي هي أعضاء في المناويل اللغوية المجردة، ويخضع اختياره لمقاصده الإبداعية^(٥).

(١) «النص والخطاب والإجراء» ٥.

(٢) انظر «الأسلوبية والأسلوب» د. عبد السلام المسدي، ٧٠.

(٣) «الأسلوبية والأسلوب» ٦٣.

(٤) «المعنى وظلال المعنى» ١٥٤.

(٥) انظر «المعنى وظلال المعنى» ١٥٢.

وتبقى مهمة المخاطب غير يسيرة لبلوغ الغاية من الخطاب ، وحصول الأثر في المخاطب ، إذ عليه القيام بتكييف صيغة خطابه ، بحسب أصناف الذين يخاطبهم ، وهذا (التكييف) أو (التأقلم) ليس اصطناعيًا ؛ لأنه عفوي ، قلما يصحبه الوعي المدرك^(١) .

ولأهمية معرفة المخاطب في السياق القرآني حرص المفسرون على إحالة كل نص إلى قائله ، فإذا خفي استدلوا عليه بالسياق اللغوي ، ومثال ذلك قوله تعالى في قصة مريم عليها السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران : ٤٢ ، فالمراد بالملائكة هنا جبريل وحده ، ويؤكد ذلك النظر في السياق اللغوي كاملاً الذي وردت فيه قصة مريم في سور القرآن ، إذ يدل السياق على أن المتكلم مع مريم عليها السلام هو جبريل عليه السلام ، وذلك من خلال قوله تعالى : ﴿ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ مريم : ١٧^(٢) .

٢ - المخاطب :

إن « القرآن كله قائم على رعاية حال المخاطبين ، فتارة يشتد وتارة يلين ، تبعاً لما يقتضيه حالهم ، سواء منهم مكّيهم ومدنيهم ، بدليل أنك تجد بين آيات السور المكيّة والمدنيّة ما هو وعدٌ ووعيد وتسامح وتشديد ، وأخذ ورد ، وجذبٌ وشدٌ »^(٣) .

(١) انظر « الأسلوبية والأسلوب » ٨٠ .

(٢) انظر « التفسير الكبير » ٣ : ٢١٧ . و « دلالة السياق في القصص القرآني » ٢٤٢ - ٢٤٥ .

(٣) « مناهل العرفان » ١ : ١٤٩ .

والقصص القرآني قائم على الحوار ؛ لذا كان للمخاطب حضور فاعل كما كان للمخاطب ، وقد عني المفسرون بتحديد المخاطب وبيان طبيعته وأثر ذلك في دلالة النص القرآني ، إذ يبدوون في أغلب الأحيان بتحديد المخاطب ، ثم يفسرون الآيات مع مراعاة حركة النص تبعاً لطبيعة المخاطبين ، ثم يذكرون أثر الخطاب وفاعليته في المخاطبين ، ويبينون ردود أفعالهم ومصيرهم .

ويعني ذلك أن استحضار حال المخاطب يضيء دلالة النص ويكشف المقصود منه ، لكن المخاطب قد يكون غير ظاهر ، فتختلف الآراء فيه ، فيلجأ المفسرون إلى السياق لتحديده ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا أَدْخُلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ المائدة : ٢٠ ، وللوقوف على البنية الإحالية ودلالة السياق نقل قول الطبري في حديثه عن المخاطب بقوله : ﴿ وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ، يقول : « اختلف فيمن عنوا بهذا الخطاب ، فقال بعضهم : عني به أمة محمد ﷺ .. ، وقال آخرون عني به قوم موسى عليه السلام .. ، وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قول من قال : ﴿ وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ في سياق قوله : ﴿ أَدْخُلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ، ومعطوف عليه ، ولا دلالة في الكلام تدل على أن قوله : ﴿ وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ مصروف عن خطاب الذين ابتدئ بخطابهم في أول الآية ، فإذا كان ذلك كذلك فأن يكون خطاباً لهم أولى من أن يقال هو مصروف عنهم إلى غيرهم ، فإن ظنَّ ظانُّ أن قوله : ﴿ وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ لا يجوز أن يكون خطاباً لبني إسرائيل ، إذ كانت أمة محمد قد أوتيت من كرامة الله - جلَّ وعزَّ - بنبيها محمد ﷺ ما لم يؤت أحدٌ من غيرهم ، وهم من العالمين ، فقد ظنَّ غير الصواب ، وذلك أن قوله : ﴿ وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ خطاب من موسى عليه

السلام لقومه يومئذ، وعنى بذلك عالمي زمانه لا عالمي كل زمان ، ولم يكن أوتي في ذلك الزمان من نعم الله وكرامته ما أوتي قومه ﷺ أحد من العالمين ، فخرج الكلام منه ﷺ على ذلك ، لا على جميع عالم كل زمان ^(١) . ففي هذا النص دلالة واضحة على إدراك المفسر أهمية السياق اللغوي ، وسياق الحال في تحليل النص القرآني .

وقد يتن أن التحليل النصي لا بد أن يراعي عناصر الخطاب (المخاطب والمخاطب وموضوع الخطاب) ، فالمخاطب هو موسى - عليه السلام - والمخاطب إما قوم موسى - عليه السلام - أو قوم محمد ﷺ ، وموضوع الخطاب هو الامتتان على بني إسرائيل بنعم الله العظيمة .

ونلاحظ أن طبيعة المخاطبين كانت سبباً في اختلاف المفسرين في دلالة الآية ، والسياق هو المرجع الذي احتكم إليه الفريقان ، إذ استند الذين قالوا : إن المخاطبين بالآية السابقة هم أمة محمد ﷺ إلى السياق الثقافي والعاطفي ، لأن أمة محمد ﷺ خير الأمم ، لكنهم تجاهلوا الدلالات السياقية الأخرى ، وهذا « خلاف الظاهر ... لأن الخطابات السابقة واللاحقة لبني إسرائيل ، فوجود خطاب في الأثناء لغيرهم مما يُخل بالنظم الكريم » ^(٢) .

كما نلاحظ مراعاة حال المخاطب في ضوء الدلالات السياقية اللغوية والحالية ، وقد استند الذين قالوا : إن المخاطبين هم (بنو إسرائيل) إلى الدلالات السياقية الآتية :

١ - سياق الآيات في خطاب بني إسرائيل ، والآية بُدئت بخطاب بني إسرائيل ، ولا توجد دلائل تصرف هذا الخطاب .

(١) « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » للطبري ، تح : د. عبد الله التركي ، ١٠ : ١٦٤ - ١٦٦ .

(٢) « روح المعاني » ٦ : ١٠٦ .

٢ - المخاطب في هذه الآية هو موسى - عليه السلام - وخطابه متجه حتمًا إلى بني إسرائيل .

٣ - لفظ (العالمين) ليس عامًا ، وإنما هو مخصص بزمن الخطاب ، فلا تدخل أمة محمد في ذلك ، وزمن الخطاب من عناصر السياق الحالي التي يجب مراعاتها في تحليل الخطاب وتفسيره ^(١) .

٣- موضوع الخطاب وغرضه :

عني علماؤنا ولا سيما دارسي القرآن بتحديد موضوع الخطاب وغرضه ، وهذا يدل على إدراكهم أهمية ذلك في كشف الدلالات وتوجيهها .

ويجب النظر إلى القرآن الكريم بوصفه كلاً متماسكاً ، يعالج موضوعاً كلياً واحداً ، ويرمي إلى غرض واحد هو تحقيق الغاية من الخلافة على الأرض .

وقد تميّزت « كل سورة من سور القرآن بشخصية متفرّدة ، ذات ملامح متميّزة ، وذات منهج خاص ، وذات أسلوب معين ، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد وهذه القضية الكبيرة ، إنها تجتمع على الموضوع والغاية ، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة ، وطرائقها المتميّزة ، ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع ، وتحقيق هذه الغاية » ^(٢) .

(١) انظر « دلالة السياق في القصص القرآني » ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٢) « في ظلال القرآن » لسيد قطب ، ٣ : ١٢٤٣ .

ويتصل غرض الخطاب بقصد المخاطب وموضوع الخطاب ، « وإذا كان الكلام منصّباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له ، وتوجّهه إليه كأنّ ما سواه مرفوض مطّرح »^(١).

ويؤثر موضوع الخطاب في تلوين الخطاب وتوجيه الإحالات الضميرية ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿ الشعراء : ٧٨ - ٨٠ .

ففي هذه الآيات مسألان تتعلّقان بموضوع الخطاب :
أما الأولى : فهي زيادة (هو) قبل الإطعام والشفاء ، وعدم الزيادة قبل الخلق ؛ لأنّ الخلق لا يدّعيه أحد فلا يحتاج إلى تأكيد ، على خلاف الإطعام والشفاء فهما مما يدّعي الإنسان أن يفعله ، فأكد إعلاماً أن ذلك منه سبحانه لا من غيره^(٢).

وأما الثانية : فهي أنّ إبراهيم - عليه السلام - نسب الخلق والهداية والإطعام والسقي والشفاء إلى الله عزّ وجلّ ، ونسب المرض إلى نفسه (مرضت) ، ولم يقل : (أمرضني)^(٣) تأدّباً مع الله تعالى ؛ لأنّ المرض معنى نقصي وليس من جنس المعاني السابقة^(٤).

(١) « الكشاف » ٣ : ٣١٨ .

(٢) « البرهان في توجيه متشابه القرآن » للكرماني ، تح : عبد القادر أحمد عطا ، ١٥٥ .

(٣) « البرهان في علوم القرآن » ٤ : ٥٩ .

(٤) « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » لابن عطية ، تح : عبد السلام عبد الشافي ، ٤ : ٢٣٤ .

- ٢٣٥ ، و « البرهان في علوم القرآن » ٤ : ٦٠ .

ومن قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٧٦) وَأَمَّا الْفُلَانُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرْدْنَا أَنْ يَبْدُلَهُمَا رُحْمًا حَيْرَانًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿ الكهف : ٧٩ - ٨٢ ، فالعبد الصالح لما أراد ذكر عيب السفينة نسبه لنفسه تأدبًا مع الله تعالى ، ولما كان موضوع الخطاب هو قتل الغلام ، وهو مشترك الحكم بين المحمود والمذموم قال : (فأردنا) ، ليكون الجانب المحمود من قتل الغلام وهو راحة أبويه المؤمنين من كفره منسوبًا إلى الله سبحانه ، ويكون المذموم ظاهرًا وهو قتل نفس بغير حق منسوبًا إليه . ولما كان موضوع الخطاب إقامة الجدار ، وهو خير محض نسبه إلى الله تعالى ، فقال : (فأراد ربك) (١) .

وهذا يعني أن موضوع الخطاب يؤثر في تلوين الخطاب ، فقد تغيرت إحالة الضمير تبعًا لتغير موضوع الخطاب وغرضه .

ومما سبق ذكره نخلص إلى الأمور الآتية :

١ - إن سياق التخاطب محكوم بثلاثة عناصر متشابكة ، هي : المخاطب ، والمخاطب ، وموضوع الخطاب وغرضه ، وهي من عناصر سياق الحال .

٢ - إن المخاطب حين يصوغ خطابًا ما يكون محكومًا بموضوع الخطاب وغرضه وحال المخاطب ، ويعد هذا من شروط نجاح عملية التواصل .

(١) « البرهان في علوم القرآن » ٤ : ٦٠ .

٣ - إن من أهم شروط القراءة الصحيحة للنص مراعاة حال المخاطب والمخاطب ، وموضوع الخطاب ، فضلاً عن السياق اللغوي ^(١) .

٤ ، ٥ - مكان النزول وزمانه :

عني البلاغيون بزمان الخطاب ومكانه من خلال اهتمامهم بسياق الحال أو المقام؛ لأن الأمر الذي يدعو المتكلم إلى تقديم صياغته على وجه معين إما أن يتصل بزمن هذه الصياغة فيسمى (الحال) ، وإما أن يتصل بمكانها ومحلها فيسمى (المقام) ، فكل خطاب لا بد له من بُعد زمني وبعد مكاني يقع فيه ، ومن هنا ارتبطت فكرتا الحال والمقام بالخطاب ، واختلاف الحال والمقام يؤدي إلى اختلاف صور الخطاب ^(٢) .

فمحلل الخطاب يحتاج إلى معرفة « موضوع الكلام ، وفي أيّ جو يقال ، وفي أي مكان وأي زمان ، وكيف يقال ، وما الداعي لقوله ، وغير ذلك من العناصر الكثيرة جداً التي يؤثر كل منها تأثيراً مباشراً على كيفية قول الكلام ، وعلى تركيبه ، وعلى معانيه ، وعلى الغرض من قوله » ^(٣) .

وإنّ دارس النص القرآني ليجتاز إلى معرفة مكان النزول وزمانه ، وقد نقل الزركشي عن أبي القاسم النيسابوري قوله : « إنّ من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً ، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك ، ثمّ ما نزل بمكة وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي ، ثمّ ما نزل ليلاً ، وما

(١) « دلالة السياق في القصص القرآني » ٢٥٣ - ٢٥٥ .

(٢) انظر « البلاغة والأسلوبية » د. محمد عبد المطلب ، ٢٢٩ .

(٣) « أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة » نايف خرما ، ٩٩ .

نزل نهارًا ، ... هذه خمسة وعشرون وجهًا مَنْ لم يعرفها لم يحلّ له أن يتكلّم في كتاب الله تعالى^(١) .

وللعلماء جهود بارزة في ذلك ، إذ تتبّعوا القرآن آية آية ، وسورة سورة ، لترتيبها على وفق نزولها ، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب .

وقد وضعوا معايير مختلفة في تحديد المكي والمدني ، ومن ذلك :

١ - مراعاة زمن النزول : فالمكي هو ما نزل قبل الهجرة ، وإن كان في غير

مكة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ، وإن كان في غير المدينة .

٢ - مراعاة مكان النزول : فالمكي هو ما نزل بمكة وما حولها ، والمدني ما نزل

بالمدينة وما حولها ، سواء أكان قبل الهجرة أم بعدها .

٣ - مراعاة الخطاب : فالمكي هو ما كان خطابًا لأهل مكة ، والمدني ما كان خطابًا

لأهل المدينة ، ويبنى على هذا أنّ ما في القرآن الكريم من قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا

النَّاسُ ﴾ مكي ، و ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ مدني^(٢) .

وتعدّ معرفة زمن النزول ومكانه من أهمّ العوامل المساعدة على فهم النصّ ومعرفة

قصد المخاطب وغرض الخطاب ، فضلًا عن تحديد الناسخ والمنسوخ .

ومعظم القصص القرآني نزل في مكة قبل الهجرة ، إذ جاء مليًا لمقتضيات المرحلة

المكية ، ففيه تسليّة لرسول الله ﷺ ، وتثبيت لفؤاده ، لما كان يلقي من أذى المشركين

وتكذيبهم إيّاه ، فضلًا عن إنذار المكذبين وتذكيرهم بمصير الأمم المكذبة ، وجاء

(١) « البرهان في علوم القرآن » ١ : ١٩٢ .

(٢) « البرهان في علوم القرآن » ١ : ١٨٧ - ١٨٩ ، و « الإتيان في علوم القرآن » ١ : ٢٣ ،

و « مباحث في علوم القرآن » ٦٩ .

القصص القرآني على أنواع مختلفة ليناسب مقتضيات الأحوال .

٦ - سبب النزول :

من أهم ما ينبغي معرفته لمحلل النصّ القرآنيّ هو معرفة أسباب النزول ؛ لأنها تكشف ظروف التنزيل ، ومناسبة النص للواقع .

ومن فوائد معرفة أسباب النزول : معرفة الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، وفهم المعنى المراد وإزالة الإشكال ، وتخصيص اللفظ العام .. وغيرها ^(١) .

كما أنّ سبب النزول « يمكن المفسر من القراءة الصحيحة للنصّ ، ثم يجعله مقارناً لاكتشاف الدلالة ، وليس المقصود بالقراءة الصحيحة تصحيح النصوص ، بل المقصود : التوجيه الصحيح لدلالة الألفاظ والعبارات » ^(٢) .

وتقتصر أسباب النزول على الأحداث التي وقعت في عهد الرسول ﷺ ، ولا يُعدّ منها ما وقع من أحداث في العصور الماضية ، ولذلك فأسباب النزول المتصلة بالقصص القرآني قليلة .

وتبدو صلة بعض القصص القرآني بأسباب النزول من وجهين :

أحدهما : مجيء القصة جواباً عن سؤالٍ من بعض معاصري رسول الله ﷺ . مثل قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذي القرنين .

والآخر : استحضار القصة في حدث مشابه وقع في عهد الرسول ﷺ ^(٣) . كما في

(١) « البرهان في علوم القرآن » ١ : ٢٢ .

(٢) « مفهوم النص » د. نصر أبو زيد ، ٢٣ . وانظر « نظرية النص » ١٨٥ .

(٣) « دلالة السياق في القصص القرآني » ٢٦٢ .

بعض قصص موسى - عليه السلام - مع قومه .

وقد قال الإمام الشاطبي - رحمه الله - : « معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن ، والدليل على ذلك أمران :

أحدهما : أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال : حال الخطاب من جهة الخطاب نفسه أو المخاطب أو المخاطب أو الجميع ، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ، وبحسب مخاطبين ، وبحسب غير ذلك ، كالاستفهام لفظه واحد ويدخله معانٍ آخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك ، وكالأمْر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها ، ولا يدلّ على معناها المراد إلا الأمور الخارجة ، وعمدتها مقتضيات الأحوال ، وليس كلُّ حالٍ يُنقل ، ولا كلُّ قرينة تقتن بالكلام المنقول نفسه ، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملةً ، أو فهم شيء منه .

ومعرفة الأسباب رافعةٌ لكلِّ مُشكل في هذا النمط ، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بدّ ، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال . وينشأ عن هذا الوجه :

الوجه الثاني : وهو أن الجهل بأسباب التنزيل مُوقِع في الشبهة والإشكالات ، ومُورِد للنصوص الظاهرة موردَ الإجمال حتى يقع الاختلاف ، وذلك مظنةٌ وقوع التّزاع ^(١) .

ومن خلال هذا النص يتبيّن لنا أن من أهمّ سبل إعجاز نظم القرآن معرفة مقتضيات الأحوال (سياق الحال) ، وتشمل حال المخاطب والمخاطب وموضوع الخطاب وغرضه .

(١) « الموافقات » للشاطبي ، تح : مشهور آل سلمان ، ٤ : ١٤٦ .

كما أنّ الخطاب قد يخلو من القرائن اللغوية الدالّة على حال المخاطب أو المخاطب أو الخطاب ، فيحدث الإشكال ، ويخفى مراد المخاطب ودلالة الخطاب ، وفي هذه الحال يجد المفسّر في سبب النزول بغيته ، إذ يتبيّن مقتضى الحال وملابسات الخطاب ، وقد يكشف عن حال المخاطب والمخاطب وغرض الخطاب ومكان النزول وزمانه والظروف المحيطة به .

ونلاحظ في هذا النص وقوف الإمام الشاطبي على مصطلح الخطاب والمخاطب والمخاطب ، وهي مصطلحات شائعة في الدرس الحديث ، مما يدلّ على أنّ العلماء القدامى درسوا القرآن في ضوء سياق الخطاب ، وراعوا ملابسات الخطاب وظروفه ، ويكونون بذلك قد سبقوا أصحاب نظريات الخطاب والتلقّي بمئات السنين^(١) .

(١) « دلالة السياق في القصص القرآني » ٢٦٦-٢٦٧ .

أثر السياق في فهم الإحالة :

مثال تطبيقي (١)

قصة البقرة

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّوا هُزُؤًا قَالِ أَعِودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْذُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيعَةَ فِيهَا قَالُوا أَالتَنَ حِثَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا قَادَرْتُمْ عَلَيْهَا فَاذْرَوْهَا ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ خُجِّرَ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارِ لَمَ يَنْفَجِّرُ مِنْهُ الْآنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَ يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَ يَهَيِّطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ البقرة: ٦٧ - ٧٥ .

تَمَيَّزَ هذا النَصُّ القصصي بسلسلة إحالية منسجمة ، خصوصًا أنَّ أكثر الإحالات فيه قد وردت بصورة لا لبس فيها ، فهي داخلية قبلية ، جاءت على الأصل في نظام العربية ، حيث تكون الإحالة على المتقدِّم .

ولكننا بحاجة إلى الاعتماد على السياق في تفسير عدد من الإحالات التي لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى السياق اللغوي الذي وردت فيه القصّة ، فلا بدّ من أن نربطها بما قبلها ، وكذلك الرجوع إلى السياق المقامي الخارجي المتعلّق بمناسبة النص لما قبله

وبأسباب النزول والزمان والمكان والمخاطب والمخاطب ، وهو ما سنتبينه فيما يأتي :

أ- مناسبة النص لما قبله :

تميّزت قصة البقرة من بين الكثير من القصص القرآني بأنها لم تذكر إلا في موضع واحد ؛ لذا جاءت مستقلة ومنفصلة في صورة حكاية ، وليست مجرد إشارة فحسب .

ابتدأ هذا النص القصصي بأداة ربط ضمن سلسلة متهاسكة ، مشكلة حلقة ربط عكست انسجامًا إحيائيًا بديعًا .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ حيث ربطت بين قصة البقرة هذه وقصص موسى مع بني إسرائيل السابقة عليها ، التي تدور كلها بدءًا من قوله تعالى : ﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ البقرة : ٤٧ . حول بيان صفات بني إسرائيل المقيمة المتمثلة في إنكار نعمة الله عليهم ، و« في نقض أوائلهم الميثاق الذي أخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه ، فقال لهم : واذكروا أيضًا من نكثكم ميثاقي ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ - وقومه بنو إسرائيل الذين اذارؤوا في القتل الذي قُتل فيهم إليه - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ... ﴾^(١) .

(١) « تفسير الطبري » ٢ : ٧٥ .

ب- العناصر الإشارية العاملة في النص :

١- ﴿مُوسَى﴾ : هو هنا العنصر الإشاري العامل الأول في هذه القصة ، وقد ورد في الجملة الأولى منها ، ويشكّل هذا العنصر بؤرة إحالية مهمة في النص القصصي ، حيث تمتد منه سلاسل إحالية لتتوزع في معظم أرجاء النص ، وقامت بالربط بين بداية القصة ونهايتها من خلال حلقات ضميرية متماسكة ، هي : (قومه ، وتتخذنا ، وقال ، وأعوذ ، وأكون ، وادع ، وربك ، وقال ، وادع ، وربك ، وقال ، وربك ، وقال ، وجئت) ، وبنهاية القصة الأولى انقطعت تلك السلسلة الإحالية ، فلم يعد لموسى أي ارتباط بغيره من العناصر بعد الآية الخامسة من القصة .

ويعد (موسى) هو العنصر الإشاري الثاني من حيث الترتيب الذي استحوذ على أكبر عدد من الإحالات في هذا النص القصصي ، حتى بلغت العناصر الإحالية المرتبطة به (١٥) إحالة .

٢- ﴿لِقَوْمِهِ﴾ : المراد (قوم موسى) ، والضمير هنا يحيل على العنصر الإشاري الأول في النص ، والسياق اللغوي للآيات أرشدنا إلى أنّ المحال إليه بالضمير في (قومه) هو موسى عليه السلام ، بحسب مبدأ القرب النحوي الذي ينصّ على أنّ الأصل في إحالة الضمائر أن يكون على أقرب مذكور ، ولا يوجد هنا ما يصرفنا عن العمل بهذا المبدأ من حيث الدلالة .

و(قوم موسى) هو العنصر الإشاري العامل الثاني في هذه القصة ، وقد احتلّ المقام الأول من حيث الترتيب في عدد الإحالات الضميرية عليه في هذا النص القصصي ، حيث بلغ عدد الإحالات عليه (٢٧) إحالة ، ممّا يؤهله إلى أن يكون هو المرتكز الضوئي والمحور الأساس الذي تدور حوله آيات هذا النص القصصي ، السابق منها واللاحق .

وهنا يكمن السر وراء استعمال الضمائر وسائر الأدوات الإحالية ، فمن خلالها نستطيع الوقوف على المرتكز الضوئي الذي يرسل إشعاعاته لينير بعض العناصر المبهمة في النص ، ونستطيع الوقوف على المركز المحوري الذي نسجت تلك الآيات من أجله .

فالقصة وإن كانت تدور حول الحديث عن (البقرة) لكن الحديث عنها جاء في بضع آيات فقط ، بخلاف الحديث عن (قوم موسى) وهم بنو إسرائيل الذين تحدثت عنهم الآيات السابقة واللاحقة ، ويتضح لنا من وراء ذلك أن الحديث عن (البقرة) لم يكن مقصوداً لذاته ، بل جاء في سياق الحديث عن بني إسرائيل ، وكانت هذه القصة لبيان صفة من صفاتهم وهي السخرية بالأنبياء ، والتلكؤ في الاستجابة لشرع الله وأوامره .

وقد امتدّت من (قوم موسى) سلاسل إحالية متماسكة شملت النص من بدئه إلى منتهاه ، وهي على النحو الآتي : (يأمركم ، تذبحوا ، قالوا ، تتخذنا ، قالوا ، لنا ، افعلوا ، تؤمرون ، قالوا ، لنا ، لنا ، قالوا ، لنا ، لنا ، علينا ، إنّا ، قالوا ، ذبحوها ، كادوا ، يفعلون ... ، قتلتم ، ادارأتم ، كتمتم ، تكتمون ، اضربوه ، قلوبكم ، تعملون) . ونلاحظ هنا أهمية الجملة الأولى في النص التي حوت أبرز العناصر الإشارية العاملة ، التي أمدت النص بسلاسل إحالية ساعدت على ترابطه وتماسكه وانسجامه .

٣ - ﴿ اللَّهُ ﴾ : لفظ الجلالة هو العنصر الإشاري العامل الثالث في النص ، وقد احتل المرتبة الرابعة في إحالات الضمائر عليه ، حيث بلغ عدد الإحالات عليه (١٣) إحالة ، ابتدأت من أول كلمة تالية عليه (يأمركم) وامتدّت حتى نهاية هذا النص القصصي ، وهي : (يأمركم ، ربك ، يبين ، إنه ، يقول ، ربك ، يبين ، إنه ، يقول ، ربك ، يبين ، إنه ، يقول ...) .

وقد تنوعت هنا الإحالة إلى لفظ الجلالة ما بين الإحالة الضميرية ، والإحالة المعجمية ، حيث أحيل إليه بألفاظ ليست من قبيل الضمائر، مثل : (رب) ، والمقصود به (الله) الأمر الذي ورد ذكره في أول جملة ابتدأت بها القصة .

٤ - ﴿ بَقَرَةٌ ﴾ : هي العنصر الإشاري العامل الرابع في هذا النص القصصي ، وقد بلغت عدد العناصر المحيلة إليه (١٥) عنصرًا إحاليًا ، وجاءت الإحالات إليه في المرتبة الثانية على مستوى العناصر الإشارية في النص متساوية مع العنصر (موسى) في العدد .

وتنوعت هذه الإحالات ما بين الضميرية والمعجمية ، وهي : (هي ، إنها ، بقرة ، لونها ، إنها ، بقرة ، تسرّ ، هي ، البقر ، تشابه ، إنها ، بقرة ، تثير ، تسقي ، فيها ، ذبحوها ، ببعضها) .

ولا يخفى أنّ البقرة هي محور مهمّ في هذه القصّة القرآنية ، وتتجلى تلك الأهمية في كون السورة الأولى في القرآن ، وأطول سورة في القرآن قد سمّيت بـ (البقرة) ، وهي البقرة المذكورة في هذه القصة .

وتسمية السورة باسم معيّن « ليس إلّا تعضيّدًا لتقليد معلوم لدى العرب ، وهو تقليد يراعي في كثير من المسميات أخذ أسماؤها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصّه ... ، ويسمّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بها هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز »^(١) .

ومن هنا جاءت تسمية سورة البقرة « بهذا الاسم ؛ لقرينة ذكر البقرة المذكورة فيها

(١) « البرهان في علوم القرآن » ١ : ٢٧٠ .

وعجيب الحكمة فيها» ^(١). فهناك علاقة وثيقة وقصدية بين السورة واسمها .

ثم توالى بعد ذلك بعض العناصر الإشارية العاملة التي ارتبطت بشبكة إحالية ضعيفة بالمقارنة بما ورد في عناصر الجملة الأولى ، نحو :

- (نفساً) ولها إحالة واحدة عليها هي قوله : (فيها) .
- (قلوب بني إسرائيل) ولها إحالة واحدة عليها هي قوله : (هي) .
- (الحجارة) ولها أربع إحالات عليها .

وقد أسهمت تلك العناصر في تلوين جوانب متعددة من اللوحة الإحالية ، لكنها لم تشكل محوراً أساساً في البنية الإحالية للقصة .

كانت العناصر الإشارية السابقة (موسى ، قوم موسى ، الله ، البقرة) هي مما احتوته الجملة الأولى في النص القصصي ، ومن هنا تبرز أهمية العناية بالجملة الأولى عند تحليل أي نص ؛ لأنها في الغالب تكون بمثابة اللبنة الأساس التي يقوم عليها البناء النصي ، وقد ظهر ذلك جلياً في هذه القصة .

وأنتقل إلى الحديث عن العناصر الإشارية الخارجية في هذا النص ، وأقصد بها ذلك العنصر الإحالي في هذه القصة الذي يحيل إلى عنصر إشاري ليس له ذكر صريح في إطار هذا النص القصصي ، فنلجأ حينئذ إلى الاعتماد على السياق اللغوي أو الحالي لتفسير تلك الإحالات المبهمة في هذه القصة .

(١) « البرهان في علوم القرآن » ١ : ٢٧٠ . وانظر « الإتيقان في علوم القرآن » ١ : ١٦٠ .

ومن تلك الإحالات :

١ - قوله تعالى : ﴿ أَضْرِبُوهُ ﴾ ، فالضمير هنا يحيل على (القتيل) ، ولكنه لم يذكر صراحة ، بل استدللنا عليه من خلال السياق اللغوي المستفاد من فحوى خطاب سابق ، وهو قوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ ^(١) .

٢ - قوله : ﴿ بَعْضُهَا ﴾ ، فأقرب مذكور يمكن أن يُحال عليه فيه مطابقة للضمير المفرد المؤنث الغائب هو قوله : (نفسًا) ، ولكن المعنى لا يستقيم ، ومن خلال الاستعانة بالسياق اللغوي نجد أن قوله : (ببعضها) يُحيل على (البقرة) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ .

ونلاحظ هنا بُعْدَ الإحالة ، حيث تجاوزت عشرات الجمل ، ولولا اللجوء إلى السياق السابق لما استطعنا أن نوجد مرجعًا مناسبًا يفسّر لنا ذلك الضمير . وقد برز بجلاء هنا دور الذاكرة في تفسير هذه الإحالة .

وهذا البُعد الإحالي قد أسهم في ربط أحداث قصتين متداخلتين ، فبعد أن اخترق المخاطب أحداث القصة الأولى التي تضمّنت الأمر لبني إسرائيل بذبح البقرة بقصة أخرى تضمّنت الحديث عن نفس قتلها بنو إسرائيل ثم تدافعوا في درء التهمة عن أنفسهم ، جاء هذا الضمير - الذي يُظنُّ أنه ملبس ، ويُظنُّ أنه سبب في تشويش فهم القارئ والمتلقي وإرباكه بسبب بعد المحال عليه عن عنصر الإحالة - ليعيد إلى الذهن أحداث القصة الأولى بعد أن اختُرقت بقصة أخرى ، فتلتحم القصتان في نسيج متماسك هو قِمة في الإثارة الذهنية ؛ لأن أحداث القصة الأولى هي نتيجة عن القصة الثانية ومرتبة عليها ، فالأمر بذبح البقرة إنما كان بعد القتل ، وكان الأصل - بحسب

(١) وقيل : إنه يحيل على (النفس) ، وقد ذكّر الضمير هنا لتأويل النفس بالشخص أو الإنسان . انظر « مرجع الضمير في القرآن الكريم » د. صبرة ، ٨٥ .

الظاهر - أن يقدم قوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا ﴾ على قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾^(١).

وفي هذا الموضع يجدر بنا التطرق إلى مسألة مهمة في التماسك النصي ، وهي : (ترتيب الخطاب) ، فلا شك « أن لترتيب الوقائع والأحداث في الخطاب بحسب ما تقع في الخارج أهمية في انسجام الخطاب ، وكثيرا ما يؤدي تداخل الترتيب في خطاب ما إلى عدم انسجامه ، وقد اعتنى المفسرون - كلٌ من زاوية اهتمامه - بترتيب الخطاب ، فمنهم من اهتم بفائدة قلب الترتيب ، ومنهم من اهتم بسبب ترتيب الخطاب ترتيبا معينا »^(٢).

قال الزمخشري : « فإن قلت : فما للقصة لم تقصّ على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدم ذكر القتل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ، وأن يقال : وإذ قتلتم أنفسا فاذا رأتهم فيها فقلنا : اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ، قلت : كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قصّ تعديدا لما وجد منهم من الجنايات وتقريعا لهم عليها ، ولما جدّد فيهم من الآيات العظام ، وهاتان قصتان كلّ واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدثين : فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك . والثانية : للتقريع على قتل النفس المحرّمة وما يتبعه من الآفة العظيمة ، وإنّما قدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل ؛ لأنّه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض في تشنية التقريع .

ولقد روعيت نكتة بعدما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها إن وصلت بالأولى

(١) انظر « التحرير والتنوير » ١ : ٥٤٦ .

(٢) « لسانيات النص » ١٨٣ .

دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله : ﴿ أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ حتى
تبيّن أنها قصتان فيما يرجع إلى التقرير وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع
تأخيرها ، وأنها قصّة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة ^(١).

ونلاحظ في كلام الزمخشري هنا ثلاثة أمور مهمة :

الأول : أنه انتبه إلى أن القصة كما هي في الخطاب وقع فيها التقديم والتأخير .

الثاني : أنه انتبه إلى أن قلب الترتيب تحكّم فيه مقصد المتكلّم وهو تثنية التقرير الذي
يتّبع عنه إشعار المتلقي بالذنب العظيم الذي ارتكبه المعنيّ بالقصة.

معنى هذا أن المقصدية - وهي مبدأ تداولي - هي التي زحزحت الترتيب الأصلي ،
بل قلبته .

والواقع أن المخاطب بهذه الآيات مزدوج ، ففي الخطاب هو بنو إسرائيل ، وفي
المقام المسلمون ، وإذا كان هدف الخطاب تقرير بني إسرائيل فإنّ هدفه بالنسبة إلى
المخاطب المقامي هو التحذير من مغبة إتيان ما أتاه هؤلاء من أفعال منكرة ، مجملها
عصيانه تعالى ، مما استوجب غضبه عليهم ^(٢).

الثالث : أنه انتبه إلى دور الإحالة بالضمير في عملية التماسك النصي ، وإشارات هذه
هي دليل قويّ على أن علماءنا القدامى لم يكونوا بمنأى عن نحو النص فقد وقفوا على
أصول كثيرة من قواعده ، وكانت لهم إشارات واضحة فيه ، وهذا النص خير شاهد
على ذلك . وهذه لفظة من الزمخشري تستحق الاهتمام .

(١) «الكشاف» للزمخشري ١ : ٩٦ .

(٢) انظر «لسانيات النص» ١٨٤ .

٣ - قوله تعالى : ﴿ وَرَبِّكُمْ ﴾ ، فالضمير هنا يحيل على الكافرين المكذّبين بمحمد ﷺ ، وهذه الإحالة لم تفهم إلا عن طريق السياق الخارجي للنص ، الذي علمناه من خلال أسلوب الخطاب القرآني ، فقد ذكر الفيروزآبادي أنّ من مقاصد سورة البقرة « ذمّ الكفار - كفّار مكّة - ومنافقي المدينة ، والرد على منكري النبوة »^(١) من المشركين واليهود وغيرهم .

وسورة البقرة « جاءت لتركّز على إعداد الجماعة المسلمة لحمل الأمانة الكبرى ، أمانة العقيدة وأمانة الخلافة في الأرض ، ولذلك فإنّ عملية التركيز هذه كانت ذات مسارين :

الأول : يتعهد الجماعة المسلمة بالدروس مباشرة في أخلاقها وأفعالها وأفكارها .

والثاني : يبصرها بأعدائها المناهضين لها ، وفي مقدمتهم بنو إسرائيل ، ومواجهة دسائسهم وكيدهم وحربهم للعقيدة في أصولها ، وللجماعة المسلمة في وجودها .

كما تركّز على التوجيهات الإلهية للجماعة المسلمة لمواجهة الحرب المتعددة الأساليب التي يشنّها عليها خصومها ، وللحذر كذلك من مزالق الطريق التي وقع فيها بنو إسرائيل قبلها .

والنص من خلال هذين المسارين تتبدّى فيه العلائق الخارجية مع السياق ، أي مراعاة النص لمقتضى الأحوال التي نزل بها ، وهي وجود الجماعة المسلمة في أول عهدها بالمدينة ، ومراعاة النص لمجاله التداولي وزمانه ، وعلاقات النص بالشرائع والعادات والأعراف السابقة ، وهذه العلائق ظهرت ظهورًا واضحًا من خلال هذا التقسيم

(١) « مقاصد سور القرآن » لمجد الدين الفيروزآبادي ، تح : د. أيمن الشوّا ، ١٤ .

الدقيق لفئات الناس ثم الحديث المطول عن المنافقين ، ثم الحديث المطول جدًا عن اليهود ، ثم المراوحة في الخطاب بين الجماعة المسلمة واليهود في زمانهم الغابر، ثم في معالجة قضايا آتية كانت مدار جدل في حياة الجماعة المسلمة .

لقد كان النص يعالج الواقع الحي من خلال الماضي ثم يعود ويرجع بحسب ما يكون مناسبًا للواقعة ^(١) .

ونلاحظ في قوله تعالى : ﴿ وَيُزَيِّدُكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الالتفات من حكاية قصة بني إسرائيل مع موسى إلى خطاب كفّار العرب واليهود المعاصرين للنبي ﷺ ؛ لأنهم هم المقصودون بالخطاب القرآني في هذه القصة .

والله - عز وجل - ذكر هذه القصة لرسوله محمد ﷺ لأسباب ، منها : إثبات قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، وفي ذلك ردّ بلا شك على منكري البعث من الكفرة والمشرّكين في عهد رسول الله ﷺ ، الذين قالوا : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (المؤمنون : ٣٧) .

٤ - قوله تعالى : ﴿ أَفَنظَمُونَ ﴾ انتقل السياق هنا إلى خطاب الجماعة المسلمة بضمير المخاطب ، والحديث عن بني إسرائيل واليهود بضمير الغائب ، ليشير بذلك إلى التحوّل الزمني للخطاب ، قال تعالى : ﴿ أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ ، فالضمير في (نظّمون) يُحيل على أصحاب محمد ﷺ ، وقد دلّ السياق هنا على أن المخاطب بهذه القصة هم من كان في زمن النبي ﷺ من أصحابه واليهود في عصره ، حيث ساق قصة البقرة ، ثم رجع يخاطب أصحاب محمد ﷺ .

(١) « الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق » ٤٥٧ .

« ومع أن السياق قد أخذ في الاتجاه بالخطاب إلى الجماعة المسلمة يتحدثها عن بني إسرائيل ويصّرها بأساليبهم إلا أنه بين أن وآخر يلتفت بالخطاب إلى بني إسرائيل ؛ ليواجههم بما أخذ عليهم من الموائيق .

وتتبدى أسرار الالتفات واضحة في تحويل سياق النص من الحكاية إلى الخطاب ما بين المؤمنين واليهود ، وهدفه واضح ، فحين يتحوّل الخطاب إلى المؤمنين يكون هدفه التبصير ، وحين يتحوّل إلى اليهود يكون هدفه التذكير والتهديد »^(١) .

« إن النصّ حينما واجه اليهود الجدد في عصر رسول الله ﷺ بكل هذا الإرث الضخم من الفتنة والفساد والتلكؤ في الاستجابة كان يضعهم في دائرة الأعراف والأخلاق التي يصدرّون منها وعنّها ، وكان ينبّئهم بأنّ سلوكهم اليوم مع رسول الله ﷺ ليس غريباً طارئاً ، وإنّها هو مجبول في بنائهم النفسي والسلوكي .

إنّ الدارسين المحدثين في لسانيات الخطاب يشيرون إلى ما يعرف بـ (إثنوجرافيا الكلام) ، وهو اعتماد تحليل الموقف الكلامي على معرفة العرق والجنس والتاريخ المتصل بالشخص المشاركون في عملية الاتصال ، وبذا تواجه الجماعة المسلمة عدوّها على بصيرة مهتدية بكلّ التفاصيل التي قرّرها النصّ »^(٢) .

(١) « الخطاب القرآن » ٤٥٥ .

(٢) « الخطاب القرآني » ٤٥٧ .

مثال تطبيقي (٢)

قصة ابني آدم عليه السلام

﴿ وَأَتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ فَطَوَعَتْ لهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُتَوَلَّى أَعِزُّتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٤١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ المائدة : ٢٧ - ٣٢ .

أ - مناسبة الآيات لما قبلها ^(١) :

(١) قال ابن عادل في تفسير « اللباب » ٦ : ٣٩ : « في تعلُّق هذه الآية بما قبلها وجوه :

أحدها : أنه تعالى قال فيها تقدَّم : ﴿ يَتَأْتِيهَا الذِّبَرُ ﴾ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ المائدة : ١١ ، فذكر أنَّ الأعداء يُريدون إيقاعَ البلاءِ بهم ، لكنَّه تعالى يحفظهم بِفَضْلِهِ ويمنع أعداءهم من إيصالِ الشرِّ إليهم ، ثم ذكر قصصاً تدلُّ في أنَّ كُلَّ مَنْ خَصَّه اللهُ به - تعالى - من النِّعمِ العظيمةِ في الدِّينِ والدُّنيا فإنَّ الناسَ يتنازعونه حسداً ، فَذَكَرَ قِصَّةَ النَّبَاءِ الْإِنْتِي عَشْرَ ، وأخذ الميثاقَ منهم ، ثم إنَّ اليهود نقضوا ذلك الميثاقَ حتى وقعوا في اللَّعْنِ والقساوةِ ، وذكر بعد شِدَّةِ إِضْرَارِ النَّصَارَى عَلَى الْكُفْرِ ، وقولهم بالتَّثْلِيثِ بعد ظهور الدَّلَائِلِ الواضحةِ

=

لأبد قبل البدء بفهم هذه القصة وإحالاتها من معرفة الرابط الذي يربطها بما قبلها وبما بعدها ، فالمفسرون دائماً يحرصون على بيان صلة الآيات بما قبلها لاعتقادهم بأن وسيلة الربط هذه هي من أهم عوامل فهم النص .

القاطعة على فساد اعتقادهم ، وما ذلك إلا حسداً لمحمد ﷺ فيما آتاه الله من الدين الحق ثم ذكر قصة ابني آدم ، وأن أحدهما قتل الآخر حسداً على قبول قربانه ، وكل هذه القصص دالة على أن كل ذي نعمة محسود ، فلما كانت نعم الله على محمد ﷺ أعظم النعم لم يبعد اتفاق الأعداء على كيدِهِ ، فكان ذكر هذه القصص تسلياً له فيما هدّده به اليهود من المكر والكيد .

ثانيها : أنه متعلّق بقوله : ﴿ يٰۤاَهْلَ الْكِتٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُوْلُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيْرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُوْنَ مِنَ الْكِتٰبِ وَيَعْقُوْا عَنْ كَثِيْرٍ ﴾ المائدة : ١٥ . وهذه القصص مذكورة في التّوراة .

وثالثها : أنّها متعلّقة بقصة [محاربة] الجبارين ، أي : ذكروا اليهود بحديث ابني آدم ؛ ليعلموا أن سبيل أسلافهم في التّدامة والحسرة الحاصلة بسبب إقدامهم على المعاصي ، مثل سبيل ابني آدم في تدامة أحدهما على قتل الآخر .

ورابعها : أنه متّصل بحكاية قول اليهود والنّصارى : ﴿ نَحْنُ اَبْنَاؤُا لِلّٰهِ ﴾ المائدة : ١٨ أي : لا ينفعهم كثرتهم أولاد الأنبياء مع كفرهم ، كما لم يتّفع ولد آدم بقتل أخيه بكون أبيه نبياً معظماً عند الله - تعالى - .

وخامسها : لما كفر أهل الكتاب بمحمد - عليه الصلاة والسلام - حسداً أخبرهم الله - تعالى - بخبر ابني آدم ، وأنّ الحسد أوقعه في سوء الحاتمة ، والمقصود منه التّحذير عن الحسد .

وهذه القصة وردت في سياق الحديث عن بني إسرائيل وما اقترفوه من ذنوب وآثام ، فقد نقضوا المواثيق ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ^(١) ، واضطربت العقيدة في قلوبهم ، فزعموا أنهم أبناء الله ^(٢) ، وعصوا ربهم وتقاعسوا عن الجهاد ^(٣) ، ففصلت الآيات التي قبل قصة ابني آدم القول في مظاهر فساد بني إسرائيل وجرائمهم ، حتى جاء البدء بالقصة بقوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ .

وقد بين القرطبي أن وجه مناسبة الآيات لما قبلها هو « التنبية من الله تعالى على أن ظلم اليهود ، ونقضهم المواثيق والعهود كظلم ابن آدم لأخيه ، فإن هم هؤلاء اليهود بالفتك بك يا محمد فقد قتلوا قبلك الأنبياء ^(٤) » ، وقَتْلَ قَابِلُ هَابِيلَ ، والشرُّ قديمٌ ، وهذه القصة صدقٌ ، وفي ذلك تبيكٌ لمن خالف الإسلام ، وتسليَةٌ للنبي ﷺ ^(٥) .

(١) قال تعالى : ﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ ثَبَتْنَا لَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ المائدة : ١٣ .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ ﴾ المائدة : ١٨ .

(٣) قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ المائدة : ٢٤ .

(٤) قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ المائدة : ١١ .

(٥) « تفسير القرطبي » ٦ : ١٣٣ .

ب - العناصر الإحالية المحيلة على عنصر إشاري خارج النص :

١ ، ٢ - قوله تعالى : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ^(١)﴾ : الضميران هنا يحيلان إحالة خارجية تفهم من سياق النص .

ففي النص القرآني يوضع في الاعتبار أنَّ المرسل هو الله سبحانه وتعالى ، وأنَّ المرسل إليه هو النبي ﷺ بمفهوم محدود ، ويكون مجموع المخاطبين أو المرسل إليهم الذين أرسل إليهم الخطاب في ظروف ومناسبات وسياقات معينة بمفهوم واسع^(٢) . والتقدير : اتل يا محمد على اليهود ، أو على أصحابك .

ومعرفة قرائن الأسلوب المبتوثة في السياق تكشف لنا عن روابط أخرى جامعة ، فإذا جعلنا الضمير المتصل (هم) يحيل على بني إسرائيل فحينئذ لا ينقطع ارتباط الآيات بهم ، حديثاً عنهم تارة - كما في الآيات السابقة للقصة - ، وحديثاً إليهم تارة أخرى . وإذا ابتدأنا بالفعل (اتل) عرفنا أنَّ الضمير المستتر وجوباً فيه (أنت) يحيل على النبي الكريم ﷺ ، وإذا استحضرنّا شخص المأمور بالتلاوة اتضح لنا أنَّ هذه القصة برهانٌ على صدق النبوة ، حيث أوحى الله بها إلى نبيه ، والمعجز في ذلك

(١) اختلف في مرجع الضمير ، فقليل : المراد اتل يا محمد على اليهود الذين هموا أن يسيطروا أيديهم إليكم ، وعلى أصحابك معك ، وعرفهم مكروه عاقبة الظلم وسوء مغبة الحثرت ونقض العهد . انظر « تفسير الطبري » ١ : ٢٠١ . وقيل : على الناس أو على أهل الكتاب . انظر « تفسير الرازي » ٦ : ٣١ . فإذا كان المراد اليهود فإنَّ الإحالة هنا داخلية قبلية لورود ذكرهم في الآيات السابقة على تلك القصة ، وإذا كان المراد أصحاب النبي ﷺ أو كفار مكة فهي إحالة خارجية مقامية تفهم من السياق ؛ لأنَّ الله خاطب نبيه ﷺ بالقرآن ، وقصَّ عليه القصص ليخاطب بها قومه .

(٢) انظر « دراسات لغوية تطبيقية » د. سعيد بحيري ، ٨٥ .

وهذه القصة وردت في سياق الحديث عن بني إسرائيل وما اقترفوه من ذنوب وآثام ، فقد نقضوا المواثيق ، وحرّفوا الكلام عن مواضعه ، ونُسوا حظاً مما ذكروا به ^(١) ، واضطربت العقيدة في قلوبهم ، فزعموا أنهم أبناء الله ^(٢) ، وعصوا ربهم وتفاعسوا عن الجهاد ^(٣) ، ففصلت الآيات التي قبل قصة ابني آدم القول في مظاهر فساد بني إسرائيل وجرائمهم ، حتى جاء البدء بالقصة بقوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ .

وقد بين القرطبي أن وجه مناسبة الآيات لما قبلها هو « التنبيه من الله تعالى على أن ظلم اليهود ، ونقضهم المواثيق والعهد كظلم ابن آدم لأخيه ، فإن هم هؤلاء اليهود بالفتك بك يا محمد فقد قتلوا قبلك الأنبياء ^(٤) ، وقتل قابيل هابيل ، والشّر قديم ، وهذه القصة صدق ، وفي ذلك تبيك لمن خالف الإسلام ، وتسلية للنبي ﷺ » ^(٥) .

(١) قال تعالى : ﴿ فِيمَا نَقُضُوا مِنْهُمْ أَيْتُهُمْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ المائدة : ١٣ .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ ﴾ المائدة : ١٨ .

(٣) قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَتَّبِعُونَ آلَ نَاحِثٍ إِنَّا لَنَرَاهُمْ فِيهَا قَاذِبِينَ فَذَهَبَ عَنْكَ الرَّيبُ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَتَلْتُمُوتَ ﴾ المائدة : ٢٤ .

(٤) قال تعالى : ﴿ يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ المائدة : ١١ .

(٥) « تفسير القرطبي » ٦ : ١٣٣ .

ب - العناصر الإحالية المحيلة على عنصر إشاري خارج النص :

١ ، ٢ - قوله تعالى : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ^(١)﴾ : الضميران هنا يحيلان إحالة خارجية تفهم من سياق النص .

ففي النص القرآني يوضع في الاعتبار أن المرسل هو الله سبحانه وتعالى ، وأن المرسل إليه هو النبي ﷺ بمفهوم محدود ، ويكون مجموع المخاطبين أو المرسل إليهم الذين أرسل إليهم الخطاب في ظروف ومناسبات وسياقات معينة بمفهوم واسع^(٢) . والتقدير : اتل يا محمد على اليهود ، أو على أصحابك .

ومعرفة قرائن الأسلوب الماثلة في السياق تكشف لنا عن روابط أخرى جامعة ، فإذا جعلنا الضمير المتصل (هم) يحيل على بني إسرائيل فحيث لا ينقطع ارتباط الآيات بهم ، حديثاً عنهم تارة - كما في الآيات السابقة للقصة - ، وحديثاً إليهم تارة أخرى . وإذا ابتدأنا بالفعل (اتل) عرفنا أن الضمير المستتر وجوباً فيه (أنت) يحيل على النبي الكريم ﷺ ، وإذا استحضرنّا شخص المأمور بالتلاوة اتضح لنا أن هذه القصة برهاناً على صدق النبوة ، حيث أوحى الله بها إلى نبيه ، والمعجز في ذلك

(١) اختلف في مرجع الضمير ، فقليل : المراد اتل يا محمد على اليهود الذين هموا أن يسيطروا أيديهم إليكم ، وعلى أصحابك معك ، وعرفهم مكروه عاقبة الظلم وسوء مغبة الحشر ونقض العهد . انظر « تفسير الطبري » ١ : ٢٠١ . وقيل : على الناس أو على أهل الكتاب . انظر « تفسير الرازي » ٦ : ٣١ . فإذا كان المراد اليهود فإن الإحالة هنا داخلية قبلية لورود ذكرهم في الآيات السابقة على تلك القصة ، وإذا كان المراد أصحاب النبي ﷺ أو كفار مكة فهي إحالة خارجية مقامية تفهم من السياق ؛ لأن الله خاطب نبيه ﷺ بالقرآن ، وقصّ عليه القصص ليخاطب بها قومه .

(٢) انظر « دراسات لغوية تطبيقية » د. سعيد بحيري ، ٨٥ .

أنها وردت كما روتها الكتب السابقة قبل أن ينالها التحريف ، والنبي ﷺ لم يكن ليعرف تلك القصص لولا إنباء الله تعالى له بها عبر الوحي .

٣ ، ٤ - قوله تعالى : ﴿ فَتَقُولُ ﴾ ، ﴿ يَتَقَبَّلُ ﴾ : الفعلان مبنيان للمجهول ، والضميران هنا مستتران يحيلان على الله عز وجل ، فهو الذي يتقبل أعمال العباد أو يرفضها ، ولا يوجد ذكر سابق للفظ الجلالة ، وإنما فهم ذلك من السياق الخارجي للآيات .

٥ ، ٦ - قوله تعالى : ﴿ كَتَبْنَا ﴾ ، ﴿ رُسُلْنَا ﴾ : الضمائر هنا تحيل على الله ، وفهمت من السياق الخارجي للآيات . ونلاحظ هنا العدول إلى صيغة الجمع ، وذلك بسبب التعظيم والتفخيم .

مثال تطبيقي (٣)

قصة النبي ﷺ مع عبد الله بن أم مكتوم (الأعمى)

من أمثلة أثر السياق في فهم الإحالة ما جاء في قصة النبي ﷺ مع عبد الله بن أم مكتوم في سورة عبس ، قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ (٧) وَآمَنَّا مِنْ جَاءِكَ بِسَعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ (عبس : ١ - ١٢) .

أ - سبب النزول :

رُوي عن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ : « بينا رسول الله ﷺ يناجي عبدة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل إليه رجل أعمى ، يقال له عبد الله بن أم مكتوم ، يمشي وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن ، وقال : يا رسول الله ، علّمني مما علّمك الله ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وعبس في وجهه وتولى ، وكرة كلامه ، وأقبل على الآخرين ؛ فلما قضى رسول الله ﷺ ، وأخذ ينقلب إلى أهله ، أمسك الله بعض بصره ، ثم خفق برأسه ، ثم أنزل الله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ﴾ ، فلما نزل فيه أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه ، وقال له : « ما حاجتك ، هل تريد من شيء ؟ » وإذا ذهب من عنده قال له : « هل لك حاجة في شيء ؟ » وذلك لما أنزل الله : ﴿ أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ (٧) ﴾ (١) .

(١) « تفسير الطبري » ٢٤ : ١٠٣ .

ب - علاقة النص بعنوان السورة :

للعنوان أهمية كبرى في تفكيك النص ودراسته وتحليله ، إذ يقدم لنا المعونة في ضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه ، فهو بمثابة الرأس للجسد ^(١) ، و « يشكّل الموضوع أو المحور العام التي تكون كل أفكار النص مستندات إليه ، يكون هو الكل ، وتكون هي جزئياته » ^(٢) .

ونلاحظ هنا أنّ ارتباط النص القصصي - الذي يحكي موقف النبي الكريم ﷺ من الأعمى - بالعنوان فيه دلالة واضحة على مركزية تلك القصة وأهميتها من بين سائر جمل السورة وفقراتها .

فالسورة الكريمة قد سمّيت بـ (عبس) وهو فعل يحمل ضميرًا يُحيل إلى النبي الكريم ﷺ ، وهذه التسمية هي الأشهر لهذه السورة « ولم يذكرها صاحب الإتيقان في السور التي لها أكثر من اسم وهو عبس » ^(٣) . ولم يشتهر تسميتها بسورة (الأعمى) ؛ بل أنكرها بعضهم وتجاهلها كما سبق . وقد حاز صاحب الضمير في (عبس) ﷺ على أعلى نسبة من إحالات الضمائر في السورة كلها ، مما جعله الشخصية المحورية في السورة دون غيره من الشخصيات الأخرى . وعلى ذلك فإن تسمية السورة بهذا الاسم لم تكن عبثًا .

ج - العناصر الإحالية المحيلة على عنصر إشاري خارج النص :

لم تصادفنا في هذه القصة عناصر إشارية عاملة داخل النص سوى (الأعمى) الذي

(١) انظر « دينامية النص تنظير وإنجاز » ٧٢ .

(٢) « بناء لغة الشعر » جون كوين ، ترجمة : د. أحمد درويش ، ١٩٣ .

(٣) « التحرير والتنوير » ١٥ : ١٠١ . وانظر « الإتيقان في علوم القرآن » ١ : ١٥٩ .

أحيل عليه بالضمير في قوله : (لعلّه ، يذكر ، فتنفّعه ، جاءك ، يسعى ، هو ، يخشى ، عنه) ، وكلها إحالات داخلية تُفهم من دون اللجوء إلى السياق ، فليست موضع الشاهد ؛ لذا ابتدأنا بذكر العناصر الإحالية المحيلة على عنصر إشاري خارجي ، وهذا العنصر الخارجي المحال عليه لا بدّ من الاستعانة بالسياق لمعرفة والوقوف عليه ، وذلك على النحو الآتي :

١ ، ٢ - قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ الضمير المستتر الغائب في كلا الفعلين يحيل إحالة خارجية تفهم من السياق القرآني الذي يسهم بدور فاعل في تحديد إحالات الضمائر في النص القصصي ، كما سيأتي .

٣ - قوله تعالى : ﴿ جَاءَهُ ﴾ الضمير المتصل الغائب هنا يحيل على ضميري الشخص الغائب في الفعلين السابقين مشكلاً بداية سلسلة إحالة ابتدأت حلقاتها بضمائر الغائب ، ولا يزال المتلقي هنا في حالة مراقبة ، يجهل الشخص المحال عليه بتلك الضمائر الثلاثة ، ولم يأت في سياق النص إلى الآن ما يفسرها ويزيل إبهامها .

٤ - قوله تعالى : ﴿ يَذْرِبُكَ ﴾ الضمير المتصل البارز هنا يحيل على شخص مخاطب ، وهذا الالتفات الضميري المفاجئ يستوقف المتلقي ، ويلفت انتباهه ، مما يستدعي منه إعمال الذهن في تحديد المحال عليه ، فإذا كان المتلقي يدرك أن كلّ ضمير مخاطب في القرآن الكريم لم يحدد مفسره يعودُ على النبي الكريم ﷺ ؛ لأنه هو المخاطب الأوّل بالنص القرآني - أيقن أنّ الضمير هنا يعود على النبي ﷺ ، وهذا الإدراك للقاعدة السابقة مأخوذ من السياق الخارجي للنص ، وقد أشار إليه المفسرون في غير موضع ، حتى أصبح من الضروريّات التي ينبغي معرفتها لقارئ القرآن ومتلقيه .

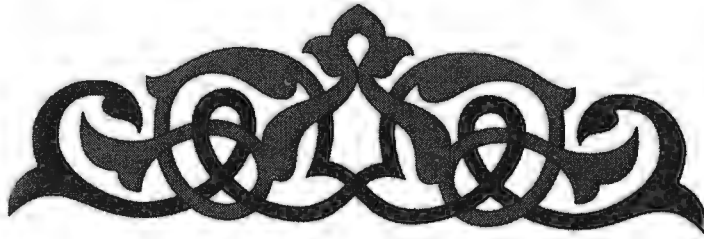
إذن فتحوّل الضمير من الغيبة إلى الخطاب أسهم في عملية تفسير الإحالة وتعيين المحال عليه من خلال السياق .

وحيثما نمعن النظر في انحراف النسق اللغوي في التعبير بضمير الغائب واختراقه بنسق لغوي آخر وهو التعبير بضمير المخاطب - نجد أنّ الأمر لا يتوقف عند قضية لفت الانتباه وجذب المتلقي فحسب ، بل يتجاوزه إلى بيان معنى على قدر كبير من الرهافة والخفاء ، لا يلتفت المتلقي إليه إلا إذا أدرك التغيير الحادث في النسق اللغوي في النص القصصي .

فالله عز وجل لم يعبر بالضمير المخاطب في عتابه للنبي ﷺ ولومه له على إعراضه عن الرجل الأعمى ، واستبدل به ضمير الغائب ، وذلك - في الخطاب عمومًا - أدعى لتقبل المخاطب اللوم ، وإدراكه لخطأ صنيعه عن طريق التلميح دون اللجوء إلى التصريح ، إذ إنّ العتاب بضمير الغائب - مع ما فيه من التلميح - أجدى في تقبل النصح .

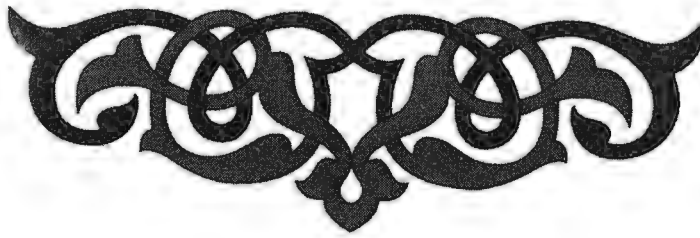
وهذا الالتفات في الضمائر والمغايرة في الاستخدام لا يؤثر في عملية التماسك كما قد يتوهم المتلقي ؛ لأنّ المحال عليه هو شخص واحد ، بل أسهم هذا الالتفات في تفسير عملية الإحالة ، وصنع حلقة إحالية تضاف إلى الحلقات السابقة مشكلة بداية سلسلة متماسكة لبنية إحالية نصيّة .

إذن فالنبي ﷺ هو العنصر الإشاري الخارجي المحوري الذي استحوذ على معظم إحالات هذه القصة البالغة (١٠) إحالات ، وهي : (عبس ، تولى ، جاءه ، يدريك ، أنت ، تصدى ، عليك ، جاءك ، أنت ، تلهى) وكلّ هذه الضمائر قد كُتبت بها عن النبي ﷺ ، بداءة بالضمير الغائب الذي ورد في أول كلمة جاءت في أول جملة في النص ، وهنا تبرز أهمية الجملة الأولى في النصوص ، وقد أصبحت تلك الكلمة الأولى الحاملة لضمير يحيل على النبي ﷺ عنوانًا لهذا النص ، وقد توالى بعدها السلسلة الإحالية المتتابعة على صاحب هذا الضمير مما يؤمى إلى الانسجام والاتساق المحكم الذي أسهم به ذلك الضمير وحركته الإحالية في هذا النص .



الفصل الثالث

أدوات الإحالة



المبحث الأول الإحالة بالضمير

تمهيد :

للضماير في اللغة وظيفة خاصة ، ومن أجلها وجدت في الاستعمال اللغوي ، وهذه الوظيفة لأهميتها استلزمت بقاء الضماير ودوام استعمالها بدوام اللغة .

وقد لفتت ضماير العربية نظرَ النحاة واللغويين ، فسجّلوا استعمالاتها ، وحكموا بالصحة أو الخطأ عليها ، واشتغلوا بالبحث في طبيعتها ودلالاتها ، ومن ذلك بحثهم في أصل ضمير المتكلم المفرد (أنا) ، هل ألفه أصل أو زائدة ؟ وفي ضمير المخاطب (أنت) هل تأوّه اسم أو حرف ؟ وفي ضمير الغائب (هو) هل واوه أصل أو زائدة ؟ وبحثوا في تعريف الضماير ، وعدّها ، وذكر ما يتّصل وما ينفصل منها^(١) . كما اختلفوا في رتبة الضمير واهتموا ببيان الفرق بين الضمير والحرف ، وبين الضمير والاسم ... إلى غير ذلك من شؤون الضمير وأحواله ومسائله .

وما يعيننا في المقام الأول في هذه الدراسة هو بيان الوظيفة الإحالية للضماير وما يتصل بها من أبواب ومسائل .

(١) انظر « الضماير في اللغة العربية » د. محمّد عبد الله جبر ، ٥ .

تعريف الضمير لغة :

تدور معاني مادة (ض م ر) حول الخفاء والضالة . فالضُمْر والضُمْر هو الهزال ولحاق البطن ، والضَمِيرُ : هو العنبُ الذابل . واللؤلؤُ المُضْطَمِرُ : هو الذي في وسطه بعض الانضمام . وتَضْمِيرُ الخيلِ : عملٌ يُقصدُ به إزالةُ ترهلِها ^(١) .

فهذه الاستعمالات تشترك في معنى الضالة والصغر والنقصان والانكماش .

والضَمير : هو السِّرُّ وداخلُ الخاطر . وما يُضْمِرُهُ الإنسانُ في قلبه : هو ما يُخْفِيهِ . والهُوى المُضْمَرُ : المخْفِيُّ . وأضمرته الأرض : أي غَيَّبَتْهُ إِمَّا بِمَوْتٍ وَإِمَّا بِسَقَرٍ . والضَّمارُ من المال : الذي لا يُرَجَى رجوعُهُ . والضَّمار : خلافُ العِيَانِ ^(٢) .

وهذه الاستعمالات تحمل معنى الخفاء والاستتار والغيبة وزوال الشيء عن العيان . وبين المعنيين تقاربٌ ملحوظ ، فالهزال والذبول وإزالة الترهّل تعبّر عن اختفاء بعض أجزاء الشيء وزوالها عن حالها المعهود .

نخلص مما سبق إلى أنّ كلمة (الضمير) المستعملة لدى النحاة يمكن أن ترتبط من الناحية اللغوية بما سبق بيانه من المعاني ، فمعظم الضمائر كلماتٌ صغيرة التكوين ضئيلة الحجم ، وكلُّ واحد منها يعبّر عن معنى مقصود لا يظهر إلّا بما يعين على ذلك من تكلم وخطاب وسبق ذكر الغائب .

وربما كان استخدام مصطلح (الإضمار) بمعنى الاستتار لما عرف بالضمير المستتر أساساً لإطلاقه اصطلاح الضمير عليه وعلى غيره من الضمائر الظاهرة ، فإنّ حديث

(١) انظر « لسان العرب » (ض م ر) ٤ : ٤٩٢ .

(٢) انظر « لسان العرب » (ض م ر) ٤ : ٤٩٢ .

سيبويه عن (المضمّر) يدلُّ على أنّه يعني به : ما لم يصرّح بذكره . وقد عدَّ هذه العلامات من الأسماء المبهمة مع أسماء الإشارة ، قال : « الأسماء المبهمة : هذا وهذان ، وهذه وهاتان ، وهؤلاء ، وذاك وذانك ، وتلك وتانك ، وتيك ، وأولئك ، وهو وهي ، وهما ، وهم وهنّ ، وما أشبه هذه الأسماء »^(١).

ثمّ قال : « وأما هو فعلامة مضمّر ، ولم يقل (هو) ولا (أنا) حتى استغنيت أنت عن التسمية ؛ لأنّ (هو) و (أنا) علامتان للمضمّر ، وإنّما يضمّر إذا علم أنّك قد عرفت من يعني »^(٢).

فالإضمار عند سيبويه قريبٌ من معنى الحذف ، أي حذف المعلوم ، ويقوّي ذلك تعريفه الضمير المستتر بأنّه « الإضمار الذي ليست له علامة ظاهرة »^(٣). يقصد المحذوف الذي لم توضع له علامة تدلّ عليه .

ولما في الضمير من معنى الخفاء والاستتار أطلق عليه الكوفيون اسم (المكنيّ) ، وهم يرون لفظي الضمير والمكنيّ مترادفين لا فرق بينهما . لكن البصريين يقولون : إنّ المضمّرات نوع من المكنيات ، فكل مضمّر مكني ، وليس كل مكني مضمّرًا ؛ ذلك أنّ الكناية إقامة اسمٍ مقام اسمٍ توريّة وإيجازًا . وقد تكون بالأسماء الظاهرة أو بالمضمّرات . ولذلك نجد تعريف المضمّر عند ابن يعيش أنّه « اسمٌ كُتِبَ به عن اسم »^(٤).

(١) « الكتاب » لسيبويه ، ١ : ٢٥٦ . ط بولاق .

(٢) « الكتاب » لسيبويه ، ١ : ٢٥٧ . ط بولاق .

(٣) « الكتاب » لسيبويه ، ١ : ٢٣٠ . ط بولاق .

(٤) « شرح المفصل » ٣ : ٨٤ . وانظر « المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري » د. عوض القوزي ، ١٧٤ .

تعريف الضمير اصطلاحاً :

أسهم بعض النحاة في وضع حدٍّ للمضمرات ، وحاول بعضهم الاستغناء عن ذلك الحد بتعداد الضمائر وحصرها ، عملاً بالمبدأ القائل : المحصور بالعد لا يحتاج إلى حد .

قال المبرد : « ومن الأسماء المضمرة ، وهي لا تكون إلا بعد ذكر ، نحو : الهاء في (به) ، والواو في (فعلوا) ، والألف في (فعلاً) »^(١) .

وقال الزجاجي : « اعلم أن حكم المضمر أن يجيء بعد ظاهر يتقدمه يعود عليه ؛ لأنه مبهم ، ولا يعقل على من يعود عليه ، حتى يتقدمه اسم ظاهر يعود عليه ، هذا أصله »^(٢) .

وقد تجنب السيوطي ذكر تعريف للضمير فقال : « ولكونه ألفاظاً محصورة بالعد استغنيا عن حده كما هو اللائق بكل معدود كحروف الجر »^(٣) .

ويمكننا أن نعتمد على التعريف الشائع للضمير بأنه : « ما وُضع لتكلم أو مخاطب أو غائب تقدم ذكره لفظاً أو معنى أو حكماً »^(٤) .

ويُعرف الضمير في اللغة الإنجليزية بأنه : « كلمة تحل محل اسم لتشير إلى شخص أو شيء سبق ذكره أو عُرف من سياق الكلام »^(٥) .

(١) « المقتضب » للمبرد ، ٣ : ١٨٦ .

(٢) « الجمل في النحو » للزجاجي ، ١١٧ .

(٣) « مع الهوامع شرح جمع الجوامع » للسيوطي ، ١ : ٥٦ . ط السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٧ هـ .

(٤) « شرح الكافية » للرضي ، ٢ : ٣ . ط إستانبول ١٣٠٥ هـ .

(5) See: The Concise Oxford Dictionary, "Pronoun" .

وانظر « فن النحو بين اليونانية والسريانية : ترجمة لكتابي ديونيسيوس ثراكس ويوسف

الأهوازي » ترجمة : ماجدة محمد أنور ، ٦٦ و ١٠١ .

وهو تعريف شامل يناسب التقسيم النحوي للأسماء والأدوات في اللغات الأوروبية^(١) واليونانية والسريانية .

وقد حذا حذو هذا القول د. مهدي المخزومي ، حيث جمع الضمائر والإشارات والموصولات في باب أسماء الكنايات ، وعرف الضمائر بأنها : « كنايات أو إشارات يشار بها إلى المتكلمين والمخاطبين والغائبين »^(٢) .

ويرى د. تمام حسّان أن الضمير لا يدلّ على مسمّى كالاسم ، ولا على موصوف بالحدث كالصفة ، ولا على حدث وزمن كالفعل ؛ لأنّ دلالة الضمير تتجه إلى المعاني الصرفية العامة التي أطلق عليها معاني التصريف والتي قال: إنّها يعبر عنها باللواصق والزوائد ونحوها .

ويرى أنّ المعنى الصرفي العام الذي يعبر عنه الضمير هو عموم الحاضر أو الغائب دون دلالة على خصوص الغائب أو الحاضر .

والحضور قد يكون حضور تكلم ك (أنا) و (نحن) ، وقد يكون حضور خطاب ك (أنت) وفروعها ، أو حضور إشارة ك (هذا) وفروعها ، والغيبة قد تكون شخصيّة كما في (هو) وفروعه ، وقد تكون موصولة كما في (الذي) وفروعه^(٣) .

والحقيقة أنّ هذه الضمائر بصفاتها عناصر لإحالية تقوم على مفهوم دور الشخص المشاركة في عملية التلفظ ، فالنحاة الإغريق واللاتينيون وضعوا تسمية الضمائر من خلال إجراء الاسم الذي يطلق على (الشخصية المسرحية) ، أو (الدور المسرحي)

(١) انظر « الضمائر في اللغة العربية » د. محمد عبد الله جبر ، ٥ .

(٢) « في النحو العربي : قواعد وتطبيق » د. مهدي المخزومي ، ٤٧ .

(٣) انظر « اللغة العربية : معناها ومبناها » د. تمام حسّان ، ١٠٨ .

إجراءً مجازيًا ، وهذا الإجراء نفسه ذو صلة بتصورهم لوظيفة اللغة التي تتمثل عندهم في (مسرحية) ، يؤدي المتكلم فيها الدور الرئيس ، ويؤدي السامع دورًا آخر يرتبط بذلك الدور الأول ، ثم جرت ترجمة هذا المصطلح إلى اللاتينية باستعمال لفظ (persona) ويعني (القناع) (mask)^(١) . وغير بعيد من هذا إجراء لفظ (الضمير) عند النحاة العرب على الوحدات الدالة على الشخص ، ويتعلق بمفهوم الخفاء والدقة ، وكذلك بالباطن^(٢) .

وقد جرى النحاة على اعتبار الضمائر أسماء ، إلا ما استثنوه من بينها وعدوه حروفًا مثل (كاف الخطاب) التي تلحق أسماء الإشارة وأسماء الأفعال .

ويمكننا أن نجمل المواضع التي تلتقي فيها الضمائر بالأسماء وبالحروف على النحو الآتي :

أولاً : مواضع التقاء الضمائر بالحروف :

١ - أشبهت الضمائر الحروف في أنّ الضمائر مبنية بحيث لا تتصرف تصرف الأسماء ، فلا تثني ، بسبب كون أكثرها قد وضع على حرف واحد أو حرفين ، وحمل ما وضع أكثر من ذلك عليه^(٣) .

٢ - الشبه الجمودي ، هو كون الضمائر جامدة ، بحيث لا تتصرف تصرف الأسماء ، فلا تصغر ولا تثني ولا تُجمع ، وأمّا نحو : هما ، وهم ، وهن ، وأنتما ، وأنتن ، فهذه صيغ وضعت من أول الأمر على هذا الوجه ، وليست

(١) (Lyons; 1986 ; 638)

(٢) انظر « نسيج النص » ١١٧ .

(٣) انظر « شرح ابن عقيل » ١ : ٨١ . ط دار القلم ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ ، تح : قاسم الشامي .

علاقة المثني والجمع طارئة عليها .

- ٣ - أشبهت الضمائر الحروف في كونها مفتقرة في دلالتها على معناها إلى شيء ، وهو المرجع في ضمير الغائب ، وقرينة التكلم أو الخطاب في ضمير الحاضر .
- ٤ - أشبهت الضمائر الحروف في أنها استغنت عن الإعراب بسبب اختلاف صيغها . فأشبهت الحرف في عدم الحاجة إلى الإعراب وإن كان بسبب الحاجة مختلفاً فيه .

وإذا كان الضمير لا بدّ له من عائد يعود عليه لأنّه لا يمكن فهمه تماماً في ذاته أو منفرداً، إذ هو ضرب من الكناية ، فكّل مضمّر كناية ، وليس كل كناية مضمراً ، وإنّما صارت المضممرات معارف ؛ لأنّك لا تضمّر الاسم إلا وقد علم السامع على من يعود^(١) .

ويشير الضمير في أغلب الأحيان إلى اسم ظاهر محدد الدلالة ، ومن هنا « يكون تحديد دلالة هذا الظاهر قرينة لفظية تعيّن الإبهام الذي كان الضمير يشتمل عليه بالوضع ؛ لأنّ معنى الضمير وظيفي ، وهو الحاضر أو الغائب على إطلاقهما ، فلا يدلّ دلالة معجميّة إلّا بضميمة المرجع ، وبواسطة هذا المرجع يمكن أن يدلّ هذا الضمير على معيّن ، وتقدّم هذا المرجع لفظاً أو رتبةً أو هما معاً ضروريٌّ للوصول إلى هذه الدلالة »^(٢) .

(١) انظر « شرح المفصل » لابن يعيش ، ب ٩٨١ .

(٢) « اللغة العربية معناها ومبناها » ١١١ .

ثانيًا : مواضع اختلاف الضمائر عن الأسماء :

إذا كانت الضمائر تلتقي مع الحروف في مواضع ، فإنها تختلف عن الأسماء ،
ويختلف النظام في الضمائر عن النظام في الأسماء في وجوه ، منها :

١ - تُكوّن الضمائر نظامًا مغلقًا محدودًا ، في حين تُكوّن الأسماء الصريحة قسمًا
مفتوحًا .

٢ - تتميز الضمائر ببعض السمات الصرفية التي تغيب عن الأسماء ، من ذلك
انقسامها حسب الإعراب إلى ضمائر رفع وضمائر نصب ، وهذا أمر معدوم في
الأسماء .

وظيفة الضمير وأهميته عند النحويين القدامى :

لم يكن النحويون العرب بمنأى عما جاء به النصّيون ، فقد درس النحويون العربُ
الإحالة درسًا وافيًا تحت عنوان (المضمّر) أو (الضمير) مبينين شروط الإضمار ، ودور
الضمير في ربط أجزاء الجملة بعضها ببعض^(١) .

وتنبّهوا إلى قضية المرجع الإشاري ، فسّموه بـ (المفسّر) ؛ لأنّهم درسوا الضميرَ
والإشارة والموصول تحت باب واحد هو (الإبهام) ، فسّموا ما يزيل ذلك الإبهام
(مفسّرًا) .

(١) فصلت كتبُ النحو الحديث عن الضمير ، ومن ذلك ما جاء في : « الكتاب » ٢ : ٦ ،
و« المقتضب » ١ : ١٧٤ ، ٣٩٦ و ٣ : ٨٤ ، و« شرح المفصل » لابن يعيش ، ٣ : ٨٤ -
١٢٠ ، ٤ : ١ - ٢٤ ، و« مغني اللبيب » ٢ : ١٠٢ ، و« شرح الرضي على الكافية » ٢ : ٣ .
وغيرها .

وقد وَقَفَ النحويون على كثير من قضايا الضمير الدلالية ، فتنبهوا إلى أن عملية الإضمار لا تتم من جهة المتكلم وحده ، بل هي عملية مشتركة بين المتكلم والمتلقي ، فالمتلقي له دور محوري في تحديد الضمير يتمثل في معرفته السابقة بالمضمّر .

قال سيبويه : « وإنما صار الإضمار معرفة ؛ لأنك إنما تضمّره اسمًا بعدما تعلم أن من يُحدّث قد عرف مَنْ تعني وما تعني ، وأنت تريد شيئًا يعلمه » ^(١) .

وقال المبرّد : « وإنما صار الضمير معرفة ؛ لأنك لا تضمّره إلّا بعد ما يعرفها السامع ، وذلك أنك لا تقول : (مررتُ به) ، ولا (ضَرَبْتُه) ، ولا (ذَهَبَ) ، ولا شيئًا من ذلك حتى تعرفه وتدرى إلى من يرجع هذا الضمير » ^(٢) .

وتحدّثوا عن مرجعية الضمير القبلية والبعدية ، والخارجية والداخلية ، علمًا بأن أهمية الضمير لا تكمنُ في مرجعيّته فحسب ، بل وفي عملية الربط بين الأجزاء الداخلية في النص من ناحية ، وبين الداخلي والخارجي من ناحية أخرى .

ومن أبرز العلماء النحويين القدامى الذين تناولوا الضمير على أنه أداة مهمة للربط بين الجمل في النص هو ابنُ هشام الذي أفردَ مبحثًا خاصًا في ذلك بعنوان : (روابط الجملة بما هي خبر عنه) ^(٣) ، وأغلبُ تلك الروابط قد ذكرها العلماء النصيون ، وقد جعل ابنُ هشام أصلَ تلك الروابط كلّها الضمير .

وتتمّ به عملية الربط المذكورًا كـ (زيدٌ ضربتُهُ) ، أو محذوفًا نحو : ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ ﴾ طه : ٦٣ بتقدير : (لهما ساحران) .

(١) « الكتاب » ٦ : ٢ .

(٢) « المقتضب » ٤ : ٢٨٠ .

(٣) « مغني اللبيب » ٦٤٧ .

وهذا يوضح إدراكه لأهمية الضمير ودوره النصي في عملية الربط .

كما تحدّث ابن هشام أيضًا ^(١) عن المواضع التي يعود الضمير فيها على متأخر لفظًا ورتبةً ، وهو ما يُعرف بالإحالة البعدية اللاحقة (cataphoric reference) .

وسيبيوه ^(٢) تحدّث عن تلك المواضع ولكن لم يكن كلامه بذلك الوضوح الذي أورده ابن هشام ، ولم يوردها كلّها تحت عنوان واحد .

وقد وجدنا لدى الفراء نماذج لمرجعية الضمير على مستوى النصّ ، قال في تعليقه على قوله تعالى : ﴿يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ الأنعام : ٤٦ . « يُقال : إنّ الهاء التي في (به) كناية عن الهدى » ^(٣) ، ولفظ (الهدى) قد ذكّر قبله في الآية الخامسة والثلاثين من السورة نفسها في قوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ الأنعام : ٣٥ ، فنرى هنا تعدّيه حدود الجملة الواحدة والآية الواحدة إلى ما سبقها بعشر آيات ، وهي مرجعية داخلية سابقة .

وكذلك قوله : ﴿كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الأنعام : ٨٤ ، وهي مرجعية داخلية سابقة .

وقد أدرك الفراء أيضًا المرجعية الخارجية مع اعتماده في معرفتها على السياق وسبب النزول ، فيعلّق على قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الأنعام : ١٠٩ قائلاً : « المقسمون الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالآية التي نزلت في الشعراء : ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ الشعراء : ٤ ، فسألوا رسول الله

(١) انظر « مغني اللبيب » ٦٣٥ .

(٢) انظر « الكتاب » ١٧٥ : ٢ .

(٣) « معاني القرآن » ١ : ٣٣٥ .

أن ينزلها وحلفوا ليؤمننَّ ، فقال المؤمنون : يا رسول الله سل ربك ينزلها عليهم حتى يؤمنوا ، فأنزل تبارك وتعالى قل للذين آمنوا : وما يشعركم أتهم يؤمنون «^(١) .

فالمرجعية هنا للكفار خارجية ؛ لأنهم لم يذكروا صراحة ، وقد ارتبطت بالسياق المتمثل في سبب النزول ، وهو ما يلجأ إليه النصيون لدفع اللبس والغموض .

وقد كان فهم الرضي لمهمة الضمير في عملية الربط سابقا لفهم النصيين لها إذ يقول : « وإنما احتاجت الجملة إلى الضمير ؛ لأنها في الأصل كلام مستقل ، فإذا قصدت جعلها جزء الكلام فلا بُد من رابطة تربطها بالجزء الآخر ، وتلك الرابطة هي الضمير ، إذ هو الموضوع لمثل هذا الغرض «^(٢) .

وقد أكد السيوطي أهمية أسباب النزول وعلاقتها بالتماسك بين الآيات قائلا : « فهذا هو الأمر الكلي - أي معرفة أسباب النزول - المعين على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا فعلته بين لك وجه النظم مفضلا بين كل آية وآية ، وفي كل سورة وسورة «^(٣) .

أما المفسرون فلم تخل كتبهم من الإشارات النصية ، وقد تحدث الزركشي^(٤) عن مرجعية الضمير في النص القرآني إلى السابق واللاحق ، وإلى ما هو خارج النص ، وكذلك تأكيده دور المتلقي في معرفة مرجعية الضمير ، كما تحدث عن تعدد الضمير ، وتعدد المحال إليه ، وكيف تُعالج مرجعية الضمير حيثئذ ، وغيرها من القضايا النصية .

(١) « معاني القرآن » ١ : ٣٤٩ .

(٢) « شرح الكافية » ١ : ٩١ .

(٣) « معترك الأقران في إعجاز القرآن » ١ : ٦٢ .

(٤) انظر « البرهان في علوم القرآن » ٣ : ١٥٠ و ٤ : ٢٥ ، ٤١ .

وكذلك شُراح الدّواوين الذين تناولوا القصائد بصفاتها نصّاً متكاملًا ، ولم يتوقفوا في كثير من المواضع عند حدود البيت الواحد فحسب ، بل قد يلجؤون إلى السياق لتحديد إحالات الضمائر .

ويُتَبَيَّن لنا عما سبق أمران :

١ - أن معظم النحويين أكّدوا دورَ الضمير ووظيفته في عملية الربط ، فنظروا إلى الضمائر على أنها روابط تشدّ اللاحق بالسابق ، وقسموها قسمين : منفصل ومتصل ، وقسموا المتفصلَ قسمين : مرفوع ومنصوب ... إلخ .

وأنّ الضمير يُحِيلُ وظيفيًّا على اسمٍ ظاهرٍ سابقٍ في الكلام ، ووظيفته اللغوية الرِّبْطُ والاختصار وتجنّب التكرار ، أمّا إذا كان منفصلًا في أوّل الكلام فوظيفته الإحالة على معهودٍ في الدّهن .

وأنّ الضمير من الناحية الدلالية محورٌ في الكلام أو ذاتٌ ؛ لانه معرفةٌ من المعارف وليس نكرةً مجهولةً ، ولذلك صحّ أن ينوب عن الأسماء الظاهرة المُعرِّفة وأن يربط الكلام بها سبق ذكره .

٢ - أن غالب حديث النحويين عن الضمير ومفسّره (المحال عليه) ظلّ محصورًا في إطار الجملة الواحدة ، أو في إطار الجملتين على الأكثر ، ولم يتحدّثوا عن امتداد الضمير في النصّ كلّهُ ، ولم يدرسوا دورَ الضمائر في جعل النصّ وحدةً متماسكةً ؛ لغلبة المنهج التعليمي القائم على الجملة .

وعلى الرغم من تلك الجهود لا يمكننا القول إنّ كانت لديهم نظريّة نصيّة متكاملة ، بل إشاراتٌ تمثّل جذورًا للتحليل النصّي المعاصر^(١) . والله أعلم .

(١) انظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١ : ١٥٨ .

وظيفة الضمير وأهميته عند العلماء النصيين :

تنوّعت إسهامات علماء النصّ المعاصرين في دراسة دور الضمير وأهميته في تحقيق التماسك الشكلي والدلالي ، وتعرّضوا للمصاعب التي تُواجه محلّل النصّ من خلال الضمائر في حالة غموضها ، ممّا دَفَعَهُمْ إلى الاهتمام بدور السياق في تحديد مرجعية الضمير .

وتشكّل المعنى في النصّ يعتمدُ على وضع الضمائر داخله ، إذ إنّ الضمائر هي وسيلةٌ لتحقيق التماسك الداخلي والخارجي في النصّ.

ومن ثمّ أكّد العلماء النصّيون أنّ أهمية الضمير ووظيفته تبرّز في أمورٍ ، منها :

أولاً : الاقتصاد في الفقرة ، حيث يُستغنى عن إعادة ذكر الاسم المُفسّر بالضمير ، وقد يستتر ذلك الضمير فلا يظهر في النص ، وإنّها يلجأ الناصّ إلى عملية الإضمار حينما يطمئن إلى قدرة المتلقي على فهم العنصر المختصر في ضوء منطق النصّ .

والإحالة هي إستراتيجية عقلية يستند إليها الناصّ حين يقوم بعملية الاقتصاد في الفقرة ، فالإقتصاد حاصل بالإضمار فقط من دون الإحالة ، والإحالة هي مسوّغ الاقتصاد عقلياً^(١) .

ثانياً : أمن اللبس ، وذلك من خلال منع تجدد الدلالة على الماهية أو تجدد المعنى في الخارج . ففي نحو قولنا : (جاء زيدٌ وأكرمتمُ زيداً) جاز أن يكون الزيدان شخصين مختلفين ، أو شخصاً واحداً ، فإذا أضمرت ولم تُظهر ارتفع اللبس ، إذ إنّ « جعل الثاني

(١) انظر « نحو النص : نقد النظرية وبناء أخرى » د. عمر أبو خرمة ، ١٧٣ .

محلّ الأول ملبسٌ ، إذ قد يُظنُّ أنَّ الثاني ليس الأول ^(١) .

وهو في هذا شبيه فيما كان من قبيل البيان والتفسير والتوكيد ، فهي أيضًا تمنع تحدد المعنى في الخارج ، لكن الأغراض في تلك الأساليب مختلفة عن الغرض في الإضمار ^(٢) .

ثالثًا : المساعدة في تعيين العنصر المشار إليه وتحديدّه تحديدًا تامًّا ^(٣) ، من خلال الإحالة على عناصر سبق ذكرها في النَّصِّ (قبلية) ، أو سيأتي ذكرها في النص (بعدية) ، أو غير موجودة في النص (خارجية) ، وهذا التحديد يسهم بدور فاعل في إزالة اللبس . ومرجعية الضمير التي لها الدور الأكبر في عملية التماسك النصّي قد تكون إلى جملة سابقة عليها ، أو أكثر من جملة ، أو إلى فقرات متعددة .

وفي هذا السياق يرى جون لاينز أنَّ مغزى ضمير الإحالة أو العائد هو تحديد موضع الكلمة وفهمها في النظام ، وعلاقتها بالكلمات الأخرى المجاورة لها ، سواء أكانت سابقة أم لاحقة ، وهذا التحديد يكون بالربط بين العناصر داخل التركيب ^(٤) .

رابعًا : إنَّ الضمير يقوم بوظيفة التعويض المرتكز على الوحدات السياقية ^(٥) ، حيث يعوّض المشار إليه ، ويحيل عليه ، ويرتبط به ، وفهمه رهين استحضار ذلك المشار إليه

(١) «المقتصد» للجرجاني ، ١ : ١٧٤ .

(٢) انظر «أصول تحليل الخطاب» ٢ : ١١٠٤ .

(٣) انظر «نسيج النص» ١١٨ .

(4) See: John Lyons: Einführung in die moderne Linguistik, S.437.

وانظر «البنية الدلالية والإحالية للضمائر» د. أشرف عبد البديع، مجلة علوم اللغة، مج ٩ ، ع ٣ ،

سنة ٢٠٠٦م ، ص ٢٠ .

(5) W. Heinemann, u. A. : Textlinguistik, Eine Einführung, S. 29.

وانظر «البنية الدلالية والإحالية للضمائر» ٢٠ .

استحضار عهد أو إدراك حسي أو غيره^(١) .

« ويجد هارفع في الترابط الضميري (Pronominale Verkettung) أو في الإبدال النظمي بالضمائر (Syntagmatische Substitution) ، اللذين عرفهما مجددًا في أثناء حديثه عن نظريته حول الإبدال - أساسًا جوهريًا ، يرى فيه أنّ الترابط الضميري أو الإبدال النظمي هما السبيل إلى بناء بدائل لها بعدان :

أولهما : استبدال نظمى ، وآخر : استبدال إحلالى . ويلاحظ أنّه إلى جانب البدائل التي من نمط (هو / هي وهو للمحايد) ، وإلى جانب تكوين النص بالممثلات الخالصة التي تساعد في تحويل العنصر اللغوي السابق إلى ضمير ، أنّ المسألة في هذه البدائل متعلقة بالاستثنافات المجسدة لنص مثل :

- رجل ، أل / هذا الرجل .

- أناس كثيرون / هؤلاء الناس .

- ربابة / آلة موسيقية .

- الأروة / أعلى جبل في ألمانيا .

ومن خلال تعريف هارفع يتضح أنّ كل كلمة (Ausdruck) فيها مكون له

بعدان :

الأوّل : هو الضمير ، سواء أصنّف ضميرًا بالمفهوم النحوي أم لم يصنّف^(٢) .

والثاني : هو الإشارة إلى العناصر اللغوية التي تعيد ما ذكر في النص من أشخاص وأشياء وموضوعات ، كما هو واضح في مرجعيات الأمثلة المذكورة التي تشير إلى

(١) انظر « نسيج النص » ١١٨ .

(2) Harweg , Roland. Pronomina und Textkonstitution. München 1968 . S. 25.

استعمال تعبير آخر غير الضمير (Pronomina).

وأما إيزنبرج (H. Isenberg) فقد استعمل لمثل هذه المعطيات السياقية والمرجعية مصطلح المرجع المشترك (Koreferenz) للمكونات السطحية ذات الإحالة الموحدة (Referenzidentitaet) ، واستعمل (R. Steinitz) بديل المواصلة (Pro – fortfuehrung) ^(١) ، هذا ومن الملاحظ استعمال مصطلح الكلمة الشاملة (Proform) مع العناصر اللغوية نفسها أحياناً ^(٢) .

خامساً : في المقاربات اللسانية الحديثة ^(٣) نجد أن اللواصق الضميرية على الخصوص والضمائر عموماً تُعدُّ مُتَّصِلَاتٍ تولَّد في مواقع أصلية تحت إسقاط أقصى ثم تنتقل لتلتحق بمقولة وظيفية ملائمة، وفي العربية يرُدُّ الفعل قبل الضمير وهذا الورد دليل على أنه ليس في موقعه الأصلي داخل المركب الفعلي، لذلك فهو يصعدُ من الإسقاط المعجمي إلى شروط الفعل التي ينبغي أن يُوافَقها كِسْمَةُ النَّصْبِ للمفعول ، ويصعدُ الضميرُ إلى الإسقاط المعجمي للفعل فيتَّصلُ به ويصعدان معاً إلى الزَّمنِ ليقترنَ الفعل بِسْمَةِ الزَّمنِ ، وفي إسقاط الزَّمنِ يتَّصلُ الفعلُ بضميرِ الفاعلِ ، ويصعدُ ضميرُ الفاعلِ إلى الزَّمنِ ليقترنَ بِسْمَةِ الرَّفْعِ .

(1) See:

- H. Isenberg: Der Begriff, Text, in der Sprachtheorie, 1970.
- Renate Steiniz: Nominale Pro – formen, 1968.

والباحثان في هذين الكتابين : الأول (مفهوم النص في نظرية اللغة) ، والثاني : (القوالب

الاسمية) يستشهدان بما جاء في كتاب « اللسانيات النصية » لكلاوس برينكر ، ٥٣ . وانظر:

- R. Steiniz: Adverbial Syntx, 1969. P: 143- 153.

انظر : « نحو نظرية أسلوبية لسانية » لفيلي سانديرس ، ترجمة : د. خالد محمود جمعة ، ١٤٩ .

(٢) « نحو نظرية أسلوبية لسانية » ١٤٨ .

(٣) خاصة في البرنامج الأدنى المقترح في (تشومسكي : ١٩٩٢ ، ١٩٩٥ ، ١٩٩٨ ، ١٩٩٩) .

ففي هذا التحليل يصعدُ الفعلُ أو المتّصلات إلى المقولاتِ الوظيفيّة من أجل فحص السّماتِ الملائمة لكلّ عنصر ، والاقتران بها .

وهكذا فإن الضّمير يُعالج ضمن موضوع صعود الفعل لفحص لواصلق الزّمن والتّطابق والمتّصلات الضّميرية ، من أجل الاقتران بها .

سادسًا : أنّ الضمير يُسهم في نصيّة الخطاب . حيث يرى هارفيج أنّ « الضمائر هي وسائل التعبير المسؤولة عن عملية تكوين النصّ » ^(١) ، والنصّ برأيه هو « وحدات لغوية متتابعة مبنية بسلاسل إضمار متّصلة » . فسلاسل الإضمار بحسب نظريته الأساسية هي الوسيلة الحاسمة في بناء النصّ ، فكلّ الجمل التي يرتبط بعضها ببعض بسلاسل إضمار بدئية تكوّن عند هارفيج نصًّا ، وعندما تتوقّف سلاسل الإضمار هذه أو يستبدل بها أخرى يبدأ بذلك نصّ جديد ^(٢) .

وعلى مبدأ سلاسل الإضمار هذا يمكن إدراك واحدة من أهمّ العلامات في علاقات التناسق الداخلية في النصوص بشكل نسقي . ونرى أنّه لا يمكن قبول هذا المعيار لنصيّة الخطاب على إطلاقه ، مع اعترافنا بأنّ لسلاسل الإضمار دورًا مهمًّا في بناء النصوص .

سابعًا : هناك مزايا تختصّ بها ضمائر من دون أخرى ، ومن ذلك :

أ - تأكيد النصيين على أنّ الضّمير (هو) له ميزتان :

١ - الغياب عن الدائرة الخطائية .

٢ - القدرة على إسناد أشياء معيّنة .

(١) « أساسيات علم لغة النص » كلامير وآخرون ، ترجمة : د. سعيد بحيري ، ١٣٦ .

(2) Harweg, R. 1968. Pronomina und Textkonstitution. München.S.148.

وانظر « مدخل إلى علم اللغة النصي » ٢٧ .

مما يجعل لهذا الضمير أهمية كبرى في دراسة تماسك النصوص^(١).

ب - إن وجود ضمير الفصل يعمل على تأكيد محتوى السياق ، كما يرى ليفاندوفسكي (Lewandowski) . وهذه الوظيفة يبدو أنها عامة ولا تختص بضمير الفصل دون غيره ، فقد أشار الزمخشري إلى تلك الوظيفة في ضمير الفصل^(٢) والإشارة ، وأشار الجرجاني إلى تلك الوظيفة في ضمير الشأن أيضًا .

إذن ف رؤية ليفاندوفسكي في مجملها تتفق ورؤية النحاة والبلاغيين العرب ، إلا أن المفارقة بين الرؤية الغربية الحديثة والرؤية العربية القديمة أن الرؤية الحديثة تمثل رؤية عامة تنطبق على كل الضمائر ، أما رؤية النحاة فقائمة على معالجة كل ضمير على حدة ، ومن خلال الصفات المشتركة بين الضمائر التي وقفوا عليها نستطيع أن نستشف تلك الوظائف العامة التي تشترك فيها الضمائر ، ومنها وظيفة التوكيد .

والتوكيد هنا ليس توكيدًا بأداة ، بل هو توكيد من نوع آخر ، حيث تشترك الضمائر جميعها وتعمل على ربط أجزاء النص عن طريق الإحالة إلى متقدم أو متأخر . ومن ثم فإن هذا الربط في ذاته يعمل على تماسك النص . وتمثل هذه وظيفة في حد ذاتها ، وبالتالي تؤكد ترابط البنى الصغرى المكونة للتركيب (الكلمات والأدوات) بالبنى الكبرى المكونة لأجزاء النص وبنائه عن طريق الإحالة . ومن هنا فإن هذه الوظيفة يمكن أن تنطبق على الضمائر كافة باختلاف أنواعها .

(١) انظر « النقد النصي » لجيزيل فالانسي ، ترجمة : د. رضوان ظاظا ، ٢٤٨ .

(٢) انظر « المفصل في علم العربية » للزمخشري ، تح : د. فخر قدارة ، ١٣٢ .

ونتيجة لهذا فإنّ الروابط الإحالية بوجه عامّ تقوم بعملية ربط ليس بين أجزاء التركيب ، وإنّما بين أجزاء النصّ المتباعدة على نحو ما سيتضح في تحليلنا للنص القصصي القرآني .

ج - التفخيم والتعظيم الذي يختصّ به ضمير الشأن . فقد بيّن ابن يعيش الدافع المعنوي إلى استخدام ذلك الأسلوب قائلاً : « وعادة العرب أن تصدر قبل الجملة بضمير مرفوع ، ويقع بعده جملة تفسره وتكون في موضع الخبر عن ذلك المضمّر ، نحو قولك : هو زيدٌ قائمٌ ، أي : الأمرُ : زيدٌ قائمٌ ، وإنّما يفعلون ذلك عند تفخيم الأمر وتعظيمه ، وأكثر ما يقع ذلك في الخطب والمواظ لما فيها من الوعد والوعيد ، ثمّ تدخل العوامل على تلك القضية ... »^(١) إلخ .

ونلاحظ في قوله تلك الإشارة إلى العلاقة بين المرسل والمتلقّي من خلال الخطاب الشفاهي الذي يُلجئ المرسل إلى استخدام ضمير الشأن للإشعار بعظمة الأمر المحال عليه .

وللرّضي تفسير قريبٌ من هذا ، فهو يرى أنّ « القصّد بهذا الإبهام ثمّ التفسير تعظيمُ الأمر وتفخيمُ الشأن ، فعلى هذا لا بدّ أن يكون مضمون الجملة المفسّرة شيئاً عظيماً يُعتنى به »^(٢) . فاخترق النظام النحوي السائد عن طريق الإحالة إلى متأخّر إنّما حصل لتوجيه الانتباه إلى المحال عليه ، والدلالة على عِظَم شأنه .

وقد بيّن ذلك علماء البلاغة من خلال درسهّم لأحوال المسند إليه ، فأشار القزويني في حديثه عن تأخير المسند إليه إلى أنّ السرّ في التزام تقديم ضمير الشأن والقصة يرجع

(١) « شرح المفصل » ٧ : ١١٠ .

(٢) « شرح الشافية » ٢ : ٢٧ .

إلى أن « السامع متى لم يفهم من الضمير معنى ، بقي منتظراً لعقبى الكلام كيف تكون ، فيتمكّن المسموع بعده في ذهنه فضل تمكّن »^(١). وسيأتي تحقيق ذلك في أثناء حديثي عن البنية الإحالية لضمير الشأن ، بمشيئة الله .

الإحالة بالضمائر :

قد يُحال بالضمير صراحة على الأشخاص نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَبْنَىٰ إِبْرَاهِيمُ رُبُّهُ بِكَلِمَةٍ فَاتَّخَذَهُنَّ ﴾ البقرة: ١٢٤ ، والأشياء كقولك : (فتحتُ بابَ السيَّارة ثم أغلقتها) ، والأحداث كقولك : (التقدُّمُ ليس أمراً سهلاً ، فهو يحتاجُ إلى إرادة ، وتخطيط ، ومال ، وصبر) .

وقد يُحال به على فحوى كلامٍ ورَدَ سابقاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ المائدة : ٨^(٢) ، أو لاحقاً كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ الحج : ٤٦^(٣) .

وقد يُحال بالضمير على جملة سابقة ، كقوله تعالى في قصة يوسف : ﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ . وَلَمْ يَبْدُهَا لَهُمْ ﴾ يوسف : ٧٧ ، فالضمير في (أسرها ، يبدؤها) يعود على مقولة الاتهام السابقة وهي جملة

(١) « الإيضاح في علوم البلاغة » ط صبيح ، القاهرة ، ٥٣ .

(٢) فالضمير (هو) يحيلُ على (العدل) المفهوم من فحوى الجملة السابقة (اعدلوا) . والذي وضح الضمير هو تقدُّم مادته في الاشتقاق . انظر « حاشية الخضري » ١ : ٥٤ .

(٣) فالضمير (ها) في (فإنها) يحيلُ على المحتوى الدلالي المفهوم من الكلام بعدها .

وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ الأحزاب :

إذ لا يمكن أن يعيد ذكر الفئات المذكورة بدلاً من الإشارة إليهم بالضمير في (لهم) .

وقد يحول دون إعادة الذكر عوامل نحوية ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَكَايُهَا النَّبِيُّ إِذَا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ﴾ ﴿٥٠﴾ الأحزاب :

إذ لا يجوز أن يقال : (أجور أزواجك) بدلاً من (أجورهن) ؛ لأن صلة الموصول تحتاج إلى رابط ، وهو هنا الضمير ، فلا يجوز الاستغناء عنه .

ويرى بعض اللغويين أن شرط الإضمار هو الترادف التام في المعنى ^(١) ، أي أن يكون المقصود واحداً إشارة ومعنى ، « أو مسمى (nominatum) ومعنى (meaning) » إذا ما رمنا مصطلحي غوتلوب فريجه ^(٢) (Gottlop Frege) ، أو مفهومًا (intension) وماصدقًا (extension) وفقاً لتفريق كارناب ^(٣)

(١) مسألة الترادف التام في المعنى بحاجة إلى إعادة تأمل ، فمن خلال مبدأ التحاول (coreference) يظهر لنا أن دلالة اللفظ المحال عليه تختلف عن دلالة الأداة المحيلة كالضمير ونحوه ، ومعرفة هذا الأمر يساعد في فهم النصوص بصورة أدق وأعمق ، وسيأتي تفصيل ذلك من خلال مثال التفاحات الست .

(٢) يريد بـ (المسمى) : الشيء المسمى به ، وبـ (المعنى) : الطريقة التي يقدم بها الشيء . انظر « المعنى وظلال المعنى » ١١٠ .

(٣) تفريق كارناب في الحقيقة هو مستوحى من تفريق فريجه ، فقد عرّف جون لاينز (المفهوم) في اسم ما بأنه « مجموعة من الخصائص البارزة التي تحتم إمكان تطبيقها على ذلك الاسم » ، ويشير إلى أن المناطق يميزون بين ماهية الأصناف التي تنتمي إلى (الماصدق) والأصناف التي تنتمي إلى

=

(Carnap) ، ^(١) ، فإذا كان المشار إليه واحداً ، والمعنى مختلفاً ، كان الإظهار أفضل ، وإن كان المعنى واحداً والمشار إليه مختلفاً ، وجب الإظهار ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَكُشِفَ صُدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة : ١٤ .

حيث اختير الإظهار بدلاً من الإضمار ؛ لأن الإظهار معنى زائد لا يتحقق بالإضمار ، وهو هنا المدح ، إذ لو قال : (صدوركم) بدلاً من (صدور قوم مؤمنين) لما فهم من الآية مدحهم .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ الأنعام : ٧ .

حيث اختار (الذين كفروا) بدلاً من الضمير لدمهم بهذه الصفة ، وهو معنى لا يتأتى بالإضمار ، وهذا كله من قبيل العدول عن الإشارة بالذات التي يمكن أن تكون

=

(المفهوم) على أساس أن الصنفين قد يكون لهما نفس الأفراد تماماً ، ومع ذلك فهما صنفان مختلفان بمقتضى تحديد مفهومهما . وقد مثل لذلك بالمثال الذي استخدمه كارناب ، وملخصه أن التعبيرين (حيوان ذو قدمين من دون ريش) و (حيوان ناطق) متطابقان من حيث (الماصدق) ، أي من حيث كونها أعياناً أو حقائق موجودة في الخارج ؛ لأن كل حيوان ذي قدمين من دون ريش هو حيوان ناطق في واقع الأمر ، فهل يعني هذا أن لهما نفس المعنى ؟ ثم مثل بمثال آخر لكائنين خرافيين يمكن أن نستعمل بدلاً منهما ما يعرف في تراثنا بالغول والعنقاء (على القول بأنهما خرافيان) فهما متطابقان من حيث (الماصدق) ، من جهة أن كليهما ليس موجوداً في العالم الخارجي ، ولكتهما ليسا بمعنى واحد ، وذلك يدل على أنهما مختلفان في شيء آخر ، وهو (المفهوم) . انظر « المعنى وظلال المعنى » ١١٠ .

(1) R. Carnap, Meaning and Necessity 9(The University of Chicago Press M 1956) p: 118-119 .

بالضمير إلى الإشارة بالصفة لغرض بلاغي يوضحه السياق كالمذح أو الذم أو نحو ذلك .

ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ البقرة : ٤٨ .
ولا يجوز في هذه الآية الإضمار ؛ لأنّ المشار إليه بالنفس الأولى ، غير المشار إليه
بالثانية، وإن كان المعنى واحداً .

أقسام الضمائر من حيث الإحالة :

تقسم الضمائر في العربية من حيث إحالتها ثلاثة أقسام :

١ - ضمير المتكلم ، نحو : (أنا) .

٢ - ضمير المخاطب ، نحو : (أنت) .

يشارك هذان النوعان في كون الإحالة فيهما خارجية دائماً ، ولعلّ مسوغ ذلك
كونهما حاضرين في المقام التخاطبي .

٣ - ضمير الغائب ، وهذا النوع هو الأهم حيث إنه يأتي بعدد تراكمي كبير من
الإحالات على الكلام السابق ، وذلك يُسهّم في الترابط الداخلي للنص ،
ويُوجدُ شبكةً من خطوط الإحالة بحيث يرتبط كل استعمال بكلّ
الاستعمالات السابقة التي تصل إلى الإحالة الأولى الأصلية مما يحقق التماسك
في النص^(١) .

(١) انظر « تحليل الخطاب » ٢٤٠ .

ويمكننا أن نقسم إحالات ضمير الغائب على أقسام :

١ - أن يحيل على شيء سبق ذكره في اللفظ بالمطابقة ، وهو الأصل ، ومنه قوله

تعالى في قصة آدم : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ طه : ١١٨ .

٢ - أن يحيل على مذكور في سياق الكلام ، مؤخر في اللفظ ، مقدّم في النية ، كقوله

تعالى في قصة موسى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ طه : ٦٦ .

٣ - أن يدلّ اللفظ على صاحب الضمير بالتضمن ، كقوله تعالى : ﴿ أَعْدِلُوا هُوَ

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ المائدة : ٩ . وقد سبق بيانه .

٤ - أن يدلّ عليه بالالتزام ، كإضمار النفس في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ

الْحُلُومَ ﴾ الواقعة : ٨٦ .

فالمحافظة على المعنى والإفهام تقتضي أن يحيل الضمير على ما هو له ، يقول جبر ضومط : « اعلم أنّه قد يتقدّم في الكلام اسمان ظاهران ، أو عدّة أسماء ، ثم يرد عليها الضمير ، فإذا لم ينتبه الكاتب أو المتكلّم لردّ هذه الضمائر اشتبه في المراد بالضمير من هو ، ووقع الاختلال بسبب ذلك في فهم المقصود من الجملة حتى يؤول الأمر إمّا إلى الإلباس أو إطالة الفكرة قبل معرفة اسم المردود عليه الضمير ، وكل ذلك مما لا يرضى ، أمّا الإلباس فلاّته ممنوع في اللغة ، وأمّا إطالة الفكرة فلاّ أن السامع لا يمكنه الحال منها ، والقارئ يشقّ عليه أمرها ويتبرّم بها . فإياك وإيّا ذلك » ^(١) .

(١) « الخواطر الحسان في المعاني والبيان » جبر ضومط ، ١٩ . مطبعة الوفاء ، بيروت ، ط ٢ ،

١٩٣٠ م . وانظر « التسهيل » ٢٧ . و « البرهان في علوم القرآن » ٤ : ٣٠ . وانظر « ضوابط

التقديم وحفظ المراتب في النحو العربي » رشيد بلحبيب ، ١٤٩ .

وعلى الرغم من أن هناك كثيرًا من ضمائر الغيبة تعود على العبارة الأولية فإنَّ عدمَ تذكّر العبارة الأولية للنص لا يعني عدمَ فهمِ إحالات تلك الضمائر ، فالشخص الذي يدورُ الحديثُ عنه يمكن التعرفُ عليه عن طريقِ عددٍ هائلٍ من عباراتِ الإحالة .

وقد جعلَ د. الفاسي الفهري للضمير الغائب ثلاثة توزيعات ^(١) :

الأول : (ضمير الشخص) أو (الضمير العائد) ، كما في : (هو ذكي) ، وهذا الضمير عبارة محيلة ، ويحكم طبيعته الإحالية يجب أن تكون له خصائص تضم : الشخص ، والعدد ، والجهة ، ف (هو ذكي = زيدٌ ذكي) .

ومن أجل أن تقوم الإحالة ويسند الدور الدلالي للمركب الاسمي الفاعل في هذه الجملة يجب أن يحمل الضمير عناصر : الشخص (الجهة) والعدد والجنس .

الثاني : الضمير الذي له سمة العدد والجنس وليس له سمة الشخص ، نحو : (الجنود هم المسؤولون) . أمّا في نحو :

أ - (أنت أنت المسؤول) .

ب - (أنت هو المسؤول) .

فالضمير الموجود في جملة (أ) يسمّى (ضمير الفصل) ، أو (الضمير الرابطة) (copula) كما يسميه د. الفاسي ، وهو متطابق مع الشخص .

والضمير الموجود في جملة (ب) لا يتطابق مع فاعله في الشخص ، مما جعل د. الفاسي يعدّ الضمير هنا فاعلاً وليس مبتدأً كما في كتب النحو ؛ لأنّه يتطابق مع الفاعل في الجنس والعدد فقط .

(١) انظر « ضمير الغائب في المجال المقارن » د. عبد القادر الفاسي الفهري ، ٢١٨ .

الثالث : الضمير الذي ليس له سمة العدد ولا الشخص ولا الجنس ، وهو (ضمير الشأن) ، الذي يسميه د. الفاسي بـ (الضمير المبهم) ، نحو : (إنّه يؤسفني أن أقول هذا) .

وهذا الضمير مُلبس باعتبارِ سماته ، وسماتِ الشخص والعِدَدِ والجنسِ في الضمير يمكن أن تُسندَ لها قيمٌ ، وهذه القيمُ مكتسبةٌ من السياق ، وليست ملازمةً لضمير الغائب ، والسياق هو الذي يحدّد هل الضمير مخصّصٌ أم غيرُ مخصّصٍ .

وهناك تقسيمٌ آخر للضمائر أورده هاليداي ورقية حسن ، إذ قسما الضمائر قسمين :

- ١ - ضمائر وجودية : مثل : (أنا ، ونحن ، وأنت ، وهو ، وهم ، وهنّ ...) .
- ٢ - ضمائر ملكية : مثل : (ياء المتكلم ، وكاف المخاطب ، ونا المتكلمين ...) .

وتتحكم تلك الضمائر في اتجاه الإحالة في النص ، فالجملة الأولى تقوم بتحديد العنصر الإشاري في النص كما تحدّد نوع الإحالة الضميرية فيه ، فإذا ابتدأت الجملة الأولى بحديثٍ عن غائبٍ فإنّ الضمير الوجودي^(١) المحيل على الغائب هو الذي سيسيطر على النص ، أمّا إذا ابتدأت الجملة الأولى بذكر المتكلم أو ابتدأت بذكر المخاطب فإنّ ضمائر الملكية هي التي ستسود النص .

فالجملة الأولى هي التي تحدد اتجاه الإحالة ، وأعني بالاتجاه الإحالي هنا أن يكون النص أحاديّ الإحالة ، أو ثنائيّ الإحالة ، فأحاديّ الإحالة هو الذي يغلب عليه أحد نوعي الإحالة : إما الوجودية ، وإما الملكية ، أمّا ثنائيّ الإحالة فهو الذي تتناوب الإحالات الوجودية والملكية في البروز على سطحه^(٢) .

(١) انظر « لسانيات النص » ١٨ .

(٢) انظر « التماسك النصي في نهج البلاغة » ١٥١ .

أسباب تميّز الإحالة بالضمير عمّا سواها من أدوات الإحالة :

أشار العلماء النصيُّون إلى أنّ الضمائر التي تستخدم في عملية الإحالة تميّز بسمات ،
منها :

١ - أنّها مفرّغة من الدلالة ^(١) ، فلا تدلّ على شيء بذاتها ، وإنّما بما تُحيل عليه من
صفة أو ذات أو شيء مفرد أو أشياء متعددة ومتنوعة ، وتقومُ بمهمة تعويض الأسماء ،
وتتخذُ محتوى ما تحيل عليه ^(٢) ، فهي ضروريّة في صنع ذلك الاتساق المعنوي .

هذا ما ذهب إليه دي بوجراند ، ويول وبراون ، وغيرهم من اللسانيين
الغربيين ، وتبعهم الكثيرون من اللسانيين العرب .

والذي أراه أنّ التعبير بـ (مفرّغ عن الدلالة) فيه نظر ؛ لأنّ الضمير وحدة لغوية
ذات دلالة ، وإلاّ فما الذي يمنع المتكلّم من اختيار وحدة لغوية غيرها إن لم تكن مختزنة
لدلالة مناسبة لمقصده ؟ وما الذي يمنعه من استخدام (هو) مكان (أنا) أو (هي)
مكان (أنت) مادام أنّها مفرّغة من الدلالة وأنّ الذي يحددها هو ما تشير إليه ؟

والضمائر لها معنى خطابي ، ومعنى صرفي ، ومعنى إعرابي .

فالخطابي يدلّ على التكلّم والخطاب والغيبة ، فـ (الكاف) و (التاء) مثلاً تدلّان
على الشخص المخاطب ، و (الهاء) تدلّ على الشخص الغائب ^(٣) .

وفي رأي جاكبسون الضمير مبهم غير مختصّ بمسمّى معيّن ، ولكنه ليس فارغاً
بمعنى أنّه خالٍ من كلّ دلالة ، « ومع هذا فكلّ واصلة (embrayeur) تمتلك دلالة

(١) انظر « النص والخطاب والإجراء » ٣٢٠ ، و « تحليل الخطاب » ٢٥٦ .

(٢) انظر « نسيج النص » ١١٦ .

(٣) انظر « الضمير : بنيته ودوره في الجملة » ٣٧٣ .

عامة ، وهكذا يعين الضمير (أنا) مرسل الرسالة ، ويعين الضمير (أنت) المرسل إليه ^(١) .

أما المعنى الصرفي فيدل على الجنس والعدد : (أنتم) مثنى مذكر أو مؤنث ، (أنت) مفرد مذكر ، (هم) جماعة مذكر ، (هن) جماعة مؤنث... إلخ .

ولا ينفي يمسلاف (L. Hjelmslev) من الضمير الدلالة النحوية « المضمون الوحيد المحقق الذي نجده في الضمير هو الذي نجده عادة في الصرافم (morphèmes) . المضمون المحقق في الضمير صرفي خالص » ^(٢) .

أما المعنى الإعرابي فهو ملازم لبنية الضمير النحوية ، ودال على وظيفته الإعرابية من فاعلية ومفعولية وإضافة ؛ لأجل ذلك يفضل القول بأن الضمير (مبهم الدلالة) وليس (فارغ الدلالة) ، ويرتبط بالإبهام عدم الوضوح ، ونقصان الدلالة - وليس فراغها - ، والافتقار إلى مفسر للضمير سواء كان اسماً ظاهراً أو غيره ، يكتسب الضمير بواسطته صفة التعريف .

وقد سبقت الإشارة إلى قول د. تمام حسان بأن الضمير في أغلب الأحيان يشير إلى اسم ظاهر محدد الدلالة ، وتحديد دلالة هذا الظاهر قرينة لفظية تعين الإبهام الذي كان الضمير يشتمل عليه بالوضع ؛ لأن معنى الضمير وظيفي ، وهو الحاضر أو الغائب على إطلاقهما ، فلا يدل دلالة معجمية إلا بضميمة المرجع ، وبوساطة هذا المرجع يمكن أن

(1) R. Jakobson: 1963, Essais de linguistique generale, I, Les Editions de Minuit. P: 178. وانظر « الضمير : بنيته ودوره في الجملة » ٣٧٢ .

(2) L. Hjelmslev: 1971, Essais linguistiques, Arguments, les Editions de Minuit. P: 202. وانظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ٣٧٢ .

يدلّ هذا الضمير على معيّن^(١).

وقد ذهب ليز (Odo. Leys) إلى أنه من الممكن للضمير العائد أو الإحالة أن يربط بمحتوى التعبير بين الخبر والمبتدأ ، وهو نموذج ناقص الدلالة في ذاته ، إلا إذا تعلّق أو حدّد من عناصر أخرى في النص ، وهو من خلال ذلك يكتسب دلالة^(٢).

ويؤكّد كلاوس هوزينجر (Klaus, Heusinger) في تحديد مختصر له بالنسبة إلى الضمائر أنّها كلّها يمكن وصفها بأنّها نكرة في ذاتها ، أي : تحتاج إلى غيرها ، ولا بدّ من وجودها في تركيب ، ووصف هذا الضمير بأنّه نكرة ، أي مفتقر إلى غيره أو إلى ما يوضّحه ويزيل إبهامه ، وهذا الافتقار في الضمير يشبه الافتقار في الحرف من حيث احتياج كلّ منهما إلى غيره^(٣). وقد ألمح النحويون القدامى إلى شيء من ذلك^(٤).

ويرتبط عنصر الإحالة على وجه العموم بعملية النطق الكائنة في السياق والعنصر الكتابي ، أو بحسب معرفته بطرق أخرى كما يذهب إليه كلاوس .

والضمير بسبب إبهامه يؤدّي دوراً قوياً في دمج أجزاء النصّ وربطها ربطاً محكّماً في ذهن المستقبل الذي يجد نفسه مجبراً على تذكّر أوّل النصّ ووسطه كلّما توغّل داخل

(١) انظر « اللغة العربية معناها ومبناها » ١١١ .

(2) See: Odo, Leys: Das Reflexivpronomen, Eine Variante des Personalpronomen, S. 223. Johannes, Erben : Abriss der Deutschen Grammatik, S. 198.

وانظر « البنية الدلالية والإحالية للضمائر » ١٥ .

(3) See: Klaus, Heusinger : Salienz und Referenz , S. 147 .

وانظر « البنية الدلالية والإحالية للضمائر » ١٥ .

(٤) كابن يعيش في « شرح المفصل » ٥ : ٨٦ ، والأشموني في « شرحه على الألفية » ١ : ١٨٨ .

وانظر « النحو الوافي » لعباس حسن ١ : ٢٥٥ ، و« دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية

والدلالة » د. سعيد بحيري ٩٥ .

النص الذي يجده مليئاً بعناصر لغوية تُحِيلُ آخره ووسطه على أوله ، مما يجعل النص ليس مجرد كلمات وجمل تهدف إلى توصيل رسالة أو معنى ، وإنما هو بنيةٌ تنظيميةٌ على نحوٍ مخصوصٍ من مُرسِلٍ مخصوصٍ إلى مُستقبلٍ مخصوصٍ لتحقيق معنى بعينه ، ونحن في فهمنا لهذا المعنى يجب أن نتوقف عند هذه البنية ونحللها^(١).

٢ - نظراً إلى نقصان دلالتها فإنها تُلفظ غالباً - في كثير من اللغات - ببطءٍ صوتيةٍ منخفضةٍ في اللغة المنطوقة ، فهي أصنافٌ من العبارات المحيلة التي ليس لها بروزٌ صوتيٌ ولفظيٌ ملحوظ^(٢) ، مما يميزها بالحققة . وبسبب خفتها أصبحت الضمائر هي الأدوات التي لا غنى لأي نظرية في الإحالة عن تفسيرها .

٣ - أنها يتسّع مداها عند التطبيق^(٣) ، فتارة تُحِيلُ إلى شيءٍ سابقٍ ، وأخرى إلى شيءٍ لاحقٍ ، وتارة إلى قريبٍ ، وأخرى إلى بعيدٍ ، وتارة تحيل إلى معنى ، وأخرى إلى ذاتٍ ، وتارة إلى جملةٍ ، وأخرى إلى نصٍّ من مجموعة جمل ... إلخ .

٤ - أن ألفاظ الضمائر أقصر غالباً مما تُحِيلُ عليه من الألفاظ ، ويتبين ذلك من خلال هذه المقارنة البسيطة :

- هو تدلُّ على عَلمٍ مُذَكَّرٍ مثل : إبراهيم وإسماعيل وأحمد ...
- هي تدلُّ على علمٍ مُؤنَّثٍ مثل : فاطمة وخديجة وليلى ...
- هما تدلُّ على اثنين من الأعلام تذكيراً وتأنثاً .
- هم تدلُّ على مجموعةٍ من أعلام الرجال .

(١) انظر « دور الجملة في تفسير النص » د. ليلى يوسف ١ : ٢٦١ .

(٢) انظر « تحليل الخطاب » ٢٥٦ .

(٣) انظر « النص والخطاب والإجراء » ٣٢٠ .

○ هن تدل على مجموعة من أعلام النساء .

كما يُلحظ أن بعض الألفاظ الإحالية أخف من بعض ، ويظهر ذلك من خلال هذه

المقارنة :

○ هو هذا ، والذي .

○ هي هذه ، والتي .

○ هما هذان ، وهاتان ، واللذان ، واللتان .

○ هم هؤلاء ، والذين .

○ هن هؤلاء ، واللاقي ، واللائي .

وتتفق فكرة الاختصار مع قانون زيف الذي أشار إليه دي بوجراند ^(١) حيث يقول القانون : (كلما كثر استعمال الكلمة تعرضت لأن تصبح أقصر) ، والحق أن العربية قد سبقت إلى هذا القانون ؛ لأن الاختصار مذهب مهم من مذاهب العربية ، قال السيوطي : إن الاختصار « هو جل مقصود العرب ، وعليه مبني أكثر كلامهم » ^(٢) ، وقد تحدث عن الضمائر قائلاً : « هي أخصر من الظواهر » حيث وقع عنصر لغوي محل عنصر لغوي آخر بحيث يتضمن الأول معنى الثاني مع اختلافه عنه في قلة عدد حروفه ^(٣) .

٥ - كفاءة تلك الضمائر ، التي يشير دي بوجراند إلى أن تلك الكفاءة تظهر حين تستعمل تلك الألفاظ للدلالة على قطع طويلة من الخطاب الذي ينشط مساحات كبيرة

(١) انظر « النص والخطاب والإجراء » ٣٢٠ .

(٢) « الأشياء والنظائر » للسيوطي ١ : ٢٨ .

(٣) انظر « ظاهرة التخفيف في النحو العربي » د. أحمد عفيفي ٣٥١ .

من المعلومات ، وقد مثل د. تمام حسان لذلك بقوله تعالى : ﴿ هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ لَشَرٌّ مَقَابٍ ﴾ ص: ٥٥ ، حيث إن الإشارة إلى ما سبق تستوعب جزءاً كبيراً من الخطاب .

٦ - أنها تخضع إلى قيود تحول دون تحولها في الفهم إلى مجرد إشكالات لا ضرورة لها ^(١) ، فعندما تتعدد المرجعيّات التي يمكن أن يُحال إليها بلفظ واحد فإن ذلك يمثل إشكالية ^(٢) .

أثر الإحالة بالضمير في تماسك النص :

الإحالة بالضمير هي أداة يلجأ إليها المرسل في سبيل إقامة نص متماسك ، إذ ترتبط الإحالات بالجملة الأولى ، ولا تعدو أن تكون الضمائر اختصاراً لبعض عناصر تلك الجملة الأولى ، الأمر الذي يُسهّل على المتلقي ربط عناصر النص بعضها ببعض ، وإرجاع كلّ إحالة إلى مرجعها النصي .

فالجملة الأولى تقوم بتحديد العنصر الإشاري في النص كما تحدّد نوع الإحالة الضميرية فيه ، فإذا ابتدأت الجملة الأولى بحديث عن غائب فإن الضمير الوجودي ^(٣) المحيل على الغائب هو الذي سيسيطر على النص ، أمّا إذا ابتدأت الجملة الأولى بذكر المتكلم أو ابتدأت بذكر المخاطب فإن ضمائر الملكية هي التي ستسود النص .

(١) انظر « النص والخطاب والإجراء » ٣٢٠ .

(٢) انظر « الإحالة في نحو النص » ٥٣٨ : ٢ .

(٣) قسم هاليداي ورقية حسن الضمائر قسمين : (ضمائر وجودية) مثل : (أنا ، أنت ، نحن ، هو ، هم ، هنّ ... إلخ) ، و (ضمائر ملكية) مثل : (كتابي ، كتابك ، كتابنا ، كتابهم ، كتابه ... إلخ) . انظر « لسانيات النص » ١٨ .

فالجملة الأولى هي التي تحدّد اتجاه الإحالة ، وأعني بالاتجاه الإحالي هنا أن يكون النصّ أحاديّ الإحالة ، أو ثنائيّ الإحالة ، فأحاديّ الإحالة هو الذي يغلب عليه أحد نوعي الإحالة : إما الوجودية ، وإما الملكية ، أمّا ثنائيّ الإحالة فهو الذي تتناوب الإحالات الوجودية والملكية في البروز على سطحه .

وكما قسم النصّيون الإحالة فقد قسموا المرجع الإشاري أو (المفسّر) قسمين أساسيين، إذ يكون ذلك المرجع لفظاً مفرداً دالاً على حدث أو ذات أو موقع في الزمان أو المكان ، كما يكون جزءاً من الملفوظ ، أو الملفوظ كاملاً^(١) .

وقد أنكر د. بحيري القسم الثاني ، ورأى أن المرجع الإشاري مفردٌ دائماً ، يرد في رأس الوحدة الإحالية التي يحكمها ، والتي يمكن أن تتكوّن من عدد غير محدود من العناصر الإحالية^(٢) .

لكنّه عاد لينقض ما أسّسه ، فقسم المرجع الإشاري قسمين في قوله :

- ١ - عنصر إشاري معجمي ، يتمثّل في وحدة معجمية مفردة يحال عليها .
- ٢ - عنصر إشاري نصّي ، يتمثّل في مقطع أو جزء من نصّ ، يُحال عليه بعنصر إحالي نصّي .

فالعناصر الإشارية النصّية هي مقاطع من الملفوظ ، قد تطول وقد تقصر ، وقد تمثّل جزءاً من مقاطع تجري الإحالة عليها للاختصار واجتناب التكرار^(٣) .

والحقّ أنّ المرجع الإشاري إنّما يحدّد وفقاً لنوع الإحالة ، فإذا كانت الإحالة ضميرية

(١) انظر « نسيج النص » ١١٥ .

(٢) انظر « دراسات لغوية تطبيقية » د. سعيد بحيري ٨٦ .

(٣) انظر « دراسات لغوية تطبيقية » ٨٦ .

قبلية كان المرجع الإشاري مفرداً ، أي كلمة واحدة وليس بجملة ، أما إذا كانت الإحالة إشارية فالقسمان واردان فيها ، إذ قد يكون المرجع مفرداً ، وقد يكون وحدة نصية^(١).

صور التماسك النصي في الإحالة بالضمير :

١ - الضمائر المنفصلة والضمائر المتصلة :

يقوم التفريق في العربية بين الضمائر المنفصلة والضمائر المتصلة على أساس الموقع الذي يأخذه الضمير في التركيب ، فالضمير المتصل يقع بعد لفظ آخر ، ويتصل به سواء أكان اللفظ الآخر فعلاً نحو : (سألتمونيها) ، أم اسماً نحو : (كتابنا) أو حرفاً نحو : (لكما) ، ويعامل من الناحية الإملائية أو الكتابية معاملة جزء الكلمة ، وليس كلمة مستقلة ، وإن عُوِّمِلَ من الناحية النحوية ولا سيما الإعرابية معاملة الكلمة المستقلة .

أما الضمير المنفصل فيتسم بالاستقلال من الناحيتين الإملائية والنحوية .

ونتيجة لتأسيس الاتصال والانفصال في الضمير على مغاير موقعية فقد انعكس ذلك على التقديم والتأخير في التركيب .

وهو أمر متوقف على عوامل أسلوبية تتصل بأغراض بلاغية ، ومن أمثلة ذلك تحوّل الضمير في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة : ٥ من ضمير متصل (نعبدك) إلى ضمير منفصل (إِيَّاكَ) بعد تقديمه لغرض القصر ، الذي يفيد بأن الله وحده هو الذي يستحق أن يُعبد ويُستعان به .

(١) « التماسك النصي في نهج البلاغة » ١٥٢ .

إذن فالربط بالضمير دون إعادة الذكر هو أيسر في الاستعمال وأدعى إلى الخفة والاختصار، بل إنَّ الضمير إذا اتصل فلربما أضاف إلى الخفة والاختصار عنصرًا ثالثًا هو الاقتصار، وهذه العناصر الثلاثة هي مطلبٌ من مطالب الاستعمال اللغوي^(١).
وطبيعة النصوص عامة تتطلب الضمائر المتصلة لتحقيق الترابط بين الأشخاص والأحداث، لما يميّز به الضمير المتصل من خفة واقتصاد لفظي وصوتي، والاقتصاد والإيجاز هو مطلبٌ من مطالب العربية، لذا فإنه يكثر دوران الضمائر المتصلة عما سواها في الكلام.

٢ - المطابقة بين الضمير ومرجعه :

المطابقة هي ظاهرة لغوية عامة، ويعدّ البحث فيها علامة على كفاية النظرية النحوية الساعية لاستيعاب اللغات الطبيعية كلها « كفاية نظرية نحوية رهينة بقدرتها على فرز ظواهر التطابق التي توجد أو يمكن أن توجد في اللغات الطبيعية، عن الظواهر التي لا يمكن أن توجد فيها »^(٢).

وقد عرّفها الدارسون تعريفات متشابهة. يقول د. الفاسي الفهري في تعريفها :
« إن عبارتين في حالة تطابق إذا كانت بعض سماتها متضاربة بمقتضى تعالق معيّنين »^(٣).
ويعرّفها جورج مونا (G. Mounin) بقوله : « ظاهرة التطابق مرتبطة بتوافق الأشكال بين وحدات متعاقبة إعرابياً »^(٤).

(١) انظر « البيان في روائع القرآن » د. تمام حسان ١ : ١٣٧ .

(٢) « اللسانيات واللغة العربية : نماذج تركيبية ودلالية » د. عبد القادر الفاسي الفهري، ٢ : ١٠٧ .

(٣) « اللسانيات واللغة العربية : نماذج تركيبية ودلالية » ٢ : ١٣٢ .

(4) See: Georges Mounin : 1974 , Clefs pour la linguistique, Editions Seghers, Paris. P: 6. وانظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ٤٠٤ .

ويقول J. Dubois : « المطابقة هي الظاهرة الإعرابية التي بواسطتها يمارس اسم أو ضمير في الفرنسية مثلاً تأثيراً شكلياً على الضمائر التي تنوبه وعلى الأفعال التي يكون فاعلها، وعلى الصفات أو المفاعيل المتعلقة به »^(١).

وتتمثل المطابقة في العربية في مجموعة من الصفات الوظيفية هي : الإعراب ، والجهة (التكلم والخطاب والغيبة) ، والجنس (التذكير والتأنيث) ، والعدد (الأفراد والثنية والجمع) ، والتعيين (التعريف والتذكير) ، يتقيد المسند بها أو ببعضها ليرتبط بالمسند إليه ، والمخصص ليرتبط بالرأس في المركبات البيانية ، والضمير ليعود على المفسر . فهي تماثل في المقولات الصرفية الإعرابية بين العناصر المذكورة ، ولولاها ما قامت العلاقة بين هذه العناصر لتفيد وظيفتها في الجملة .

وفي هذا المعنى قال د. تمام حسان : « فبالمطابقة تتوثق الصلة بين أجزاء التركيب التي تتطلبها ، ومن دونها تتفكك العرى وتصبح الكلمات المتراسة منعزلاً بعضها عن بعض ، ويصبح المعنى عسير المنال »^(٢).

والمطابقة في معظم أنماطها المستخدمة في العربية هي وسيلة لربط المحل الاسمي بمحل اسمي آخر . ويبدو أنها تقتزن كذلك بالعنصر الاسمي في كثير من اللغات^(٣) . وتتجه المطابقة في أكثر أنماطها في العربية من اليسار إلى اليمين ، فهي مطابقة خلفية . وتتجسم في حيز النواة الإسنادية الاسمية (مطابقة الخبر للمبتدأ) ، وفي حيز المركب

(1) See : J. Dubois et ... : 1973 , Dictionnaire de liuguistique, Larousse. P:5-6. وانظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ٤٠٤ .

(٢) « اللغة العربية معناها ومبناها » ٢١٣ . وانظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ٤٠٥ .

(3) See : J. Dubois et ... : 1973 , Dictionnaire de liuguistique, Larousse. P: 6. وانظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ٤٠٤ .

البياني (من المخصص إلى الرأس) ، وفي الإحالة القبلية بعودة الضمير على المفسر .
والخبر مطابق للمبتدأ لأنه صفة له وخبر عنه ، والمخصص في المركب البياني مطابق
للرأس ؛ لأنه تابع ، والضمير مطابق للمفسر لأنه صورة مكررة منه .

كما نجد المطابقة الأمامية من اليمين إلى اليسار في حيز الإحالة البعدية ، وهي إما
إحالة أصلية مستقلة بنفسها تنفذ بمطابقة الضمير المتقدم لمفسره المتأخر بصفة دائمة ،
أو إحالة ناتجة عن قلب الإحالة القبلية ، وتكون المطابقة الأمامية فيها ناتجة تبعاً لذلك
عن قلب الإحالة القبلية الأصلية . .

ومطابقة الضمير للمفسر في الاستعمال المطرد لا تختلف عن أغلب أنواع المطابقة
من حيث الاتجاه إلى الخلف ، وليست المطابقة الأمامية إلا مظهرًا ثانويًا بالقياس إلى
المطابقة الخلفية الأساسية .

ويمثل العنصر المطابق المحور في عملية المطابقة ، فيكون مقدّمًا في الغالب ، ويتنزل
منه العنصر المطابق منزلة التابع ، ورتبة التابع تكون بعد رتبة المتبوع .

والعلاقة بين الضمير والمفسر تنعقد على أساس قاعدة التطابق ، فيتطابقان في
الجنس والعدد ولا يشترط أن يتطابقا في الإعراب ؛ لأنّ الضمير ليس من التوابع فيأخذ
من المتبوع علامة إعرابه ، وفي ذلك قال الرضوي : « ليس الضمير ... من أحد التوابع
الخمس ؛ لأنه لو جعل مثلًا تأكيدًا أو بدلًا أو عطف بيان لوجب أن يكون مثل الظاهر
إعرابًا في جميع المثل ، وليس كذا » ^(١) .

وليست المطابقة في التعيين شرطًا لازمًا لعودة الضمير على المفسر ، ففي الآية الآتية

(١) « شرح كافية ابن الحاجب » ١ : ١٦٣ .

يعود الضمير على الاسم النكرة ، قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ حَتَّىٰ بِتَائِبَةٍ فَاتِّبَاعِيهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ الأعراف : ١٠٦ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ الأعراف : ١١٧ . يعود الضمير على الاسم المعرفة .

« إن الأشكال النحوية منها ما هو متصرف ومنها ما هو غير متصرف ، ومنها ما لا يمت إلى مقولة التصريف بصلة ، وهو النص والجملة . ولكن هذين الشكلين الأخيرين ينوبهما في عملية المطابقة الضرورية بين الضمير والمفسر الاسم المعين المتصرف ، لذلك فإنهما يُحملان عليه » ^(١) .

إذن فالأصل في استخدام الضمائر المطابقة بين الضمير ومرجعه ، وذلك من حيث :



وهي التي تحقق التماسك في الكلام ، وينبغي التفريق هنا بين عدم المطابقة وعدم الربط ، فعدم المطابقة يؤدي إلى خلل أسلوب ، وعدم الربط يؤدي إلى خلل دلالي ، ففي قولنا : (البيض أكثره من الدجاج) ، يؤدي تغيير الضمير فيه من حيث العدد أو الجهة أو الجنس إلى خلل أسلوب غير مقبول ، كقولنا : (البيض أكثرنا من الدجاج ، البيض أكثرهما من الدجاج ، البيض أكثرها من الدجاج) .

(١) « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ٤٠٩ .

كما يؤدي حذف الضمير أصلاً من دون قصدٍ تقديره إلى خلل دلالي ، كقولنا :
(البيض أكثر من الدجاج)^(١).

ويعدّ التطابق هو الوسيلة الكفيلة بربط الضمير بمرجعه ، وهو ما يمنح التركيب
سمة التماسك .

والتطابق بين الضمير ومرجعه قد يكون واجباً ، وقد يكون جائزاً بحسب
اعتبارات فصلها النحاة في مصنفاتهم^(٢) .

وإذا كان الأصل في نظام الضمائر في العربية أن يستخدم كل ضمير لمرجع معيّن
وفقاً لاعتبارات الجهة والجنس والعدد ، بحيث يشير ضمير المتكلم - مثلاً - إلى
المتكلم ، والمذكر إلى المذكر ، والمفرد إلى المفرد ، فإنّ هذا النظام يسمح بنوعين من
الاستثناءات ، أحدهما وضعيّ تسمح به قواعد النحو ، والثاني بلاغيّ يخضع لاعتبارات
أسلوبية .

الاستثناء الوضعي في استخدام الضمير :

إنّ الاستثناء الوضعي المتمثل في عدم المطابقة بين الضمير ومرجعه قد يكون لسبب
يقصده المخاطب ، وعلى المخاطب حينئذ أن يستعين بالسياق لدفع اللبس والوصول إلى
المعنى الذي يريده منسج الخطاب.

وما نجده في القرآن الكريم من هذا القليل مما نعدّه مخالفة في الظاهر إنّما هو في
الحقيقة مطابقة بوجه من الوجوه ، وليس شيء منها خارجاً عن قواعد اللغة وسنن

(١) انظر « الإحالة وأثرها في دلالة النص » د. محمد محمد يونس، ١٧٢. وانظر « المعنى وظلال
المعنى : أنظمة الدلالة في العربية » ٣٣٧ .

(٢) انظر « النحو الوافي » ١ : ٢٦٢ - ٢٧١ .

العرب في البيان والتعبير ، بل نرى لهذه المخالفة تميّزاً في الأسلوب يوقظ الانتباه ويوجّه نظر المتلقّي إلى الأسرار والمقاصد الكامنة والمعاني الطريفة التي تدلّ على الإعجاز القرآني .

وفيما يأتي بعض تلك المقاصد :

أولاً : مراعاة المعنى :

يظهر ذلك من خلال الكلمات التي يخالف لفظها معناها إفراداً وتثنيةً وجمعاً ، أو تذكيراً وتأنيثاً ، لكنّها تدلّ على مثنى أو جمع ، وقد يكون لفظها مذكّراً ولكنّها تدلّ على مؤنث ، وإذا عاد الضمير إلى مثل تلك الكلمات فقد يراعي معناها ، فيعود الضمير إليها مؤنثاً أو مجموعاً ، وذلك أمر شائع في اللغة ولا غرابة فيه ، بل يدلّ على سعة أفق العربية وتنوّع أنماطها التعبيرية .

ولنأخذ مثلاً على ما عاد فيه الضمير مجموعاً على لفظ مفرد مراعاة لمعناه ، وهو قوله تعالى في قصة موسى - عليه السلام - : ﴿ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِم أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ يونس : ٨٣ .

فقد اختلفوا في مرجع ضمير الجمع في (ملئهم) ، إذ ليس في الكلام مرجع يطابقه ، حيث لم يقل : (ملئه) إحالة على (فرعون) أو (ملئها) إحالة على (ذرية) .

وخرّج العلماء مرجع هذا الضمير على أوجه :

الأول : أن يعود على (فرعون) ؛ لأنّهم إنّما كانوا خائفين من فرعون ، واعترض على هذا ؛ بأنّه كيف يعود ضمير جمع على مفرد ؟ وقد علّل لذلك العكبري بوجهين : أحدهما : أنّ فرعون لما كان عظيماً عندهم ، عاد الضمير عليه جمعاً ، كما يقول العظيم : (نحن نأمر) .

وهذا فيه نظر؛ لأنه لو ورد ذلك من كلامهم محكيًا عنهم ، لاحتل ذلك .

الثاني : أنَّ فرعون صار اسمًا لأتباعه ، كما أنَّ ثمود اسمٌ للقبيلة كلها .

وعَلَّ مَكِّيٌّ بوجهين آخرين قرييين من هذين ، ولكنَّهما أخلص منهما :

الوجه الأول : إنَّما جمع الضميرُ في (مَلَّيْهِمْ) ؛ لأنه إخبار عن جبَّار ، والجبَّار يُجْبَر عنه بلفظ الجمع .

والوجه الثاني : لمَّا ذُكر فرعونُ ، عَلِمَ أنَّ معه غيره ، فرجع الضميرُ عليه ، وعلى من معه .

وقد تقدم نحوُّ من هذا عند قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ ﴾ آل عمران : ١٧٣ ، والمراد بالقائل الأول : نعيم بن مسعود ؛ لأنه لا يخلو من مساعدٍ له على ذلك القول .

الثاني : أنه يعود على معطوف محذوف ، وحُذف للدلالة عليه ، والدليل عليه : كونُ الملك لا يكونُ وحده ، بل له حاشيةٌ ، وعساكرُ ، وجندٌ ؛ فكان التقدير : (على خوفٍ من فرعون ، وقومه ، وملئِهِمْ) ، أي : ملأ فرعون وقومه ، وهو منقولٌ عن الفراء أيضًا . قال شهاب الدين : حذف المعطوف قليلٌ في كلامهم ، ومنه عند بعضهم ، قوله تعالى : ﴿ تَقِيحُكُمْ الْحَرَ ﴾ النحل : ٨١ ، أي : والبرد .

الثالث : أنه عائدٌ على (الذرية) ، وهذا قولُ أبي الحسن ، واختيارُ ابن جرير ، أي : (خوفٍ من ملأ الذرية) ، وهم أشراف بني إسرائيل . وذلك حملاً على المعنى ^(١) .

(١) انظر « تفسير القرطبي » ٤ : ٣٢٩٦ ، ٣٢٩٧ .

الرابع : أنه يعودُ على (قَوْمِهِ) بوجهيه ، أي : سواءً جعلنا الضمير في (قَوْمِهِ)
(موسى) أو لـ (فرعون) ، أي : وملاً قوم موسى ، أو ملاً قوم فرعون .

الخامس : أنه يعود على مضافٍ محذوف وهو (آل) ، تقديره : (على خوفٍ من آل
فرعون وملئهم) ، قاله الفراء ، كما حذف في قوله : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ ﴾ يوسف : ٨٢ .
قال العكبري بعد أن حكى هذا ولم يعزّه إلى أحدٍ : « وهذا عندنا غلطٌ ؛ لأنَّ
المحذوف لا يعود إليه ضميرٌ ، إذ لو جاز ذلك لجاز أن يقول : (زَيْدٌ قاموا) وأنت تريد :
غلمان زيد قاموا »^(١) .

قال شهاب الدين : قوله : « لأنَّ المحذوف لا يعودُ إليه ضميرٌ » ممنوعٌ ، بل إذا
حذف مضافٌ ، فللعرب فيه مذهبان : الالتفات إليه . وعدمه ، وهو الأكثر ، ويدلُّ على
ذلك : أنه قد جمع بين الأمرين في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ الأعراف : ٤ ،
أي : أهل قرية ، ثم قال : ﴿ أَوْ هُمْ قَالُوا لَوْ ﴾ الأعراف : ٤ ، وقوله : « لجاز زيد
قاموا » ليس نظيره ، فإنَّ فيه حذفاً من غير دليل ، بخلاف الآية .

وقال أبو حيان - بعد أن حكى كلام الفراء - : ورُدَّ عليه : بأنَّ الخوف يمكنُ من
فرعون ، ولا يمكن سؤال القرية ، فلا يحذف إلا ما دلَّ عليه الدليل ، وقد يقال : ويدلُّ
على هذا المحذوف جمع الضمير في ﴿ وَمَلَأْنَاهُمْ ﴾ . يعني أنَّهم ردُّوا على الفراء ، بالفرق
بين ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ ﴾ يوسف : ٨٢ ، وهذه الآية : بأنَّ سؤال القرية غير ممكنٍ ،
فاضطررنا إلى تقدير المضاف ، بخلاف الآية فإنَّ الخوفَ تمكَّن من فرعون ، فلا اضطرار
بنا يدلُّنا على مضاف محذوف .

(١) « التبيان » ٢ : ٣٢ .

وجواب هذا : أنَّ الحذف قد يكون لدليلٍ عقلي أو لفظي، على أنَّه قيل في ﴿ وَشَلَّ الْقَرْيَةَ ﴾ : إنَّه حقيقةٌ ، إذ يمكن النبي أن يسأل القرية فتُجيبه ^(١) .

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أنَّ عدم المطابقة في مرجع الضمير قد فتح لنا آفاقاً واسعة من المعاني التي لم نكن لندرکها لولا تلك المخالفة التي زادت المعنى انسجاماً وتماسكاً .

وقد يعود ضمير الجمع على ما يدلُّ على المثني ، إمَّا بمعناه : بأن يكون لفظه مفرداً ، أو بلفظه : بأن يكون بلفظ المثني ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة داود عليه السلام : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبُوءُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا الْمِحْرَابَ ﴾ ^(٢) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ ص : ٢١ - ٢٢ . فقد عاد ضمير الجمع في (تسوروا) ، و(دخلوا) و(منهم) و(قالوا) على (الخصم) ، وهو مفرد في اللفظ ، إلَّا أنه يدلُّ على المثني ، بدليل سياق القصة المقالي عليه .

وقد ساق سيويه هذه الآية في معرض حديثه عن معاملة المثني معاملة الجمع ، فقال : « وقد قالت العرب في الشيتين اللذين كل واحد منهما اسم على حدة وليس واحد منهما بعض شيء ، كما قالوا في (ذا) ؛ لأنَّ الثنية جمعٌ » ^(٣) .

وقال القرطبي : « وقيل : (تسوروا) وإن كانا اثنين حملاً له على (الخصم) إذ كان بلفظ الجمع - يريد اسم الجمع - ومضارعاً له ، مثل : (الركب) و(الصحب) » ^(٤) .

(١) انظر تفسير « اللباب في علوم الكتاب » لابن عادل (ت ٨٨٠ هـ) . منشور على شبكة المعلومات :

<http://www.altafsir.com>

(٢) « الكتاب » ٢ : ٤٤٨ ، ٣ : ٦٢٢ .

(٣) « تفسير القرطبي » ٨ : ٥٨٠٦ .

ثانيًا : عود الضمير على المتعاطفين :

ففي القرآن الكريم نجد متعاطفين بـ (الواو) أو بـ (أو) ، ويعود الضمير عليهما مفردًا لا مثنى ، وتارة نجده مذكرًا ، وأخرى مؤنثًا ، فإذا كان المتعاطفان مذكرين فإننا نجد الضمير يعود إليهما مفردًا مذكرًا . وإذا كان أحد المتعاطفين مذكرًا والآخر مؤنثًا فإننا نجد الضمير يعود إليهما تارة مؤنثًا وأخرى مذكرًا ، ولا شك أن لذلك الاختلاف حكمة نحوية يقتضيها المعنى .

ومثال ذلك قوله تعالى في قصة عزيز عليه السلام : ﴿ فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ البقرة : ٢٥٩ . فالضمير المستتر في (يتسنّه) عائد على الطعام والشراب ، ولو روعيت المطابقة اللفظية لقليل : (لم يتسنّها) أو (لم يتسنّها) - بحسب الأصل في الهاء - ، وقد وقف المفسرون على احتمالات عدّة في مرجع الضمير : أحدها : أنه لما كانا متلازمين ، بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به من دون الآخر ، صارا بمنزلة شيء واحد ، حتى كأنه قال : فانظر إلى غذائك .

الثاني : أن الضمير يعود إلى الشراب فقط ؛ لأنه أقرب مذكور ، وثمّ جملة أخرى حذفت لدلالة هذه عليها . والتقدير : وانظر إلى طعامك لم يتسنّه ، وإلى شرابك لم يتسنّه . وقرأ ابن مسعود - رضي الله عنه - : ﴿ فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ ، وَهَذَا شَرَابُكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ .

أو يكون سَكَتَ عن تغيّر الطعام ؛ تنبيهاً بالأدنى على الأعلى ، وذلك أنّه إذا لم يتغيّر الشراب مع نزعة النفس إليه ، فعدم تغيّر الطعام أولى ، قال معناه أبو البقاء .

الثالث : أنّه أفرد في موضع الثنية ، قاله أيضاً أبو البقاء ^(١) ؛ وأنشد :

(١) انظر « التبيان » ١ : ١٠٩ ، ١١٠ .

فَكَانَ فِي الْعَيْنَيْنِ حَبَّ قَرْنُفَلٍ أَوْ سُنبُلٍ كُحِلَتْ بِهِ فَأَنْهَلَتْ
وليس بشيء^(١) .

ثالثاً : مراعاة المضاف المحذوف :

قد تتخذ المخالفة بين الضمير ومرجعه علة أخرى يدرك المتلقي من خلالها أن عدم المطابقة هي أمر ظاهري ، وسرعان ما يتضح بالتأمل أن المطابقة حاصلة ، وأن الضمير يعود على مضاف محذوف يرشدنا إليه سياق الكلام .

أما رفض بعض النحاة لمثل هذا الأسلوب فمحمولٌ على كل مضاف محذوف لا دليل عليه ، فلا يصح نحو : (زيدٌ قاموا) ونحن نريد : (غلمانٌ زيدٌ قاموا) .

وقد استشهد المفسرون على مراعاة المضاف المحذوف بقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ الأعراف : ٤ . فقد آتت الضمير في (أهلكتناها) و(فجاءها) مراعاةً للفظ (القرية) ، ثم قال : (أو هم قائلون) بضمير العقلاء ؛ لأنه عائد على المضاف المحذوف وهو (أهل) ، والتقدير : (وكم من أهل قرية) و(أهلكتنا أهلها) و(فجاء أهلها)^(٢) .

ولم يقدر الزمخشري مضافاً محذوفاً إلا في (فجاءها) من أجل عودة الضمير (هم) عليه ، ولا يرى حاجة إلى تقدير مضاف في (قرية) و(أهلكتناها) ؛ لأن القرية تُهلك^(٣) .

(١) انظر « اللباب في علوم الكتاب » لابن عادل . منشور على شبكة المعلومات :

<http://www.altafsir.com>

(٢) انظر « البرهان في علوم القرآن » للزركشي ، ٣ : ١٥١ .

(٣) انظر « الكشف » ٢ : ٨٧ ، و« مغني اللبيب » ٢ : ٧١٥ .

الغرض تعظيماً لها وللمبشر بها « (١) .

ويرى العكبري أنه « أفرد في قوله : (وبشر) لأنه أراد موسى - عليه السلام - وحده ، إذ كان هو الرسول ، وهارون وزيراً له ، فموسى - عليه السلام - هو الأصل » (٢) .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا نَارَآئِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ الشعراء : ١٥ . فقد خاطب الله تعالى موسى وهارون - عليهما السلام - بضمير المثنى في (اذهبا) ثم خاطبهما بضمير الجمع في (معكم) ، وقد أورد القرطبي (٣) في علة هذا الانتقال من التثنية إلى الجمع ثلاثة أوجه :

الأول : أن الاثنين جمعٌ .

الثاني : أن يكون الضمير لهما ولمن أرسلإليه .

الثالث : أن الضمير لجميع بني إسرائيل .

والرأيان الأخيران هما الأقرب إلى طبيعة اللغة ؛ لأن القول بأن الاثنين جمعٌ يؤدي - كما قلنا - إلى إلغاء المثنى وضميره ، والقول به هروب من بيان العلة الحقيقية لجمع الضمير .

ونقل أبو حيان عن شيخه أبي جعفر بن الزبير أنه يرجح أن يكون أريد بصورة الجمع المثنى، والخطاب لموسى وهارون فقط؛ لأن لفظة (مع) تبين من يكون كافراً، فإنه لا يقال: الله معه، وحمله سيبويه على أنه أريد بالجمع التثنية ، كأنهما لشرفهما عند الله

(١) « الكشاف » ٢ : ٣٦٤ .

(٢) « التبيان » ٢ : ٣٣ .

(٣) انظر « تفسير القرطبي » ٧ : ٤٩٧١ .

تعالى عاملهما في الخطاب معاملة الجمع إذ كان ذلك جائزاً أن يعامل به الواحد لشرفه وعظمته . اهـ .

وهو كلام نفيس مؤيد بتقديم الظرف ، ويكون حينئذ خطابها مشاكلاً لتعظيم المتكلم سبحانه نفسه ، لأنّ المقام للعظمة ، وعظمة الرسول من عظمة المرسل ، على أنّه يجوز أن يكون ذلك إشارة إلى البشارة بمن يتبعهما كما قدرته ^(١) .

وكما نرى فإنّ مراعاة المصاحب في عود الضمير تعدّ نوعاً من الإيجاز ؛ لأنّ عود الضمير إلى المثنى أو إلى المفرد يشير إلى مصاحب للمرجع ، وهذا المصاحب محذوف لدلالة السياق عليه ، كما أنّ الضمير نفسه يشير إليه ^(٢) .

خامساً : مراعاة النظر :

والمراد به أنّ الضمير قد يكون له مرجع مطابق له نوعاً وعدداً ، لكنه ليس هو المرجع الحقيقي ، وإنّما المرجع شيء مماثل في اللفظ والمعنى ، بحيث لو جعلنا المذكور في حدّ ذاته هو المرجع لفسد المعنى .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْمرُّ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ فاطر : ١١ . فالضمير في (عمره) لا يعود على (معمر) المذكور ، وإنّما على معمر آخر . وذلك لاستحالة أن يعمر معمر وينقص من عمره في آن واحد . ومثل ذلك قولنا : (عندي درهم ونصفه) ، فالضمير في (نصفه) لا يعود على الدرهم الأول ، وإنّما على درهم آخر مناظر ومشابه له ^(٣) .

(١) انظر « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » للبقاعي . منشور على شبكة المعلومات :

<http://www.altafsir.com>

(٢) انظر « من أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه في القرآن الكريم » ٧٨ .

(٣) انظر « معاني القرآن » للفراء ، ٢ : ٣٦٨ . و« همع الهوامع » للسيوطي ، ١ : ٦٥ .

سادساً : التغليب :

والمراد به ترجيح أحد المغلوبين على الآخر وإعطاؤه حكمه ، وذلك إجراء للمختلفين مجرى المتفقين^(١) .

واللغة العربية تنزع نحو تغليب المذكر على المؤنث عند اجتماعهما كما في قوله تعالى في قصة بيعة الرضوان : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَفَعْتُمْ عَنْهَا فَنَصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الفتح : ٢٥ ، نلاحظ هنا تغليباً للمذكر على المؤنث في خطاب المؤنث في (تعلموهم) و (تطوؤهم) و (منهم)^(٢) .

أو عند الحديث عن أشخاص غير محددين ، كما في قولك : (في معظم بلاد العالم كل من يتعاطى المخدرات يعاقبه القانون) ، وقولك : (ليس هناك أسوأ من أن تكون في حيرة من أمرك ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى) .

سابعاً : تنزيل غير العاقل منزلة العاقل :

ومن ذلك أيضاً معاملة غير العاقل معاملة العاقل الذي أسند إليه صفة من صفات العقلاء ، كما في قوله تعالى على لسان يوسف - عليه السلام - : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ يوسف : ٤ .

ولم يقل : (رأيتهم لي ساجدات) ؛ لأنه لما أخبر عنهن بالسجود جرين مجرى الناس^(٣) . وفي ذلك ضربٌ من المجاز .

(١) انظر « البرهان في علوم القرآن » ، ٣ : ٣٠٢ .

(٢) انظر « روح المعاني » للألوسي ، ١٩ : ٢٢٠ .

(٣) انظر « المذكر والمؤنث » لأبي بكر بن الأنباري ، ٢ : ٢١٥ ، ٢١٦ .

ثامناً : إرادة التعظيم والتفخيم :

بمقتضى هذا الاستثناء يستخدم ضميرا المتكلمين (نحن) و (نا) للمتكلم المفرد ، وضمير المخاطبين (أنتم) ونحوه للمخاطب المفرد لأجل تعظيمهما ، على سبيل الاحتمال وليس القطع ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ الأنبياء : ٥١ ، الذي أشير فيه بـ (نا) إلى الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠ ، ففي قوله : (ارْجِعُونِ) بخطاب الجمع أربعة أوجه :

أجودها : آتة على سبيل التعظيم ^(١) ، كقول العرجي :
فَإِنْ شِئْتَ حَرَمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ وَإِنْ شِئْتَ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا وَلَا بَرْدًا
حيث خاطب المفردة المؤنثة بضمير الجمع المذكور (سواكم) تعظيماً لها ^(٢) . وكقول الآخر :

أَلَا فَارْجُحُونِي يَا إِلَهَ مُحَمَّدٍ فَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا فَأَنْتَ لَهُ أَهْلٌ

وقد يؤخذ من هذا البيت ما يردّ على ابن مالك حيث قال : « إنّه لم نعلم أحداً أجاز للداعي أن يقول : (يا رَحِيمُونَ) » قال : « لثلاثيهم خلاف التوحيد » ، وقد أخبر تعالى عن نفسه بهذه الصيغة وشبهها للتعظيم في مواضع من كتابه الكريم ^(٣) كقوله :

(١) انظر « الكشاف » ٥٦ : ٣ .

(٢) انظر « مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف » لمحمد عليان ، ٢ : ٢٩٤ .

(٣) انظر « الدر المصون » ٣٦٦ : ٨ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر : ٩ .

الثاني : أنه نادى ربه ، ثم خاطب ملائكة ربه بقوله : (اَرْجِعُونِ) . ويجوز على هذا الوجه أن يكون على حذف مضاف ، أي : يا ملائكة ربي ، فحذف المضاف ثم التفت إليه في عود الضمير كقوله : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ الأعراف : ٤ . ثم قال : ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ الأعراف : ٤ ، التفاتاً إلى (أهل) المحذوف ^(١) .

الثالث : أن ذلك يدل على تكرير الفعل كأنه قال : (اَرْجِعْنِي ارجعني ارجعني) . نقله العكبري ^(٢) وهو يُشبه ما قالوه في قوله : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ ق : ٢٤ ، أنه بمعنى : (أَلْقِيَا أَلْقِيَا) تُنْبِي الفعلُ للدلالة على ذلك ، وعليه قول امرئ القيس :
قَفَا تَبَكُّ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
أي : قف قف ^(٣) .

الرابع : أن (رَبِّ) للقسم ، والخطاب في (ارجعون) للملائكة القابضين للأرواح ، أي : (بحق الله ارجعون) ^(٤) .
وعلى الرغم من طرافة هذه الآراء نجد أن إرادة التعظيم هي الأنسب في مثل هذا الموقف في يوم القيامة بما فيه من رهبة وإجلال .

(١) انظر « الدر المصون » ٨ : ٣٦٦ .

(٢) انظر « التبيان » ٢ : ١٥٢ .

(٣) انظر « الدر المصون » ٨ : ٣٦٧ .

(٤) انظر تفسير « غرائب القرآن و رغائب الفرقان » للقمي النيسابوري (ت ٧٢٨ هـ) ، منشور على

شبكة المعلومات : <http://www.altafsir.com>

وقد عرض لهذه الآية ابنُ هشام لكنه لم يذكر السر في هذا العدول الخطابي من المفرد إلى الجمع ، واكتفى بالقول : « أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ فأفرد ثم جمع ؛ لأن غير المبتدأ أو الخبر لا يجب له من التطابق ما يجب لهما » ^(١) .

ونلاحظ في الآية الإحالة النصية المعجمية في قوله : ﴿ كَلِمَةً ﴾ حيث أحالت إحالة قبلية على قوله : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ ^(٢) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ .

ويجب التفرقة هنا بين الترابط الشكلي والترابط المعنوي ، ففي قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ ^(٣) وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفُنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رُبُّكَ فَيْسِيًّا ﴾ مريم : ٦٣ - ٦٤ نجد أن ضمير الجمع (نحن) المستتر في (نورث) وفي (ننزل) يعود على مرجعين مختلفين على الرغم من الترابط الشكلي بينهما ، حيث يعود في (نورث) على الله عز وجل ، وفي (ننزل) على الملائكة ، وفي ذلك تغاير تام في المعنى .

في حين أن تحليل هاليداي ورقية حسن يستلزم وجود علاقة ترابط بين الضمائر في الآيتين ^(٤) .

(١) « مغني اللبيب » ٢ : ٧١٤ . وانظر « من أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه في القرآن الكريم »

د. أحمد عبدالراضي ، ٨٧ .

(٢) انظر « تحليل الخطاب » ٢٣٥ .

الاستثناء البلاغي في استخدام الضمير :

يتمثل عدم مراعاة المطابقة بين الضمائر لأغراض بلاغية ، أو ما سميناه بالاستثناء البلاغي في الظاهرة المشهورة المعروفة بـ (الالتفات) ، والالتفات بمعناه الموسع هو انتقال بنية الخطاب من صيغة إلى صيغة أخرى في سياق لغوي مترابط .

« ويمثل الالتفات خاصية بارزة في حركة الصياغة موضعياً ، حيث تتحوّل اللفظة في موضعها تحوّراً غير مألوف يفرز دلالة فيها كثير مما لا يتوقّعه المتلقي ، وفيها كثير من إمكانات المبدع في استعمال الطاقات التعبيرية الكامنة في اللغة »^(١) .

كما يعدّ الالتفات ضرباً من الانتهاك أو التحوّل أو العدول في مسار التعبير ، وهذا التحوّل هو جوهر الأسلوب في نظر المعاصرين .

وهذا الأسلوب له ما يدعمه في نظرية النحو التحويلي أو التوليدي ، لا سيما في تمييز تشومسكي - مؤسس هذه النظرية - بين مستويين من الجملة ، هما : البنية العميقة ، والبنية السطحية .

فالمستوى الأول : هو النمط المثالي التجريدي - المقدّر في الذهن - للجملة الكاملة الصحيحة نحويّاً ودلاليّاً .

أمّا المستوى الثاني : فهو الصورة اللغوية المحسوسة - نطقاً أو كتابةً - لتلك الجملة ، وتلك البنية السطحية هي فرع عن البنية العميقة ، وهي في تفرّعها عنها تتخذ أشكالاً وأوضاعاً عديدة عن طريق إدخال بعض التحويلات الاضطرارية حيناً ، والاختيارية

(١) « جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم » د. محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، ط ١ ، ١٩٩٥ م . ص ١٨٨ . وانظر « البلاغة والأسلوبية » د. محمد عبد المطلب ، ٢٦٨ ، و « الالتفات في القرآن الكريم : دراسة أسلوبية » سعاد الحدادي ، أ .

حيناً آخر على نمطها المثالي في الذهن . ولكن هذه الأشكال والأوضاع وإن تمايزت من حيث القيمة الجمالية أو الشحنة التأثيرية تظل ذات جذر دلالي واحد ، أو بنية عميقة واحدة^(١) .

ومع اقتصاري في الحديث هنا على الجانب المتعلق بالالتفات في الضمائر فحسب ، سأتناول قضية اختلال المطابقة في الجهة وفي العدد فقط ، دون الجنس .

شرط الالتفات :

نص البلاغيون على أن للالتفات بالضمير شرطاً جوهرياً لا بدّ من تحقّقه ، وهو « أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه » .

ومؤدّي هذا الشرط أن صورة الالتفات لا تتحقّق إلّا إذا كانت هناك صورة أخرى بديلة يمكن أن تؤدّي أصل معناها ، تلك الصورة - بناء على هذا الشرط - هي استمرار الأسلوب على ذات النسق الذي كان عليه قبل الالتفات . ففي قول تأبط شراً^(٢) - على سبيل المثال - :

بَأْتِي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي بَسْهَبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَخَصَحَانِ
فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ فَخَرَّتْ صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ

(١) انظر « نظرية اللغة في النقد العربي » د. عبد الحكيم راضي ، ٤٤٨ ، و« علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته » د. صلاح فضل ، ٩٩-١٠١ ، و« اللغة والإبداع : مبادئ علم الأسلوب العربي » شكري محمد عياد ، ٥١-٥٢ .

(٢) انظر « ديوان تأبط شراً وأخباره » ، جمع: علي ذو الفقار شاکر ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، ١٩٨٤ م . ص ٢٢٤-٢٢٥ .

ويتمثل الالتفات في إشار الشاعر لصيغة المضارع في البيت الثاني في قوله :
 (فأضربها) عدولاً عن صيغة الماضي التي ورد عليها الفعل (لقيت) في البيت الأول ،
 وفاعل الفعلين واحد ، وهو الشاعر ، ومفعولهما واحد ، وهو الغول ، ومعنى ذلك أنه
 كان يمكن أن يستمر الشاعر على نسق الماضي ، فيقول : (فضربتها) دون أن تتغير البنية
 الأساسية للمعنى الذي يريده ، أو لنقل : إن صيغة الفعل الماضي (فضربتها) هي
 الصورة النمطية البديلة لصيغة المضارع التي آثر الشاعر الالتفات إليها (فأضربها) ،
 مع اتفاق الأولى معها في أداء (أصل المعنى) .

وبناء على هذا الشرط فلا يكون من الالتفات - كما يرى الزركشي^(١) - الانتقال من
 الخطاب إلى التكلم في قوله تعالى على لسان سحرة فرعون : ﴿ فَأَقِصْ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا
 تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (٧٣) إِنَاءً آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ طه :
 ٧٢ ، ٧٣ . وذلك لعدم توحد مرجع الضميرين ، حيث إن ضمير الخطاب في الآية
 الأولى يعود على فرعون ، وضمير التكلم في الثانية يعود على السحرة .

وعلى أساس هذا الشرط اختلف البلاغيون في طبيعة الانتقال عن التكلم إلى
 الخطاب في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يس : ٢٢ .
 فمنهم من يرى أنه ليس التفاتاً ، إذ إنه لا يكون كذلك إلا إذا كان من تحكي الآية
 مقولته قد قصد الإخبار عن نفسه في كلتا الجملتين (حتى يتوحد مرجع
 الضميرين) ، وهاهنا ليس كذلك ؛ لجواز أن يكون أراد بقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾
 المخاطبين ، ولم يُرد نفسه ، ويؤيده ضمير الجمع ، ولو أراد نفسه لقال : (نرجع)^(٢) .

(١) انظر « البرهان في علوم القرآن » ٣ : ٣١٧ .

(٢) انظر « البرهان في علوم القرآن » ٣ : ٣١٧ .

ومنهم من ذهب إلى أن الانتقال في الآية من الالتفات ؛ وذلك لأنّ الضميرين للمتكلم، ولكنه عبّر ثانيًا عن الذات المتكلمة بضمير المخاطبين ، ويرى بعض من مال إلى هذا الرأي أن الضميرين للمخاطبين ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : وما لكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون ، فعدل عن مقتضى الظاهر في الأوّل وأوقع ضمير التكلم موقع ضمير الخطاب ، ثم عبّر بعد ضمير التكلم بضمير الخطاب ، فقد اتّحد المعبر عنه واختلفت العبارة ^(١) .

« إن اشتراط البلاغيين لهذا الشرط ، وإلحاحهم على ضرورة تحقيقه هو دليل واضح على أن الالتفات بحسب تصوّرهم له هو إحدى الظواهر الأسلوبية التي لا تتحقق إلّا إذا كان لها في الأقلّ بديل - أو ثرت عليه - في نظام اللغة ، وذلك أن اتحاد المعنى بين المتقل عنه والمتقل إليه يعني أننا نكون مع كلّ صورة من صور الالتفات إزاء بديل لها مفترض (وهو أطراد الأسلوب على نسق المتقل عنه) يقبله السياق ، ويقرّه نظام اللغة » ^(٢) .

وهنا تبرز أهمية دراسة السياق للكشف عن وجوه الالتفات ومغزاه ، فبنية الالتفات لا تتحقق إلّا عندما يتوالى في سياق أو نسق كلامي واحد عنصران متماثلان وظيفيًا أو معنويًا ، وينحرف الثاني منهما عن الأول في نمط الأداء ، وعلى هذا الأساس ذاته فإنّ الالتفات لا يتجدد في هذا السياق أو النسق إلّا بحدوث انحراف أو انكسار آخر في مساره .

(١) انظر « حاشية الدسوقي على مختصر السعد » ١ : ٤٦٧ ، و« الإتقان في علوم القرآن » ٢ : ٨٥ ،

و« المثل السائر » ١ : ١٦٦ - ١٦٨ .

(٢) « أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية » د. حسن طبل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٨ م .

ص ٣٨ .

فالالتفات في أول سورة الفاتحة - على سبيل المثال - من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، هذا الالتفات لا يتكرر - كما يرى السعد التفتازاني - بتكرار ضمائر الخطاب بعده في ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و﴿اهدنا﴾ و﴿أنعمت﴾ ؛ لأن كل ضمير من الضمائر الثلاثة لم ينحرف عن النمط الذي جرى عليه سابقه ، وعلى هذا فالالتفات فحسب إنما هو في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، والباقي جارٍ على أسلوبه ^(١) .

ولذا كان السياق في نظر ميشيل ريفاتير هو القاعدة الداخلية التي ينحرف عنها الأسلوب ، وكان السياق اللغوي - في نظره - معياراً لا بدّ من مراعاته في تحديد ظواهر الأسلوب .

إن تصوّر ريفاتير للأسلوب يلتقي في بعض زواياه مع تصوّر البلاغيين للالتفات ، يقول في تحديده لمعنى السياق الأسلوبي : هو «نموذج لغوي ينكسر بعنصر غير متوقع» .

والتضاد الناجم عن هذا الاختلاف هو المثير الأسلوبي ، وقيمة التضادّ الأسلوبية تكمن في نظام العلاقات الذي يقيمه بين العنصرين المتقابلين ، فلن يكون له تأثير ما لم يتداع في توالٍ لغوي ^(٢) .

فإذا كانت الظاهرة الأسلوبية عنده لا بدّ أن يسبقها (سياق) ينعكس عليه انحرافها فإنّ هذا بعينه هو ما عناه هؤلاء البلاغيون حين صرّحوا بأنّ الالتفات صورة

(١) انظر « مختصر السعد على تلخيص المفتاح » ١ : ٤٦٦ . وانظر « أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية » ٤٣ .

(٢) « علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته » ١٩٣ .

لا تتحقق إلا إذا كانت عدولاً عن « شيء حاصل ملتبس به » أو عن « ظاهر سوق الكلام »^(١).

وبناء على ذلك يرى البلاغيون أن الالتفات ظاهرة نصية لا تتحقق على مستوى الجملة الواحدة، بل لا بد أن يقع في أكثر من جملة، كما أنه لا يتأتى في صدر الكلام. ومن ثم يخرج من حيز الالتفات في نظرهم مثل قول الشاعر:

إلهي عبدك العاصي أتاك
مقرّاً بالذنوب وقد عصاك

وقول امرئ القيس^(٢):

تطاوَلَ ليلُكَ بالاثمِ
ونامَ الخَلِيُّ ولم تَرَقُدْ

وقول علقمة بن عبدة^(٣):

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحَسَنِ طَرُوبٌ
بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيبٍ^(٤)

وذلك لأنّ العدول في هذه الأبيات ليس عن سياق لغوي، أو عن « شيء حاصل » متجسّد في نسق الكلام، بل عن نمط تجريدي أو تقديري يقتضيه المقام.

والمقام في هذه الأبيات هو مقام التكلّم الذي كان يقتضي بحسب الصورة المثالية لنظام اللغة أن يقول: إلهي أنا أتيتك، وتطاول ليلى، وطحابي قلب^(٥).

(١) « مواهب الفتاح » ١: ٤٦٦.

(٢) انظر « شرح ديوان امرئ القيس » لحسن السندوبي، المكتبة الثقافية، بيروت، ط ٧، ١٩٨٢ م. ص ٧٦.

(٣) انظر « شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل » للأعلم الششمري، تح: د. حنا نصر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٣ م. ص ٢٣.

(٤) انظر « الإيضاح » ٧٦، و« الإتقان في علوم القرآن » ٢: ٨٦.

(٥) انظر « أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية » ٤٩.

وظيفة الالتفات :

يبدو منطلق البلاغيين من مقولة التطابق بكونها مثله لنوع من الانسجام الذي يؤلف بين الأجزاء لتشكّل وحدة متناسقة في تنظيم تلقائي وذاتي ، وكلّ استثناء في هذا التنظيم يُفضي إلى نوع من الخلل أو الانتهاك يدفعُ البلاغيين إلى اعتباره نوعاً من الطاقة التعبيرية التي يمكن وضعها في قواعد تعيد التوازن مرة أخرى^(١) .

وتعدّ هذه الطاقة التعبيرية هي الغاية الأولى والوظيفة الفنية العامة التي يحقّقها أسلوبُ الالتفات في النص الخطابي ، وتمثّل تلك الطاقة في إثارة المتلقي وجذب انتباهه ، ومن هنا تشابهت نظرة ريفاتير في الأسلوب مع نظرة البلاغيين العرب في الالتفات من زاوية المتلقي .

ونضيف أنّ « مخالفة ما يتوقّعه السامع » قد كانت شرطاً جوهرياً لتحقيق صورة الالتفات كما يقرّره التفتازاني بقوله : « والمشهور عند الجمهور أنّ الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة ... بعد التعبير عنه بآخر منها ، بشرط أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه الظاهر ، ويرتقبه السامع »^(٢) .

إنّ هذا الانحراف في النسق اللغوي واختراقه بنسق آخر لغوي لا يطرّد معه، دافعه معنوي صرفٌ ، فمُنشئُ الخطاب لم يجد وسيلة للإشارة إلى المعنى الذي يتحرّك في نفسه إلّا عن طريق هذا الانحراف بالنسق عن مقتضى ظاهره^(٣) .

(١) انظر « البلاغة والأسلوبية » د. محمد عبد المطلب ، ٢٨٠ .

(٢) « شروح التلخيص » ١ : ٤٦٥ . وانظر « أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية » ٤٧ .

(٣) انظر « جماليات الالتفات » ٩٠٥ .

هذا ما ذهب إليه البلاغيون ، ولكن مع تأمل أسلوب الالتفات نجد أن تلك الظاهرة ذات العدول الإحالي ليست حيلة من حيل جذب المتلقي وتشويقه واستمالته فحسب ؛ لأن ما يحدث فيها من انحراف عن النسق ، أو انتقال في الإيراد الكلامي من صيغة إلى صيغة ليس انتقالاً استطرادياً مثلاً ، وليس تعليقاً طريقياً على ما قيل أو ما حدث ، وليس استشهاداً بطرفة أو ملححة أو ما شابه ذلك من وسائل تطرية نفس المتلقي أو الترويح عنه ، وإنما ينحصر الأمر في بيان معنى على قدر كبير من الرهافة والخفاء ، لا يلفت المتلقي إليه أو إلى البحث عنه إلا إدراكه للتغير الحادث في النسق اللغوي للخطاب . ولعلنا يتنبه المتلقي إلى هذا التغير ، ومن دون ذلك الإدراك يظل ذلك المعنى مخفياً وغائباً ^(١) .

وهناك قضية مهمة في هذا العدول الإحالي هي أن المتلقي قد يتنبه إلى هذا الالتفات ، وقد لا يتنبه ، فإذا تنبه إليه فإنه سيجتث عن مغزاه ، وإذا لم يتنبه إليه فإن ذلك لن يؤثر في انسجام النص وتماسكه ، ولن يعيقه عن إدراك المعنى الذي يتبادر إلى ذهنه من خلال توهمه لا طراد النسق ، وإن فاته إدراك المغزى والمعنى الكامن وراء الالتفات ^(٢) .

أولاً : المخالفة في الجهة ^(٣) :

يشتمل هذا النوع من الالتفات على الآتي :

- ١ - الالتفات من المتكلم إلى الغائب ، كقوله تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْجُونٌ وَازْدُجِرَ ۖ ﴾ ^(١) فدعا ربه أني مغلوب فأنصر ^(٢) القمر : ٩ - ١٠ . حيث أشار

(١) انظر « جماليات الالتفات » ٩٠٥ ، و« نحو آجرومية للنص الشعري » ٢٣٥ .

(٢) انظر « جماليات الالتفات » ٩٠٦ .

(٣) المقصود بالجهة : التكلم والغيبة والخطاب ، كما استخدمها د. محمد محمد يونس .

الحق سبحانه وتعالى متكلمًا عن نفسه بضمير الجميع (عبدنا) ، ثم التفت مستخدمًا اسمًا ظاهرًا معادلًا لضمير الغائب وهو (رب) الذي يحيل على (نا) في الآية السابقة .

ومنه أيضًا قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ ص : ٤١ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ ص : ٢٤ .

٢ - الالتفات من الغائب إلى المتكلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَزَكَرْنَا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ ﴾ الأنبياء : ٨٩ - ٩٠ . حيث التفت من الاسم الظاهر المعادل لضمير الغائب (ربه) إلى ضمير المتكلم في (فاستجبنا) .

ومثله قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ فاطر : ٩ ، حيث التفت فيه من الاسم الظاهر ، وهو لفظ الجلالة الذي يعادل ضمير الغائب (هو) إلى ضمير المتكلم (نا) في (فُسْقَنَاهُ) .

٣ - الالتفات من المخاطب إلى الغائب ، كقوله تعالى : ﴿ يَبْيَحِثْنَ خِذِّ الْكِتَابِ يَقُورُ ۖ وَآيَتُهُ الْحُكْمُ صَبِيحًا ﴾ مريم : ١٢ . حيث التفت من المخاطب (يحيى) إلى ضمير الغائب في قوله (وآتيناه) .

وقوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِرَبِّكُمْ ﴾ يونس : ٢٢ ، حيث عدل عن استخدام ضمير المخاطب (بكم) إلى استخدام ضمير الغائب (بهم) .

٤ - الالتفات من الغائب إلى المخاطب ، كقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ۚ ﴾ عبس : ١ - ٣ . حيث عدل عن استخدام ضمير الغائب إلى استخدام ضمير المخاطب ، قائلاً : (يدريك) بدلًا من (يدريه) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْبَيْتِ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَالْقَيْثُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُتُوكًا ... ﴾ طه : ٣٧-٤٠ .

نلاحظ في هذا المقطع النصي من قصة موسى - عليه السلام - أنه سبحانه ابتدأ بأسلوب الخطاب مستخدماً ضمير المخاطب (عليك ، أمك) ، الذي يحيل على موسى ، ثم التفت في الآية اللاحقة إلى أسلوب الغائب (اقدفيه ، فليلقه ، يأخذه ، له) وضمان الغيبة هنا أيضاً تحيل على موسى ، ثم التفت ثالثة من الغائب إلى ما كان ابتدأ به وهو أسلوب الخطاب قائلاً : (عليك) ولم يقل : (عليه) . وهو ضمير أيضاً يحيل على موسى عليه السلام .

إنّ هذه التحوّلات في السياق الواحد في الخطاب القرآني يمكن أن نطلق عليها مصطلح (تعليق النص) ، ونقصد به : « دراسة ما يقوم عليه النص من انتقالات في آفاقه الموضوعية وفي بنيته ، وما تخضع له من قيم واشتراطات تعبيرية وبنائية »^(١) . وهو مصطلح منبثق من مصطلح الالتفات ، ولكنه يقدم فضاءً متسعاً لتفحص النص في وجوده الدلالي والبنائي ، وهو ما لا نجده في تداول مفهوم (الالتفات) .

والنظر إلى عملية إنتاج النص من خلال مفهوم (تعليق النص) تقوم على رؤية تجعل عمل المبدع وهو يؤسس لنصّه شيئاً يعمل من ينسج (بساطاً) من خيوط مادة معينة بألوان مختلفة ، وهذا الناسج يقوم بعملية (تعليق) متواصلة ، إذ يمسك بالخيوط

(١) « تعليق النص : الالتفات من المتن البلاغي إلى التداول النقدي .. » د. علي حدّاد ، مجلة الباحث

الجامعي ، جامعة إب ، ع ١ ، السنة ١٩٩٨ ، م. ص ٧٨ .

ذات الألوان المتعددة ليقوم بعملية من التداخل فيما بينها . وما إن يمدّ خيطاً منها لمسافة معينة حتى يعلّقه لصالح خيط آخر ، أو يعود بعد ذلك إلى الخيط الأول . وهكذا يستمرّ ذلك النشاط من تواشج الألوان والخيوط لينتج معنى مادياً (البساط) بشكل فني (الخيوط بألوانها وأطوالها) .

إنّ هذا هو ما نجده في النص القصصي السابق حينما يبدأ النصّ متحدّثاً عن موسى - عليه السلام - بأسلوب المخاطب (عليك) و (أمك) ، ثم يعلّق النصّ الخطابي ليتحدّث عن موسى عليه السلام بأسلوب الغائب (أقذفيه ، فليلقه ، يأخذه ، له) ، ثم يعلّق أسلوب الغائب ، ليعود إلى ما ابتداء به من جديد وهو أسلوب الخطاب (عليك) (ولتصنع) (أختك) ، ثم يعود إلى الغائب (يكفله) ، ثم يرجع إلى المخاطب (فرجعناك) (أمك)... إلخ . وهو ما يمكن أن نطلق عليه : (التعليق المتكرر) حيث يقوم مُنشئ النص بتعليق جزئية بنائية لصالح أخرى تالية ، ثم يعود بعد حين إلى تلك التي علّقها ، فيعيد ذكرها بالهيئة ذاتها التي جاءت فيها أول مرة . وربّما كرّر ذكرها أكثر من مرّة بعد تعليق مستمرّ لسواها ^(١) .

كما نلاحظ أنّه استخدم التعبير بالغائب للدلالة على أحداث نشأت في حقبة زمنية سابقة على زمن الخطاب .

٥ - الالتفات من المتكلّم إلى المخاطب ، وهي حالة نادرة في القرآن الكريم ؛ لأنّ الالتفات من (التكلّم إلى الخطاب) مما يندّر تحقّقه في لغة الكلام ، وذلك للتوازي أو التباين التام بين موقعي الخطاب والتكلّم ؛ ففي الموقف أو السياق الواحد لا يمكن أن يكون الشخص الواحد - إلّا تجوّزاً - متكلّماً ومخاطباً ، أو مرسلًا ومستقبلاً في آنٍ واحد ،

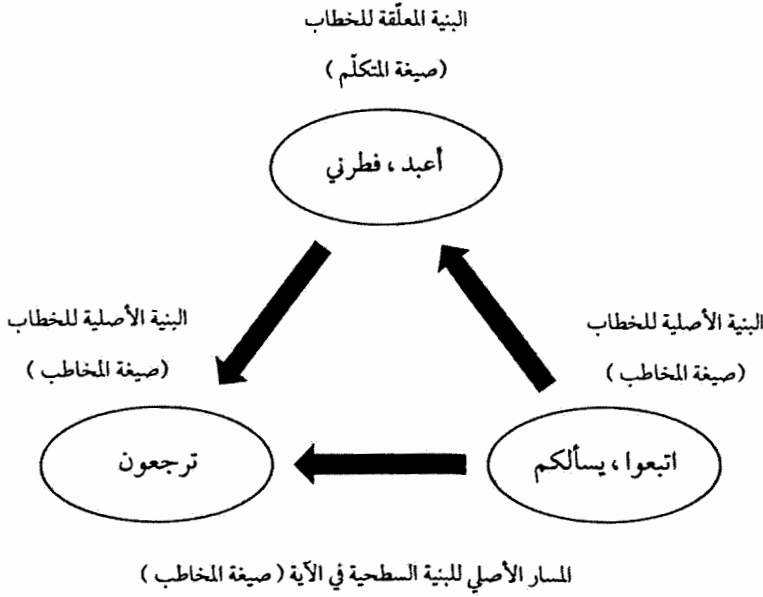
(١) انظر « تعليق النص » ٩٦ ، ١٠٠ .

وسبق أن بيّنت أن شرط الالتفات هو أن يكون الملتفت إليه هو نفس الملتفت عنه .

ولا نكاد نقف على هذه الصورة إلا في قوله تعالى على لسان الرجل المؤمن الذي

جاء ينصح قومه بعد تكذيبهم الرُّسَل : ﴿ أَتَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُنْهَدُونَ ۚ ﴾^(١١)
وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ يس : ٢١ - ٢٢ .

فقد افتتح الخطاب بصيغة المخاطب (اتبعوا) ثم علّقه ليستخدم صيغة المتكلم (أعبد) (فطرني) ، ثم عاد بما افتتح به وهو صيغة المخاطب (ترجعون) . ويتمثل ذلك التعليق في الشكل الآتي :



كما نلاحظ أنه استخدم في الآية الثانية : (ترجعون) بدلاً من (أرجع) ؛ وذلك لكون الكلام سيق في معرض المناصحة لقومه بعد حديثه عن نفسه ، حتى يقول

لهم : إن مرجعكم ومرجعي إلى الله رب العالمين ^(١) .

وهذا يتفق ورأي النصيين في كون تحولات الضمائر الشخصية في الالتفات مفاتيح للكشف عن البنى الصغرى أو الجمل داخل البنية النصية الكبرى ^(٢) .

على أن هناك من البلاغيين من ذهب إلى أن هذا الموطن لا يعد من الالتفات ؛ وذلك لعدم اتحاد المعنى أو الجهة بين الخطاب في الآية الأولى والتكلم في الثانية ، إذ إن الضميرين هما للمتكلم ، ولكنه عبر ثانياً عن الذات المتكلمة بضمير المخاطبين ، وكان مقتضى ظاهر السياق أن يقول : (وإليه أرجع) ، وفي ذلك تحذير شديد لقومه ، وتنبيه إلى أنهم صاثرون إلى الله وراجعون إليه ^(٣) .

وهو في رأي آخر التفات من الخطاب الذي جرى عليه السياق في الآية الأولى : ﴿ أَتَسْمِعُوا مَن لَا يَسْمَعُكُمْ أَجْرًا .. ﴾ إلى التكلم في صدر الآية الثانية ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ، وقد كان مقتضى السياق أن يقول : ومالكم لا تعبدون الذي فطركم ، بدليل قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . وفائدة الالتفات حينئذ هي إظهار تلطف الرجل المؤمن بالمخاطبين ، حيث أورد الكلام في معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، وذلك أدخل في إحاض النصيح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ^(٤) .

(١) انظر « الإيقان في علوم القرآن » ٣ : ٢٨٩ .

(٢) انظر « عناصر السبك بين القدماء والمحدثين » د. نادية النجار ، ٢ : ٥٦٣ .

(٣) انظر « الإيضاح » ٧٥ ، و « شروح التلخيص » ١ : ٤٦٧ ، و « خصائص التراكيب » د. محمد أبو موسى ، ١٩٦ ، و « أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية » ١١٦ .

(٤) انظر « الكشف » ٣ : ٢٨٣ ، و « المثل السائر » ١٦٦ ، و « تفسير أبي السعود » ٧ : ١٦٤ . و « أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية » ١١٧ .

ويعدّ هذا الرأي من أوجه الآراء في تلك الآية ، أمّا الرأي القائل بأنّ التحوّل إلى الخطاب في الآية الثانية ليس من قبيل الالتفات فغير مسلّم به ؛ لأنّ فيه إغفالاً لدلالة الواو الواقعة في صدر تلك الآية ، فلو سلّمنا مع أصحاب هذا الرأي باختلاف جهتي الخطاب والتكلّم ، وأنّ الخطاب في الآية الأولى للقوم ، والمتكلّم في الثانية هو الرجل المؤمن فلن تكون بين الآيتين حيثيّة علاقة تبرّر عطف الثانية على الأولى بالواو المفيدة لمعنى الجمع ^(١) . والله أعلم .

٦ - الالتفات من المخاطب إلى المتكلّم ، هو كذلك من الحالات النادرة في القرآن الكريم ، لما علّناه في الحالة السابقة .

وينطبق عليه قوله تعالى : ﴿ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ^(١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ يس : ٢١ - ٢٢ ، وذلك إذا أخذنا بالرأي القائل أنّ هنا التفاتاً من الخطاب الذي جرى عليه السياق في الآية الأولى : ﴿ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا .. ﴾ إلى التكلّم في صدر الآية الثانية ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ، وقد كان مقتضى السياق أن يقول : وما لكم لا تعبدون الذي فطركم ، بدليل قوله : (وإليه ترجعون) .

وفائدة الالتفات حيثيّة هي إظهار تلطف الرجل المؤمن بالمخاطبين ، حيث أورد الكلام في معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، وذلك أدخل في إحاض النصيح حيث لا يريد لهم إلّا ما يريد لنفسه ^(٢) . وقد بيّنت سبب وجاهة هذا الرأي في

(١) انظر « أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية » ١١٧ .

(٢) انظر « الكشف » ٣ : ٢٨٣ ، و « المثل السائر » ١٦٦ ، و « تفسير أبي السعود » ٧ : ١٦٤ .

و « أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية » ١١٧ .

الحالة السابقة فليرجع إليه .

وقد نعدّ من هذا القبيل قوله تعالى على لسان شعيب - عليه السلام - مخاطبًا قومه :
﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ هود : ٩٠ .

فبالنظر إلى البنية السطحية نرى أن ضمير المخاطب في (ربكم) يحيل على قوم شعيب ، وضمير المتكلم في (ربّي) يحيل على شعيب ، وهنا يختل شرط الالتفات في أن يكون الملتفت والمُلتفت عنه واحدًا .

ولكن نرى بالتأمل في البنية العميقة للآية أن قوله : (إن ربّي) قد يراؤ بها : (إن ربكم غفور رحيم) ، فيكون الضميران في (ربكم) الأولى ، و (ربكم) المقدرّة الثانية للخطاب ، وهنا يتساءل المتلقّي : لم كان العدول عن الخطاب إلى التكلّم ؟

نلاحظ بالتأمل في سياق الآيات السابقة تنوّع السياق القرآني في عرض نعم الله على كلّ قوم من الأقوام التي أرسل إليها الأنبياء ، مع الإلماح إلى حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلّية بالحقّ الذي تُلاحظ آياته في الكون . ومع هذا كانت العناية الإلهية ترقب هؤلاء وتمهلهم قبل أن يحلّ بهم العذاب الأليم ، ولما كان موقف الأنبياء ثابتًا موقفًا بهذا الإله ، اقتضى السياق التعبير بصيغة التكلّم ، لتهيئ البنية الخطابية لذكر صفات هذا المولى التي منها (رحيم ، ودود ...) وغيرها من الصفات التي تكذب بها الأقوام ، وهذه البنية التي عدل عنها السياق فيها عن ضمائر المخاطب بكلّ ما فيها من دعوة تفكّر ونظر في هذا الكون الذي يدركون أن له ربًّا وخالقًا ، ولكنهم يعرضون عن عبادته ، لهذه الدلالات انحسرت بنية الخطاب عن دلالة الإيمان واليقين في الطرف الآخر ، فاخصّ ضمير المتكلم بالظهور متفردًا على مستوى البنية السطحية . وتتجلى دلالات هذا الالتفات إلى المتكلم في إلماحة من شعيب - عليه السلام - إلى قومه في أنه مثلهم في طلب الاستغفار وانتظار رحمة الله ، كما أن

صيغة التكلّم (رَبِّي) توحى بالصلة والقرب والمكانة التي عليها شعيب - عليه السلام - من ربه ، كما أنّ في ذكر صفتي (الرحيم) و (الودود) فيها تأنيس واستمالة لنفوس قومه . والاستغفار والتوبة يفتحان لهم أبواب رحمة الله ومحبته ، ف (التائب حبيب الرحمن)^(١) .

ونظرًا إلى قلّة هذه الحالة في القرآن الكريم لجأ البلاغيون إلى إثبات هذه الصورة عن طريق الاستشهاد بقول علقمة بن عبدة الفحل^(٢) :

طحا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحَسَانِ طَرُوبُ
بُعَيْدَ الشَّابَابِ عَصَرَ حَانَ مَشْيُبُ
تُكَلِّفُنِي لَيْلِي وَقَدْ شَطَّ وَلِيْهَا
وَعَادَتْ عَوَادِي بَيْنَنَا وَخُطُوبُ

فقد أشار الشاعر إلى نفسه بضمير المخاطب (الكاف) في (بك) ، ثم استخدم ملتفتًا ضمير المتكلم (الياء) في (تُكَلِّفُنِي) ، إذ أصل التركيب أن يقول : (تَكَلِّفُكَ) .

ثانيًا : المخالفة في العدد :

يقصد بها أن يلتفت من ضمير إلى آخر مخالف له من حيث الإفراد أو التثنية أو الجمع ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ البقرة : ١٧ . فقال : (بنورهم) بدلًا من (بنوره) .

(١) انظر « الالتفات في القرآن : دراسة أسلوبية » ٧٠ - ٧١ .

(٢) انظر « شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل » ٢٣ .

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ الأعراف : ١٠١ ، حيث التفت من صيغة الجمع (نقص) إلى الإفراد (يطبع الله) ، والمسوغ لذلك أن (نقص) هي بصيغة الجمع لكن المقصود بها هو المفرد ، وإنما جيء بصيغة الجمع لغرض التعظيم والتفخيم ، ثم أن ظهور المسند إليه (الله) سوغ لإفراد الفعل قبله (يطبع) للمناسبة .

مرجعية الضمير وإزالة اللبس :

إعادة الضمير إلى مرجعه من أهم المهام التي يقوم بها مفسر النص ؛ لأنها تزيل عنه اللبس ، وتوضح دلالاته ، ولا شك أن اللبس يحول دون تماسك النص . كما أن إزالة اللبس عن النص تقوي تماسكه ، وتبين الرابط بين أجزائه .

ولما كان ضميراً المتكلم والمخاطب يرجعان إلى المشاركين في عملية التخاطب فإن مهمة تحديد مَنْ يشير إلى عملية سهلة عادة ؛ لعدم إمكان اللبس فيها ، ولكن الصعوبة قد تكتنف عملية عزو ضمير الغائب إلى صاحبه ؛ لأنه عارٍ عن المشاهدة ، فاحتيج في عود الضمير إلى ما يفسره .

ومن مظاهر اللبس تعدد استخدام الضمائر ، وهذا الأمر يتطلب تعدد مرجعها ، وهذا التعدد يؤدي إلى حدوث لبس بين الضمير ومرجعه ، خاصة وأنه يقال : (إن الضمير حرٌّ في اختيار مرجعه) ، ويرى اللغويون أن الضمير هنا يُحيل على المرجع الذي في مجاله .

وقال دي بوجراند : « إن علاج ذلك يعني تحديد وظيفة الضمير ، فإذا كان الضمير فاعلاً فإن مجالَه أن يعود على عائد يشغل وظيفة الفاعل ، وكذلك الأمر إذا كان الضمير يشغل وظيفة المفعول به فعائده لا بُدَّ أن يشغل وظيفة المفعول به ، مثاله : (رأى محمد

أحمدَ فحادثه عن الاجتماع) ، فالفعل (حادثه) يحتوي على ضميرين ، الأول : هو الضمير المستتر في (حادث) ، ووظيفته هي الفاعل ؛ لذا يعود على (محمد) ؛ لأنه فاعل ، وضمير النصب الواقع مفعولاً به يعود على (أحمد) ؛ لأنه مفعول به ^(١) .

القرائن المعينة على تعيين مرجعية الضمير وإزالة اللبس :

ذكر علماء اللسان قرائن مساعدة تُعينُ المخاطَبَ على تعيين مرجعية الضمير ، ولكنها ليست قرائن فاصلة حاسمة ، منها ما يأتي :

القرينة الأولى : (مبدأ القُرب) الضمير يحيل على أقرب مذكور سابق :

يُعتمدُ هذا المبدأ في تعيين مرجع الضمير ومفسره المناسب متى ما تجاذب الضمير مفسران أو أكثر .

وقد اشتهر بين النحاة قولهم : (الضمير يرجع إلى أقرب مذكور سابق) ^(٢) ، كما في قولك : (أعطى سعيدٌ ابنه خالدًا كراسه ، وابنه سليمًا قلمًا ، لم تمض ساعتان حتى مَرَّقَ خالدٌ كراسته ، وكسر سليم قلمه ، فلامه أبوه على ذلك) .

فالهاء في (لاهه) ، والهاء في (أبوه) تحيلان على (سليم) بحسب مبدأ القرب .

فإذا أمكن الضمير أن يعود على الأقرب وعلى الأبعد كان عوده على الأقرب راجحاً كما يظهر من ضمير الهاء في (فاقدفيه) من قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ ^(٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ^(٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ^(٣٨) أَنْ أَقْرِضْهُ فِي التَّابُوتِ فَاقْرِضْهُ فِي الْيَرِّ فَلْيَلْغِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ ﴿ طه : ٣٦ - ٣٩ ، إذ يعود الضمير على التابوت ؛ لأنه هو الأقرب ، وفي هذا الإطار

(١) نقلاً عن « الدلالة والنحو » ٢٣٨ .

(٢) انظر « الإتيان في علوم القرآن » ٢ : ٢٨٤ ، و« اللسانيات واللغة العربية » ٢ : ١٣٠ .

يخصّص الرّضي هذا المبدأ قائلاً : « إذا تقدّم ما يصلح للتفسير شيئان فصاعداً فالمفسّر هو الأقرب لا غير ، نحو : (جاءني زيدٌ وبكرٌ فضربته ، أي : ضربتُ بكرًا)^(١) .

وفي نفس المعنى قال ملنار (J.C Milner) : « العبارات المتممة إلى نفس الحيز تحتلّ مواضع متباعدة بالقدر الأدنى »^(٢) .

غير أنّ هذا المبدأ كما يلحظ النحويون القدامى غير مطرد في كثير من الآيات ، كقوله تعالى في قصّة إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ إِجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ العنكبوت : ٢٧ ، فالضمير في (ذريته) يُحيل على (إبراهيم) وهو غير الأقرب ؛ لآته المتحدّث عنه في أوّل القصّة .

فضابط القُرب يحتاج إلى تقييد ، وذلك بأن يقال : أقرب مذكور صالح لغة وعقلاً لعود الضمير إليه .

وأضيف (صالح لغة) للاحتراز عن نحو : (أعطيت ابنتي فاطمة قلماً ، وابني خالدًا كراسة ، لم تمض ساعتان حتى كسرت فاطمة قلمها ، ومزق خالد كراسته ، فعنفت عليهما ، فلامتني جدتها على ذلك) التي لا يصلح أن يعزى فيها الضمير (ها) في (قلمها) إلى المتكلّم المشار إليه بـ (تـ) في (عنفتُ) ؛ لعدم التطابق من حيث الجهة ؛ لأنّ (تـ) ضمير المتكلّم ، و (ها) للغائب ، ولا أن يعزى فيها الضمير (ها) إلى خالد ؛ لعدم التطابق من حيث الجنس .

(١) « شرح كافي ابن الحاجب » ٢ : ٤ .

(2) J. C. Milner: Introduction à une science du langage, Editions du Seuil, Paris, 1989. P: 492.

وانظر « الضمير بنيتة ودوره في الجملة » ٤٣٢ .

وأما إضافة (صالح عقلاً) فلاستبعاد نحو : (استطاعت القطة أن تصمد طويلاً في مطاردة الفأرة ، لكنها أخفقت في اللحاق بها) التي يمكن فيها تحديد المرجع المقصود بمقتضى معارفنا عن محتويات العالم الخارجي ، وقوانينه .

وبناءً على ذلك فإن معرفتنا أنَّ القطط هي التي تلاحق الفئران وليس العكس هي التي تعيننا على إدراك أنَّ (القطة) هي المرجع الوحيد الذي يمكن عقلاً وعادة إعادة الضمير إليه ، وإن كانت الفأرة أقرب إلى الضمير (ها) من القطة .

وذكر النحاة استثناءين للضابط المذكور في عود الضمير ، وهما :

١ - إن لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك ، وهذا ما ذكرته فيما مضى ، وأزيل الإشكال بإضافة قيد على القاعدة .

٢ - إذا كان المرجع جزءاً من تركيب الإضافة ، فإن المرجع ينبغي أن يكون المضاف مع أنه أبعد على الضمير من المضاف إليه .

ويمكن أن نمثل لذلك بقولنا : (بينما كنت أتحدث مع أخي عبر الهاتف عَرَضَ ذكرُ والدِ صديقٍ له ، فسألني عن صحته ، وعن موعد خروجه من المستشفى) ، حيث يعود الضمير (الهاء) في (صحته) إلى المضاف (والد) ، وليس إلى المضاف إليه وهو (صديق) ، مع أنه أقرب على الضمير .

ويبدو أنَّ مبدأ القرب يعتمد غالباً حين تتعلق الإحالة بالمرتب العطفى القائم على تكافؤ المعطوف عليه والمعطوف ، ولكن هذا المبدأ يبطل إذا رجحت القرينة المعجمية عودة الضمير على المعطوف عليه في مثل قولنا : (جاءني عالمٌ وجاهلٌ فأكرمتُهُ) ، أي : فأكرمتُ العالم .

القرينة الثانية : القرينة المعجمية :

تعدُّ القرينة المعجمية من أقوى العلامات الدالة على الربط الإحالي في غير المركب العطفی ، ففي قولنا : (الغراب يُعادي الأسدَ فينقُرُهُ) ، فالضمير في (ينقُرُهُ) يحيلُ على الغراب ؛ لأنَّ النقر من أفعاله .

ولو تصرّفنا في المثال السابق فقلنا : (الغرابُ يُعادي الأسدَ فيفترسُهُ) ، لعاد الضمير دون شكّ على الأسد ؛ لأنَّ الافتراض من فعلِهِ لا من فعلِ الغراب^(١) .

القرينة الثالثة : قرينة الوظيفة النحوية :

لا نعني بقرينة الوظيفة النحوية اتّحادَ الضمير مع المفسّر في المعنى النحويّ ، وهو اتحاد عارض غير ضروريّ ، إذ غالبًا ما تكون للضمير وظيفة نحوية مغايرة لوظيفة المفسّر ، وإنّما نعني بذلك وظيفة حرف الجرّ خاصّةً في ربط الضمير بالمفسّر الملائم ، ففي قولنا :

أ - خطبتُ هندَ البنت لأخيها .

ب - خطبتُ هندَ البنت من أخيها .

نجد أنّ الجملتين متحدتان في جميع المكونات إلّا في حرفي الجرّ (اللام) و (من) ، يُحيل الضمير في (أخيها) في الجملة (أ) على (هند) بفضل قرينة حرف الجرّ (اللام) ، ويحيل الضمير في (ب) على (البنت) ؛ لأنّ (من) تفيد الغاية في الشيء عامّة^(٢) ، أي أنّ أخت البنت كان الغاية والمرجع في الخطبة ، به تتمُّ وبه تبطل^(٣) .

(١) انظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ٤٣٣ .

(٢) انظر « الكتاب » ٤ : ٢٢٥ .

(٣) انظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ٤٣٤ .

القرينة الرابعة : قرينة الموضوع :

يقترح هاليداي ورقية حسن^(١) أن اللبس في مثل تلك هذه الحالات السابقة التي ذكرتها في مبدأ القرب يمكن أن يُزال بالرجوع إلى المعنى ، وإذا كان للنحو من أثر فمن المرجح أن يكون في الموضوع (Theme)^(٢) ، أي المتحدث عنه .

ولعلهما يقصدان بذلك أن النحو يمكن أن يصوغ مبدأ تداوليًا مضمونه :
(الضمير يعود إلى مفسر هو محور الحديث) .

وهو ما أشار إليه النحاة القدامى أن إعادة الضمير إلى المتحدث عنه أولى من إعادته إلى الأقرب^(٣) .

ففي قولنا : (كان الأمير مبغضًا لأبي دُلف فعزَمَ يومًا على قتله) نجد أن فاعل (عزَمَ) ضمير مستتر عائِدٌ على (الأمير) لا على (أبي دلف) ؛ لأنه محور الحديث .

الضمير ومفسره كلاهما مسند إليه في جملة ، ولكن هذه القرينة تساعد على معرفة المفسر دون أن تكون حاسمة في تعيينه في الجملة الآتية : (الشيطان كان عدوَّ الراهب سمعان ، يحاربه ليلاً نهارًا) لا يعود الضمير المستتر ، فاعل يحارب ، على الشيطان محور الحديث ، ولكنه يعود على الراهب سمعان ؛ لأنَّ الراهب في العادة هو الذي يحارب

(1) See: Cohesion in English , p: 311 .

(٢) مصطلح (Theme) مصطلح مأخوذ من النحو الصوري ، وهو يشير إلى العنصر المبدوء به في العبارة ، إنه العنصر الذي حوله يترتب الكلام ، وهو ما يعطيه الكاتب اهتمامه ، وكل ما يأتي بعد الموضوع (Theme) يسمى المحمول.

See: Nunan, David, : Introducing Discourse Analysis , p: 46

(٣) انظر « همع الهوامع » ١ : ٢١٩ .

الشیطان رمز الشر في الأرض^(١).

وعلى كل حال فإن هناك كثيرًا من المعطيات القرآنية يصعب أن نقرّر فيها أن المرجع هو المتحدث عنه ، أو هو أقرب المذكورات التي يصلح أن يعود الضمير إليها .

ففي قوله تعالى في قصة موسى السابق ذكرها : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾^(٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى^(٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَكَ مَا يُوحَى^(٣٨) أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ^(٣٩) طه : ٣٦ - ٣٩ لا يمكننا إحالة الهاء في (فاقذفيه) على الأقرب وهو (التابوت) ، ولا يمكننا كذلك إحالتها على المتحدث عنه وهو (موسى)^(٤٠) ، وإنما يحيل الضمير على ذات خطابية ، تستنبط من مساق الخطاب ، ونستطيع تحديدها هنا بأنها : (التابوت الذي بداخله موسى) ، فهو المحال عليه بالهاء .

وقد أشار الزمخشري إلى ذلك بقوله : « ما ضَرَّكَ لو قلت المقذوف والملقى هو (موسى في جوف التابوت) ١٩ حتى لا تفرّق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أمّ إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدي ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسّر »^(٤١).

ويعرف هذا بمبدأ (التّحاول) (coreference) ، وهو الأصرة الكلية التي تجمع مكونات الخطاب مضموم بعضها إلى بعض ، فهي علاقة (دينامية) بين ضمير

(١) انظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ٤٣٤ .

(٢) يرى الزمخشري أن الضمائر في الآية (٣٩) جميعها تحيل على (موسى) ، وأما رجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجئة ، لما يؤدي إليه من تنافر النظم. انظر « الكشف » ٤٣٣ : ٢ .

(٣) « الكشف » ٤٣٣ : ٢

ومفسره ، تتغير كلما أدرجت ذات خطابية جديدة .

ففي قوله تعالى في قصة البقرة : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا فَاَلَوْ أَنَّنَا نَحْنُ بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ البقرة : ٧١ ، نجد أن الضمير في (فذبحوها) غير عائد على البقرة كما يذهب إليه أكثر اللغويين ، وإنما يعود على ذات خطابية يمكن صياغتها على النحو الآتي : (البقرة المعفاة من العمل أي التي لم تُثِر الأرض ، ولم تَسْقِ الحَرث ، الصفراء اللون ... إلخ)^(١) .

ومن خلال هذا المبدأ نستطيع أن نفرق بين دلالة الضمير ودلالة العبارة الأصلية التي يُحيل عليها ذلك الضمير (المُحال عليه) ، ومعرفة هذا الاختلاف يُساعد في فهم النصوص بصورة أدق وأعمق .

فإذا رجعنا إلى المثال الذي أورده يول وبراون : (نظفي ستّ تفاحاتٍ للأكل ، ثمّ قطعها ، ثمّ ضعها في طبق يتحمّل حرارة النار) وتأملنا إحالات الضمائر فيه ، نجد أنّ الهاء في (ضعها) لا تحيل من حيث الدلالة على نفس التفاحات الستّ ، حيث إنّ التفاحات الست في العبارة الأولى هي تفاحات قادمة لتوّها من السوق لم تغسل ولم تنظف ولم تقطع بعد ، أمّا (ها) في (ضعها) فتحيل على التفاحات الست التي غُسلت ونُظفت وقُطعت .

والقارئ الذي لا يتنبّه إلى أنّ المحالّ عليه في هذا النصّ هو ذات خطابية وعناصر متنوعة مضموم بعضها إلى بعض يكون إلى حدّ كبير قد فشل في فهم هذا النصّ^(٢) .

(١) « العائدية الخطابية مقارنة تداولية معرفية » د. لحسن تويي . (شبكة المعلومات)

(٢) انظر « تحليل الخطاب » ٢٤١ .

وهذا ما نلاحظه في القصص والروايات إذ يكون بطل القصة في بدايتها طفلاً صغيراً ، وفي نهايتها رجلاً شاباً مقبلاً على الزواج ، فالقارئ الذي لا يزال يحيل الضمائر في تلك القصة في بدايتها ونهايتها على ذلك الطفل الصغير لا شك بأنه قارئ فاشل^(١).

الربط الإحالي عملية آلية :

من خلال المعطيات النحوية يتبين لنا أن الضمير في السياق اللغوي نافذ في الغالب إلى المفسر من طريق واضحة موصلة ، تجعل الربط الإحالي عملية آلية لا تعسر حتى على المبتدئين في تعلم العربية .

وقد دُلَّ على ذلك الشافلي الهشري بقوله : « لقد أسمعت تلميذاً في نهاية السنة الثانية من التعليم الأساسي الجملة الآتية : (فتحت المدرسة أبوابه) ، فكان رد فعله فوراً تلقائياً بتعديل المطابقة على هذا النحو : فتحت المدرسة أبوابها ، من المحقق أن هذا الطفل لا يعرف الضمير العائد ، ولا يعرف المفسر ، ولا يعرف قواعد النحو معرفة نظرية ، ولكنه يستطيع أن يجري المطابقة بطريقة صحيحة مما يجعل الربط الإحالي في نظرنا عملية تركيبية بسيطة في الغالب »^(٢).

إن النص نسيج من العلامات والعلاقات اللغوية ، وليس الربط الإحالي إلا علاقة من تلك العلاقات ، يعتمد عليها المتكلم في إعرابه عن مقاصده بوساطة اللغة ، ويمكن وصفها نحوياً .

النص هو المنطلق لدراسة الظواهر اللغوية ، وهو المرجع الأساس في دراسة الربط الإحالي لدى أهل الصناعة منذ القديم ، ولدى كثير من علماء اللسان المعاصرين

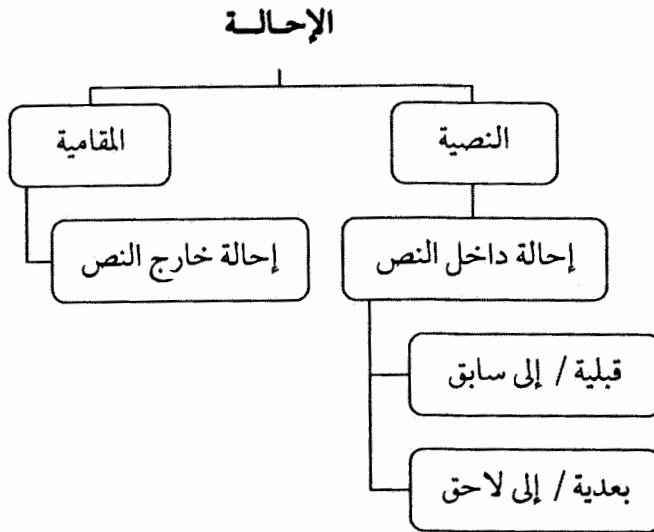
(١) انظر « تحليل الخطاب » ٢٤٢ .

(٢) « الضمير بنيتته ودوره في الجملة » ٤٣٥ .

المهتمين بالتركيب النحوي ، منهم : تنيار (L. Tesnière) (١٩٧٦ م) وفوكونيني (G. Fauconnier) (١٩٧٤) ، و (T. Reinhart) (١٩٨٣) ، وتشومسكي (N. Chomsky) (١٩٨١ ، ١٩٨٧) ، وملنار (J.C. Milner) (١٩٨٢) .
وقال ملنار في أهمية المعطيات النحوية في تفسير الإحالة : « العائد قابل للتأويل انطلاقاً من السياق اللغوي فقط » ^(١) .

صور الإحالة بالضمير :

لقد غدا تقسيم هاليداي ورقية حسن للإحالة هو الأساس الذي سار عليه النصيون من بعدهم ، وهو كالآتي :



(1) J. C. Milner : Ordre et raisons de langue, Editions du Seuil, Paris, 1982 . P: 20 .
وانظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ٤٣٤ .

فللإحالة بالضمير صورتان :

الأولى : الإحالة الداخلية (المقالية) .

والأخرى : الإحالة الخارجية (المقامية) . وفيما يأتي بيانها :

١ - الإحالة الداخلية (المقالية) (Endophoric reference) .

المقصود بالإحالة الداخلية هي الإحالة داخل السياق اللغوي ، سواء أكان التركيب جملة أم نصًّا^(١) ، أي أنّ الضمير يعود على عنصر آخر داخل بناء النصّ .

ولهذه الإحالة صورتان :

الأولى : الإحالة القبلية (على متقدّم) (Anaphoric reference) .

تعدّ هي الأصل في إحالة ضمير الغائب الذي يؤدي دورًا مهمًّا في اتّساق النصّ وتماسكه ، والتي أسماها هاليداي ورقية حسن أدوارًا أخرى (other roles) في مقابل أدوار الكلام (speech roles) التي تندرج تحتها ضمائر التكلّم والخطاب^(٢) .

ونجد أصل هذه الإحالة في أقوال النحاة القدامى ، قال المبرّد : « ومن الأسماء المضمرّة ، وهي لا تكون إلّا بعد ذكر ، نحو : الهاء في (به) ، والواو في (فعلوا) ، والألف في (فعَلّا) »^(٣) .

وقال الزّجاجي : « اعلم أنّ حكم المضمر أن يجيء بعد ظاهر يتقدّمه يعود عليه ؛ لأنّه مبهم ، ولا يعقل على من يعود عليه ، حتى يتقدّمه اسمٌ ظاهرٌ يعود

(١) انظر « لسانيات النص » ١٧ .

(٢) انظر « لسانيات النص » ١٨ .

(٣) « المقتضب » ٣ : ١٨٦ .

عليه ، هذا أصله » ^(١) .

والسبب في ذلك أنّ ضمير الغيبة عارٍ عن المشاهدة التي تكون مع ضمائر التكلم والخطاب ، فمن ثمّ احتاج إلى ما يفسره ، وأصل المفسّر الذي يعود عليه أن يكون مقدّمًا ؛ ليُعلمَ المعنيّ بالضمير عند ذكره بعد مفسّره ، وقد يُستغنى عن تقديم المفسّر إذا وُجد ما يدلّ عليه حسًا أو علمًا أو مصاحبًا بوجه ما ^(٢) .

وقد فصل ابن هشام ^(٣) صور هذه الإحالة (القبلية) ، فجعلها على ثلاثة أشكال من حيث تقدّم العائد ، وهي :

١ - تقدّم المفسّر (المحال عليه) في اللفظ والرتبة ، قال تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ ﴾ يس : ٣٩ ، فقد تقدّم الاسم المنصوب (القمر) على الاشتغال في اللفظ والرتبة .

٢ - تقدّم المفسّر في اللفظ دون الرتبة ، قال تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ البقرة : ١٢٤ ، حيث تقدّم المحال عليه (إِبْرَاهِيمَ) في اللفظ دون الرتبة ؛ لأنّ (إبراهيم) في الآية السابقة مفعولٌ به ، والأصل في المفعول به أن يتأخّر عن الفاعل .

٣ - تأخّر المفسّر في اللفظ دون الرتبة ، قال تعالى في قصة موسى عليه السلام مع سحرة فرعون : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ طه : ٦٧ ، إذ تقدّم المحال عليه (موسى) في الرتبة ، وتأخّر في اللفظ ؛ لأنّه فاعل (أوجس) وذلك في

(١) « الجمل في النحو » للزجاجي ١١٧ .

(٢) انظر « مع الهوامع » ١ : ٢١٨ .

(٣) انظر « شرح شذور الذهب » ١٥٤ .

أحد تأويلات الآية ، أو كقوله تعالى في قصة قارون : ﴿وَلَا يَسْتَلُ عَنْ دُئِبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ القصص : ٧٨ ، فالضمير (هم) يعود على لفظ متأخر هو (المجرمون) ، وهذا اللفظ متقدّم في الرتبة ؛ لأنه نائب فاعل .

التماسك النصي في الإحالة القبلية :

من أبرز مهمات الضمير الإحالية هي مهمة التماسك والانسجام التي تتم من خلال عملية الربط ، والتي تعمل على ربط الكلام السابق بما بعده بما يحقق التماسك فيه بين أجزاء التركيب جملة كان أو نصًّا .

والضمير من بين وسائل الربط يختصّ بتعدّد صور الرّبط به ، حيث يقوم بربط الجملة بالمفرد ، والمفرد بالمفرد ، وسأكتفي بسرّد مواطن ذلك الرّبط الضميري من دون تفصيل ولا تمثيل^(١) ، وهي :

- الرّبط بين الاسم المشغول عنه وجملة الاشتغال .
- الرّبط بين الاسم الموصول وجملة الصلة .
- ربط النعت بالمنعوت .
- ربط الحال بصاحبها .
- ربط الخبر بالمبتدأ .
- الرّبط بين الأسماء النواسخ وأخبارها .
- الرّبط بين المؤكّد والمؤكّد .
- ربط البديل بالمبدل منه .

(١) وذلك لطول الحديث فيها وتشعبها وتعدّد صورها وتنوّع شروطها ... ، ولانحصار بعض تلك الصور في حدود الجملة فحسب ، وذلك ليس مجال بحثنا .

الثانية : الإحالة البعدية (على متأخر) (Cataphoric reference) :

جعل التَّحَاةُ الأَصْلَ في عود الضمير أن يكون على متقدّم في الذكر ؛ لأنّ الضمائر بطبيعتها مُلْبِسة ، فلا تتقدّم على مراجعها ، بل ينبغي أن تتقدّم تلك المراجع لفظاً أو معنًى أو حكماً ؛ « لَأَتَّك إِذَا قَلْتُ : (قاموا) وما أشبهه ، احتمل (الزيدين) و (العمرين) و (المسلمين) و (المشركين) فأرادوا ألا يعيدوها إلّا على ما يتقدّم ذكره دفعاً لهذا الإلباس »^(١).

وحصروا الحالات التي يجوز أن يُحْمِلَ الضميرُ إحالةً بعديةً على متأخر لفظاً ورتبةً في الحالات الآتية :

١ - أن يكون الضمير مرفوعاً بفعل يراد به المدح والذّم ، ولا يفسّر إلّا بالتمييز ، نحو : (نعم رجلاً زيد) و (بس رجلاً عمرو) و ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ ﴾ الأعراف : ١٧٧.

٢ - أن يعمل ثاني المتنازعين ، ويكون الضمير مرفوعاً بأولهما ، كقول الشاعر :

جفوني ولم أجفُ الأخلَاءَ إِنّني

لغير جميل من خليلي مُهمِّلُ

٣ - أن يكون مخبراً عنه يفسره خبره الذي يأتي بعده ، مثل : ﴿ إِنّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ المؤمنون : ٣٧.

٤ - أن يكون ممّا يسمّى ضمير الشأن والقصة ، أو ضمير المجهول عند الكوفيين ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ الإخلاص : ١ ، وقوله : ﴿ وَأَقْتَرَبَ

(١) أمالي ابن الحاجب ٢ : ٧٧٢.

الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٩٧﴾ الأنبياء : ٩٧ .

٥ - أن يقع في محل جرّب (رُبَّ) ، ومفسراً بتمييز بعده ، نحو :

رُبُّهُ فَتِيَّةٌ دَعَاوَتْ إِلَى مَا

وَرِثَ الْمَجْدَ دَائِيًّا فَأَجَابُوا

٦ - أن يقع بعده اسم ظاهر بدلاً منه ومفسراً له ، مثل : (أكرمتُهُ زيدًا) .

٧ - أن يتصل بفاعل مقدّم ، ويكون مفسّره مفعولاً به مؤخّراً ، مثل : (سامح

أخوه سعيدًا)^(١) .

وقال دي بوجراند : « عندما يعود اللفظ الكناي - أي الضمير - على متأخر لا بدّ أن نحدّد مكاناً فارغاً بشكلٍ مؤقتٍ ، ويكون هذا المكان بمثابة مركز تجمع حتى نستطيع تحديد المرجع ، وهنا نكون قد حدّدنا المحتوى الذي يرجع إليه الضمير ، وهذه الآلية تحدّد عملها على نحوٍ أفضل ، وإن كانت المسافة بين اللفظ الكناي (الضمير) والتعبير الذي يعود عليه (العائد) محدّدة جدّاً ، أي : أنّها داخل حدود الجملة »^(٢) .

مما سبق نستطيع القول بأنّ للنحو العربي عناية فائقة بترتيب المكونات في الجملة بناءً على هندسة الجملة العربية على نظام المحلّات الإعرابية ، ولقد وجدنا فيه مواضع الضمير المتقدّم على مفسّره محدّدة بدقّة ، ولعلّ ذلك راجعٌ إلى أنّ إحالة الضمير على متأخر في العربية ظاهرةٌ مميزةٌ ربّما تكون في العربية أبرز مما هي عليه في كثير من اللغات .

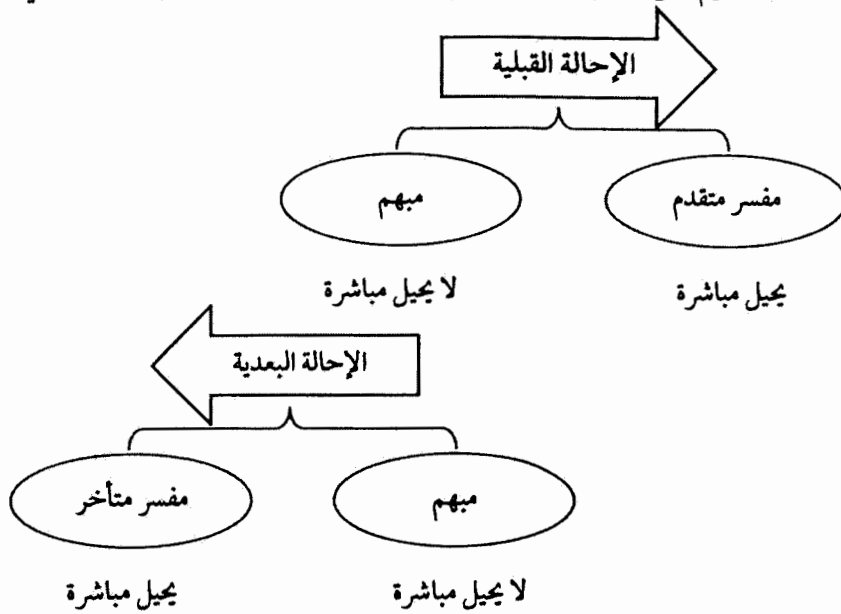
(١) انظر « مغني اللبيب » ١ : ٦٣٥ .

(٢) نقلاً عن « الدلالة والنحو » ٢٣٨ .

ولقد لاقت هذه الظاهرة في اللسانيات الغربية اهتمامًا واضحًا دونة بكثير اهتمام العرب المعاصرين بها ، على الرغم من أن العرب القدامى قد نبهوا إليها وقتئها .

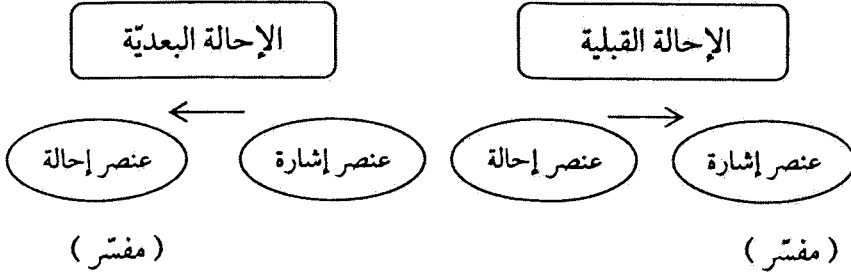
التماسك النصي في الإحالة البعدية :

تمثل ظاهرة الإحالة البعدية اتفاقًا مع الإحالة القبلية من حيث الطبيعة ، واختلافًا من حيث صور الإجراء ، وكلتاها تقومان على صورة خاصة من الإحالة غير المباشرة بالنسبة إلى ضرب خاص من العناصر اللغوية ، تتمثل في قصور العنصر عن الإحالة بمفرده إلى مرجعه أو خارجه ، ولا يتم له ذلك إلا بالانكاء على عنصر آخر يعضده في القيام بهذا الدور ، وإذا كانت الإحالة القبلية تقوم على تقدم العنصر المتكلم عليه فإن الإحالة البعدية تقوم على تأخر ذلك العنصر^(١) ، وهو ما يمكن تمثيله على النحو الآتي :



(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » لمحمد الشاوش ، ١ : ١٢١٣ .

ويمكن تمثيل الفرق بين الإحالة القبلية والإحالة البعدية في الشكل الآتي :



٢ - الإحالة الخارجية (المقامية) (Exophoric reference) :

تهتم بالحديث عن مفهوم العنصر الإشاري (deictic element) الذي يتصل بالذوات والمواقع والأزمنة ، مما يعرف من خلال (المقام) ، إذ يحيل عنصر لغوي على عنصر إشاري غير لغوي موجود خارج النص ^(١) ، كأن يحيل ضميرُ المتكلمِ المفرد على ذات صاحبه المتكلم كما أشار إليه هاليداي ورقية حسن .

ويشتمل العنصر الإشاري على ^(٢) :

١ - اللفظ المفرد الدالّ على حدث أو ذات أو موقع ما في الزمان أو المكان .

٢ - جزء من الملفوظ ، أو الملفوظ كاملاً .

الذي من خلاله تتضح لنا الإحالة الخارجية .

وسببُ وسمِ هذه الإحالة بـ (الخارجية) أنّ الضميرَ يحيلُ على عائدٍ خارجِ التركيب سواء أكان هذا التركيب جملة أم نصّاً ، والمقام هو الذي يحدد الاسم الذي تحيل

(١) انظر « نسيج النص » ١١٩ .

(٢) انظر « نسيج النص » ١١٦ .

عليه ، ولذا وسمها بعض الدارسين بالإحالة المقامية ^(١) ، أو إحالة السياق الاجتماعي .
وهذا النوع من الإحالة يرتبط بأنواع محددة من النصوص ، ويحتاج أحياناً إلى جهد أكبر للكشف عنه ، وإيضاح كلفيته وتأويل العنصر غير اللغوي الذي يحكمه في خارج النص وذلك باللجوء إلى السياق أو المقام الخارجي ^(٢) .

التماسك النصي في الإحالة الخارجية (المقامية) :

يذهب هاليداي ورقية حسن إلى أن الإحالة المقامية « تسهم في خلق النص ؛ لكونها تربط اللغة بسياق المقام ، إلا أنها لا تُسهم في اتساقه بشكل مباشر » ^(٣) .

والحق أن عدم جعل الإحالة المقامية من أدوات تماسك النص فيه ابتعاد عن روح النص ومفهومه ، إذ كيف يمكن للمتلقي أن يربط أحداث النص ومجرياته إذا لم يعرف ما تحيلُ إليه العبارات الواردة في النص ؟ هب أن المتلقي سمع جملة من لغة لا يعرفها فهل سيكون بمقدوره تمثيل معنى تلك الجملة والتفاعل معها ؟ إن فشله في ذلك راجعُ إلى جهله بما تحيلُ إليه الجملة في العالم الخارجي ، وليس إلى تركيبها ، فقد تكون على قدر كبير من الفصاحة والوضوح .

وما ذهب إليه هاليداي ورقية حسن لا يستقيم مع اعتبارهما الاتساق مفهوماً دلاليًا قوامه العلاقات المعنوية الموجودة في النص ^(٤) .

(١) انظر « لسانيات النص » ١٧ .

(٢) انظر « لسانيات النص » ١٧ .

(٣) « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » د. سعيد بحيري ، ٨٩ .

(٤) انظر « أصول تحليل الخطاب » ١٢٤ .

ولقد شكَّك براون ويول في صحَّة تمييز هاليداي وحسن بين الإحالة خارج النصّ والإحالة داخل النصّ ، ونظرًا إلى تعريفهما للإحالة الداخلية والخارجية على أنّه معقول لخطة وقتية دون أن تكون هذه الطريقة المثلى ^(١) .

أثر السياق في تحديد مرجعية الضمير :

سبق أن ألمحْتُ إلى أنّه من أبرز اهتمامات المحدثين معرفة أثر السياق في تعيين مرجعية الضمير الغامضة أو المرجعية الخارجية ، « فتعتمد المرجعية الخارجية على سياق الحال ؛ لأنّه في الغالب من دون السياق نفقُ عاجزين أمام تفسير ما يُقال » ^(٢) .

وقد مثل هاليداي ورقية حسن لضرورة الاستعانة بالسياق في تفسير مرجع الضمير بمقطع أورد فيه الأسماء ظاهرة بحيث لا نلجأ إلى السياق في تحديدها بسبب وضوحها ، ثم أعاد نفس المثال مستبدلاً الضمائر بالأسماء الظاهرة مما أضفى عليها إبهامًا يجبرنا على اللجوء إلى السياق لمعرفة إحالاتها ^(٣) .

(١) انظر « تحليل الخطاب » ٢٣٨ .

(2) Cohesion in English . p: 33 - 55

(٣) مثال الأسماء الظاهرة : (ثلاثة أولاد يلعبون كرة القدم ، ولدّ منهم قذفَ الكرة ، فارتطمت الكرة بالنافذة ، فكسرت النافذة ، ونظر الأولادُ إليها ، في حين خرج الرجلُ وصاح فيهم لأنّهم كسروا النافذة ، لهذا جروا بعيدًا هارين ، عندئذٍ نظرت السيدة إلى نافذتها وطلبت من الأولاد الامتناع عن اللعب) .

ومثال الضمائر : (هم يلعبون كرة القدم ، وهو قذفها ، وهي ارتطمت بالنافذة ، وهي كسرتها ، وهم نظروا إليها ، في حين خرج من البيت وصاح فيهم لأنّهم كسروها ، لهذا جروا بعيدًا هارين ، عندئذٍ نظرت إليها وطلبت منهم الامتناع عن اللعب) . انظر Cohesion in English , p: 33-55 ، وانظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ١ : ١٦٥ . ومن خلال هذا المثال أستطيع القول بأننا لا نزال نواجه مشكلة (صناعة الأمثلة) التي لم تنتهِ منها في =

والقاعدة العامة في العربية هي أنّ الضمير لا يأتي إلا بعد الاسم الظاهر ، وقد جاء ما يخالف هذه القاعدة في القرآن الكريم ، فانبزى النحاة والمفسرون يبررون لذلك معتمدين على السياق اللغوي والمقامي في البحث عن مرجع الضمير وعن مطابقته له في النوع والعدد^(١).

فالنص القرآني لا تفسر فيه الآية أو اللفظة منفردة ، بل تفسر مع ما حولها من الألفاظ والجمل والآيات ، وقد تمتد إلى النص القرآني كله ، وهو ما يسمى بـ (السياق اللغوي) ، وقد يفسرها ما هو خارج عن النص القرآني كالسنة المطهرة أو سبب النزول ، وكل ما يعرف به ظروف الخطاب القرآني من متكلم ومخاطب ، ومكان وزمان ، وعموم وخصوص .

=

نحو الجملة حتى صادفناها في نحو النص ، على نحو ما جاء به هاليداي ورقية حسن في كتابها (التماسك في الإنجليزية) ، وكذلك يول وبراون في كتابهما (تحليل الخطاب) ، وهو ما سيثير انتقادات الدارسين فيما بعد كما أثرت من قبل على النحو الجملي القديم .

(١) أسهم الدكتور طه حسين في حل هذه المشكلة في الضمير الغائب المخالف للقاعدة ، فعده ما خالف منه اسم إشارة ، وأخذ يبرهن على ذلك في مقال له بعنوان « ضمير الغائب واستعماله اسم إشارة في القرآن » . انظر « من الشاطئ الآخر لطه حسين » ١٣٢ .

والحقيقة أنّ جعل كل ضمير للغائب مخالف للقاعدة اسم إشارة ليس حلاً منطقيًا ؛ لأن اسم الإشارة يحتاج أيضًا إلى عائد ومرجع ، فما زلنا مضطرين إلى البحث عنه .

وقد ردّ عليه الأستاذ محمد الخضر حسين في كتابه « بلاغة القرآن » ٦٤ وما بعدها . انظر « مباحث في علوم القرآن » لمناح القطان ١٨٦ .

والنحاة والمفسرون بحثوا عن مرجع للضمير ، ولكن لما لم يجدوه ظاهراً قدروه
مفهوماً من السياق^(١). ومن صور ذلك ما يأتي :

١ - أن يكون مرجع الضمير مصدرًا مستفادًا من فعل قبله يدل عليه .

مثاله ما أورده الفراء^(٢) في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ آل عمران : ١٨٠ ، فمرجع الضمير في (هُوَ
خَيْرًا) يعود على (البخل) وهو مصدرٌ مستنبطٌ من الفعل (يَبْخُلُونَ) .

ونستطيع أن نعدّ من هذا القبيل ما ورد في قصة يوسف عليه السلام على لسان
إخوته : ﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا
صَالِحِينَ ﴾ يوسف : ٩ ، فالضمير في (بعده) قد يعود إلى (يُوسُفَ) ، أو إلى (القتل)
وهو مصدر مستفاد من الفعل (اقتلوا) ، أو إلى (الطرح) المستفاد من الفعل
(اطْرَحُوهُ) ، وكل ذلك يحتمله المعنى .

٢ - أن يكون مرجع الضمير مفهوماً من المعنى العام للآيات .

مثاله ما أورده أبو حيان في قوله تعالى في قصّة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ
فِيهَا ﴾ البقرة : ٧٢ ، حيث قال : « الضمير في (فيها) عائد على (النفس) وهو ظاهر ،

(١) وفي ذلك قال ملنار في أهمية المعطيات النحوية في تفسير الإحالة : « العائد قابل للتأويل وانطلاقاً
من السياق اللغوي اللغوي فقط » . انظر :

J. C. Milner : Ordre et raisons de langue, Editions du Seuil, Paris,
1982 . P: 20 .

و انظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ٤٣٥ .

(٢) انظر « معاني القرآن » للفراء ١ : ٢٤٨ .

وقيل: على (القثلة) ، فيعود على المصدر المفهوم من الفعل ، وقيل : على (التهمة)
فيعود على ما دلّ عليه معنى الكلام ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾
الأعراف : ١٤٨ ، قال الزجاج : « ومعنى (مِنْ بَعْدِهِ) أي : من بعد ما جاء الميقات ،
وخلفه هارون في قومه » ^(٢) ، ونلاحظ أنّ الزجاج قد عاد إلى قصة موسى - عليه السلام
- والميقات في تحديد المحال عليه .

٣ - أن يُذكر اسمان في السياق ويعود الضمير على أحدهما .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ التوبة : ٦٢ ، فالهاء في
(يُرْضُوهُ) يعود على (الله ورسوله) ولم يقل : يرضوهما ^(٣) . وقد ردّ أبو عبيدة ذلك إلى
الاعتماد على معرفة السامع بأن الآخر قد شاركه ودخل معه في الفعل ، ثم
يقول : إنّ العرب تفعل ذلك ، ويستشهد بأشعارهم ^(٤) . وسبب الاكتفاء بذكر أحدهما
هو أن رَضِيَ الله وِرَضِيَ الرَّسُولُ ﷺ في حكم مرضي واحد ^(٥) ، وأمر الرسول تابع لأمر
الله ^(٦) ، فاكفى بذكر أحدهما تخفيفاً والمعنى يدلّ على الآخر ^(٧) .

(١) « البحر المحيط » ١ : ٢٥٩ .

(٢) « معاني القرآن وإعرابه » ٢ : ٤١٦ .

(٣) انظر « معاني القرآن » للفراء ١ : ٤٥٨ .

(٤) انظر « مجاز القرآن » ١ : ٢٥٧ .

(٥) قاله الزمخشري في « الكشاف » ٢ : ١٩٩ .

(٦) قاله العكبري في « التبيان في إعراب القرآن » ٢ : ٦٤٨ .

(٧) قاله الزجاج في « معاني القرآن وإعرابه » ٢ : ٥٠٧ .

٤ - أن يكون مرجع الضمير إلى شخص بعينه .

مثل النبي ﷺ ، « فهو المعني عندما يورد القرآن الآراء العدائية التي ييديها خصومه بشأنه »^(١) ، وذلك في آيات كثيرة ، منها : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ الأنعام : ٣٧ ، وقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ يس : ٦٩ ، وقوله : ﴿ إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ فَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُثُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ التوبة : ٤٠ . فالضائرتان في (عليه ، ربه) و (علمناه ، له) و (تنصروه ، نصره ، أخرجه ، لصاحبه ، عليه ، أيده) كلها تعود إلى النبي الكريم^(٢) ، علمنا ذلك من خلال السياق الخارجي للنص .

٥ - أن يكون مرجع الضمير إلى القرآن الكريم بدلالة السياق .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾^(٣) الأعراف : ٥٣ ، وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(٤) المدثر : ٥٤ ، وغيرها مما يدل على مرجعيته السياق .

٦ - أن يكون مرجع الضمير إلى شيء لم يذكر في السياق اللغوي ، لكنه يفهم معناه من سياق الحال . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِثَتُ الْإِلْيَادُ^(٥) ﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ

(١) « من الشاطئ الآخر » ١٣٥ .

(٢) انظر « إعراب القرآن » للنحاس ٢ : ٢١٦ .

(٣) « معاني القرآن » للفراء ١ : ٣٨٠ .

(٤) انظر « معاني القرآن » للأخفش ٢ : ٥١٦ .

بِالْحِجَابِ ﴿﴾ ص: ٣١ - ٣٢ ، في الفعل (تَوَارَتْ) ، وقد عَرَضَ الفراءُ الموقفَ الذي تتحدث عنه الآية ، فقال : « إِنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ غَنِمَ تِلْكَ الْخَيْلَ ، فَلَمَّا صَلَّى الظَّهْرَ دَعَا بِهَا ، فَلَمْ يَزَلْ يَعْزُضُهَا حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ وَلَمْ يَصِلْ الْعَصْرَ » ^(١) .

وأبو عبيدة يَقْدَرُ الضميرَ المستترَ في (تَوَارَتْ) فيقول : إِنَّ المعنى للشمس ، وهي مضمرة ^(٢) . ويعيبُ الزجاجُ على اللغويين قولهم : إِنَّ (الشمسَ) لم يجر لها ذِكْرٌ ، قال : لَأَنَّ فِي الْآيَةِ دَلِيلًا يَدُلُّ عَلَى الشَّمْسِ ، وهو قوله : ﴿ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ﴾ ، و (العشي) في معنى بعد زوال الشمس حتى توارت بالحجاب ، وليس يجوز الإضمارُ إِلَّا أَنْ يَجْرِيَ ذِكْرٌ أَوْ دَلِيلٌ بِمَنْزِلَةِ الذِّكْرِ ^(٣) .

وأبو حيان قال : « الظاهر أَنَّ الضميرَ في (تَوَارَتْ) عائدٌ على (الصَّفِيفَتُ) ، أي : دخلت اصطبلاتها فهي الحجاب ، وقيل : حتى توارت في المسابقة بما يجربها عن النظر ، وقيل : الضمير للشمس ، وإن لم يجر لها ذكر ؛ لدلالة العشي عليها » ^(٤) .
ورجَّح النحاس ^(٥) أن يعود الضمير على (الصَّفِيفَتُ) وهي المذكورة في السياق اللغوي ، وعودة الضمير على ما ذُكر أولاً من أن يعود على ما لم يجر له ذكرٌ .

(١) انظر « معاني القرآن » للفراء ٢ : ٤٠٤ .

(٢) انظر « مجاز القرآن » ٢ : ١٨٢ .

(٣) انظر « معاني القرآن وإعرابه » ٤ : ٣٣١ . و « المحرر الوجيز » لابن عطية ٤ : ٥٠٤ .

(٤) « البحر المحيط » ٧ : ٣٩٦ .

(٥) انظر « إعراب القرآن » ٥ : ٢٩ .

٧ - أن يكون مرجع الضمير على شيء لم يذكر في السياق ، ولكن اشتهر وعُرف لكثرة . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ ذَابِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَأَبَى اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ فاطر : ٤٥ ، فالضمير في (ظَهَرِهَا) قال عنه الأخفش : « فأضمّر (الأرض) من غير أن يكون ذكرها ؛ لأنّ هذا الكلام قد كثر حتى عُرف معناه ، تقول : أخبرك ما على ظهرها أحدٌ أحبُّ إليّ منك ، وما بها أحدٌ أثرٌ عندي منك » ^(١) .

وقال ابن خالويه : « إنّ العرب قد تكتفي عن الشيء وإن لم يتقدّم ذكره إذا كان المعنى مفهوماً ، كقولهم : ما عليها أعلمُ من فلان ، يعنون الأرض » ^(٢) .

إلى غير ذلك من الأشياء والأشخاص التي تعود عليها الضمائر ، التي لا تظهر إلّا من خلال السياق .

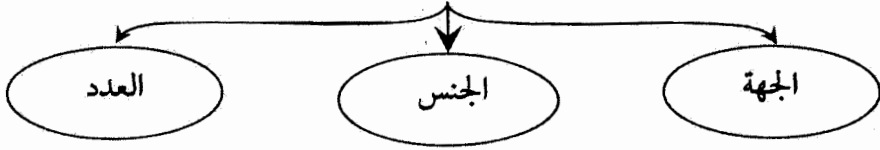
كلُّ ما سبق يبيّن لنا أهمية السياقين اللغوي وغير اللغوي في تعيين إحالات الضمائر ، فمن خلال سياق الحال وبالعودة إلى المعنى العام للآيات ، وإلى أقوال المفسرين ، وإلى الحديث النبوي الشريف والسيرة النبوية ، وربط ذلك بأسباب النزول استطعنا تحديد المرجع المحال عليه في الآيات السابقة .

ولا تهّمنا هنا قضية تعدّد الآراء في تعيين المحال عليه مادام أنّ المعنى جائز ومقبول ، ولا يتخلّل بالتهاسك الدلالي والشكلي للنص .

(١) « معاني القرآن » للأخفش ٢ : ٤٤٨ .

(٢) « إعراب ثلاثين سورة » ١٤٢ .

اثر السياق في حل مشكلة عدم المطابقة بين الضمير ومفسره :
من المهم في استخدام الضمائر المطابقة بين الضمير ومرجعه ، وذلك من حيث :



فهي التي تحقق التماسك في الكلام .

فإذا اختلت تلك المطابقة ولم نجد لها تفسيراً مرضياً من خلال النص أو من خلال السياق كان ذلك مخلاً بالتماسك النصي ومدعاة إلى الهلهلة اللفظية وانحلال الروابط النصية.

ومن صور المخالفة في المطابقة :

١ . عود الضمير بصيغة التانيث على لفظة في السياق اللغوي .

مثاله قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة : ١٣٠ - ١٣٢ ، فالضمير الهاء في (وصى بها) يُحِيلُ على (الملة) ؛ لأنَّ إسلامه هو إظهار طريقته وسنته ، ويدلُّ عليها قوله : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . فتفسير الهاء هنا بالملة جاء من وجود لفظ آخر في السياق اللغوي يدلُّ عليه ،

وهو (الدين) في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ ^(١) وإن كان هذا اللفظ متأخراً في موقعه عن الضمير .

٢. عود الضمير بصيغة التانيث على مرجعين في السياق اللغوي أحدهما مذكّر والآخر مؤنث .

ومثاله قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ (٧١) قَالُوا تَفْقَدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جِئْتُمُوهُ إِن كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جِئْتُمُوهُ مِنْ وُجِدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتِي مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿ يوسف : ٧٠ - ٧٦ .

فلو تأملنا العنصرين الإشاريين (السَّقَايَة) و (الصُّورَاع) ، وما يعود عليهما من العناصر الإحالية وهي : (به) ، و (وُجِدَ) (هو) الضمير المستتر ، و (استخرجها) لوجدنا أن الضمائر قد توالى بعد لفظ (صُورَاع) ، فيفترض - أخذاً بمبدأ القرب - أن تعود عليه بصيغة التذكير ؛ لأنه مذكّر على الراجع ، إلا أنه قد أعاد عليه بصيغة المؤنث في (استخرجها) .

(١) « معاني القرآن وإعرابه » ١ : ٢١١ .

وهذه المخالفة في المطابقة بين المذكر والمؤنث قد أثارت انتباه العلماء ، فقال الفراء :
« ذهب إلى تأنيث (السارقة)^(١) ، وإن يكن (الصواع) في معنى الصاع فلعل هذا
التأنيث من ذلك ، وإن شئت جعلته لتأنيث السقاية »^(٢) .

والزخشي فسّر (السقاية) بأنها مشربة يُسقى بها وهي (الصواع) ، ثم تساءل : لم
ذكر ضمير (الصواع) مرات ثم أنه ؟ فقال : « رجع بالتأنيث على (السقاية) ، أو آث
(الصواع) لأنه يذكر ويؤنث »^(٣) ، ولعل يوسف عليه السلام كان يسميه (سقاية) ،
وعبيده (صواعًا) ، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية ، وفيما يتصل بهم منه
صواعًا »^(٤) .

وإذا لجأنا إلى القراءات القرآنية متوسلين بها في حل هذا الإشكال فإننا نجد أن ابن
مسعود قد قرأ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ بِهَا ﴾ على التأنيث^(٥) فتتطابق مع الضمير بعدها في

(١) (السارقة) لفظة دل عليها المعنى .

(٢) « معاني القرآن » للفراء ٢ : ٥٢ .

(٣) وفي « المخصص » لابن سيده ٥ : ١٤٥ : « قال أبو عبيد : أنا لا أرى التذكير والتأنيث اجتماعا في
اسم (الصواع) ولكنها عندي إنها اجتماعا لأنه سُمي باسمين : أحدهما مذكر ، والآخر مؤنث ،
فالذكر (الصواع) والمؤنث (السقاية) . قال : ومثل ذلك الحِوَانُ والمائدةُ وسِنَانُ الرُّمَحِ وعَالِيَتُهُ .
و(الصَّوَاغُ) إناءٌ من فضة كانوا يشربون به في الجاهلية ، وقد قَدِّمْتُ ما فيه من اللغات صَوَاغٌ
وصَوُغٌ وصَاغٌ وصُوغٌ ، وإنما كررتها هنا لأفكك على أنها كلها تُذكر وتؤنث . قال أبو حاتم : هو
مذكر لا غير . وذكر ابن التستري الكاتب في « المذكر والمؤنث » أن « تذكيره أفصح عند
العلماء . وقد يقال له : (صواع) ويؤنث ويذكر وتذكيره أجود ، وإذا آث عني به (السقاية) .
وفي تاج العروس (صوع) ٥ : ٤٢٣ : « قال الرَّجَّاجُ : هو يُدَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ » .

(٤) « الكشف » ٢ : ٣٣٤ .

(٥) انظر « تاج العروس » (صوع) ٥ : ٤٢٣ .

(استخرجها) ويزول الإشكال حينئذ .

٣. عود الضمير على شيء يُفهم من السياق ، مرةً بالتذكير وأخرى بالتأنيث .

في هذه الحالة نقدر المرجع تبعاً لذلك ، مثاله قوله تعالى في قصة النبي ﷺ مع ابن أم مكتوم : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ ١١ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ عبس : ١١ - ١٢ ، ففي (إِنَّهَا) ، و (ذَكَرْهُ) ، عنصران إحاليان يبدو أنهما يحيلان على عنصر إشاري واحد ، ولكن أحدهما جاء مؤنثاً ، والآخر مذكراً ، فما السر في تلك المخالفة ؟!

قال القرّاء : « هذه السورة تذكرة ، وإن شئت جعلت الهاء عماداً لتأنيث التذكرة »^(١) .

فضمير المؤنث عنده إما أن يعود إلى (السورة) ، أو أن يكون ضمير فصل يعود على (التذكرة) عن طريق الإحالة البعدية (على متأخر) . أما العنصر الإحالي الآخر المذكر في (ذَكَرْهُ) فيعود عنده على القرآن .

وقد قدر الزجاج الضمير المؤنث للموعظة ، والضمير المذكر للوعظ^(٢) .

وقال الطبري : « وقوله ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ ١١ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ ولم يقل (ذكرها) ؛ لأن معناه : فمن شاء ذكر هذا الشيء » ، « ومن ذلك قول الله تعالى [في قصة إبراهيم عليه السلام] : ﴿ فَلَمَّا رَأَى السَّمَاسَ بَارِزَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام : ٧٨ بمعنى : هذا الشيء الطالع »^(٣) .

(١) « معاني القرآن » للفراء ٣ : ٢٣٦ .

(٢) « معاني القرآن وإعرابه » ٥ : ٢٨٤ .

(٣) « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » للطبري ١٧ : ٢٤٠ . وفي « الجامع لأحكام القرآن »

وإذا استعنا بالسياق القرآني في تفسير تلك المخالفة نرى أن الآيتين قد وردتا في موضع آخر بضمير المذكر لا غير ، قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ (٥٥) المدثر : ٥٤ - ٥٥ ، قال الفراء : « يعني هذا القرآن ، ولو قيل : إنها تذكرة ، لكان صواباً ، كما قال في عبس ، فمن قال : (إنها) أراد (السورة) ، ومن قال : (إنه) أراد (القرآن) » (١) .

للقرطبي ١٩ : ٢١٥ : « (إنها) أي (السورة) أو (آيات القرآن) ، (تذكرة) أي موعظة وتبصرة للخلق ، (فمن شاء ذكره) أي اتعظ بالقرآن . قال الجرجاني : (إنها) أي (القرآن) ، والقرآن مذكّر ؛ إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة ، أخرجته على لفظ التذكرة ، ولو ذكره لجاز ، كما قال تعالى في موضع آخر : (كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرَ) ، ويدل على أنه أراد (القرآن) قوله : (فمن شاء ذكره) أي كان حافظاً له غير ناسي ، وذكر الضمير ؛ لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ .

(١) « معاني القرآن » للفراء ٣ : ٢٠٦ . وذهب ابن عاشور في « التحرير والتنوير » ١٦ : ١٠٢ إلى أن « ضمير (إنها) عائد إلى (الدعوة) التي تضمنتها قوله : (فأنت له تصدى) [عبس : ٦] . ويجوز أن يكون المعنى : أن هذه الموعظة تذكرة لك وتنبيه لما غفلت عنه وليست ملاماً ، وإنها يعاتب الحبيب حبيبته . ويجوز عنده أيضاً أن يكون ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذَكَّرُ ﴾ استئنافاً ابتدائياً موجهاً إلى من كان النبي ﷺ يدعو قُبيل نزول السورة فإنه كان يعرض القرآن على الوليد بن المغيرة ومن معه ، وكانوا لا يستجيبون إلى ما دعاهم ولا يصدقون بالبعث ، فتكون (كَلَّا) إبطالاً لما تعتوا به القرآن من أنه أساطير الأولين أو نحو ذلك . فيكون ضمير (إنها تذكرة) عائداً إلى الآيات التي قرأها النبي ﷺ عليهم في ذلك المجلس ثم أعيد عليها الضمير بالتذكير للتنبيه على أن المراد آيات القرآن . ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى عَقِبَهُ : ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا اكْفَرَهُ ﴾ [عبس : ١٧] الآيات ، حيث ساق لهم أدلة إثبات البعث ، فكان تأنيث الضمير نكتة خصوصية لتحميل الكلام هذه المعاني . والضمير الظاهر في قوله : (ذكره) يجوز أن يعود إلى (تذكرة) ؛ لأن ما صدقها القرآن الذي كان النبي ﷺ يعرضه على صنائيد قريش قُبيل نزول هذه السورة ، أي فمن شاء ذكر القرآن وعمل

وإذا استعنا بالجانب الإيقاعي للآيات في حل تلك المخالفة لوجدنا أن مراعاة الفاصلة القرآنية تستدعي تذكير الضمير في (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ) كي تتناسب مع ما بعدها من آيات، (ذَكَرَهُ، مطهرة، سفرة، بررة، ما أكفره، فقدره، ...) وهي: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ (١٣) رُفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ (١٦) قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ (١٨) مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۝ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَهُ ۝ (٢١) فَأَقْبَرَهُ ۝ (٢٢) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۝ (٢٣) كَلَّا لَمَّا يَقُضْ مَا أَمَرَهُ ۝﴾ عبس: ١١ - ٢٣ .

٤ . أن يعود ضمير العاقل على غير العاقل بصيغة التذكير .

مثاله قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ الأنبياء: ٦٣ ، قال الأخفش: « فذكر الأصنام وهي من الموات ؛ لأنها كانت عندهم ممن يعقل أو ينطق »^(١) .

به . ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى (الله) تعالى فإن إعادة ضمير الغيبة على الله تعالى دون ذكر معاده في الكلام كثير في القرآن ؛ لأن شؤونه تعالى وأحكامه نزل القرآن لأجلها فهو ملحوظ لكل سامع للقرآن ، أي فمن شاء ذكر الله وتوحي مرضاته . و(الذكر) على كلا الوجهين : الذكر بالقلب ، وهو توحي الوقوف عند الأمر والنهي .

(١) « معاني القرآن » للأخفش ٢ : ٤١١ .

ضمير الذات

البنية الإحالية لضمير الذات (المتكلم ، والمخاطب ، والغائب) :

ربط النحاة بين الضمائر ومفهوم الإبهام ، بمعنى حاجتها إلى ما يميّزها ويفسّر ها في الأغلب ، وذلك خلاف التنكير ، إذ قرن سيبويه بينها وبين أسماء الإشارة ^(١) . ويتأكد ذلك أيضًا من خلال تعريف ابن يعيش للمضمر ، ورده على عودته إلى نكرة ، يقول : المضمر ضرب من الكناية ، فكل مضمر كناية ، وليس كل كناية مضمرًا ، وإنّما صارت المضمرات معارف ؛ لأنك لا تضمّر الاسم إلّا وقد علم السامع على من يعود ، فلا تقول : ضربته ، ولا مررت به ، حتى يعرفه ويدري من هو .

وقالوا : المضمر يصلح لكلّ مذكور ، فلا يخصّ شيئًا بعينه ، وقد يكون المذكور قبله نكرة ، فيكون نكرة أيضًا على حسب ما يرجع إليه ... ، وأمّا قولهم : إنّه يعود إلى نكرة فيكون نكرة ، فنقول : لا نسلم أنّه يكون نكرة ؛ لأنّا نعلم قطعًا من عُنِي بالضمير ^(٢) .

فالإبهام والانتقال والتعريف أهم خصائص الضمير ، ويرتبط بالإبهام عدم الوضوح ونقصان الدلالة ، والافتقار إلى موضح أو مفسّر للضمير بما يعود عليه من اسم مظهر ، حيث يصبح بعد الذكر بين المتحدّث والمستمع معرفة بكونه مدار الحديث .

قال عباس حسن ^(٣) : الضمائر كلّها لا تخلو من إبهام وغموض ، ... سواء أكانت

(١) انظر « الكتاب » ٢ : ٧٩ .

(٢) انظر « شرح المفصل » لابن يعيش ، ٥ : ٨٦ - ٨٧ .

(٣) انظر « النحو الوافي » ١ : ٢٥٥ .

للمتكلم أو للمخاطب أو للغائب ، فلا بدّ لها من شيء يزيل إبهامها ويفسر غموضها .
فأمّا المتكلم والمخاطب فيفسّرهما وجود صاحبهما وقت الكلام ، فهو حاضر يتكلم
بنفسه ، أو حاضر يكلمه غيره مباشرة .

وأما ضمير الغائب فصاحبه غير معروف ؛ لأنّه غير حاضر ولا مشاهد ، فلا بدّ لهذا
الضمير من شيء يفسّره ويوضح المراد منه .

إذن فالمشكلة تتمثّل في الغيبة وليس في التكلّم والخطاب ، فلا يجوز الإضمار إلا بعد
معرفة السامع ، كما أنّه لا بدّ من تقديم المظهر لذلك الإضمار .

وقال المبرّد في ربطه بين الإضمار والتعريف : وإنّما صار الضمير معرفة لأنّك لا
تضمّره إلا بعد ما يعرفه السامع ، وذلك أنّك لا تقول : مررت به ، ولا ضربته ، ولا
ذهبت ، ولا شيئاً من ذلك حتى تعرفه وتدرى إلى من يرجع هذا الضمير^(١) .

وقد حرص النحاة على تحديد مراتب الضمائر من جهة التعريف اعتماداً على فكرة
الحضور ، فيقدّم المتكلم ثمّ المخاطب وأخيراً الغائب الذي لا صلة له بالحضور أو
المشاهدة . وعالجوا سبب بنائها من خلال الحرفية والجزئية ، فالمضمّر يشبه الحرف في أنّه
لا يستبدّ بنفسه أو أنه يدلّ على معنى في غيره ، وكذلك يعدّ المضمّر جزءاً من المظهر ، أو
بعبارتهم : فالمضمّر كالجزء من الاسم المظهر ... وجزء الاسم لا يستحق الإعراب .

فالنحاة قد أوجبوا البحث عن الظاهر الذي يفسّر الضمير ، وبعبارة أخرى تحديد
الاسم (المشار إليه ، العنصر الإشاري) الذي يقيم علاقة الربط مع الضمير (المحيل ،
العنصر الإحالي) سواء أكان الربط بين عنصرين على المستوى الداخلي اللغوي ، أو

(١) انظر «المقتضب» ٤ : ٢٨٠ .

عنصر لغوي داخلي وعنصر آخر على المستوى الخارجي خارج اللغة . ويتحقق ذلك في النص القرآني بلا خلاف بين النصوص الجزئية والنصوص الكلية .

وقد يتقدم عنصر الإحالة في بنية مؤكدة ، ويتأخر عنصر الإشارة المفسرة للإيهام المتقدم ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ النجم : ٤ ، وقوله : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الَّذِي نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ المؤمنون : ٣٧ .

بعد هذه الملاحظ الجزئية نتقل إلى دراسة البنية الإحالية في إطار الوظائف المختلفة التي تؤدّيها السياقات والمقامات المختلفة التي ترد فيها . ونكتفي هنا بذكر عدد من النماذج الموضحة لعملية التماسك النصي ، وما ستقدمه كاف لتقديم صورة واضحة عن حركة هذه الضمائر بوصفها عناصر مركزية في السياقات التي نوردها ، تركز عليها الأحداث التي يريد الخالق (المتكلم) أن يؤكد لها للمخاطبين (المرسل إليهم الخطاب) ، وأنها من فعله وحده .

تحتل الأفعال المستندة إلى ضمير الإحالة (ضمير المتكلم الجمع الدال على الذات الإلهية) دلالات ينسبها الخالق لنفسه في صيغة مؤكدة ترد للمشككين .

وقد وردت في آبنية من نحو : أنا + أرسلنا + أعتدنا + أعطينا + أنذرنا + أنزلنا + أنشأنا + أوحينا + بلونا + جعلنا + خلقنا + سخرنا + فتحنا + كفيها + عرضنا + كنا + سنلقي ...

وسنعرض لبعض تلك السياقات التي وردت فيها هذه الأبنية ، منبهين إلى الأحداث والدلالات التي مهّدت لها ، أو اعتمد عليها بعد ورودها ، فلم تكن هذه الأبنية معزولة عن الأبنية والدلالات التي استخدمت داخلها . وكان وضعها بينها لأداء وظائف خاصّة بها ، إذ يصعب الكشف عن مغزى هذه الاستخدامات الفعلية إلا من خلال ردها إلى المحيط الذي تنتمي إليه .

ونبدأ بتحديد الأشكال التي تأتي فيها النصوص الجزئية ، ومكونات الأبنية التي تشكلها ، وكيفيات ورود عناصر الإحالة وعناصر الإشارة في سياقات مختلفة ، فقد يرد عنصر الإحالة في مطلع آية سواء أذكر عنصر الإشارة متقدماً في السورة أم متأخراً أم لم يذكر مطلقاً ، وتكون الإشارة إلى الخارج . كما هي الحال في التراكيب التي تتكوّن من :

إنّ + ضمير متكلم جمع + فعل + ضمير متكلم جمع دالّ على الذات .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ المزمّل :

١٥ .

وقد تتقدّم هذه البنية الجزئية السورة ، ويظهر الاسم (عنصر إشاري) مرة أخرى للتأكيد ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْكَوْثَرِ ۚ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ الكوثر: ١ ، ٢ .

وقد يرد الضمير (عنصر إحالي) تارة أخرى تأكيداً للفعل التالي ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ مُحْيِيُّوهُمُ وَإِنَّا مُمِيتُهُمْ ۚ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ ق : ٤٣ . والحديث هنا من الخالق ، فهو يتحدث عن نفسه .

وقد يتصدّر ضمير الجماعة (عنصر إحالي) الجملة مؤكّداً الإحالة السابقة ، قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ بعد قوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يوسف : ٢ ، ٣ .

وقد يكون الخطاب غير مباشر ، فيدخل وسيط بين المرسل إليه وصاحب الخطاب الفعلي ، فالمتحدّث يحكي عن أمر يحيل فيه إلى صاحب الحال ، كما هي الحال في حكاية نوح - عليه السلام - عن الله تعالى ، في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ نوح : ٢٧ .

ذكرت فيما سبق أن بعض هذه الأبنية الإحالية يتصدّر السورة ، كما هو الحال في سورة الكوثر ، وذلك لإسناد الفعل إلى الخالق مباشرة ، أي أن حدث (الإعطاء) يوجه من خلال الضمير (عنصر الإحالة) إلى ذات تقع خارج النص اللغوي .

وقد تتأخر الإحالة قليلاً حين تتقدّم الإشارة إلى شيء جليل ، يريد الخالق من خلاله أن ينسب إليه الفعل في صورة لا تحتمل الشك ، كما في قوله تعالى : ﴿ حَمِّمُوا ۚ ﴾ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ الزخرف : ٣ .

ويرتبط فعل (الإرسال) ارتباطاً وثيقاً بمواقف التكذيب والإعراض والإنكار ، ففي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْشٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ القمر : ١٩ . نجد أنها موجهة إلى التذكير بما حدث لقوم عاد ، إذ تقدّم هذه الآيات عرضاً واضحاً للإعراض والتكذيب واتباع الهوى والاستخفاف بالنذر ، ودليل هذا التذكير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴾ القمر : ١٧ ، ومهدت للحدث الجلل الذي أصاب قوم عاد آية متكررة تؤكد أن الفعل الواقع بعدها هو من الله وحده ، وهي قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ القمر : ١٦ ، وقد سبقت الآية ذاتها الفعل الذي حدث لقوم صالح وقوم لوط في آيات متتالية : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ﴾ القمر : ٣١ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ القمر : ٣٤ .

وفي سورة (ق) نجد السياقات التي تقدّمت كلّها تمهد للبنية الإحالية ، فالجو العام إعداد ليوم القيامة ، فتقابلنا أحاديث كلّها تدور في هذا الفلك ، وتعضد الأفعال المستخدمة هذه الصورة الكلية ، ونجد حديثاً عن الجنة يقابله حديث عن النار ، والقدرة على الإهلاك في مقابل القدرة على الخلق . كلّها أدلة على ضرورة الطاعة

والإذعان وعبادة القادر على هذه الأفعال ، ثم يتقدّم بنية الإحالة مباشرة تحديد لفعل (الإحياء والإماتة) في قوله تعالى : ﴿ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۚ ﴾ (٤٤) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُيِّتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٥﴾ ق : ٤١ - ٤٣ .

وفي سورة الحجر تقدّم السياقات المتقدمة على البنية الإحالية تصويرًا ممهّدًا للفعل المؤكّد في هذه البنية من خلال تقديم أداة التوكيد (إن) + ضمير الدالّ على الذات الإلهية ، مركز الجملة + ضمير المتكلّم لهذا المركز .

ويعود فعل التنزيل إلى صدر السورة ، فالإشارات إلى آيات القرآن (الذكر) ثم إعراض الكفار عنها ، ثم وصف الرسول بالجنون ، ثم الإصرار على الفعل (الإعراض) ولو جاء بآية (الملائكة) ، ثم رفض هذا المنهج ، وإثبات أنّه وحي من عنده ، وأنه كفيل بالمحافظة عليه ، كما في قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر : ٩ .

وفي كلّ ما تقدّم نجد الإحالة إلى خارج النص ، ولا بدّ أن نضع في الحسبان أنّنا عندما نعالج النص القرآني نلاحظ أنّ عامل الإحالة يعمل على مستويين :

مستوى خارجي يقوم على وجود ذات المخاطب خارج النص ، وينسحب ذلك على كل الضمائر المستخدمة للإشارة إلى الذات الإلهية (ضمير المتكلّم أو الغائب) . فهي الذات المحورية التي تدور حولها كلّ الذوات الأخرى الواردة في النص ، وتوجّه كلّها إلى تنفيذ الأفعال المنوطة بها ؛ ولذلك تكون كلّ الإحالات اللغوية التي يعمل فيها عامل الإحالة على المستوى الداخلي متداخلة مع الإحالة الخارجية متداخلاً شديداً يصعب الفصل بينهما ، وتقوم كل العناصر المعجمية الدالة على ذوات بما تؤمر به وبما تحدّثه من أفعال ، بل إنّ الإحالة الخارجية تحكم أيضًا الأفعال المضادة التي تؤدّيها

عناصر معجمية محدودة (عدد محدد من الذوات المذكورة صراحة) .

أما الإحالة البعدية (على متأخر) فنلاحظ أنّ الأمر المحال عليه في أغلب السياقات التي ورد فيها يختصّ بكلام الله تعالى ، وقد اتخذت هذه الإحالة صوراً مختلفة نورد منها مجموعة على سبيل التمثيل .

الصورة الأولى :

هي المتكوّنة من : (إنَّ + ضمير غيبة + ل + عنصر معجمي دال) قد وردت في مواضع عدّة ، يجمع بينها داخل سياقاتها قوله تعالى : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ ... ﴾ ، ففي سورة الواقعة : ٧٧ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَرَّانٌ كَرِيمٌ ﴾ الواقعة : ٧٧ ، ونجد الجمل المتقدّمة قوله تعالى : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقَرَّانٌ كَرِيمٌ ﴾ الواقعة : ٧٥ - ٧٧ : فهي جمل مهيّئة للإشارة إلى شيء عظيم ، كما أنّ الجمل التالية مؤكّدة لهذه الدلالة ، إذ يقول تعالى بعدها : ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْتُومٍ ۖ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمَطَهَّرُونَ ۖ ﴾ (٧٦) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الواقعة : ٧٨ - ٨٠ . وكلّها مفسّرة للضمير المبهم المتقدّم ، ويمكن أن تكون الصورة المجردة التي يأتي عنها هذا النمط هي : (إنَّ + ل + ضمير غيبة + حرف توكيد + اسم) (١) .

أداة توكيد + ضمير غيبة مبهم [عنصر إحالي معجمي] + حرف توكيد + اسم
[عنصر إشاري مفسّر] + جملة مؤكّدة له (تعضيد للرسالة) .

أما الصورة الثانية : فتكوّن من : إنَّ + ضمير غيبة + جملة مفسّرة .

أو : إنَّ + ضمير غيبة متصل + ضمير غيبة منفصل + جملة مفسّرة .

(١) ج = جزء أساسي سواء أكان ركنًا أساسيًا في جملة ، أم جملة تامة .

ومن السياقات التي وردت في هذا المجال ما جاء في سورة الطارق في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجِيمٍ لَقَائِرٌ ﴾ الطارق : ٨ ، وقد سبق هذه الآية تهديد لها ، إذ إنه بعد القسم بآيات عدة وجه الخالق (وهو مركز الإحالة) الموجود خارج النص اللغوي ، أمراً إلى الإنسان (عنصر معجمي مفرد داخل النص اللغوي) بالنظر في كيفية خلقه ، فمن خلق من عدم قادر على أن يحيي الميت ، إذ إن الإحياء أو البعث أهون من الخلق الأول .

ويتصاعد التوكيد حين يتطلب المقام ذلك ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ البروج : ١٣ ، فقد تقدّم هذه الآية القسم بآيات الخالق ثم يتهياً المحيط لهذه الإحالة حين ينذر أصحاب الفتنة ، ويعد المؤمنين بما سيلقون ، ويقابل هنا العذاب بالفوز ، وكلاهما من فعله ، ثم يلي ذلك وعيده لمن لم يتب منهم ، ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ البروج : ١٢ . والإحالة هنا إلى عنصر معجمي داخل النص (ربك) .

وهكذا نرى أن الإحالة تكون داخلية أو خارجية ، وتغلب الإحالة إلى خارج النص اللغوي ، إذ إنه من المعلوم أن النص القرآني كلام الله ، ويكون رد أفعاله إليه ميسوراً ، فإذا ورد اسم من أسمائه (عنصر معجمي إشاري) يفسر الإحالة داخل النص ، فإنه لا يلتزم موقعاً بعينه في علاقته بالضمير المبهم المحيل إليه (عنصر معجمي إحالي) ، أو الجملة المفسرة (عنصر نصي إحالي) ، فقد يتقدّم عليه مباشرة أو في مواضع تكون فيها العلاقة بينه وبين الضمير غير مباشرة ، أو على العكس من ذلك يتأخر عليه مباشرة أو يبعد عنه ، فتفصيل عدة جمل بينهما ، ويكون وروده توكيداً لأسباب تقتضيها الاستخدامات الموجبة للمظهر لا المضمّر .

أما الصورة الثالثة : فتتكوّن من :

إن + ضمير منفصل + إلا + عنصر معجمي مفسّر

وقد وردت في سياقات عدّة ، منها قوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ التكوير : ٢٧ . وعلى الرغم من أنّ الضمير يحيل على الاسم التالي للمفسّر ، فإنّ ذلك ليس كافياً ، فالضمير يرتبط بها ذكر مسبقاً من القسم ، ثمّ قوله : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ التكوير : ١٩ ، وتأكيّد هذه الجملة بقوله : ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ﴾ التكوير : ٢٥ ، ثمّ يأتي التوكيد تارة أخرى بتحديد طبيعة هذا القول بجملة مؤكّدة أيضاً وهي قوله : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ التكوير : ٢٧ .

ونلاحظ أنّ المفسّر في أغلب الأبنية التي وردت نكرة موصوفة ، ففي قوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم : ٤ ، يسبق هذه الآية القسم بآيات الله ، ثمّ إنكار وصف النبي بالضلال والنطق عن الهوى ، ممّا مهّد للتأكيد على أنّ القرآن ليس قولاً للرسول ﷺ ، وعلى الرغم من أنّ الجملة المفسرة قد أزالّت الإبهام في عنصر الإحالة (ضمير الغيبة) ، إلّا أنّ الإحالة هنا ليست تامّة ، بل يظلّ الضمير محيلاً إلى المنطوق الذي يحيل بدوره إلى القرآن كليّة إحالة ضمنيّة .

وفي قوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الزخرف : ٥٩ ، نجد أنّها يسبقها استهزاء بالأنبياء ، ثمّ سرد لقصة موسى - عليه السلام - ، ثمّ عقاب المنكرين (وهو مثل) ، ثمّ حديث عن ابن مريم (وهو مثل أيضاً) وما أثير حوله من جدل أوجب إزالة الشك في طبيعته بإثبات عبوديته ، وبالتالي عدم إمكان وصفه بالألوهية .

والضمير هنا أيضًا لا يفسر بوضوح من خلال الجملة التالية ، ثم لا بد من وضوح
العنصر الإشاري في موضع سابق لإزالة إبهامه .

وفي قوله تعالى : ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ المؤمنون :
٣٧ . نجد أن العنصر الإشاري في الآية معرفة ، لذا فهو واضح لا يحتاج إلى ارتباط
عنصر الإحالة بما يفسره في كلام سابق . هذا بخلاف البنية الإحالية التالية لها في السورة
ذاتها ، حين قال تعالى : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾
المؤمنون : ٣٨ . فلم يكن من المستطاع تفسير الإبهام في (هو) بالاسم المتأخر
(رجل ..) ، واستلزم ذلك الرجوع إلى الآيات السابقة وتتبع الاسم المفسر صراحة ،
الذي يتناسب مع الأحداث الواقعة التي تقدمها الآيات اللاحقة . وهذا مما يؤكد
ضرورة تجاوز حد الجملة في تفسير عناصر الإحالة تفسيرًا مقبولاً^(١).

لا شك أن هذا المنهج في دراسة الإحالة يكشف عن جوانب مختلفة ، وقد يعجز
التعامل مع جمل منعزلة عن سياقاتها أن يقدمها ، ولكن ذلك ليس كافيًا ، ولا بد من
إيضاح ذلك من خلال معالجة أبنية نصية أكبر وأكثر تعقيدًا ، حتى يمكن إيضاح
العوامل التركيبية والدلالية والتداولية التي تحكم الأبنية وتجعل منها وحدة متماسكة
منسجمة . وهو ما سأعرض له في أمثلة مستقلة بإذن الله تعالى .

(١) انظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » ٩٥ - ١٠٦ .

ضمير الفصل

البنية الإحالية لضمير الفصل :

نبّه إلى هذا النوع من الضمائر بعض العلماء من قبل سيبويه (ت ١٨٠ هـ) ، حيث نقل الحصري (ت ١١٧ هـ) في قوله تعالى : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ هود : ٧٨ ، بنصب (أطهر) على الحال ، وجعل (هو) ضمير فصل^(١).

أما أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) فقد أنكر هذه القراءة وعدّها خطأً بجعل (هو) ضمير فصل ، وظاهر هذا الكلام يوحى بمعرفة أبي عمرو ذلك .

وقريبٌ من هذا قراءة عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ) في الآية نفسها ، إذ قرأ : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ ﴾ بالنصب على أن يجعل (أطهر) حالاً ، أما (هنّ) فذكروا فيها الفصل .

ثمّ جاء الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ) الذي حاول أن يصف وظيفة هذا الضمير فأطال في ذلك ، وكان أوّل ما ابتدأ به هو بيان أنماط هذا الضمير ، فقد نصّ على ذلك بين مفعولي (ظنّ وأخواتها) ، و(اسم كان وخبره) ، ومن ثمّ شرع في تبيان الهدف من استعماله ، حيث أوضح أنّه جيء به للفصل بين ذلك الاسم ونعته ، وقد نقل عنه سيبويه أنّ الفصل يأتي « إعلاماً بأنّه قد فصل الاسم ، وأنّه فيما ينتظر المحدث ويتوقّعه منه مما لا بدّ له من أن يذكره للمحدث ؛ لأنك إذا ابتدأت الاسم فإنّها تبتدئه لما بعده ، فإذا

(١) انظر « الكتاب » ٢ : ٣٩٧ ، و« المحتسب في شواذّ القراءات » لابن جني ، ١ : ٣٢٦ ، و« المفصل في تاريخ النحو العربي » د. محمد خير الحلواني ، ١ : ١٥٥ . وانظر « الوظيفة السياقية لضمير الفصل » ، محمد الهيّتي ، مجلة الدراسات اللغوية ، مج ٤ ، ع ٢ ، سنة ١٤٢٣ هـ ، ص

ابتدأت فقد وجب عليك مذكورٌ بعد المبتدأ لا بُدَّ منه وإلا فسد الكلام ولم يَسْغُ لك ، فكأنه ذكر (هو) ليستدلَّ المحدثُ أنَّ ما بعد الاسم ما يُخرجه مما وَجَبَ عليه ، وأنَّ ما بعد الاسم ليس منه . هذا تفسير الخليل ^(١) .

١ - تعريفه :

يرى الزمخشري أنَّ ضمير الفصل هو : أحد الضمائر المنفصلة المرفوعة ، يتوسط بين المبتدأ وخبره قبل دخول العوامل اللفظية وبعده إذا كان الخبر معرفة أو مضارعاً له في امتناع دخول حرف التعريف عليه كأفعل من كذا ؛ ليؤذن من أوَّل أمره بأنَّه خبر لا نعت ، وليفيد ضرباً من التوكيد ^(٢) .

فإذا قلت : (كان زيدٌ القائم) كان إخباراً عن زيد بالقيام ، واحتمل أن يكون غيره قد شاركه فيه ، وإذا قلت : (كان زيدٌ هو القائم) أفاد اختصاصه بالقيام دون غيره ^(٣) .

٢ - شروطه :

أولاً : الشروط المتعلقة بذات الضمير : له شرطان ^(٤) :

الأول : أن يكون من ضمائر الرفع المنفصلة ، لذا يمتنع نحو : (زيد إياه الفاضل) ، والسبب في ذلك كما قال ابن يعيش : « لأنَّ فيه ضرباً من التأكيد ، والتأكيد يكون بضمير المرفوع المنفصل ، نحو : (قمت أنا) وقوله تعالى ﴿ أَشْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(١) « الكتاب » ١ : ٣٩٤ . ط بولاق .

(٢) انظر « المفصل في علم العربية » ١٣٢ .

(٣) انظر « ارتشاف الضرب » ١ : ٤٩٥ .

(٤) انظر « ضمير الفصل بين الدراسة النحوية النظرية والتطبيق القرآني » د. يحيى بن محمد الحكمي ،

بحث منشور على شبكة المعلومات : <http://yal7akami.ektob.com/>

البقرة: ٣٥»^(١).

الثاني: أن يطابق ما قبله في الدلالة على التكلم أو الخطاب أو الغيبة^(٢)، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ المائدة: ١١٧، وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يوسف: ٩٨، وقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ طه: ١٤. وليس من الفصل مثل قولنا: (كنت هو الفاضل) لافتقاد المطابقة.

وقد منع سيبويه عدم مطابقة ضمير الفصل لما قبله، حيث قال: «وإذا قلت: كان زيد أنت خير منه، وكنت أنا يومئذ خير منك، فليس إلا الرفع؛ لأنك إنما تفصل بالذي تعني به الأول إذا كان ما بعد الفصل هو الأول، وكان خبره، ولا يكون الفصل ما تعني به غيره»^(٣). وهذا القول يتفق مع ما جاء به الفراء من أن ضمير الفصل هو عماذ لما قبله، أي مطابق له^(٤).

ثانياً: ما يشترط فيها قبله:

اشترط النحاة فيما قبل ضمير الفصل شرطين:

١ - كونه معرفة مثل قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المؤمنون: ١٠٢. ولعلّ العلة في ذلك أن في الفصل ضرباً من التأكيد، ولفظه لفظ المعرفة، فوجب أن يكون الاسم الجاري عليه معرفة، كما أن التأكيد كذلك.

(١) «شرح المفصل» لابن يعيش ٣: ١١٠.

(٢) انظر «ارتشاف الضرب» لأبي حيان، ١: ٤٩٥.

(٣) «الكتاب» ٢: ٣٩٤.

(٤) انظر «معاني القرآن» للفراء، ١: ٤٠٩، ٤١٠. وانظر «ضمير الفصل بين البصريين والكوفيين»

د. كاظم إبراهيم كاظم، مجلة التواصل اللساني، مج ٣، ع ٢، سنة ١٩٩١ م، ص ٢٥.

وأجاز بعض الكوفيين كونه نكرة نحو : (ما ظننت أحداً هو القائم) ، و (كان رجل هو القائم) ، وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ النحل : ٩٢ ، فقدروا (أربي) منصوبة ^(١) ، وذهب قومٌ إلى جواز كونه نكرة في امتناع دخول (أل) عليه نحو : (ما أظن أحداً هو خيراً منك) ، وذهب آخرون إلى جواز كونه اسم لا النافية للجنس نحو : (لا رجل هو منطلق) ، والحق أن هذه الآراء الأخيرة اجتهادات لا يؤيدها دليلٌ من نص موثوق به شعراً أو نثراً .

٢ - أن يكون مبتدأ في الحال أو في الأصل ، وهذا يعني أن ضمير الفصل يقع بين المبتدأ وخبره ، أو ما أصله المبتدأ ، كالمبتدأ الذي تدخل عليه الحروف والأفعال الناسخة ، كقوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ المؤمنون : ١٠ ، وقوله : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ القصص : ٥٨ ، وقوله : ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنْأَ أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ الكهف : ٣٩ ، وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ الصافات : ١٦٥ ، وقوله : ﴿ وَمَا نَقْضُكُمَا لِأَنفُسِكُمَا مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ المزمل : ٢٠ .

وأجاز الأخفش وقوَع الفصل بعد غير المبتدأ (صاحب الحال) ، مثاله : (جاء زيد هو ضاحكاً) ، وجعل منه قراءة من قرأ بنصب (أظهر) في قوله : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ هود : ٧٨ ، وقد حَنَّ أبو عمرو قارئ هذه القراءة ، قال سيبويه : « زعم يونس أن أبا عمرو رآه لحناً ، وقال : احتبى ابنُ مروان في هذه في اللحن » ^(٢) ، ومن

(١) انظر « مغني اللبيب » لابن هشام ٢ : ٥٤٧ ، و« معجم الهوامع » للسيوطي ١ : ٦٨ .

(٢) « الكتاب » ١ : ٣٩٧ . ط بولاق . وانظر هذه القراءة في « البحر المحيط » لأبي حيان ٥ : ٢٤٧ .

منعوا الفصل فيها خرّجوها على الابتداء والخبر، ف (هن) : مبتدأ ، و (لكم) : خبره^(١).

ثالثاً : ما يشترط فيما بعده :

يشترط فيما بعد ضمير الفصل شرطان :

١ - كونه خبراً في الأصل أو الحال ، كقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
العنكبوت : ٥٢ ، وقوله تعالى : ﴿قَالُوا إِنَّا لَنَاجِرَةٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾
الأعراف : ١١٣ .

٢ - أن يكون معرفة أو ما أشبه المعرفة ، ولا خلاف بين النحاة في المعرفة ، وإنما وقع الخلاف فيما أشبه المعرفة ؛ لأن هذا الشبه - لعمومية مفهومه - محلُّ اجتهد من النحويين ، وحكمة هذا الشرط أن ما بعده لا يجوز إلا أن يكون نعتاً لما قبله ، ونعت المعرفة معرفة ، وهذا يفسر قولهم : (أن يكون الفصل بين معرفتين) .

أما ما أشبه المعرفة ، فالمقصود به (أفعل من كذا) ؛ لأنه يشبه المعرفة وإن لم يكن معرفة ؛ لأنه غير مضاف ولا يقبل (أل) ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ آل عمران : ١٨٠ ، ولو قلت : (ما ظننت أحداً هو خيراً منك) ، لم يكن فصلاً ؛ لأنه لم يأت بعد معرفة ، كذا لا يجوز : (ما ظننت زيداً هو قائماً) ؛ لأن الذي بعده ليس معرفة .

(١) انظر « إعراب القرآن » ، لأبي جعفر النحاس ، تح : هارون غازي زاهر ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٨ م ، ٢ : ٢٩٦ .

وشرط ما أشبه المعرفة : أن يكون اسماً . وخالف في ذلك الجرجاني ، فألحق المضارع بالاسم لتشابههما ، وتبعه أبو البقاء وابن الخباز والسهيلي . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ﴾ فاطر : ١٠ .

بل إن بعضهم^(١) أجاز وقوع الفصل قبل الماضي ، وجعل منه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ (١٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (١٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿ النجم : ٤٣ - ٤٥ حيث أتى بضمير الفصل في الأولين دون الثالث ؛ لأن بعض الجهال قد ثبتت هذه الأفعال لغير الله ، كقول النمرود في قصته مع إبراهيم عليه السلام : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ وَيُمْيْتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة : ٢٥٨ ، وأما الثالث وهو الخلق فلم يدعيه أحد من الناس^(٢) .

ويتبين لنا من الشروط التي وضعها النحاة تلك الصلة الوثيقة التي يعقد ضمير الفصل بين الجزأين الواقع بينهما ، وعلى الرغم من أن الإحالة فيه تكون للمتقدم ، إذ إن العنصر الإشاري السابق هو الذي يفسر هذا المبهم ، فإن التأخر يعتمد عليه في المعنى ، وذلك كله يستخرج من كلام البصريين والكوفيين معاً لما أسهبوا في تحديد وظيفته في الجملة (الوظيفة الدلالية) والقيود التي تضبط استعماله في نصوص مختلفة ، وكانت اختلافاتهم تمثل وجهة نظر قيمة استندت إلى معايير أكثر رحابة ، وأمدتهم الأشعار

(١) انظر هذه المسألة في « شرح الكافية » للرضي ١ : ٢٥ ، و « مغني اللبيب » لابن هشام ٢ : ٥٤٨ .

(٢) انظر « البحر المحيط » ١ : ٤٠ ، و « مغني اللبيب » ٦٤٢ . و « روح المعاني » ٢٠ : ٢٦ .

والنص القرآني بمادة غزيرة أسهمت بدور فاعل في بيان العلاقة بين هذا العنصر الإحالي والعناصر اللغوية الأخرى التي تمثل بنية إحالية ذات وظيفة خاصة^(١).

٣ - وظيفته :

أ . وظيفة ضمير الفصل في الدراسات القديمة :

استعمل ضمير الفصل في النص العربي بداية من أعلى مستوى له ، أعني القرآن الكريم ، فلا يمكن أن يتبادر إلى ذهن أي متأ أن ضمير الفصل لا غرض له ولا فائدة تُرجى من ورائه في الكلام ، فالغرض من دخول الفصل في الكلام إرادة الإيذان بتنام الاسم وكماله ، وأن الذي بعده خبر وليس بنعت^(٢).

ومن خلال ما أورده النحاة في مصنفاتهم يتبين لنا أن فائدة ضمير الفصل لا تخلو أن تكون واحداً من ثلاثة أمور^(٣) :

أحدها: لفظي ، وهو إزالة اللبس ، والإعلام من أول الأمر بأن ما بعده خبر لا تابع ، ولهذا سُمي فصلاً ، لأنه فصل بين الخبر والتابع ، وعماداً ؛ لأنه يُعتمد عليه في معنى الكلام .

قال ابن هشام : « وأكثر النحويين يقتصر على ذكر هذه الفائدة ، وذكر التابع أولى من ذكر أكثرهم الصفة لوقوع الفصل في نحو : ﴿ كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ المائدة :

(١) انظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » د. سعيد بحيري ، ١١٩ .

(٢) انظر « شرح المفصل » لابن يعيش ٣ : ١١٠ .

(٣) انظر « الكشف » للزخشري ، تح: محمد عبد السلام شاهين ، ١ : ١٣١ ، و« مغني اللبيب »

١١٧ ، والضمائر لا توصف »^(١) .

ويتضح ذلك من خلال المثال الآتي : (السياسي المحنك الواقعي في اتخاذ قراره الذي لا ييني سياسته على أحلام يستحيل تحقيقها) .

إذا تأملنا هذا المثال نجد أن له ثلاث قراءات يصعب ترجيح إحداها على الأخرى ، فإذا أتينا بضمير الفصل تحدّد الخبر في كلّ منها ، وأصبح لكلّ منها تفسير واحد ، ففي قولنا : (السياسي هو المحنك الواقعي في اتخاذ قراره الذي لا ييني سياسته على أحلام يستحيل تحقيقها) فأدخل الضمير قبل (المحنك) .

وفي قولنا : (السياسي المحنك هو الواقعي في اتخاذ قراره الذي لا ييني سياسته على أحلام يستحيل تحقيقها) فأدخل الضمير قبل (الواقعي) .

وفي قولنا : (السياسي المحنك الواقعي في اتخاذ قراره هو الذي لا ييني سياسته على أحلام يستحيل تحقيقها) فأدخل الضمير قبل كلمة (الذي) .

فيصير كلّ منها خبراً في موضعه ، ويُزال اللبس في الجملة .

ومن ذلك أيضاً قولنا : (فاطمة الوحيدة التي كسرت زجاج النافذة) ، الذي يحتمل تفسيرين ، ولا يمكن معرفة الخبر وتميّزه من النعت فيها إلّا بإدخال ضمير الفصل قبل الخبر المقصود .

فنقول : (فاطمة هي الوحيدة التي كسرت زجاج النافذة) ، و (فاطمة الوحيدة هي التي كسرت زجاج النافذة) .

الثاني : معنوي ، هو الاختصاص والحصص^(١) ، وقال ابن هشام : « وكثير من

(١) « مغني اللبيب » ٦٤٤ .

البيانين يقتصر عليه ^(٢) .

الثالث : معنوي أيضاً ، هو التوكيد ، وقد ذكره جماعة من النحويين . قال ابن هشام : « وبنوا عليه أنه لا يجمع التوكيد فلا يقال : (زيد نفسه هو الفاضل) ، وعلى ذلك ساء الكوفيون دعامة ؛ لأنه يُدعم به الكلام أي يقوى » ^(٣) .

ويجب التنبيه على أن التوكيد هنا هو توكيد معنوي وليس بلفظي ، وقد سبق قول ابن يعيش : « وإنما اشترط أن يكون من الضمائر المنفصلة المرفوعة الموضع ؛ لأن فيه ضرباً من التأكيد ، والتأكيد يكون بضمير المرفوع المنفصل ، نحو : (قمتُ أنا) ، ﴿ أَشْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ ، ولذلك من المعنى وجب أن يكون المضمَر هو الأول في المعنى ؛ لأن التأكيد هو المؤكِّد في المعنى ، ولهذا المعنى يسمِّيه سيبويه وصفاً ، كما يسمى التأكيد المحض ، ولو قلت على هذا (كان زيد أنت خيراً منه) ، أو (ظننت زيدا أنت خيراً منه) لم يجوز ؛ لأن الفصل هاهنا ليس الأول فلا يكون فيه تأكيد له ^(٤) .

فالمقابلة بين التوكيد بضمير الفصل والتوكيد اللفظي تدفع إلى الظن بأنهما متطابقان ، وهذا غير صحيح ؛ لأن المطابقة هنا جزئية ، إذ إن ضمير الفصل يحقق نوعاً من التأكيد ، بدليل أنهم يفرقون بين الفصل والتأكيد بأن لام التأكيد تدخل على الفصل ولا تدخل على التأكيد . وانتهى ابن يعيش من مبحث ضمير الفصل إلى رفض إطلاق الوصف والتأكيد والاسمية عليه ، قال : « ذهب قوم إلى أن (هو) ونحوها من

(١) قاله السهيلي . انظر « ارتشاف الضرب » ١ : ٤٩٥ .

(٢) « مغني اللبيب » ٦٤٤ .

(٣) « مغني اللبيب » ٦٤٤ .

(٤) « شرح المفصل » ٣ : ١١٠ .

المضمرات لا تكون فصلًا ، وإنّما هي في هذه المواضع وصف وتأکید ، وهي باقيةٌ على اسميتها ، وقد بينّا فساد ذلك بوقوعه بعد الظاهر والمضمر ، ولا يؤكّد به الظاهر وبدخول لام التأكيد عليه ، فاعرفه ^(١) .

إذن لا خلاف حول الوظيفة التي حدّدها النحاة لهذا الضمير ، ولكنّهم لم يعنوا التكرار ولم يقبلوا التقدير الوارد لديه ، بالإضافة إلى أنّهم اختلفوا في اتجاه التوكيد ، وهو أمر في غاية الأهميّة بالنسبة إلى تفسيرنا للبنية الإحاليّة هنا ، فالإحالة هنا إحالة معنوية ، وهي التي تفسّر التوكيد ، ألم يكن الرضيّ واضحًا هنا حين قال : وإنّما قلنا إنّ الفصل يفيد التوكيد ؛ لأنّ معنى (زيدٌ هو القائم) : (زيدٌ نفسه القائم) ^(٢) .

فلم يقل بتكرار اللفظ للتوكيد ، وإنّما جعل دلالة الضمير في لفظ (نفسه) التي هي للتوكيد المعنوي .

أمّا اتجاه الإحالة فيتّضح من تفسير مصطلحي (الفصل) و (العماد) اللذين أطلقا على هذا الضمير .

قال ابن يعيش : « فالفصل من عبارات البصريين ، كأنّه فصل الاسم الأول عمّا بعده وأذن بتمامه ، وإن لم يبق منه بقيّة من نعت ولا بدل إلّا الخبر لا غير . والعماد من عبارات الكوفيين ، كأنّه عمد الاسم الأول وقوّاه بتحقيق الخبر بعده . والغرض من

(١) « شرح المفصل » ٣ : ١١٣ ، ١١٤ . وانظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) « شرح الكافية » ٢ : ٢٤ .

دخول الفصل في الكلام ما ذكرناه من إرادة الإيذان بتهام الاسم وكماله وأن الذي بعده خبر وليس بنعت ، وقيل : أتى به ليؤذن بأن الخبر معرفة أو ما قاربها من النكرات ^(١) .

فالتوكيد يتحقق عند البصريين للعنصرين معاً أو للجملة بأكملها أو للكلام كما يقولون ، ولم يحل ذلك دون فهم الإشارة الموجودة في قولهم : (فصل الاسم الأول عما بعده) بأنها تلك الصلة المعنوية القائمة بينهما ، إذ يراد من ضمير الفصل أن يبقى الركن الثاني في معنى الركن الأول ، وهو معنى الابتداء وأن يزيل عنه أي معنى آخر .

أما التوكيد عند الكوفيين فيتحقق للعنصر الأول فقط ، والحق أنهم أصابوا في إثبات الصلة الوثيقة بين (ضمير الفصل) والاسم المحيل إليه ، وإن كان التوكيد يتحقق للجملة كلها وفقاً لما ذهب إليه البصريون . وقد ورد لدى السيوطي ما يعضد ذلك عن بعض الكوفيين أيضاً ، قال : وبعض الكوفيين يسميه (دعامة) ؛ لأنه يدعم به الكلام ، أي يقوى به ويؤكد ، والتأكيد من فوائد مجيئه ^(٢) .

ولقد كان شرط البصريين للفصل أن يتقدمه معرفة أو أن يكون بين معرفتين أو معرفة وما قاربها من النكرات أقرب إلى إبراز تلك الصلة الحميمة بين ضمير الفصل (المعرفة) ، والاسم المتقدم عليه ، وهو معرفة أيضاً . أما الفراء وابن هشام حين أجازا أن يتقدمه نكرة فقد جعلاً بينه وبين ضمير الشأن صلة ما ، على الرغم من الاختلاف الواضح بين البنية الإحالية لضمير الشأن والبنية الإحالية لضمير الفصل في الوظيفة الدلالية التي يقوم بها كل منهما ، وطبيعة العلاقات التي تشكلها كل منهما أيضاً .

(١) « شرح المفصل » ٣ : ١١٠ .

(٢) « معجم الهوامع » ١ : ٦٨ .

وقد اشترط النحاة لتعيين الفصل أن يسبق الضمير اسم ظاهر وما بعده منصوب أو أن يدخله لام الابتداء وما بعده منصوب ، وقد يكون المتقدم على الضمير اسماً ظاهراً أو ضميراً ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ إِيمَانًا أَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ ﴾ آل عمران : ١٨٠ ، قال سيبويه في تفسيرها : « كأنه قال : ولا يحسبن الذين سيبخلون البخل هو خيراً لهم ، ولم يذكر البخل ، اجتزاء يعلم المخاطب بأنه البخل لذكره (يبخلون) . ومثل ذلك قول العرب : من كذب كان شرّاً له ، يريد : كان الكذب شرّاً له ، إلا أنه استغنى بأنّ المخاطب قد علم أنّه الكذب ، لقوله : كذب » ^(١) .

إذن هذا الضمير يحيل على اسم سابق عليه مشتق من الفعل ، فالإحالة هنا إلى سابق ، بمعنى أنّ الضمير المنفصل (عنصر إحالي) تفسيره (عنصر إشاري متقدّم) ، وهو الاسم المشتق من الفعل (بخل من يبخلون) ، ولذلك نجد آخرين يقولون : هو مضمّر ، معناه : ولا يحسبن الباخلون هو خيراً لهم ، فاكتمى بذكر (يبخلون) من البخل ^(٢) .

واشترط لتعيين الابتداء عدّة شروط ، منها أن يكون بعد الضمير اسم مرفوع ، وقبله ضمير شأن ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَتُومُونَ إِلَهُهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ النمل : ٩ . الهاء هنا ضمير الشأن ، وضمير الشأن لا يؤكّد ، ثم هو غير مطابق ، ولا يصلح أن يكون فصلاً للمخالفة في التكلّم والغيبة العينية ^(٣) .

(١) « الكتاب » ١ : ٣٩٥ .

(٢) انظر « الكشف » ١ : ٤٤٦ ، و « شرح المفصل » ٣ : ١١٢ ، و « البحر المحيط » ٣ : ١٢٨ .

(٣) انظر « البحر المحيط » ٧ : ٥٦ . وهي هاء عباد عند الفراء ، انظر « معاني القرآن » ٢ :

٢٨٧ ، وضمير (ربّ) عند العكبري ، انظر « التبيان في إعراب القرآن » ٢ : ٩٨ .

وفي أغلب المواضع نرى النحاة يذهبون إلى احتمالين (الفصل والابتداء) ، ولكن ما جدوى أن يستخدم الضمير في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ التوبة : ٤٠ ، و﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ الحجر : ٥٠ ، و﴿ فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ المائدة : ٥٦ ، هل لمجرد ذكر مبتدأ بعد مبتدأ ؟ ثم إن فطنة أبي علي الفارسي قد تجاوزت النظر إلى اللفظ حين قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ الحديد : ٢٤ : يحسن أن يكون فصلاً ، ولا يحسن أن يكون مبتدأ ؛ لأن حذف المبتدأ غير سائغ ^(١) . حيث لا يبقى دليل على الحذف ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ الماعون : ٦ ، فلا يجوز حذف (هم) لأن ما بعده يصلح أن يكون صلته ، فلا يبقى دليل على المحذوف ^(٢) .

ويرى د. بحيري أن في هذا تمييزاً بين عنصر جوهري (عمدة) إذا حذف اختلف معنى الجملة ، وعنصر إضافي (زائد) إذا حذف لا يخلّ معنى الجملة ، ويكون مجيئه لأداء وظيفة محددة ؛ ولذا نرى أن التأكيد يتحقق بكلتا البنيتين ، فإذا اختير الابتداء فالمبتدأ الثاني تكرر للأول ، وفي ذلك تأكيد لفظي للركن الأول من الجملة . أما إذا اختير الفصل فلا تكرر ، وإنما هناك إحالة إلى متقدّم ، ويكون التوكيد معنوياً للركن الأول أو الثاني ، أو لكليهما معاً ، كما يتبين من كلام أبي حيان في تفسيره لقوله تعالى :

(١) انظر « دراسات لأسلوب القرآن » ٨ : ١٣٧ ، ولم يوافق د. عضيمة على رأي أبي علي الفارسي على الرغم من وجاهته.

(٢) انظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » ١٢٥ .

﴿إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ الكوثر: ٣ ، يقول : الأحسن الأعرف في المعنى أن يكون فصلاً ، أي : هو المنفرد بالبتّر المخصوص به ، لا رسول الله ﷺ ...^(١) .

معنى ذلك أن ضمير الفصل قد حقق صلة قويّة بين المتقدّم عليه والمتأخّر عنه ، وهي ما أطلق عليه (التوكيد المعنوي) لأداء هذا المعنى المتميّز . كما أن لبنية ضمير الفصل دلالة كليّة نستقيها من بعض السياقات التي وردت داخلها ، فهي تمثّل نتيجةً بالنسبة إلى الجملة أو الجمل السابقة حين تعرض لحدث معيّن أو عدّة أحداث ، مثل الآيات التي تعقب الواو أو الفاء ، كقوله تعالى : ﴿وَكَلِمَةً اللَّهُ هِيَ أَلْمَلِكَا﴾ التوبة : ٤٠ ، وقوله : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ آل عمران : ٦٢ ، أو فعلاً يختصّ به الله وحده في الأغلب ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ الذاريات : ٥٨ ، أو إشارة إلى شيء لا يرقى إليه الشك ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢) الصافات : ٦٠ .

ب . وظيفة ضمير الفصل في الدراسات الحديثة :

يمكننا القول إن الرؤية السابقة لجمهور النحاة العرب هي التي جعلت كلّاً من كسباري (Caspari) و ركندورف (Reckendorf) يطلقان على ضمير الفصل مسمّى ضمير التأكيد (Das Pronomder Verstarkung) على أساس أنها الوظيفة الأساسية له^(٣) .

(١) انظر « البحر المحيط » ٨ : ٥٢ .

(٢) انظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » ١٢٥ .

(3) See: Caspari : Arabische Grammatik, S. 342.

- H. Reckendorf : Arabische Syntax, S. 279 , 280 .

- W. Wright : A Grammar of the Arabic Language, P: 265.

وانظر « البنية الدلالية والإحالية للضمائر » ٢٧ .

ويرى بعض الباحثين ^(١) أنّ خير تفسير لاستعمال ضمير الفصل هو ما قاله برجستراسر (G. Bergsträsser) ، من أنّ إدخال الضمير بين المبتدأ والخبر وسيلة من وسائل الربط بينهما ، ويرى برجستراسر أنّ هذه الوسيلة في الربط بينهما قديمة جدًا ، وشائعة في اللغات السامية ، وربّما كانت أقدم من الربط بفعل الكينونة . على أنّه ربط بين استعمال الضمير للفصل ، واستعماله للتأكيد ، واعتبرهما أصليين لإدخال الضمير في الجملة ^(٢) .

« ومّا يدعم هذا الرأي أنّ بتفنيست قد لاحظ أنّ الجملة الاسميّة في اللغة الروسية وفي اللغة المجريّة وفي السامية القديمة أيضًا تفصل بين ركنيها بوقف يمثل في رأيه صرّفًا صفرًا (Morphème Zéro) ، وهو يضمن الربط بين الركنين .

ويرى أنّ العربية تملأ هذا الفراغ بضمير رابطة (Pronom copule) ، وهو ضمير الفصل في تراثنا ، وتملأه التركيّة بالضمير أو باسم الإشارة » ^(٣) .

ومن قبل برجستراسر أشار الفارابي إلى القيمة الموقعية لضمير الفصل ، وهي (الربط بين ركني الجملة الاسميّة) إذا أريد أن يكون الخبر مرتبطًا بالمبتدأ ارتباطًا مطلقًا من غير تصريح بذكر زمان ، ففي هذه الحالة يؤتى بلفظة (هو) فيقال : هذا هو المتكلّم ، وهذا هو الشاعر ، والظاهر من هذين المثالين اللذين مثل بهما الفارابي أنّ الضمير فيهما إنّما جاء للفصل لتأكيد معنى الخبر بعده .

(١) انظر « الضائرات في اللغة العربية » د. محمد عبد الله جبر ، ١٤٠ .

(٢) انظر « التطور النحوي للغة العربية » لبرجستراسر ، ط السباح ، القاهرة ، ١٩٢٩ م . ص ٨٨ .

(٣) « الضمير بنيت ودوره في الجملة » ١٢٣ . وانظر :

- E. Benveniste: Problèmes de linguistique générale, I , Editions Gallimard. 1966, P: 188 – 189 .

وتسمية الفارابي له بـ (الرابط) ؛ لأنه يربط المحمول بالموضوع متى كان المحمول اسماً. يقول الفارابي : « ولم يجدوا في لغة العرب منذ أول ما وُضعت لفظة ينقلوها بها الأمكنة التي تُستعمل فيها (استين) في اليونانية ، و (هست) بالفارسية فيجعلوها تقوم مقام هذه الألفاظ في الأمكنة التي يستعملها فيها سائر الأمم ، فبعضهم رأى أن يستعمل لفظة (هو) مكان (هست) بالفارسية ، و (استين) باليونانية ، فإن هذه اللفظة قد تستعمل في العربية كناية [أي : ضميراً] في مثل قولهم : (هو يفعل) ، و (هو فعَل) ، وربما استعملوا (هو) في العربية في بعض الأمكنة التي يستعمل فيها سائر أهل الألسنة تلك اللفظة المذكورة . وذلك مثل قولنا : (هذا هو زيد) فإن لفظة (هو) بعيد جداً في العربية أن يكونوا قد استعملوها ههنا كناية . كذلك : (هذا هو ذاك الذي رأيته) ، و (هذا هو المتكلم يوم كذا وكذا) ، و (هذا هو الشاعر) ، وكذلك : (زيدٌ هو عادل) وأشباه ذلك ... »^(١) .

ويظهر من كلام الفارابي أن لفظة (هو) المستعملة ضميراً في العربية ، مثل : (هو يعمل) ، و (هو فعَل) قد تستخدم رابطاً في بعض التراكيب ، مثل : (هذا هو الشاعر) و (هذا هو المتكلم) . وفي هذه الحالة تكون العربية كسائر اللغات التي تستعمل الرابطة أو فعل الكينونة .

ويقصد الفارابي هنا بـ (الرابطة) معنى الفصل ، وهو الدلالة على خبرية ما بعد (هو) لما قبلها . ويدلّ على ذلك قوله فيما سبق : « فإن لفظة (هو) بعيدٌ جداً في العربية أن يكونوا قد استعملوها ههنا كناية » ، أي : ضميراً^(٢) .

(١) « الحروف » لأبي النصر الفارابي ، تح : محسن مهدي ، ١١٢ .

(٢) انظر « من قضايا اللغة » ٢٥ ، ٢٦ .

يستتج من ذلك أنّ لأداة الربط محلاً مملوءاً أو شاغراً ، وهو ما يفسّر قراءة بعض الآيات القرآنية بضمير الفصل أو بدونه ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ الحديد : ٢٤ ، « قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ، من دون ضمير فصل ، وكذلك هو مرسوم في مصحف المدينة ومصحف الشام ، وقرأ الباقر : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ بضمير الفصل بعد اسم الجلالة ، وكذلك هو مرسوم في مصاحف مكة والبصرة والكوفة ، فهما روايتان متواترتان ^(١) .

والملاحظ في استعمالنا الحديث هو التزام ضمير الفصل بين المعرفتين نحو : (محمد هو القادم) ، و (عليّ هو الذي زارني) . ويكاد الاستغناء عنه ينعدم .

وهذه الوظيفة من أهم وظائف ضمير الفصل ، إذ تعيننا في جانب التحليل النصي للبنية الإحالية لضمير الفصل ؛ وذلك لإسهامها في عملية الترابط والتماسك بين عناصر النص ومكوناته .

ويرى د. فالح العجمي أنّ وظيفة هذا الضمير تتركز في تحديد إطار العلاقة الإسنادية بين عنصري التركيب الأساسيين (المبتدأ والخبر) ، إذ يبقى اللبس موجوداً ، أو تظلّ الإمكانات المتعددة لفهم التركيب قائمة من دون إدخال ضمير الفصل الذي يبيّن أنّ ما بعده يتبع الشقّ الثاني من التركيب (أو عناصر الجدة في الحديث) ، ويكون ذلك على وجه الخصوص في النصوص المكتوبة التي تفتقد العناصر الصوتية المساعدة في تبين دعائم التركيب الأساسية ^(٢) .

كما يرى أنّ ضمير الفصل يردّ دائماً بصورة مستقلة من جميع الضمائر العربية ، كما لا

(١) « الميسر » و « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ١٢٣ ، وانظر « التحرير والتنوير » ٢٧ : ٤١٤ .

(٢) انظر « أسس اللغة العربية الفصحى » أ.د. فالح العجمي ، الرياض ، ٢٠٠١ م . ص ٢٠١ .

يعني قيامه بتلك الوظيفة الأساسية أنّ التركيب يكون دائماً بحاجة إليه ليتبين حدود العناصر الرئيسة فيه ، إذ إنّ وظيفته الأساسية في التراكيب التي تتكوّن من عنصرين فقط من العناصر القابلة لتكوين الإسناد تكاد تكون معدومة ، ويتحوّل في تلك الحال إلى عنصر تأكيد أو تفخيم مقارِباً ما يقوم به ضمير الشأن في بعض حالاته .

أمّا في حال وجود ثلاثة عناصر من النوع المذكور أعلاه أو أكثر فإنّ دوره يكون مهماً جداً وأساسياً في التركيب ^(١) .

ولا بدّ من العناية بالجانب السياقي في هذا المقام ، فإنّ للسياق أثراً كبيراً في وظيفة ضمير الفصل ، يمكننا أن نكشف عنها من خلال الوقوف على الوظائف السياقية لضمير الفصل في الآتي :

١ - السياق القرآني العام :

ويمكن تسميته بـ (السياق القرآني البعيد) مقارنة بـ (السياق القرآني القريب) الذي سيأتي بيانه ، ولكن قد لا تبعد الآيات المؤثرة في وجود الفصل عنه كثيراً ، فتسميته بالسياق العام هي الأنسب ^(٢) .

من ذلك قول الله تعالى في قصّة موسى عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا أَنهَا تُودَى يَمُوسَى ۝١١ ﴾^(١١)
 ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ ﴾^(١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۝١٣^(١٣)
 ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝١٤ ﴾^(١٤) طه : ١١ - ١٤ ، جاءت هذه الآيات مصرّحة بتوكيد ذات الله جلّت قدرته ، ويبدو ذلك من خلال تعدّد ضمائر

(١) انظر « أسس اللغة العربية الفصحى » ٢٠٢ .

(٢) انظر « الوظيفة السياقية لضمير الفصل » محمد الهيتي ، ١٢٤ .

المتكلم وتوكيدها بغير مؤكّد ، وآته المتفرد بالألوهية ، ثم جاء بالفصل في موضعين متقاربين ؛ لأن سياق الآيات التي سبقت هذه جاءت في صفات الخالق جلّ وعلا ، قال تعالى : ﴿ طه ١ ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۖ ﴿ ٢ ﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿ ٣ ﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفَلَائِي ۚ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿ ٥ ﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿ ٦ ﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿ ٧ ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿ طه : ١ - ٨ .

فقد « أتى بالضميرين توكيداً ؛ لأنّ المنادى هو الله ، وأنّ المراد بالربّ المذكور قبله هو الله ، لا ما يحتمل لفظ الربّ مما سوى الله » ^(١) ، وهذا الكلام على الآيات الأولى المشتملة على ضميري الفصل ، وهما ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ و ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ آل عمران : ٦٢ ، « إنّ هذا ، أي : ما قصّ من نبأ عيسى ومريم (هو القصص الحقّ) بجملتها خبر إنّ ، أو (هو) فصل يفيد أنّ ما ذكره من شأن عيسى ومريم حقّ دون ما ذكره » ^(٢) . إذ إنّ سياق الآيات يتحدّث عن عيسى ومريم عليهما السلام ^(٣) ؛ وذلك أنّ اليهود والنصارى قد خاضوا في أحاديث عنهما ليست صحيحة ، فجاء الفصل ليؤكد أنّ حديث القرآن الكريم عنهما هو

(١) « الأقصى القريب في علم البيان » لزين الدين التنوخي ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط ١ ، ١٣٢٧ هـ ، ص ٧١ .

(٢) « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » للبيضاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٨ م ، ١ : ١٦٣ .

(٣) انظر الآيات ٤٢ - ٦١ من سورة آل عمران ففيها القصة ، ومنها يلتبس السياق المشار إليه .

الحديث البين والقصص الحق لا ما يدعون^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَلَئِنْ رَأَيْتَ لَهَوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الشعراء: ٨ - ٩. جاءت الآية في ثنائية مواضع؛ لأن سياق ما قبلها في كل مرة يجعلها متمكنة في موضعها، لا يلمح فيها أثر التكرار، وهو أسلوب قرآني فريد، إذ لا نشعر بالسآمة والملل بهذا التكرار، بل يرى القارئ نفسه أمام صورة جديدة، وسبب ذلك المعاني التي تكتسبها الآية المكررة من سياق الآيات التي قبلها.

إذ يقول تعالى في الموضع الأول: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ تُحَدِّثُ إِلَّا كَانُوا عَنْتُهُ مُعْرِضِينَ﴾ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذِي زَنْجٍ كَرِيمٍ الشعراء: ٥ - ٧. ثم نلاحظ أنه قد تكرر في موضع ثانٍ تحدث فيه عن موسى - عليه السلام - ونجاته من فرعون، ثم كررها «عقب كل ما يجدر أن يكون عظة يعتبر بها كتصوير جند إبليس وقد كبكبوا في جهنم وأخذوا يختصمون فيما بينهم... وكررها عقب قصة صالح ولوط وشعيب - عليهم السلام -، وختتم الآية بوصفه تعالى بالعزة والرحمة فيه كل المناسبة للحديث عن سير الكافر والمؤمن، فهو عزيز يعاقب الكافر، ورحيم بمن آمن»^(١).

والتحقيق أن الآية قد كررت بعد كل قصة من قصص الأنبياء: موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط - على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام - ثم أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب - عليه السلام -، وعلى ما ذكرنا من الترتيب وفي كل آية يذكر ما كان من شأن أقوام هؤلاء الأنبياء من تكذيب رسلهم، ثم نزول عذاب الله على

(١) انظر «الوظيفة السياقية لضمير الفصل» ١٢٤.

(٢) «أسرار التكرار في لغة القرآن» محمود السيد شيخون، ٥٣.

هؤلاء القوم وتأبيده سبحانه نبيه بالحق والعزة ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تُنْقَوْنَ (١٧٧) إِلَىٰ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ يَمَانِي عَمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ الشعراء : ١٧٦ - ١٩١ . جاء بالفصل المؤكّد باللام ؛ لأنّ سياق الآية في تكذيب تلك الأقوام رسلهم ، ثمّ ما جرى عليهم من العذاب ، فإنّ الله ناصر أنبيائه وهو العزيز ، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء ، وأولى الناس بعزّته هم رسله الذين يبلغون رسالاته ، فتكرار الفصل مع كلّ قصّة أفاد ذلك ، وهذا أبلغ دليل على كمال كلامه سبحانه مكرّرًا - كما كان يبدو لنا - أو غير مكرّر ؛ لذلك قال بعد الآية الأخيرة : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الشعراء : ١٩٢ ، وقد صدق وأتى من الحجّة والبيان شاهدًا على أنّه من عنده ، سبحانه وتعالى (١) .

٢ - السياق القرآني القريب :

قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ المائدة : ١١٦ ، السياق القريب أثر في وجود الفصل في هذه الآية المؤكّد صفة علمه تعالى الغيبات وآته المختصّ بها ، فقبله قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

(١) انظر « الوظيفة السياقية لضمير الفصل » ١٢٦ ، ١٢٧ .

قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ المائدة : ١١٦ ، فالآية المشتملة على الفصل قد أكدت الجملتين اللتين سبقتا جملة العلم ، وأن هاتين الجملتين قريبتان من جملة الفصل ، وسياقهما في العلم الذي أكدّه الفصل وخصّصه بعلام الغيوب في نهاية الآية .

وَقُرِئَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ على الاستفهام والاستخبار^(١) ، وحجة من قرأ على الخبر أنهم لما عرفوا يوسف ، وتيقنوا أنه هو ، أتوا بـ (إن) التي لتأكيد ما بعدها ، واستغنوا عن الاستخبار لأنه شيء قد ثبت عندهم ... وحجة من استفهم أنه أتى بلفظ الاستفهام الذي معناه الإلزام والإثبات ، لم يستخبروا عن أمر جهلوه ، إنما أتوا بلفظ يحققون به ما صحّ عندهم من أنه يوسف^(٢) ، يحقق ذلك - في الأمرين كليهما خبراً كان أم استفهاماً - سياق الآيات القريب من هذه الآية ، فبعد أن دعاهم أبوهما لأن يذهبوا ويتحسسوا من يوسف وأخيه قال : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الْقَهْرُ وَجِئْنَا بِضَلَعٍ مُرْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفُ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا لَوْ أَنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ يوسف : ٨٨ - ٩٠ . السياق كله إلى نهاية الآية (٨٩) يجري في إخفاء شخص النبي يوسف - عليه السلام - ، حتى وصل إلى ذروة ذلك بأن وسط الفصل بين الكاف ويوسف ، وأدخل عليه اللام ، فمن قرأ على

(١) انظر « الحجة في القراءات السبع » ابن خالويه ، ١٩٨ ، و« التيسير في القراءات السبع » للداني ،

(٢) « الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها » مكي القيسي ، ١٤ : ٢ .

الخبر كان يريد إزالة الشكوك في أنه يوسف ، وقد دلّ السياق القريب عليه ، ومن قرأ على الاستفهام كان مجارياً لسياق تلك الشكوك ، لكنه كان مع الإثبات أنه يوسف أميل ، وآية ذلك أنه أكدّه بـ (إن) المحققة ، وباللام الداخلة على الفصل ؛ إذ التوكيد لا يشاكل الاستفهام ، لكن إخوته كانوا يريدون تحقيق ما ثبت في نفوسهم ، وإن جاؤوا به على غير المعهود ، وأمثال ذلك في القراءات القرآنية كثير ^(١) .

٣ - السياق التقابلي :

نجد في النظم القرآني آيات متشابهة ومتوامة بصورة ليس فيها لبس في أن نظم الآيتين وغرضهما واحد ، إلا في وجود الفصل في إحداها وخلق الأخرى منه ، فما الداعي لوجوده في الأولى وعدمه في الثانية ؟ يظهر جواب ذلك في مقابلة سياق الآيات التي تشمل الفصل مع الآيات التي لا تحتويه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ مريم : ٣٦ ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ آل عمران : ٥١ ، وقال في آية ثالثة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ الزخرف : ٦٤ ، فالآيتان الأوليان قد خلتا من الفصل ، فيما اشتملت الثالثة عليه ؛ لأن آية الزخرف قد قيلت في سياق عيسى - عليه السلام - واتخاذه إلهًا من دون الله ، فناسب ذلك توكيد الربوبية وإثباتها له تعالى ، ونفي الأبوة ، تعالى الله عما يقولون ^(٢) .

(١) انظر مثلاً : البقرة : ٣٧ ، المؤمنون : ١١١ ، الطور : ٢٨ ... وغيرها .

(٢) انظر « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » للفيروزآبادي ، ١ : ١٦٤ ، و « التعبير القرآني » لفاضل السامرائي ، ١٣٤ - ١٣٥ . و « الوظيفة السياقية لضمير الفصل » ١٣١ .

ضمير الشأن

١ - تسميته :

هناك نوع من الضمائر يسميه النحاة (ضمير الشأن) و (ضمير الحديث) و (ضمير القصة) .

وهو ضمير مفرد غائب ، يتقدّم في الغالب الجملة ، وينبّه إليها ، ويكون مبتدأ فيما تكون هي خبرًا ، فأنت حين تقول : (هو الموت لا يترك حيًّا) ، تركّب ضميرًا في الصدر مع مركّب إسنادي هو في الأصل جملة مستقلة (الموت لا يترك حيًّا) ، تخزن فيه معنى جليلاً في حجم القصة والحكاية مستخلصاً من الملاحظة ، ومن تجربة الإنسان في الكون^(١) .

وينسب بعض النحاة إلى الكوفيين أنهم يسمونه (الضمير المجهول) .

قال الرضي : « وهذا الضمير يسمّيه الكوفيون ضمير المجهول ؛ لأنّ ذلك الشأن مجهولٌ لكونه مقدّرًا إلى أن يُفسّر »^(٢) ؛ « ولأنّه لم يتقدّمه ما يعود إليه »^(٣) .

وفي تسمية ضمير الشأن بالضمير المجهول إشارة إلى قوّة الإبهام فيه « لأنّه لم يتقدّمه ما يعود عليه » ؛ أي بسبب تقدّمه على المفسّر شأنه في ذلك شأن المبهات باستثناء

(١) انظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ١٠٩ .

(٢) « شرح الرضي لكافية ابن الحاجب » ٣ : ١٨٠ .

(٣) انظر « الضمير بنيته ودوره في الجملة » ١٠٩ .

الضمائر العادية . وهذا يعني أنه ليس معوضاً (Substitut) ، بل وظيفته الإشارة إلى اللاحق ، أي: إلى الجملة في الغالب لأهمية فحواها ، فهي موضوع الخبر ، ومدار الحديث ، يقدم إليها المتكلم بضمير مجهول مبهم ، ويشير به إليها لضرب من المبالغة والتهويل وتعظيم معناها ، و « القصْدُ بهذا الإبهام ثم التفسير تعظيم الأمر وتفخيم الشأن ، فعلى هذا لا بد أن يكون مضمون الجملة المفسّرة شيئاً عظيماً يُعتنى به ، فلا يقال مثلاً : هو الذباب يطير » ^(١) .

٢ - البنية الإحالية لضمير الشأن :

يشكّل ضمير الشأن بنية إحالية ذات وظيفة خاصّة ، حرص النحاة على تأكيدها ، وهم يتفقون أساساً في أنه مبهم ، وغائب ، ومفرد ، ويتصدّر الجملة ، ويفسّره ما يليه ، ويقصد به التعظيم والتفخيم . وهو بذلك يخالف الضمائر الأخرى في أشياء ويتفق معها في أشياء أخرى .

فالضمير عادة ما يفسّره ظاهرٌ يتقدّم عليه ، وهو يحيل عليه ، وبخاصة ضمائر الشخص .

أمّا ضمير الشأن فله استخدام خاصّ ، إذ إنه كناية عن الجملة خبراً له وتفسيراً له أيضاً ؛ ولذا يطلق عليه (ضمير الجملة) .

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ المؤمنون : ٣٧ : « هذا ضمير لا يُعلم ما يُعنى به إلا بما يتلوه من بيانه ، وأصله : إن الحياة إلا حياتنا الدنيا ، ثم وضع (هي) موضع الحياة ؛ لأنّ الخبر يدلّ

(١) « شرح الرضي لكافية ابن الحاجب » تع: د. يحيى مصري ، ٣ : ١٧٨ .

عليها ويبيّنها ، ومنه : (هي النفس تحمل ما حملت) ، و (هي العربُ تقول ما شاءت) ، والمعنى : لا حياة إلا هذه الحياة ...^(١) ؛ لأنّ الإجمال ثم التفصيل بعده بقصد التفخيم بذكر الشيء أولاً مبهماً ثم تفسيره بعد ذلك ، فيكون شوق النفس إليه أشدّ ، وتطلّعها إلى التفسير أقوى ، فيكون إدراكه وفهمه أوضح بسبب ذكره مرتين ، مجملًا فمفصلاً ، أو مبهماً فمفسراً^(٢) .

وقال السيوطي في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : (هو) ضمير الشأن والحديث ، أضمّر ولم يتقدّمه مذكور ، وفّسره ما بعده من الجملة .

غير أنّ تمييز النحاة له عن غيره من الضمائر بجعله يفسّر بما يليه موضع نظر ، فقد ذهب د. خليل عناية - وربّما تؤكد الدراسة التحليلية الآتية صحة ما ذهب إليه وتدعمه - إلى ضرورة النظر إلى السياق ككل وعناصر البنية التي يدخل معها ضمير الشأن ، والمناظرة بين أبنية التوكيد المختلفة التي تضمّ ضمير الشأن في الغالب (إن ، قل) ، يقول : « لكن هذا الموضح ليس بالضرورة أن يكون متقدّمًا عليه ، بل نرى أنّه إن عاد على متقدّم ، فقد جاء من قبيل توكيده بتكرار ذكره ،... وأنّه إن عاد على متأخر عنه فقد جاء الظاهر مفسراً وموضحاً... وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَوْرُ ﴾ يوسف : ٩٨ ، فالضمير المتصل مبهم ، أمّا الضمير المنفصل فمعلوم ؛ لأنّه يعود على معلوم بيّنه السياق ، فكانت قيمة المنفصل للمتصل هي التفسير والتوضيح ، فهي - كما

(١) « النحو الوافي » ١ : ٢٥٩ .

(٢) « الكشف » ٣ : ٢٩٢ . وانظر « البنية الدلالية والإحالية للضمائر » ٥٩ - ٦٠ .

هي الحال في كلمة (الله) من قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ - بدل من الضمير أو مفسر له ^(١) .

وعلى الرغم من أننا نخالفه في كيفية إثبات صلة ضمير الشأن بالمحيل إليه من خلال وسائل مختلفة يتيحها السياق اللغوي أو السياق غير اللغوي ، فقد فطن إلى دلالة التفسير أو التوضيح العامة ، وإلى ضرورة مراعاة البنية الإحالية داخل السياقات التي وردت فيها ، وليس بصورة الجمل المعزولة كأنتها أعضاء مبتورة من بنيان حي .

وقد لا يجدي تعقب أوجه الخلاف حول عودة ضمير إليه من الجملة المفسرة ، إذ لا بدّ من وجود صلة بينه وبين الجملة التي تليه صريحة أو ضمنية ، وهو أمر يكشف عنه الدرس التحليلي لأبنية الإحالة في سياقات مختلفة ، ولكن القيود التي وضعها النحاة له ، وهي في أغلبها دقيقة تحتاج إلى إعادة نظر ، فمثلاً ما معنى قولهم : يختار تأنيث الضمير لرجوعه إلى مؤنث ، أي القصة ، إذا كان في الجملة مؤنث عمدة ؟ وما معنى الإشارة إلى السياق المهتمّ لهذا الاستعمال ؟ ثمة عناصر أخرى يجب مراعاتها عند تفسير هذا الضمير إذن . وربّما تتأكد تلك الصلة الحميمة بين الجزأين ، العنصر الإحالي (الضمير) والعنصر الإشاري (الجملة المفسرة) في إصرار النحاة على توحيد الضمير والربط بين الإبهام والتفسير ، والصلة المعنوية بين الجزأين ، وإدخال عامل القصد في الاستعمال . ولكن المفسرين أضافوا عناصر دلالية وسياقية حين فسروا بعض أبنيته .

فالتكلّم يقصد إلى توجيه نظر السامع إلى أنّه يعدل عن استخدام السياق المألوف إلى سياق آخر يلائم طبيعة الخبر المنقول ، ويكون الإبهام في الضمير دافعاً إلى إزالته بجملة لا تستخدم إلّا في مواضع التعظيم في الأغلب . ولم يخرج أحد من النحاة على ضرورة

(١) « آراء في الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث » ٧٨ .

أن تحمل الجملة المفسرة هذا المضمون ، وقال الرضي : « والقصد بالإبهام ثم التفسير تعظيم الأمر وتفخيم الشأن ، فعلى هذا لا بد أن يكون مضمون الجملة المفسرة شيئاً عظيماً يعتنى به »^(١).

ويفسر ذلك بأنه ربما قصد بوضع ضمير الشأن في مقدمة الجملة شدّ الانتباه بالإبهام إلى ما يليه ، رغبة في تعظيم شأنه وتفخيمه ، أو أن يصبح ذهن السامع في غاية التنبيه والترصد لما سيبين الضمير وما يكشف فيه من غموض .

وعلينا إذن أن نتبين هذا الدور من خلال هذا الاستخدام إلى أمر عظيم بالإضافة إلى القيود التي وضعها النحاة له ، ومنها أنه لا يعود إليه ضمير من الجملة المفسرة التي هي خبره ، ولا يبدل منه ، ولا يؤكد ، ولا يقدم الخبر عليه^(٢) .

وربما تملّي السياقات القرآنية على هذا الضمير دلالة لازمة غالبية بإشارته إلى ذاته العلوية أو أفعاله الخاصة ، ولكن السياقات الأخرى تقدم دلالات مختلفة قد لا تتفق مع قيد النحاة السابق . ولا خلاف أن الإحالة في بنية ضمير الشأن هي إحالة إلى متأخر أو لاحق ، ولكن يلحظ أنها تتضمن الإحالة إلى عنصر إشاري خارج النصّ القرآني هو الذات الإلهية حين لا يذكر صراحة في الجملة المفسرة التالية ، كما أنّ بعض السياقات تتيح إيجاد صلة بين الضمائر ، كما يتبين من أقوال بعض المفسرين ، وكذلك تقدّم بعض السياقات صلة قوية بين بنية الإحالة لضمير الشأن والجملة السابقة عليها . ونبدأ هنا بالسياقات التي يرد فيها تمهيد للضمير الذي عدّه الكوفيون مجهولاً ، قال تعالى في قصة ابني آدم - عليه السلام - : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ

(١) « شرح كافي ابن الحاجب » ٢ : ٢٧ .

(٢) « شرح كافي ابن الحاجب » ٢ : ٢٦ ، ٢٧ . و« مع الموامع » ١ : ٦٧ .

نَفْسًا يَغَيِّرُ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴿المائدة: ٣٢﴾ ،
وقد تقدّم في السياق السابق لهذه الآية حديث عن القوم الذين وُجّه إليهم الخطاب ،
وهم (بنو إسرائيل) .

وفي قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا
يَجْهَلُ شَرَّ تَابٍ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الأنعام: ٥٤ . فالصلة قوية بين
رحمة الله وبين الرجوع عن فعل الشر .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٢٥ . فالصلة واضحة بين إرسال الرسل جميعًا والدعوة إلى عبادة
الله الواحد . ويلاحظ هنا استخدام ضمير الخطاب في مقابل ضمير الشأن كما في الآية
السابقة ، وفي قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ النحل: ٢ .

وفي قوله تعالى : ﴿ يَمْوَسِي إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ النمل: ٩ .

قال ابن الخشاب في تفسير هذا الاستخدام : ولم يقل : إني أنا الله ، ولو قاله لكان
المعنى في التفضيم على صحته دون المعنى في قوله : إنه أنا الله ، وذلك أنّ هذه الهاء ضمير
الأمر والشأن ، وضمير الأمر والشأن غير راجع إلى مذكور في اللفظ ، فهو ضمير مبهم ،
وقد دخل الكلام بذكره وتفسيره بالجملة بعده ^(١) .

وقد كانت تلك الصلة وراء عدم جزم النحاة في بعض الآيات ، واختلافهم حول
تحديد كنه الضمير المستخدم ، والإقرار باحتمالات عدّة ، من ذلك اختلافهم في قوله

(١) «المرئجل» ١٤٠، ١٤١ .

تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾^(١) الأنعام : ٣ . فالجمهور على أن (هو) ضمير عائد على ما عادت عليه الضمائر قبله ، وهو الله ، وقال أبو علي : هو ضمير الشأن ، و (الله) مبتدأ خبره ما بعده ، والجملة مفسرة لضمير الشأن وإنما قرأ إلى هذا ؛ لأنه إذا لم يكن ضمير شأن كان عائداً على الله تعالى ، فيصير التقدير : الله الله ، فينعتد مبتدأ وخبر من اسمين متحدين لفظاً ومعنى ، لا نسبة بينهما . وذلك لا يجوز^(٢) .

وفي ذلك الرد تجوز ؛ لأن ذكر لفظ الجلالة (الملك) بعد ضمير الشأن كما يتبين من النماذج الواردة ، يؤكد دلالة التعظيم والتفخيم ، وهي دلالة متصلة بالتوكيد الذي حرص أحد الباحثين على إثباتها في دراسته لضمير الشأن ضمن عدد من الضمائر العائدة . وتقدمت الإشارة إلى ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، وقد انتهى من تلك المقابلة التي عقدها بين آراء النحاة حول وظيفة هذا الضمير ، واستخراج الدور الدلالي له من عدة سياقات قرآنية إلى التعقيب على عبارة السيوطي بقوله : « ونرى أن هذا القول ينقض ما يراه النحاة في عدم ذكر ما يعود إليه ضمير الشأن في الجملة ، بل هو مذكور بعده مفسر له مبين أو معظم ومفخم »^(٣) .

ولكنه قصر الدرس على عودة الضمير على لاحق ، إذ رأى أن هذه القضية يجب أن تبحث في هذا الإطار ، كما أنه قيد نفسه بحدّ الجملة حين بحث عن القيمة الدلالية أو الدور الدلالي له في إطار الجملة فقط . وهو الأمر الذي جعل المفسرين يتجاوزون مقولات النحاة وقيودهم ، إذ إنهم يتعاملون مع نصّ كامل ويرفضون الوجه الواحد ،

(١) « البحر المحيط » ٤ : ٧٢ .

(٢) « آراء في الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث » ٨٠ .

ويطرحون عدّة احتمالات تميزها الآيات القرآنية ، ففي قوله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَوَلِيِّهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ تُخْشَرُونَ﴾ الأنفال : ٢٤ ، قيل : الظاهر أن الضمير في (أنه) عائد على الله ، ويحتمل أن يكون ضمير الشأن ^(١) .

وقيل في قوله تعالى : ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يوسف : ٢٣ : (إنه ربي) الشأن والحديث ^(٢) ، الأحسن في الضمير أن يعود إلى الله ، أي إن الله ربي أحسن مثواي ، أو يكون ضمير الشأن ، وعنى برّته سيّده العزيز ، فلا يصلح لي أن أخونه ^(٣) . وفي قوله تعالى : ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ مريم : ٦١ : (إنه) الهاء ضمير اسم الله تعالى ، ويجوز أن يكون ضمير الشأن ، فعلى الأول يجوز ألا يكون في (كان) ضمير ، ويجوز أن يكون فيه ضمير ^(٤) .

ونلاحظ هنا أن الدلالة العامة للسياق توجه المفسرين أو النحاة إلى عدّ هذا الضمير اسماً لله تعالى ، فالخطاب يتضمن أفعالاً تختص بالله وحده ، وسواء تقدّم عليها ما يشير إليه أو تأخر ، كما في قوله تعالى : ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِتَوِيلِنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الأنبياء : ٩٧ ، فقيل : (هي) عماد يصلح في موضعها (هو) . وهذا يعني أنها تناظر الهاء التي وردت في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ، وتناظر (ها) الواردة في قوله : ﴿فَإِنَّهَا لَا

(١) انظر « البحر المحيط » ٤ : ٤٨٢ .

(٢) انظر « الكشاف » ٢ : ٤٥٥ ، و « التبيان » للعكبري ، ٢ : ٢٧ .

(٣) انظر « البحر المحيط » ٥ : ٢٩٤ . وانظر « دراسات لأسلوب القرآن الكريم » ٨ : ١٤٩ .

(٤) انظر « التبيان » للعكبري ، ٢ : ٦٠ ، ٦١ .

تَعْمَى الْأَبْصَرُ ﴿١﴾ ، إذ يجوز أن يحیی ضمیر الشأن والقصة مذكراً أو مؤنثاً ، قال الزمخشري : ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً تفسره الأبصار ، فالأبصار مؤنثة ، ولذا جاء الضمير مؤنثاً ، وفي (تعمی) ضمير يرجع إليه ^(١) .

ويتعارض ذلك مع إصرار النحاة على ضرورة خلو الجملة التالية له من عائذ يعود إلى المبتدأ ؛ لأنها هو في المعنى ، قال ابن يعيش بعد تحليله لعدد من الأمثلة التي يرد فيها الضمير كناية عن الجملة ، وعدّه هذه الجملة خبراً (لأنّ كلّ جملة شأن وحديث) عن ذلك الضمير وتفسيراً له ، وضرورة توحيد الضمير : الهاء في ذلك كلّ ضمير الحديث وما بعده من الجملة تفسيراً له في موضع الخبر ، ولا يحتاج فيها إلى عائذ في الجملة ؛ لأنها هي الضمير في المعنى ^(٢) .

ما معنى قولهم إذن : إنّ (ها) في (فإنها) ضمير القصة ، وحسن التأنيث هنا ورجحه كون الضمير وليّة فعل بعلامة التأنيث ، ويجوز في الكلام التذكير ^(٣) .

وما معنى قول الفراء : وإن شئت جعلت (هي) في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ ﴾ الأنبياء : ٩٧ للأبصار ، كتبت عنها ثم أظهرت الأبصار لتفسرها ^(٤) .
غير أنّه في مواضع معيّنة يصرون على أنّ (الهاء) أو (هو) ضمير شأن ، ليس غير ، والجملة بعده خبر عنه ، ولا تحتاج إلى رابط . ويفسّر ذلك بوجود اسم صريح تالٍ له أو أن يتواليا أو أنّ المعنى لا يحتمل إلّا ذلك الوجه ، كما في الآيات الآتية :

(١) انظر «الكشاف» ٢ : ١٦٢ .

(٢) انظر «شرح المفصل» ٣ : ١١٤ .

(٣) انظر «البحر المحيط» ٦ : ٣٧٨ ، و«التيبان» ٢ : ٧٦ .

(٤) انظر «معاني القرآن» ٢ : ٢١٢ .

- قال تعالى: ﴿أَن أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ النحل: ٢ .
- وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ محمد: ١٩ .
- وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ آل عمران: ١٨ .
- وقال تعالى: ﴿يَتُوسَعُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ النمل: ٩ .
- وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (١٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (١١) وَأَنَّهُ خَلَقَ
- الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ النجم: ٤٣ - ٤٥ .

ويلاحظ هنا أن الأفعال التالية بعد الضمير (هو) المؤكدة حقيقة هي أفعال خصص الله بها نفسه . وقد بلغ الخلاف ذروته في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزْحَجِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ البقرة: ٩٦ . فقد قال الفراء: فالمعنى - والله أعلم - ليس بمزحجه من العذاب التعمير . فالضمير (هو) عائد على التعمير ، والتعمير مفسر للضمير مبين له وموضح^(١) .

وهذا يعني أن دلالة هذه البنية تناظر دلالة البنية الواردة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ البقرة: ٨٥ ، غير أنه قيل أيضًا: إن (هو) ضمير من التعمير الذي تضمنه قوله قبل (لو يعمر) ، و (أن يعمر) بدل من (هو) . أو (هو) راجع إلى (أحدهم) ، و (أن يعمر) فاعل لمزحجه^(٢) .

(١) انظر «معاني القرآن» ١: ٥١ .

(٢) انظر «شرح كافي ابن الحاجب» ٢: ٢٦ ، و«معاني القرآن» للزجاج ١: ١٥٤ .

وقيل : (هو) مفسره (أن يعمر) وهو بدل منه ، وأجاز أبو علي أن يكون ضمير الشأن، وفيه جنوح إلى مذهب الكوفيين الذين يجعلون مفسر ضمير الشأن الوصف مع مرفوعه^(١).

ولقد خرجوا أيضًا على قيد جوهري لهذا الضمير ، وهو أنه كناية عن جملة ، وهي تفسير له ، وما ترتب على ذلك عدم قبول تضمنها ضميرًا عائداً ؛ لأنها هي الضمير في المعنى ، فنجد في تفسير الزمخشري وإعراب العكبري أنه هذا الضمير المبهم يفسره مفرد ، أو كما قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّمَا لَطَىٰ ﴾ المعارج : ١٥ : ويجوز أن يكون ضميرًا مبهمًا ترجم عنه الخبر ، أو ضمير القصة^(٢).

وكما قال العكبري في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ الأنعام : ٢٩ : هي كناية عن الحياة ، ويجوز أن يكون ضمير القصة.

وما معنى قول الزمخشري : هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه . وفي ذلك خروج على القيد السابق الذي يوجب البصريون ، فليس ذلك المشار إليه من ضمير الشأن في شيء ؛ لأن مفسر الشأن لا بد أن يكون جملة مصرحاً بجزأها.

ويبقى أن نشير إلى ما يتيح هذا الضمير ، إذ إنه يتيح امتداد الخبر بعد (أفعال الخبر) مثل : قال ، علم ، كتب ... أو خبر مباشر من المخاطب ذاته ، أو تفسير ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ كَانُمْرَيْنِ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا ﴾ المؤمنون : ١٠٩ ، وقوله

(١) انظر « البحر المحيط » ١ : ٣١٥ .

(٢) انظر « الكشف » ٤ : ٦١٠ .

تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ الأنعام : ٣٣ ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَائِبِينَ رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ التغابن : ٦ .

وهكذا فلهذه البنية الإحالية وظائف عدة ، وليس من شك في أن النص القرآني يتيح إمكانات تفسيرية تجعل هذه البنية تتداخل مع أبنية إحالية أخرى ، حاول المفسرون أن يكشفوا عنها في حرية تجاوزت قيود النحاة . وربما تبين أنه على الرغم من أن ضمير الشأن (عنصر إحالي) يميل إلى لاحق (عنصر إشاري) وهو في الأغلب جملة مفسرة ، فإن البنية ككل لا تنفصل عن السياق أو المحيط التي ورد فيه ، يستوي في ذلك المتقدم أو المتأخر ، إذ توفر النصوص صلة ما مستمرة تجعل من هذه البنية وحدة ضرورية في موقعها ، وليست محشورة أو غريبة ، تحرق قانون التماسك أو الانسجام النصي^(١) .

(١) انظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » ١١٧ .

المبحث الثاني الإحالة باسم الإشارة

تمهيد :

لكل نوع من الأسماء المفردة خصوصية وضع لها ، يؤدّي بها المعنى على وجه لا يؤدّيه غيره ، والنص البليغ هو الذي تؤدّي فيه هذه الخصوصيات مهماتها على الوجه الصحيح الدقيق .

واسم الإشارة وضع ليشار به إلى حاضر مشاهد ، أو غائب عُرفت صورته ، فيذكر بها كأنّها حاضرة مشاهدة .

ومن هذه الخصوصية تتفرّع كل الفوائد التي يؤدّيها هذا الاسم ، فهو يميّز صاحبه أكمل تمييز ، ويصوّره ذاتاً وأوصافاً ، وكثرة وقلة بكل تفصيلاته ، فهو أداة تصوير للذوات والأوصاف دقيقة، تبرز ما فيها من حسن وقبح ، وعظمة وضعيّة ، وتظهر صحّة ما تُنسب إلى صاحبها من أحكام تناسب صفاته ، أو خطأ ما تُنسب إليه من أحكام لا تناسب صفاته .

وهو أداة إيجاز تشير إلى الأشياء والأوصاف والأفعال والأحداث الكثيرة بلفظ وجيز^(١). وذلك ما سأعرض له في هذا المبحث .

والذي يهمني في هذا الصدد استعمال اسم الإشارة في عملية الربط والإحالة ليس على مستوى الجملة فحسب ، بل على مستوى النص ، حيث يعقد صلة معنوية بينه وبين مجموع كلام سابق ، أو مضمون كلام متقدّم^(٢) ، بحيث يكون جسراً مهماً بينهما لا يجوز الاستغناء عنه ، ولو سقط لانقطع الاتصال الشكلي والمضموني بين أجزاء الكلام ، ولاختل التماسك والانسجام فيه .

تعريف اسم الإشارة :

هو اسم وضع لمسمى يشار به إليه ، مبهمٌ ؛ لوقوعه على كل شيء ، معرفةٌ ؛ لحضور ما يقع عليه والإشارة إليه^(٣) .

وعرفه الفاكهي بقوله : « هو اسم مظهر دلّ بإيحاء - أي إشارة - على اسم حاضر

-
- (١) انظر « المباحث البلاغية في تفسير الطبري : علم المعاني » د. محمود الزين ، ١ : ١٧٠ . رسالة دكتوراه، من جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، قسم البلاغة والنقد ، ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٣ م .
- (٢) انظر « ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي : دراسة في العلاقة بين البنية والدلالة » د. سعيد بحيري ، ٢٤٤ .

(٣) انظر « مع الموامع » ١ : ٧٤ . و « المقتضب » للمبرد ، ٣ : ١٨٦ . والمراد بالإشارة هنا في الأصل الإشارة إلى محسوس ، وإلا لدخلت المضمرات وجميع المظهرات في ذلك الحد ؛ لأن المضمّر يشار به إلى المحال عليه ، فالمراد بالإشارة هو الإشارة الحسية ، ولم يقيّدوا ذلك في التعريف لأن مطلق الإشارة حقيقة في الحسية دون الذهنية ، فالأصل في أسماء الإشارة أن يشار بها إلى مشاهد محسوس قريب أو بعيد ، فإن أشير بها إلى غير محسوس ، أو محسوس غير مشاهد ، فلتصيره كالمحسوس المشاهد . انظر « تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد » للدماميني ، ٢ : ٣٠٩ .

حضوراً عينياً ك﴿هَذَا أَلْبَيْتِ﴾ قریش: ٣، أو ذهنيّاً نحو: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾^(١) مريم: ٦٣، أو على اسم منزل منزلة الحاضر، كقوله^(٢): «أولئك آبائي فجئني بمثلهم»^(٣).

وقد أدرج بعض النحاة القدامى الحديث عن أسماء الإشارة في باب المبهات من المعارف، وأطلقوا على اسم الإشارة مصطلح (الاسم المبهم)^(٤)، فالأسماء المبهمة بحسب مسرد سيبويه لها هي: «هذا، وهذان، وهذه، وهاتان، وهؤلاء، وذلك، وذانك، وتانك، وتيك، وأولئك، وهو، وهما، وهم، وهنّ، وما أشبه هذه الأسماء»^(٥).

وقال السيرافي معلقاً على هذا المسرد: «ترجم الباب بما ضمّنه من الأسماء المبهمة وفصلها ومثلها ووصل بها ما ليس بمبهم من الأسماء المضمرة: هو وهي (... إلخ)، وإنّا خلطها بالمبهمة لقرب الشبه بينهما، ولأنّه بنى عليها مسائل في الباب، وعلى أنّ أبا

(١) الإشارة هنا قد وقعت على محسوس غير مشاهد، وقد عدل هنا عن الأصل لتصيير المشار إليه بمنزلة المشاهد، ومثله إن أشير بهذه الأسماء إلى ما يستحيل إحساسه ومشاهدته نحو: ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ﴾ يونس: ٣، و﴿ذَلِكَمًا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ يوسف: ٣٧. انظر «شرح الرضي لكافية ابن الحاجب» ١٨٦: ٣.

(٢) أي الفرزدق. انظر «ديوانه» ١: ٤١٨.

(٣) «شرح الحدود النحوية» للفاكهي، تح: د. صالح العايد، ٣٠٧.

(٤) انظر «ثمار الصناعة في علم العربية» للجليل الحسين بن موسى الدينوري (ت ٤٩٠ هـ تقريباً)، تح: د. محمد الفاضل، ١٥٦، ١٥٨. ويرى بعضهم أنّ الاسم المبهم هو ما احتاج في بيانه إلى صفة أو صلة، فالذي يحتاج إلى صفة هو اسم الإشارة، والذي يحتاج إلى صلة هو الاسم الموصول. انظر «القواعد والفوائد في الإعراب» لأبي محمد الخواراني الشوكاني (ت ٥٧١ هـ)، تح: د. عبد الله الخثران، ١٢٩. وانظر «نتائج الفكر» ٢٢٧.

(٥) «الكتاب» ٢: ٧٧-٧٨.

العباس المبرد قال: علامات الإضمار كلها مبهمة ، والمبهم على ضربين : منه ما يقع مضمراً ، ومنه ما يقع غير مضمّر ، وإنما صارت كلها مبهمة من قبل أن (هو) وأخواتها ، و(هذا) وأخواتها تقع على كل شيء ، ولا تفصل شيئاً من شيء من الموات والحيوان وغيره ^(١) .

وتسميتهم هذه الأسماء بـ (المبهمة) مأخوذة من : (أبهمتُ الباب) إذا أغلقته ، و(استبهمت عليّ الجواب) أي : استغلق . وكذلك هذه الأسماء إنما وضعت في الأصل لما استبهمت على المتكلم اسمه ، أو أراد هو إبهامه على بعض المخاطبين دون بعض ، فاكتمى بالإشارة إليه ، أو كانت الإشارة إليه أبين من اسمه عند المخاطب ^(٢) .

ويرى الرضي أنها سميت مبهمات مع كونها معارف ؛ « لأن بحضرة المتكلم أشياء كثيرة يحتمل أن تكون مشاراً إليها » ^(٣) .

وقد علق فارنر ديم (W. Diem) على ما رآه النحاة من أن أسماء الإشارة مبهمة تقع على كل شيء قائلاً : « ولن يكون لهذا الرأي أي قيمة إلا إذا نزعنا أسماء الإشارة من سياقها في الجملة ، ووضعناها وحدة معجمية معزولة في مقابل الأسماء ، أي : إذا جمعنا مجال الإشارة (Zeigfeld) ومجال الرمز (Symbolfeld) في اللغة - على نحو غير جائز - في صعيد واحد ، وعالجنا الكلمات الإشارية

(١) « الكتاب » ٢ : ٧٧ .

(٢) انظر « نتائج الفكر » ٢٢٧ .

(٣) « شرح الكافية » ٢ : ١٣٠ . وانظر « شرح المفصل » ٣ : ١٢٦ ، و« التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل » د. محمود نحلة ، ٣٢ .

(Zeigwörter) من وجهة نظر المجال الرمزي ، في ضوء هذا قد يكون من الجائز أن تكون أسماء (Namen) تقع على أي شيء^(١) .

إنّ هذه الألفاظ توجد في المعجم الذهني من دون أن ترتبط بمدلول ثابت ، فلا يتضح مدلولها إلّا من خلال التلفّظ بالخطاب في سياق معيّن . ثمّ إنّ إبهام هذه الأدوات يكمن في كونها لا تدلّ على غائب عن الذاكرة أو عن النظر الحسيّ ، فالتلفّظ بها يجب أن يكون في سياق يحضر فيه أطراف الخطاب حضوراً عينيّاً ، أو حضوراً ذهنيّاً ؛ من أجل إدراك مرجعها ، « ويقال لهذه الأسماء مبهمات ؛ لأنّها تشير بها إلى كل ما بحضرتك ، وقد يكون بحضرتك أشياء فتلتبس على المخاطب ، فلم يدر إلى أيّها تشير ، فكانت مبهمة لذلك ، ولذلك لزمها البيان بالصفة عند الإلباس ، ومعنى الإشارة الإيحاء إلى حاضر بجارحة أو ما يقوم مقام الجارحة فيتعرّف بذلك ، فتعريف الإشارة : أن تخصّص للمخاطب شخصاً يعرفه بحاسة البصر »^(٢) .

يدلّنا هذا على أنّ رافع الإبهام عن أسماء الإشارة يكون من العهد الحضوري دون العهد المقالّي القائم على التقدّم في الذّكر .

ويتّضح مما سبق أنّ أسماء الإشارة علامات لغوية لا يتحدّد مرجعها إلّا في سياق الخطاب التداولي ؛ لأنّها خالية من أي معنى في ذاتها ، وعلى الرغم من ارتباطها بمرجع فإنّه مرجع غير ثابت ؛ لذلك « يتفق النحاة جميعاً على أنّ الأسماء المبهمة يعني بها أسماء

(١) « الاسم والصفة في النحو العربي والدراسات الأوروبية » د. محمود نحلة ، الإسكندرية ، ١٩٩٤م ، ص ٩٩ . وانظر « التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل » ٣٢ .

(٢) « شرح المفصل » لابن يعيش ، ٣ : ١٢٦ . وانظر « إستراتيجيات الخطاب » ٧٩ ، ٨٠ .

الإشارة ، وقد خصّ بعضهم المبهمات بأسماء الإشارة وحدها ^(١) كما رأينا .

ونلاحظ أنّ الغالب على حديث النحاة عن الإشارة حصرهم إيّاها في الإشارة الحسية ، قال التهانوي : « عند النحاة قسم من المعرفة ، وهو ما وضع لمشار إليه أي لمعنى يشار إليه إشارة حسية بالجوارح والأعضاء ؛ لأنّ الإشارة حقيقية في الإشارة الحسية ، فلا يرد ضمير الغائب وأمثاله فإنّها للإشارة إلى معانيها إشارة ذهنية لا حسية ، ومثل ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم ﴾ الأنعام : ١٠٢ . مما ليست الإشارة إليه حسية محمول على التجوّز » ^(٢) .

وقد اعتمد النحاة الإشارة الحسية لاعتبار التمييز الحاصل باسم الإشارة من باب التعريف ، فهذا الضرب من الأسماء يجمع بين إبهام الوضع وتمييز الاستعمال ف « أكمل التمييز إنّما يتصوّر بأعرف المعارف وهو المضمّر المتكلم ثمّ العلم ثم اسم الإشارة على المذهب المنصور . كذا في « الأطول » . وجاء في « شرح المفتاح » : اسم الإشارة وإن كان بحسب الوضع والاستعمال متناولاً لمتعدّد إلّا أنّه بسبب اقترانه بالإشارة يفيد أكمل تمييز وتعيين إذ لا يبقى اشتباه أصلاً بعد الإشارة التي هي بمنزلة وضع اليد ، ويمتاز القصد به عند العقل والحس ، بخلاف العَلَم والمضمّر فإنّ المقصد بهما يمتاز عند العقل وحده » ^(٣) .

ونجد فيما سبق حدّاً فاصلاً بين القصد باسم الإشارة والقصد بالاسم العَلَم والضمائر ، ففي الأولى امتياز بالعقل والحسّ ، وفي الثانية امتياز بالعقل دون الحسّ .

(١) « الإبهام والمبهمات في النحو العربي » إبراهيم إبراهيم بركات ، ٣٣ .

(٢) « كشف اصطلاحات الفنون » ٢ : ٧١٩ .

(٣) « كشف اصطلاحات الفنون » ٢ : ٧٧-٧٨ .

ونلاحظ في كلام التهانوي اقتصاره على الحديث عن دور هذه المبهات من حصول رفع الإيهام عنها بالمقام ولم يُشير إلى دورها الرابطي القائم على المقال أو النص من خلال التقدم في الذكر ، وذلك يوهم بأن التعريف حاصل من الإشارة متعلق بالمتكلم لا بالمخاطب^(١) .

ثم إن سكوت أكثر النحاة عن الإشارة الذهنية كان فيما يبدو بسبب غلبة هذا النوع على ما كانوا يباشرونه من ألوان القول .

وقد أوضح الرضي أن المراد بالشار إليه هنا هو الإشارة اللغوية لا الاصطلاحية ، ومفهوم الإشارة اللغوية غير محتاج إلى الاكتساب ، ولا يتوقف معرفته على معرفة المحدود^(٢) .

كما نصّ على استعمال القرينة المقالية لرفع الإيهام عن اسم الإشارة ، قال : « وكذا [أي كلفظة (الذي) وضمير الغائب في إيهامها] اسمُ الإشارة ، إلّا أنّه كثيراً ما يكتفي بقرينة غير لفظية للتخصيص »^(٣) . وأشار إلى غلبة القرينة المقامية على القرينة المقالية النصية ، وهو أمرٌ يمكن أن يؤكده الاستقراء .

ومما يجدر التنبيه عليه هو أنّ الأصل في الإشارة (ذا) ، وأمّا دخول (ها) التي هي للتنبيه على هذه الأسماء فلأنّ المخاطب يحتاج إلى تنبيهه على الاسم الذي يُشير به إليه ؛ لأنّ للإشارة قرائن حال يحتاج إلى أن ينظر إليها ، فالتكلم كأنه أمر له بالالتفات إلى المشار إليه أو منبه له ، فلذلك اختصّ هذا الموطن بالتنبيه ، وقلما يتكلمون به في المبهم

(١) « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٠٦٢ .

(٢) « شرح الرضي لكافية ابن الحاجب » تح : د. يحيى مصري ، ٣ : ١٨٦ .

(٣) « شرح الرضي لكافية ابن الحاجب » تح : د. حسن الحفظي ، ١ : ٢٦ .

الغائب ؛ لأنّ كاف الخطاب تغني عنها ، مع أنّ المخاطب مأمورٌ بالالتفات بلحظه إلى المبهم الحاضر ، فكان التنبيه في أول الكلام أولى بهذا الموطن ؛ لأنّه بمنزلة الأمر الذي له صدر الكلام^(١) .

مفهوم الإشارة (Deixis) في الدرس اللغوي الحديث :

الإشارة في الدرس اللغوي الحديث مفهومٌ لسانيّ واسعٌ لا ينحصرُ في اسم الإشارة فحسب ، بل يجمع كلّ العناصر اللغوية التي تحيل مباشرة على المقام من حيث وجود الذات المتكلّمة أو الزمن أو المكان ، حيث ينجز الملفوظ الذي يرتبط به معناه .

فجورج يول (George Yule) يرى في تفسيره للمبهمات (أو الإشارات) أنّ هناك كلمات لا يمكن تفسيرها ما لم يُعرف السياق المادي ، وخاصّة السياق المادي للمتكلّم ، مثل : (هنا وهناك وهذا وذلك والآن ووقتها وأمس) علاوة على معظم الضمائر ، مثل : (أنا وأنت وهو وهي وهم) ، ويكاد يستحيل فهم بعض الجمل إذا لم نعرف مَنْ المتكلّم ومن يخاطب ، وأين ومتى . وأورد مثلاً على ذلك قوله : (سيتوجّب عليك أن تعيدَ تلكَ غداً ؛ لأنها ليست هنا الآن) حيث تتسم هذه الجملة بالغموض البالغ خارج سياقها ، إذ حوت بعض العناصر التي تعتمد في تفسيرها على السياق المادي المباشر الذي تُطقت فيه : الكاف في (عليك) ، وتلك ، وغداً ، والهاء في (لأنها) ، وهنا ، والآن .

فهذه شرائح لغوية لا يمكن فهمها إلا في إطار المعنى المقصود للمتكلّم ، وتعرف اصطلاحاً بـ (المبهمات) أو (التعابير الإشارية) (deictic expressions) من الكلمة الإغريقية (deixis) التي تعني الإشارة بوساطة اللغة .

(١) انظر « نتائج الفكر » ٢٢٩ .

ويشير يول إلى أن المبهات قد يستخدمها الناس لغرض الضحك ، فصاحب المطعم الذي يعلّق لافتة وقد كتب عليها : (وجبة مجانية غدًا) ؛ ليغريك بالعودة إلى مطعمه ، يمكن له دائماً أن يزعم بأنك قد تأخرت يوماً واحداً عن الوجبة المجانية ، وأن الوجبة ما زالت في الغد الذي لم يحدّد ^(١) .

ومن خلال العناصر الإشارية السابقة يمكننا تقسيم الإشارات إلى ثلاثة أنواع :

أولاً : الإشارات الشخصية : هي الإشارات الدالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب . نحو : أنا وأنت وهو ... إلخ .

فالذات المتلفظة تدلّ على المرسل في السياق ، فقد تصدر خطابات متعددة عن شخص واحد ، فذاته المتلفظة تتغيّر بتغيّر السياق الذي تلفظ فيه . وهذه الذات هي محور التلفظ في الخطاب تداولياً ؛ لأنّ (الأنا) قد تحيل على المتلفظ : الإنسان أو المعلم أو الأب ... وغيرهم .

وممارسة التلفظ هي التي تدلّ على المرسل في بنية الخطاب العميقة ، مما يجعل حضور (الأنا) يرد في كلّ خطاب ، ولهذا فالمرسل لا يضمّن خطاباً شكلاً في كلّ لحظة ؛ لأنّه يعوّل على وجودها بالقوّة في كفاءة المرسل إليه ، وهذا ما يساعده على استحضرها لتأويل الخطاب تأويلاً مناسباً . « فأعرّف المضمرات المتكلم لأنّه لا

(١) انظر الفصل الثاني عشر بعنوان (المقصدية) من كتاب « دراسة اللغة » (The study of language) لجورج يول ، مطبعة جامعة كامبردج ، ط ٢ ، ١٩٩٦ م . وانظر « دراسات حديثة في اللغة والنحو وأثر الترجمة في العربية » د. طالب عبد الرحمن ، ١٣٢ . مركز عبادي ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ .

يوهمك غيره، ثم المخاطب، والمخاطب تلو المتكلم في الحضور والمشاهدة»^(١).

ولا يتلفظ المرسل بضمير المتكلم ابتداءً في خطابه، خصوصاً عند اجتماعه بالمرسل إليه؛ لأنّ «ضمير المتكلم وضمير المخاطب تفسّرهما المشاهدة»^(٢). ولا يتلفظ به إلا عند افتراضه أيّ اعتراض مسبق أو تساؤل أو عند حاجته لتسويغ فعله اللغوي في الخطابات المبدوءة بـ (نحن) مثلاً، إذ يشير الضمير فيها إلى بُعد ثقافي بإحالة لغويّاً على جمع على الرغم من كون المرسل مفرداً. وهذا التفاوت بين المرجعين الحقيقي والثقافي هو ما لا تختزنه كفاءة المرسل إليه للربط بين الضمير (نحن) ومرجعه المفرد.

وتعدّ الضمائر المستترة في النحو العربي ضرباً من الإشارات التي تدرك الإحالة عليها من السياق، فلا يتلفظ بها المرسل لدلالة الحال عليها، ويتطلب البعض منها حضور أطراف الخطاب حضوراً عينياً في الأمر والنهي مثلاً، ففعل الأمر ينطوي على (أنت)، الذي يوجّه إليه الخطاب، وبالتالي تنوّعت الضمائر بين المستتر وجوباً والمستتر جوازاً^(٣).

وقد أفردت للحديث عن الضمائر مبحثاً مستقلاً بما يغنينا عن إعادة القول ها هنا.

ثانياً: الإشارات المكانية: نحو: هنا وهناك.

لا ينفك المرسل عن المكان عند تلفظه بالخطاب، وهذا ما يعطي الإشارات المكانية مشروعية إسهامها في الخطاب، فنجد أنّها تختصّ «بتحديد المواقع بالانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام إنطلاقاً من

(١) «شرح المفصل» لابن يعيش، ٣: ٨٤.

(٢) «ارتشاف الضرب» ١: ٤٨١.

(٣) انظر «إستراتيجيات الخطاب» ٨٣.

الحقيقة القائلة إنّ هناك طريقتين رئيسيتين للإشارة إلى الأشياء ، هما : إمّا بالتسمية أو الوصف من جهة أولى ، وإمّا بتحديد أماكنها من جهة أخرى «^(١) .

كما أنّ تحديد المرجع المكاني مرتكز على تداولية الخطاب ، وهو ما يؤكّد أهمية استعماله لمعرفة مواقع الأشياء .

ومعرفة المواقع في أي خطاب تستلزم أمرين ، هما : معرفة مكان المتلفّظ ، واتجاه المتكلّم؛ لأنّه قد يقود استعمال إشاريّات المكان في غياب الدقّة في التحديد عند التلفّظ إلى اللبس .

وتحاشياً من وقوع اللبس فإنّ المرسل يعتمد إلى افتراض موقع المرجع وموقع المرسل إليه .

ولا يكتفي المرسل لتحديد المرجع للإشاريّات المكانية بتعريفها بناء على موقع المرسل إليه واتجاهه فحسب ، بل بالنسبة إلى الأشياء الأخرى التي يستعمل دوالّها اللغوية في خطابه ، كما في الخطاب الآتي : (الطفل خلف المنزل)

فيظل مرجع اللفظ (خلف) غامضاً ، لو استعمله المرسل وحده ، ولكنّ تحديده هنا مرتبط بمعرفة الشيء / الدالّ (المنزل) . ولا يمكن استعمال أي من هذه الظروف (خلف وأمام وفوق ويمين وشمال ...) إلّا بإدراك المرجع المضاف إليه في ذهن كل من طرفي الخطاب . وفي اللغة كثير من هذه الأدوات ، مثل : (هنا وهناك وتحت ووراء ويسار... إلخ) . وتصنّف مراجع بعض هذه الأدوات مثل (هنا) التي تدلّ على

(1) Levinson Stephen C: Pragmatics, Cambridge University Press,

1983, P: 79.

وانظر « إستراتيجيات الخطاب » ٨٤ .

القريب ، و(هناك) التي تدل على البعيد ، انطلاقاً من مكان المرسل عند تلفظه بالخطاب ، قرباً وبعداً^(١) .

ثالثاً : الإشارات الزمانية . نحو : الآن .

وتعد لحظة التلفظ هي المرجع ؛ لذا « يجب أن تربط الزمن بالفعل ربطاً قوياً في مرحلة أولى ، ونربط كذلك بين الزمن والفاعل ؛ لأهميته الكبرى في مرحلة ثانية »^(٢) .

ومن أجل تحديد مرجع الأدوات الإشارية الزمانية ، وتأويل الخطاب تأويلاً صحيحاً يلزم المرسل إليه أن يدرك لحظة التلفظ ، فيتخذها مرجعاً يحيل عليه ، ويؤول مكونات التلفظ اللغوية بناء على معرفتها ، كما في الخطاب الآتي : (سأعود بعد ساعة)

لا يستطيع المرسل إليه أن يتنبأ بالوقت الذي سيعود فيه المرسل ، وبغض النظر عن تحقق الوعد فإنه يلزم معرفة لحظة التلفظ كي يبنى توقعه عليها ، فقد يكون التلفظ حادثاً قبل عشر دقائق أو قبل نصف ساعة ... ، ويبقى الأمر عندها مجرد تخمينات ، فالعبارة لا تقدم مرجعاً زمنياً يمكن أن يسهم في تحديد زمن العودة .

ولتداولية المرجع الذي يصاحب هذه الأدوات فإن المرسل يلجأ في خطابه إلى توظيف الإشارات الزمانية في سياق الإنتاج ، وخطاب الإعلانات التجارية ، ومن أشهر الخطابات التي تستعمل فيها : (الآن ، انتهزوا فرصة التخفيضات) .

فمرجع الأداة الإشارية الزمانية (الآن) هو لحظة التلفظ بها ، مع أنه يصعب تحديد هذه اللحظة تحديداً دقيقاً ، فقد تمتد لبضع أيام أو لبضع أسابيع أو لبضع أشهر ، وقد

(١) انظر « إستراتيجيات الخطاب » ٨٥ .

(2) Parret: Semiotics and pragmatics, p: 123.

وانظر « إستراتيجيات الخطاب » ٨٣ .

تقتصر دلالتها على لحظة التلفظ فقط . ومن هنا فإنّ منتج الإعلان التجاري على سبيل المثال يستثمر تداولية هذه الإشارة في خطابه الإعلاني ، وذلك من خلال « نقل المركز الإشاري إلى الإطار الزماني المكاني الذي يطّلع فيه السامع أو القارئ على النص »^(١) .

نعود إلى ما كنّا في صدد الحديث عنه لنبيّن أن تلك العناصر الإشارية تلتقي في مفهوم التعيين أو توجيه الانتباه إلى موضوعها بالإشارة إليه^(٢) .

وهي تنظّم الفضاء انطلاقاً من نقطة مركزيّة هي الذات المتكلّمة أو (أنا) (Ego) . ويجري هذا التنظيم على وفق عدد من المعايير أو المقولات ، هي المسافة الفاصلة بين المتكلّم أو المخاطب من جهة وبين المشار إليه من جهة أخرى ، وهي موقع المشار إليه من المركز ، كأن يكون إلى الورا أو الأمام أو فوق أو تحت أو اليمين أو الشمال ... وهي حضور المشار إليه أو غيابه إلخ^(٣) .

ويتجسّد دور هذه العناصر في تعيين المرجع الذي تشير إليه . وهي بذلك تضبط المقام الإشاري (Deictic context) .

وتتعلّق دلالة هذه العناصر بالمقام الإشاري لأنّها غير ذات معنى ، ما لم يتعيّن ما تشير إليه . فهي أشكال فارغة في المعجم الذي يمثّل المقام الصفر ، وتقوم بوظيفة تعويض الأسماء ، وتتخذ محتوًى مما تشير إليه^(٤) .

(١) « تحليل الخطاب » ٦٤ . وانظر « إستراتيجيات الخطاب » ٨٤ .

(٢) وانظر « نسيج النص » ١١٦ .

(٣) وانظر « نسيج النص » ١١٦ .

(٤) انظر « نسيج النص » ١١٨ .

وهذه الإشارات نفسها هي شرط ضروري في تحقّق الملفوظ (Actualisation) فالمتكلّم الفرد يعتمد إلى اللغة - وهي الملك المشاع - فيقتطع منها ما يحتاج إليه للتعبير عن حاجاته ، وبمجرد حدوث التلقّظ يصبح ذلك كلامًا ملكًا له ، فتتحرر الأبعاد الجماعية في اللغة كي تحل محلّها الأبعاد الفردية المقترنة بـ (الآن) و (هنا) و (أنا) ... إلخ وقرائنها هي العناصر الإشارية كما أسلفنا ، وهذه القرائن شرط في فهم الملفوظ وإعطائه معنى لأنّها تربطه بالمقام .

وأهم هذه الوحدات الإشارية هي الضمائر وأسماء الإشارة وبعض العناصر المعجمية الأخرى التي تقوم بعمل الإشارة مثلها.

وإذا كانت الضمائر تحدّد مشاركة الشخص في التواصل أو غيابها عنه ، فإنّ أسماء الإشارة (الزمانية والمكانية والظروف الدالة على الاتجاه) تحدّد مواقعها في الزمان والمكان داخل المقام الإشاري ، وهي تمامًا مثلها لا تفهم إلا إذا ربطت بما تشير إليه ، ويجري تقسيمها في اللغة العربية إلى أقسامها المعروفة باعتماد المسافة (قريبًا وبعدًا) من موقع المتكلّم في المكان أو الزمان ^(١) . وسيأتي إيضاح ذلك .

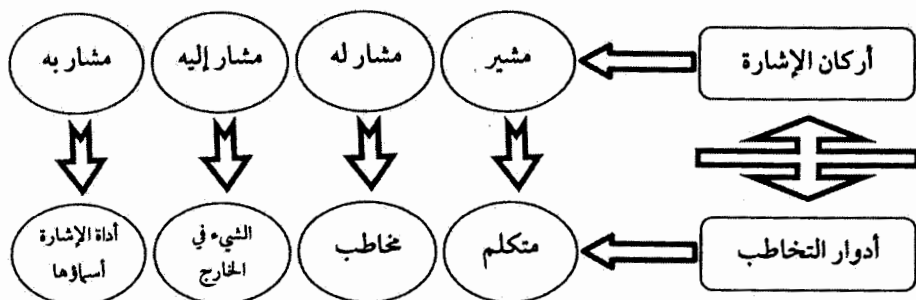
أركان الإشارة :

يمكننا الوقوف على أركان الإشارة من خلال نصّ الرضيّ الذي يقول فيه : « اسم الإشارة في الأصل ما يشار به للمخاطب إلى شيء ، فهو في أصل الوضع لغير المخاطب ، ولهذا يؤتى فيه بحروف الخطاب ... ، فتُحوشي في بعض الأماكن من أن يدخله حرف يجعله مخاطبًا أي حرف التّداء » ^(٢) .

(١) انظر « نسيج النص » ١١٨ .

(٢) « شرح الرضي لكافية ابن الحاجب » ٤٤٦ : ١ .

فعملية الإشارة تقوم - بحسب كلام الرضي - على أربعة أركان ، وهي مع ما يناسبها من أدوار التخاطب تكون على الصورة الآتية :



فإذا توافرت هذه الأركان وتمّ الإجراء حصلت الإشارة.

وبنية الإشارة هذه ترجع الإشارة إلى كونها عملية (أو عملاً لغوياً أو معنى) يحدثها المتكلم (المشير) للمخاطب (المشار له).

وقد علّلوا بناء أسماء الإشارة بتضمّنها معنى الحرف وهو الإشارة ، لأنّها معنى من المعاني ، كالاستفهام ، فكان حقّها أن يوضع لها حرف يدلّ عليها «وذلك أنّ عادتهم جارية في الأغلب في كلّ معنى يدخل الكلام أو الكلمة أن يوضع له حرف يدلّ عليه ...»^(١).

كما اعتبروا الإشارة فعلاً وعملاً يأتيه المتكلم ، ورأوا فيها معنى سائر الأفعال لأنّها أسماء يشار بها إلى المسمّى^(٢). وحملوا على ذلك المعنى عملها في الحال كما في قوله تعالى :

(١) «شرح الرضي لكافية ابن الحاجب» ٣ : ١٨٥ .

(٢) انظر «شرح المفصل» لابن يعيش ، ٣ : ١٢٦ .

﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾^(١) هود : ٧٢ .

والإشارة عملية موجهة للمخاطب بالأساس لا للمشار إليه ، شأنها في ذلك شأن المعاني والأعمال اللغوية ، ولئن أمكن عدّها من الأعمال اللغوية فهي من قبيل أعمال الدرجة الثانية الداخلة في مكونات معنى الجملة ، وليست من أعمال الدرجة الأولى الأساسية الأصلية التي تطفو على سطح الجملة ، ويكون أحدها عماد معنى الجملة ، كالإخبار والطلب وغيرها ، ولا يجتمع في الواحدة منها بمعنى آخر من درجته^(٢) .

وظيفة أسماء الإشارة :

لاسم الإشارة وظائف متعددة ، فهي بسبب إبهامها تعدّ عاملاً مهماً في تكوين بنية الخطاب من خلال القيام بدورها النحوي ، ووظيفتها الدلالية . ويستثمر المرسل هذه الصفات في الخطاب الذي يجري بينه وبين المرسل إليه ، عندما يمدّه في نسيج يتجاوز في كليته الجملة الواحدة ، فتصبح فائدتها الإحالة إلى المعلومات القديمة التي تلفظ بها أحدهم ، وأصبحت جزءاً من المعلومات المشتركة^(٣) .

(١) يرى السهيلي أنّ معنى الإشارة ليس هو العامل ، إذ الاسم الذي هو (هذا) ليس بمشتق من أشار أو يشير ، فهي أسماء غير عاملة ، وإنّما العامل هو فعل مضمر تقديره (انظر) وأضمر لدلالة الحال عليه من التوجّه واللفظ ، وحمل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ .

« نتائج الفكر » ٢٣٠ ، وانظر « المقتضب » ٤ : ١٦٨ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٠٦٤ .

(٣) انظر « إستراتيجيات الخطاب » ٨١ .

ومن أبرز وظائف اسم الإشارة الآتي :

١ - التحكّم في مواضيع الخطاب .

حيث يرى كرستن بروستاد (Kresten Brustad) أنّ الوظيفة الأساسية لأسماء الإشارة هي التحكّم في مواضيع الخطاب ، أي العناصر التي لها دور مهمّ في الخطاب . فأسماء الإشارة تحدّد تلك العناصر وتبرزها وتستدعيها وتقارن فيما بينها . ومعظم أسماء الإشارة في رأيه تحيلُ إلى الورا (إحالة قبلية) ، ولكن يجب أن نميّز بين تلك التي تحيل إلى الورا ولا تقارن ، وتلك التي تحمل قدرًا من المقارنة . ويرى أنّ اسم الإشارة الذي يدلّ على البعيد هو المستخدم في مقارنة العناصر المشار إليها ، ويبدو أنّ السبب في ذلك هو أنّه عندما نباعد بين وحدتين تتضح هوياتهما المختلفة بصورة أكبر^(١).

ويرى كروفت^(٢) أنّ هناك فرقًا بين أدوات الإشارة الإحالية وأسماء الإشارة العادية ، وهو أنّ أدوات الإشارة الإحالية تختلف عن أسماء الإشارة في أنها لا تستخدم في الإشارة إلى أشياء سهلة التحديد على الرغم من أنها لم تذكر سلفًا .

ويقول كروفت^(٣) : ففي اللغات التي تحتوي على أدوات الإشارة الإحالية وأسماء الإشارة العادية تتنافس الأولى مع الثانية . وعلى الرغم من ذلك وبعكس ما يحدث في الأداة الإنجليزية (that) ، وكما يحدث في أداة التعريف (أل) (قد تشير (ها) و(هذا))

(١) انظر « قواعد اللهجات العربية الحديثة » كرستن بروستاد ، ترجمة : محمد الشرقاوي ، ١١٢ .

المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م .

(٢) انظر « قواعد اللهجات العربية الحديثة » ١١٢ .

(٣) انظر « قواعد اللهجات العربية الحديثة » ١١٥ .

في العربية إلى أشياء لم يتم الإشارة إليها بصراحة في الخطاب ، ولكنها موجودة في السجل الدائم الذي يشير إلى الأشياء الفريدة التي يعرفها كل الناس كالشمس مثلاً . أو يمكن استرجاعها من السياق أو من سجل الموضوعات التي نوقشت في الخطاب ، تساعد هذه الإشارات الإحالية في استرجاع الاسم من هذا السجل .

وهناك فرق آخر بين أداة الإشارة الإحالية وأداة التعريف يقع في تحديد الاسم الذي تدخل عليه كلٌّ من الأداتين ، فقد تدخل أداة التعريف على أسماء الجنس العامة والأسماء العامة ، كما تدخل أداة الإشارة الإحالية على أسماء محددة تمتلك قدرًا من المحورية في النص . وكما كان الحال بالنسبة إلى التعريف والتكرير ومطابقة الأعداد ، فإنّ استخدام أدوات الإشارة الإحالية يخضع لبعض السيطرة من المتكلم . فالاختيار بين أداة الإشارة الإحالية وأداة التعريف تفضيل المتكلم لكيفية التعبير عن محورية الاسم في النص ، الأسماء التي تدخل عليها أدوات الإشارة الإحالية أكثر تفريدًا ، وتؤدي دورًا أكثر أهمية في الخطاب من الأسماء التي تدخل عليها أداة التعريف فقط ^(١) .

٢ - التوكيد :

أشار الزمخشري إلى هذه الوظيفة ، وهي وظيفة عامة قد تنطبق على الضمائر عامة وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة ، وتتأكد بهذا رؤية ليفاندوفسكي (The Lewandowski) عن الضمائر بصورة عامة .

وتتحقق وظيفة التوكيد في اسم الإشارة باعتباره يشير مباشرة ويحدد المشار إليه (العنصر الإشاري) المفسر ، ومن خلال هذا التحديد يؤكد المحتوى من خلال هذه

(١) انظر « قواعد اللهجات العربية الحديثة » ١١٥ ، ١١٦ .

الإشارة وهذه سمة تميزه عن باقي الضمائر والأسماء الموصولة كما جاء في نص التفتازاني السابق .

وقد أكد هذه الوظيفة إربن (Johannes Erben)، وهي أن اسم الإشارة يؤكد، غير أن توكيده يختلف بحسب السياق ، فقد يؤكد المفرد الذي يحيل عليه ، فيجعله واضحاً ومحددًا ، ومن خلال هذا يدرك المرء أن لها ارتباطاً وعلاقة معاً تؤكد الأداة^(١) .

ومن أمثلة تأكيد اسم الإشارة لما قبله قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْسِلُوكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِّن دِينِهِمْ تَبْلُغُهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَدْوَانِ﴾ البقرة : ٨٥ . فاسم الإشارة هنا جاء تأكيداً للضمير (أنتم) ، وتقدم الضمير هنا تحقيقاً لقولهم : إِنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَرَادَتِ الْعَنَاءَ بِالشَّيْءِ قَدَّمَتْهُ ، ثم جاء توكيده باسم الإشارة (هؤلاء) أو (أولاء) .

ولو بحثنا عن هذا التركيب في القرآن الكريم المتمثل في النمط الآتي :

ها + ضمير + ها + اسم الإشارة

أو : ها + ضمير + اسم إشارة

لوجدناه ورد في القرآن الكريم في أربعة مواضع ، وكلها مواضع تحتاج إلى توجيه الفكر وجذب الانتباه وشدة الاهتمام ، تتضمن معاني متعددة كالتعجب من حال المخاطب ، والسخرية والتقريع والتهكم والتوبيخ ، يقول تعالى :

١ - ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا

(1) see : Johanne, Erben: Abriss der Deutschen Grammatik, S. 209.

- Hans, Heringer und Andre: Einführung in die Praktische Semantik, S.110. وانظر « البنية الدلالية والإحالية للضمائر » ٩٨ .

مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَكَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ

تُعَاجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ آل عمران : ٦٦ .

٢ - ﴿ هَكَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا

وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْهِمْ أَلْفَافًا مِنْ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعِظُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الْصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ آل عمران : ١١٩ .

٣ - ﴿ هَكَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ

يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ النساء : ١٠٩ .

٤ - ﴿ هَكَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُخْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ

فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾ محمد : ٣٨ .

فنلاحظ أنه شدّ انتباه السامع والمخاطب في البدء بـ (ها) التنبيه التي دخلت على

الضمير، ثم استدعى الموقفُ المزيد من الانتباه فكرر التنبيه (ها) مع ما يشير إلى

الضمير (أنتم) وهو اسم الإشارة (أولاء) ^(١) .

فالتوكيد هنا بشيئين :

١ - اسم الإشارة (أولاء) جاء لتوكيد الضمير (أنتم) .

٢ - (ها) التنبيه الداخلة على (أولاء) ، أعيد ذكرها بعد الفصل بـ (أنتم)

توكيداً في المواضع الثلاثة .

(١) وذلك في الموضع الأول والثالث والرابع ، أما الثاني فقد ورد من دون (ها) قبل اسم الإشارة .

انظر « رأي في اسم الإشارة في مبناه ومعناه : دراسة وصفية تحليلية » د. خليل عبايرة ، ٢٩ ، ٣٠ .

وقد يحصل التوكيد بزيادة مبنى في اسم الإشارة ، فقد ذكر السهيلي أنهم ربّما زادوا اللام للتوكيد في (ذلك) و (تلك)^(١) .

٣- الربط :

هو الوظيفة التي تعيننا في هذا المجال ؛ لإسهامه في تماسك أجزاء النص .

وقد جاء حديث النحاة عن الإشارة في نطاق حديثهم عن المبهمات ، فجعلوا الدور الرابطي في المحل الثاني ، وقدموا عليه ظاهرة الإبهام وطرق رفعه ، وهي ظاهرة تتعلق به علاقة العام بالخاص ، أو علاقة الأصل بالفرع ؛ لأنك واجد فيها في معالجة جميع أنواع المبهمات منزلة الدور الرابطي عبر تفصيل الحديث عما يرفع الإبهام .

ولئن غلب على حديثهم عن الإشارة الاهتمام بالإشارة الحسية التي ليس لها دور كبير في تحقيق الترابط بين الجمل المكوّنة للنص ، فإننا نجد في كلام الرضي تصوّرًا لمنوال كامل تنتزّل فيه مختلف الوجوه التي يستعمل فيها اسم الإشارة .

فألفاظ الإشارة تكون ذات دور رابطي متى كان المشار إليه حاصلًا من المقال بتقدّمه في الذكر ، ولا يكون لها مثل هذا الدور متى كانت الإشارة إشارة حسية وكان رافع الإبهام عنها حضورًا^(٢) .

وقد عدّ ابن هشام اسم الإشارة رابطًا من روابط الجملة بما هي خبر عنه ، يقول : « روابط الجملة بما هي خبر عنه ، وهي عشرة : ... الثاني : الإشارة ، نحو ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ الأعراف : ٣٦ .

(١) انظر « نتائج الفكر » ٢٢٨ . وانظر « تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد » للدمامي ، ٢ : ٣٣١ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٠٦٧ .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ الأعراف: ٤٢. ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ الإسراء: ٣٦^(١). فالربط باسم الإشارة هو أحد الروابط التي تربط جملة الخبر بالمتبداً .

ويرى د. تمام حسان أنه « يكثر الربط بالإشارة في القرآن الكريم ، وينبغي أن نشير إلى أنه على الرغم من دلالة الإشارة على الحضور وإشارتها إلى مذكور سابق نرى أنه يطرّد إمكان استبدال ضمير الغائب بها في كل موقع تربط فيه بين عناصر الجملة » . واستشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ المائدة: ٨٦ .

وقوله ﴿ يَبْقَىٰ ۖ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْوِي سَوْءَ ذِكْمٍ وَرِبَاسًا لِّلنَّفَاقِ ۚ ذَٰلِكَ خَبْرٌ ﴾ الأعراف: ٢٦ .

حيث يجوز أن يحل الضمير (هم) محل اسم الإشارة (أولئك) ، و (هو) محل (ذلك) من دون أن يتغير المعنى ^(٢) .

وإن كنا نعتقد بأن ألفاظ القرآن الكريم مقصودة لذاتها ، فلا يصح مطلقاً أن نستبدل لفظاً بآخر ، وهو إن صحّ في باب الصناعة النحوية لكنّه يصعب اعتقاد ذلك والجزم به في النص القرآني ؛ لأنّ اسم الإشارة دائماً يدلّ على الحضور ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ، استخدام اسم الإشارة (أولئك) مع ما فيه من دلالة الحضور فيه نوع من التبيكيت والتخويف والتهديد

(١) « مغني اللبيب » ٦٤٧ .

(٢) انظر « البيان في روائع القرآن : دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني » ١ : ١٤٠ .

يكونهم من أصحاب الجحيم . وقد لا يتّضح ذلك لو استبدلنا اسم الإشارة بضمير الغيبة (هم) .

ونلاحظ في أمثلة ابن هشام وأمثلة د. تمام حسان أنّ اسم الإشارة قد جاء في جملة هي خبر عن مرجع اسم الإشارة (المشار إليه) ، وأنّ اسم الإشارة (العائد) قد قام بالربط بين هذه الجملة (المرتبط) التي هو (اسم الإشارة) أحد عناصر بنائها وبين مرجعه الذي هو المبتدأ ، وما سبق يعني أنّ العائد هنا (اسم الإشارة) لا يكون إلا جزءاً من جملة المرتبط (الخبر) التي يربطها بالمشار إليه (المرجع) .

والدليل على أنّ وظيفة اسم الإشارة في هذه المواطن هو (الربط) بين عناصر الكلام السابق أو اللاحق هو صحّة معاقبة ضمير الغائب لأسماء الإشارة في هذه الآيات مع بقاء المعنى مستقيماً وعدم تغييره . وصحّة هذه المعاقبة تدلّ على أنّ موقع اسم الإشارة في هذه الآيات إنّما هو موقع ربط ^(١) .

وتعد وظيفة الربط من الوظائف التي تشترك فيها الضمائر مع أسماء الإشارة ، ويوضّح هوفمان (Ute Hoffmann) ذلك بقوله : إنّ ضمائر الإشارة ما هي إلا بعض الصرفيات التي يمكن من خلالها ربط أجزاء الكلام والمحافظة عليه من هذه الناحية - الربط - ويحدد ويعيّن البحث في ضمائر الإشارة البحث في الضمائر الشخصية في أنّ كلّاً منهما يوضّح ترتيب الاختلافات في قاعدة الضمائر ويحافظ على الربط القائم في النص ويبقيه ^(٢) .

(١) انظر «الموقعية في النحو العربي : دراسة سياقية» د. حسين رفعت حسين ، ٢٧٠ .

(2) See: Ute, Hoffmann : Untersuchung zur Topologie im Mittelfeld : Pronominale und Nominale Satzglieder, s. 164.
- See: John Lyons: Semantik, Band 2, s. 258.

وانظر «البنية الدلالية والإحالية للضمائر» ٩٣ .

وإذا كان هذا النص قد أوضح القاسم المشترك بين اسم الإشارة والضمائر الأخرى فإن ابن يعيش يوضح الفارق بين اسم الإشارة والضمائر الأخرى بقوله : إن المضممر في الغالب يبين بما قبله ، وهو المظهر الذي يعود عليه المضممر ، نحو : قولك : زيد مررت به ، والمبهم الذي هو اسم الإشارة يفسر بما بعده ، وهو اسم الجنس ، كقولك : هذا الرجل والثوب ^(١) .

ويوضح نص ابن يعيش الصفة المشتركة التي تجمع بين اسم الإشارة والضمائر الأخرى ، وهي الإحالة ، أي أن كليهما يُحيل .

ويوضح التفتازاني مفارقة بين اسم الإشارة والضمائر الأخرى : وذلك أن اسم الإشارة إشارة إلى الذات بملاحظة تلك الصفات ، كأنه قيل : ذلك المشار إليه المتميز بتلك الصفات ، بخلاف مجرد الضمير العائد إلى ما يشار إليه ، فإنه كناية عن ذات الموصوف ، وإن كان مع الصفات ذهناً ... ولهذا كان في ﴿إِلَّاكَ تَبَتُّهُ﴾ بالعدول إلى الخطاب المشعر بالتميز ما لم يكن في (إياه) ^(٢) .

فنص التفتازاني يوجه الانتباه إلى أن إحالة اسم الإشارة هي إحالة ذهنية محدّدة ، أي يشير إلى شيء محدد ، بخلاف الضمائر الأخرى التي تحيل من خلال الكناية .

كما يرى د. تمام حسان أن الإشارة قد تنتقل من معناها الأصلي إلى كونها رابطة بين أجزاء النص السابقة ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عٰكِدِيْنَ﴾ الأنبياء : ١٠٦ . وقوله : ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ المؤمنون :

(١) انظر « شرح المفصل » ب ١ : ٩٨١ ، ٩٨٢ . وانظر « البنية الدلالية والإحالية للضمائر » ٩٣ .

(٢) انظر « حاشية التفتازاني على الكشف » ورقة ٢٦ . وانظر « البنية الدلالية والإحالية للضمائر »

٢٤. وقوله: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ لقمان : ١١. وقوله :
﴿ هَذَا وَابْنُ الطَّيْغِينَ لَشَرِّ مَنَاقِب ﴾ ص : ٥٥. وقوله : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا
عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ ق : ٢٢.

فاسم الإشارة (هذا) في هذه النصوص يحيل على جزء من الملفوظ إحالة
قبلية ، تتضح من خلال السياق اللغوي للآيات .

وقد تكون الإشارة إلى مضمون لاحق كما في قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران : ١٣٨ ، أي فيما يلي بيان للناس هو قوله تعالى : ﴿ وَلَا
تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ آل عمران : ١٣٩ . والإشارة هنا تشبه ضمير الشأن
في إحالتها على متأخر ^(١) .

كما أن رفع إبهام أسماء الإشارة بالكلام المتقدم في الذكر يكسبها دورًا رابطًا ، فقد
ذهب الرضي إلى أن اسم الإشارة (ذلك) « يصح أن يشار به إلى كل غائب عينًا كان أو
معنى ، يحكى عنه أولًا ثم يؤتى باسم الإشارة ، تقول في العين : جاءني رجل فقلت
لذلك الرجل ، وفي المعنى : تضاربوا ضربًا بليغًا فهالني ذلك الضرب » ^(٢) .

وذلك نحو قوله تعالى في قصة عيسى بن مريم ، عليهما السلام : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ
يَعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَخَذَكُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلَفُونَ
﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّيْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾

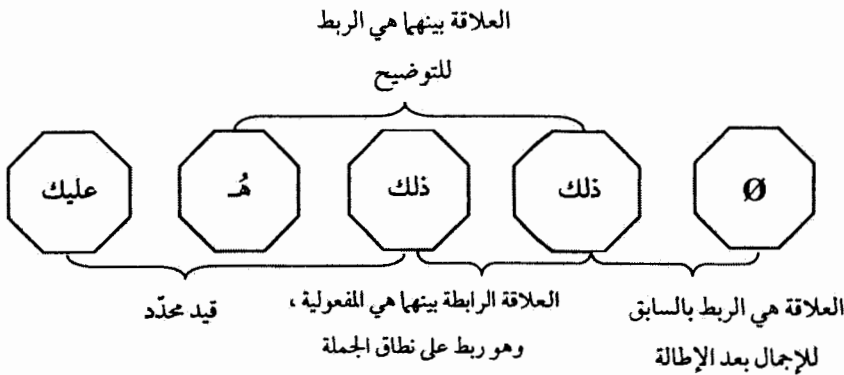
(١) انظر « اجتهادات لغوية » ٢٨٩ .

(٢) « شرح الرضي على الكافية » تح : يوسف حسن عمر ٢ : ٤٧٨ .

وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورُهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ آل عمران : ٥٥ - ٥٨ .

فاسم الإشارة (ذلك) يعود على تفصيل سابق ، وقد تصدر جملة فعلية (ذلك نتلوه عليك) ليكون هو المعمول الحقيقي لفعلها (نتلو) ، ويكون الضمير في (نتلوه) تذكيراً بالدور التركيبي الذي كان يؤدّيه اسم الإشارة ، الذي انتقل إلى أداء دور دلالي يحتاج إليه السياق لطول القول السابق الذي تجاوز ثلاث آيات ، تذكيراً بالدور الدلالي لاسم الإشارة ساداً مسدّ ومربطاً به ، فالضمير في (نتلوه) هو نفس اسم الإشارة (ذلك) المتقدمة ، الذي يشير إلى نبأ عيسى - عليه السلام - وغيره .

ويرى الزمخشري أنّ (ذلك) يجوز أن تكون بمعنى (الذي) (و) (نتلوه) صلته ، والأول أجود ، لما فيه من ربط بين هذه الآية والآيات السابقة فيكون ترابط الكلمات فيها كما يأتي ^(١) :



(١) انظر « رأي في اسم الإشارة في مبناء ومعناه : دراسة وصفية تحليلية » ٣٤ . وانظر « آراء في الضمير العائد .. » ١٠٦ .

فنلاحظ أنَّ (ذلك) جاءت للربط بها سبق .

ويكثر ذلك في القصص القرآني ، إذ نجد في نهاية بعض القصص يأتي اسم الإشارة (ذلك) ليحيل على مقاطع نصية كاملة بلفظ موجز بهدف تمييز الأنباء والربط بين السابق واللاحق ؛ لتتمكن من عقول السامعين . نجد ذلك قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَمْهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ آل عمران : ٤٤ .

فقوله : (ذلك) يُحيل على الأخبار التي أخبر سبحانه بها عن امرأة عمران وابنتها مريم وزكريا وابنه يحيى وسائر ما قُصَّ في الآيات من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران : ٣٣ . ثم جمع جميع ذلك بقوله : (ذلك) .

وقد بين الطبري ^(١) أنَّ الهدف والفائدة من اسم الإشارة (ذلك) هو استحضار جميع الأحداث السابقة حين الحكم عليها بأنّها من أنباء الغيب ؛ لإقامة الحجّة على أهل الكتابين بها ، فكأنّه قال : هذه الخفايا من الأخبار وهي كثيرة قد أخبركم بها محمد ﷺ وهو أمّي ، فلا بُدَّ أن يكون علّمه من وحي الله إليه .

وهذا يعني أنَّ استحضار هذه القصص جعل بمنزلة وضع يد المنكر على ما ينكره حتّى لا يبقى له أيّ عذر في الإنكار.

(١) انظر « تفسير الطبري » ٣ : ٢٦٦ . وانظر « المباحث البلاغية في تفسير الطبري » : علم المعاني ١ : ١٧٥ .

وكذا بعد مجموعة من قصص الأنبياء (نوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى) تأتي الإشارة بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ ﴾ هود : ١٠٠ .

وبعد قصة يوسف عليه السلام : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴾ يوسف : ١٠٢ .

قد علل الرضي استعمال صيغة البعيد للإشارة إلى الغائب المتقدم في الذكر بكون المحكي عنه غائبا ، على أنهم قد يحملون المحكي عنه وإن كان غائبا على القريب فيستعملون له على قلة اسم الإشارة بلفظ الحاضر القريب « لأن المحكي عنه وإن كان غائبا إلا أن ذكره قد جرى عن قريب فكأنه حاضر » ^(١) .

وأدرك الرضي ما يفضي إليه القول بالإشارة إلى الغائب المتقدم بعيدا أو قريبا من مناقضة المعنى الوضعي لاسم الإشارة ، الذي هو الإشارة الحسية ، فأضاف أن استعماله فيما لا تدركه الإشارة كالشخص البعيد والمعاني مجاز ، وذلك بجعل الإشارة العقلية كالحسية لما بينهما من المناسبة . ومضى ينظر اسم الإشارة الموضوع للبعيد بضمير الغائب في احتياجه إلى مذكور قبله أو محسوس ، فيكون كضمير الغائب في احتياجه إلى مذكور قبله أو محسوس ، فيكون كضمير الغائب في رجوعه إلى ما قبله ^(٢) .

(١) « شرح الرضي على الكافية » ٢ : ٤٧٨ .

(٢) انظر « شرح الرضي على الكافية » ٢ : ٤٧٨ . وانظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٠٦٦ .

البنية الإحالية لإسم الإشارة

المدى الإحالي في أسماء الإشارة :

يرادُ بالمدى الإحالي في أسماء الإشارة هو قُرب المشار إليه أو بُعده من السياق الذي وردت فيه الإشارة . يستوي في ذلك السياق اللغوي والسياق غير اللغوي .

أما السياق اللغوي فيتمثل في قرب العنصر المحال عليه أو بُعده من أداة الإحالة (اسم الإشارة) في حدود النص ، وهو نوعان :

النوع الأول : إحالة ذات مدى قريب ، وتجري في مستوى الجملة الواحدة ، حيث لا توجد فواصل تركيبية جملية .

النوع الثاني : إحالة ذات مدى بعيد ، وهي تجري بين الجمل المتصلة أو المتباعدة في فضاء النص ، كما تتجاوز الفواصل والحدود التركيبية القائمة بين الجمل .

وسواء أكانت الإحالة إلى قريب أم بعيد فإنَّ عامل الإحالة يسهم بدور فعّال في ترابط النص وتماسكه ، إلى جوار العامل التركيبي والعامل الزمني ، إذ إنّ الملفوظ (نصًّا) يكتمل عندما تترايط أجزاءه باعتماد الروابط الإحالية . وهذه الروابط تختلف من حيث مداها ومجالها ، فبعضها يقف عند حدود الجملة الواحدة ، يربط عناصرها الواحد منها بالآخر ، وبعضها يتجاوز الجملة الواحدة إلى سائر الجمل في النص ، فيربط بين عناصر منفصلة ومتباعدة من حيث التركيب النحوي ، ولكن الواحد منها متصل بها يناسبه أشد الاتصال من حيث الدلالة والمعنى ^(١) .

(١) انظر « نسيج النص » ١٢٣ ، ١٢٤ .

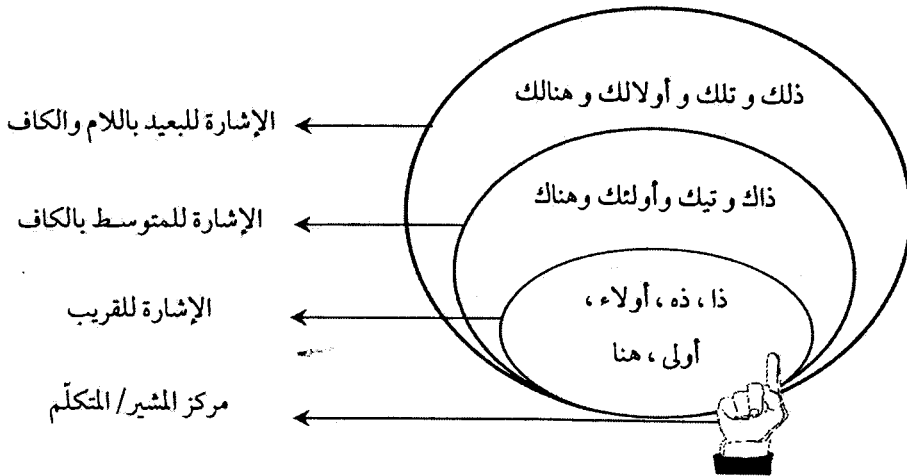
وأما السياق غير اللغوي فقد قسمه النحويون إلى ثلاثة أقسام ، ورأوا أن لكل قسم أداة إشارية خاصة به للتعبير عنه ، وذلك على النحو الآتي :

المرتبة	الأداة	نوعها	العلّة
قريب	ذا	للمفرد المذكر	وهو المجرد من لام البعد وكاف الخطاب
	ذِي ، ذِهِي ، ذِه ، ذِه ، ذات ، تِي ، تِهِي ، تِه ، تِه ، تا	للمفردة المؤنثة	
	ذَانِ	للمثنى المذكر	
	تَانِ	للمثنى المؤنث	
	أولاء (بالمد) أولى (بالقصر)	للجمع مطلقاً	
	هنا	للمكان	
متوسط	ذاك	للمفرد المذكر	لإضافة الكاف ، إذ الزيادة في المبنى تفضي إلى الزيادة في المعنى . وقد رفض بعض النحاة هذه الرتبة مقتصرًا على القريب والبعيد ^(١)
	تِيكَ	للمفردة المؤنثة	
	ذَانِكَ	للمثنى المذكر	
	تَانِكَ	للمثنى المؤنث	
	أولئك	للجمع مطلقاً	
	هناك	للمكان	

(١) نَسَبَ الصَّفَاؤُ هذا الرأي إلى سيبويه . انظر « المساعد » ١ : ١٨٥ .

المرتبة	الأداة	نوعها	العلّة
بعيد	ذلك	للمفرد المذكر	وذلك بزيادة اللام علاوة على الكاف ، فكثروا الحروف حين كثرت مسافة الإشارة ^(١)
	تلك ، تالك	للمفردة المؤنثة	
	أولالك (بالقصر)	للمجمع مطلقاً ^(٢)	
	هنالك	للمكان	

ويمكن تمثيله أيضًا بالشكل الآتي :



وقد تناول النحاة المدى الإشاري من خلال العلاقة بين هذه العلامات (أسماء الإشارة) ومدى المشار إليه في الاستعمالات القياسية .

(١) انظر « نتائج الفكر » ٢٢٨ .

(٢) انظر « المساعد » ١ : ١٨٣ .

فالكون (ذلك) يتركّب من (ذا) اسم الإشارة ، و (الكاف) علامة الخطاب التي تبين أحوال المخاطب من أفراد ، وتثنية في (كما) وجمع في (كم و كن) ، وتذكير وتأنيث في (ك) .

أما اللام فقد زيدت لتدلّ على بعد المشار إليه ، وقد كسرت ، أي أنّ حركتها هي الكسرة لسبيين :

الأول : التقاء الساكنين ، والثاني : أمن البس . إذ إنّ فتحها يجعلها تلتبس بلام الملك ، لو قلت : (ذاك) .

وقد حدّد الزمخشري مدى الإشارة بشكل عام حين جعل (ذا) للقريب ، و (ذاك) للمتوسّط ، و (ذلك) للبعيد^(١) . فإن كان ذلك مقبولا من الوجهة النظرية فعلينا أن نبحث عن سند له في التطبيق . وربما عثر على تفسير أقرب إلى التصوير الواضح للمدى الإشاري في كلام ابن يعيش ، حيث يرى أنّ « (ذا) إشارة إلى القريب بتجرّدها من قرينة تدلّ على البعد ، فكانت على بابها من إفادة قرب المشار إليه ؛ لأنّ حقيقة الإشارة الإيحاء إلى حاضر ، فإذا أرادوا الإشارة إلى متّحّ متباعد زادوا كاف الخطاب ، وجعلوه علامة لتباعد المشار إليه ، فقالوا : (ذاك) ، فإن زاد بُعد المشار إليه أتوا باللام مع الكاف ، فقالوا : (ذلك) . واستفيد باجتماعها زيادة في التباعد ؛ لأنّ قوّة اللفظ مشعرة بقوّة المعنى »^(٢) .

وفي هذه العبارة لمحات في غاية الدقّة والنفاذ إلى الكشف عن حقيقة الإشارة ودرجاتها، كما أنّ عبارته الأخيرة (أنّ قوّة اللفظ مشعرة بقوّة المعنى) أصدق دلالة على

(١) انظر « شرح المفصل » لابن يعيش ، ٣ : ١٣٥ .

(٢) « شرح المفصل » ٣ : ١٣٥ .

الوظيفة التي لا ينفصل فيها اللفظ عن المعنى ، فدلالة لفظ الإشارة في صورته المجردة (ذا) الإيحاء إلى حاضر (المعنى الأساسي) ، فإذا أضيف إليه الكاف (قوة اللفظ) تمكّن في الإشارة إلى ما هو أبعد من الحاضر ، أي الإشارة إلى متّح متباعد (قوة المعنى) . ثم إذا زيدت اللام (أي زادت قوة اللفظ) باجتماع الكاف واللام مع اسم الإشارة زاد التباعد ، أي وصلت الإشارة إلى أبعد مدى ، وهو معنى أقوى ممّا سبق ولم يتوفّر إلا بتلاحم تلك العناصر الثلاثة معاً ^(١) .

وحقيقة الأمر أنّ هذا التقسيم الثلاثي للمدى الإحالي لاسم الإشارة يزيد من شعث المسألة ، ويجعل المدى الإحالي غير منضبط ؛ لذا أرى أن تضمّ الإشارة إلى الرتبة الوسطى مع الإشارة إلى البعيد ليصبح عندنا قسمان فقط : الإشارة إلى قريب ، والإشارة إلى بعيد ، ويكون ذلك هو الأصل في استخدام اسم الإشارة .

ولو أمعنا النظر في تلك العناصر الزائدة التي تدخل على اسم الإشارة لوجدناها كالآتي :

١ - (اللام) و (الكاف) :

الكاف الداخلة على اسم الإشارة هي كاف الخطاب ، أي أنّها تفيد الخطاب دون الاسمية ؛ لأنّ الكاف اللاحق بأسماء الإشارة عند النحاة للخطاب دون معنى الاسمية ، قال ابن يعيش في الضرب الثاني من كاف الخطاب : « الثاني نحو : (الكاف اللاحقة بأسماء الإشارة نحو : ذاك وذانك وذينك وتاك وتانك وتينك وتيك وذيك وأولئك) الكاف في جميع ذلك للخطاب مجرّداً من معنى الاسمية . والذي يدلّ على تجرّدها من

(١) انظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » ١٣٢ .

معنى الاسمىة أنها لو كانت باقية على اسميَّتها لكان لها موضع من الإعراب إمّا رفع وإمّا نصب وإمّا خفض ، وذلك ممتنع ههنا ^(١) .

ودليل حرفيّة الكاف إثبات النون معها في (ذانك) و (تانك) ، إذ لو كانت اسميّا لوجب حذف النون قبلها وجرّها بالإضافة . وما يهّمنا هو إشارته إلى المعنى الذي يختص به الكاف ، وهو أشبه بمعنى بعض الضمائر وخاصة ضمير الشأن .

يقول ابن يعيش موضّحاً الفروق بين كاف الخطاب والكاف المضمر أو بين الكاف الحرفية والكاف الاسمىة بعد تمثيله بقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ الإسراء : ٦٢ : « فإذا قلت لك أو إليك فقد خاطبته باسمه كناية ، وإذا قلت ذاك أو ذلك فقد خاطبته بغير اسمه ، ولذلك لا يحسن أن يقال للمعظم من الناس هذا لك ولا إليك ، ويحسن أن يقال : قد كان ذلك ، وهو كذلك » ^(٢) .

إنّ هذا المعنى هو أكثر المعاني شيوعاً في استعمالات القرآن الكريم ، كما أنّ الكاف لا ترد في صورة واحدة ، فتختلف في الحركة التي تأخذها ونوع العلامة تبعاً لأحوال المخاطب أو المخاطبين . وقد كان ابن يعيش دقيقاً في تفسيره عبارة الزمخشري « يتصرّف (كاف الخطاب) مع المخاطب في أحواله من التذكير والتأنيث » . إذ يقول : « فالمراد أنّه تختلف حركات هذه الكاف ليكون ذلك أمانة على اختلاف أحوال المخاطب من التذكير والتأنيث ، وتلحقه علامات تدلّ على المخاطبين » ^(٣) .

(١) « شرح المفصل » ٣ : ١٣٤ .

(٢) « شرح المفصل » ٣ : ١٣٤ .

(٣) « شرح المفصل » ٣ : ١٣٤ .

فالحركة علامة تشترك مع علامة العدد (المفرد والثنية والجمع) في توضيح أحوال الخطاب والمخاطبين ، والدليلان الموضحان ذلك هما نعت اسم الإشارة ونداء المخاطب . ومثال مخاطبة المذكر قوله تعالى في قصة يوسف : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ يوسف : ٥٢ . ومثال مخاطبته المؤنث قوله تعالى في قصة مريم : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنٍ ﴾ مريم : ٩ . ومثال مخاطبة المثنى قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ يوسف : ٣٧ . ومثال مخاطبة جمع المذكر : ﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام : ١٠٢ . ومثال مخاطبة جمع النسوة : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ يوسف : ٣٢^(١) .

تلك الاستعمالات الشائعة تسير على وفق القياس . كما قال : « وعلى هذا فقس ما يأتيك من هذا ، هذه هي اللغة الفاشية التي يقتضيها القياس ، وعليها معظم الاستعمال »^(٢) .

أما اللغة الأخرى التي أشار إليها ولها استعمالات كثيرة في القرآن الكريم أيضًا فلم يهملها ، بل نبه عليها حين قال : « وفيها لغة أخرى نقلها الثقات ، وهي أفراد علامة الخطاب وفتحها على كل حال تغليبًا لجانب الواحد المذكور ... »^(٣) ، هذا يعني أن الكاف علامة ثابتة صالحة للدلالة على معنى الإشارة بوجه عام من دون حاجة للتغير الحركي أو إبدال علامة النوع ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ البقرة : ١٤٣ . وفي ذلك الاستعمال مخالفة لقياس اللغة الأولى ؛ لأن قياسها يقتضي

(١) « شرح المفصل » ٣ : ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢) « شرح المفصل » ٣ : ١٣٥ .

(٣) « شرح المفصل » ٣ : ١٣٤ .

القول (وكذلك) ؛ لأنّ الخطاب لجماعة كما هي الحال في الاستعمال القياسي في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ الفتح : ١٥ . حتى في التعليل كان استعمال اللغة الأخرى لمعنى معيّن ، فقد قال تعالى : ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَضُرَّكُمْ وَيُئَيِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ محمد : ٧ ، إلى قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ ﴾ محمد : ٩ . ولم يقل : (ذلكم) والمخاطب جماعة .

ويعني ذلك أن النحاة يصرون على المطابقة بين علامة الخطاب (الكاف) والمخاطبين ، سواء أكان اتجاه الخطاب إلى متقدّم أم إلى متأخر ، وعلى الرغم من إدراكهم للدلالة أخرى في استعمالات كثيرة لم تراعى تلك المطابقة أو المناسبة ، ولكنها في رأيهم قد خرجت على القياس والشيوع .

ويرجح د. سعيد بحيري^(١) أن اسم الإشارة - أو ضمير الإشارة كما يسمّيه - قد انتقل من خلال تلك الاستعمالات إلى الحرفية ، وصار رابطاً من الروابط التي تعقد صلة بين أحداث متقدّمة ونتيجة لاحقة . فإذا كان النظر إلى المخاطب أو المخاطبين الموجه إليهم الخطاب فتراعى المطابقة ، وإذا كان التركيز على الخطاب ذاته فتتوارى تلك المطابقة .

٢ - (ها) التنبيه :

تضيف (ها) الداخلة على أوّل اسم الإشارة معنى آخر إلى حقيقة الإشارة في (ذا) ، قال ابن يعيش : « اعلم أن (ها) كلمة تنبيه ، وهي على حرفين كـ (لا) و (ما) . فإذا أرادوا تعظيم الأمر والمبالغة في إيضاح المقصود جمعوا بين التنبيه

(١) انظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » ١٣١ .

والإشارة ، وقالوا : (هذا و هذه وهاتِه وهاتا وهاتي) فـ (ها) للتنبية ، و (ذا) للإشارة ، المراد : تَنَبَّه أيها المخاطب لمن أشير إليه ، وتسقط ألفه في الخط لكثرة الاستعمال وهي ثابتة لفظاً ^(١) .

الانحراف الاستعمالي في أسماء الإشارة :

ذكرتُ أنَّ الأصل في استعمال اسم الإشارة أن يشار إلى المحسوس القريب باسم إشارة مجرد من اللام والكاف ، وأن يشار للبعيد باسم إشارة مقترن بالكاف ، أو باللام والكاف .

(ذا) للقريب ، و (ذلك) للبعيد . (ذِه) للقريب ، و (تلك) للبعيد ، (أولاء) للقريب ، و (أولئك) للبعيد .

وأرى أنَّ هذه الألفاظ مختلطة من حيث الاستعمال في الإشارة إلى البعد المكاني أو الزماني ، وربما كان مرده هذا الاختلاط إلى لغات القبائل ، حيث تستخدم قبيلة ما لفظةً للقريب ، وتستهملها غيرها للإشارة بها إلى البعيد . فقد زعم الفراء أنَّ ترك اللام هي لغة تميم ^(٢) . وهو ما يدلُّ على أنَّ للإشارة مرتبتين فقط : قربى وبعدى . وهذا أمر يجري كثيراً طبقاً لواقع التأثير والتأثر بين اللهجات أو اللغات .

ونجد بالتأمل في آيات القصص القرآني أنَّ هناك خروجاً على الأصل الذي وضعه النحاة ، وقد تحدثوا عن تلك المخالفة ، وحملوا كلَّ استخدام مخالف للأصل على المجاز ، وسأعرض لطرف من ذلك فيما يأتي :

(١) « شرح المفصل » ٣ : ١٣٦ .

(٢) انظر « المساعد » ١ : ١٨٥ .

• استخدام البعيد للإشارة إلى القريب :

قد ينوب اسم الإشارة الموضوع للإشارة إلى البعيد عن اسم الإشارة الموضوع للإشارة إلى القريب ، وذلك للدلالة على عَظَمَةِ المشير ، كقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴾ طه : ١٧ . فالأصل أن يشير بـ (هذه) نظرًا إلى كونها في متناول يد موسى عليه السلام ، فهي قريبة منه ، ولكنه استخدم (تلك) التي يشار بها إلى البعيد ، وذلك لبعد مكانة المشير ، وهو الله سبحانه . واستخدام اسم الإشارة مع الاستفهام هنا مفادُهُ التنبية ، وجمع النفس لما يورد عليها ، فالله سبحانه عَلِمَ في الأزل ما هي ، وإنما سأله ليريه عِظَمَ ما يخترعه - عز وجل - في الخشبة اليابسة من قلبها حَيَّةٌ نضاضة ، ويتقرر في نفسه المباشرة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه ، وينبهِه على قدرته الباهرة .

قال الزنجشري : يجوز أن يكون (تلك) اسماً موصولاً صلته (يمينك) ، وليس ذلك مذهباً للبصريين وإنما ذهب إليه الكوفيون ، قالوا : يجوز أن يكون اسم الإشارة موصولاً حيث يتقدر بالموصول كأنه قيل : وما التي يمينك ؟ وعلى هذا فيكون العامل في المجرور محذوفاً كأنه قيل : وما التي استقرت يمينك ؟ وفي هذا السؤال وما قبله من خطابه تعالى لموسى عليه السلام استئناس عظيم وتشريف كريم ^(١) .

أو للدلالة على عظمة المشار إليه ، ومنه قوله تعالى في قصة يوسف ، عليه السلام : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٢١ ﴾

(١) انظر « البحر المحيط » موقع التفاسير .

قَالَتْ فَذَلِكَ الَّذِي لُتْمَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرْتُ لَيْسَجَنَّ
وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿يوسف : ٣٠ - ٣٢﴾ . فاستخدم اسم الإشارة البعيد (فذلك)
بعد اسم الإشارة القريب (هذا) ، والمشار إليه بهما هو يوسف - عليه السلام -
والمجلس واحد؛ وذلك لأنّ مرأى يوسف عند امرأة العزيز كان أعظم من مرآه عند
النسوة ، فأشارت إليه بما يُشار به للبعيد إعظاماً وإجلالاً ^(١) . أو أنّها أرادت تعظيمه
ورفع قدره أمام النسوة لتُظهر عذرها في شغفها به ^(٢) .

واسم الإشارة (ذلك) بها تضمّنه من الإشارة إلى الأفعال قد يكون وسيلة إلى
إبطال الحكم المسند إليه وإنكاره . قال الطبري : « يقول تعالى ذكره : قالت ... فهذا
الذي أصابك في رؤيتك إياه وفي نظرة منك نظرت إليه ما أصابك من ذهاب العقل
وغروب الفهم حتّى قطعتن أيديك هو الذي لمتني في حبي إياه » .

فالإشارة بحسب تفسير الطبري تصوّر درجته في الحسن حتّى أصابهنّ من النظر
إليه ما أصابهنّ ، وهي تريد بذلك أن تنكر عليهنّ اللوم وتبيّن لهنّ أنّها معذورة في حبّ
من يبلغ هذه الدرجة العظمى في الحسن فأتخذت اسم الإشارة وسيلة لإنكار المسند

(١) انظر « المساعد » ١ : ١٩١ .

(٢) انظر « اللباب في علوم الكتاب » ١١ : ٩٢ . ويرى بعضهم أنّ الإشارة هنا جاءت على الأصل ،
فهى للبعيد لفظاً ودلالة ، وأنّ (ذلك) تشير إلى حبّ امرأة العزيز ليوسف - عليه السلام - ،
والضمير في (فيه) يعود على الحب ، فيكون (ذلك) محيلاً على غائب ، أي : بعيد . انظر « المحرر
الوجيز » لابن عطية ، ٣ : ٢٤١ . أو نقول : إنّ المشار إليه هو يوسف ، وقد استخدمت الإشارة
بلفظ البعيد نظراً إلى انصرافه من المجلس حين حصلت الإشارة . انظر « اللباب في علوم
الكتاب » ١١ : ٩٣ .

(لمستني) وتبرير الفعل الذي لامها النسوة عليه ، فجمع هذا الاسم بإيجاز تعظيم حُسن يوسف - عليه السلام - والإنكار على اللاتعات وتبرير افتتانها به . والله أعلم ^(١) .

● استخدام القريب للإشارة إلى البعيد:

قد ينوب اسم الإشارة الموضوع للقريب عن اسم الإشارة الموضوع للبعيد ، وذلك
 لحكاية الحال . منه قوله تعالى في قصة موسى ، عليه السلام : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ
 غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاذَهُ الَّذِي مِنْ
 شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ
 مُبِينٌ ﴾ القصص : ١٥ . فقلوه : (هذا من شيعة) و (هذا من عدوه) على حكاية الحال
 الماضية ، فكأنهما حاضرا^(٦) . أي إذا نظر الناظر إليهما قال : هذا من شيعة وهذا من
 عدوه^(٧) . قال المبرد : العرب تشير بـ (هذا) إلى الغائب ، أي : البعيد ، وأنشد
 الجبر :^(٨)

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

ويمكن أن ندرج هذا الخروج والانحراف عن الأصل الاستعمالي لاسم الإشارة تحت ظاهرة الالتفات بمعناه الواسع ، حيث يلتفت المتكلم من الغائب البعيد إلى بنية الحاضر القريب ؛ لاستحضاره في الموقف الكلامي . ولو تأملنا بيت جرير لأدركنا ذلك ، فقد استخدم الإشارة بالقريب ليستحضر ذات الخليفة في مجلسه مما يعث الهبة

(١) انظر «المباحث البلاغية في تفسير الطبري» ١: ١٧٨.

(٢) انظر « البحر المحيط » ٧: ١٠٩ .

(٣) انظر « معاني القرآن وإعرابه » للزجاج ، ٤ : ١٣٦ .

(٤) انظر « البحر المحيط » ١٠٩: ٧، و« اللباب » ١٥: ٢٢٦.

والخوف في قلوب المخاطبين ، خصوصًا أن الموقف هنا فيه نوع من التهديد ، فكأنها يهتد مخاطبيه ويخوفهم بشاهد حاضر بينهم .

• تعاقب أداة القرب والبعد في الإشارة إلى شيء واحد :

قد يتعاقب اسم الإشارة الموضوع للقريب مع اسم الإشارة الموضوع للبعيد في الإشارة بهما إلى شيء واحد ، كقوله تعالى في سياق قصة عيسى - عليه السلام - الذي ورد فيها سبق : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ آل عمران : ٥٨ . ثم قال بعد ذلك في نفس السياق : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَبَّيْكَ اللَّهُ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ آل عمران : ٦٢ . فأشار بـ (ذلك) إلى ما أشار به بـ (هذا) ، وهو ما تقدّم من أخبار عيسى - عليه السلام - ونفي الألوهية عنه ^(١) .

• الإشارة إلى الاثنين بلفظ الواحد :

قد يشار إلى الاثنين بلفظ وضع للإشارة إلى الواحد ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة البقرة : ﴿ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَّانٌ بَيْنَكَ ذَٰلِكَ ﴾ البقرة : ٦٨ . ولم يقل : بين ذلكما ، مع أن المشار إليه هو شيثان (فارض) و (بكر) ^(٢) .

• (هنا) للإشارة إلى الزمان :

تستخدم (هنا) للإشارة أيضًا ، غير أنه لا يشار بها إلا إلى ما حضر من المكان ، وتلحق بها (هاء) التنبيه فقط ، فيقال : (ها هنا) مثل (هذا) ، أو الكاف فقط ، فيقال :

(١) ومذهب الجرجاني وطائفة معه أن (ذلك) قد يكون للحاضر (القريب) بمعنى (هذا) . وأنكر

ذلك السهيلي . انظر « المساعد » ١ : ١٩١ . وانظر « البحر المحيط » ٢ : ٤٧٦ ، ٤٨١ .

(٢) انظر « المساعد » ١ : ١٩١ .

(هناك) مثل : (ذاك) ، أو اللام والكاف ، فيقال : (هنالك) مثل : (ذلك) . منه قوله تعالى في قصة موسى : ﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَتَلُودُ ﴾ المائدة : ٢٤ . ف (هنا) إشارة إلى مكان قريب ، و (هناك) إشارة إلى مكان متباعد ، فإن أرادوا زيادة البعد جاءوا باللام فقالوا : (هنالك) ، ومنه قوله تعالى في قصة صاحب الجنتين : ﴿ هَٰذَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ الكهف : ٤٤ .

فالنحاة إذن فصلوا المعاني العامة للبنية الإحالية لاسم الإشارة ، وأشاروا إلى الدلالات الجزئية للعناصر المختلفة التي تشترك مع المكوّن الأساسي لتحقيق تلك الإضافات ، وقد راعوا الاستعمال أيضًا في بعض المواضع ، وخروجه على القيود العامة التي تحكم القاعدة النحوية المجردة . وعلى الرغم من الاختلاف في مسائل معينة ، فإننا لا نُغْنَى بالخلاف ذاته قدر عنايتنا بها يرد فيه من إشارات مفيدة . ومن ذلك مثلاً الاختلاف حول مدى الإشارة (الإحالة) . فالخلاف حول مراتب الإشارة هل هي قريبي ووسطى وبعدي ، أو قريبي وبعدي (أو مرتبة دنيا ومرتبة تراخ) ؟ ليس مهمًا في حد ذاته ، بل الأهم هو ما مدى صدق المقولات في الاستعمال اللغوي .

ومن خلال ما سبق تبين لنا أن الأصل في (هنا) أنها تستخدم للإشارة بها إلى المكان ، ولكنها قد تستخدم في الإشارة إلى الزمان ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة الأحزاب : ﴿ هَٰذَاكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا ﴾ ^(١) الأحزاب : ١١ . فنستطيع أن نتبين البعد الدلالي وهو دلالة الظرفية الزمانية عندما ننظر في السياق الذي وردت فيه ، يقول تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ

(١) انظر «المساعد» ١ : ١٩٣

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ الأحزاب : ٩ - ١١ . إذ ليس في السياق ذكر لمكان محدد يشار إليه بـ (هنالك) ^(١) .

نيابة اسم الإشارة (ذا) عن الضمير ، وعن الاسم الموصول :

أ- بين اسم الإشارة والضمير :

بين اسم الإشارة والضمير وشائج قويّة ، وعناصر اتفاق بارزة ، دفعت كثيرًا من اللغويين إلى جعلهما كالشيء الواحد .

فالإبهام هو صفة جمعت بين الإشارة والضمير ، فكلاهما يحتاج إلى مفسّر يوضحه ، وقد اشتركا في اتجاه الإحالة ، فكلاهما يحيل إلى سابق ولاحق . وكل من اسم الإشارة والضمير لا يمكن أن يقوم بوظيفته منفردًا ، ولا بدّ أن يعمل من خلال وجوده في نصّ ما ، أو على الأقل داخل تركيب ؛ ليتسنى له أن يوجد ما يوضحه ويزيل إبهامه .

ومّا يذكره النحاة أنّ اسم الإشارة مبني ، وعلل بعضهم بقوله : « إنّها بُني اسم الإشارة لشبهه بالمضمر ، وذلك لأنّك تشير به إلى ما بحضرتك ما دام حاضرًا ، فإذا غاب زال عنه ذلك الاسم ، والأسماء موضوعة للزوم مسمياتها ، ولما كان هذا غير لازم

(١) وقيل : إنّها ظرف مكان على الأصل ، أشير بها إلى المكان البعيد ، أي : في ذلك المكان الدّخض ، وهو الخندق . انظر « اللباب » ١٥ : ٥١٣ . وقيل : « الإشارة بـ (هنالك) إلى المكان الذي تضمنه قوله : ﴿ جَاءُوكُمْ جُودٌ ﴾ الأحزاب : ٩ ، وقوله : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ ﴾ . والأظهر أن تكون الإشارة إلى الزمان الذي دلت عليه (إذ) في قوله : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ . وكثيراً ما ينزل أحد الطرفين منزلة الآخر . « التحرير والتنوير » ١٠ : ٢٨٢ .

لما وضع له صار بمنزلة المضمير الذي يسمّى به إذا تقدّم ظاهره، ولم يكن اسمًا له قبل ذلك، فهو اسم للمسمّى في حال دون حال، فلمّا وجب بناء المضمير وجب بناء المبهّم كذلك^(١). وعلى هذا الرأي فإنّ البناء في اسم الإشارة إنّما كان بسبب الشبه الكبير بينه وبين الضمير.

وهذا الشبه الكبير بين اسم الإشارة والضمير هو مادفع بعض اللغويين المحدثين إلى تسمية اسم الإشارة بـ (ضمير الإشارة)، كما نجد ذلك عند د. تمام حسان، ود. سعيد بحيري، وغيرهما^(٢).

فالدكتور تمام حسان يرى أنّ الضمير هو ما دلّ على مطلق حاضر أو غائب^(٣). وأنّ هذا التعريف قد جاء في ألفية ابن مالك، ولكنّ ابن مالك وشراح ألفيته لم يصلوا بهذا التعريف إلى نهايته المنطقية - على حدّ قوله -، قال ابن مالك:

وما لذي غيبة أو حضور
ك (أنت) و (هو) سمّ بالضمير

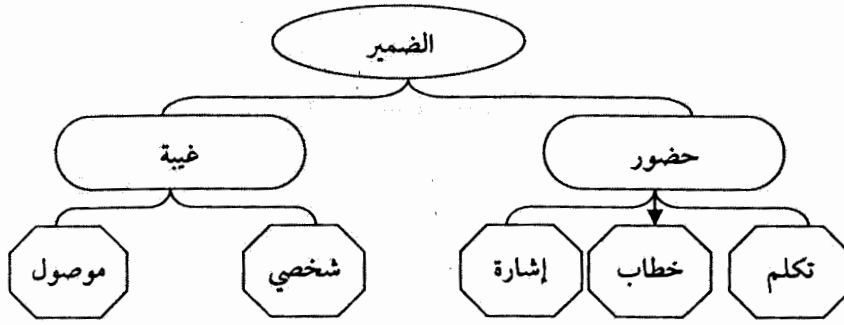
فالضماير عند د. تمام حسان:

- الأول: ضماير الحضور، ويندرج تحته ثلاثة أنواع: (التكلّم والخطاب والإشارة).
والثاني: ضماير الغيبة، وهي نوعان: (شخصية وموصولية).
وقد مثلها في الشكل الآتي:

(١) «شرح المفصل» لابن يعيش، ٣: ١٢٦.

(٢) انظر «اللغة العربية: معناها ومبناها» ١١٠. و «دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة» ١٢٦، و «البنية الدلالية والإحالية للضماير» د. أشرف عبد البديع، ٩٠.

(٣) انظر «الخلاصة النحوية» ٤٠، ٩١.



وهذا التقسيم الذي انتهجه د. تمام حسان يشبه إلى حد كبير أقسام الضمير في الإنجليزية، حيث جاءت تسعة أنواع كما يأتي :

١ - الضمائر الشخصية (Personal pronouns) : هي مجموعة من الضمائر يحل بعضها محل الفاعل ، نحو : (I , you , he , she , it , we) ويحل بعضها محل المفعول به مثل : (Me ,you , him , her ,it , us) .

٢ - الضمائر الملكية (Possesive pronouns) : هي التي تفيد الملكية أو ملكية شيء معين لشخص أو ما إلى ذلك مثل : (Mine , yours ,his , hers , ours , yours , theirs) .

٣ - ضمائر الإشارة (Demonstrative pronouns) : هي التي تستخدم فيها أدوات الإشارة ، مثل : (this , that , these , those , such) .

٤ - الضمائر الانعكاسية (Reflexive pronouns) : هي ما كان الضمير فيه مفعولاً للفعل ومتحدًا مع الفاعل منعكسًا وعائدًا عليه ^(١) .

(1) Perlmutter, D.& Soames, S. : Syntactic Argumentation and the Structure of English (U.S.A 1979) p:9.

وانظر « الضمائر المنعكسة في اللغة العربية » د. محمود أحمد نحلة ، ٤ . دار العلوم العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠ هـ .

وتصاغ عن طريق إضافة (Self) للمفرد أو (selves) للجمع إلى الضمائر الآتية : (my, your, our, him, her, it, them) .

٥ - الضمائر الاستفهامية (Interrogative pronouns) : هي الضمائر التي تستخدم في صيغة الأسئلة ، أو لفرض سؤال معين ، وهي التي تبدأ بـ (Wh) . وهذه الضمائر هي :

(what, which, who, whom, and whose) .

٦ - ضمائر النفي أو الضمائر المنفية (Negative pronouns) : هي التي تستخدم لنفي العبارة أو الجملة الاسمية ، وهذه الضمائر هي :
(no-one, nobody, neither, none and nothing)

٧ - الضمائر التبادلية (Reciprocal pronouns) : هي التي تفيد وتشير إلى تبادل شيء معين بين شخصين ، وهذه الضمائر هي :
(each other / one another)

٨ - ضمائر الوصل (Relative pronouns) : هي التي تربط مجموعة من الكلمات بأسماء معينة أو ضمائر أخرى ، وهي : (who, whoever, which, that) .

٩ - الضمائر الكمية (Quantifier) : هي تفيد الكمية والمقدار ، مثل :
(some, any, something, much, many, little, few , a lot)

ونلاحظ من خلال أنواع الضمير في الإنجليزية أن استخدام د. تمام حسن وغيره مصطلحي (ضمير الإشارة) و (ضمير الموصول) للتعبير بهما عن (اسم الإشارة) و (الاسم الموصول) إنما كان مقتبسًا من الإنجليزية .

والذي أراه أن مصطلح (ضمير الإشارة) قد يتسبب لنا في إشكالات ، أهمها أن اسم الإشارة لا يجوز إضماره واستتاره ، فكيف نطلق عليه مصطلح الضمير ١٩ ؟
ولذا فرّق البصريون بين المضمرات والمكنيات ، فيرون أن الضمير نوع من المكنيات ، فكلّ مضمّر مكني ، وليس كلّ مكني - ومنها أسماء الإشارة - مضمراً ^(١) .
ولذا آثرت استخدام مصطلح القدامى وهو (اسم الإشارة) خروجاً من ذلك الإشكال .

نيابة ضمير الفصل الغائب عن اسم الإشارة :

الأصل في اسم الإشارة أنه يفيد الحضور المادي والعهد الذكري ، فالحضور المادي يعني أنك قد ترى شخصاً لا تعرفه ماثلاً أمامك ، فتسأل بقولك : (من هذا ؟) ، فلا يمكن حينئذ أن يحلّ ضمير الغائب محلّ الإشارة ، فلا نقول : (من هو ؟) إلا مع افتراض وجود المرجع ، كأن تفترض أن مخاطبك قال : (وأخيراً وصل !) ، فتبني افتراضك هذا على كلام المخاطب عند ظهور الشخص المذكور .

أما العهد الذكري فذلك عن سبق كلام جرى قوله ، فعند الانتهاء من قوله وإرادة استئناف كلام آخر تشير إلى الكلام السابق بقولك : (هذا) ، أي انتهى الكلام الذي كنّا نقوله ، ونودّ أن نضيف ما يلي . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ لَشَرٌّ مِّنَّا ﴾ ص : ٥٥ ، إذ جاءت الإشارة محيلة إلى ما سبق بدءاً من قوله تعالى : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّكَارٍ ﴾ ٥٩ جَنَّتْ عَدْنِي مَفْنَحَةً لَهُمُ الْأَنْبُوبُ ﴿ ٥٠ ﴾ مُتَكِبِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرٍ وَشِرَابٍ ﴿ ٥١ ﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْكَرْبِ أَرْابُ ﴿ ٥٢ ﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ

(١) انظر « شرح المفصل » ٣ : ٨٤ .

﴿٥٢﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكَ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٣﴾ ص : ٤٩ - ٥٤ . عندئذ جاءت الإشارة إلى هذا الكلام الذي يشرح حال المتقين ، ثم جاء استئناف الكلام لشرح حال الطاغين مبدوءاً بحرف العطف على ما سبق : ﴿ هَذَا وَإِلَ الطَّغِينِ لَشَرِّ مَثَابٍ ﴾ ، وواضح أنه كان يمكن العطف من دون الإشارة بلفظ (هذا) ، وحينئذ سيكون الكلام متصلاً لا مستأنفاً ، أي أن اسم الإشارة (هذا) دلّ على إرادة الاستئناف ، فلا يكون للربط ^(١) . فيطرّد إمكان استبدال ضمير الغائب باسم الإشارة في كل موقع تربط فيه بين عنصر الجملة ^(٢) .

ويرى د. تمام حسان أن الإشارة في معظم أحوالها صالحة لمعاقبة ضمير الفصل للغائب ، فإذا أردت ربط الخبر بالمبتدأ فإنك تضع الإشارة في موضع ضمير الفصل . ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَبْقَىٰ آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوْرِي سَوْءَ بَدَنِكَ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِّنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ الأعراف : ٢٦ .

فيمكن وظيفياً لضمير الغائب أن يحل محل الإشارة ، فيكون الخبر في هذا الشاهد (هو خير) . وكذلك في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان : ٣٤ . فيمكن لضمير الفصل هنا أن يحل محل اسم الإشارة (أولئك) ليصبح التقدير : (هم شرٌّ مكاناً) . بل إن الإشارة والضمير قد يجتمعان معاً في موضع واحد ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ البينة : ٧ .

(١) انظر « اجتهادات لغوية » ٥٦ - ٥٧ .

(٢) انظر « البيان في روائع القرآن » ١ : ١٤٠ .

نيابة ضمير الشأن عن اسم الإشارة :

قد يشار إلى كلام لاحق باسم الإشارة (إحالة بعدية) ، فلا يكون ثمة فارق بينه وبين ضمير الشأن. من ذلك قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۝٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٥٩ ﴾ آل عمران : ٥٨ - ٥٩ . فمرجع اسم الإشارة (ذلك) متأخر عليه ، هو قوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ ... ﴾ . وكذا قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۝٢٨ ﴾ فصلت : ٢٨ . فالإشارة هنا في قوة ضمير الشأن ، كأنه قيل : إنه جزاء أعداء الله النار . ويعضد هذا الفهم بأن الوقف على لفظ (النار) جائز ، فتكون معاقبة الضمير لاسم الإشارة حجة على أن الربط من أهم وظائف الإشارة ^(١) .

وكذلك يمكن الإشارة إلى كلام سابق باسم إشارة ، شريطة أن يتلوه واو العطف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَيْهِيمَةٍ الْأَنْفَعِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ۝٢٨ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝٢٩ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۝٣٠ ﴾ الحج : ٢٧ - ٣٠ . فقوله : (ذلك) إشارة إلى الشأن السابق في الكلام ، والواو عاطفة على ما يلي ، أي أن من الشأن النحوي ما يكون مرجعاً لاسم الإشارة ، سبقه اسم الإشارة أو لحقه ^(٢) .

(١) انظر « الخلاصة النحوية » ٩٢ .

(٢) انظر « خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم » ٤٠ .

ب- بين اسم الإشارة والاسم الموصول :

تعدّ نيابة اسم الإشارة عن الاسم الموصول من المسائل الخلافية بين المدرستين :

فالبصريون لا يُجيزون استعمال أسماء الإشارة اسمًا موصولًا ، إلّا (ذلك)
وبشروط، هي :

١ - ألا تكون للإشارة ، لأنها لو كانت كذلك لدخلت على المفرد ، نحو :
(من ذا الذاهب ؟) ، والمفرد لا يصحّ أن يكون صلة لغير (أل) .

٢ - و ألا تكون (ذا) ملغاة ، بأن تكون مركبة مع (ما) اسمًا واحدًا . أو يحكم
بزيادة (ذا) .

٣ - وأن يتقدّمها استفهام بـ (ما) باتفاق ، أو بـ (من) على الأصحّ .

والكوفيون ذهبوا إلى أنّ (ذا) وجميع أسماء الإشارة تستعمل موصولة ، سواء
تقدمت عليها (ما) الاستفهامية أم لا ، استدلالًا بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ
تَقُولُونَ أَنْفُسُكُمْ ﴾ البقرة : ٨٥ . أي : أنتم الذين . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ
بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى ﴾ طه : ١٧ . أي : ما التي يمينك ؟ وهو ما ذهب إليه الزمخشري
حيث جوّز أن تكون (تِلْكَ) موصولة بمعنى (التي) و (يَمِينُكَ) صلتها . ولم يذكر
ابن عطية غيره . وقال الفراء معناه : وَمَا هَذِهِ التي في يمينك ^(١) . كما حمل الزجاج -
وتابعه الزمخشري - على ذلك أيضًا قوله تعالى في قصة عيسى : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ
الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ آل عمران : ٥٨ . ف (ذَلِكَ) اسم موصول بمعنى (الذي)

(١) انظر « اللباب » ١٣ : ٢٠٨ .

و(تَتْلُوهُ) صلة وعائد ، وهو مبتدأ خبره الجار بعده أي : الذي نتلوه عليك كائن من الآيات ، أي : المعجزات الدالة على نبوتك ^(١) .

والصواب ما ذهب إليه البصريون بأن (هؤلاء ، وتلك ، هذا) أسماء إشارة ، وليست أسماء موصولة . وقد ردّ ابن الأنباري وابن يعيش ما احتجّ به الكوفيون ^(٢) .

الاتجاه الإحالي في أسماء الإشارة ونوع المحال عليه :

تتميّز أسماء الإشارة بقدرتها على الإحالة إلى السابق أو اللاحق ، شأنها في ذلك شأن الضمائر ، كما أنّها تحيل على الأشخاص ، والأشياء ، والأحداث ، والكلمات المفردة ، والجمل ، والمقاطع النصيّة ، أو تحيل على الشيوخ (غير المعيّن) .

والذي يتحكّم في ذلك كلّهُ هو قصد المتكلّم ، وقدرة المخاطب على فهم المقصود ، إضافة إلى ملابسات السياق .

ونلاحظ ذلك من خلال إيراد مثال قد يوحى للمتلقّي من الوهلة الأولى أنّه متشابه فلا يلقي بالآ إلى اختلاف التعبير ، الذي لا يدرك إلّا بالتأمّل والرجوع إلى السياق الداخلي أو الخارجي .

والسياق في هذا المقام هو الذي يتحكّم في اختيار الأداة الإحالية ، كما يظهر في قوله تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُتَسَّى الْمَصِيرُ ﴾ البقرة : ١٢٦ .

(١) انظر « الباب » ٥ : ٢٧٤ .

(٢) انظر « الإنصاف » ٢ : ٧١٧ - ٧٢٢ ، و« شرح المفصل » ٤ : ٢٣ - ٢٥ ، و« شرح الكافية » ٢ : ٤٢ ، و« التصريح بمضمون التوضيح » ١ : ١٣٨ ، ١٣٩ .

وجاء على لسان إبراهيم في موضع آخر من القرآن : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم : ٣٥ .

وقد كان دعاء إبراهيم - عليه السلام - في الآية الأولى عندما ترك زوجته وابنه إسماعيل في مكان موحش . فأحال عليه باسم الإشارة ؛ لأنّ المحال عليه هنا - على وفق تصوّر دي بوجراند لهذا النوع من الإحالة - « يدلّ على ما لا يحظى بتصنيف مفهومي » ^(١) في ذهن المرسل .

أمّا في الآية الثانية فقد قال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ فعرفه لأنّه دعا به بعد بنائها ، وهذا يعني أنّ المحال عليه في الآية الثانية كان شيئاً مختلفاً حيث اكتملت فيه مظاهر الحياة والعمران ، وتحقق فيه مفهوم لفظ البلد ، وأصبح مغايراً لتلك الأرض الجرداء القاحلة التي لا حياة فيها ، فأحيل عليه ببنية إحالية يشترك فيها العنصر الإحالي (هذا) مع العنصر الإشاري (البلد) في الإحالة .

والاتجاه الإحالي باسم الإشارة نوعان :

١ - الإحالة القبلية (إلى سابق) :

قد يشير اسم الإشارة إلى كلام سابق ، ويشترط فيه حينئذ أن يأتي بعده واو العطف ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُتَوْفَّوْا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ

(١) « النص والخطاب والإجراء » ٣٣٢ .

اللَّهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآثَعَمُ إِلَّا مَا يَتَلَى عَلَيْكُمْ
فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ
﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْكِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ الْحَج : ٢٧ - ٣٢ .

قوله : (ذلك) اسم الإشارة مستعمل هنا للفصل بين كلامين ، أو بين وجهين من كلام واحد ، والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سيذكر بعده .

فالإشارة مراد بها التنبيه ، وذلك حيث يكون ما بعده غير صالح لوقوعه خبراً عن اسم الإشارة فيتعين تقدير خبر عنه في معنى : ذلك بيان ، أو ذكر ، وهو من أساليب الاقتضاب في الانتقال .

والمشهور في هذا الاستعمال لفظ (هذا) كما في قوله تعالى : ﴿ هَذَا وَلِكَ لِلطَّافِينَ لَشَرَّ مَثَابٍ ﴾ ص : ٥٥ .

وأوثر في الآية اسم إشارة البعيد للدلالة على بعد المنزلة كناية عن تعظيم مضمون ما قبله .

فاسم الإشارة مبتدأ حذف خبره لظهور تقديره ، أي ذلك بيان ونحوه . وهو كما يُقَدِّم الكاتب جملةً من كتابه في بعض الأغراض فإذا أراد الخوض في غرض آخر ، قال : هذا وقد كان كذا وكذا ^(١) .

ومنه قوله تعالى في (سورة ص) بعد أن أورد قصص الأنبياء مع أقوامهم : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَثَابٍ ﴾ ﴿٤٩﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مَفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَكَبِّينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا

(١) انظر « التحرير والتنوير » ١٧ : ٢٥١ .

يَفْكِهِمْ كَعَمِيرٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَةٌ الْطَّرْفِ أَنْزَابُ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَمُنْ أَقَادُ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ ﴿٥٥﴾ ص: ٤٩ - ٥٥.

ففي قوله : (هذا ذكر) إشارة إلى ما سبق من الآيات التي أوردت قصص الأنبياء وأقوامهم ، وهي جملة فصلت الكلام السابق عن الكلام الآتي بعدها قصداً لانتقال الكلام من غرض إلى غرض ، مثل جملة : (أما بعد فكذا ..) ، ومثل اسم الإشارة المجرد : ﴿ وَإِلَى اللَّطِيفِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ .. ﴾ المذكور سابقاً .

قال الزمخشري : « وهو كما يقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر : هذا وقد كان كيت وكيت » ^(١) اهـ .

وهذا الأسلوب من الانتقال هو المسمى في عرف علماء الأدب بالاعتضاب وهو طريقة العرب ومن يليهم من المخضرمين ، ولهم في مثله طريقتان :

- ١ - أن يذكروا الخبر كما في هذه الآية وقول المؤلفين : (هذا باب كذا) .
- ٢ - أن يحذفوا الخبر لدلالة الإشارة على المقصود ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ ﴾ الحج : ٣٠ ، أي : ذلك شأن الذين عملوا بما دعاهم إليه إبراهيم وذكروا اسم الله على ذبائحهم ولم يذكروا أسماء الأصنام ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبِ اللَّهِ ﴾ الحج : ٣٢ ، أي ذلك مثل الذين أشركوا بالله ، وقوله بعد آيات : ﴿ هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ ﴾ ص : ٥٥ . أي هذا مآب المتقين ، ومنه قول الكاتب : (هذا وقد كان كيت وكيت) .

(١) « الكشاف » ٤ : ١٠٢ .

ولأننا صرح بالخبر في قوله : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ للاهتمام بتعيين الخبر ، وأن المقصود من المشار إليه التذكّر والاعتداء ، فلا يأخذ السامع اسم الإشارة مأخذ الفصل المجرد والانتقال الاقتضائي ، مع إرادة التوجيه بلفظ (ذكر) بتحميله معنى حُسن السمعة ، أي هذا ذكر لأولئك المسمّين في الآخرين مع أنه تذكرة للمقتدين على نحو المعنيين في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ الزخرف : ٤٤ .

ومن هنا احتمل أن تكون الإشارة بـ (هذا) إلى القرآن ، أي : القرآن ذكر ، فتكون الجملة استئنافاً ابتدائياً للتنويه بشأن القرآن راجعاً إلى غرض قوله تعالى : ﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِّدَبْرُؤٍ ءَاتَيْنَاهُ وَلِسْتَ ذِكْرًا لِّأُولَ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ ص : ٢٩ .

والواو في ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يجوز أن تكون للعطف الذكري ، أي : انتهى الكلام السابق بقولنا : ﴿ هَذَا ﴾ ونعطف عليه ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . ويجوز أن تكون واو الحال ^(١) .

ويمكننا من خلال التأمل في اسم الإشارة والمشار إليه أن نقف على بعض اللطائف القرآنية المتعلقة بنظم هذه السورة من حيث التماسك النصّي .

فقوله تعالى : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أشار به إلى ما سبق من الآيات التي أوردت قصص الأنبياء مع أقوامهم ، ثم أخبر عن المشار إليه السابق - وهو عدد كبير من الفقرات النصية - بأنه (ذِكْرٌ) ، وهذا الخبر يكاد أن يكون هو المحور الأساس الذي بنيت عليه السورة من أول جملة فيها إلى آخر مقطع فيها ، ولو أمعنا الفكر في كلمة (ذكر) - والمراد بها على أحد الأقوال : التذكير ، تذكير الناس بما هم غافلون عنه - لأدركنا سرّ ترابط

(١) انظر « التحرير والتنوير » ٢٣ : ٢٨٠ .

السورة من أول آية فيها حتى آخرها ، ولتشكلت السورة في ذهننا على صورة مقاطع نصية آخذة بأعناق بعضها ، يرتبط السابق منها باللاحق برباط متين يُسهّم في عملية التماسك والانسجام ، ولتبيّن لنا من خلال الإشارة والمشار إليه وهو (الذكر) أنّ الذكر يمثل المعنى الأوّل في السورة التي ابتدأت بقوله تعالى : ﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ص : ١ . ففي أول جملة وُضعت اللبنة الأساسية لبناء النص القصصي الذي قامت عليه سورة ص . وتوالى الآيات حتى يعود الذّكر من جديد ليقرع أسمعنا منبهاً على ما جاءت به الجملة الأولى في النص : ﴿ أَمْ نُنْزِلُ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَالِبِ ﴾ ص : ٨ . ثم تتوالى الجمل والمقاطع مفصحة عن معنى الذكر المتمثل في قصص الأنبياء وأقوامهم مروّراً بقوم نوح وعاد وفرعون وذوي الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ... إلخ ، ويعود من جديد ليهمس في أسمعنا قوله : ﴿ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْخُلْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾ ص : ١٧ . مستخدماً الصيغة الفعلية من باب تلوين الأساليب وتنويعها كي يذهب ملل المتلقي الذي قد ينجم من استخدام الأساليب المكررة ، وقد ربط الذكر هنا بقصة النبي داود - عليه السلام - في إشارة قويّة على أنّ المراد بالذكر هو التذكير بقصص الأنبياء للعبرة والعظة ، وهو ما حدا بي أن أختار هذا المعنى من دون سائر المعاني التي أوردتها المفسرون ، وهو منهج قرآني مستخدم في الدعوة إلى الله ، يحسّده قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدَ ﴾ ق : ٤٥ . وقوله تعالى ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ الطور : ٢٩ ، وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ الأعلى : ٩ . وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ الغاشية : ٢١ . وقد أكّد هذا المعنى ابن عاشور حينما قال : إنّ ﴿ وَادْخُلْ عَبْدَنَا ... ﴾ « من الذكر بضمّ الدال أي : التذكّر وليس ذكر اللسان ؛ لأنّه ﷺ إنّما أمر بذلك لتسليته وحفظ كماله ، لا ليُعَلِّمه

المشركين ولا ليعلمه المسلمين ، على أن كلا الأمرين حاصل تبعاً حين إبلاغ المنزل في شأن داود إليهم وقراءته عليهم ^(١) .

ثم يسير ركب الكلمات والآيات حتى يختم قصة داود بقوله : ﴿ وَلِتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ص : ٢٩ . رابطاً نهاية القصة بما ابتدأت به وهو الذكر والتذكير . منتقلاً بعد ذلك إلى قصة سليمان بن داود - عليهما السلام - ثم قصة أيوب عليه السلام المبدوءة بقوله : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ ص : ٤١ . مستخدماً الفعل (اذكر) للربط بين قصص الأنبياء في السورة ، ومذكراً بمضمونها الأسمى وهو التذكير .

وهذا النوع من الربط ينتمي إلى الإحالة بوساطة إعادة اللفظ ، أو التكرار ، كما لا يخفى الأثر الصوتي للتكرار الذي له دور مهم في ترسيخ المعاني وانسجام النصوص .

ثم تتوالى الآيات : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ص : ٤٣ . وقوله : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ (٥٥) إِنَّا أَخْلَصْتَهُمْ بِخَالَصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ ص : ٤٥ - ٤٦ . مستخدمة الإحالة بإعادة اللفظ في عملية التماسك بين مقاطع النص .

وبعد أن انتهت قصص الأنبياء وأقوامهم جاء باسم الإشارة ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ معلناً الانتهاء عن الحديث السابق وهو تذكير النبي ﷺ لقومه بقصص السابقين ، والشروع في موضوع آخر متعلق بالأول ، وهو جزاء كل من انتفع بهذا الذكر من أهل التقي ، وعقاب من أعرض عنه من أهل الطغيان قائلاً : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٥٦) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْنَعَةٍ لَّهُمُ الْأَنْبُوبُ (٥٧) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرٍ وَشَرَابٍ (٥٨) وَعِنْدَهُمْ

(١) « التحرير والتنوير » ٢٣ : ٢٨٤ .

فَصَرَفَ الطَّرْفَ انْتَابُ ﴿٥٦﴾ هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٨﴾ ص : ٥٤ - ٤٩ .

فالتقوى صفة ملازمة لكل من جعل القرآن بقصصه ومواعظه تذكرة وعبرة له ، يؤكد ذلك قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَإِنَّهُ لَلذِّكْرُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الحاقة : ٤٨ .

ونلاحظ في قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴾ أنه عدل عن استخدام الضمير إلى اسم الإشارة (هذا) ، ولم يقل : (إنه لرزقنا ما له من نفاذ) ؛ وذلك لكمال العناية به بتمييزه ، وتوجيه ذهن السامع إليه . إنه يمكننا أن نستخدم ضمير الغائب بدلاً من اسم الإشارة - كما أشار إلى ذلك د . تمام حسان ^(١) وغيره - ولكن سيفوتنا بلا شك ذلك المغزى الأسلوبى والدلالي الذي جعلنا نستبدل اسم الإشارة بالضمير .

وبعد أن ساق طرفاً من ثواب المتقين ، جاء باسم الإشارة مرة أخرى كعلامة فاصلة بين أهل التقى والطغيان قائلاً : ﴿ هَذَا وَابْتَغِ الْوَعْدَ لِشَرِّ مَا ابْتَغَى الْجَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنُصِرَ الْمَهَادُ ﴿٥٩﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٦٠﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجُ ﴿٦١﴾ هَذَا فَوَجِّعْ مُقْتَضِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ ص : ٥٥ - ٥٩ ، ففي قوله : ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ .. ﴾ استخدم الإشارة إلى القريب مع كون المشار إليه - وهو ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ - غائباً ، وذلك لتقريب الإنذار ^(٢) ؛ ولا يخفى ما في ذلك من التهويل والترهيب كأنها أصبحت جهنم متجسدة على مرأى من أعينهم قريبة حاضرة .

ونلاحظ في هذا المقطع النصي من الآيات الحضور المكثف لاسم الإشارة (هذا)

(١) انظر « اجتهادات لغوية » ٥٦ - ٥٧ .

(٢) انظر « التحرير والتنوير » ٢٣ : ٢٨٦ .

الذي يُراد به تجسيد الصور المعنوية للشواب والعقاب كأنها حاضرة مُشاهدة أمام المخاطبين ، وذلك للترغيب والترهيب .

ثم تمضي الآيات لتختتم السورة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْوَكِيلُ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٨٧) وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿ ص : ٨٧ - ٨٨ . ليختتم بالحديث عن الذكر ، وهو نفس ما ابتدأ به السورة في قوله : ﴿ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ﴿ ص : ١ . وما أكدته الآيات المتعددة في أرجاء السورة . ليشكل بذلك قمة التماسك وروعة الانسجام النصي الإحالي في النظم القرآني . والله أعلم .

٢ - الإحالة البعدية (إلى لاحق) :

قد يشير اسم الإشارة إلى كلام لاحق ، فلا يكون ثمة فارق بينه وبين ضمير الشأن . ومن ذلك قوله تعالى في قصة عيسى بن مريم - عليه السلام - : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ ٥٩ ﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿ ٦٠ ﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿ ٦١ ﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَى اللَّهِ لَهَوَ الْعَرْشُ الْحَكِيمُ ﴿ آل عمران : ٥٨ - ٦٢ .

فاسم الإشارة (ذلك) يحيل على لاحق ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ ^(١) .

(١) وهو رأي أورده د. تمام حسان . انظر « خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم » ٤٠ . وعده المفسرون من باب الإحالة القبلية .

ومن الأمثلة التي وردت في سياق القصص القرآني مما أحال فيه اسم الإشارة على لاحق ما يأتي : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ النمل : ٧٦ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ ص : ٢٣ .

فالمشار إليه هو (أخى) ويجوز إعرابه على أنه بدل من اسم الإشارة ، ولكن إعرابه على أنه خبر إن أولى ؛ وذلك لزيادة استفظاع اعتدائه عليه وبيان قبح ما فعله معه مع عدم مراعاته للأخوة التي بينهما . فالإشارة هنا أسهمت في توجيه انتباه الحاكم إلى أن المعتدي المشار إليه إنما هو أخ . ودائماً ما يحتاج الخصوم إلى استخدام أدوات التوكيد وجذب الانتباه من باب تقوية حجة الخصم أمام الحاكم .

ونلاحظ من خلال هذا المثال وما سيأتي من الأمثلة أن الإشارة إلى لاحق تفيد تنبيه المخاطب إلى شيء عظيم .

ففي قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ الأنبياء : ٥٢ . نجد أن المشار إليه (التماثيل) هي جُرمٌ عظيم عكف على عبادتها أبو إبراهيم وقومه .

فالإشارة هنا تفيد تحقير المشار إليه ، وعِظَمَ الخطاب الذي جَنَّوه بعكوفهم على عبادة الأصنام من دون الله وحده .

وفي قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ الشعراء : ١٥٥ .

نجد أن المشار إليه (الناقة) هي معجزة صالح إلى قومه ثمود ، وقد أشار إليها تعظيماً لها ، فهي ناقة مختلفة عن باقي جنسها .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ العنكبوت : ٣١ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ العنكبوت : ٣٤ .

نجد أن (القرية) هي محط العذاب ومكانه ، فأشار إليها لعظم الخطب الذي سيحل بها ، بسبب ظلم أهلها وفسقهم .

وفي قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يس : ٦٣ . نجد أن (جهنم) هي مآب عبدة الشيطان والمعرضين عن أوامر الله ونواهيه ، وقد أشار إليها تعظيماً لشأنها ، مستخدماً اسم الإشارة إلى القريب مع كونها بعيدة عن مركز الخطاب ، وذلك استحضاراً لها ، كأنها مشاهدة أمام المخاطبين ، وذلك غاية في الزجر والتهويل والترهيب .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْتَهِمُ الْإِنسَ إِلَىٰ مُلْكِ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ الزخرف : ٥١ .

نجد أنه قد أشار إلى (الأنهار) ؛ لأنها دليل على أبهة الملك وعظمته ، ولكي يجذب أنظار المخاطبين إلى ما عنده من النعيم ، فهو بحاجة إلى أن يصرف الأنظار عن موسى وما جاء به من المعجزات التي بهرت قومه ، لذا استخدم الإشارة وهو ينظر إلى قومه باستخفاف وقد أخذته عزة الملك وكبريائه ، ثم أكد هذه الإشارة مستنكراً على قومه : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۚ ﴾

إنّ قوّة الأسلوب الخطابي هنا ، وتنوّع أدوات الحجاج والحوار جعلت المخاطبين - قوم فرعون - يصرفون النظر عمّا جاء به موسى من المعجزات ، ويخضعون لعظمة فرعون وسلطانه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ الزخرف : ٥٤ . فالإحالات باسم الإشارة فيما سبق هي إحالات بعدية ، الغرض منها تنبيه المخاطب إلى أمر عظيم يستحق الاهتمام .

ونعود لنذكر في النهاية أنّ لأسماء الإشارة وظيفة أساسية تتجاوز هذه الدلالات الجزئية ، وهي وظيفة الربط التي حاولنا تجليتها وإيضاح دلالاتها وأبعادها ، واستخدام تلك الوسائل لم يكن إلا لهدف معيّن ، إذ كانت الضمائر كعناصر إحالية تعقد صلة وثيقة بين أجزاء النص من أبرز العوامل المتجاوزة للمفردات والجمل لصنع وحدة النص وتماسكه وتلاحم أجزائه ، ولم يكن من المستطاع بحث تلك الوظيفة في إطار نظرة تتوقف عند حدود الجملة وتنفصل عن السياقات والمقامات التي تبرز فيها قيمة هذه العناصر^(١) .

(١) انظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » ١٤٢ .

المبحث الثالث الإحالة بالموصول

تعريف الموصول :

« هو من الأسماء ما افتقر إلى عائد أو خلفه ، وجملة صريحة أو مؤولة ، غير طلبية ولا إنشائية . ومن الحروف ما أول مع ما يليه بمصدر ، ولم يحتج إلى عائد » ^(١) .

وقد اعترض بعضهم على جعل الموصول اسماً قائلاً : إن تعريف الاسم هو : « ما دلّ على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة » ^(٢) ، والموصول لم يدلّ على معنى في نفسه ، وإنّما لا بدّ له من الصلة .

وجواب ذلك أنّ الموصول وإن احتاج ضرورة إلى لفظ آخر لكن لا ليفيد معناه الذي هو الشيء المبهم ويحدثه في ذلك اللفظ ، فإنّ لفظة (الذي) مثلاً تفيد معناها الذي هو الشيء المبهم في نفسها ، لا في صلتها ، وإنّما تحتاج إلى صلتها لكشف ذلك الإبهام ورفعها منها ، لا لإثبات ذلك الإبهام في الصلة . فهي مبهمة لكن اشترط فيها من حيث

(١) « التذييل والتكميل » ٣ : ٥ .

(٢) « شرح الرضي لكافية ابن الحاجب » تح : د. الحفطي ١ : ٢٠ .

الوضع أنه لا بدّ لها من معيّن مخصص ، ولذا عدّت من المعارف . ومثله ضمير الغائب واسم الإشارة ^(١) .

وقد سمّيت بـ (الموصولات) « لافتقارها إلى صلوات توضّحها وتبيّننها ؛ لأنّها لا يفهم معناها بأنفسها » ^(٢) .

الاسم الموصول بين الإبهام والتعريف :

تحدّث في اسم الإشارة عن الأسماء المبهمة والمراد بها ، وهي الأسماء التي تحتاج إلى غيرها لبيان المقصود بها . وموقف النحاة من الموصولات هو موقفهم من أسماء الإشارة من حيث الحكم عليها بالتعريف مع ما فيها من إبهام .

يقول ابن يعيش جاعلاً المبهمات من الموصولات في مرتبة المبهمات من الإشاريات : « والقسم الثاني من المبهمات وهو الاسم الموصول كـ (الذي) و (التي) و (مَنْ) و (ما) ... وكلّها معارف بصلاتها ، فبيانها بما بعدها أيضًا ، إلّا أنّ أسماء الإشارة تبيّن باسم الجنس ، والموصولات تبيّن بالجمل بعدها ... وكلّها مبهمة ؛ لأنّها لا تخصّ مسمّى دون مسمّى ، كما كانت أسماء الإشارة كذلك » ^(٣) .

بل إنّ منهم من عدّ بعض الموصولات أبهم من بعض ، قال السهيلي : « وأمّا (ما) الموصولة فهي في قول النحويين بمعنى (الذي) وليست كذلك ، وإن وافقت (الذي) في أكثر أحكامها فإنّها مخالفة لها في المعنى وفي بعض الأحكام . أمّا المعنى فإنّ

(١) انظر « شرح الرضي لكافية ابن الحاجب » تح : د. الحفطي ١ : ٢٦ .

(٢) « أسرار العربية » ٣٢٦ .

(٣) « شرح المفصل » ٨٦ .

(ما) اسم مبهم في غاية الإبهام ، حتّى إنّها تقع على كلّ شيء ، وتقع على ما ليس بشيء ... والمعدوم ليس بشيء »^(١) .

وقد اختلفوا في الذي جعل الموصول معرفة ، فقال بعضهم : إنّ معرفة بالعهد الذي في الصلة ، ولذلك ينبغي أن تكون الجملة التي تقع صلة معلومة عند المخاطب . فلا يجوز أن تقول : (جاءني الذي قام) إلّا لمن عرف قيامه وجهل^(٢) .

واعترض على ذلك بعض النحاة فقال : الصلة كالجُزء من الموصول ، وجزء الشيء لا يعرفه^(٣) .

ورأى آخرون أنّها معرفة بـ (أل) لازمة ، والحق أنّ (أل) فيها زائدة ، وليست للتعريف ، لأنّ التعريف حصل بالصلة وهي الجملة التي بعدها ، بدليل أخواتها : (مَنْ) و (ما) ونحوهما^(٤) ، وأجيب بأنّه في معنى ما فيه (أل) ، فأورد (أيّ) فإنّه لا يمكن تقدير (أل) . وأجيب بأنّ تعريفها بالإضافة^(٥) .

(١) « نتائج الفكر في النحو » ١٨٠ .

(٢) انظر « شرح المفصل » ٣ : ١٥٤ ، و « دلائل الإعجاز » ٢٠٠ ، و « ارتشاف الضرب » ١ : ٢٥٠ ، و « الهمع » ١ : ٥٥ .

(٣) انظر « حاشية ياسين العليمي على التصريح » ١ : ٩٤ .

(٤) انظر « أسرار العربية » ٣٢٧ .

(٥) انظر « حاشية على شرح الفاكهي لقطر الندى » لياسين العليمي ، ١ : ٢١١ . فـ (أي) اسم موصول يحتاج إلى معرفين ، وهو من غرائب اللغة كما قال ياسين ، فهي مفتقرة إلى المضاف إليه لتوضيح المعنى الذي وقعت عليه بالنظر إلى جنسه ، ومفتقرة إلى جملة الصلة لتوضّحه بالنظر إلى شخصه . وانظر « التعريف والتذكير بين الدلالة والشكل » ٣٨ - ٣٩ .

وظيفة الاسم الموصول :

١ - التوصل إلى وصف المعرفة بالجملة :

لم يجمع النحاة على تحديد وظائف محددة للاسم الموصول ، ووظيفة جملة ، فعلى حين يرون أن جملة الصلة وظيفتها تعريف الموصول ، يرون في الوقت نفسه أنها صفة للاسم معرفة ، والموصول وُصلة لذلك . يقول ابن الأنباري : « فإن قيل : فلم أدخلت (الذي) و(التي) في الكلام ؟ قيل : توصلًا إلى وصف المعارف بالجمل »^(١) .

وإذا كان الاسم الموصول وُصلة إلى وصف المعارف بالجمل كما يقولون فكيف يكون هو نفسه صفة للمعرفة قبله لا الجملة ؟ وإذا كانت الجملة بعده صفة للاسم المعرفة قبله فكيف يكون اسمًا معرفة ؟ وهم فضلًا عن ذلك يرون الجملة نكرة ، فكيف تكون نكرة وتمنح الاسم التعريف ؟ ولا يمكن القول بأنها معرفة ؛ لأنها لو كانت كذلك لاستغنت عن الموصول ، وكانت بذاتها صفة للمعرفة^(٢) .

ولقد حاول ابن يعيش أن يجيب عن بعض تلك التساؤلات ، فلم يصل إلى كلام مقنع ، وكان مخرجه من ذلك أن فزع إلى الشكل ليحلّ به الإشكال ، فانتهى إلى أن الموصول صفة في اللفظ ، والغرض الجملة ، قال : « ... وذلك أن (الذي) وأخواته مما فيه (لام) إنها دخل توصلًا إلى وصف المعارف بالجمل ؛ وذلك أن الجمل نكرات ، ألا ترى أنها تجري أوصافًا على النكرات نحو قولك : مررتُ برجلٍ أبوه زيدٌ ، ونظرتُ إلى غلامٍ قام أخوه ، أوصافًا ، وصفة النكرة نكرة . ولولا أن الجمل نكرات لم يكن للمخاطب فيها فائدة ؛ لأن ما تعرّف لا يستفاد ، فلما كانت تجري أوصافًا على النكرات

(١) « أسرار العربية » ٣٢٧ . تح : د. فخر قدارة .

(٢) انظر « التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل » ٤٠ .

لتنكرها أرادوا أن يكون في المعارف مثل ذلك ، فلم يسع أن تقول : مررت بزيد أبوه كريم ، وأنت تريد النعت لزيد ، لأنه قد ثبت أن الجمل نكرات ، والنكرة لا تكون وصفاً للمعرفة . ولم يمكن إدخال لام التعريف على الجملة ؛ لأن هذه اللام من خواص الأسماء ، والجملة لا تختص بالأسماء ... فجاؤوا حينئذ بـ (الذي) متوصلين بها إلى وصف المعارف بالجمل ، فجعلوا التي كانت صفة للنكرة صفة للذي وهو الصفة في اللفظ ، والغرض الجملة ... » ^(١) .

٢- توسيع الجملة :

يمكننا من خلال الوظيفة السابقة أن نقول : إن الاسم الموصول يقوم بمهمة توسيع الجملة عن طريق الوصف ، وذلك بإضفاء مزيد من الأوصاف على الاسم المعرفة المحال عليه قبله ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة نوح مع قومه : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ أَنْتَ إِلَّا الْذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَبْدُؤَ الرَّأْيَ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ هود : ٢٧ . ففي هذه الآية قد وسعت الجملة من خلال إضفاء صفة الكفر على الملاء .

وقد تمتد هذه التوسعة لتشمل أكثر من صفة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال : ٢ . وفي هذه الآية قد اتسعت الجملة لتشمل أكثر من صفة قد اتصف بها أولئك المؤمنون . فكأن سائلاً يقول : مَنْ هم المؤمنون ؟ فيأتيه الجواب : هم الذين :

(١) « شرح المفصل » ٣ : ١٤١ .

أ - إذا ذكر الله وجلت قلوبهم .

ب - إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً .

ج - وعلى ربهم يتوكلون .

وقد تمتد امتداداً واسعاً لتضفي مزيداً من الأوصاف ، كما في قوله تعالى :

﴿وَيَعَاذُ الرَّحْمَنُ

الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا

وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝١٣﴾

وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝١٤﴾

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝١٥﴾

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝١٦﴾

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ

وَلَا يَزْنُونَ ۝١٧﴾

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ

وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝١٨﴾

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝١٩﴾

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْقِبِكِ

إِمَامًا ۝٢٠﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَلِلْقَوْتِ فِيهَا نَجَاةٌ وَسَلَامًا ۝٢١﴾

الفرقان : ٦٣ - ٧٧ .

وهذا المثال يعد من أوضح الأمثلة على وظيفة توسيع الجملة عن طريق الوصف

التي تمت بوساطة الاسم الموصول والعطف عليه ، حيث وصف المحال عليه (عباد

الرحمن) باثنتي عشرة صفة ، وذلك من أهم وظائف الاسم الموصول .

٣- التقابل :

بعد التقابل من قبيل الربط المفهومي ، حيث يقابل بين شيئين بوساطة الاسم الموصول، وقد يكون هذا التقابل في حدود الآية الواحدة ، وقد يتجاوز الآية ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّصَرِّهُمُ اللَّهُ يَصْرِكُم وَيُنَبِّئُ أَقْدَامَكُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ ءَاضِلٌ أَعْمَلَهُمْ ﴾ محمد : ٧ - ٨ .

وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَأَكْلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ محمد : ١٢ .

فنلاحظ هنا التقابل من خلال الاسم الموصول بين فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين . ففي المثال الأول قد تجاوز حدود الآية ، وفي الثاني كان داخل حدود الآية ، وهذا التقابل يتكرر كثيرا في آيات القرآن الحكيم .

وقد يكون دور الاسم الموصول هو تأكيد ذلك التقابل ، وذلك إذا اقترن الاسم الموصول بـ (أما) التي تستخدم للتقسيم والمقابلة ^(١) ، نحو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفِقُونَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَشِهيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَقَالَ لَمَّا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَيَنُفِقُونَ فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ يُجْدَوْنَ ﴾ هود : ١٠٥ - ١٠٨ . فقد قابل بين الذين شقوا ومصيرهم في النار ، والذين سُعِدُوا ومصيرهم في الجنة .

(١) انظر « الجنى الداني في حروف المعاني » ٥٣٠ .

٤ - نيابتها عن المصدر:

قد ينقل الاسم الموصول إلى وظائف أخرى غير التي وضع لها في الأصل ، ومن ذلك استخدام (الذي) أداة مصدرية ^(١) ، كما في قوله تعالى : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَدُهُمْ فَلَأَسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَلَأَسْتَمْتَعُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا أَتَمْتَعْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ التوبة : ٦٩ . أي كما خاضوا أو كخوضهم .

٥ - نيابتها عن الشرط :

قد تنتقل الأسماء الموصولة إلى أن تكون شرطية ، فيقترن خبرها بالفاء ، كما لو كان الخبر جواب شرط ^(٢) ، كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ البقرة : ٢٧٤ .

والأمر كذلك في (أل) الموصولة ، وفي (اللذين) و (اللاتي) :

كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازِهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ النساء : ١٦ .

وقوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ المائدة : ٣٨ .

(١) انظر « اجتهادات لغوية » ٥٧٢ .

(٢) انظر « اجتهادات لغوية » ٥٧٢ .

وقوله : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَايُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ النور : ٢ .

وقوله : ﴿وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَئِكَ الْأَخْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ الطلاق : ٤ . على فهم جملة (إن ارتبتم) على أنها معترضة .

٦ - الدلالة على معاني إضافية :

قد يستخدم الاسم الموصول للتعبير عن بعض المعاني الدقيقة ، التي يدركها المخاطب عن طريق التأمل ، ومن هذه المعاني ما يأتي ^(١) :

أ . زيادة التقرير :

مثاله قوله تعالى في قصة يوسف ، عليه السلام : ﴿وَزَادَتْهُ آلِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ يوسف : ٢٣ . فجملة الصلة : (هو في بيتها) أبرزت نزاهة يوسف - عليه السلام - وهي الغرض المسوق له الكلام وزادتها تأكيداً وتقريباً ؛ لأن كونه في بيتها وهي متمكنة منه ، وعلى الرغم من ذلك أعرض ونأى ، وقال : ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ مما يؤكد نزاهته وإعراضه عن تلك الفاحشة .

وفي الصلة أيضاً زيادة تقرير للمرادة ، وهي المسند ؛ لأن وجوده في بيتها وانفرادها به مما يدعو إلى تمكّنها منه ، وإقبالها على مرادته ، وتفننها في تلك المرادة .

(١) انظر « علم المعاني : دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني » ١ : ١٠٣ .

وفيها أيضًا زيادة تقرير للمسند إليه وهو (التي) ، وتأکید أنها في الفاعلة دون غيرها ، ولو قيل : راودته امرأة العزيز أو زليخة ، لأمكن احتمال أن المرادة غيرها أو شبيهة بها .

فالتعبير بالاسم الموصول نفى أي احتمال يُحتمل ، وأكد أنها هي الفاعلة للمرادة . وهناك سر آخر يترأى لنا في التعبير بالموصول وهو استهجان التصريح باسمها أو بنسبتها إلى العزيز ؛ لأن من تُقبل على فعل الفاحشة تنفر منها النفوس ، وتكره الألسن التفوة باسمها ، وتأبى الطباع نسبتها إلى زوجها ، وهو صاحب الشأن في الدولة ، إنه العزيز ، وهي بفعلها هذا صارت لا تستحق أن تتسبب إليه .

ب . تنبيه المخاطب إلى خطئه :

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمَثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الأعراف : ١٩٤ . فجملة الصلة (تدعون من دون الله) تفيد تنبيه المشركين إلى خطئهم في عبادتهم غير الله تعالى .

ج . الإيحاء إلى وجه بناء الخبر :

ومنه قوله تعالى في قصة شعيب : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف : ٩٢ . فتحقير الخبر هنا فهم منه تعظيم غيره ، حيث أومأت الصلة (كذبوا شعيبًا) إلى وجه بناء الخبر ، وأنه من جنس الخسران والبور ، والخسران إنما نالوه بسبب التكذيب ، ويفهم من هذا تعظيم شعيب الذي كُذِّبَ ورفعة شأنه .

ومثله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر : ٦٠ . فالاستكبار عن عبادة الله في جملة الصلة

أوماً إلى وجه بناء الخبر ، وأنه من جنس العذاب والنكال : (سيدخلون جهنم) ، ودخولهم جهنم إنما نالوه بسبب استكبارهم عن عبادة الله .

د . إفادة معنى التفخيم والتهويل :

ومنه قوله تعالى في قصة موسى مع فرعون : ﴿ فَأَنبَغَهُمْ فِرْعَوْنُ بِمُجْنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ طه : ٧٨ . فالاسم الموصول هنا (ما غشيهم) فيه إيهام أدى إلى التفخيم والتهويل ، ولو أردت تفصيل ما أفاده الموصول فقلت : غشيهم من اليم أمور عظيمة مبهم أمرها ... لما استطعت أن تؤدّي المعنى الذي أفاده الاسم الموصول من تفخيم وتهويل ، حيث أفاد ما لا يكتنّيه النعت ولا يحيط به الوصف .

هـ . إخفاء اسم المتحدث عنه رغبة في هدايته واستمالته نحو الحق :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ لقمان : ٢٠ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ العنكبوت : ١٠ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ البقرة : ١٦٥ .

إلى غير ذلك من المعاني التي يسهم الاسم الموصول بدور بارز في إظهارها وتحليلتها في النصوص . نحو : استهجان التصريح بالمسند إليه ، وتشويق السامع إلى الخبر ليتمكن في ذهنه فضل تمكن ... إلخ .

٧ - الربط والإحالة :

هي وظيفة نصية تُسهم في التماسك النصي؛ إذ لولا أدوات و كلمات نحوية كاسم الموصول واسم الإشارة وأدوات النفي والشرط والنهي والاستفهام... لما حصل بين أجزاء النص تماسك ، ولكانت الجملة عبارة عن قطع قولية مُفككة .

فاسم الموصول يربط جملة لاحقة بجملة سابقة ويُشترط في الربط وجود ضمير رابط مُطابق للموصول .

فوظيفة الموصول في النص أيضاً هي الربط والإحالة :

الربط : ربط آخر الكلام بأوله لتحصيل الاتساق والتماسك اللغوي، والروابط اللغوية تنتمي إلى القسم النحوي المغلق أو المتهي (Classe fermée) الذي يصل المفردات بعضها ببعض ويربط بينها .

والإحالة : إحالة الضمير المتصل بجملة الصلة، على الاسم الموصول الذي سبق ذكره أو على اسم معهود ذكره لدى المتكلم والمخاطب، والإحالة بالضمير ضرب من الاختصار اللغوي وتلافٍ للتكرار في الكلام .

وما يحصل من ربط وإحالة في الجملة يحصل في النص لأن الربط قد يتعدى مساحة الجملة إلى مستوى الجملتين أو الجمل ، يقول د. تمام حسان : « أما ما ألفت النظر إليه

فهو ما في الموصول من طاقة الربط بين أوصال الجملة أو السياق القائم على أكثر من جملة^(١).

والإحالة قد تكون على عنصر قريب على مستوى الجملة أو بعيد على مستوى النص.

وقد ألمح الجرجاني إلى وظيفة الربط بالاسم الموصول حين نقل قول النحاة : « إن (الذي) اجتلب ليكون وصلة إلى وصف المعارف بالجملة ... يعنون بذلك أنك تقول : (مررتُ بزيد الذي أبوه منطلقٌ ، وبالرجل الذي كان عندنا أمس) ، فتجدك قد توصلت بـ (الذي) إلى أن أبنت زيدا من غيره بالجملة التي هي قولك : (أبوه منطلق) . ولولا (الذي) لم تصل إلى ذلك »^(٢).

ثم قال موضحاً أن وجود الموصول في الجملة يشعُرنا بأنَّ المخاطب كان على علم مسبق بمحتوى جملة الصلة : « تفسير هذا أنك لا تصل (الذي) إلا بجملة من الكلام قد سبق من السامع عِلْمُ بها ، وأمر قد عرفه له ، نحو أن ترى عنده رجلاً ينشده شعراً فتقول له من غد : (ما فعل الرجل الذي كان عندك بالأمس ينشدك الشعر) ، هذا حكم الجملة بعد (الذي) إذا أنت وصفت به شيئاً. فكان معنى قولهم : إنه اجتلب ليتوصل به إلى وصف المعارف بالجملة أنه جيء به ليفصل بين أن يراد ذكر الشيء بجملة قد عرفها السامع له وبين أن لا يكون الأمر كذلك . وعلى الجملة فكل عاقل يعلم بون ما بين الخبر بالجملة مع (الذي) وبينها مع غير (الذي) »^(٣).

(١) « مقالات في اللغة والأدب » ١ : ٢٠٠ .

(٢) « دلائل الإعجاز » ٢٠٠ .

(٣) « دلائل الإعجاز » ٢٠٠ .

ومن ذلك يظهر أثر (الذي) وسائر الموصولات في سبك النص وتماسكه ، حيث إنَّها ربطت بين الجملة الأولى (مررت بزيد) وجملة الصلة (أبوه منطلق) ، فكانت بتعبير الجرجاني (وُصلة) تصل بينهما فتحدُّ هذا التماسك .

ومما يدلُّ على صحَّة استخدام الاسم الموصول رابطاً هو جواز نيابته عن الضمير وصحَّة حلول الضمير محلّه من دون أن يتغيَّر المعنى العام للجملة ، فكما صحَّت معاقبة ضمير الغائب للإشارة ، تصحَّ كذلك معاقبة ضمير الغائب للاسم الموصول ، وهذه المعاقبة هي التي دعت البلاغيين لتسمية هذه الظاهرة بـ (الإظهار في موطن الإضمار) ، يقصدون بالإظهار (ذكر الموصول) وبالإضمار (تقدير الضمير)^(١) .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة إبراهيم ، عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا ﴾ العنكبوت : ٣٢ . أي : نحن أعلم به وبغيره .

والغرض من التعبير بالموصول دون الضمير هو وصف المرجع المحالِّ عليه بصفة تدلُّ على مدح أو ذم ، وذلك عن طريق التعبير بالاسم الموصول . ومن شواهد ذلك ما يأتي :

قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّكَدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ أَسْمَاءٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ البقرة : ٥٨ - ٥٩ . حيث قال : (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) ولم يقل : (فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ) ، قصَّد بذلك إبراز الوصف الذي يفيد الاسم الظاهر

(١) انظر « مقالات في اللغة والأدب » د. تمام حسان ، ١ : ٢٠٠ .

وتقريره ، وهو الظلم ، والإشارة بذلك إلى أنهم قد استحقوا العذاب النازل عليهم بسبب هذا الظلم . ولم يتحقق هذا المعنى إلا باستخدام الاسم الموصول بدلاً عن الضمير .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ رَزَعُومُونَ ﴾ الأنعام : ٢٢ . فلم يقل : (ثم نقول لهم) ؛ لأنه يريد إبراز صفة الكفر فيهم ، وأن تبكيهم في يوم الحشر إنما كان بسبب كفرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَاذْكُرُوا أَنَّكُمْ كُنْتُمْ قَبْلًا بِرَحْمَةِ اللَّهِ أَشْرَكًا ﴾ البقرة : ١٨٥ . ولم يقل : (ثم نذكرهم) ؛ لأنه يريد إبراز صفة الشرك فيهم ، وأن تذكروهم إنما كان بسبب شركهم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ الكهف : ٣٠ . ولم يقل : (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ) ؛ لأنه أراد مدحهم وإبراز الصفة التي استحققت الإكرام .

وأشير هنا إلى أن الاسم الموصول مع جملة الصلة لا يكفيان لبناء جملة تامة الفائدة ، ويحسن السكوت عليها ، ولا تتم الفائدة إلا بعد تضام غيرهما من العناصر اللغوية معهما بما يكفي لإتمام الفائدة ، فإذا قلنا : (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الفائدة لا تتم ولا يحسن السكوت إلا أن نضيف عنصراً إما قبل جملة الموصول مع صلته وإما بعدها ، فيجوز لنا القول - في غير القرآن - : إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، أو الذين آمنوا وعملوا الصالحات إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ ، وبهذا تتحقق الفائدة ويحسن السكوت . وإذا كان الأمر كذلك فإن الموصول عندما يكون رابطاً

ويصلح أن يعاقبه ضمير الغائب فإنه يربطُ بين (جملة الموصول وصلته) و (ما يكون مرجعاً لهذا الاسم الموصول) .

ففي الآية السابقة نلاحظ أنَّ الاسم الموصول (من) يُحيل على طائفة من الناس آمنت وعملت الصالحات ، فهي جديرة بأن لا يضيع أجرها ، فالمقام هنا هو مقام مدح لهذه الطائفة ، والذي أفاد أنَّ المقامَ مقامُ مدحٍ هو صلة الاسم الموصول (أحسن عملاً) ، والذي أفاد أن من لا يضيع الله أجره هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات هو الاسم الموصول (مَنْ) (العائد) ، وهذا هو معنى ربطه بين الجملة التي يقع في حيّزها الموصول مع صلته وهي (إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً) وبين ما يسبقها في النص مما يتعلّق بالاسم الموصول (المرجع) . ونلاحظ في هذه الآية أنَّ مرجع الاسم الموصول الرابط (مَنْ) هو أيضًا اسمُ موصول (الذين آمنوا ...) .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ الزمر : ١٩ . لم يقل : (أفأنت تنقذه) إمعاناً في الذم والتبكيت ، وليبيان ماهية هذا العذاب وما سيصير إليه .

شروط جملة الصلة :

إنَّ جملة الصلة - اسمية كانت أو فعلية - هي التي تعيّن مدلول الموصول ، وتفصّل مجمله ، وتجعله واضح المعنى ، كامل الإفادة ، ولا بدّ لهذه الجملة من شروط ينبغي أن تتوافر فيها ، من أهمها ^(١) :

(١) انظر « النحو الوافي » ١ : ٣٧٣ .

١ - أن تكون خبرية لفظاً ومعنى ، نحو قوله تعالى في قصة يوسف : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يوسف : ٢١ .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ يوسف : ٤٥ .

ويخرج بهذا الشرط الجملة الإنشائية ، وذلك لأن الإنشاء لا يوضح شيئاً ، والموصول من المبهات الذي يحتاج إلى توضيح وبيان ، وهما من سمات الخبر .

٢ - أن يكون معناها معهوداً مفصلاً للمخاطب ، أو بمنزلة المعهود المفصل .

فالأولى : سبق إيضاها فيما نقلناه عن الجرجاني .

والثانية : هي الواقعة في معرض التفخيم أو التهويل ، وقد أوردت فيما سبق مثلاً عليه وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ طه : ٧٨ . أي : هول وبلاء عظيم . وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ النجم : ١٠ . أي : الكثير من العلم والحكمة .

فإذا كان الغرض معهوداً للمخاطب جاءت الصلة مفصلة ، وإذا أريد التعظيم أو التهويل جاءت مبهمة بمنزلة المفصلة .

٣ - أن تشتمل الصلة على ضمير رابط (Binder) يربطها بالموصول ، ولا بد فيه من المطابقة إما في اللفظ والمعنى معاً ، وإما في أحدهما ، وهو ما يعرف بـ (العائد أو الرابط) .

٤ - أن تتأخر عن الموصول ؛ لأنَّ مهمتها التوضيح ورفع الإبهام ، ولا يمكن توضيح شيء لما يأت .

٥ - أن تقع بعد الموصول مباشرة ، فلا يفصل بينهما بأجنبي ؛ لأنَّ الموصول وصلته - كما يقول النحاة - كالكلمة الواحدة ، وكما أنه لا يُفصل بين أجزاء الكلمة كذلك لا يُفصل بين الموصول وصلته ، وأجيز الفصل بالقسم والنداء ، نحو : (غابَ الذي - والله - قَهَرَ الأعداء) ، و (أنت الذي - يا حامد - تتعهَّد الحديقة) .

٦ - ألا تكون معلومة لكل فرد ، فالصلة التي تبيِّن في الموصول شيئاً من المعلوم بدهاءة ليست بذات فائدة، كقولك : (حضر الذي فمه في وجهه) .

٧ - ألا تستدعي كلاماً قبلها ، فلا يصحَّ نحو : (كتب الذي لكته غائب) ، لأنَّ (لكن) لا يتحقق الغرض منها إلا بكلام مفيد سابق عليها .

الضمير العائد (الرابط) :

هو الضمير الذي يعود على الاسم الموصول ، ويربط بينه وبين جملة الصلة . ويكون مذكوراً في الجملة ، وقد يحذف عند أمن اللبس .

ولا بدَّ فيه أن يطابق الموصول نوعاً وعدداً وشخصاً فيما إذا كان الموصول مختصاً نحو : (الذي) وأخواتها ، أمّا إذا كان الموصول عامّاً مثل (مَنْ) وأخواتها فلا تجب المطابقة في الضمير مطابقة تامّة ؛ لأنَّ اسمَ الموصول العام لفظه مفردٌ مذكّر دائماً ، فيراعى فيه اللفظ ، وقد يراعى فيه المعنى ، ومما اجتمع فيه مراعاة اللفظ والمعنى قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة : ١١٢ .

فالضمان في الشطر الأول من الآية حتى (رَبِّهِ) مفردة مذكّرة مراعاة للفظ (مَنْ) ، بينما جمعت في الشطر الثاني مراعاة لمعنى (مَنْ) .

ومن أمثلة العائد المذكور : قوله تعالى في قصة موسى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَجَدِ قَادَعُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ البقرة : ٦١ .

وقوله تعالى في موضع آخر من قصة موسى : ﴿ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوِسُ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ القصص : ١٩ .

فنلاحظ أن الضمير (هو) عائد على الاسم الموصول (الذي) وقد قام بدور الربط بين الاسم الموصول وجمله الصلة .

وقوله تعالى في قصة هود : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِجَنَّتَيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَبَجَيْنَتُهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ هود : ٥٨ .

نلاحظ أن واو الجماعة في (آمنوا) عائدة على (الذين) ، وقد قامت بدور الربط بين الاسم الموصول وجمله الصلة .

وقد بينت فيما سبق أن الربط وظيفة نصية تسهم في التماسك النصي ؛ إذ لولا أدوات و كلمات نحوية كاسم الموصول واسم الإشارة وأدوات النفي والشرط والنهي والاستفهام ... كما حصل التماسك بين أجزاء النص ، ولكانت الجملة عبارة عن قطع قولية مفككة .

فالضمير العائد يسهم في ربط جملة بجملة ، وترابط الجمل ببعضها هو نواة أساس للترابط النصي .

أنواع الإحالة بالاسم الموصول :

١ - الإحالة الداخلية :

من ذلك قوله تعالى في قصة نوح مع قومه : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا
زَنَّاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا زَنَّاكَ أَتَعْلَك إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا زَنَّا
لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ هود : ٢٧ . حيث أحال الاسم الموصول
(الذين) على (الملأ) إحالة قبلية .

٢ - الإحالة الخارجية :

منه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ﴿٧٧﴾ أَطْلَعَ
الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ مريم : ٧٧ - ٧٨ .

فالاسم الموصول (الذي) ليس له مرجع سابق نحيله عليه ، ولم يتقدم له ذكر في
النص ، وقد اعتمدت الإحالة هنا على السياق غير اللغوي . ونفهم ذلك من خلال
الرجوع إلى سبب النزول ، حيث ورد أن خَبَّاب بن الْأَرْت قال : كنت رجلاً قيناً ، وكان
لي على العاص بن وائل السهمي دين ، فأتيته أتقاضاه ، فقال لي : لا أقضيك حتى تكفر
بمحمّد ، فقلت : لا أكفر حتى تموت وتُبعث ، فقال : وإني لمبعوث بعد الموت ؟ فسوف
أقضيك إذا رجعتُ إلى مالي ، قال : فتزلت فيه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ
لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ﴿٧٧﴾ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ مريم : ٧٧ - ٧٨ ^(١) .
فالاسم الموصول هنا يحيل على العاص بن وائل ، وقد أدركنا ذلك من خلال السياق
الخارجي للآيات .

(١) أورده الواحدي في « أسباب النزول » ٣٠٢ . وأخرجه الشيخان ، انظر « فتح الباري » ٨ : ٤٢٩

(٤٧٣٢) ، و« مسلم » ٤ : ٢١٥٣ (٢٧٩٥) ، وغيرهم .

المدى الإحالي للاسم الموصول :

١ - إحالة قريية : داخل حدود الجملة .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾
إبراهيم: ٣٩. ف (الذي) يحيل على لفظ الجلالة (الله) وهما في آية واحدة لم يفصل بينهما شيء .

٢ - إحالة متوسطة : داخل حدود السورة .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ البقرة : ١٥٥ - ١٥٦ .

ف (الذين) أحالت إلى جملة خارج نطاق الآية ، وداخل حدود السورة ، هي لفظ (الصابرين) .

٣ - إحالة بعيدة : خارج حدود السورة .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مَلَأُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾
الفرقان : ١ - ٢ . فالإحالة هنا ب (الذي) خارجية ، على أساس أن المحال عليه وهو (الله) وما يتعلق به لم يأت ذكره في النص . وإثما فهم من خلال طبيعة النص القرآني الذي لم يرد فيه الفعل (تبارك) إلا خاصًا بالله تعالى ، وهو خاص بتقديس الله وتنزيهه وتعظيم شأنه .

ومثله (سبحان) الذي يختص بذكر الذات الإلهية ، كقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ

«إِنَّمَا إِلَهُهُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» الإسراء : ١ . فـ (الذي) يحيل على الذات الإلهية التي لم يسبق لها ذكر في نص السورة .

ويرى د. أشرف عبد البديع^(١) أنَّ الفعل (تبارك) يحيل ضمناً إلى الأفعال والمصادر الخاصة بالذات العلية كالفعل (سَبَّح) و(سَبَّحَان) في كل المواضع ، وهي أفعال قريبة في معناها من الفعل (تبارك) ، وهي إحالة ترادفية .

وبهذا نكون قد وَفَّقْنَا على دور الاسم الموصول في عملية الإحالة ، وربط عناصر الجملة بعضها ببعض ، وأثر ذلك في تماسك النص في القرآن الكريم .

(١) انظر « الوظائف الإحالية لجملة الصلة في القرآن الكريم » ٨٠ .

المبحث الرابع الإحالة بالتكرار

تمهيد :

يرى ابن هشام والسيوطي أنّ الأصل في الربط بالإحالة هو الضمير ، قال ابن هشام : « روابط الجملة بها هي خبر عنه وهي عشرة ، أحدها : الضمير وهو الأصل ، ولهذا يربط به مذكورًا ... ومحذوفًا ... » ^(١) ولم يقدمًا تعليلًا شافيًا لذلك ، وقوله : (يربط به مذكورًا ومحذوفًا) إنّها هي نتيجة وليس علة لأصالته .

وأذهبُ إلى أنّ الإحالة بالتكرار هي الأصلُ في عملية الإحالة ؛ لأنّ إعادة اللفظ بذاته « أدعى للتذكير وأقوى ضمانًا للوصول إليه » ^(٢) ، كما أنّ « إعادة المرجع بلفظه أقوى من إعادة ضميره عليه ؛ لأنّ لفظه أقوى من الكناية عنه » ^(٣) ، وإذا عُدلَ عن الربط إلى غير ما هو أصلٌ فيه من صور الإحالة فإنّما يكون ذلك العدول لأحد سببين :

(١) « مغني اللبيب » ٦٤٧ ، وانظر « مع الموامع » ١ : ٣١٨ .

(٢) « البيان في روائع القرآن » ١ : ١٢٨ .

(٣) « اللغة العربية معناها ومبناها » ٢١٦ .

الأول : كراهية الرتابة ، الإملال الذي قد يكون بسبب التكرار بصفة عامة .

الثاني : استعمال مبدأ (الاختصار) الذي هو فرع على مبدأ (طلب الحقة)^(١) .

كما أنّ الربط بإعادة اللفظ بذاته شأنه شأن ظواهر العربية الأخرى مرهون بأمن اللبس ، فإذا لم يؤمن اللبس بالربط بإعادة اللفظ بذاته ، فإنّ العربية تعتمد إلى الربط بغير إعادة اللفظ بذاته .

وقدّمْتُ الحديث عن الإحالة بالضمير بناء على معيار الكثرة ، فالضمير يتفوّق على إعادة اللفظ من حيث وروده في النصوص ، نظرًا إلى ما فيه من الخفة والاقتصاد وأمن اللبس ، فاستحقّ أن يُبتدأ به دون سواه .

وقد سبق أن بيّنت في الفصل الأوّل أنّ التكرار يندرج تحت أدوات التماسك الشكلي المعجميّة ، وهو ربطٌ يتحقّق من خلال اختيار المفردات عن طريق إحالة عنصر على عنصر آخر^(٢) . أي هو الربط الإحالي الذي يقوم على مستوى المعجم (Lexical)^(٣) ، فيحدث الربط بوساطة استمرارية المعنى بها يعطي النص صفة النصيّة^(٤) ، حيث تتحرّك العناصر المعجميّة على نحو منتظم في اتجاه بناء الفكرة الأساسية للنص (Topic) وتكوينه ، كما تقدّم على نحو متكرر معلومات تتصل بتفسير العناصر المعجميّة الأخرى المرتبطة بها ، مما يسهم في الفهم المتواصل للنص عند سماعه أو قراءته^(٥) .

(١) « مقالات في اللغة والأدب » ١ : ١٨٩ .

(2) Cohesion in English , P: 274.

(3) Ibid, P: 318.

(4) Ibid, P: 320.

(5) Ibid, PP : 288 – 289 . وانظر « علم لغة النص النظرية والتطبيق » ١٠٥ .

ويتميّز الربط المعجمي بأنّ الوحدات المعجميّة تتصف في ذاتها بالربط ، حيث إنّ بعضها يفسّر بعضًا ، وليست بحاجة ضرورية إلى أداة تربط بينهما ^(١) .

تعريفه :

أ - التكرار لغة :

الكَرُّ : الرجوع . والكُرُّ : مصدر كرّ عليه يكرُّ كَرًّا وكُرُورًا وتكرارًا : عَطَفَ . وكرّ عنه : رجع . وكرّر الشيء وكزّكره : أعاده مرّةً بعد أخرى . والكُرُّ : الرجوع على الشيء ، ومنه التكرار . والكُرّة : البعث وتجديد الخلق بعد الفناء . والكُرُّ : ما ضمّ ظَلَفَتِي الرَّحْلِ وجمع بينهما ^(٢) .

ب - التكرار اصطلاحًا :

عرّف الجرجاني التكرار بأنّه : « الإتيان بشيء مرّة بعد أخرى » ^(٣) .
وعرّفه الرضّي بأنّه : ضمُّ الشيء إلى مثله في اللفظ مع كونه إتياء في المعنى ؛ للتأكيد والتقرير ^(٤) .
كما عرّفه الزركشي بأنّه : التّرديد والإعادة ، وآتّه من أساليب الفصاحة لتعلّق بعضه ببعض ^(٥) .

(1) Stephen & Lester: Coherence, cohesion and writing quality, P:192.

وانظر « علم لغة النص النظرية والتطبيق » ١٠٥ .

(٢) انظر هذه المعاني في « لسان العرب » (كرر) ٤ : ٣٨١٥ .

(٣) « التعريفات » ٦٨ .

(٤) انظر « شرح الكافية » ٢ : ٢٢٦ .

(٥) انظر « البرهان في علوم القرآن » ٩ : ٣ .

ونلاحظ تأكيد معنى التماسك من خلال تعريفَي الرضي والزرکشي .

وعرّفه السجلماسي بأنه : « إعادة اللفظ الواحد [أو المعنى الواحد] بالعدد أو بالنوع في القول مرتين فصاعدًا » ^(١) .

وقد جعله ديفيد كريستال أحدَ عوامل التماسك النصي ، وأطلق عليه مصطلح (Repeated) ، وذكر أنّه « التعبير الذي يكرر في الكل والجزء » ^(٢) .

فالتكرار (Recurrence) إذن يعدُّ شكلاً من أشكال التماسك المعجمي التي تتطلب إعادة عنصر معجمي ^(٣) ، أو وجود مرادف له ، أو شبه مرادف ، ويُطلق بعضهم على هذه الوسيلة (الإحالة التكرارية) ، و « تتمثل في تكرار لفظ أو عدد من الألفاظ في بداية كل جملة من جمل النص قصد التأكيد » ^(٤) ، وهذا التكرار في ظاهر النص يصنع ترابطاً بين أجزاء النص بشكل واضح ، وقد مثل هاليداي ورقية حسن بمثال للتكرار المعجمي :

- Wash And Core six cooking apples Put the **apples** into a fireproof dish.

(اغسلي وانزعي نوى ست تفاحات للطبخ ، ضعي التفاحات في صحن يقاوم النار) ، ففي هذا المثال تمّ التماسك عن طريق تكرار كلمة (التفاحات) في الجملة

(١) « المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع » أبو محمد القاسم السجلماسي ، تح : علال الغازي ، مكتبة المعارف ، الرباط ، ١٩٨٠ م ، ص ٤٧٦ .

(2) Davvid Crystal, The Cambridge Encyclopedia of language,P:119.

(3) Cohesion in English, P: 278.

(٤) « نسيج النص » ١١٩ . وانظر « دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة » د. سعيد بحيري ، ٨٨ .

الثانية ، وقد أسهم التعريف كذلك بدور واضح في التماسك النصي .

علمًا أنّ هاليداي ورقية حسن لم يجعلها في كتابيهما (التماسك في الإنجليزية)
(اللغة والسياق والنص) التكرار من ضمن أدوات التماسك النصي الخمس التي
ذكروها وهي : الإحالة والإبدال والحذف والعطف والمعجم^(١) .

إذن أستطيع القول : إنّ التكرار هو إعادة ذكر لفظ أو أكثر في النص مرجعها واحد
بحيث يحيل الثاني منهما على الأول ، ويكون بالحروف أو الكلمات أو الجمل أو الفقرات
أو القصص ، باللفظ نفسه أو بالترادف لغرض تماسك النص أو آخر يريده المتكلم .

ج - الربط بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للتكرار :

١ - معنى (الرجوع) فيه إشارة إلى الإحالة القبلية ، وذلك بالرجوع إلى ما سبق
ذكره في النص . وبهذا الرجوع يتم السبك بين أجزاء النص .

٢ - و (البعث وتجديد الخلق بعد الفناء) فيه إشارة إلى أنّ المتكلم يذكر عدّة جمل
متتالية ، وبعد مدّة من الحديث يكاد المخاطب يصل إلى نسيان ما قيل في أوّل
الكلام ، فنجد المتكلم يعود ليكرر بعض ما قاله أولاً ليذكر المخاطب ،
ويبعث الجملة ويجدها بعد أن كادت تُنسى^(٢) .

٣ - و (ضمّ ظلفتي الرّجل ، وما في ذلك من تحقيق للتماسك بين هاتين الظلفتين)
فيه إشارة إلى معنى التماسك في النص .

(١) انظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ٢ : ١٨

(٢) انظر « علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق » ٢ : ١٨ .

وظائف التكرار :

للتكرار وظائف كثيرة تنجلي بالتأمل ، من أبرزها :

١ - أنه يُكسب النصّ صفة الاستمرارية :

فالتكرار هو إعادة مباشرة للكلمات ، أطلق عليه دي بوجراند مصطلح (Recurrence) ^(١) ، والتعبير المتكرر يُبقي على نفس المرجع ، وهذا يعني أنه يستمرّ بالإشارة إلى الكيان ذاته في عالم النص ، وعندئذ يتدعم ثبات النصّ بوساطة هذا الاستمرار الواضح ^(٢) . فيوجد تعدّد التكرار أساساً مشتركاً بين الجمل ممّا يسهم في وحدة النصّ وتماسكه ^(٣) .

٢ - الربط :

أشار (Hoey) إلى أنّ عناقيد الكلمات المتكررة بين الجمل تُسهم في الربط بين المحتوى القضوي للجمل في أجزاء مختلفة من النصّ ^(٤) .

وتراثنا البلاغي لم يُغفل الإشارة إلى دور التكرار اللفظي في عملية الربط بين أجزاء الكلام ، فقد تحدّث السجلماسي عن التكرار ، وجعله قسمين :

الأول : التكرير اللفظي ، وأسماه (مشاكلة) .

والثاني : التكرير المعنوي ، وأسماه (مناسبة) .

(١) انظر «النص والخطاب والإجراء» ٣٠١ .

(2) Stephen & Lester: Coherence, cohesion and writing quality,P:56.

(3) Michael Hoey: Patterns of lexis intext, P:45.

(4) Ibid : 440. وانظر «علم لغة النص : النظرية والتطبيق» ١٠٥ - ١٠٦ .

ومن أبرز أنواع (المشاكلة) ما يسمّى بـ (البناء) ، وقد ألمح إلى دوره في وظيفة الربط والتلاحم بقوله : إعادة اللفظ الواحد (أو المعنى الواحد) بالعدد أو بالنوع في القول مرتين فصاعدًا ؛ خشية تناسي الأول لطول العهد به في القول ^(١) .

وعدّ من هذا النوع قوله تعالى في قصّة الذبيح ثناءً على إبراهيم عليهما السلام : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(١٠٥) ، ﴿ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْحَقِيقُ ﴾ ^(١٠٦) ، ﴿ قَدِيتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(١٠٧) ، ﴿ وَرَكَّعْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ^(١٠٨) ، ﴿ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ^(١٠٩) ، ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ الصافات : ١٠٥ - ١١٠ .

فقوله : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ بناءً ، حيث أسقط منه (إِنَّا) ، وفي غيره من المواضع ذكر (إِنَّا كذلك) ؛ « لآته بُني على ما سبّقه في هذه القصّة من قوله : (إِنَّا كذلك) ، فكأنه استخفّ بطرح (إِنَّ) اكتفاءً بذكره أولاً عن ذكره ثانيًا » ^(٢) .

وواضح ما في هذا الكلام من إشارة إلى دور التكرار في تنشيط ذاكرة المستمع أو القارئ .

وأشير هنا إلى أنّ بعض علماء النصّ مثل دي بوجراند ودريسلر يعتمدون في كشفهم عن أوجه الترابط في النصّ على إنجازات علم النفس المعرفي أو الإدراكي في مجال دراسة الذاكرة بنوعها : الطويلة المدى والقصيرة المدى ، وآليات التذكّر ^(٣) .

وقد سبّق السجلماسيّ ابنُ الأثير في الإشارة إلى استخدام التكرير بسبب طول الفصل من الكلام ، وآته من الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرّة ثانية ليكون مقارنًا لتمام

(١) انظر « المنزع البديع » ٤٧٦ .

(٢) « المنزع البديع » ٤٧٧ - ٤٧٨ .

(٣) انظر « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية » ٩٣ .

الفصل ، كي لا يبيء الكلام منشوراً^(١) .

كما كرّر ابن القيم هذه الإشارة ، ونصّ صراحة على دور هذا التكرار في وصل أول الكلام بآخره حيث قال : « وقد يكرّر القول طلباً لدوام تذکر الإرهاب ، كما كرّر في سورة الرحمن ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ، وقد يكرّر اللفظ أيضاً ليتصل أول الكلام بآخره اتصالاً جيّداً^(٢) . وجعل منه قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ يوسف : ٤ .

٣- تحديد القضية الأساس في النص :

يُسهم التكرار في تحديد القضية الأساس في النص من خلال التأكيد على محتوى معين ، أو من خلال تكرار الكلمات المفاتيح التي يميل المخاطب إلى تكرارها ، « فالكلمات المتكررة بين الوحدات النصية تُسهم في التأكيد على أهمية مساهمة وتمييز هذه الجمل بإشارتها إلى القضية الأساسية (Central proposition) ، فهناك دائماً قضية أساسية يتم توسيعها من خلال إدخال معلومات جديدة (صفات أو أفعال) ، وهذا يوضح ما للتكرار من تأثيرات بنائية ودلالية^(٣) .

وفي ذلك يقول الثعالبي : إنّ التكرار سنة تتخذها العرب في إظهار عنايتها بأمر ما^(٤) . وغالباً ما تكون القضية الأساس هي المعنى بها في النصّ .

(١) انظر « المثل السائر » ٣ : ١٦-١٨ .

(٢) « الفوائد » لابن قيم الجوزية ، ١١١ . وانظر « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية » ٩٤ .

(3) Dudley. W. Reyrols: Language in the balance, P:439.

(٤) انظر « فقه اللغة وسر العربية » أبو منصور الثعالبي ، تح : فايز محمد وأمين يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٦ م . ص ٣٥٠ .

ومثال ذلك في قصص القرآن ما نجده في سورة القمر ، حيث تكرر فيها ذكر تكذيب الأقوام لرسولهم على وتيرة متشابهة ، كما يأتي :

- قصة نوح : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ القمر : ٩ وما بعدها .
- قصة هود : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَاوِي وَنُذِرَ ﴾ القمر : ١٨ وما بعدها .
- قصة صالح : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ القمر : ٢٣ وما بعدها .
- قصة لوط : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ القمر : ٣٣ وما بعدها .
- قصة آل فرعون : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۖ ﴿١١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْنَدٍ ﴾ القمر : ٤١ - ٤٢ وما بعدها .

هذا التكرار يساعدنا على تحديد القضية الأساس في النص ، وذلك من خلال التركيز على (قضية التكذيب) ، وتكرار لفظ (كذب) بصورة كاملة أو جزئية .

ومما يستحق التأمل أن هذا التكذيب مرتبط بالتكذيب المذكور في مطلع السورة عن أهل مكة حيث يقول تعالى فيهم : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَرٍ ﴾ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَعْتَرٍ ﴾ القمر : ٢ - ٣ .

فالإعراض والتكذيب واتباع الهوى يستلزم بعضه بعضاً ، وهذا يؤكد أهمية الجملة الأولى أو المطلع في دراسة أي نص ، حيث يحوي إشارات إلى القضايا الأساس في النص ، من خلال الكلمات المفتاحية فيه .

وكذلك تكرر لفظ (النُّذُر) في الآيات : (١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١) كلُّ هذا يرتبط بها ورد في مطلع السورة حيث قال تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ القمر : ٥ .

وقد تكرر في السورة نفسها قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ في الآيات : (١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٥١) . وقد كان بمثابة قرع العصا والزرل لأهل مكة مرآت ومرآت ، ولا يخفى ارتباطه بها جاء في مطلع السورة من قوله تعالى في أهل مكة : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ القمر : ٤ (١) .

٤ - إنعاش الذاكرة ، وتجنب أثر البعد :

وذلك عند « إعادة ذكر صدر الكلام بعد أن حال بينه وبين ما يتعلق به فاصل طويل من الكلام جعله مظنة النسيان أو ضعف العلاقة بما يتبعه من خبر أو فاعل أو جواب ، فإذا أعيد صدر الكلام إلى الذاكرة اتضحت العلاقة بما يليه ويتمي إليه » (٢) ، ومن شواهد هذا التكرار بنية الربط وتجديد العهد قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ يوسف : ٤ .

وأي علاقة نحوية أو أسلوبية بين عنصرين من عناصر السياق إنما تكون أكثر وضوحاً مع قرب أحدهما من الآخر .

وهذه القرينة لا تتحقق مع مطل أول العنصرين أو بعده بالفصل أو الاعتراض ، وعندئذ يتكرر ذكر العنصر الأول ليقرب بالتكرار من العنصر الآخر ، فيكون التكرار وسيلة لإنشاء القرب بعد البعد ، ولا يخفى ما في ذلك من الربط والتباسك بين عناصر النص .

(١) انظر « من طرائف القرآن الكريم » للشيخ عبد الغني الراجحي ، مجلة الأزهر ، مج ٢١ ، ١٩٤٩ م . ص ٣٦ - ٤١ .

(٢) « البيان في روائع القرآن » ١ : ١١٣ .

فقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كَذَبُ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ البقرة : ٨٩ . يتمثل التكرار في عبارة (لما جاءهم) ، ولو نظرنا إلى الكلمة التي تسبق تكرار المطلق والكلمة الأخرى التي تأتي بعده لوجدناها أيضا مكررتين على صورة (كفروا) و (كفروا به) ، ولو لم تنفصل إحدى الكلمتين عن الأخرى بواسطة التكرار المذكور لبدت ثانية الكلمتين كأنها توكيد لفظي لأختها وليست جوابا للأداة الظرفية الزمانية (لما) ، وبذلك يتغير المعنى ويحدث اللبس .

وهكذا جاء التكرار ليقرب المسافة بين (لما) وجوابها بعد تباعدهما ^(١) .

ولا يخفى ما أحدثه هذا التكرار من تماسك ، فمن يقرأ (لما جاءهم) الثانية لا بد له من الرجوع إلى الأولى ، وبهذا الرجوع تكون الإحالة ، ويكون التماسك بين أجزاء النص .

٥ - أمن اللبس :

ففي قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّ إِلَهُيَ إِلَهُكُمْ كَرِيمٌ ۝١٩ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢٠ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مَسْلُومِينَ ۝٢١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ النمل : ٢٩ - ٣٢ . نجد أن الفعل (قالت) لو لم يتكرر لظن أن عبارة ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ من كتاب سليمان ، وأن كلامها هي الذي يأتي على سبيل الاستثناء بعد ذلك بقولها : ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا

(١) انظر «خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم» ٣١ .

... ﴿ فافاد التكرار بذلك أمن اللبس ^(١) .

٦- التوكيد :

قد يكون التكرار مع غير طولِ الفاصلِ ، وذلك لإرادة التوكيد ^(٢) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ النساء : ١٥١ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ طَلَمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ طَلَمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ الحجر : ٢٤ . فالتكرار في الأولى لتوكيد أن العذاب المهين معدٌّ للكافرين دون غيرهم ، وفي الثانية لتوكيد علم الله تعالى للمستقدمين والمستأخرين .

٧- التقرير :

وقد قيل : إن الكلام إذا تكرر تقرر ^(٣) ، وقد نبّه تعالى على السبب الذي لأجله كرّر الأفاضل والإندار في القرآن بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ طه : ١١٣ .

٨- تعدد المتعلق :

بحيث يكون المكررُ ثانيًا متعلقًا بغير ما تعلّق به المذكور أولاً . أي أن الجملة المكررة تفيد في كلّ مرّة معنى جديدًا من خلال السياق القرآني .

والسيوطي ^(٤) يسمّي هذا النوع بـ (الترديد) ويحمل عليه قوله تعالى : ﴿ فَإِنِّي

(١) انظر « البيان في روائع القرآن » ١ : ١١٦ .

(٢) انظر « البيان في روائع القرآن » ١ : ١١٦ .

(٣) انظر « الإتيان في علوم القرآن » ٣ : ٢٠١ . وانظر « المثل السائر » ٣ : ٤ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٩ .

(٤) انظر « الإتيان في علوم القرآن » ٣ : ٢٠١ .

ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ الرحمن : ١٣ ، وما بعدها . التي تكرر ذكرها في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة ، لكن كلّ واحدة تتعلق بما ذكر من النعم قبلها ، لذا زادت على الثلاثة ، ولو كان الجميع عائداً إلى شيء واحد لما زاد على ثلاثة ؛ لأنّ التأكيد لا يزيد عليها .

وقد تكررت هذه الآية على أربع مراحل ، في كلّ مرحلة تفيد معنى جديداً على النحو الآتي :

المرحلة الأولى : جاء ذكر هذه الآية بعد ثمان آيات أفادت معنى تضمّن تعدّد عجائب خلق الله وبيدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم ، فناسب ذكر الآلاء بعد كلّ ذلك .

المرحلة الثانية : جاء ذكر هذه الآية بعد سبع آيات أفادت معنى جديداً تضمّن ذكر النار وأهوال يوم القيامة ، فناسب ذكر الآلاء بعدها ؛ لأنّ في صرف المؤمن من عذاب النار نعمة عظيمة .

المرحلة الثالثة : جاء ذكر هذه الآية بعد ثمان آيات أفادت معنى جديداً تضمّن وصف الجنتين وأهلها ونعيمهم فيها ، فناسب أن يذكر بعدها نعمته سبحانه على عباده الصالحين ، واستحقاقهم الجنة .

المرحلة الرابعة : جاء ذكر هذه الآية بعد ثمان آيات تضمنت وصف الجنتين اللتين من دونهما ومن استحقها بتوفيق الله ، فناسب ذكر نعمة الله عليه ^(١) .

(١) انظر « الإعجاز البياني للقرآن الكريم » حسين مطاوع الترنوري ، مجلة البحوث الإسلامية ، ع ٢٣ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٢ .

فنرى أن الخطاب بهذه الآية جاء مكرراً لا يختلف من مرحلة إلى أخرى ، ليفيد في كل مرحلة معنى جديداً يختلف عن سابقه ولاحقه ، لذا جاء تكرار الخطاب مناسباً للسياق ومنسجماً ومتناسكاً مع نصّ السورة .

وكذا قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ المرسلات : ١٥ ؛ لأنه تعالى ذكر قصصاً مختلفة وأتبع كل قصّة بهذا القول ؛ فكأنه قال عقب كل قصّة : ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين بهذه القصّة .

وقوله : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ القمر : ١٧ . قال الزمخشري في ذلك : كرّر ليجدّوا عند سماع كل نأ منها اتعاضاً وتنبهها ، وإن كلاً من تلك الأنباء مستحقٌ لاعتبار يختصُّ به ، وأن يُنبهوا لكيلا يغلبهم السرور والغفلة .

٩ - التكرار ظاهرة لغوية مقامية :

ومن أهم ما يدلّ على هذا الفهم إشارة ابن الأثير إلى تكرار المعنى في مقام الاعتذار والتنصّل ، قصداً إلى التأكيد والتقرير لما ينفي عن المتكلّم ما رمي به ^(١) .

١٠ - الإشارة إلى الطريقة التي بُني بها النص دلاليّاً :

يشير التكرار إلى الطريقة التي بُني بها النص دلاليّاً ، من حيث كونه مقياساً للتوازن بين المعلومات الجديدة والقديمة في النص .

فنقص التكرار يشير إلى قدرة الكاتب على التوسّع في الأفكار الأساسية بإدخال معلومات جديدة ^(٢) ، كما يعدّ التكرار أحد العوامل التي ترتبط بالقدرة على الفهم ،

(١) انظر « المثل السائر » ٣ : ٢٧ ، و« النص والخطاب والاتصال » د. محمد العبد ، ٢٣١ .

(2) Dudley. W. Reyrols: Language in the balance, PP:439 – 449.

فالفهم يكون أسرع في حالة استخدام التكرار بالألفاظ نفسها ، مقارنة باستخدام الترادف ^(١) .

الإكثار من التكرار في الخطاب :

لاحظ (Hoey) أن التكرار المفرط بين جملتين يؤدي إلى الإطناب ، فتكون العلاقة بينهما إحدى علاقات التطابق ^(٢) ، مما يجعل القارئ يشعر بأنه ليس هناك اختلاف بينهما .

ويرجع دي بوجراند الإسراف في استخدام التكرار المعجمي إلى قصر زمن التخطيط ، مما يؤدي إلى إحباط الكفاءة الإعلامية للنص وتقلصها ، ما لم يكن هناك تحفيز قوي ، وهو عيب بلاغي نصّ عليه النقاد ، لأنه يوحى بالفقر اللغوي لدى منشئ النص مما يؤدي إلى عدم قبوله ^(٣) .

والسبيل إلى التخلص من ذلك يعود إلى براعة منشئ النص في طريقة الصياغة والمخالفة بين العبارات من خلال مبدأ (التوازي) و (الترادف) و (الجناس) و (السجع) وغيرها من المحسنات البديعية ما أمكن . وقد وجدت بعض الدراسات أن ثمة عوامل تؤثر في استخدام التكرار في النصوص ، كموضوع الكتابة ، والخلفية الثقافية ، ومهارة الكتابة ^(٤) .

والحقيقة أن ترائنا البلاغي قد أشار إلى كون التكرار المعنوي أمراً معيياً في الخطاب ، قال السجلماسي : « ليس ينبغي أن يُظنَّ بنا أننا نريدُ باسمِ (المناسبة) الذي تُرادفُ به

(1) Judith W. Irwin: Cohesion and comprehension, PP: 35 – 36.

(2) Michael Hoey: Patterns of lexis intext, P:13.

(٣) انظر «النص والخطاب والإجراء» ٣٠٦ . و«مدخل إلى علم لغة النص» ٨٢ . و«علم لغة النص :

النظرية والتطبيق» ١٠٥ . و«نظرية علم النص : رؤية منهجية في بناء النص النثري» ١٠٨ .

(4) Dudley. W. Reyrols: Language in the balance, PP:441 – 444.

(التكرير المعنوي) أن يكرّر المتكلم المعنى الواحد بالعدد في القول مرتين فصاعدًا ؛ لأنّ ذلك ليس يُعدّ من القول مغسولًا خِلوًا من البديع ، وعُطْلًا عُرْيًا من البيان فقط ، بل مردولًا غثًا ومستكرها رثًا ^(١) .

فالسجلهاسي هنا أدرك قاعدةً أساسية من قواعد انسجام الخطاب ، وهي قاعدة عدم تكرير المعنى الواحد أكثر من مرّة ؛ لأنّه سيعدّ حشوا لا مبرّر له ، ولكن لا مانع من « إيراد المعنى وما يليق به » ، وذلك هو مقصوده بـ (المناسبة) التي عرفها بأنّها : « تركيب القول من جزأين فصاعدًا ، كلّ جزءٍ منهما مضافٌ إلى الآخر ومنسوبٌ إليه بجهةٍ ما من جهات الإضافة ، ونحو ما من أنحاء النُسبة » ^(٢) .

وبيّن أنّ جهات المناسبة التي تليق بالمعنى أربع :

- ١ - إيراد الملائم : أن يأتي بالشيء وشبيهه ، نحو : (الشمس والقمر) .
- ٢ - إيراد النقيض : أن يأتي بالأضداد ، نحو : (الليل والنهار) .
- ٣ - الانجرار : أن يأتي بالشيء وما يستعمل فيه ، نحو : (القوس والسهم) ، (الفرس واللجام) ... إلخ .
- ٤ - التناسب : أن يأتي بالأشياء المتناسبة ، نحو : (القلب والملك) ، إذ يقال : نسبة القلب في البدن نسبة الملك في المدينة ^(٣) .

ويرى السجلهاسي أنّه لا مؤاخذه على الكاتب أو المتكلم إن سلّك جهة من هذه الجهات في بناء القول ، لكن إذا « تنكّب عن المناسبة رأسًا وسلّك سبيلًا غيرها جملةً ،

(١) « المتزع البديع » ٥١٧ . وانظر « لسانيات النص » ١٣٥ .

(٢) « المتزع البديع » ٥١٨ . وانظر « لسانيات النص » ١٣٥ .

(٣) انظر « المتزع البديع » ٥١٨ .

فَصَّرَسَ فِي النَّهْجِ ، وَأَسَاءَ فِي النَّظْمِ ، فَذَلِكَ هُوَ الْعَيْبُ »^(١) .

أَمَّا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَإِنَّ التَّكَرَّارَ فِيهِ صِفَةٌ جَمَالِيَّةٌ ، عَكَفَ اللُّغَوِيُّونَ وَالبَّلَاغِيُّونَ وَالْمُفَسِّرُونَ عَلَى اسْتِنطَاقِ مُحَاسِنِهَا^(٢) ، وَاسْتِجْلَاءِ فَوَائِدِهَا ، فَتَكَرَّرَ الْقُرْآنُ تَسْتَرِيحًا لَهُ النَّفْسُ ، وَيَقْبَلُهُ الطَّبِيعُ ، وَيَحْسُ الْمُسْتَمِعُ لَهُ بِاسْتِجَابَةٍ يَدْرِكُ عَمَقَهَا كَمَا يَدْرِكُ بَقِيَّةَ الْمَظَاهِرِ الْمُحِبَّةِ مِنْ مَلَاةٍ وَجَمَالٍ ، وَطِيبِ نَعْمٍ ، وَاسْتِقَامَةِ وَزْنٍ ، وَسَلَامَةِ طَبِيعٍ .

وَقَدْ لَحَظَ الدَّارِسُونَ أَنَّ التَّكَرَّارَ أَكْثَرَ وَرُودًا فِي السُّورِ الْمُكَيَّةِ مِنْهَا فِي السُّورِ الْمَدْنِيَّةِ^(٣) .

وَنَظَرًا إِلَى أَنَّ عِلْمَ اللُّغَةِ الْحَدِيثَ لَهُ مَنَاهِجُهُ الْمَخَالَفَةُ الَّتِي لَا تَقْنَعُ بِالْأَحْكَامِ الْعَامَّةِ ، وَلَا تَكْتَفِي بِتَحْكِيمِ الْحَسِّ اللُّغَوِيِّ وَحْدِهِ ، أَوِ التَّنْذُوقِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ يَعْدُ فِيهَا مَضًى فِي نَظَرِ بَعْضِهِمْ كَافِيًا وَمَغْنِيًّا فِي حَدِّ ذَاتِهِ ، نَظَرًا إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ انْبَرَى بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ لِدِرَاسَةِ ظَاهِرَةِ التَّكَرَّارِ عَلَى وَفْقِ الْمَنْهَجِ التَّرْكِيْبِيِّ الَّذِي يَنْطَلِقُ مِنْ تَحْلِيلِ الْمَقَاطِعِ وَالْعُنَاصِرِ الصَّوْتِيَّةِ الدَّلَالِيَّةِ لِلْأَلْفَاظِ ، وَأَثْبَتُوا أَنَّ التَّكَرَّارَ فِي الْقُرْآنِ - فِي ضَوْءِ التَّحْلِيلِ اللُّغَوِيِّ - إِعْجَازٌ^(٤) .

(١) «المتنزع البديع» ٥١٩ . وانظر «لسانيات النص» ١٣٦ .

(٢) كما فعل الكرمانى (ت ٥٠٥ هـ) الذي أفرد مؤلفاً في ذلك سماه « أسرار التكرار في القرآن » أو « البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان » . تح : عبد القادر أحمد عطا ، دار الفضيلة ، القاهرة ، د.ت. وكذا السيوطي الذي أفرد مبحثاً عن التكرار في القرآن في كتابه « الإتقان في علوم القرآن » ٣ : ٢٠١ .

(٣) انظر « دراسات قرآنية » محمد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣ م . ص ٢٤٥ .

(٤) انظر « ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين » د. البدرأوي زهران ،

التكرار في قصص القرآن :

إن التكرار في القرآن الكريم يختلف عن التكرار في كلام البشر ، فهو في كلامهم يعدُّ عيباً في الأسلوب ، ونقصاً في قدرة الكاتب؛ أما في القرآن فهو تكراراً محكماً ذو وظائف يؤدّيها في النصّ القرآني .

فالتكرار في القرآن له وظيفتان :

١ - وظيفة دينية ، غايتها تقرير الحكم الشرعي الذي جاء به النص القرآني وتأكيدُه .

٢ - وظيفة لغوية ، تتمثل في تأكيد المعاني وإبرازها وبيانها بالصورة الأوفق والأنسب .

قال ابن العربي في « القواصم » : « ذكر الله قصّة نوح في خمس وعشرين آية ، وقصّة موسى في تسعين آية »^(١) .

وقد ألف البدر بن جماعة كتاباً أسماه « المقتنص في فوائد تكرار القصص »^(٢) ، وذكر من فوائده : « أنّ في كلّ موضع زيادة شيء لم يذكر في الذي قبله ، أو إبدال كلمة بأخرى لنكتة ، وهذه عادة البلغاء »^(٣) .

ثم إن إبراز المتكلم المعنى الواحد في أساليب متنوعة فيه اقتدارٌ على نظم الكلام وتركيبه ، وعلى صياغة المعاني والأغراض ، فتارة يأتي بلفظ الاستعارة ، وتارة في صورة

(١) انظر « الإتيقان في علوم القرآن » ٣ : ٢٠٤ . و« معترك الأقران » ٣٤٧ - ٣٥٠ .

(٢) انظر « معترك الأقران » ٣٤٧ - ٣٥٠ .

(٣) انظر « الإتيقان في علوم القرآن » ٣ : ٢٠٤ .

الإرداف، وحيناً في مخرج الإيجاز، ومرة في قالب الحقيقة ... وهكذا^(١).

ومثله ما ذهب إليه ابن أبي الأصبع^(٢) حيث يقول: «وعلى هذا أتت جميع قصص القرآن، فإنك ترى القصة الواحدة لا تختلف معانيها تأتي في صور مختلفة وقوالب من الألفاظ متعددة حتى لا تكاد تشبه في موضعين منه، ولا بد أن تجد الفرق بين صورها ظاهراً».

وهذا تفسير شكلي يأخذ الأمور بظاهرها ولا يتعمق في خفاياها ودوافعها الحقيقية؛ لأن اللغة لا تصدر عن الإنسان من منطقة عنده تسمى منطقة المقدرة اللغوية يضع فيها المعاني والأغراض في نظوم وتراكيب تأتي مرة في لفظ الاستعارة ومرة في صورة الإرداف، ومرة يخرج مخرج الإيجاز ومرة مخرج الحقيقة، أو كما يقول ابن أبي الأصبع ترى القصة الواحدة لا تختلف معانيها تأتي في صور مختلفة وقوالب من الألفاظ متعددة

..

وإن كان ذلك كذلك فبم تفسر أنها لا تكاد تشبه في موضعين، وأنت تجد الفرق بين صورها ظاهراً؟

إن التفسير اللغوي المحدث^(٣) يضع في المقام الأول تفاعل عناصر البناء اللغوي مع ما يقتضيه حال المخاطبين وما يتطلبه الموقف اللغوي.

(١) انظر «الإتقان في علوم القرآن» ٣: ٢٠٤.

(٢) انظر «بدائع القرآن» لابن أبي الأصبع، ٣٨٩.

(٣) وذلك من وجهة نظر المدرسة اللغوية الحسية - التي ترى أن اللغة ردود أفعال، وأنها استجابات لمواقف - أو من وجهة نظر المدرسة اللغوية العقلية - التي ترجع اللغة إلى عقلية متكلميها مع إدخالها في الاعتبار نواحي النشاط الثقافي والنفسي والشخصي وقيم الجماعة الأخلاقية وغير ذلك.

فقصة ولادة سيدنا يحيى وسيدنا عيسى - عليهما السلام - كررتا مرتين :

الأولى : جاءت في سورة مريم ، وهي مكية ، وأنزلت خطاباً لأهل مكة .

والثانية : في سورة آل عمران ، وهي مدنية ، أنزلت خطاباً لليهود ولنصارى نجران حين قدموا للرسول ﷺ ، ولهذا اتصل بها ذكر المحاجة والمباهلة ^(١) .

إذن فكل واحدة جاءت لسبب ، وتطلبها موقف ، وراعت ظروف المخاطبين على نحو ما تطلب ذلك وفد بني نجران من محاجة ومباهلة .

ومن هنا فقد تفاعلت عناصر البناء اللغوي من اختيار لوحدات لغوية بعينها وانتقاء موقعية تصلح لها مع ما يقتضيه ذلك من عناصر مطابقة بين أجزاء الوحدات اللغوية .

وما يتطلبه الحال ، ومقام الاستعمال وظروف المخاطبين وحالاتهم النفسية وما هم عليه من ثقافة ، وما لهم من معتقدات وقيم ، وتفاعل عناصر البناء اللغوي هو الذي يظهر الاقتدار في صياغة المعاني والأغراض في نظوم وتراكيب تتفاعل مع ما يتطلبه الموقف وتحقق المراد من عدمه .

وهذا هو الذي يفسر عدم تكرير قصة يوسف - عليه السلام - وسوقها مساقاً واحداً في موضع واحد ^(٢) .

فقد قيل إنّ سورة يوسف - عليه السلام - نزلت بسبب طلب الصحابة أن تقص

(١) انظر « الإتيان في علوم القرآن » ٣ : ٢٠٦ .

(٢) وقد أورد السيوطي في « الإتيان في علوم القرآن » ٣ : ٢٠٥ بعض أسباب عدم تكرار سورة يوسف في مواطن متعددة .

عليهم^(١) ، فنزلت مبسوبة تامة ليحصل لهم مقصود القصص من استيعاب القصة ، وترويح النفس والإحاطة بطرفيها .

وقد كُثِّرَت قصص الأنبياء لأنَّ المقصود إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم ، والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار للرسول ﷺ ، فلمَّا كذبوا أنزلت قصة منذرة بحلول العذاب كما حلَّ على المكذِّبين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الأنفال : ٣٨ . وقال جلَّ وعلا : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ الأنعام : ٦ . وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك .

وبهذا أيضًا يجيء الجواب عن الحكمة في عدم تكرار قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين ، وقصة موسى والخضر ، ونحوها .

وفي القرآن الكريم قصص تكررت أكثر من مرة ، وآيات ترددت في مواضع عديدة ، وألفاظ وردت في مواطن متعددة، فما حقيقة التكرار الواقع في كتاب الله؟ وما هو فيصل القول فيه ؟ وما مدى صدق ما يقوله المشككون: إن القرآن إذا حُذِفَ منه المكرر لم يبق منه إلا القليل ؟

وللرد على هذه الشبهة نقول : إضافة إلى التفسير اللغوي المحدث المذكور سابقًا ، نجد أنَّ القصة الواحدة تُكْرَرُ في أكثر من سورة في القرآن الكريم ، وذلك لأجل التناسب بين الحلقات القصصية وموضوع السورة التي وردت فيها القصة ، فالتناسب القرآني يردُّ في سياق السورة ليؤدِّي وظيفة فيه، وقُلَّ أن تردَّ قصةٌ بكلِّ حلقاتها في سورة واحدة ، وإنَّما يأتي في سياق كلِّ سورة من حلقاتها ما يناسب موضوع السورة ومحورها وأهدافها ، وهذا مظهر من مظاهر وحدة السورة وتناسب معانيها .

(١) انظر « المستدرک » للحاكم النيسابوري . و« معترك الأقران في إعجاز القرآن » .

ومن آثار خضوع القصّة في القرآن لوحدة السّورة عدم الالتزام بالترتيب الطبيعي لحلقات القصة ، فمرة تعرّض حلقة من أوّل القصّة ، ومرة من وسطها ، ومرة من آخرها ، وتارة تعرّض بكاملها ، كلّ ذلك بحسب ما يقتضيه مقصد السّورة وموضوعها^(١).

إنّ معرفة السرّ في تنوّع الأسلوب في حكاية القصّة الواحدة في مواضع مختلفة يدفعنا إلى تتبّع السياق (السباق واللاحق) لكلّ قصّة في كلّ سورة ، وقد يدفعنا ذلك إلى النظر في السّورة التي وردت فيها القصّة نظرة إجمالية .

فسورة (طه) مثلاً ، يشيع فيها (الذكر والنسيان) وما يشتقّ منها وما يدور في فلكهما ، الأمر الذي كان سبباً في سوّق قصّة آدم فيها مفتوحة بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ طه : ١١٥ ، ومختمة بقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَضَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ طه : ١٢٥ (١٢٦) .

ونلاحظ أنّه في حكاية قصّة آدم هنا أطنب في ذكر دخوله الجنّة ، وعهد الله إليه بعدم الأكل من الشجرة ، ونسيانه عهد ربه ، وهبوطه إلى الأرض ..

بخلاف قصّة آدم في سورة (صر) التي شاع فيها (الشقاق والخصام) ، فكان بدء القصّة فيها بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانُوا لِي مِنْ عِلْمٍ إِلَّا لِيَبْلِيَّ أَعَالِمِينَ ﴾ ص : ٦٩ . فقد أطنب في حكاية ما كان بين إبليس وربّه من مقاولات الخصومة والنزاع من دون التعرّض لمسألة دخول آدم الجنّة ونسيانه عهد ربه .

(١) انظر « التناسب البياني في القرآن » أحمد أبو زيد ، ٦٧ .

إذن فشياع الشقاق والخصام في سورة (ص) بدءاً بقوله في مطلع السورة : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِهِمْ ﴾ ص: ٢ ، قد انعكس على كثير من قصصها ، بدءاً من قصّة داود التي كثرت فيها ألفاظ الخصومة لفظاً ومعنى من آية (١٧ - ٢٦) . وكذا تخصّم أهل النار في الآية (٩٦) وما بعدها .

وكذا نجد تكرار (الذكر والنسيان) وشيوعه في سورة (طه) في الآيات الآتية : (٣ ، ١٤ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٨٨ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٢٦) . وبالرجوع إليها غنيّة عن الإطالة في ذكرها .

وكذا الأمر في سورة يوسف ، فقد شاعت فيها (الرؤيا وتأويلها) .

ففي الآيات (٤ - ٦) رؤيا وتأويلها . وفي الآية (٢٦) مع (٤١) رؤيا وتأويلها . وفي الآيات (٤٣ - ٤٩) رؤيا وتأويلها . وفي الآيتين (١٠٠ - ١٠١) حديث عن الرؤيا وتأويلها .

وكذلك شاع في سورة يوسف ذكر (المكر والكيد) بدءاً من حيلة إخوة يوسف ﴿ أَرْسَلَهُ مَعَا غَدًا يَزْنَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ يوسف : ١٢ ، ثم أوقعوا بيوسف وبرؤوا أنفسهم أمام أبيهم بحيلة ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنَرْكَبُكَ يَوْسُفَ عِنْدَ مَتْنَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ يوسف : ١٦ - ١٧ . ثم تدبّر امرأة العزيز أحكم الحيل من قوله : ﴿ وَرَزَوْدَتْهُ إِلَى هَرَفٍ بَيْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأَتْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ يوسف : ٢٣ ، إلى قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ يوسف : ٢٨ .

وكذلك حينما سمعت امرأة العزيز بمكر نسوة في المدينة وقولهن : ﴿أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يوسف : ٣٠ ، مَكَرَتْ بِهِنَّ فَارْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يوسف : ٣١ - ٣٢ .

ثم يسترجع يوسف إخوته إلى مصر مرة ثانية بحيلة : ﴿وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا يَصْنَعُ لَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يوسف : ٦٢ ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِأَجْلِ أَنْ يَأْتُوا بِأَخٍ لَهُمْ مِنْ أَبِيهِمْ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٦٣) فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾ يوسف : ٥٩ - ٦٠ .

ثم استبقى لديه أخاه بحيلة حينما جعل السقاية في رَحْلِ أَخِيهِ : ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُ يَرْحَمُ لَسْرِقُونَ﴾ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ (٧١) قَالُوا تَفْقَدُ صُورَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا بِتَفْسِدٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يوسف : ٧٠ - ٧٦ .

وهكذا نجد التكرار الاشتقاقي لمادتي (الكيد) و(المكر) مبثوثاً في أرجاء السورة ،
يحيل اللاحق منه على السابق ، ويربطه به ، حتى غدا النص القصصي لحمة واحدة ،
محكم النسج ، متماسك البناء ، منسجم الإيقاع .

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ يوسف : ٥ ، و﴿إِنَّهُمْ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يوسف :
٢٨ ، و﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ يوسف : ٣١ ، و﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ
أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يوسف : ٣٣ ، و﴿إِنَّ رَبِّي يَبْعِثُ عَلَيْهُ﴾ يوسف : ٥٠ ،
و﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ﴾ يوسف : ٥٢ ، و﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا لِيُوسُفَ﴾ يوسف :
٧٦ ، و﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ يوسف : ١٠٢ .

ولا شك أن هذا التكرار الكامل أو الجزئي يساعد في تعيين محور السورة التي تدور
الآيات حوله ، وانتشاره على امتداد النص القصصي يشكل مناطق ربط تسهم في تماسك
النص .

وفي سورة مريم ابتدأت الآيات بالذكر مضافاً إلى الرحمة ﴿كَهَيْعَ ۝ ذَكَرُ
رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ مريم : ١ - ٢ ، ولفظ (الرحمة) و(الرحمن) ومعناها قد
شاع في هذه السورة حتى فيما يتوهم أن ضد الرحمة فيه أقرب ، كما في قول إبراهيم
لأبيه : ﴿يَتَأْتِيَ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ مريم :
٤٥ ، وقد تردد ذكر هاتين اللفظتين في هذه السورة في الآيات الآتية : (٢ ، ١٨ ، ٢١ ،
٢٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ،
٩٣ ، ٩٦) .

إذن قد ذهب تخاليل هذا المطلع الرحيم تنتظم السورة كلها ، وهو ما يؤكد أهمية
الجملة الأولى في النص ، ودورها الإحالي ، حيث تحوي الكلمات الأساس التي تمتد منها

السلاسل الإحالية في أرجاء النص .

وعلى إثر هذا الذكر المذكور في أول آية في السورة (ذكر رحمته ربك ..) وهي مطلع قصة زكريا - عليه السلام - توجد سائر قصص السورة مبدوءاً بالذكر في مطالعه على وتيرة واحدة ، إشارة إلى أن التذكير من مقاصد السورة . انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ مريم : ١٦ ، وقوله : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ مريم : ٤١ ، وقوله : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ مريم : ٥١ ، وقوله : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ مريم : ٥٤ ، وقوله : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾ مريم : ٥٦ .

وفي ذلك إشارة إلى أهمية التناسب بين السور وفواتحها ^(١) .

ومثل هذا نجده في سورة الشعراء التي شاع فيها ذكر تكذيب الأقوام لرسولهم ، ودعوة الرسل لهم بطريقة موحدة ، انظر الآيات : (١٠٥ وما بعدها ، و ١٢٣ وما بعدها ، و ١٤١ وما بعدها ، و ١٦٠ وما بعدها ، و ١٧٦ وما بعدها) .

وهذه المواضع التي ورد فيها التكذيب كلها ترتبط بالتكذيب المذكور عن أهل مكة في مطلع السورة الكريمة ، حيث قال تعالى فيهم : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الشعراء : ٦ ، ثم شاع في السورة نفسها تكرار آيتين متلازمتين تكتنفان كل قصة في السورة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) وَلَئِنْ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ انظر الآيات (٨ و ٩ ، ٦٧ و ٦٨ ، ١٠٣ و ١٠٤ ، ١٢١ و ١٢٢ ، ١٣٩ و ١٤٠ ، ١٥٨ و ١٥٩ ، ١٧٤ و ١٧٥ ، ١٩٠ و ١٩١) .

(١) انظر « التناسب البياني في القرآن : دراسة في النظم المعنوي والصوتي » أحمد أبو زيد ، ٦٢ .

ونلاحظ أيضًا ارتباط هذه الآيات بما جاء في مطلع السورة حيث قال سبحانه في أهل مكة : ﴿ إِن شَأْنُنَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُجْدٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الشعراء : ٤ - ٦ ، ف (ذِكْرُ الْآيَةِ) ، و (عدم الإيمان) ، و (رحمة الله) ، قد وردت في الآيات الأولى من السورة على سبيل التكرار الكامل والتكرار الترادفي ، حيث وَرَدَ في مطلع السورة أيضًا (ذِكْرُ الْآيَةِ) ، و (الإعراض عن الذكر) الذي جاءهم من (الرحمن) ، والتكذيب به .

وكلُّ هذه الشواهد تجسّد لنا حقيقة الدور الإحاليّ للتكرار في القصص القرآني . الذي أسهم في التحام النص وانسجامه من مبتدئه إلى منتهاه .

ومجمل القول في ذلك : لما كان من أغراض القصة في القرآن ، إثبات وحدة الإله ، ووحدة الدين ، ووحدة الرسل ، ووحدة طرائق الدعوة ، ووحدة المصير الذي يلقاه المكذبون ، استدعى المنطق القرآني هذا التكرار ؛ لتحقيق تلك الأغراض ، تثبيتاً لقلوب المؤمنين ، وتحذيراً للمعاندنين من مغبة الإعراض عنها .

ولما كان الغرض من القصص القرآني غرضاً دينياً في المقام الأول ، اقتضى الأمر أن تعرض منه الحلقات التي تقتضيها هذه الأغراض ، فأخر حلقة تُعَرَّض ، تتفق مع أظهر غرض ديني ، صيغت القصة من أجله ، وذلك بحسب ترتيب سور القرآن الكريم .

فمثلاً ، قصة موسى عليه السلام ورد أول ذِكْرِ لها في سورة البقرة ، وكان موضوعها ذبح البقرة وتشديد بني إسرائيل على أنفسهم ، فشدد الله عليهم .

ثم جاء ذكر لها في سورة المائدة وفيها عرض لحلقة التيه ، فهؤلاء بنو إسرائيل قد أغدق الله عليهم نعمته ؛ ولكنهم في النهاية لا يحافظون على هذه النعمة ، ولا يدخلون الأرض المقدسة ، وقد جهد موسى عليه السلام ما جهد لردهم إليها ؛ فيكون تأديبهم

على هذا الموقف ، تركهم في التيه لا مرشد لهم ولا معين ، حتى يأتي الأجل المعلوم .
وهذا الهدف الديني للقصص ، هدف ملحوظ ومقصود في باقي القصص القرآني ؛
كقصة آدم ، وقصة إبراهيم ، وقصص باقي الأنبياء ، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام .
هذا ، ناهيك عما يرافق هذا الهدف الديني من تناسب واقعي لأحداث القصة ،
وتناسق فني في سياقاتها المتكررة والمتعددة .

كما أشير إلى أن من القصص القرآني ما لا يأتي إلا مرة واحدة ، مثل قصة
يوسف ، وقصة لقمان ، وقصة أصحاب الكهف ؛ ومنه ما يأتي متكرراً على حسب ما
تدعو إليه الحاجة ، وتقضيه المصلحة ، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد ، بل
يختلف في الطول والقصر ، واللين والشدة ، وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون
آخر .

ومن الحكمة في هذا التكرار :

١ - بيان أهمية تلك القصة ، لأن تكرارها يدل على العناية بها وتوكيدها ؛ لتثبت في
قلوب الناس .

٢ - مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها ، ولهذا نجد الإيجاز والشدة غالباً فيما أتى
من القصص في السور المكية ، والعكس فيما أتى في السور المدنية .

٣ - ظهور صدق القرآن الكريم ، وأنه من عند الله تعالى ، حيث تأتي هذه القصص
على الرغم من تكرارها على أتم وجه ، وأفضل تناسب ، من دون تناقض في
المضمون ، أو تعارض في سرد الحدث القصصي .

صور الروابط التكرارية :

أ . التكرار الكلي (full recurrence)^(١) :

أي إعادة أعيان الألفاظ ، أو تكرار الكلمة نفسها (the same word) ،
ويندرج تحته نوعان :

أولاً : التكرار المباشر للعنصر المعجمي (the direct repetition) :

هو تكرار اللفظ مع وحدة مرجعه (يكون المحال عليه واحداً) .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾
البقرة : ٧٩ . فقد تكرر (الويل) وقُصد به دلالة واحدة ، ومرجع واحد .

وهذا النوع يشير إلى أن المتكلم يواصل حديثه عن الشيء نفسه ، بما يعني استمراره
عبر النص^(٢) ، وهو ما يُطلق عليه (Hoey) التكرار المعجمي البسيط
(Simple lexical repetition) ، ويحدث عندما يتكرر العنصر المعجمي من
دون تغيير^(٣) .

ويشير ريمون كنان (Rimmon - Kenan) (١٩٨٠ م) إلى أنه عندما تتكرر
العلاقة كلية فإنه يكون هناك اختلاف من خلال التراكم عبر السياقات المختلفة التي
ترد فيها .

(١) انظر « في البلاغة العربية والأساليب اللسانية » ٢٣٨ .

(2) Jonathan Fine: How language works, p: 11.

(3) Michael Hoey: Patterns of lexis intext, p:53.

فمعنى الكلمة غالباً ما يكون ثابتاً ، ولكن عملية الاتصال قد تكسر خبرتنا بالمعجم بتحويل المعنى .

ومن ناحية أخرى فإن تعدّد المعنى (polysemy) هو إشارة أخرى إلى عدم ثبوت المعجم . ولذلك يذهب (Hoey) إلى أنّه ربّما لا يكون هناك تكرار كلي (total repetition) ^(١) .

ثانياً : الاشتراك اللفظي (homonymy) :

المراد به تكرار اللفظ مع اختلاف مرجعه (بكون المحال عليه متعدّداً) . وهو تكرار معجمي مقترن بالتكرار في المفهوم ، حيث يتكرر استعمال كلمتين بلفظ واحد ومعنيين مختلفين ^(٢) .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ الروم : ٥٥ . فقد تكرر لفظ الساعة مع اختلاف المرجع والمدلّول حيث يراد بالأول يوم القيامة وبالثاني الساعة الزمنية . ويُسمّى هذا النوع في البلاغة العربية بـ (الجناس التام) .

وأرى أنّ هذا النوع لا يسهم بدور بارز في عملية الإحالة ، ولكن له أثره الواضح في عملية الانسجام الصوتي في الخطاب .

(1) Ibid: 54.

(٢) انظر « مدخل إلى علم لغة النص » د.إلهام أبو غزالة ، ٨٥ . و« الكلمة : دراسة لغوية معجمية » حلمي خليل ، ١٢٤ .

ب . التكرار الجزئي (partial recurrence)^(١) :

هو تكرار عنصر سبق استخدامه بأشكال وفئات مختلفة. أو هو « الاستخدامات المختلفة للجذر اللغوي »^(٢) . ويطلق عليه (Hoey) التكرار المعجمي المركب (Complex lexical repetition) حيث يشترك عنصران معجميان في مورفيم معجمي واحد . وقد أطلقت ساندرا ستوتسكي (Sandra Stotsky) على زوج العناصر المترابطة على هذا النحو مصطلح الألفاظ المشتقة (derivatives)^(٣) ، وتطرح تساؤلاً عن الاشتقاق من جذر واحد ، هل يعدّ تكراراً ؟ حيث إنّ أزواج الجمل في هذه الحالة لن تصبح متطابقة في المعنى ، بالإضافة إلى أنّه لن يكون لها الوظيفة نفسها في موقعها التركيبي ، ومن ثمّ تعدّ الاشتقاق طريقة أخرى لتحقيق تماسك النص منفصلة عن التكرار^(٤) . ولكننا نرى أنّ التطابق التام ليس شرطاً لتحقيق استمرارية المعنى ، وإنّما يُصبح تكرار المعنى الأساس عبر تكرار الجذر مع المشتقات أحد أنواع التكرار التي يتحقّق بها الربط داخل النص .

مثاله قوله تعالى في قصّة نوح مع قومه: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾^(٥) نوح : ١٠ . فكلّمنا (استغفروا) و (غفّاراً) لهما الجذر نفسه ، لكن اختلفا في الاستخدام .

(١) انظر « في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية » ٢٤٣ .

(٢) « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة » د. جميل عبد المجيد ، ٨٢ .

(3) Michael Hoey: Patterns of lexis intext, PP: 55 - 56.

وانظر « علم لغة النص : النظرية والتطبيق » ١٠٦ - ١٠٧ .

(4) Sandra Stotsky: Types of lexical cohesion, PP: 433-434.

ومما يميّز الاشتقاق عن بقية أنماط التكرار الأخرى هو احتمالية تعدّد أطرافه ، إذ يمكن أن يشتق من المادة الواحدة أكثر من اشتقاق ، ومن ثمّ يكون السبك بين عدّة ألفاظ ، وليس بين لفظين فقط ، وحين تتوزّع هذه الاشتقاقات على امتداد النصّ (Stretch of Text) يبدو التماسك المعجمي شاملاً لهذا الامتداد .

وفي مسألة تعدد الاشتقاقات تميّز اللغة العربية من غيرها من اللغات في هذا الجانب لثرائه وتنوّعه فيها ^(١) .

ج . الترادف أو شبه الترادف (a synonym or near - synonym) :

هو التكرار الذي يختلف فيه اللفظان ولكن المعنى واحد .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ التوبة : ٩٠ .

قرأ الحزرمي : (الْمُعَذِّرُونَ) بالتخفيف ، أي : الكاذبون في العذر ؛ لأنّ الاعتذار قد يكون بالكذب ، كما في قوله تعالى : ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ﴾ التوبة : ٩٤ . وقد كان ذلك الاعتذار كاذباً ^(٢) ، لقوله : (لا تعتذروا) . وعلى هذه القراءة يكون (المعتذرون من الأعراب) و (الذين كذبوا الله ورسوله) مدلولهما واحد ، وإن اختلف التعبيران .

ويعدّ الترادف وسيلة أخرى من وسائل تماسك النص عن طريق استخدام كلمات

(١) انظر « الخصائص » لابن جني ، ١ : ٥ . وانظر « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية » ١٠١ .

(٢) انظر « اللباب في علوم الكتاب » لابن عادل ١٠ : ١٦٨ . وانظر « الميسر » .

لها معنى مشترك ، ويرجع استخدام الترادف بدلاً من التكرار المباشر للكلمة إلى نفي الشعور بالضجر والملل ، حيث إنّ المرادف المستخدم يضيف على المحتوى تنوعاً^(١) ، وقد يكون دليلاً على براعة الكاتب كما أسلفنا .

ويستخدم دي بوجراند ودريسler مصطلح (إعادة الصياغة) (paraphrase) ، ويعني « تكرار المحتوى ، ولكن بنقله بوساطة تعبيرات مختلفة »^(٢) ، مثل : (يبتكر ، ويخترع) ، وهنا ندخل في منطقة الترادف . لإعادة الصياغة قد تؤدي إلى الترادف ، والعكس ليس بصحيح .

ويطلق (Hoey) على الترادف مصطلح إعادة الصياغة البسيطة (simple paraphrase) ، وتقع كلما أمكن استبدال عنصر معجمي بآخر في السياق من دون تغيير ملحوظ في المعنى مثل (produce - cause) بمعنى (يسبب) . وإعادة الصياغة البسيطة ربّما تكون جزئية أو متبادلة ، فتكون جزئية إذا كان الاستبدال يعمل في اتجاه واحد فقط ، مثل : (مجلد ، وكتاب) ، وتكون متبادلة عندما يعمل الاستبدال في الاتجاهين مثل : (يسكن الألم ، ويهدئ الألم) ، وللسياق دور بارز في صنع هذه العلاقة أو نفيها^(٣) .

ويمكن أن نعدّ من هذا النوع ما أسماه واورزنيك بـ (الإحالة الترادفية) ، وقد تحدّث عنها سابقاً في الفصل الثالث ، ويبيّن أنّه يرى صعوبة فصل الإحالة الترادفية

(1) Raphael Salkie: Text and discourse analysis, p:9.

(2) Robert de Beaugrande & Dressler: Introduction to text linguistics, p:49.

(3) Michael Hoey: Patterns of lexis intext, PP: ٦٢ - ٦٣.

وانظر « علم لغة النص : النظرية والتطبيق » ١٠٧ .

عن إحالة إعادة الصياغة ، وأن الفرق بينهما ضئيلٌ جدًا^(١) .

د . شبه التكرار :

يشير د. سعد مصلوح^(٢) إلى أنه يقوم في جوهره على التوهم ، إذا تفتقد العناصر فيه علاقة التكرار الكلي . ويتحقق شبه التكرار غالبًا في مستوى التشكل الصوتي ، وهو أقرب إلى الجنس المحرّف^(٣) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾^(٤) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿ الصافات : ٧٢ - ٧٣ .

لفظ (مُنْذِرِينَ) و (مُنْذِرِينَ) تَكَرَّرَا ، إلا أنّهما اختلفا في هيئة الأحرف (الحركات والسكنات) ، واتفقا فيما عدا ذلك من نوع الأحرف ، وعددها ، وترتيبها ... إلخ .

وأرى أن هذا النوع من التكرار لا يسهم في عملية الإحالة ، بقدر ما يسهم في عملية الانسجام الصوتي في النص .

هـ . التكرار التركيبي أو التوازي (Parallelism)^(٥) :

(١) انظر « مدخل إلى علم النص : مشكلات بناء النص » ١٣٠ .

(٢) انظر « في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية » ٢٤٤ .

(٣) انظر « التلخيص في علوم البلاغة » ، للخطيب القزويني ، شرح : عبد الرحمن البرقوقي ، ٣٣٨ - ٣٨٩ .

(٤) للتوسع في مفهوم (التوازي) انظر : « البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية » ٢٤٦ .
و « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية » ١٢١ . و « التلقي والتأويل : مقارنة نسقية » محمد مفتاح ، ١٤٩ - ١٥٠ . و « التشابه والاختلاف : نحو منهجية شمولية » محمد

هو تكرار لنظم الجمل وتركيبها النحوي على كَيْفِيَّة واحدة ، أي تكرار للطريقة التي
تبنى بها الجملة وشبه الجملة مع اختلاف الوحدات المعجمية التي تتألف منها الجمل ،
حيث تبنى بشكل متوازٍ في الشعر أساسًا ، وفي النثر على وفق هذا المفهوم .

« وإذا حاولنا الربط بين مفهوم التكرار الجراماتيكي ومفهوم التوازي فإن تكرار
نظم الجملة يعدّ نوعًا من التوازي في هذا المستوى » ^(١) .

فحين يرد محتوى في تركيب نحوي ما ، ثم يرد محتوى آخر في التركيب نفسه فإنّ
هذا يعدّ وسيلة سبك ، إذ فيه تكرار للبنية النحوية ، مما يشكّل التوازي ^(٢) .

ويقول الباحث البولندي أوستر ليتز : « إنّ التوازي يمكن النظر إليه كضرب من
التكرار ، وإن يكن تكرارًا غير كامل » ^(٣) ؛ « لأنّ التوازي مركّب ثنائي التكوين أحد
طرفيه لا يعرف إلّا من خلال الآخر ، وهذا الآخر يرتبط مع الأول بعلاقة أقرب إلى
التشابه ، نعني أنّها ليست علاقة تطابق كامل » ^(٤) .

منه قوله تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ ﴾ ^(٧)

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۖ ﴾ ^(٨) الضحى : ٧ - ٨

وقوله :

=

مفتاح ، ٩٣ - ١٢٣ . و « المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي » محمد مفتاح ، ١٦١ - ١٦٦ .

(١) « دراسة لغوية لصور التماسك النصّي » ١٨٦ .

(٢) « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية » ٧٩ - ٨٤ .

(٣) « نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب » د. مصطفى النحاس ، ٧٨ .

(٤) « تحليل النص الشعري (بنية القصيدة) » ليوري لوتمان ، ترجمة : د. محمد فتوح أحمد ، ١٢٩ .

﴿قَامَا الْيَتِيمَ فَلَا تَفْهَرُ ①﴾

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ ②﴾ الضحى : ٩ - ١٠ .

وأرى أنّ (المقابلة) في البديع إذا اجتمع فيها التقابل في البنية العميقة وفي البنية السطحية فإنّها تدخل في باب التوازي ، كما في قول الشاعر :

على رأس عبد تاج عزّيزته وفي رجل حرّ قيد ذلّ يشينه

حيث قابل بين ستة ألفاظ في المعنى ، ووازي بينها في المبنى .

أما إذا كانت المقابلة في المعنى فقط من دون المبنى فلا تعدّ من التوازي .

وقد تطرّق إلى هذا النوع من البلاغيين القدامى السجلماسي من خلال حديثه عن (الترصيع) و (الموازنة) .

فـ (الترصيع) هو : « إعادة اللفظ الواحد بالنوع في موضعين من القول فصاعداً ، هو فيهما متّفق النهاية بحرف واحد . وذلك أن تصوير الأجزاء وألفاظها متناسبة الوضع ، متقاسمة النظم ، معتدلة الوزن ، متوخّى في كلّ جزأين منها أن يكون مقطعاهما واحداً » ^(١) .

و (الموازنة) هي : « إعادة اللفظ الواحد بالنوع في موضعين من القول فصاعداً ، هو فيهما مختلفُ النهاية بحرفين متباينين . وذلك أنّه تصوير أجزاء القول متناسبة الوضع ، متقاسمة النظم ، معتدلة الوزن ، متوخّى في كلّ جزءٍ منها أن يكون بزنة الآخر دون أن يكون مقطعاهما واحداً » ^(٢) .

(١) « المترع البديع » ٥٠٩ .

(٢) « المترع البديع » ٥١٤ .

وتشترك تعريفاته مع التعريفات الأجنبية في ما يأتي :

- ١ - إعادة اللفظ أو تكراره . ٢ - التوازن بين الأقوال . ٣ - التوازي شامل لكل مستويات التعبير . ٤ - التوازن أنواع^(١) .

و - التكرار الإسنادي :

أشير في البدء إلى أن الإسناد هو الأصل في عملية الربط ، لأنه يعتمد على عملية تداعي المعاني في العقل البشري ؛ ولا يحتاج معه المتكلم إلى اصطناع الروابط والأدوات اللفظية ليقوم بالربط بين عناصر الكلام .

« وعلاقة الارتباط بطريق الإسناد هي بؤرة الجملة ونواتها ، بل هي وحدها كافية لتكوين الجملة في صورتها البسيطة »^(٢) .

والتكرار الإسنادي تكون الإحالة فيه بتكرار المعنى الذي كان لأحد ركني الجملة في الركن الآخر ، ويكون المعنى هنا إسناديًا ، كما في قوله تعالى :

﴿ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ
وَعِيتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾

وَمِنْ آخِرِ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ يونس : ١٠ .

فالدعوى الأولى هي : (سبحانك اللهم) . والدعوى الأخيرة هي : (الحمد لله رب العالمين) . والتحية بينهما هي لفظ : (سلام) .

(١) انظر « التشابه والاختلاف » ٩٨ .

(٢) « نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية » ١٦١ .

فلنحظ أن معنى المبتدأ هنا مكرّر في الخبر . هذا في الجملة الاسمية ، في العلاقة الإسنادية بين المبتدأ والخبر .

أما في الجملة الفعلية : فيتكرر المعنى الإسنادي حين يتكرر ذكر الحدث الذي في الفعل عند إيراد الفاعل ، ومن الأمثلة الواردة في القصص القرآني التي توضّح هذا النوع من الإحالة التكرارية الإسنادية في الجملة الفعلية ما يأتي :

الآية	المسند	المسند إليه
﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَعْمَلُوا يَوْسُفَ وَالْقَوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ﴾ يوسف : ١٠	قَالَ	قَائِلٌ
﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ يوسف : ٢٦	شَهِدَ	شَاهِدٌ
﴿ قُلْ أَنَا نَسِيْتُ لَكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِذْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ الأحقاف : ١٠	شَهِدَ	شَاهِدٌ
﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا أَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ يوسف : ٧٠	أَذَّنَ	مُؤَذِّنٌ

فإسناد الحدث وهو (قال) و (شهد) و (أذن) إلى موصوف بالحدث وهو (قائل) و (شاهد) و (مؤذن) هو وسيلة من وسائل الإحالة بالتكرار التي تسهم بدور بارز في عملية التماسك والربط بين أركان الجملة ^(١) .

(١) انظر « الخلاصة النحوية » ٩٠ .

ز- الكلمة الشاملة (a superordinate word) :

هو اسم يحمل أساسًا مشتركًا بين عدّة أسماء ، ومن ثمّ يكون شاملًا لها ، فالاسم (إنسان) يشمل (الناس ، الشخص ، الرجل ، المرأة ، الولد ، الطفل ، البنت ... وغيرها)^(١) .

وقد ذهب جون لاينز إلى أنّ مجموعة الألفاظ التي تندرج تحت اسم يجمعها أو يشملها يطلق عليها (التواصل) (Hyponymy) ، ويطلق على هذا الاسم الجامع - بحسب ترجمة مجيد الماشطة وآخرين - (الأساس المجموعي) (Superordinate) ، فالقرمزي والأرجواني والوردي ... إلخ هو متواصلات (Co - Hyponyms) لـ (أحمر) . وزنبقة ونرجس وياسمين ... إلخ متواصلات لـ (وردة) ، فـ (أحمر) و (وردة) هما الأساس المجموعي لمتواصلاتهما^(٢) .

وترى باربرا جونستون كوتش (B J. Koch) أنّ الكلمة الشاملة تعني أنّ إحدى الكلمات تشير إلى فئة ، والكلمة الأخرى تشير إلى عنصر في هذه الفئة^(٣) ، وهي طريقة أخرى للربط بين الكلمات في النص تسهم في تماسكه .

فكلمة (وردة) هي كلمة شاملة ، و (زنبقة أو نرجس أو ياسمين) كلمة أكثر تحديدًا ، ويُطلق بعضهم عليها كلمة منضوية أو مشمولة (hyponymy) ، وهذه الكلمة المنضوية يمكن أن تشتمل على كلمات تنضوي تحتها . فـ (الحيوان) مثلًا منه (الزواحف ، والثدييات والبرمائيات ... إلخ) ، والثدييات ينضوي تحتها : (ثدييات

(١) انظر « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية » ٨٢ .

(٢) انظر « علم الدلالة » جون لاينز ، ٨٥ - ٨٦ .

(3) Barbara Johnstone : Discourse analysis, p: 102 .

البحر ، والتدييات العليا - كالإنسان (١) .

ويمكن اعتبار الكلمات الشاملة والكلمات المنضوية من قبيل الترادف الأحادي الجانب ، أو التضمين أحادي الجانب ، بمعنى أنه ترادفٌ غيرٌ قابلٍ للعكس (٢) ، فكلٌ ياسمينة وردة ، وليست كلٌ وردةٍ ياسمينة .

والحقُّ أنَّ تراثنا البلاغيَّ لم يهمل الإشارة إلى مثل هذا النوع من التكرار ، فنجد أنَّ ابن الأثير أدرك هذا النوع من الترادف ، وهو الانتقال من العام إلى الخاص ، وجعل منه قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَتْكُهُمْ وَفُغْلٌ وَرُيْمَانٌ ﴾ الرحمن : ٦٨ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ الأحزاب : ٧٢ . ويتبين أنَّ (الجبال) داخل في جملة (الأرض) ، لكن (الجبال) خاص و (الأرض) عام . وفائدته هنا : تعظيم شأن الأمانة المشار إليها وتفخيم شأنها (٣) .

ونلاحظ هنا أنَّ هذا هو نفس فكرة الاسم الشامل عند علماء النص ، ف (الفاكهة) ينضوي تحتها لفظي (النخل والرمان) ، و (الأرض) ينضوي تحتها لفظ (الجبال) (٤) .

(1) Raphael Salkie: Text and discourse analysis, p:16.

وانظر « علم لغة النص : النظرية والتطبيق » ١٠٨ .

(٢) انظر « معجم علم اللغة النظري » محمد علي الخولي ، مادة (hyponymy) .

(٣) « المثل السائر » ٣ : ٢٧ .

(٤) انظر « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية » ٩١ .

ح - الكلمات العامة (a general words) :

هي كلمات فيها من العموم والشمول ما يتسع بكثير عن الشمول الموجود في الاسم الشامل ، أو نقول : هي مجموعة من الكلمات لها إحالة عامة ، وتستخدم كوسائل للربط بين الكلمات في النص ، ومن ذلك كلمة : (مشكلة وسؤال وفكرة والناس ... إلخ) ، إضافة إلى كلمات من مثل : (قصة وخطاب وورقة وكتاب) التي يمكن أن تستخدم للإحالة على نصّ سابق ككَلّ^(١) . مثاله قولنا : (رأى خالد أن يستثمر أمواله في مزرعة ألبان ، لا أدري ما الذي أوحى إليه بهذه الفكرة) ، فالفكرة كلمة عامة أحالت إلى ما رآه خالد في الجملة الأولى^(٢) .

وهذه الكلمات محدودة من حيث العدد ، وتؤدي دورًا مهمًا في الإحالة باعتبارها نوعًا من الترادف ، فهذه الأسماء لها معنى عام جدًا ، ولهذا يمكن تفسيرها من خلال الإحالة إلى عنصر آخر فقط ، ومن هنا فهي تؤدي دورًا بارزًا في تماسك النص^(٣) .

أمّا هاليداي ورقية حسن فيقسمان (الكلمة العامة) إلى ثلاثة أقسام :

أ - ما دلّ على إنسان ، مثل : (الناس ، الشخص ، الرجل ، المرأة ، الطفل) .

ب - ما دلّ على مكان ، مثل : (مكان ، موضع ، ناحية ، اتجاه) .

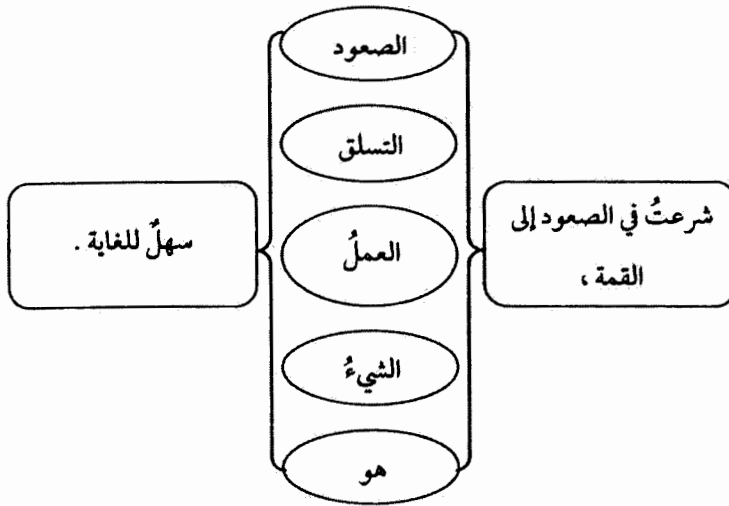
ج - ما دلّ على حقيقة ، مثل : (سؤال ، فكرة ، أمر ، شيء ، موضوع) .

ومن أمثلة التكرار التي أوردها هاليداي ورقية حسن المثال الآتي :

(1) Raphael Salkie: Text and discourse analysis, pp: 18 – 21.

(٢) انظر « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية » ٨٣ .

(3) Cohesion in English, PP: 275 – 276.



فكلمة (الصعود) هي إعادة للعنصر المعجمي بلفظه (الصعود) ، و (التسلق) مرادف للصعود ، و (العمل) كلمة عامة يمكن أن يدرج فيها الصعود ، و (الشيء) كلمة عامة تندرج ضمنها أيضًا كلمة الصعود^(١) .

إلى غير ذلك من أنواع التكرار ، كـ (تكرار المقارنة) و (تكرار التضمّن)^(٢) . وأوّد الإشارة أخيرًا إلى أنّ التكرارَ الإحالي هو الذي يصحُّ أن نستبدلَهُ بالضمير ، وهذا النوع أشدُّ التصاقًا بدراستنا هذه من بين سائر الأنواع كالتكرار الجزئي وغيره .

(١) انظر « لسانيات النص » ٢٤ .

(٢) انظر « البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية » ٨١ .

أمثلة تطبيقية على الإحالة بالتكرار من القصص القرآني :

مثال (١)

قصة أصحاب الكهف

قال تعالى ﴿ أَمَرَحِسْبَتَ أَنْ أَصْحَبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ ءِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءِلَٰهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْهَدُونَ إِلَّا أَنَّهُ قَائِمٌ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۝ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكُتِبَ لَهُم بِسِطْرِ ذَرَاعِهِ بِالْحَصِيدِ لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ۝ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَّسِعَ ءَلَا يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ بِأَيُّكُمْ يَأْتِيَنَّكُمْ فَكَبَّرُوا عَنْهُمْ وَأَتَى إِلَهُكُم بِرُؤُوسِهِمْ فَمِنْ حَيْثُ لَبِثْتُمْ إِذَا بَرِقَ الْبَرْقُ لَبِثْتُمْ إِذَا بَرِقَ الْبَرْقُ لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِرُؤُوسِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّكُمْ أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا ۝ وَكَذَٰلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِي عَلَّمَهُمْ نَسْخَرَكُم عَنْهُمْ فَقَالُوا مَسْجِدًا ۝ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۝

وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبٌ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُحِصُوا فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ أَوَّلَ السَّعَةِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَاءَ إِيَّايَ فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّيَ لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلِيُثَبِّتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثَبِّتُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَتَّحِدًا ﴿٢٧﴾ الكهف: ٩ - ٢٦ .

بين يدي السورة :

يُجَدُّ بِي عَرْضُ بَعْضِ الْحَقَائِقِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِسُورَةِ الْكَهْفِ ، وَقِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ، مِمَّا يَعِينُنَا عَلَى تَحْدِيدِ الظُّوَاهِرِ الْإِحَالِيَّةِ بِدَقَّةٍ تَجَلِي لَنَا فِكْرَةَ التَّمَاثُلِ وَالرَّصْفِ النَّصِّيِّ فِي الْقِصَصِ الْقُرْآنِيِّ .

عنوان السورة :

وَرَدَّتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ، وَقَدْ رُوي عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ سَمَّاها سُورَةَ (أَصْحَابِ الْكَهْفِ) ^(١) ، بِاللَّفْظِ نَفْسِهِ الَّذِي وَرَدَ فِي مَطْلَعِ الْقِصَّةِ .

وَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ تَضْفِي عَلَى النَّصِّ الْقِصَصِيِّ أَهْمِيَّةَ كَبْرَى مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَقَاطِعِ النَّصِّيَّةِ الْآخَرَى الَّتِي وَرَدَتْ فِي السُّورَةِ نَفْسِهَا .

وَتَعَدُّ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ أُولَى دَلَائِلِ التَّمَاثُلِ النَّصِّيِّ الْمُتَمَثِّلَةِ فِي رِبْطِ مَحْتَوَى النَّصِّ بِعَنْوَانِهِ .

(١) أخرجه ابن مردويه . انظر « التحرير والتنوير » ١٥ : ٢٤١ .

سبب النزول :

ذكر المفسرون عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن المشركين لما أهتمهم أمر النبي ﷺ وازدياد أعداد المسلمين معه ، وكثُرَ تساؤلُ الوافدين إلى مكة من قبائل العرب عن أمر دعوته ، بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة يسألونهم رأيهم في دعوته ، وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه مما يوجهون به تكذيبهم إياه ، فقال لها أحبار اليهود : سَلُوهُ عن ثلاث ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ ، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّلٌ ، سَلُوهُ عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان أمرهم ؟ وسَلُوهُ عن رجل طَوَّافٍ قد بَلَغَ مشارق الأرض ومغاربها . وسَلُوهُ عن الروح ، ما هي ؟

فجاء جمعٌ من المشركين إلى رسول الله ﷺ وسألوه عن ذلك ، فقال ﷺ : أخبركم غداً ، ولم يقل : إن شاء الله ، فتأخر الوحيُّ عنه حتَّى كَثُرَتِ الأقاويلُ والشائعات ، فأحزن ذلك النبيَّ ﷺ ، ثم جاءه جبريلُ بسورة الكهف ، وفيها جوابهم عن الفتية وهم أهل الكهف ، وعن الطَّوَّاف وهو ذو القرنين ... إلخ .

ومما امتازت به سورة الكهف أنها نزلت جملة واحدة ، ولا شك أن ذلك يساعدنا في الوقوف على أهم خصائص التماسك النصي في هذه النصوص التي نزلت جملة واحدة .

التماسك بين سورة الكهف وسور القرآن :

وقعت سورة الكهف في منتصف القرآن ، ونلاحظ أن القسم الأول من القرآن قد افتتح بالحمد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الفاتحة : ٢ ، فناسب أن يفتح السورة التي انتصف عندها القرآن بالحمد أيضًا ، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ

عَوَجًا ﴿١﴾ الكهف : ١^(١) ، وفي ذلك تكرار إحالي دقيق المأخذ ، فالحمد في النصف الثاني من القرآن هو تكرارٌ للحمد الذي ورد في مفتتح النصف الأول من القرآن .

التماسك بين سورة الكهف وما قبلها :

١ - التماسك بين مطلع الكهف ومطلع الإسراء :

ابتدأت سورة الكهف بقوله تعالى : ﴿لَحْمَدُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ الكهف : ١ . وقد أحال لفظ (عبده) على لفظ (بعبدته) الذي ورد في مطلع سورة الإسراء في قوله تعالى : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ الإسراء : ١ .

والإحالة هنا هي إحالة تكرارية بإعادة اللفظ نفسه ، وقد ربطت بين سورتي الكهف والإسراء ، وأسهمت في تحقيق التماسك النصي بين السورتين .

وسبب هذا الربط والتماسك الإحالي أن كلمة (عبده) في سورة الكهف مجهولة الدلالة ، ولا شك بأن المتلقي سيُعمل فكره في محاولة معرفة الشخص المشار إليه بوصف العبودية لله في هذا النص ، ولا يوجد في سياق النص أي دليل يرشدنا إلى شخصية (عبد الله) المعني بهذه الآيات .

ولكن بالرجوع إلى سورة الإسراء ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا...﴾ يزول ذلك الإبهام ، فقوله : (بعبدته) جار مجرور متعلق بالفعل (أسرى) ، ومعلوم لدينا من خلال السياق غير اللغوي أن قصة الإسراء

(١) انظر « التحرير والتنوير » ١٥ : ٢٤٥ .

والمعراج إنما كانت لرسول الله محمد ﷺ مما يفسر لنا المحال عليه بلفظ (بعده) . هذا التفسير نفسه هو الذي سنحيل عليه ما ورد في سورة الكهف (على عبده) ، ليكون المحال عليه بهذا اللفظ هو رسول الله محمدًا ﷺ .

وفي ذلك مظهر من مظاهر الربط والتماسك الإحالي بين سورة الكهف والسورة السابقة عليها (الإسراء) .

٢ - التماسك بين مطلع الكهف وخاتمة الإسراء :

المظهر الثاني من مظاهر الربط بين السورتين يتمثل في قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ الكهف : ١ - ٤ .

وهو تكرار إحالي بإعادة اللفظ بنفسه في قوله تعالى في آخر الإسراء : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ۝١﴾ الإسراء : ١١١ .

ف (الحمد لله) في أول الكهف تكرار إحالي لفظي لـ (الحمد لله) في آخر الإسراء . و ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ في أول الكهف تكرار جزئي اشتقاقي مع ﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ في آخر الإسراء ، ولا يخفى إسهام ذلك في التماسك اللفظي والانسجام المعنوي بين السورتين .

٣ - التماسك بين أجزاء سورة الكهف :

يتمثل ذلك في التماسك بين مطلع السورة وختامها ، فسورة الكهف اختتمت بتقرير أن القرآن الكريم وحى من الله تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَا

إِنَّهُمْ لِلَّهِ وَحِدٌ ﴿١١٠﴾ الكهف: ١١٠ ، وفي هذه الخاتمة ردُّ للأعجاز على الصدور من باب التكرار الترادفي في المعنى حيث ورد في أول الكهف قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ ، ف (البشر الذي يُوحى إليه) هو نفسه (عبد الله الذي أنزل عليه الكتاب) وهو رسول الله ﷺ . ولا يخفى أثر هذا التماسك الإحالي الذي ربط بين مطلع السورة وختامها عن طريق التكرار الترادفي .

المناسبة بين قصة أصحاب الكهف وما قبلها :

ترتبط هذه القصة بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كَبُخَّ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذِهِ الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ الكهف : ٦ ، فالذي صرَّفَ المشركين عن الإيمان إنكارهم الإحياء بعد الموت ، فكان ذكرُّ أهل الكهف وبعثهم بعد خمودهم سنين طويلة مثالا لإمكان هذا البعث ^(١) .

أنواع التكرار في قصة أصحاب الكهف :

أولاً : التكرار بإعادة اللفظ :

١ - لفظ (الكهف) :

ابتدأت القصة بقوله تعالى : ﴿ أَمَّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴾ الكهف : ٩ ، وفي الجملة الأولى من هذا النص تكمن الألفاظ المحورية التي تمتد خيوطها التماسكية والإحالية إلى آخر جملة في النص . ولا يبعد أن تكون هذه المحورية للفظ (الكهف) هي التي رشحتها لأن تسمي السورة باسمها .

(١) انظر « التحرير والتنوير » ١٥ : ٢٥٨ .

وتتجلى لنا السلسلة الإحالية الأولى للفظ (الكهف) عند انتقالنا إلى الآية التي بعدها : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ الكهف : ١٠ ، وهنا استخدم التكرار عن طريق إعادة اللفظ نفسه ؛ لربط الآية الثانية بالآية الأولى في القصة .

ولا يخفى دور الإيقاع الصوتي في الانسجام والتناغم بين جل النص وفقراته ، هذا التناغم يتجلى في أوضح صورته عن طريق (التكرار بإعادة اللفظ) ، ويليه في ذلك (التكرار الجزئي) الاشتقاقي .

ثم نتقل إلى الآية الثالثة : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ الكهف : ١١ ، لنجد أن الحلقة الإحالية التكرارية قد استحکمت بإعادة لفظ (الكهف) للمرة الثالثة على التوالي ، هذا التكرار للمرة الثالثة في مسافة قريبة يوحى إلينا بأن لفظ (الكهف) هو لفظ ذو بال ، وله دور مركزي في النص ، عمد المخاطب إلى تكراره لترسيخه في ذهن المخاطب وتوجيه عنايته إليه .

ثم تتوالى الآيات ويتوالى تكرار لفظ (الكهف) مفردًا تارةً ومضافًا إلى ضمير (أصحاب الكهف) تارة أخرى من خلال الآيات الآتية :
﴿ فَأَوَى إِلَى الْكَهْفِ ﴾ الكهف : ١٦ .

﴿ وَرَبَّى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَوُّرٌ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ الكهف : ١٧ . إلى أن نصل إلى آخر فقرة في هذا النص القصصي عند قوله تعالى :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ الكهف : ٢٥ - ٢٦ . ليربط آخر القصة بأولها عن طريق ردّ الأعجاز على الصدور بما يحقق التماسك النصي عن طريق الإحالة بالتكرار .

إذن فتكرار لفظ (الكهف) ست مرات على مسافات متفرقة في النص أسهم في خلق شبكة إحالية ابتدأت من الآية الأولى في النص واستمرت حتى آخره .

ومما يجدر بي ذكره أن لفظ (الكهف) لم يرد في القرآن الكريم إلا في هذه المواضع الستة، مما يكسبها قيمة دلالية وأهمية خاصة على مستوى النص القرآني .

٢ - لفظ (الفتية) :

قال تعالى في مبتدأ القصة : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ الكهف : ١٠ . ثم أعاد اللفظ نفسه مرّة أخرى بعد عدّة جملٍ قائلاً : ﴿ إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ الكهف : ١٣ .

ونلاحظ أنّه في الآية الأولى ورد لفظ (الفتية) معرّفاً بـ (آل) ، وكأنّه يُحيل إلى معهود ذهني مذكور سابقاً ، وهو قوله : ﴿ أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ الكهف : ٩ ، فـ (أصحاب الكهف والرقيم) هم أنفسهم أولئك (الفتية) المقصودون بالآية . والإحالة هنا هي إحالة تكرارية أيضاً ، لكنها جاءت عن طريق الترادف ، حيث اختلف اللفظ واتّحد المدلول .

وحينما أعاد لفظ (الفتية) منكرًا في ﴿ إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ إنّما كان ذلك تمهيدًا لإضفاء المزيد من الأوصاف عليهم ؛ لأنّ النكرة تتطلّب الوصف طلبًا حثيثًا ، فالنكرة حينما تُذكر تشرّب الأعناق لمعرفة المقصود بها ، ويعملُ الذهنُ جادًا في محاولة إيجاد مرجعية يُحيلُ عليها ذلك اللفظ المجهول الدلالة أو الإحالة ، فإذا ما جاءت الأوصاف المزيّلة لإبهام النكرة اطمأنت النفس ورسخ فيها المعنى المراد ، وتمكّن أيّما تمكّن .

فقد وصف لفظ (فتية) بأنهم :

- ١ - آمنوا برّبهم .
- ٢ - زدناهم هدى .
- ٣ - ربطنا على قلوبهم ... إلخ .

كما نلاحظ مجيء التكرار بلفظ (الفتية) للتعبير عن أصحاب الكهف والرقيم ، وهو جمع قلة ، وكان الأصل في هذا الموضع أن يُضمَر بضمير جمع غائب يعود على أصحاب الكهف ، فيقال : (إذ أووا إلى الكهف) و (إثمهم آمنوا برّبهم ...) ، ولكنه أظهر في مقام الإضمار ، وعدّل عنه بلفظ (الفتية) لأمرين :

١ - إشارة إلى كونهم أتراباً متقاربين السن ، وذكرهم بهذا الوصف للإيحاء إلى ما فيه من اكتمال خلق الرجولية المعبر عنه بالفتوة الجامع لمعنى سداد الرأي وثبات الجأش والدفاع عن الحق ؛ ولذلك عدل عن الإضمار^(١) .

٢ - أنه أظهر لتنشيط الذاكرة ، بعد طول الفصل ، كي يحقق الإعلامية والتماسك في ذهن المتلقي ، حيث يقوم بتذكيره بالمتحدث عنهم بطريقة ترادفية .

٣ - لفظ (الكلب) :

ورد في أكثر من موضع ، قال تعالى :

﴿ وَكَلَبُهُمْ بِسِطْرٍ ذَرَأَ عَلَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ الكهف: ١٨ ،

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلَبُوهُمْ ﴾ الكهف: ٢٢ ،

﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلَبَهُمْ ﴾ الكهف: ٢٢ ،

﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلَبَهُمْ ﴾ الكهف: ٢٢ .

ولا يخفى ما في هذا التكرار من أثر في الانسجام الصوتي والتناغم الإيقاعي في النص ، خاصة وقد تكرر لفظ (كلبهم) في آية واحدة ثلاث مرّات .

(١) انظر « التحرير والتنوير » ١٥ : ٢٦٦ .

ثانيًا : التكرار بالضمير :

لا شك بأن الضمائر هي نوع من أنواع التكرار ؛ وأنها تقوم مقام الاسم الظاهر ، وتتميز عن التكرار بإعادة اللفظ من ناحية سعة انتشارها ونفوذها في النص ، إلا أنني آثرت الحديث عنها في مبحث مستقل بعنوان (الإحالة بالضمير) وفيه ما يغني عن إعادة الذكر هنا .

ومن الضمائر التي قامت مقام الاسم الظاهر في هذا النص مما يحيل على أصحاب الكهف والفتية : (كانوا ، فقالوا ، ربنا ، آتنا ، لنا ، أمرنا ، ضربنا ، آذانهم ، بعثناهم ، لبثوا ، نبأهم ، إنهم ، آمنوا ، بربهم ، زدناهم ، قلوبهم ، قاموا ، فقالوا ، ربنا ، ندعو (نحن) ، قلنا ، ... إلخ الآيات) . وكل تلك الإحالات الضميرية هي ضرب من أضرب التكرار ، تسهم في عملية تماسك النص وانسجامه .

ثالثًا : التكرار بالترادف :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ الكهف : ٩ ، حيث كرر هذا المعنى في قوله : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ﴾ الكهف : ١٠ ، فـ (أصحاب الكهف والرقيم) و (الفتية) بينهما تكرار ترادفي .

ولا يخفى ما في الترادف الإحالي من إظهار لبراعة المتكلم في تلوين أشكال الخطاب بما يضيفي المزيد من المعاني الإضافية ويذهب الملل عن المتلقي ، وقد سبق بيان سبب إثارة لفظ (الفتية) على ما سواه .

رابعًا : التكرار بالاشتقاق :

هو ما يسمى بالتكرار الجزئي ، حيث يتكرر جذر الكلمة في أكثر من تصريف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ الكهف : ١٠ . كرّر الفعل الماضي

(أوى) مرّة أخرى بلفظ الأمر في قوله : ﴿ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ .

والحقيقة أنّ هذا لونٌ من التكرار ، له جماله وأثره الإيقاعي والدلالي ، إلّا أنّني لا أستطيع إقحامه في باب الإحالة ، فإنّ الموضوع الثاني (فأووا) لا يعتمد على الموضوع الأول في فهمه ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ﴾ ، ولكن له أثره في الانسجام الصوتي في النصّ ، كما يعدّ من باب (ردّ الأعجاز على الصدور) ^(١) ، وهو محسّن بديعي ، وأسلوب من أساليب التفنّن في القول وتلوين الخطاب .

والتماسك في هذا النوع من التكرار الاشتقاقي يكمن في جانبيين :

١ - التماسك الصوتي : يكون بتكرار الحروف الأصول التي تُضفي إيقاعاً مميزاً في النصّ ، ممّا يسهّل على المتلقي عملية استدعاء الألفاظ .

٢ - التماسك الدلالي : يتحقق عن طريق ارتباط مفاهيم الوحدات النصيّة المكوّنة للنص بعضها ببعض ، وذلك أنّه « يشير إشارة خالصة إلى عموم الترابط المفهومي ، مع تجنّب الرتابة التي يؤدّي إليها مجرّد التكرار . ويشير دريسلر إلى أنّ هذا النوع من إعادة اللفظ يُعطي منتج النص القدرة على خلق صور لغوية جديدة ؛ لأنّ أحد العنصرين المكررين قد يسهّل فهم الآخر » .

خامساً : التكرار التفسيري :

يتمثّل هذا النوع من التكرار الإحالي في وجود عنصر إشاري مجمل يتمّ تفسيره وتفصيله بعنصر إحالي آخر ، وقد يكون هذا العنصر الإحالي نصّاً بأكمله ، أو مقطعاً نصيّاً مكوّناً من عدّة جمل .

(١) انظر « التحرير والتنوير » ١٥ : ٢٧٨ .

ويختلف هذا النوع عن الإحالة المقطعية التي يحيل فيها لفظ معجمي على نصٍّ بأكمله ، من نحو : (نبأ وخبر وقصة وحديث ...) إذ ليس هناك لفظ مبهم بعينه يحتاج إلى مفسر ، بل هو تركيب مجمل يحتاج إلى تفسير وتفصيل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ الكهف : ٩ . وقد فُسِّر هذا الإجمال بدءاً من قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ .. ﴾ الكهف : ١٠ ، إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف : ٢٦ .

سادساً : التكرار بالاسم الشامل :

يمكن أن نعدّ من هذا النوع العلاقة ما بين (أصحاب الكهف) و (كلبهم) ، على اعتبار أنّ لفظ (أصحاب الكهف) يشمل (الفتية) مع (الكلب) الذي كان يرافقهم ، فيكون لفظ (كلبهم) ولفظ (الفتية) منضويين تحت الاسم الشامل (أصحاب الكهف) وهما من قبيل التكرار له . والله أعلم .

سابعاً : التكرار بالكلمة العامة :

منه قوله تعالى : ﴿ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ الكهف : ١٣ .

فقوله : ﴿ نَبَأَهُم ﴾ هي كلمة عامة (a general word) ربطت بين الجملة التي وردت فيها مع ما بعدها من الجمل والآيات التي ذكرت فيها قصة أصحاب الكهف ، إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ الكهف : ٢٦ . فقد أحالت كلمة (نبأهم) على نصٍّ لاحقٍ إحالةً بعديةً ، وتسمّى هذه الإحالة بالإحالة المعجمية المقطعية ، حيث يحيل لفظ معجمي على نصٍّ سابق أو لاحق عليه .

ولا شك أن هذا النوع من الإحالة التكرارية يؤدي دوراً مهماً في الإحالة بكونها نوعاً من أنواع الترادف ، ولا يخفى دورها البارز في تماسك النص وترابطه .

ثامناً : التكرار التركيبي (التوازي) :

علمنا فيما سبق أن التوازي هو إعادة لبنية ما أو لبعض عناصرها مع اشتراك في المعنى واختلاف فيه ^(١) . وأن الدراسات الأجنبية الحديثة حصرته في الخطاب الشعري ، أما البلاغيون العرب فقد وسعوه ليشمل الشعر والنثر .

وأستطيع أن أعدّ من هذا النوع ما ورد في قوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ

وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ... ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الكهف : ٢٢ .

نلاحظ تكرار النمط التركيبي للآيات على النحو الآتي ^(٢) :

(حرف + فعل وفاعل + خبر لمبتدأ محذوف + واو مذكورة أو مقدرة + مبتدأ +

مضاف إليه + خبر + مضاف إليه)

وهذا التقاسم في النظم ، والاعتدال في الوزن ، والتناسب في الوضع ، يُضفي على النص تماسكاً وانسجاماً بنيوياً وتناغمياً محكماً .

(١) انظر « التشابه والاختلاف » ٩٩ .

(٢) يرى الزجاج أن دخول الواو في (وثامنهم) وإخراجها واحداً . فلا تؤثر في الإعراب . انظر « معاني القرآن وإعرابه » ٣ : ٢٧٧ . وقدر الباقولي وجود الواو في (ورابعهم) كذا (وسادسهم) التي حذفت في اللفظ ، ودليل كونها مقدرة ظهورها في (وثامنهم) . انظر « كشف المشكلات وإيضاح المعضلات في إعراب القرآن وعلل القراءات » للباقولي ، ٥٥ : ٢ .

يتضح لنا مما سبق تنظيراً وتطبيقاً دور التكرار في عملية الإحالة ، ومدى إسهامه في التماسك النصي في القصص القرآني ، على مستوى الكلمة المفردة ، والآية ، والنص ، والسورة ، والقرآن كاملاً .

وظهر لنا أنّ هناك نوعاً من التكرار لا إحالة فيه ، كالمشترك اللفظي الذي يتفق فيه اللفظان ويختلف مدلولهما ، وكشبه التكرار أو (الجنس المحرف) الذي يتفق فيه اللفظان من حيث العدد والنوع ، ويختلفان من حيث الهيئة (الحركات والسكنات) ، وكذلك التكرار بالتوازي ، وهذه الأنواع الثلاثة من التكرار إن لم يتم تحقق التماسك النصي بسببها لكونها عناصر غير محيلة فإنها تسهم في تحقيق التماسك من خلال الانسجام الإيقاعي والتناغمي بين عناصر النص ومكوناته .

ثامناً : التكرار الإسنادي :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ ﴾ الكهف : ١٩ .

فقوله : (قال قائل) فيه إحالة تكرارية بين ركني الجملة الفعلية المسند (قال) والمسند إليه (قائل) .

فإسناد الحدث إلى موصوف بالحدث هو من وسائل الإحالة بالتكرار التي تُسهم في عملية التماسك والربط بين أركان الجملة ، وذلك يؤدي إلى إيجاد نصّ منسجم ومتناسك .

الإحالة بالتكرار في قصة شعيب مع قومه

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن
إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا
تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا
فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ
ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ
مِن قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي وَلَئِنَّا قَالِ أُولَؤُكُمَا كَرِهَيْنِ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي
مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ
شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ لِلْمَلَأِ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِن أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي
دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿٩٢﴾ فَنَزَّلْنَا عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورِ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولِي رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
فَكَيْفَ ءَأَسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ
ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا
لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّن السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾
أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيْنَا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا

صَحَّى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى
 قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ
 ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ الأعراف : ٨٥ -

. ١٠٢

أولاً : التكرار بإعادة اللفظ :

يتجلى هذا النوع من خلال تكرار بعض الألفاظ المحورية في هذا النص القصصي ،
 ومعظم هذه الألفاظ قد وردت أول مرة في الآية الأولى من النص ، مما يؤكد أهمية
 الجملة الأولى في أي نص . ومن هذه الألفاظ ما يأتي :

- ١ - (شعيب) : أعيد تكراره أربع مرات .
- ٢ - (قوم) : المراد بهم قوم شعيب ، وأعيد تكراره خمس مرات .
- ٣ - (الله) : أعيد تكراره ثماني مرات . على مسافات متباعدة في النص من أول
 فقرة إلى آخر فقرة .

هذه أبرز ثلاث كلمات محوريات في النص قد تكررت في النص ، وهناك كلمات
 أخرى أقل أهمية منها .

ولا يخفى دور هذا التكرار الإحالي في استمرارية النص ، ومساعدة المتلقي على
 الربط بين أول النص ووسطه وآخره من دون عناء .

ثانيًا : التكرار بالترادف :

- حيث يختلف اللفظان والمحال عليه واحد ، نلاحظ ذلك من خلال الألفاظ الآتية :
- ١ - (أخاهم / شعيب) فأخو مدين هو شعيب نفسه ، وقد كرّر بلفظ آخر لتلوين الخطاب ، ولبيان صفة مهمة من صفاته وهي الإخوة .
 - ٢ - (مدين / قوم / الملأ) فمدين وقوم شعيب والملأ الوارد ذكرهم كلهم يحيلون على مرجع واحد .
 - ٣ - (الله / إله / ربكم) اختلفت الألفاظ والمحال عليه واحد .

ثالثًا : التكرار بالاسم العام :

- ١ - لفظ (قوم) اسم عام ، اندرجت تحته طائفتان :
 - أ- ﴿ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا ﴾ .
 - ب- ﴿ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا ﴾ .
- ٢ - لفظ (قوم) اسم عام ، اندرج تحته صنفان :
 - أ- ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ .
 - ب- ﴿ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ .

رابعًا : التكرار بالاشتقاق :

منه لفظ (آمن) وهو جذر ثلاثي تكرر في عدّة تصريفات وهي : (مؤمنين ، وآمن به ، وآمنوا ، ولم يؤمنوا ، وأفامن ، وأفامنوا ، ويأمن) ولا يخفى دوره في الانسجام الصوتي للآيات .

خامسًا : التكرار بالتوازي :

منه قوله تعالى :

١- ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا

الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ . ففيه تكرار للتركيب إضافة إلى كونه تكرارًا بإعادة اللفظ .

٢- ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾

أَوَإِنِ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ

فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الأعراف : ٩٧ - ٩٩ .

سادسًا : التكرار بالاسم الشامل :

(أنبأها) من قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِهَا ﴾ ، وهو لفظ يشمل

قصة شعيب مع قومه السالفة الذكر . وهي من باب الإحالة على نصٍّ بأكمله .

نلاحظ من خلال ما سبق أنَّ شبكة التكرار ممتدة من خلال سلاسل الإحالة التي

ربطت جميع فقرات النصِّ ببعضها ، من أوَّل فقرة إلى آخر فقرة في القصة ، مما يجعل

القصة وحدةً نصيَّةً متماسكةً .

المبحث الخامس الإحالة بـ (أ ل) التعريف

تمهيد :

التعريف والتنكير ظاهرتان تتعلّقان بالاسم أو ما كان بمعنى الاسم من دون الجمل ، إذ « الجملة ليست معرفة ولا نكرة »^(١) . فيبدو أنّه من المستبعد أن يكون لهما دور في الربط بين الجمل المكوّنة لنصّ الخطاب .

وتعدّ الدراسات اللسانية الحديثة بعض وجوه التعريف من دون بعض محقّقة للتماسك النصي ، يأتيها ذلك من اتّفاق الإحالة بين الاسم المعرفة وعنصر آخر متقدّم عليه أو متأخر .

وقد حظي التعريف والتنكير بعناية بالغة في النحو العربي تمثّلت في عقد النحويين فصولاً خاصّة بهما ، واعتمادهما في بعض الأبواب التي لها صلة بهما كالاتداء والتوكيد^(٢) .

(١) « شرح الكافية » ٢ : ٢٩٨ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ٩٩١ .

وإذا نظرنا إلى المعارف بحسب دورها الرابطي في النص وجدناها كالآتي :

معارف ليس لها دور رابطي	معارف لها دور رابطي
الاسم العلم	
ما دخلت عليه (أل) الجنسية ، و (أل) التي للعهد الذهني والحضور	ما دخلت عليه (أل) التي للعهد الذكري
ضمائر المتكلم أو المخاطب	ضمائر الغائب
اسم الإشارة المبهم إذا كان رافع إبهامه مقامياً	اسم الإشارة المبهم إذا كان رافع إبهامه نصياً

ويتضح لنا من خلال ذلك أنّ كلّ رابط من هذه الروابط النصيّة تعريفٌ ، وليس كلّ تعريفٍ رابطاً نصياً . فكون التعريف مظهرًا من مظاهر الربط بين أجزاء الخطاب وجهٌ من وجوه إجرائه ، وليس الأصل المؤسّس له ^(١) .

وقد عُدّت أداة التعريف (أل) من الظواهر المحقّقة للترابط والتماسك في النص ، وهو ما نراه عند هاليداي ورقية حسن حينما تحدّثا عن مظاهر الاتساق ، حيث جعلتا أداة التعريف (the) في الإنجليزية من قبيل الوحدات الإشارية المحايدة ، وقسما إحالتها إلى نوعين :

- ١ - إحالة مقامية ، تتحدد بالسياق المقامي أو الدلالة على الجنس ، أو بالعرف .
- ٢ - إحالة مقاليّة ، قبلية وبعديّة .

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ٩٩٥

وقد يَبَيَّنُ سابقًا أَنَّ الإحالةَ تعتمدُ في الدرجة الأولى على المتكلم وليس على النص أو على التعبيرات المحيلة ، وهو ما يصريح به جون لاينز بقوله : « إِنَّ المتكلم هو الذي يحيل (باستعماله تعبيرًا مناسبًا) ، أي : أَنَّهُ يُحْمَلُ التعبيرَ وظيفة إحالية عند قيامه بعملية إحالة » ^(١) .

وتحدّث يول وبروان عن تلك (التعبيرات المحيلة) وكيف يستعملها منشئ النص ، فيذكر منها : أ . النكرة . ب . الأعلام . ج . الاسم المعرّف .

وذكر أَنَّ الاسم المعرّف هو الأكثر تعرّضًا للدراسة ، وأنَّ الاستعمال النموذجي له أن يحيل على شيء سبق ذكره في الخطاب ، أو يشير إلى شيء بارز في السياق المادّي .

وذكر في (الاسم المعرّف) أَنَّهُ قد يستعمل استعمالًا إحاليًا ، بمعنى أَنَّهُ يحيل على شخص بعينه ، وقد يستعمل استعمالًا غير إحاليّ ، أو كما يسميه دونالدن (Donnellan) استعمالًا (نعتيًا) ^(٢) ، ويمثّل لذلك بكلمة (القاتل) ، فقد يشير بها منشئ النص إلى شخص بعينه قام بالقتل ، وعندئذ يكون استعمالًا إحاليًا ، وقد يقصد بها ذلك الذي قام بعملية القتل ، بصرف النظر عن هُوَيْتِهِ ، أي : أَنَّهُ لا يشير بكلمة (القاتل) إلى شخص بعينه ، ويمثّل لهذا الاستعمال النعتي بالمثال الآتي : « إِنَّ السفّاحَ الذي تأصّل حبُّ المسدسات في قلبه والمسؤول عن جريمتي قتل ، والذي تسلّل خلسة في إحدى الغابات ، ربّما يكون الآن بصدد إجبار أحد المختطفين على إطعامه وإخفائه » ^(٣) .

(١) « تحليل الخطاب » ٣٦ .

(2) Donnellan, K.S. (1966) 'Reference and definite descriptions' Philosophical Review, P: 75. وانظر « تحليل الخطاب » ٣٢٨ .

(٣) النص من جملة افتتاحية لمقال صحفي صدر في أثناء مطاردة الشرطة لرجل إثر مصرع شرطيّ بالرصاص . (صحيفة الدايلي ميرور ٢٨ / ٦ / ١٩٨٢ م) . انظر « تحليل الخطاب » ٢٥٢ .

ويستدلّ دونالّن على أنّ هذا الاستعمال نعني بأنّ الاسم المعرّف يستعمل لانتقاء شخص مفرد بعينه من العالم ، أمّا هذا الوصف المطوّل السّابق فلا يدلّ على شخص بعينه ، ومن ثمّ فهذا استعمال نعنيّ وليس إحاليّاً^(١) .

وظيفة أداة تعريف الاسم :

تحتلّ مشكلة توجيه الاتصال بواسطة الوسائل النحوية مركزاً جوهريّاً في مثال دراسة النصّ لدى فاينريش (H. Weinrich) ، إذ تؤدّي الأشكال المختلفة للتعريف وصرّفات الصيغة بصورة خاصّة تبعاً لفاينريش وظيفة الإشارات إلى توجيه استقبال كليّات النصّ لدى السّامع ، حيث يبلغ المتلقّي بوساطتها بالطريقة التي يجب عليه اتباعها في ملاحظة روابط معيّنة داخل النصوص^(٢) .

وتشير أداة التعريف - بحسب هذا الإسهام - إلى ما يسمّى المعلومات السابقة ، بينما يعدّ التنكير إشارة إلى معلومات لاحقة (أي : الوحدات اللغوية التي لم يوضّحها المتكلّم بعد) ، وقد مثّل لذلك ببعض النصوص المشهورة في الأساطير ، يقول :

١ - كان في قديم الزمان فتاةٌ ..

(هنا إشارة إلى معلومة لاحقة لم تخصّص بعد ، يتوقّع السّامع أن يخبر أكثر عن الفتاة) .

٢ - الفتاةُ كانت جليّةً ومتواضعةً ..

(هنا إشارة إلى معلومة سابقة ، يجب أن يكون الاسم المعنيّ قد ذكّر من قبل في الجملة السابقة) .

(١) انظر « معايير النصية » ٢٥٥ .

(٢) انظر « مدخل إلى علم اللغة النصي » ٢٨ .

بهذه الطريقة ينبغي أن تُثار لدى المتلقي عمليات ترتيب معيّنة - ضرورية في قضية فهم النص - عن طريق الاستخدام الموجّه لأشكال التعريف . وتعدّ هذه النظرة مهمة ، لكن يجب تحديدها بإضافة أنّ (المعلومات اللاحقة) لا يمكن وصفها نحوياً إلا بشكلٍ غامض (يمكن أن تتكوّن في بعض الأحيان من أجزاء كبيرة من النص) ، وقد يبدو مشكوكاً فيه ، إن كان ما يطالب به هنا من تعميم مبرّراً ، بأن تتبع ضرورة التنكير دائماً (معلومات لاحقة) . فأقوال مثل : (فتاة بهذا الجمال !) ، أو (يوجد هناك ثعبان غير سام) ، تعدّ أقرب إلى الدلالة أنّه هنا يُشار إلى (معلومة سابقة) ^(١) .

التعريف والتنكير : وجهة تداوليّة :

تبرز لنا من حديثنا عن الإحالة بأداة التعريف (أل) بعض الجوانب التداولية للنص ، كالإشارية ، والافتراض المسبق ، والقصدية ، وغيرها . وما يعيننا في هذا الموضع هو بعض الإشارات في قضية الافتراض المسبق (Presupposition) .

أعني بذلك أنّ المتكلّم يوجّه حديثه إلى المخاطب على أساس مما يفترض سلفاً أنّه معلوم لديه ، فإذا قال شخص لآخر : (أغلق النافذة) ، فالمفترض سلفاً أنّ النافذة مفتوحة ، وأنّ هناك مبرّراً يدعو إلى إغلاقها ، وأنّ المخاطب قادرٌ على الحركة ، وكلّ هذا موصول بسياق الحال ، وعلاقة المتكلّم بالمخاطب ^(٢) .

وذلك يقوم على مبدأ (الأساس المشترك) ، يقول ستالناكر (Stalnaker R. C) : « إنّ عمليات الافتراض هي ما يعتبره المتكلّم أرضية مشتركة

(١) انظر « مدخل إلى علم اللغة النصي » ٢٩ . وانظر فيرنر كلماير (ضمن أعمال أخرى) (١٩٨٠ م ، ١٩٣) .

(٢) انظر « آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر » د. محمود نحلة ، ٢٦ .

مسلّمًا بها لدى كلّ أطراف المحادثة «^(١) .

ويقترح فينيمان (Venneman) أنّ لأيّ خطاب « رصيّدًا من الافتراضات المسبقة يضمّ معلومات مستمّدة من المعرفة العامة ، وسياق الحال ، والجزء المكتمل من الخطاب ذاته »^(٢) . فلدى كلّ طرفٍ من أطراف الخطاب رصيّدٌ من الافتراضات المسبقة ، وهذا الرصيّد في تزايدٍ مع تقدّم عملية الخطاب .

وضمن رصيّد الافتراضات المسبقة المصاحبة لأيّ خطاب توجد مجموعة من المسلّمات الخطابية^(٣) .

والمعلومة المسلّمة هي تلك التي يعدّها المتكلّم قابلة لأن نحصل عليها ، إمّا بالإحالة إلى ما سبق من النص ، أو بالعودة إلى المقام^(٤) .

وكما سبق فإنّ أداة التعريف تشير إلى معلومات سابقة ، بينما تشير أداة التنكير إلى معلومات لاحقة ، فالتعريف كما يقول هنتشل و وِيت : « يعتمد على ما يفترضه المتكلّم من عِلْم السامع بالأمر »^(٥) ، ثمّ يقولان : « والتنكير على العكس من ذلك ، أمور لا

(1) Stalnaker R.C. (1978) Assertion in (ed.) P. Cole. P: 321.

وانظر « تحليل الخطاب » ٣٧ .

(2) Venneman, T. (1975) Topic, Sentence accent, and ellipsis: a proposal for their formal treatment in (ed.) E.L. Keenan. P: 314.
وانظر « تحليل الخطاب » ٩٧ .

(٣) انظر « تحليل الخطاب » ٩٦ ، ٩٧ .

(٤) انظر « تحليل الخطاب » ٢١٤ .

(5) Hentschel & Weydt: Handbuch der deutschen Grammatik.S. 205.
وانظر « التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل » ٨١ .

يعرف السامع عنها شيئاً ، أو لا يعرف أيّ أمرٍ منها يُراد بين أمور عديدة ... وقد لا تكون معروفة عند المتكلم أيضاً ^(١) .

وقد التفت النحويون إلى دور المخاطب في الاتصال الكلامي ، وجعلوا تعريف الشيء أو تنكيره محكوماً بالعلاقة المفترضة بين المتكلم والمخاطب ، فإذا قدر علمه بالشيء استخدمه معرفة ، وإذا قدر جهله به استخدمه نكرة ^(٢) .

فالمنكر لا يحيل إلا على معلومات معجمية ، أو لغوية مخزونة في ذهن السامع ، أمّا المعرف فإنه يحيل أحياناً على المعلومات المعجمية واللغوية ، وأحياناً الاصطلاحية ، وأحياناً على معلومات تخصّ أفراداً معيّنين ، للسامع سابق معرفة بهم ^(٣) . وفيما يأتي سأتناول بعض خصائص (أل) التعريف التي تفيدنا في دراسة دورها الرابطي والإحالي ، من خلال ما أورده النحاة العرب ، مطبقاً ذلك على ما ورد في القصص القرآني .

(١) Hentschel & Weydt: Handbuch der deutschen Grammatik.S. 206

وانظر « التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل » ٨١ . 210 .

(٢) انظر « التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل » ٢٢٠ .

(٣) انظر « التعريف والتنكير في اللغة العربية » عبد الجبار غربية ، حوليات الجامعة التونسية، ع ٢٤ ،

١٩٨٥ م . ص ١٥٥ .

أنواع الألف واللام :

للألف واللام أنواع عديدة أوردتها النحاة ، أختصرها في الجدول الآتي ^(١) :

أنواع (أل)				
زائدة		حرف تعريف		اسم موصول
غير لازمة	لازمة	جنسية	عهديّة	
		لاستغراق الأفراد	عهد ذكري	
		لاستغراق خصائص الأفراد	عهد ذهني	
		لتعريف الماهية	عهد حضوري	

وما يعيننا في هذا البحث هو (أل) بكونها حرف تعريف ، وهو ما سأتناوله في الآتي .

(أل) التعريف :

تكون (أل) أداة تعريف ، فتفيد معنى العهد وتسمى (عهديّة) ، أو معنى الجنس ، وتسمى (جنسية) ، يقول ابن هشام في العهدية : « إما أن يكون مصحوبها معهودًا ذكرياً نحو : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ ﴿١٥﴾ فَصَنَّىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ المزمّل : ١٥ - ١٦ . ونحو : ﴿ فِيهَا مَصْبَاحٌ الْيَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ النور : ٣٥ . ونحو : (اشتريتُ فرساً ، ثم بعثُ الفرسَ) . وعبرة هذه أن يسدّ الضمير مسدّها مع مصحوبها .

(١) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٠٢١ .

أو معهودًا ذهنيًا ، نحو : ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ ﴾ التوبة : ٤٠ . ونحو : ﴿ إِذْ يَبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ الفتح : ١٨ .

أو معهودًا حضوريًا ... والمثال الجيد للمسألة قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ المائدة : ٣ ^(١) .

أولاً : (أ ل) العهدية :

نقصد بـ (العهد) : الأمر المتفق عليه بين المرسل والمتلقي ، فهو أمر محدد مفهوم لكل منهما ^(٢) .

ونلاحظ هنا أنّ ابن هشام قسم (أ ل) العهدية ثلاثة أقسام ، وذلك بحسب عهد المتكلم والسامع أو القارئ بمدخولها .

١ - العهد الذكري :

حقيقتها : « أن يتقدّم ذكرُ نكرة مفردًا كان أو مثنى أو مجموعًا ، فإذا أعيد ذكرها أدخلت عليها الألف واللام ، كقولك : (ناظرني رجلٌ ، فقلت للرجل كذا وكذا ..) ، أي : قلت للرجل الذي ذكرته ... وهذه المعرفة حالة محلّ المضمّر ؛ لأنّ حدّ اللفظ أن تقول : ناظرني رجلٌ ، فقلت له : كذا وكذا » ^(٣) .

وبيّن الزنجاني أنّ الاسم إنّما أعيد مقترنًا بـ (أ ل) لضرب من التوكيد ، لما فيه من تكرار اللفظ الواحد ، وإن كانا قد اختلفا في التعريف والتنكير .

(١) « مغني اللبيب » ١ : ٧٢ .

(٢) انظر « النحو المصقّى » د. محمد عيد ، ١٨٧ .

(٣) « الكافي في شرح الهادي - قسم النحو » للزنجاني ، تح : د. محمود فجال ، ٣ : ١١٨٨ .

وتفيد (آل) العهد الذكري إذا كان مدخولها معهودًا للسامع أو القارئ عهدًا ذكريًا، أي: سبق ذكره في النص أو الخطاب، إمّا صريحًا كما في أمثلة ابن هشام السابقة، وإمّا كناية كما في قول الأشموني - شارحًا معنى العهد الذكري في مدخول (آل) : «لَتَقْدَمَ ذِكْرُهَا فِي اللَّفْظِ صَرِيحًا أَوْ كِنَايَةً، نَحْوُ: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ آل عمران : ٣٦.

ف (الذَّكَر) تَقْدَمُ ذِكْرُهُ فِي اللَّفْظِ مَكْنِيًّا عَنْهُ بِمَا فِي قَوْلِهَا: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ آل عمران : ٣٥ . فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ خَاصًّا بِالذَّكَورِ ، وَالْأُنْثَى تَقْدَمُ ذِكْرُهَا صَرِيحًا فِي قَوْلِهَا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ آل عمران : ٣٦ «^(١).

ويقول الصَّبَّانُ معلقًا على قول الأشموني : « قوله : (مَكْنِيًّا عَنْهُ بِمَا) أي : باعتبار تقييدها بـ (مُحَرَّرًا) ، وَإِلَّا فَ (مَا) عَامَّةٌ لِلذَّكَرِ وَالْأُنْثَى «^(٢).

يعني الصَّبَّانُ أَنَّ مَجِيءَ (مُحَرَّرًا) بَعْدَ (مَا) هُوَ الَّذِي صَرَفَ (مَا) فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى الذَّكَرِ مِنْ دُونِ الْأُنْثَى ؛ لَكُونَ التَّحْرِيرَ (التَّفْرَغَ) لخدمة بيت المقدس أَمْرًا خَاصًّا بِالذَّكَورِ فَقَطْ كَمَا ذَكَرَ الْأَشْمُونِيُّ .

ومثل ذلك قولنا : (زَيْدٌ نَعَمَ الرَّجُلُ) ، فبعض النَّحَاةِ جَعَلَ (آل) فِيهِ لِلْعَهْدِ ، وَهُوَ الْعَهْدُ الذَّكَرِيُّ بَعْدَ تَقْدَمِ لَفْظِ (الرَّجُلُ) مَكْنِيًّا عَنْهُ بـ (زَيْد) .

نلاحظ هنا أَنَّ مَا أوردته ابن هشام وغيره من أمثلة قد جاءت فيها (آل) في درج الكلام، وليس في مفتتحه .

وَأَنَّ (آل) ومدخولها في هذا النوع يصحّ أن يعوّضا بضمير الغائب .

(١) « شرح الأشموني » ١ : ٢٨٥ .

(٢) « حاشية الصَّبَّانِ على شرح الأشموني » ١ : ٢٨٥ .

وقد صرح ابن هشام بصحة هذا التعويض ، بل جعلها علامة كون مدخول (آل) مفيداً معنى العهد الذكري ، قال : « وعبرة هذه أن يسدّ الضمير مسدّها مع مصحوبها » .

فيصح أن يقال في غير القرآن : (كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ، فعصاه فرعون) ، وفي قولنا : اشتريت فرساً ثم بعث الفرس : (اشتريت فرساً ، ثم بعته) ^(١) .

وهذا يؤكد لنا الدور الإحالي الذي تقوم به (آل) التي يكون مدخولها معهوداً ذكرياً ، وأن إحالتها هي من قبيل (الإحالة القبلية) على لفظ سبق ذكره في النص .

ويوجه الزنجاني الانتباه إلى مسألة مهمة في (آل) العهدية ، حيث يرى أن من العهدية « أن يُذكر اسمٌ يستدعي صفةً ، فتذكر أنت الصفة معرفة باللام ، كما إذا قيل لك : (شتمك زيد) ، فنقول : (لا شك أن السفية يفعل هذا) ؛ لأنه لما قال : (شتمك زيد) نبّه على أنه جاء سفيهاً ، فكأنه يقال : شتمك سفيهٌ .

وقد يجيء على غير هذا الحدّ ، وهو أن يكون (زيد) مشهوراً بالسّفوّ ، فمتى ذُكر (زيد) علِمَ صفته .

وفي التنزيل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ البقرة : ١٣ ، وكان ينبغي أن يقولوا : (كما آمن الناس) لكن الناس الذين آمنوا كانوا في اعتقاد المنافقين سفهاء ، فلما ذُكروا دلّ ذكرهم على ما تقرّر في أنفسهم ، فلأجل ذلك قال : ﴿ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ^(٢) .

(١) انظر « الموقعية في النحو العربي : دراسة سياقية » ٢٨٧ ، و « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٠٢٣ .

(٢) « الكافي في شرح الهادي - قسم النحو » ٣ : ١١٨٨ .

وما ذكره الزنجاني على أنه يندرج تحت باب (أل) العهدية ، يتداخل مع ما عدّه المحدثون من باب الإحالة بتكرار اللفظ بذاته أو بمعناه أو التكرار الترادفي ، وذلك من حيث تكرر اللفظ نفسه ، ومن حيث صحّة نيابة الضمير عنه .

ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ قَقِيحٍ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعَهُ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يوسف : ٥٣ . تمت الإحالة عن طريق تكرار لفظ (نفس) بذاته . ويصحّ في الصناعة أن نقول : وما أبرئ نفسي ، إنها لأمارّة بالسوء . بإحلال الضمير محلّ (نفس) الثانية .

ومن المعاني الطريقة للعدول عن استخدام لفظ (نفس) مضافاً إلى كونه معرّفاً بـ (أل) أنّ امرأة العزيز إنّما قالت ذلك لتجعل السوء طبيعة جنس النفوس التي منها نفسها ، فيبدو ذنبها أخفّ مما لو أضافت النفس إلى ضميرها هي قائلة : (إنّ نفسي لأمارّة بالسوء)^(١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ المزمل : ١٥ - ١٦ . تمت الإحالة عن طريق تكرار لفظ (رسول) بذاته .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة : ١٣ . تمت الإحالة عن طريق تكرار لفظ (الناس) بمعناه وهو (السفهاء) كما سبق بيانه .

(١) انظر « البيان في روائع القرآن » ١ : ١٤٩ .

ويمكن أن نستنتج بعض الأمور التي تفرّق بين النوعين على النحو الآتي :

١ - أنّ الإحالة عن طريق إعادة اللفظ بذاته أو معناه قد تكون بأكثر من لفظ ، وقد تصل إلى جملة أو أكثر في بعض الأحيان ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ التوبة : ٩٠ .

ف (المعذرون من الأعراب) على قراءة التخفيف و (الذين كذبوا الله ورسوله) مدلولهما واحد ، وإن اختلف التعبيران . في حين أنّ الإحالة بـ (أل) التي للعهد الذكري تكون في لفظ واحد فقط وهو مدخول (أل) .

٢ - أنّ الإحالة عن طريق إعادة اللفظ بذاته يغلب عليها أن يعاد اللفظ بالصورة التي ورد عليها أولاً ، فإن كان نكرة أعيد نكرة ، وإن كان معرفة أعيد معرفة ^(١) ، في حين أنّ الإحالة بـ (أل) التي للعهد الذكري يغلب عليها أن يكون اللفظ المتقدم المحال عليه نكرة ، واللفظ المتأخر المحيل معرفة .

٢ - العهد الذهني :

تفيد (أل) العهد الذهنيّ إذا كان مدخولها معهوداً ذهنيّاً للمتكلّم والسامع ، أي : معهوداً في ذهن كلّ منهما ، كما في أمثلة ابن هشام السابقة ، وكما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ ﴾ النازعات : ١٦ .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ الأحزاب : ٦ .

(١) انظر « الموقعية في النحو العربي : دراسة سياقية » ٢٩٨ .

ونلاحظ هنا أنه لا يمكننا أن نعوض (أل) العهدية الذهنية ومدخولها بالضمير ، وذلك أن أياً من الأمثلة السابقة يختل فهمها إذا وضعنا الضمير في موضع (أل) فإذا قلنا في قوله تعالى : ﴿إِلَّا تَصْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ لَنَا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلِ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة : ٤٠ : (إذ هما فيه) لما عُرف المحال عليه المقصود من الضمير في (فيه) ، ولا يوجد في سياق الكلام - في السباق واللاحق - ما يحدد المحال عليه ، ولا نستطيع أن نفهم أن المراد به هو (الغار) .

وفي قوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح : ١٨ .

فلا يصح أن نقول : (إذ يبايعونك تحتها) ؛ لعدم معرفة المحال عليه .

ف (الغار) و (الشجرة) من الأشياء المعهودة المألوفة بالنسبة إلى المخاطبين عهداً يقوم على المعرفة السابقة في الذهن والعرف ، ولا يوجد في النص أي ذكر لها يمكن أن يسهم في تحديد المحال عليه المقصود .

وكذا في قوله تعالى : ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ﴾ ، لا يصح أن نقول : (إذ ناداه ربه به ..) لعدم معرفة المحال عليه ، وعدم فهم المقصود ، وذلك يفضي إلى الإخلال بالتماسك النصي للآيات ^(١) .

(١) انظر «الموقعية في النحو العربي : دراسة سياقية» ٢٨٨ ، و«أصول تحليل الخطاب» ٢ : ١٠٢٦

ونخلص من ذلك إلى أنّ هذه الألفاظ وإن كانت مُحمّلة على شيء ما ، لكنها إحالة على معلوم في الذهن ، ولا تسهم بأي دور في التماسك النصّي ، وفي الربط بين جمل النص وفقراته .

٣ - العهد الحضورى :

تفيد (أل) ومدخولها العهد الحضورى إذا كان مدخولها حاضراً وموجوداً يدركه المتكلم والسامع . أي : إنّ هذا العهد حاصل من المقام الذي ينشأ فيه القول .

مثال ذلك : (أغلق الباب) ، تقولها للمخاطب في مكان معيّن ، فيه باب ، وباب واحد . وكذا ما ذكره ابن هشام فيما سبق : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ .

وقولنا لمن سدّد سهمًا : (القرطاس) ، أي : أصبّت القرطاس^(١) .

وقولك لرجل لا تعرفه قد وقف أمامك : (من الرجل ؟) .

ونلاحظ من تلك الأمثلة أنّ (أل) هنا لا يمكن القول إنها عهدية مقالية ؛ لأنّه لم يسبق في النص أو الخطاب ذكر للباب واليوم والقرطاس والرجل .

ونلاحظ أنّه لا يصحّ أن تُعوّض (أل) ومدخولها بالضمير الغائب .

ويمكن أن نحصر الحالات التي يتأتّى فيها (العهد الحضورى) في المواطن الآتية :

١ - (أل) الداخلة على المنادى ، الواقعة بعد (أي) نحو : يا أيّها الرجل .

٢ - (أل) في ألفاظ من نحو : (الآن) و (اليوم) و (الساعة) وما شابهها من أسماء الزمان الحاضر .

(١) انظر « شرح عمدة الحفاظ وعدة اللافت » لابن مالك ، تح : د. عدنان الدوري ، ١٥٤ . و « الجنى الداني في حروف المعاني » ١٩٤ .

وقد نقل ابن هشام عن ابن عصفور مواطن أخرى^(١) هي :

٣ - بعد أسماء الإشارة ، نحو : (جاءني هذا الرَّجُلُ) .

٤ - بعد (إذا) الفجائية ، نحو : (خرجتُ فإذا الأسد) .

والذي أراه أنّ هذين النوعين لا يتمخضان للعهد الحضورى كما في النوعين الأولين ؛ لأنّ الإشارة يمكن أن تكون إلى شيء غير حاضر ، إلّا إذا كان ابنُ عصفور لم يقصد الإشارة الذكورية (أي : تقدّم المشار إليه في الذكر) ، بل قصدَ بالإشارة الأصل ، أي : الإشارة الحسية ، وقد غلبها النحويون في تناولهم لأسماء الإشارة .

وكذلك الأمر في (إذا) الفُجائية ، فلا يشترط أن يكون مدخول (أل) حاضرًا في المقام ، فحينما يخبرك شخصٌ بقوله : (خرجتُ فإذا الأسد) فلا يعني أنّ الأسد حاضرٌ معكما في مقام التحدّث والإخبار^(٢) .

إذن نستطيع القول من خلال ما سبق أنّ النوعين الأولين ، وهما : (أل) الداخلة على النداء ، و (أل) الداخلة على الزمان الحاضر ، لا تسهم إحالتهما بدور بارز في عملية التماسك النصي ، والربط بين جمل النص .

أمّا النوعان الآخران ، وهما : (أل) الواقعة بعد الإشارة ، و (أل) الواقعة بعد (إذا) الفجائية فإنّهما قد يسهمان بدور رابطيٍّ إذا دلّت فيهما (أل) على العهد الذكري .

ومّا يؤيّد ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى ۖ ۞ ١١ ۖ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۖ ۞ ١٢ ۖ ﴾ طه : ٢٠ . حيث أمكن إحلال الضمير محلّ (أل) بعد (إذا) الفجائية^(٣) .

(١) انظر « مغني اللبيب » ١ : ٧٣ .

(٢) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٠٢٥ .

(٣) انظر « أصول تحليل الخطاب » ٢ : ١٠٢٥ .

نستبين مما سبق أنّ الإحالة بـ (أل) العهدية الذهنية ، و (أل) العهدية الحضورية ، لا تسهم بدور واضح في التماسك النصي والترابط بين جمل النص ، ولا يصحّ إحلال الضمير في محلّها مع مدخولها .

ويرى د. تمام حسان أنّ (أل) مع مدخولها في هذين القسمين تكون في قوّة اسم الإشارة ، فكلّمة (النبيّ) في قوله تعالى : ﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الأحزاب : ٦ ، هي في قوّة : (هذا النبيّ الذي تعرفونه) . وكلّمة (اليوم) في قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المائدة : ٣ ، هي في قوّة : (في هذا اليوم الذي أنتم حاضروه) ^(١) .

(أل) الجنسية :

معنى الجنسية : أن يُراد بها تعريف الحقيقة الكلية الموجودة في الخارج ، أو الشاملة لأفراد ذلك الجنس . كقولهم : (الرجلُ خيرٌ من المرأة) . ولا يريدون به رجلاً وامرأة معيّنين ، ولا مذكورين ، وإنّما يريدون أنّ هذا الجنس من حيث هو هو خيرٌ من ذلك الجنس من حيث هو هو ، فأَيُّ فردٍ من أفراد هذه الحقيقة أُخِذَ ، فإنّه باعتبار اشتماله على تلك الحقيقة خيرٌ من كلّ فردٍ من أفراد تلك الحقيقة باعتبار اشتماله عليها ، وإن كان يتفوّق في أفراد النساء من هي خيرٌ من فردٍ من أفراد الرجال ، بسبب عوارض تعرّض له ، وذلك لا يقدح فيما ذُكر ^(٢) .

ويرى ابن بابشاذ أنّ تعريف (العهد) لما ثبت في الأعيان ، وتعريف (الجنس) لما ثبت في الأذهان . ويقصدُ به ما ذُكر آنفاً ، « لا أنّ التفضيل في الجنس راجع إلى

(١) انظر «البيان في روائع القرآن» ١ : ١٤٧ .

(٢) انظر «الكافي في شرح الهادي - قسم النحو» ٣ : ١١٨٩ .

الصورتين الكليتين في الذهن ، إذ لا معنى للتفضيل في الصور الذهنية ، وإنما أضاف إلى الذهن لأنه خصص تلك الحقيقة التي ذكرناها ، وإن كانت موجودة في الخارج لاشتغال الأفراد الخارجية عليها ، لكنها كلها مطابقة للصورة الذهنية التي لتلك الحقيقة ، ولهذا تسمى (الكلية الطبيعية) ^(١) .

تنقسم (آل) الجنسية إلى ثلاثة أنواع على النحو الآتي :

١ - (آل) لاستغراق الأفراد :

وله ضوابط ، منها :

١ - أن يصح وقوع (كل) موقع (آل) حقيقة لا مجازاً ، نحو قوله تعالى :

﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ النساء : ٢٨ . أي : (كل إنسان) .

٢ - أن يصح الاستثناء مما دخلت عليه (آل) ، كقوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ

الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ العصر : ١-٣ .

قال ابن يعيش : « الإنسان هنا عام يراد به جميع آدميين ، بدليل استثناء الجمع منه ؛ لأنه إنما يستثنى الأقل من الأكثر » ^(٢) .

٣ - أن يصح نعتُه بالجمع ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَوِ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى

عَوْرَتِ النَّسَاءِ ﴾ النور : ٣١ .

(١) « الكافي في شرح الهادي - قسم النحو » ٣ : ١١٨٩ .

(٢) « شرح المفصل » ٥ : ٨٦ . وانظر « مغني اللبيب » ١ : ٧٣ .

وقد أجاز ابنُ بابشاذ قولهم : (أَهْلَكَ النَّاسَ الدِّينَارُ الْحُمْرَ وَالْدِرْهَمُ الْبَيْضُ) ؛
لأنَّ الدِّينَارَ وَالْدِرْهَمَ لَمَّا كَانَا جَنْسَيْنِ جَازَ وَصَفُهُمَا بِالْجَمْعِ ^(١) .

٤ - أن يصحَّ إضافة (أفعل) إليه ^(٢) . نحو : (الرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْأَةِ) .

٢ - (أَل) لاستغراق خصائص الأفراد :

هي التي تخلفها (كل) مجازًا لا حقيقة ، نحو : (زَيْدٌ الرَّجُلُ عِلْمًا) ، أي : الكامل في
هذه الصفة ، على سبيل المبالغة . وقد تسمَّى بـ (أَل) التي للكمال ^(٣) .

وتحلَّ هنا (كل) محلَّ (أَل) حلولًا مجازيًا ، فـ (زَيْدٌ الرَّجُلُ عِلْمًا) لا تعني (أَل) في
(الرجل) أَنَّ عِلْمَ زَيْدٍ هُوَ عِلْمُ جَمِيعِ الرِّجَالِ ، إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ ، وَإِنَّمَا تَعْنِي (أَل)
هنا أَنَّ (زَيْد) كامل في هذه الصفة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَنكِحْتُ لَدَرْجَةٍ ﴾ البقرة : ٢ ، أي : الذي جمع خصائص
الكمال المتفرقة في الكتب كلها ، حتى أصبح هو الكتاب المتفرد بالكمال ، ولا اعتداد بأيّ
كتاب آخر مقارنةً به .

وتفيد استغراق خصائص الأفراد الذين يدخلون تحت الجنس الواحد ، نحو :
زَيْدٌ الرَّجُلُ عِلْمًا . أو شمول بعض ما يصلح له اللفظ ، نحو : جَمَعَ الْأَمِيرُ الصَّاعَةَ .
فـ (كل) تقع فيه موقع (أَل) مجازًا ، لكنها ليست لشمول الخصائص ، بل لشمول
بعض ما يصلح له اللفظ ، وهو صاعَةٌ بِلَدِ الْأَمِيرِ أو صاعَةٌ مَمْلُوكَتِهِ دون من عداهم .

(١) انظر « الكافي في شرح الهادي - قسم النحو » ٣ : ١١٨٩ .

(٢) انظر « شرح التصريح » للأزهري ، ١ : ١٤٩ . و« مع الهوامع » ١ : ٧٩ .

(٣) انظر « الجنى الداني في حروف المعاني » ١٩٤ .

٣ - (آل) لتعريف الماهية :

الماهية : مصدر الشيء وحقيقته . وتفيد أن الجنس هنا يراد منه حقيقته القائمة في الذهن ، ومادته التي تكوّن منها في العقل ، بغير نظر إلى ما ينطبق عليه من أفراد قليلة أو كثيرة ، ومن غير اعتبار لعددها ، أو لصفة عرضية طارئة عليها ، وقد يكون بين تلك الأفراد ما لا يصدق عليه الحكم ، نحو : (الحديد أصلب من الذهب) أي : مادة الحديد (حقيقته وطبيعته) أصلب من مادة الذهب من غير نظر لشيء معيّن من هذا أو ذاك ، كمفتاح من حديد أو خاتم من ذهب ، فقد يوجد أداة من نوع الذهب أصلب من أداة من نوع الحديد ^(١) .

وعلامتها أن لا تخلفها (كلّ) لا حقيقة ولا مجازاً ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنبياء : ٣٠ . فلا يصحّ أن نقول : (وجعلنا من كلّ ماء كلّ شيء حيّ) . وفي الحديث : « والله لا أتزوج النساء » ^(٢) . ومثله : (لا ألبس الثياب) ^(٣) ؛ ولذا يقع الحنث في اليمين لو تزوّج أيّ واحدة من النساء ، أو لبس أيّ شيء يصحّ أن يُطلق عليه ثياباً .

قال ابن هشام : « وبعضهم يقول في هذه : إنّها لتعريف (العهد) ؛ فإنّ الأجناس أمور معهودة في الأذهان متميّز بعضها عن بعض ، ويُقسّم المعهود إلى : شخص ، وجنس » .

(١) انظر « النحو الوافي » ١ : ٤٢٧ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب النكاح - باب استيجاب النكاح لمن تأقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم) ٢ : ١٠٢٠ . بلفظ : « فقال بعضهم : لا أتزوج النساء » .

(٣) انظر « مغني اللبيب » ١ : ٧٣ .

ويقسم د. تمام حسان (آل) الجنسية إلى نوعين :

الأول : الجنس المطلق :

يشمل جميع الأفراد ، مع إبهام كل فرد من أفرادها ، فهي في قوة (أي) ، نحو :
(الرجل أقوى من المرأة) ، والمعنى : أي رجل أقوى من أي امرأة .
ويصح أن يعاقبها لفظ (كل) .

وهذا النوع (المطلق) لدى د. تمام حسان يندرج تحته الأقسام التي أوردها
النحويون في (آل) الجنسية ، وهي :

١ - (آل) لاستغراق الأفراد .

٢ - (آل) لاستغراق خصائص الأفراد .

٣ - (آل) لتعريف الماهية .

لأنها جميعها لا يصح أن ينوب الضمير عنها ، وليس لها أي دور في عملية الربط
والتناسك النصي .

الثاني : الجنس المقيّد (النسبي) :

هو الذي يصح أن يحلّ الضمير محله ، ويدلّ على الجنس المقيّد بمضاف إليه مقدّر
أغنت عنه (آل) ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٥١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ ۝٥٢﴾ . أي : ونهى نفسه عن هواها ، فإن الجنة
هي مأواه .

ويُنسب إلى كل فرد من أفراد الجنس ، فهو يضاف إلى ضمير الشخص ، أو تدلّ
(آل) على مفهوم هذا الضمير ، نحو : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۖ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۖ ۝٥٣﴾
يوسف : ٥٣ . أي : إن نفسي لأماراة بالسوء .

وضمير الشخص المقدّر في هذه الحالة قد يتراوح بين التكلم والخطاب والغيبة ،
والإفراد والثنية والجمع ، والتذكير والتأنيث ، نلاحظ ذلك في المثال الآتي :

مفرد غائب	أي : في رأسه	(رماه بحجر فأصابته في الرأس) له احتمالات متعددة منها :
مفرد متكلم	أي : في رأسي	رماني بحجر فأصابني في الرأس
جمع متكلم	أي : في رؤوسنا	رمانا بأحجار فأصابنا في الرأس
مفرد مخاطب	أي : في رأسك	رماك بحجر فأصابك في الرأس
مفردة غائبة	أي : في رأسها	رماها بحجر فأصابها في الرأس

مرجع ذلك إلى أن كلّ إنسان له رأس ، فلفظ الرأس يدلّ على جنس نسبي يضاف
إليه ضمير صاحبه ، فإذا عُدِلَ به عن الإضافة إلى التعريف بالأداة صارت
(أل) جنسية ، وصلّحت للربط كما يصلح الضمير ^(١) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ غافر : ١٨ .
أي : إذ قلوبهم لدى حناجرهم .

وما سباه د. تمام حسان ب (الجنس النسبي) هو نفسه ما أسماه النحويون (أل)
الناتبة عن الضمير ، حيث صحّ أن ينوب عنها الضمير مضافاً إلى الاسم الذي دخلت
عليه (أل) لتعريفه .

(١) انظر « الخلاصة النحوية » ٩٤ - ٩٥ .

وقد عدَّ ابنُ هشام (أ ل) النائبة عن الضمير في جملة (روابط الجملة بما هي خير عنه) ، قال : « والتاسع : (أ ل) النائبة عن الضمير ، وهو قول الكوفيين ، وطائفة من البصريين ، ومنه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ النازعات : ٤٠ - ٤١ ، الأصل : (مأواه) ، وقال المانعون : التقدير : (هي المأوى له) » ^(١) .

تبيّن لنا من خلال عرض أقسام (أ ل) الجنسية وأنواعها ، أنها لا تسهم في عملية التماسك النصّي ، إلا النوع الذي سماه د. تمام حسان بـ (الجنس النسبي) فله دور بارز في عملية الإحالة والتماسك النصّي ؛ لأنها في قوّة الضمير الذي يعدّ من أقوى الروابط وأكثرها انتشاراً في النصوص .

(١) « مغني اللبيب » ٦٥٢ .

امثلة من القصص القرآني على الإحالة بأداة التعريف (أل)

مثال (١)

قصة امرأة عمران

٢ - قال تعالى في قصة امرأة عمران : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُعَرَّرًا ۖ فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ آل عمران : ٣٥ - ٣٦ .

الآية	اللفظ الإحالي	نوع (أل)	المحال عليه	نوع الإحالة	انجاء الإحالة	دور الأداة في التماسك
وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ	الذَّكَرُ	عهدية ذكرية كنائية	مَا فِي بَطْنِي مُعَرَّرًا	داخلية	→ قبلية	☑
وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ	الأنثى	عهدية ذكرية صريحة	رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ	داخلية	→ قبلية	☑

(أل) في لفظ (الذَّكَر) تحيل على معهود متقدّم الذَّكَر ، ليس باللفظ نفسه ، وإنما بلفظ كنائي مرادف له ، فـ (الذَّكَر) تقدّم ذكره في اللفظ مكيناً عنه بقولها : ﴿ مَا فِي بَطْنِي مُعَرَّرًا ﴾ فالتحرير هو خدمة بيت المقدس ، ولا تكون تلك الخدمة إلا من الذكور .

أما (أل) في لفظ (الأنثى) فتحيل على معهود متقدّم الذكر ، باللفظ نفسه ، في قوله : ﴿ إِنِّي وَمَعَتَهَا أَنْثَى ﴾ . ونلاحظ أنّ الإحالة بـ (أل) العهدية تكون دائماً إحالةً قبلية . وهذه الإحالة العهدية تُسهّم بدور بارز في تماسك النص وترابطه .

مثال (٢)

قصة يوسف عليه السلام

قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّمِّيُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ (١٣) قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّمِّيُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُ رُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلَهُ الذِّمِّيُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ يوسف : ١٣ - ١٧ .

الآية	اللفظ الإحالي	نوع (أل)	نوع الإحالة	اتجاه الإحالة	دور الأداة في التماسك
وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ	الذَّئْبُ	جنسية ^(١)	خارجية	-	☒
قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّئْبُ	الذَّئْبُ	عهدية	داخلية	→ قبلية	☑
فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ	الذَّئْبُ	عهدية	داخلية	→ قبلية	☑

(١) قال ابن عاشور: « التعريف في (الذئب) تعريف الحقيقة والطبيعة ، ويسمى تعريف الجنس . وهو هنا مراد به غير معين من نوع الذئب أو جماعة منه ، وليس الحكم على الجنس بقرينة أن الأكل من أحوال الدّوات لا من أحوال الجنس ، لكن المراد أية ذات من هذا الجنس دون تعيين . ونظيره قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَتَحَمَّلُ لُفَاً ﴾ الجمعة: ٥ ، أي فرد من الحمير غير معين ، وقرينة إرادة الفرد دون الجنس إسناد حمل الأسفار إليه لأنّ الجنس لا يحمل . ومنه قولهم: (ادخل السوق) إذا أردت فرداً من الأسواق غير معين ، وقولك: ادخل ، قرينة على ما ذكر . وهذا التعريف شبيه بالنكرة في المعنى إلاّ أنّه مراد به فرد من الجنس . وقريب من هذا التعريف باللام التعريف بعلم الجنس ، والفرق بين هذه اللام وبين المنكر كالفرق بين علم الجنس والنكرة . فالمعنى: أخاف أن يأكله الذئب ، أي يقتله فيأكل منه فإنكم تبعدون عنه ، لما يعلم من إمعانهم في اللعب والشغل باللهو والمسابقة ، فتجتري الذئب على يوسف عليه السلام . » . التحرير والتنوير « ١٢ : ٢٣١ .

نلاحظ أن لفظ (الذئب) ورد ثلاث مرات في هذا المقطع النصي من قصة يوسف ،
عليه السلام :

ففي المرة الأولى ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ ﴾ جاءت (أل) جنسية ، تدل على
الشيوع والإحاطة ، ولا يقصد بها تحديد فرد بعينه من الذئاب .

وفي المرة الثانية ﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّئْبُ ﴾ ، ذهب الرضي إلى أن (أل) هنا
جنسية ، قال : « ولا دلالة فيه [أي : الجنس] على القلة ولا الكثرة ، بل ذاك احتمال
عقلي ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّئْبُ ﴾ ولم يكن هناك ذئب معهود ، ولم يرد
استغراق الجنس أيضًا ، ومثله قولك : (ادخل السوق) و (اشتر اللحم) و (كل
الخبز) ، فهذا النوع من الجنس لا يناقض الوحدة ، إذ لا دلالة فيه على الكثرة »^(١) .

والذي أراه أن قول الرضي ينطبق على قوله تعالى : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ
الذَّئْبُ ﴾ ، حيث ورد (الذئب) هنا أول مرة ، ولم يرد له ذكر سابق ، أما قوله
تعالى : ﴿ لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّئْبُ ﴾ فيمكن أن نعد (أل) هنا عهدية ؛ حيث ورد ذكر
(الذئب) سابقًا ، ولأنه يصح أن يستغنى عنها مع مدخولها بالضمير ، فنقول :
(قالوا لن أكله ونحن عصبه) أي : أكله الذئب المذكور فيما سبق .

وفي المرة الثالثة ﴿ فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ ﴾ أرى أن (أل) هنا عهدية ذكرية ؛ فقد تقدّم
ذكر (الذئب) سابقًا حينما لقنهم والدهم يعقوب - عليه السلام - تلك الكذبة ؛ لأن
مرادهم هنا أن ذئبًا محددًا قد أكل يوسف عليه السلام ، والذي سوغ لي أن أعدّها عهدية
ذكرية ولم يتقدّمها لفظ (ذئب) منكرًا ، هو أن لفظ (الذئب) باعتباره اسم جنس يشبه

(١) « شرح الكافية » ١ : ٤ .

النكرة في كونه يفيد العموم والشمول ، ولا يقصد به تحديد فرد بعينه ، فهو في ذلك كالنكرة .

ومن هذا المنطلق ذهب بعض النحاة إلى إعراب جملة (يسبني) في قول الشاعر :
ولقد أمرُّ على اللثيم يسبني فمضيتُ ثُمَّتَ قلْتُ : لا يَغْنِينِي

نعتاً ، يقول ابنُ هشام في (حكم الجمل بعد المعارف وبعد النكرات) : « النوع الرابع : وهو المحتمل لهما بعد المعرفة ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَشْقَارًا ﴾ الجمعة : ٥ ، فإنَّ المعرّف الجنسي يقربُ في المعنى من النكرة ، فيصحّ تقدير ﴿ يَحْمِلُ ﴾ حالاً أو وصفاً »^(١) ثم ذكر مثالا على ذلك هذا البيت .

وقد قامت (أل) العهدية في لفظ (الذئب) الثاني والثالث بالإحالة على لفظ (الذئب) الذي ورد أول مرة على لسان يعقوب ، عليه السلام . وأسهمت هذه الإحالة بدور بارز في عملية التماسك النصي والربط بين جمل النص القصصي . والله أعلم .

(١) « مغني اللبيب » ٥٦١ .

مثال (٣)

قصة يوسف عليه السلام

أمثلة متفرقة من قصة يوسف عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ يَسُوفاً فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣٠) فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكاً وآتت كل واحدة منهن سِكِّناً وقالت أخرج عليهن فلما رأتهن أكبرنهن وقطعن أيديهن وقلن حش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴿ وقال الملك أثوبن به فلما جاءه الرسول قال أرجع إلى ربك فسنسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي يكيدهن عليهن ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾ يوسف : ٣٠ - ٣١ ، ٥٠ ، ٥٣ .

الآية	اللفظ الإحالي	نوع (أ ل)	المحال عليه	نوع الإحالة	اتجاه الإحالة	دور الأداة في التماسك
مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ	النِّسْوَةِ	عهدية ذكرية	وَقَالَ يَسُوفاً فِي الْمَدِينَةِ	داخلية	→ قبلية	☑
إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ	النَّفْسَ	جنسية نسبية	وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي	داخلية	→ قبلية	☑

نلاحظ في المثال الأول أنَّ لفظ (النسوة) الذي ورد في الآية (٥٠) يحيل إحالة داخلية قبلية على لفظ (نسوة) الذي ورد في الآية (٣٠) ، مسهِّماً في عملية الربط والتماسك على مسافة بعيدة ، ولا شك أنَّ الذاكرة هنا سيكون لها دور بارز في عملية الربط والاستدكار . ونستطيع أن نعدَّ (آل) هنا عهديةً ذكرية . حيث دخلت على لفظ (نسوة) الذي عُهد ذكره لدى المخاطب في الآيات السابقة .

وفي المثال الثاني في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسٍ إِلَّا نَفْسٌ لَّامِرَةٌ بِالسَّوِّءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يوسف : ٥٣ . تمت الإحالة عن طريق تكرار لفظ (نفس) بذاته . ويصحَّ في الصناعة أن نقول : وما أبرئ نفسي ، إنَّها لأَمارة بالسوء . بإحلال الضمير محلَّ (نفس) الثانية .

ومن المعاني الطريفة للعدول عن استخدام لفظ (نفس) مضافاً إلى كونه معرفاً بـ (آل) أنَّ امرأة العزيز إنَّما قالت ذلك لتجعل السوء طبيعة جنس النفوس التي منها نفسُها ، فيبدو ذنبُها أخفَّ مما لو أضافت النفس إلى ضميرها هي قائلة : (إنَّ نفسي لأَمارة بالسوء)^(١) . وقد سبق القول : إنَّ الكوفيين يعدُّون (آل) هنا نائبة عن الضمير ، وقد أسماها د. تمام حسان (آل) الجنسية النسبية . وقد أسهمت في عملية التماسك بين الجملتين .

(١) انظر « البيان في روائع القرآن » ١ : ١٤٩ .

مثال (٤)

قصة موسى والعبد الصالح

قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ ۖ قَالَ آلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّقُوهَا فَوَجدًا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ۚ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَن أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبَدِّلَهُمَا فِي مَرْحَمَةٍ خَيْرًا مِنَّهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ۖ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ الكهف : ٧٤ - ٨٢ .

الآية	اللفظ الإجمالي	نوع (أل)	المحال عليه	نوع الإحالة	انجاء الإحالة	دور الأداة في التماسك
وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ	الْغُلَامُ	عهديه ذكرية	حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ	داخلية	→ قبلية	☑

وَأَمَّا لِلْجِدَارِ فَكَانَ لِلْعُلَمَاءِ	لِلْجِدَارِ	عهدية ذكرية	فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا	داخلية	→ قبلية	☑

ونلاحظ هنا إسهام (أ ل) ومدخولها في عملية التماسك النصي ، حيث ربطت بين
 جمل متباعدة ، عن طريق الإحالة بـ (أ ل) العهدية على ألفاظ مذكورة سابقاً على
 مسافات بعيدة تتجاوز الجملتين ، ولا شك بأنّ للذاكرة دوراً مهماً في سرعة استيعاب
 تلك العمليات الإحالية في النص .

المبحث السادس الإحالة باللفظ الواصف

مفهومه :

المقصود بالوصف هنا أعم من المعنى النحوي (التعت) ، وإنما هو اللفظ الواصف
للمرجع بحيث يدلّ عليه ، وليس اسمًا له .

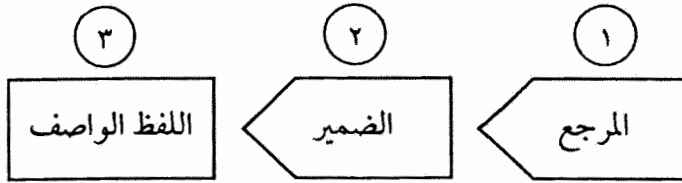
« فقد يؤدّي عدم المطابقة في اللفظ إلى الربط بلفظ فيه مدح أو ذم ، ولكنه لا يعدّ
من الصفات المشتقة ، وذلك كلفظ (قوم) و (أئمة) ، ونحوه »^(١) .

فليس المقصود بالوصف هنا (الصفات المشتقة) ، بل المقصود به : أنّه لفظ يحمل
معنى الوصف لما يعود عليه مرجعه بإحدى الصفات التي تكون مدحًا أو ذمًا لهذا
المرجع .

فلا بدّ أن يكون (اللفظ الواصف) وهو العائد مطابقًا لمرجعه (اللفظ الذي يعود
إليه اللفظ الواصف) في القصد فقط ، من دون اللفظ .

(١) « البيان في روائع القرآن » ١ : ١٤٥ .

ويكثر في هذا النوع من الإحالة أن يتقدّم الضمير ثم يُعاد إظهار مرجعه بقصد المدح أو الذم . وقد يتكرر هذا الضمير أكثر من مرة في النص قبل مجيء (اللفظ الواصف) ، ويكون مرجع هذا الضمير وما تكرر منه هو نفسه مرجع (اللفظ الواصف) ، ويكون موقع المرجع سابقاً على موقع الضمير ، وموقع الضمير سابقاً على (اللفظ الواصف) ، فلا بدّ من هذا الترتيب في السياق :



مثاله :

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء : ٧٦ .

فاللفظ الواصف هنا هو (أولياء الشيطان) ، وقد ربط الجملة الفعلية التي دخل عليها (فقاتلوا) بمرجعه (الذين كفروا) ، فالمعنى : (فقاتلوا الذين كفروا) .

نلاحظ أن الفاء في (فقاتلوا) تضافرت في القيام بالربط مع اللفظ الواصف (أولياء الشيطان) .

ونلاحظ أنّ اللفظ الواصف (أولياء الشيطان) سبق بضمير في (يقاتلون) يعودُ أيضاً إلى مرجع اللفظ الواصف (الذين كفروا) ، وهما في آية واحدة . وقد يكون قريباً ولكن ليس في آية واحدة .

أثره في التماسك النصي :

قد نحتاج في معرفة مرجع (اللفظ الواصف) وما يسبقه من ضمير متكرر - في بعض الشواهد - إلى مراجعة النص القرآني الذي وقعت الآية في حيزه . كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّىٰ ابْنَ الْيَمْلَأَ يَأْتَمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاُخْرِجَ إِلَىٰ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنِّي مَدْيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الزَّعَمَةَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي خَيْرٌ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَنَّىٰ يَدْعُوكَ لِتُتْرَكَ لَنَا مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص : ٢٠ - ٢٥ .

نلاحظ أنَّ حرف الجر (من) ربط بين المجرور (القوم الظالمين) والفعل (نجوت) . واللفظ الواصف هنا هو (القوم الظالمين) (١) . ومن سياق النص الذي وردت فيه الآية يتضح أنَّ النجاة كانت من (الملاء) من آل فرعون ، ولمعرفة المحال عليه لا بد من الرجوع إلى الآية (٢٠) وما قبلها من سورة القصص .

(١) انظر « الموقعية في النحو العربي : دراسة سياقية » ٣٠٥ .

ومن أمثلة هذا النوع من الإحالة ما يأتي :

الآية	اللفظ الواصف	التقدير	المحال عليه
﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الأعراف : ٤٧	الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ	لا تجعلنا معهم	﴿ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾
﴿ فَتَنَوْنَهُمْ وَقَالَ لَقَدْ أَخْلَفْنَاكُمْ بِرِسَالَتِي بَرِيٍّ وَفَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ الأعراف : ٩٣	قَوْمٍ كَافِرِينَ	آسى عليهم	﴿ يَنْقُورِ ﴾ أي : قوم شعيب
﴿ وَإِنْ كَثُرُوا أَيمَنُّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمَنُونَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ التوبة : ١٢	أَيْمَةَ الْكَافِرِ	فقاتلوهم	(المشركون) المذكورون في قوله : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ التوبة : ٧

(النبي ﷺ وأصحابه) المفهوم من السياق	ويشف صدوركم	قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ	﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ التوبة: ١٤
(الذين كفروا) المذكورون في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الْكَافِرِينَ كَفَرُوا﴾ الأنبياء: ٣٦	ولا يسمعون	الضُّمُّ	﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الضُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ الأنبياء: ٤٥
(الملا الذين كفروا وكذبوا) المذكورون في قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ المؤمنون: ٣٣	فبعدا لهم	لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ	﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّبِيحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُشَّةً بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ المؤمنون: ٤١

والفرق بين هذا النوع من الإحالة (اللفظ الواصف) والإحالة بالتكرار (إعادة الذكر بمعناه) أو بالترادف :

١ - أن هذا النوع يختص بما يفيد مدحاً أو ذمّاً . وهو ما لا يشترط في الإحالة بإعادة ذكر اللفظ بمعناه .

٢ - أن هذا النوع يكثر فيه أن يسبق اللفظ الواصف ضمير ، ويسبق هذا الضمير محالٌ عليه هو مفسر الضمير واللفظ الواصف معاً .

وهذا الضمير ليس بشرط وجوده في الإحالة بإعادة اللفظ بمعناه .

ومما يثبت دور هذا الصنف الإحالي في الربط والتماسك هو صحّة تقديره بالضمير ، كما اتضح لنا من خلال الجدول السابق .

الخاتمة

انطلق هذا البحث من معطيات علم اللغة النصي ، وذلك بتطبيق نظرية الإحالة على أحد أهم النصوص التي بنى عليها اللغويون والنحويون قواعدهم وهو النص القرآني ، وفي نهاية المطاف أشير إلى بعض النتائج التي توصلت إليها ، فيما يتعلق بعلم النص ، والتماسك النصي ، والإحالة النصية . وهي على النحو الآتي :

١ - إن اشتقاق النص ليس دخليًا على الثقافة العربية ، حيث ورد في المعجمات العربية ، وعند علماء أصول الفقه ، وقد مرّ بمراحل متعددة في استخدامه ، مما يعكس دور الثقافة العربية في تجليته وإبرازه . وقد مارس المتقدمون التعامل مع النص ، وارتبط لفظ النص لديهم بالقرآن الكريم .
أما النص (مصطلحًا) فلم يظهر إلا في اللسانيات الحديثة ، بعد العقد السادس من القرن العشرين الميلادي ، وقد تعددت مفاهيمه بتعدد المدارس والاتجاهات .

٢ - إن (نحو النص) مصطلحٌ ناشئ ، جاء في مقابل (نحو الجملة) ، وقد ظهرت ملامحه في العقد الثامن من القرن العشرين الميلادي ، ومنذ ذلك الحين شهدت الدراسات اللسانية اهتمامًا بقضايا النص .

وأشير إلى أن للعلماء العرب القدامى عناية واضحة تتجاوز حدود الجملة ، على نحو ما نجده عند ابن جني ، وكذلك نظرية النظم لدى عبد القاهر

الرجاني ، وبعض ما جاء به أبو هلال العسكري ، والسكاكي من خلال حديثه عن الجامع العقلي والجامع الوهمي بكونهما مفهومين دلاليين ، والجامع الخيالي بكونه مفهومًا تداوليًا ، وابن طباطبا وإشاراته المبكرة في عيار الشعر إلى فكرة التماسك ، والحائمي الذي تحدّث عن وحدة القصيدة وأنها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، وحازم القرطاجني من خلال حديثه عن تماسك الفصل وتماسك الفصول وعلاقة الجزء بالكل ، وعلاقة الخاص بالعام ، والسهيلي ، وابن هشام ... وغيرهم ، إضافة إلى علم المناسبة لدى مفسري النصّ القرآني .

وفي العصر الحديث نجد أنّ بعض البلاغيين العرب قطنَ في عام ١٩٣١ م إلى أهمية تجاوز الجملة إلى أفقٍ أوسع في الدرس والتحليل ، وهي الفقرة الأدبية ، والقطعة الكاملة من الشعر أو النثر . وقد تجاهل الدارسون المحدثون هذه الدعوة العربية القيمة والمبكرة إلى العناية بما هو أوسع من الجملة ، وكان ديدنهم نسبتها إلى الدارسين الغرب فحسب .

٣ - ليس المراد بـ (التماسك النصي) البحث عن وسائل تربط أول النص بآخره فحسب ، وليس المقصود الربط بين المتباعدات فقط ، بل يتحقق التماسك النصي من خلال الربط بأي مسافة تزيد على الجملة الواحدة ، ولا شك أنّ تعدّد تلك الروابط على مستوى الجملة في النص الواحد له أكبر الأثر في جعل النصّ كلًّا موحدًا .

٤ - إنّ وصفَ النصّ بـ (التماسك) أقرّه مجمع اللغة العربية في القاهرة ، من خلال ما جاء في « المعجم الوسيط » و « المعجم الوجيز » . فالنصّ بناء له أجزاء متعددة ، وجل مترابطة ، والتماسك : هو الترابط بين هذه الأجزاء والعناصر ، ولا داعي إلى الفرار إلى مصطلحات أخرى مثل : (الاتساق)

و (السبك) وغيرها ، بزعم أنّ التماسك مصطلح لا أصل له في العربية ، وأنه مأخوذ من الكيمياء ... إلخ . وأرى أنّ كلمة (التماسك) أشدّ تعبيراً عن المعنى المراد من كلمة (السبك) أو (الاتساق) ؛ لذا فقد اعتمدتُ إطلاق مصطلح (التماسك) مقابلاً عربياً لمصطلح (cohesion) في سائر البحث ، مع عدم تخطئة (السبك) و (الاتساق) ، بل قد أستخدمهما في بعض المواضع .

٥ - وضعتُ تعريفاً شاملاً للإحالة قلتُ فيه : إنها عملية معنوية ، ينشؤها المتكلم في ذهن المخاطب ، عن طريق إيراده ألفاظاً مبهمّة الدلالة ، يشيرُ بها إلى أشياء أو مواقف أو أشخاص أو عبارات أو ألفاظ خارج النصّ أو داخله ، سابقة عليها أو لاحقة ، في سياق لغوي أو غير لغوي ، يقصد بذلك الاقتصاد في اللفظ ، وربطِ اللاحق بالسابق والعكس ، بما يحقق الاستمرارية والتماسك في النصّ .

ويؤكد هذا التعريف دورَ العملية التواصلية بأركانها الثلاثة (المتكلم ، والنص ، والمخاطب) ، ودورَ السياق اللغوي وغير اللغوي ، والهدف من عملية الإحالة ، ثم الأثر الذي تتركه في الحدثِ التواصلِيّ .

٦ - للإحالة دورٌ مهمٌ في تحقيق التماسك الخارجي للنص ، حيث تقوم بربط النصّ بالعالم الذهني الذي يواكبه ويشكّل مرجعيّته .

٧ - وتعدّ الإحالة الداخلية القبليّة (anaphora) هي الأكثر انتشاراً داخل النصّ ، ولها دور مهمٌ في تحقيق التماسك ، وهذه الكثرة والاستمرارية تؤكّد ضرورة وجود تلك العناصر المحال إليها وجوداً فاعلاً على مدار النصّ ، إذ تمثل الأساس الذي يحمل معانيه وأفكار صاحبه .

٨ - الإحالة الداخلية البعدية (cataphora) يكثر استعمالها في إيضاح شيء مجهول أو مشكوك فيه ، لهذا فهي تعمل على تكثيف اهتمام المتلقي ، وتحثه على مواصلة القراءة .

٩ - أكدت عناية العلماء العرب القدامى بـ (سياق الحال) ، حيث بين اللغويون أن المعاني لا يمكن الوصول إليها إلا بمعرفة الظروف التي أحاطت بها . وقد أوردت في ذلك نصوصاً لسيبويه والمبرد وابن جني وغيرهم .

أما البلاغيون فقد عنوا بدراسة السياق اللغوي وغير اللغوي ، واشتهرت عنهم مقولة : (لكل مقام مقال) ، كما في كتب الجاحظ والزمخشري وغيرهم . وكذا المفسرون الذين عنوا بعلم المناسبة وأسباب النزول ، وفي كتبهم دلائل كافية تؤكد هذا الاهتمام السابق على نظرية السياق في ثوبها الحديث المنسوبة إلى مالينوفسكي وتلميذه فيرث ومدرسته .

١٠ - أكدت إمكانية دراسة السياق غير اللغوي لنص مكتوب (القصص القرآني) ، وذلك بالبحث عن الظروف والملابسات المصاحبة للنص ، والمدونة كتابةً ، من خلال كتب السنة والسيرة والتفسير وأسباب النزول .. وغيرها . ويجب على من يتصدى لاستخراج الأحكام من النص القرآني أموراً لا ينبغي أن يغفل عنها ، وتعد بمثابة الظروف والملابسة لنزول النص القرآني منها :

- معرفة أن القرآن يفسر بعضه بعضاً . (العناية بالسياق الداخلي) .
- معرفة أن القرآن قد يُفسر بالسنة أو الشعر (العناية بالسياق الخارجي).
- معرفة أسباب نزول الآيات .
- معرفة النظم الاجتماعية عند العرب .

١١ - أَكَّدْتُ أَنَّ علماءَ العربية (سيبويه ، وعبد القاهر ، والسهيلي ، وابن يعيش .. وغيرهم) لم يكونوا بعيدين عن إدراك دور (المتلقي) في عملية الاتصال الكلامي ، بل جعله بعضهم الباعث إلى التعبير عما في نفس المتكلم . فـ « الكلام صفة قائمة في نفس المتكلم يعبر للمخاطب عنه بلفظ ، أو لحظ ، أو خطأ ، ولولا المخاطب ما احتيج إلى التعبير عما في نفس المتكلم » .

وهم في ذلك سابقون في الإشارة إلى القدرة الكلامية الكامنة في نفس المتكلم ، التي يعبر عنها تشومسكي بمصطلحه المشهور (competence) .

وسابقون في الإشارة إلى أَنَّ عملية التواصل قد تكون بوسائل لغوية (لفظ) ، وغير لغوية (لحظ) و (خطأ) ، وأنَّ المخاطب شريك لا بد منه في الاتصال الكلامي .

وهو ما أكدّه اللغويون المحدثون ، هتشل وويت وهاز ... وغيرهم .

١٢ - أثبتُّ أَنَّ القرآن الكريم جاء كالكلمة الواحدة على الرغم من أنّه نزل في أوقات متفرقة وأماكن متعددة ، واستمرّ نزوله منجماً نيفاً وعشرين سنة ، وسبب ذلك الترابط اتّحاد العناصر الاتصالية فيه ، فالقرآن رسالة ، والمرسل هو الله عزّ وجلّ ، والمتلقي الأوّل هو الرسول الكريم محمد ﷺ ، وهناك مخاطبون آخرون تتمّ مخاطبتهم عن طريق المتلقي الأوّل ، وقد أدّى تنوّع المخاطبين إلى تنوّع الخطاب القرآني وتدرّجه في مستويات عدّة بحسب المخاطبين وظروف الخطاب .

١٣ - يعدّ عبد القاهر الجرجاني أفضل مَنْ عالَج موضوع الانسجام النصّي على المستوى الدلالي ، حيث بنى نظرية النظم على التعالق بين الألفاظ والجمل ، فيرى أَنَّ المستوى العالي من النّظم هو الذي يتّسم بالتماسك . وقد سبق

بمقولاته التي كشفت عن سبل التماسك والانسجام النصي ما توصلت إليه الدراسات اللغوية النفسية الحديثة التي تتناول عملية إنتاج النص اللغوي بعدة قرون .

١٤ - أكدت أن للخطاب القرآني عناصر سياقية خاصة تتمثل في (المخاطب، والمخاطب، وموضوع الخطاب وغرضه، ومكان نزوله، وزمانه، وسبب نزوله) . وفي ذلك بيان لخصوصية النص القرآني من بين سائر النصوص في عملية التحليل اللغوي والنصي .

١٥ - أكدت أهمية العناية بالجملة الأولى أو الفقرة الأولى في أي نص، هذه الجملة تمثل محورًا يرتبط به كل ما في النص من عناصر عن طريق شبكة من وسائل التماسك النصي في الشكل والدلالة، ومن بينها إحالات الضمائر، وتتميز هذه الجملة بطاقة هائلة تكسبها القدرة على التحكم في تحديد اتجاهات الإحالة، فغالبًا ما تحوي الجملة الأساس للنص (النواة) (Base of the text) العنصر الإشاري الأبرز في النص، أو ما يمكن أن يطلق عليه (المركز الضوئي) في النص، فإذا ابتدأت الجملة الأولى بحديث عن غائب فإن الضمائر الوجودية هي التي تُسيطر على النص، وإذا ابتدأت بحديث عن متكلم أو مخاطب فإن الضمائر الملكية هي التي ستسود النص .

وقد وضحت ذلك في أثناء تحليلي قصة ابني آدم، وقصة البقرة، وأصحاب الكهف، وعيس، وغيرها .

١٦ - أكدت دور العناصر الإحالية في الكشف عن المحور الأساس الذي بُني من أجله النص، فغالبًا ما يكون العنصر الإشاري الذي يرتبط بأكبر عدد من العناصر الإحالية ذا دور رئيس في دلالة النص وفكرته .

١٧ - تمثل الإحالة القبلية أكثر الإحالات شيوعاً في القصص القرآني . لما فيها من اليسر وسهولة الفهم بالنسبة إلى المتلقي ؛ لأنّ الاسم حين يُذكر ثم يذكر بعده الضمير اختصاراً وعوضاً عن تكرار العنصر الإشاري لا يجد متلقي النص صعوبة في فهم المقصود من الضمير حيث إنه ذُكر من قبل ؛ ولأنّ اللغة تميل إلى الوضوح وعدم الإبهام كانت أكثر ميلاً إلى الإحالة القبلية .

١٨ - نستطيع القول إنّ للنحو العربي عناية فائقة بترتيب المكونات في الجملة بناءً على هندسة الجملة العربية على نظام المحلّات الإعرابية ، ولقد وجدنا فيه مواضع الضمير المتقدّم على مفسّره محدّدة بدقّة ، ولعلّ ذلك راجع إلى أنّ الإحالة على متأخر في العربية ظاهرة مميزة ربّما تكون في العربية أبرز مما هي عليه في كثير من اللغات .

ولقد لاقت هذه الظاهرة في اللسانيات الغربية الحديثة اهتماماً واضحاً في حين لم تحظَ باهتمام العرب المعاصرين ، على الرغم من أنّ العرب القدامى قد نبّهوا إليها وقتئذٍ .

١٩ - ألمحتُ إلى وجوب التنبيه إلى الإحالة السياقية من خلال مبدأ التحاول (coreference) الذي يساعدنا في تفسير الإحالات الضميرية بصورة دقيقة وصحيحة ، وهو ما لم يلتفت إليه معظم اللغويين والمفسرين ، وعن طريق هذا المبدأ نستطيع نفي القول بالترادف التام بين الضمير وما يحيل عليه .

٢٠ - الإحالة هي إستراتيجية عقلية يستند إليها منشئ النص حين يقوم بعملية الاقتصاد في الفقرة ، فالإقتصاد حاصل بالإضمار فقط من دون الإحالة ، والإحالة هي مسوّغ الاقتصاد عقلياً .

٢١ - ناقشتُ مقولةَ القائلين بأن الضمائر مفرّغة من الدلالة ، أو فارغة المحتوى ، أو أنها أدوات جوفاء ، وهو ما ذهب إليه أكثرُ اللسانيين ، وأثبتُ أنّ الضميرَ وحدةٌ لغويةٌ ذاتُ دلالةٍ ، وليس مفرّغاً من الدلالة كما يقولون ، وإلا فما الذي يمنع المتكلّم من اختيارِ وحدةٍ لغويةٍ غيرها إن لم تكن مختزنةٌ لدلالةٍ مناسبةٍ لمقصده ؟ وما الذي يمنعه من استخدام (هو) مكان (أنا) أو (هي) مكان (أنت) مادام أنّها مفرّغة من الدلالة وأنّ الذي يحددها هو ما تشير إليه ؟

لأجل ذلك أفضّل القول بأنّ الضمير (مبهم الدلالة) وليس (فارغ الدلالة) ، ويرتبطُ بالإبهام عدمُ الوضوح ، ونقصانُ الدلالة ، وليس فراغها ، والافتقارُ إلى مفسّر للضمير سواء كان اسماً ظاهراً أو غيره ، يكتسبُ الضميرُ بواسطته صفةَ التعريف .

٢٢ - أثبتُ عنايةَ النحويين القدامى بالضمير وشروطه ، ودوره في عملية ربطِ أجزاءِ الجملة ببعضها ، كما تنبّهوا إلى المرجعِ الإشاري ، وأطلقوا عليه مصطلحَ (المفسّر) ، والمحو إلى الجانبِ التداولي في عملية الإضمار ، إذ لا تتم من جهةِ المتكلّم وحده ، بل هي عمليةٌ مشتركةٌ بين المتكلّم والمتلقّي ، وأنّ دورَ المتلقّي في فهمِ مرجعيةِ الضمير تتمثّل في معرفته السابقة بالمضمّر .

٢٣ - أثبتُ أنّ غالبَ جهودِ النحويين القدامى ظلّت محصورةً في نطاقِ الجملة أو الجملتين ، ولم يتحدّثوا عن امتدادِ الضمير في النصّ كلّهُ ، ولم يتناولوا دورَ الضمائر في جعلِ النصّ وحدةً متماسكةً ، وهو ما دفعنا إلى اقتحامِ هذا المضمارِ لإتمام ما تركه علماؤنا السابقون .

٢٤ - أثبتُ أنّ الذي دَفَعَ العديدَ من العلماء إلى دراسةِ الضمائر في القرآن الكريم هو تلك المصاعبُ التي تُواجهُ المتلقّي في أثناءِ فهمِهِ لإحالاتِ الضمائر ، إذ

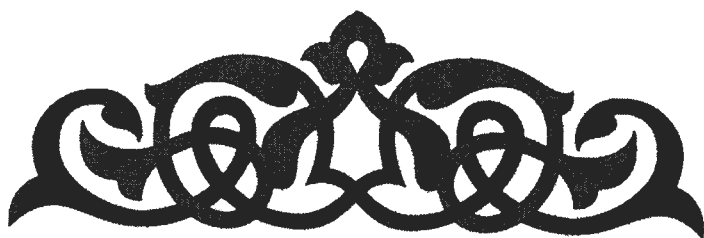
تلبّدت في كثير من مواضعها بالغموض تارةً ، وبتعدّد الإحالات تارةً أخرى وبصورة تُثيرُ المتلقّي وتَقْذِفُ في نفسه الحيرةَ ، مما دفعنا إلى اللجوء إلى المنهج السياقي وغيره في حلّ تلك الإشكالية .

٢٥ - أثبتُّ أنّ الإحالة بالضمير هي أكثرُ الإحالات شيوعاً ، وهو ما يؤكّد المهمة التي تؤديها الضمائر في عمليّة ربط الكلام ووصل أجزاءه بعضها ببعض ، وذلك لعوامل كثيرة منها الخفّة والاختصار ، وهما مذهب من مذاهب العربية في كلامها .

٢٦ - تفسير التحوّلات في السياق الواحد في الخطاب القرآني من خلال مفهوم (تعليق النص) ، ونقصد به : « دراسة ما يقوم عليه النص من انتقالات في آفاقه الموضوعية وفي بنيته ، وما تخضع له من قيم واشتراطات تعبيرية وبنائية » . وهو مصطلح منبثق من مصطلح الالتفات ، ولكنه يقدّم فضاءً متسعاً لتفحص النص في وجوده الدلالي والبنائي ، وهو ما لا نجده في تداول مفهوم (الالتفات) .

٢٧ - لا بدّ من القول إنّ التماسك النصّي لا يتوقّف على وجود الإحالة أو غيرها من وسائل التماسك النصّي وحدها ، فواقع الأمر أنّ هذه الوسائل مع أهميتها قد لا تكون كافيةً في إضفاء سمة التماسك على النصّ ، فقد يكون الرابط بين أجزاء النصّ المناسبة السياقية ، وما تتضمنه البنية العميقة والسياقات الكامنة من صلاتٍ ، أو ما يجده المخاطب من علاقات بين أجزاء الخطاب في عناصر السياق الخارجية ، مستعيناً في ذلك بقدراته العقلية في الربط بين تلك العناصر .

والحمد لله ربّ العالمين ،،،



المحتوى



١ - المصطلحات^(١)

الصفحة	المصطلح العربي	المصطلح الأجنبي
٧٨	القبول	Acceptability
٥٠٦	تحقق الملفوظ	Actualisation
٦٤	المرسل (المخاطب)	Addresser
١٢٠	الإحالة الداخلية القبلية	Anaphora
٦٧٧	العناصر الإحالية	Anaphors
٢٠٣	الإحالة على مفسر	Antecedent
١٥٣	متخالفان	Antonyms
٢٢٨	فواصل تركيبية	Barriers
٤٧	الأساس	Base
٢٣٠	الجملة الأساس للنص (النواة)	Base of the text
٥٧١	رابط	Binder
٢٠٩	مقيّد	Bound
١٩٢	الإحالة الداخلية البعيدة	Cataphora
٤٧	العناصر المقولية	Catégories
٥٨٤	القضية الأساس	Central proposition
٥٦٦	القسم المغلق أو المنتهي	Classe fermée
١٢٨	الحذف داخل ما يشبه الجملة	Clausal Ellipsis
١٢٣	الاستبدال القولي	Clausal Substitution
٦١٥	متواصلات	Co - Hyponyms
١٦٩	الإحالة داخل النص	co - reference
٦٤	الشفرة / اللغة	Code

(١) قائمة بالمصطلحات اللاتينية الواردة بالبحث . أثبت رقم الصفحة التي ورد فيها المصطلح لأول مرة .

الصفحة	المصطلح العربي	المصطلح الأجنبي
٢٤	الانسجام أو الحبيك	Coherence
٢٤	التماسك أو السبك	Cohesion
١٤٤	الربط بالأدوات	Cohesion by conjunction
١٥٣	التضام	Collocation
٧٥	التواصل (التبليغ)	Communicate
٦٨١	القدرة الكلامية	Competence
١٥٣	التباين	Complementarits
٦٠٧	التكرار للمعجمي للركب	Complex lexical repetition
١٥٦	المفاهيم	Concepts
١٢٠	المطف أو الربط	Conjunction
١٥٦	التلاحم	Connectedness
١٧٧	الربط الإحالي	Connection anaphorice
٦٤	الاتصال	Contact
١٨١	السياق	context
٢٦١	سياق الحال / الموقف	Context of Situation
١٤٧	الاستدراك	Contrajunction
١٨٤	العنصر المراقب	Controller
١٥٣	متعاكسان	Converse
٣٧٢	الضمير الرابطة (ضمير الفصل)	Copula
٢٣٤	الإحالة السياقية (مبدأ التحاول)	Coreference
١٧٩	الإحالة على المدى البعيد	Cross - Reference
٤٧٠	ضمير التأكيد	Das Pronomder Verstarkung
٢٤٠	معلومة مؤكدة	Datum Assertionis
٢٤٠	الوصف للمحدد	Definite Description
٥٠٥	للمقام الإشاري	Deictic context
١٩٥	العناصر الإشارية	Deictic Elements
٥٠٠	التعابير الإشارية (المبهات)	Deictic Expressions
١٨٣	الحقل الإشاري	Deictic field
٥٠٠	الإشارة	Deixis
٥٣٧	ضمائر الإشارة	Demostrative pronouns

الصفحة	المصطلح العربي	المصطلح الأجنبي
٦٠٧	الألفاظ المشتقة	Derivatives
٣٠	الخطاب	discourse
٨٦	تحليل الخطاب	Discourse Analysis
١٤٧	التخيير	Disjunction
٥٠٥	الأنَا	Ego
١٢٠	الحذف	Ellipsis
٣٧٤	واصلة	Embrayeur
٢١٩	الإحالة الداخلية	Endophora
٢٠٣	الإحالة الداخلية (النصية)	Endophoric reference
٢٠٤	الإحالة التكرارية	Epanaphora
١٩٥	الإحالة الخارجية (المقامية)	Exophoric reference
٣٦٨	المصادق	Extension
٢٧٧	خصائص السياق	Features of context
٨٠	للمجال	Field
٢٧٣	الشكل	Form
٢٠٩	حرّ	Free
٦٠٥	التكرار الكلي	Full recurrence
٢٠٦	تحليل مشوّش	Fuzzy parsing
١٥٤	صنف عام	General class
٦١٧	الكلمات العامة	General words
٨٣	نحو النص	Grammaire du texte
٦٠٦	المشترك اللفظي	Homonymy
٦١٥	التواصل (كلمة منضوية)	Hyponymy
١٨٣	مَعْلَم	Index
٧٨	الإفادة أو الإعلامية	Informativity
٣٦٨	مفهوم	Intension
٧٨	النية أو القصد	Intentionality
٥٣٨	الضمائر الاستفهامية	Interrogative pronouns

الصفحة	المصطلح العربي	المصطلح الأجنبي
٨٥	العلاقات ما بين الجمل	intersentential relations
٧٨	التناص	Intertextuality
٨٤	المكونات التركيبية داخل الجملة	intra sentential constituents
١٤٥	ربط وظيفي	Junction
٣٦٢	المرجع المشترك	Koreferenz
٧٤	اللغة	Langue
٤٧	المعجم	Lexicon
٢١٨	الإحالة المعجمية	Lexophora
٣٥٢	قناع	mask
٣٦٨	معنى	Meaning
٢٨٢	الإفادة	Meaningfulness
٦٤	رسالة	Message
٨٠	نوع الخطاب	Mode
٤٧١	صرفم صفر	Morpheme Zero
٣٧٥	الصرافم	Morphèmes
٤٩٧	أسماء	Namen
٥٣٨	ضمائر النفي	Negative pronouns
١٢٢	الاستبدال الاسمي	Nominal Substitution
٢٣٨	التضافر الاسمي	Nominal Verflechtung
٢٥١	الإسهاب الاسمي	Nominal abundance
١٢٨	الاجتزاء الاسمي (الحذف الاسمي)	Nominal ellipse
٣٦٨	مسمى	Nominatum
٢٤٣	التجريب	Operationalisierung
١٥٣	متضادان	Opposites
١٥٤	سلسلة مرتبة	Ordered Series
٤٢٦	أدوار أخرى	Other roles
٨٥	الفقرة	paragraph
٦١٠	التوازي (التكرار التركيبي)	Parallelism
٦٠٩	إعادة الصياغة	Paraphrase

الصفحة	المصطلح العربي	المصطلح الأجنبي
١٥٤	الجزء للجزء	Part to part
١٥٤	الكل للجزء	Part to Whole
٦٠٧	التكرار الجزئي	Partial recurrence
١٤٢	الأدوات المنطقية	Particules Logiques
٣٥٢	الشخصية المسرحية	Persona
٥٣٧	الضمائر الشخصية	Personal pronouns
٧٤	جملة النظام	Phrase de systeme
٧٤	جملة النص	Phrase de texte
٦٠٦	تعدد المعنى	polysemy
٥٣٧	الضمائر الملكية	Possessive pronouns
٦٤١	الافتراض المسبق	presupposition
١٦٩	إضمار المكمل	pro - complement
١٦٩	الصيغ الكنائية	pro - forms
٣٦٢	بديل المواصلة	Pro - fortfuehrung
١٦٩	إضمار الاسم	pro - noun
١٦٩	إضمار الفعل	pro - verb
٣٦٢	الكلمة الشاملة	Proform
١٨٤	أشباه الكلمات - الألفاظ الكنائية	pro-forms
٤٧١	ضمير رابطة (ضمير الفصل)	Pronom copule
٣٦٢	الضمير	pronomina
٣٦١	الترابط الضميري	Pronominale Verkettung
٥٣٨	الضمائر الكمية	Quantifier pronouns
٥٣٨	الضمائر التبادلية	Reciprocal pronouns
١٢٠	التكرار	Recurrence
٢٥٧	الحشو	Redundancy
٣٠	الإحالة	Reference
٣٦٢	الإحالة الموحدة	Refernzidentitaet
٥٣٧	الضمائر الانعكاسية	Reflexive pronouns
١٥٢	التكرار	Reiteration
١٥٦	العلاقات	Relations

المصطلح الأجنبي	المصطلح العربي	الصفحة
Relative pronouns	ضمائر الوصل	٥٣٨
Repeated	التكرار	٥٨٠
Reprocessing	تحليل جديد للنص	٢٠٤
repudiation	الاستبعاد	١٢١
Sequencing	التتابع الرصفي	١١٨
Simple lexical repetition	التكرار المعجمي البسيط	٦٠٥
Simple paraphrase	إعادة الصياغة البسيطة	٦٠٥
Situation	الموقف	٢٧٣
Situational Context	سياق الموقف	٢٦٥
Situationality	المقامية أو مراعاة الموقف	٧٨
Some Aspects Text Grammar	ملامح نحو النص	٨٨
Speech roles	أدوار الكلام	٤٢٦
Stick together	الاتصاق	١٠٩
Stretch of Text	امتداد النص	٦٠٨
Subordination	التفريع	١٤٧
Substitut	معوض	٤٨١
Substitution	الاستبدال	١٢٠
Substitution by Zero	استبدال بالصفري	١٢٥
SuperOrdinate word	الكلمة الشاملة (الأساس المجموعي)	٦١٥
Surface text	ظاهر النص	١١٨
Symbolfeld	الرمز	٤٩٦
Synonym or Near - Synonymy	الترادف أو شبه الترادف	٦٠٨
Syntagmatische Substitution	الإبدال النظمي بالضمار	٣٦١
System Sentence	جملة نظام	٦٩
Tenor	المشركون في الخطاب	٨٠
Texophora	الإحالة المقطعية	٢١٩
Text	نص	٣٠
text grammar (Linguistics of Text)	نحو النص	٨٣

الصفحة	المصطلح العربي	المصطلح الأجنبي
٧٠	جملة نصية	Text Sentence
٥٢	الكتاب المقدس	texte
١٥٦	عالم النص	Textual World
٢٦٦	النظرية السياقية للمعنى	The contextual theory of meaning
٦٠٥	التكرار المباشر للعنصر المعجمي	The Direct Repetition
٦٠٥	الكلمة نفسها	The same word
٤٢١	الموضوع	Theme
٥٢	نسيج	tissue
٥٧٨	الفكرة الأساسية	Topic
٢٣٩	التبشير	Topikalisierung
٦٠٦	تكرار كلي	Total repetition
٢٤٧	علاقة كلّ بجزء	Totum – Partes Relation
٤٧	تحويلات	Transformations
١٢٨	الحذف الفعلي	Verbal ellipsis
١٢٢	الاستبدال الفعلي	Verbal Substitution
٣٠٧	معرفة العالم	World knowledge
٤٩٧	الكلمات الإشارية	Zeigwörter

٢ - المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

- آراء في الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث ، د. خليل عناية . دار البشير ، ط١ ، ١٩٨٩ م .
- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، د. محمود نحلة ، دار المعرفة ، الإسكندرية ، ٢٠٠٢ م .
- الإبداع الموازي : التحليل النصي للشعر ، د. محمد حسنة عبد اللطيف ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، ٢٠٠١ م .
- الإيهام والمبهمات في النحو العربي ، د. إبراهيم إبراهيم بركات ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٠ م .
- اتساق النص في سورة الكهف ، د. فريد عوض حيدر ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ط١ .
- الإتيقان في علوم القرآن ، السيوطي ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م .
- اجتهادات لغوية ، د. غمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م .
- الإحكام في أصول الأحكام ، ابن حزم ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، د.ت .
- أحكام القرآن ، الشافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ .
- ارتشاف الضرب من لسان العرب ، أبو حيان ، تح : د. رجب عثمان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) ، مطبعة عبد الرحمن محمد ، القاهرة ، د.ت .
- أساس البلاغة ، الزغشري ، تح : عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- أسباب النزول ، لعلي بن أحمد الواحدي النيسابوري ، تح : عصام الحميدان ، دار الإصلاح ، الدمام ، ط٢ ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
- إستراتيجيات الخطاب : مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي الشهري ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤ م .
- أسرار التكرار في لغة القرآن ، د. محمود السيد شيخون ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م .
- أسرار العربية ، ابن الأنباري ، تح : د. فخر قدارة ، دار الجليل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٥ هـ .
- أسس اللغة العربية الفصحى ، أ.د. فالح العجمي ، الرياض ، ٢٠٠١ م .
- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ، د. حسن طبل ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٨ م .
- الأسلوبية والأسلوب ، د. عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، ط٣ ، د.ت .

- الأسلوبية وتحليل الخطاب، د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط ١، ٢٠٠٢ م.
- الأسلوبية ونظرية النص، د. إبراهيم خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- الاسم والصفة في النحو العربي والدراسات الأوروبية، د. محمود نحلة، الإسكندرية، ١٩٩٤ م.
- الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي، تح: د. عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٥ م.
- أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس نحو النص، محمد الشاوش، جامعة منوبة، كلية الآداب، تونس، ٢٠٠١ م.
- الأضداد، ابن الأنباري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف خرما، سلسلة عالم المعرفة (٩)، الكويت، ١٩٨٧ م.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ابن خالويه، تح: عبد الرحيم محمود، مؤسسة الإيهان، بيروت، د.ت.
- إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، تح: هارون غازي زاهر، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨ م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تح: مشهور آل سلمان، دار ابن الجوزي، الدمام، ط ١، ١٤٢٣ هـ.
- الأقصى القريب في علم البيان، زين الدين التنوخي، مطبعة السعادة، مصر، ط ١، ١٣٢٧ هـ.
- الألفية: علم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام، د. ميشال زكريا، مطبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- الأم، الشافعي، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠ م.
- أمالي ابن الحاجب، تح: د. فخر قدارة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩ م.
- انتفاع النص الروائي: النص والسياق، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠٠١ م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٨ م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط ٤، ١٩٩٨ م.
- البحر المحیط، أبو حيان، السعادة، ١٣٢٨ هـ.
- البحر المحیط في أصول الفقه، الزركشي، تح: عبد القادر العاني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ط ٢، ١٩٩٢ م.
- بحوث ألسنية عربية، د. ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م.
- بدائع القرآن، ابن أبي الأصبح، تح: حفني محمد شرف، دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١، ١٣٧٧ هـ.
- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د. جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩ م.
- بديع التراكيب في شعر أبي نغم: الجمل والأسلوب، د. منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط ١، د.ت.
- البرهان في توجيه مشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان (أسرار التكرار في القرآن)، الكرمانلي، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت.

- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوندجان، ط١، ١٩٩٦م.
- البلاغة العربية، د. عبد الرحمن حبنكة، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٦هـ.
- بلاغة النص: مدخل نظري ودراسة تطبيقية، د. جميل عبد المجيد، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٩م.
- البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
- بناء الجملة العربية، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، الكويت، ١٩٩٦م.
- بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، يوسف بكار، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٢م.
- البناء الموازي: نظرية في بناء الكلمة وبناء الجملة، د. عبد القادر القاسمي الفهري، دار توفيق، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠م.
- بنية الخطاب من الجملة إلى النص (قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية)، د. أحمد المتوكل، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ٢٠٠١م.
- البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- التبيان في إعراب القرآن، العكبري، تح: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، د.ت.
- تداخل النصوص في الرواية العربية، حسن محمد حامد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.
- التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان، تح: د. حسن هندراوي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
- التراكيب الشائعة في اللغة العربية: دراسة إحصائية، د. محمد علي الخولي، دار الفلاح للنشر، الأردن، ١٩٩٨م.
- التسهيل (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد)، ابن مالك، تح: محمد كامل بركات، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية المتحدة، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.
- التشابه والاختلاف: نحو منهجية شمولية، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٦م.
- التصريح بمضمون التوضيح، خالد الأزهرى، تح: د. عبد الفتاح بحيري، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
- التصور اللغوي عند الأصوليين، السيد أحمد عبد الغفار، مكتبات عكاظ للنشر، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٨م.
- التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، دار عمار، عمان، ط٤، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- التعريف والتذكير بين الدلالة والشكل، د. محمود نحلة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٩م.
- التعريفات، الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م.
- تعليق الفرائد حل تسهيل الفوائد، الدماميني، تح: د. محمد المفدى، ١٤٠٣هـ - ١٤١٥هـ.
- تفسير أبي السعود. انظر (إرشاد العقل السليم).

- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
- تفسير الشنقي، عبد الله بن محمود الشنقي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة. د.ت.
- التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- التلخيص والتأويل: مقارنة نسقية، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠٠١م.
- التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبو زيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة محمد الخامس بالرباط، ١٩٩٢م.
- التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو الداني، تح: أوتو يرتزل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
- ثراء المعنى في القرآن الكريم، د. محمد خليل جيجك، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ثمار الصناعة في علم العربية، الجليل الحسين بن موسى الدينوري، تح: د. محمد الفاضل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط ١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، ابن جرير الطبري، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١م.
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تح: هشام سمير البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م.
- جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوندجان، ط ١، ١٩٩٥م.
- جملة الصلة في العربية والإنجليزية: دراسة تقابلية، عبد العزيز العقيل، دار العلوم للطباعة، الرياض، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- الجمل في النحو، للزجاجي، تح: د. علي توفيق الحمد، الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.
- الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، تح: د. فخر الدين قباوة، و محمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- حاشية التفازاني على الكشاف (مطبوع على حاشية الكشاف)، بيروت، د.ت.
- حاشية الحضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ضبط: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
- حاشية الدسوقي على مختصر السعد (شرح تلخيص المفتاح)، تح: خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢م.
- حاشية على شرح الفاكهي لقطر الندى، ياسين العلمي، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٠هـ، ١٩٧١م.
- حاشية ياسين العلمي على التصريح، (ضمن كتاب: شرح التصريح على التوضيح للأزهري)، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.

- الحجة في القراءات السبع ، ابن خالويه ، تح: د. عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ، بيروت ، ط ٣ ، ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م.
- الحدود في الأصول ، الباجي ، مؤسسة الزعبي للطباعة والنشر ، ١٩٧٣ م.
- حدود النص الأدبي: دراسة في التنظير والإبداع ، صدوق نور الدين ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٤ م.
- الحروف ، أبو النصر الفارابي ، تح: محسن مهدي ، دار المشرق ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٠ م.
- الخصائص ، ابن جني ، تح: محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ٢ ، د.ت.
- خصائص التراكمات : دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، د. محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م.
- الخطاب الأدبي من النشأة إلى التلقي مع دراسة تحليلية نموذجية ، نواري سعودي أبو زيد ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م.
- الخطاب العربي المعاصر : دراسة تحليلية نقدية ، محمد الجابري ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٩٤ م.
- الخطاب القرآني : دراسة في العلاقة بين النص والسياق ، مثل من سورة البقرة ، د. خلود العموش ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، ط ١ ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- الخطيئة والتكفير من النبوة إلى الشريعة ، د. عبد الله الغدامي ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، ط ١ ، ١٩٨٥ م.
- الخلاصة النحوية ، د. تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- الخواطر الحسان في المعاني والبيان ، جبر ضومط ، مطبعة الوفاء ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٣٠ م.
- خواطر من تأمل لغة القرآن الكريم ، د. تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- دراسات حديثة في اللغة والنحو وأثر الترجمة في العربية ، د. طالب عبد الرحمن. مركز عبادي ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ.
- دراسات في لغة النص ، د. طارق شلبي ، ٢٠٠٠ م.
- دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي ، د. أحمد المتوكل ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- دراسات قرآنية ، محمد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣ م.
- دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، د. سعيد بحيري ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، د.ت.
- دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية ، د. سليمان الطراونة ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م.
- الدرس التحوي النصي في كتب إعجاز القرآن الكريم ، د. أشرف عبد البديع ، دار فرحة ، المنيا ، ٢٠٠٣ م.
- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تح: محمود شاكر ، الخانجي ، القاهرة ، د.ت.
- دلالة السياق ، د. ردة الله الطلحي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ.
- دلالة السياق في القصص القرآني ، د. محمد العبيدي ، وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- الدلالة والنحو ، د. صلاح الدين صالح حسنين ، ط ١ ، د.ت.

- دليل الناقد الأدبي ، ميجان الرويلي وسعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط ٣ ، ٢٠٠٢ م .
- دينامية النص : تنظير وإنجاز ، د. محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٩٩٠ م .
- ديوان الفرزدق ، دار بيروت ، ١٤٠٠ هـ .
- ديوان البحترى ، تح : عمر الطباع ، دار الأرقم ، ط ١ ، ٢٠٠١ م .
- ديوان تأييد شراً وأخباره ، جمع : علي ذو الفقار شاكر ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، ١٩٨٤ م .
- ديوان علقمة بن عبدة الفحل ، رواية الأصمعي عن الأعمى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٤ هـ .
- ديوان ليث بن أبي ربيعة العامري ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ .
- الرسالة ، الشافعي ، تح : أحمد شاكر ، د. ط ، د. ت .
- وصف المباني في شرح حروف المعاني ، المألقي ، تح : د. أحمد الخراط ، دار القلم ، دمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م .
- روائع الإعجاز في القصص القرآني : دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز ، د. محمود السيد حسن ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، ط ٢ ، ٢٠٠٣ م .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، الألومي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ .
- سر صناعة الإهراب ، ابن جني ، تح : د. حسن هنداي ، دار القلم ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- سر صناعة الإهراب ، ابن جني ، تح : مصطفى السقا وآخرين ، إدارة إحياء التراث القديم ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٧٤ هـ ، ١٩٥٤ م .
- السياق والنص الشعري : من البنية إلى القراءة ، علي آيت أوشان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .
- شرح ابن عقيل ، تح : قاسم الشّاعبي ، دار القلم ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ .
- شرح الأشموني لألفية ابن مالك (منهج السالك إلى ألفية ابن مالك) ، تح : عبد الحميد السيد ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، ١٩٩٣ م .
- شرح الحدود النحوية ، الفاكهي ، تح : د. صالح العايد ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤١١ هـ ، ١٩٩٠ م .
- شرح الرضي على الكافية ، تح : يوسف حسن عمر ، إستانبول ، ١٣٠٥ هـ .
- شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ، تح : د. حسن الحفظي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ط ١ ، ١٩٩٦ م .
- شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ، تح : د. مصري ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ط ١ ، ١٩٩٦ م .
- شرح المفصل ، ابن يعيش ، عالم الكتب ، بيروت ، د. ت .
- شرح ديوان امرئ القيس ، حسن السندوي ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، ط ٧ ، ١٩٨٢ م .
- شرح ديوان طرفة بن العبد ، د. سعد الضناوي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ .

- شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل ، الأعلام الشتمري ، تح: د. حنا نصر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٣ م.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، ابن هشام ، تح: محي الدين عبد الحميد. د. ط، د. ت.
- شرح عمدة الحفاظ وعمدة اللائظ ، ابن مالك ، تح : د. عدنان الدوري ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م.
- شرح كافية ابن الحاجب، بدر الدين بن جماعة، تح: د. محمد محمد داود، دار المنار، القاهرة، ٢٠٠٠ م.
- شروح التلخيص، التفتازاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٤ .
- صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، دار الصابوني ، القاهرة ، ط ٩ ، د. ت .
- الصناعتين : الكتابة والشعر ، أبو هلال العسكري ، تح : علي البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م.
- الضائائر المنعكسة في اللغة العربية ، د. محمود أحمد نحلة ، دار العلوم العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ.
- الضائائر في اللغة العربية ، د. محمد عبد الله جبر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ م.
- الضمير : بنيت ودوره في الجملة ، الشاذلي الهيشري ، منشورات كلية الآداب ، جامعة منوبة ، تونس ، ٢٠٠٣ م.
- ضمير الغائب مستقصى في القرآن الكريم ، د. علي محمود النابي ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، ١٩٩٧ م.
- ضوابط التقديم وحفظ المراتب في النحو العربي ، رشيد بلحبيب ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الأول ، المغرب ، ط ١ ، ١٩٩٨ م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي ، مطبعة المقتطف ، مصر ، ١٣٣٢ هـ ، ١٩١٤ م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي ، تح : محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٥ م.
- ظاهرة التخفيف في النحو العربي ، د. أحمد عفيفي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٦ م.
- ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، د. طاهر سليمان حمودة ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط ١ ، ١٩٨٢ م.
- «ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي : دراسة في العلاقة بين البنية والدلالة » ، د. سعيد بحيري ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م.
- ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين ، د. البدرأوي زهران ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٣ م.
- العبارة والإشارة: دراسة في نظرية الاتصال، د. محمد العبد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- عنيات النص البنية والدلالة ، د. عبد الفتاح الحجري، شركة الرابطة، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٦.
- العربية الفصحى المعاصرة وأصولها التراثية، د. عباس السوسنة، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٢ م.
- العربية وعلم اللغة الحديث ، د. محمد محمد داود، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠١ م.

- علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته ، د. صلاح فضل ، مؤسسة مختار (دار عالم المعرفة) ، القاهرة ، ١٩٩٢ م.
- علم الدلالة ، د. أحمد غنار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٩٣ م.
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق : دراسة تطبيقية على السور المكية ، د. صبحي الفقي ، دار قباء للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- علم المعاني : دراسة بلاغية وتقديرية لمسائل المعاني ، د. بسيوني فيود ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٩ هـ .
- علم النص ونظرية الترجمة ، د. يوسف نور عوض ، دار الثقة للنشر ، مكة المكرمة ، ط١ ، ١٤١٠ هـ .
- علم لغة النص : النظرية والتطبيق ، د. عزة شبل ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- علم لغة النص : المفاهيم والاتجاهات ، د. سعيد بحيري ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تح: محمد محي الدين عبد الحميد ، د. ط. د. ت.
- العوامل المثة النحوية في أصول علم العربية ، عبد القاهر الجرجاني ، تح : البدرائي زهران ، دار المعارف ، ٢٠٠٢ م
- عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، تح : د. عبد العزيز المانع ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٥ م .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني ، تح: عبد العزيز بن باز ، دار الفكر ، د. ت.
- الفصل والوصل في القرآن الكريم دراسة في الأسلوب ، د. منير سلطان. منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ط٢ ، ١٩٩٧ م.
- فقه اللغة وسر العربية ، أبو منصور الثعالبي ، تح : فايز محمد وأمين يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٦ م .
- فن القول ، أمين الخولي ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٤ م .
- الفوائد ، ابن قيم الجوزية ، دار الفكر للطباعة والنشر ، د. ت .
- في البلاغة العربية والأساليب اللسانية : آفاق جديدة ، د. سعد عبد العزيز مصلوح ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- في بناء النص ودلالته : محاور الإحالة الكلامية ، مريم فرنسيس ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٨ م .
- في بناء النص ودلالته : نظم النص التخاطبي - الإحالي ، مريم فرنسيس ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ٢٠٠١ م .
- في اللسانيات العربية المعاصرة : دراسات وثائق ، د. سعد عبد العزيز مصلوح ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
- في اللسانيات ونحو النص ، د. إبراهيم خليل ، دار المسيرة ، عيّن ، ط١ ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م .
- في النحو العربي : قواعد وتطبيق ، د. مهدي المخزومي ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .
- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط٣٥ ، ٢٠٠٥ م .
- القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٨ هـ .
- القصص القرآني في منطق ومفهومه : مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف ، عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

- قواعد الربط وأنظمتها في العربية ونظريات الربط اللغوية الحديثة ، د. حسام البهنساوي ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٨ م .
- القواعد والفوائد في الإعراب ، أبو محمد الخاوراني الشوكاني، تح : د. عبد الله الخثران ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٣ م .
- الكامل في اللغة والأدب ، المبرد ، تح : د. محمد الدالي ، الرسالة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م .
- الكتاب ، سيويه ، تح : عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٣٩٥ هـ .
- الكتاب ، سيويه ، بولاق ، ط ١ ، ١٣١٦ هـ .
- كشف اصطلاحات الفنون ، التهانوي ، تح : أحمد علي بسج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م .
- الكشف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل ، الزمخشري ، رتبة وضبطه : محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م .
- الكشف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل ، الزمخشري ، دار الريان للتراث ، ط ٣ ، ١٩٨٧ م .
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس ، العجلوني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٣٥١ هـ .
- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، مكّي القيسي ، تح : محيي الدين رمضان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨٢ م .
- كشف المشكلات وإيضاح المعضلات في إعراب القرآن وعلل القراءات ، للباقولي ، تح : د. عبد القادر السعدي ، دار عمار ، عمان ، ط ١ ، ٢٠٠١ م .
- الكلمة : دراسة لغوية معجمية ، حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، ط ١ ، ١٩٩٨ م .
- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٦ هـ .
- لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد خطّاي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ٢٠٠٦ م .
- لعبة المعنى ، علي حرب ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط ١ ، ١٩٩١ م .
- اللسانيات واللغة العربية : نماذج تركيبية ودلالية ، د. عبد القادر الفاسي الفهري ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط ٤ ، ٢٠٠٠ م .
- اللغة ، فندريس ، ترجمة : عبد الحميد الدواخلي ، وعبد القضاة ، القاهرة ، ١٣٧٠ هـ ، ١٩٥٠ م .
- اللغة العربية : معناها ومبناها ، د. تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- اللغة والإبداع : مبادئ علم الأسلوب العربي ، شكري محمد عياد ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٨ م .
- اللغة والإبداع الأدبي ، د. محمد العبد ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٨ م .
- مباحث في علوم القرآن ، متاع القطان ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١٣ ، ٢٠٠٤ م .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين ابن الأثير ، تح : د. أحمد العوفي ، د. بدوي طبانة ، دار الرفاعي ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م .

- مجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى ، تح: د. محمد فؤاد سزكين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م.
- مجمل اللغة ، أحمد بن فارس ، تح: زهير عبد المحسن سلطان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م.
- المحتسب في شواذ القراءات ، ابن جني ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية الأندلسي ، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، د.ت.
- مختصر السعد على تلخيص المفتاح ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٧ م.
- المخصص ، ابن سيده ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٣ م.
- مدخل إلى علم اللغة ، د. محمود فهمي حجازي ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٥ م.
- المذكر والمؤث ، أبو بكر بن الأنباري ، تح: د. طارق الجنابي ، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٧٨ م.
- المرجل ، ابن الخشاب ، تح: علي حيدر ، دمشق ، ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م.
- مرجع الضمير في القرآن الكريم ، د. محمد حسنين صبرة ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠١ م.
- المساعد على تسهيل الفوائد ، ابن عقيل ، تح: د. محمد كامل بركات ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م.
- المستدرك على الصحيحين ، الحاكم النيسابوري ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ.
- مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف ، محمد عليان المرزوقي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٣ م.
- المصطلحات الأدبية الحديثة : دراسة ومعجم إنجليزي - عربي ، د. محمد عناني ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجان ، ط ٢ ، ١٩٩٧ م.
- المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، د. عوض القوزي ، جامعة الرياض (الملك سعود) ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ ، ١٩٨١ م.
- المصطلح اللساني المترجم : مدخل نظري إلى المصطلحات ، يوسف مقران ، دار ومؤسسة رسلان ، دمشق ، ط ١ ، ٢٠٠٧ م.
- معاني القرآن ، الأخفش ، تح: د. فائز فارس ، دار البشير ، ط ٢ ، ١٤٠١ هـ.
- معاني القرآن ، الفراء ، تح: أحمد نجاتي ومحمد النجار ، الهيئة المصرية للكتاب ، ط ٢ ، ١٩٨٠ م.
- معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج ، تح: د. عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٨ م.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي ، تح: علي محمد البجاوي ، مكتبة الدراسات القرآنية ، دار الفكر العربي ، د.ت.
- معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، تح: عبد السلام هارون ، دار الكتب العلمية ، إيران ، قم ، د.ت.
- معجم المصطلحات اللغوية ، رمزي بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ م.

- معجم علم اللغة النظري ، محمد علي الخولي ، دار فلاح ، ط ٢ ، ١٩٩٢ م .
- المعنى وظلال المعنى : أنظمة الدلالة في العربية ، د. محمد محمد يونس علي ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٧ م .
- المعونة في الجدل ، الشيرازي ، تح: عبد المجيد تركي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م .
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام ، تح: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٥ ، د.ت .
- المفاهيم : معالم نحو تأويل واقعي ، د. محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط ١ ، ١٩٩٩ م .
- مفتاح العلوم ، السكاكي ، ط البابي الحلبي ، د.ت .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٥ م .
- المفصل في تاريخ النحو العربي ، د. محمد خير الحلواني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م .
- المفصل في علم العربية ، الزخشري ، تح: د. فخر قدارة ، دار عمار ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م .
- مفهوم النص دراسة في علوم القرآن ، د. نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٩٦ م .
- مقاصد سور القرآن من كتاب بصائر ذوي التمييز لمجد الدين الفيروزبادي ، جمع : د. أيمن الشوّا ، دار البيروتي ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م .
- مقالات في الأسلوبية ، د. منذر عياشي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٠ م .
- مقالات في اللغة والأدب ، د. تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م .
- المقتصد في شرح الإيضاح ، عبد القاهر الجرجاني ، تح: د. كاظم بحر المرجان ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٨٢ م .
- المقتضب ، المبرد ، تح: د. محمد عبد الخالق عزيمة ، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ .
- مقدمة ابن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٤ م .
- مكونات القراءة المنهجية للنصوص : المرجعيات ، المقاطع ، الآليات ، تقنيات التنشيط ، محمد حمود ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط ١ ، ١٩٩٨ م .
- من أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه في القرآن الكريم ، د. أحمد عبد الرازي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .
- مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني ، عيسى البابي الحلبي ، د.ت .
- من جهود المفسرين المحدثين في الدراسة النصية للنص القرآني : دراسة تحليلية لثلاثة اتجاهات في التفسير القرآني ، د. محمد الطاووسي ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م .
- المنحول في تعليقات الأصول ، أبو حامد الغزالي ، تح: محمد حسن هيتو ، دار الفكر ، دمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٠ هـ .
- المنزع البديع في تمجيس أساليب البديع ، أبو محمد القاسم السجلهاسي ، تح: علاء الغازي ، مكتبة ، المعارف ، الرباط ، ١٩٨٠ م .
- من قضايا الرباط في اللغة العربية ، د. أحمد المتوكل ، منشورات عكاظ ، الدار البيضاء ، د.ت .

- من قضايا اللغة ، د. مصطفى النحاس ، مطبوعات جامعة الكويت ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م.
- منازل الرؤية : منهج تكاملي في قراءة النص ، د. سمير استيتية ، دار وائل ، عمان ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م.
- منهج البغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تح : محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٦٦ م.
- منهج السياق في فهم النص ، د. عبد الرحمن بودرع ، كتاب الأمة ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر ، ط ١ ، ع ١١١ ، المحرم / ١٤٢٧ هـ ، السنة ٢٦ .
- مهارات الكتابة ، د. محمد بن محمود فجال ، الرياض ، ١٤٣٠ هـ .
- الموافقات ، الشاطبي ، تح : مشهور آل سلمان ، دار ابن القيم ، الدمام ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م.
- مواهب الفتاح في شرح تلخيص الفتاح ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٧ م.
- الموقعية في النحو العربي : دراسة سياقية ، د. حسين رفعت حسين ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
- الميسر في القراءات الأربعة عشرة ، محمد فهد خاروف ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤١٦ هـ .
- نتائج الفكر في النحو ، السهيلي ، تح : محمد إبراهيم البنا ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .
- نحو أجرومية للنص الشعري : دراسة في قصيدة جاهلية ، د. سعد مصلوح ، ضمن كتاب : في البلاغة العربية والأساليب اللسانية : آفاق جديدة .
- النحو المصفى ، د. محمد عيد ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٩١ م .
- نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب ، د. مصطفى النحاس ، ذات السلاسل ، الكويت ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
- نحو النص : نقد النظرية وبناء أخرى ، د. عمر أبو خرمة ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، ط ١ ، ٢٠٠٤ م .
- نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ، د. أحمد عفيفي ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠١ م .
- النحو الوافي ، عباس حسن ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٩٧٥ م .
- النحو والدلالة : مدخل للدراسة المعنى النحوي الدلالي ، د. محمد حماسة عبد اللطيف ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠٦ م .
- ندوة البحث اللساني ، د. طه عبد الرحمن . منشورات كلية الآداب بالرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٦ .
- نسيج النص : بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً ، الأزهر الزناد ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٣ م .
- النص الأدبي تحليله وبناءه : مدخل إجرائي ، د. إبراهيم خليل ، ط ١ ، عمان ، ١٩٩٥ م .
- النص الغائب لتحليلات التناس في الشعر العربي ، محمد عزّام ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ط ١ ، ٢٠٠١ م .
- النص والخطاب والاتصال ، د. محمد العبد ، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م .
- النص ، السلطة ، الحقيقة ، نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ١٩٩٥ م .
- النص القرآني من الجملة إلى العالم ، وليد منير ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٩٧ م .

- نضرة الإغريض في نصرة القريض ، المظفر بن الفضل العلوي ، تح: نبى الحسن ، دار صادر، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٥ م.
- نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية ، مصطفى حميدة ، لبنان ناشرون ، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
- نظريات معاصرة ، د. جابر عصفور، دار المدى، دمشق، ١، ١٩٩٨ م.
- النظرية الألسنية عند رومان جاكسون : دراسة ونصوص ، د. فاطمة الطبال بركة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د. صلاح فضل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م.
- نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص الثري ، د. حسام فرج ، مكتبة الآداب ، القاهرة، ط ١، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- نظرية اللغة في النقد العربي ، د. عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ١٩٨٠ م.
- نظرية النص: من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، د. حسين خيري ، منشورات الاختلاف، الجزائر ، ط ١، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- نظرية النقد الأدبي الحديث ، د. يوسف نور عوض ، دار الأمين ، القاهرة، ط ١، ١٩٩٤ م.
- النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسولوجيا الرواية إلى سوسولوجيا النص الروائي، حميد حمداني ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٠ م.
- النهاية في غريب الحديث ، ابن الأثير ، تح: محمود محمد الطناحي و طاهر الزاوي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، د.ت.
- معجم الهوامع شرح جمع الجوامع ، السيوطي ، السعادة ، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.
- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، د. محمد محمود حجازي ، مطبعة المدني ، القاهرة، ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠ م.
- الوظائف التداولية في اللغة العربية ، د. أحمد المتوكل ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط ١، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م.
- وصف اللغة العربية دلاليًا في ضوء مفهوم الدلالة ، د. محمد محمد يونس علي ، جامعة الفاتح ، ليبيا، ١٩٩٣ م.

ثانيًا : الكتب المترجمة :

- أساسيات علم لغة النص : مدخل إلى فروض ونماذج وعلاقاته وطرائقه ومباحثه ، كليمير وآخرون، ترجمة : د. سعيد بحيري ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٩ م.
- أساسيات اللغة ، ر . ل . تراسك ، ترجمة : رانيا إبراهيم يوسف ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة (٣٨١) ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م.
- بحوث في القراءة والتلقي ، فيرناند هالين ، وفرانك شويرفيجن ، ميشيل أوتان ، ترجمة : د. محمد خير البقاعي ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ١٩٨٧ م .
- البلاغة والأسلوبية : نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ، هنريش بليث ، ترجمة : محمد العمري ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، ط ٢ ، ١٩٩٩ م .
- بناء لغة الشعر ، جون كوين ، ترجمة : د. أحمد درويش ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٩٣ م .
- تحليل الخطاب ، يول وبراون ، ترجمة : د. الزليطني والتركلي ، جامعة الملك سعود الرياض ، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م .
- التحليل اللغوي للنص : مدخل إلى المفاهيم الأساسية والناهج ، كلاوس برينكر ، ترجمة : د. سعيد بحيري ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م .
- تحليل النص الشعري (بنية القصيدة) ، يوري لومنان ، ترجمة : د. محمد فتوح أحمد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٥ م .
- الترجمة وعلوم النص ، لألبرت نيوبرت و غريغوري شريف ، ترجمة : د. محيي الدين حميدي ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- التطور النحوي للغة العربية ، برجستراسر ، السباح ، القاهرة ، ١٩٢٩ م .
- التطور النحوي للغة العربية ، برجستراسر ، تعليق : د. رمضان عبد التواب ، الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .
- دراسة اللغة ، جورج يول ، مطبعة جامعة كامبردج ، ط ٢ ، ١٩٩٦ م .
- درس السيميولوجيا ، رولان بارط ، ترجمة : عبد السلام بنعيد العالي ، دار توفيق للنشر ، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٩٨٦ م .
- دروس في الألسنية العامة ، فرديناند دي سوسير ، ترجمة : صالح القرمادي ، ومحمد الشاوش ، ومحمد عجينة ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨٥ م .
- دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ، ترجمة : د. كمال بشر ، دار غريب ، القاهرة ، ط ١٢ ، د. ت .
- عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو ، أدith كيرزويل ، ترجمة : جابر عصفور ، دار سعد الصباح ، الكويت ، ط ١ ، ١٩٩٣ م .
- علم الإشارة : السيميولوجيا ، بير جيرو ، ترجمة : د. منذر عياشي ، دار طلاس ، دمشق ، ط ١٩٩٢ م .
- علم الدلالة ، بير جيرو ، ترجمة : د. منذر عياشي ، دار طلاس ، دمشق ، ط ١٩٩٢ م .

- علم الدلالة ، جون لايتز ، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة، و حليم حسين فالح، و كاظم حسين باقر، منشورات كلية الآداب ، جامعة البصرة ، العراق ، ١٩٨٠ م.
- علم الدلالة ، كلود جرمان ، وريمون لويلان ، ترجمة: د. نور الهدى لوشن ، دار الفاضل ، دمشق ، ١٩٩٤ م.
- علم الدلالة ، وليم أوجرادي ، ترجمة: د. عبد الكريم جيل ، مجلة علوم اللغة (٣٥)، مج ٩، ٣٤، ٢٠٠٦ م.
- علم الدلالة إطار جديد ، ف . ر . بالمر ، ترجمة: د. صبري إبراهيم السيد ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٢ م.
- علم اللغة والدراسات الأدبية دراسة الأسلوب ، البلاغة ، علم اللغة النصي ، لبرند شبلنر ، ترجمة: د. محمود جاد الرب ، الدار الفنية للنشر ، ط١ ، ١٩٨٧ م.
- علم النص، جوليا كريستيفا ، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط٢ ، ١٩٩٧ م.
- علم النص : مدخل متداخل الاختصاصات ، فان دايك، ترجمة: د. سعيد بحيري ، دار القاهرة، ط٢ ، ٢٠٠٥ م.
- علم لغة النص نحو آفاق جديدة ، د. سعيد بحيري ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٧ م.
- فن النحو بين اليونانية والسريانية : ترجمة لكتابي ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازي ، ترجمة : ماجدة محمد أنور ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة (٢٩٧) ، القاهرة ، ٢٠٠١ م.
- قواعد اللهجات العربية الحديثة ، كرستن بروستاد ، ترجمة : محمد الشرقاوي ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة (٤٤٠) ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٣ م.
- لغة النص ، رولان بارت ، ترجمة: د. مندر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ط٢ ، ٢٠٠٢ .
- اللغة والمعنى والسياق ، جون لايتز ، ترجمة: د. عباس صادق الوهاب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٧ م.
- مدخل إلى التحليل البنوي للقصص ، رولان بارت ، ترجمة: د. مندر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ط٢ ، ٢٠٠٢ م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة ، هانز فير ، وضع: ج. ملتون كوان ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ومكدونالد وايفانس ليمتد ، لندن ، ط٣ ، ١٩٨٠ م.
- معرفة اللغة ، جورج يول ، ترجمة: د. محمود فراج عبد الحافظ ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط١ ، ٢٠٠٠ م.
- من الشاطئ الآخر ، طه حسين ، ترجمه عن الفرنسية : عبد الرشيد الصادق محمودي ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ط١ ، ١٩٩٠ م.
- الموسوعة اللغوية ، أ.د/ ن.ي . كولنج ، ترجمة: د. محيي الدين حميدي ، ود. عبد الله الحميدان ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤٢١ هـ.
- نحو نظرية أسلوية لسانية ، فيلي سانديرس ، ترجمة: د. خالد محمود جمعة ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- النص والخطاب والإجراء ، روبرت دي بوجراند، ترجمة: د. تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

- نظرية النص ، رولان بارت ، ترجمة : محمد خير البقاعي ، مجلة العرب والفكر العالمي (٣) ، ١٩٨٨ م.
- النص والسياق : استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، فان داويك ، ترجمة : عبد القادر قنيني ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٠ م.
- النقد النصي ، جيزيل فالانسي ، ترجمة : د. رضوان ظاظا ، ضمن كتاب : مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ، سلسلة عالم المعرفة ، ٢٢١ ، الكويت ، ١٤١٧ هـ.

ثالثاً : الرسائل العلمية غير المطبوعة :

- أساليب حذف المضاف من القرآن الكريم ، سلوى عبد الفتاح حسن ، رسالة ماجستير ، جامعة الأزهر ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية ، القاهرة ، ١٩٩١ م.
- الالتفات في القرآن الكريم : دراسة أسلوبية ، سعاد الحدادي ، رسالة ماجستير ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب ، ٢٠٠١ م.
- انسجام النص القرآني : دراسة نصية من خلال تفسير ابن عاشور التونسي ، عبد الوهاب المؤيد ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الخرطوم ، كلية الآداب ، ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م.
- التماسك النصي : دراسة تطبيقية في نهج البلاغة ، عيسى جواد الوداعي ، أطروحة دكتوراه ، الجامعة الأردنية كلية الدراسات العليا ، ٢٠٠٥ م.
- الخطاب وأثره في بناء نحو النص تطبيقاً على المعلقات السبع ، عبد المهدي الجراح ، رسالة دكتوراه ، جامعة اليرموك ، ٢٠٠٣ م.
- دراسة لغوية لصور التماسك النصي في لغتي الجاحظ والزيات ، مصطفى قطب ، أطروحة دكتوراه ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- الزمان والمكان في القصص القرآني ، محمد محمد الخري ، أطروحة الدكتوراه الموحدة ، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية ، كلية الآداب ، تونس ، منوبة ، ١٩٩٧ - ١٩٩٨ م.
- الضمير المبهم في القرآن الكريم : دراسة نحوية دلالية ، عبد الرحمن عزيز الأسدي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الموصل ، كلية التربية ، ١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م.
- الضمير ووظائفه : دراسة تحليلية تركيبية ودلالية ، سامي البدر ، جامعة اليرموك ، كلية الآداب ، ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م.
- الكافي في شرح الهادي - قسم النحو ، د. محمود فتّال ، رسالة دكتوراه ، جامعة الأزهر ، كلية اللغة العربية ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م.
- الباحث البلاغية في تفسير الطبري : حلم المعاني ، د. محمود الزين ، رسالة دكتوراه ، من جامعة الأزهر ، كلية اللغة العربية ، قسم البلاغة والنقد ، ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٣ م.
- المداخل وإشكالاتها النصية ، د. جعان عبد الكريم الغامدي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الملك سعود ، كلية الآداب ، ١٤٢٧ هـ.

- معايير النصية : دراسة في نحو النص ، محمد أشرف عبد العال الشامي ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، كلية دار العلوم ، ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م .
- نحو النص : دراسة تطبيقية على خطب عمر بن الخطاب ووصاياه ورسائله للولاة ، عثمان أبو زنيد ، رسالة ماجستير ، كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، أيار / ٢٠٠٤ م .

رابعاً : الأبحاث في المجالات والدوريات :

- اتجاهات لغوية معاصرة في تحليل النص ، د. سعيد بحيري ، مجلة علامات في النقد ، مج ١٠ ، ج ٣٨ ، ديسمبر ٢٠٠٠ م .
- أثر السياق في فهم النص القرآني ، د. عبد الرحمن بودرع ، مجلة الإحياء ، ع ٢٥ ، ١٤٢٨ هـ .
- الإحالة في نحو النص دراسة في الدلالة والوظيفة ، د. أحمد عفيفي ، ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية (العربية بين نحو الجملة ونحو النص) الواقع في ١٣-١٤ محرم ١٤٢٦ هـ كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة .
- الإحالة وأثرها في دلالة النص وتماسكه ، د. محمد محمد يونس علي ، مجلة الدراسات اللغوية ، الرياض ، مج ٦ ، ع ١ ، المحرم ، ربيع الأول ، ١٤٢٥ هـ .
- الإعجاز البياني للقرآن الكريم: أركانه ومظاهره ، حسين مطاوع الترتوري ، مجلة البحوث الإسلامية ، الرياض ، مج ١٠ ، ع ٢٣ ، سنة ١٩٨٨ م ، ص ص : ٢٢٥-٢٦٣ .
- البعد التداولي عند سيويه ، مقبول إدريس ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مج ٣٣ ، ع ١ ، يوليو - سبتمبر ٢٠٠٤ م .
- البنية الدلالية والإحالية للضمائر ، د. أشرف عبد البديع ، مجلة علوم اللغة ، مج ٩ ، ع ٣ ، سنة ٢٠٠٦ م .
- التراكم العلاماتي بين النص المكتوب والنص المنطوق ، محمد إسماعيل بصل ، مجلة المعرفة (٣٧٠) ١٩٩٤ م .
- التعريف والتذكير في اللغة العربية ، عبد الجبار غربية ، حوليات الجامعة التونسية ، ع ٢٤ ، ١٩٨٥ م .
- تعليق النص : الالتفات من المتن البلاغي إلى التداول النقدي ، د. علي حدّاد ، مجلة الباحث الجامعي ، جامعة إب ، ع ١ ، السنة ١ ، ١٩٩٨ م .
- تقديم عام للاتجاهات البراهيات ، محمد صلاح الدين الشريف . ضمن كتاب - أهم المدارس اللسانية ، المعهد القومي لعلوم التربية ، تونس ، مارس ، ١٩٨٦ م .
- جماليات الالتفات ، د. عز الدين إسماعيل ، ضمن (قراءة جديدة لتراثنا النقدي) ، كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة (٥٩) ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- الدلالة النظرية لبعض الظواهر الإحالية في اللغة العربية ، د. عبد القادر القاسي الفهري ، اللسانيات في خدمة اللغة العربية ، سلسلة اللسانيات عدد : ٥ ، تونس ، ١٩٨١ م .

- دور السياق في تقدير مرجع الضمير في الدراسات اللغوية القرآنية ، د. محمد أحمد خضير ، مجلة علوم اللغة ، دار غريب ، مج ٢، ع ١، ١٩٩٩ م.
- دور نحو الجملة في تفسير النص : منهج وتطبيق ، د. ليلي يوسف ، ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية (العربية بين نحو الجملة ونحو النص) الواقع في ١٣-١٤ محرم ١٤٢٦ هـ كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة .
- رأي في اسم الإشارة في مبناء ومعناه : دراسة وصفية تحليلية ، د. خليل أحمد حمارة ، مجلة التواصل اللساني ، مج ٣، ع ٢، ١٩٩١ م.
- الروابط بين الجمل في النص الشعري ، د. صلاح الدين حسنين ، مجلة علامات في النقد ، ج ٣٩ ، مج ١٠ ، ذو الحجة / ١٤٢١ هـ .
- السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة ، د. إبراهيم أصبان ، مجلة الإحياء ، ع ٢٥ ، جادى الثانية ، ١٤٢٨ هـ ، الرباط .
- ضمير الغائب في المجال المقارن ، د. عبد القادر الفاسي الفهري ، مجلة مجالات لغوية ، الكليات والوسائط ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، ١٩٩٤ م .
- ضمير الفصل بين البصريين والكوفيين ، د. كاظم إبراهيم كاظم ، مجلة التواصل اللساني ، مج ٣ ، ع ٢ ، سنة ١٩٩١ م .
- العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ، د. سعد مصلوح ، ضمن الكتاب التذكاري للأستاذ عبد السلام هارون ، جامعة الكويت ، ١٩٩٠ م .
- علم اللغة والنقد الأدبي : علم الأسلوب ، د. عبده الراجحي ، مجلة فصول ، مج ١، ع ٢، يناير ١٩٨١ م ، القاهرة .
- علم النص : أسسه المعرفية وتحليلاته النقدية ، د. جميل عبد المجيد ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، مج ٣٢، ع ٢ ، ديسمبر / ٢٠٠٣ م .
- عناصر السبك بين القدماء والمحدثين ، د. نادية النجار ، ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية (العربية بين نحو الجملة ونحو النص) الواقع في ١٣-١٤ محرم ١٤٢٦ هـ كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة .
- قراءة نقدية في مصطلح النص في الفكر الأصولي ، د. أيمن صالح ، مجلة إسلامية المعرفة ، بيروت ، السنة التاسعة ، ع ٣٣-٣٤ ، صيف وخريف ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٣ م .
- اللغة ونظرية السياق ، د. علي عزّت ، مجلة الفكر المعاصر ، ع : ٧٦ ، يونيو ١٩٧١ م
- اللغة والنقد الأدبي ، د. تمام حسان ، مجلة فصول ، مج ٤، ع ١، ١٩٨٣ م ، القاهرة
- مفهوم النص في اللسانيات الحديثة ، شفيق البقاعي ، مجلة الفكر العربي ، (٨٥) ، ١٩٩٦ م .
- من أسباب اختلاف المفسرين المتعلقة بمرجع الضمير ، د. صالح الناصر ، مجلة الحكمة ، بريطانيا ، ع ٣٤ ، محرم ١٤٢٨ هـ .
- من النص إلى الجنس الأدبي ، أحمد الخديري ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، بيروت ، ع ٥٤-٥٧ ، ١٩٩٨ م .
- من طرائف القرآن الكريم ، الشيخ عبد الغني الراجحي ، مجلة الأزهر ، مج ٢١ ، ١٩٤٩ م

- مهارات التعرف على الترابط في النص في كتب القراءة العربية المتوسطة والثانوية للبنات: دراسة تقويمية، د. ربا سعدو الجرف، مجلة رسالة الخليج العربي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ع: ٨٧، سنة ٢٠٠١ م.
- النص بوصفه إشكالية راهنة في النقد الحديث، فاضل نامر، مجلة الأفلام، ع ٤٣، ١٩٩٢ م
- النص لغةً واصطلاحاً، خليل موسى، جريدة الأسبوع الأدبي، ع ٨٢٣، سنة ٢٠٠٠ م.
- نظرة في العلاقة بين المبدع والنص والمتلقي عند النقاد العرب القدماء، محمود درابسة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مؤتة، إربد، مج ١٠، ع ٢، ذو الحجة / ١٤١٥ هـ.
- نظرية، نص، أدب: ثلاثة مفاهيم نقدية بين التراث والحداثة، عبد الملك مرتاض، (ضمن قراءة جديدة لتراثنا النقدي) مج ١، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٩-٢٤ / ١١ / ١٩٨٨ م.
- الوظائف الإحالية لجملة الصلة في القرآن الكريم: تضافر العناصر الموصولة مع العناصر اللغوية الأخرى في تماسك النص، د. أشرف عبد البديع، مجلة علوم اللغة، مج ٨، ع ٤، ٢٠٠٥ م.
- الوظيفة السياقية لضمير الفصل، محمد الهيتي، مجلة الدراسات اللغوية، مج ٤، ع ٢، ١٤٢٣ هـ.

خامساً: شبكة المعلومات :

- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي :
<http://www.saaaid.net/book/open.php?book=1203&cat=2>
- ضمير الفصل بين الدراسة النحوية النظرية والتطبيق القرآني، د. يحيى بن محمد علي الحكمي، عن موقع (د. يحيى الحكمي):
العائدية الخطابية: مقارنة تداولية معرفية، ذ. لحسن توبي، مجلة اللسان العربي، ع ٤٥، ١٩٩٨ م. عن موقع المجلة:
www.arabization.org.ma/downloads/majalla/45/docs/33.doc
<http://rop3.ektob.com/69122.html>
- الباب في علوم الكتاب، ابن عادل، عن موقع (التفاسير):
<http://www.altafsir.com/indexArabic.asp>
- مدونة اللسانيات والدلالة والتخاطب، د. محمد محمد يونس علي:
<http://takhatub.blogspot.com/>
- موقع اللسانيات، بإشراف د. عبد الرحمن بودرع:
<http://www.lissaniat.net/>
- موقع اللغوي الإنجليزي د. روبرت دي بوجراند:
<http://www.beaugrande.com/>
- موقع اللغوي الألماني (Prof.Dr.Klaus von Heusinger):
<http://www.ilg.uni-stuttgart.de/vonHeusinger/forschung/index.html>
- نحو لسانيات نصية عربية: مقارنة في مفهوم النص والتماسك النصي، عمران رشيد، عن موقع (رابطة أدباء الشام):
<http://www.odabasham.net/show.php?sid=11927>
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، عن موقع (التفاسير):
<http://www.altafsir.com/indexArabic.asp>

سادساً : المراجع الأجنبية :

- Al Kholi, Mohammad Ali: A Dictionary of Theoretical Linguistics, Librairie du Liban, 1982.
- Barbara Johnstone : Discourse analysis. Oxford, Black well , 2001.-
- Beaugrande, Robert de & Dressler, Wolfgang : Introduction to text linguistics. London: Longman, 1980.
- Benveniste, E.: Problèmes de linguistique générale, I , Editions Gallimard. 1968,
- Bohumil Palek : Textverweis (Cross-Reference) Ein Beitrag zur Textlinguistik Hypersyntax.
- Burling, R.: Man's Many Voices Language in Its Cultural Context. Holt, Rinehart and Winston. New York. 1970.
- Carnap, R.: Meaning and Necessity 9(The University of Chicago Press M 1956).
- Chomsky, N.: Lectures on Government and Binding, 1981, Dordrecht, Foris.
- Coseriu, Eugenio: Textlinguistik, Eine Einführung, Gunter Narr Verlag, 2., durchges. Auflage, Tuebingen, 1981.
- Crystal, D.: A Dictionary of linguistics and Phonetics, 2nd ed., 1986, Black well.
- Crystal, D.: The Cambridge Encyclopedia of language, Cambridge University press, Cambridge, New York, 1997.
- De Borah Schiffrin: Between text and context: Deixis anaphoram, and the meaning of then. Text 10 (3) 1990, pp: 245-270.
- Dik, S.C. : The Theory of Functional Grammar .1997.-
- Donnellan, K.S.: Reference and definite descriptions, Philosophical Review. 1966.
- Dubois, J. Et ...: Dictionnaire de linguistique, Larousse. 1973.-
- Dudley. W. Reynolds: Language in the balance: lexical repetition as a function of topic, language learning 51:3, Sep, 2001, pp: 437-476.
- Enkvist, Nils Erik: Linguistic Stylistics mouton, The Hague – Paris. 1973. And Spencer,
- Fraida Dubin & Elite Olshtain: The interface of writing and reading. TESOL Quarterly, vol. XIV, no. 3, Sep. 1980, pp: 353 – 362.
- Geoffrey Finch : Linguistic terms and concept. London, Macmillan press Ltd., 2000.
- Gregory, Michael: Linguistics and style, Oxford Uni. Press, London. 1964.-
- Hadumod Bussman: Routledge Dictionary of Language and Linguistic, Routledge, London and New York . 1984 .
- Halliday & Hasan, R.: Language, context and text: aspects of language in social semiotic perspective. Oxford university press, 1989.
- Hartmann, R. R. K. And Stork, F.C.: Dictionary of Language and Linguistics. Applied Science Publishers (Redundancy).
- Hentschel, E. & Weydt, H.: Handbuch der deutschen Grammatik. Berlin, New York. 1990.
- Heusinger, Klaus von: Salienz und Referenz. Der Epsilonoperator in der Semantik der Nominalphrase und anaphorischer Pronomen. Studia grammatica 43. Berlin: Akademie Verlag . 1997.

- Hoffmann,Ute.: Untersuchung zur Topologie im Mittelfeld : Pronominale und Nominale Satzglieder.
- Haas, J. : Fransösische Syntax.(Halle 1916).-
- Halliday & Hasan,R.: Cohesion in English, Longman, London .1976.-
- Hans, Heringer und Andre: Einführung in die Praktische Semantik.-
- Harweg , R.: Pronomina und Textkonstitution. München, 1968. -
- Hjelmslev, L.: Essais linguistiques, Arguments, les Editions de Minuit,1971.-
- Hoey Michael: Patterns of Lexis in Text, Oxford: Oxford University Press.1991. -
- Irwin, Judith W.: Understanding and Teaching cohesion and comprehension. Published by the International reading association, 1986.
- Isenberg, H. : Der Begriff, Text, in der Sprachtheorie, 1970.
- Jan Renkema : Discourse studies: an introductory text book. John Benjamins publishing, Amsterdam company, Philadelphia, 1993.
- Jonathan Fine: How language works: cohesion in normal and non standard communication. Ablex publishing corporation, Norwood, Newjersey, vol. LI, 1994.
- Kallmeyer,W. Und Andere : Lekturrekolleg Zur Textlinguistik, Bd. I : Frankfurt, 1974.
- Lyons, J.: Einführung in die moderne Linguistik.München,(übers. Der engl. A.usg.) 1971.
- Lyons, J.: Firth's Theory of Meaning in Bazell, C.E. et al(Eds) In Memory of J. R. Firth Longman, 1970.
- Lyons, J.: Language and Linguistics, Cambridge University press.1981.-
- Lyons, J.: Linguistic Semantics, An Introduction Cambridge University press,1995.-
- Lyons, J.: Semantics. Cambridge University press. London & New York, 1977. -
- Malinowsky: Semantics: An I ntroduction to the science of meaning, Oxford, 1962.
- Milner, J. C.: Introduction à une science du langage, Editions du Seuil, Paris, 1989.
- Ordre et raisons de langue, Editions du Seuil, Paris, 1982 . Milner, J. C.:-
- Mounin, G. :, Clefs pour la linguistique, Editions Seghers,Paris, 1974.
- Morley, G. D.: An Introduction to Systemic Grammar, Macmillan,London, 1985.-
- Murphy, M.: A Cross disciplinary approach to research and theory. ERIC Document Reproduction Service No. ED 185540, 1979.
- Nunan, David,: Introducing Discourse Analysis. London: Penguin Group, 1993.
- Odo, Leys: Das Reflexivpronomen, Eine Variante des Personalpronomen
- Parret Herman: Semiotics and pragmatics: an evaluative comparison of conceptual frameworks, J. Benjamins, 1983.
- Perlmutter, D.& Soames, S. : Syntactic Argumentation and the Structure of English ,U.S.A 1979.
- Soell, Ludwig: Gesprochene und geschriebenes Fanzoesisch, Erich Schmidt Verlag, 2. Auflage, Berlin,1980.
- Steiniz,R.: Adverbial Syntax, 1969

- Stephen P.Witte & Lester Faigley: Coherence, cohesion, and writing quality. College composition and communication, Oct 1981, pp.189-203
- Johannes, Erben : Abriss der Deutschen Grammatik, Akademie-Verlag, 1958.-
- Kesik, Marek: La cataphore, Linguistique nouvelle, Paris. PUF. 1980. -
- Kitay, J.: On anaphora and antecedence; semiotica. 1988. -
- Levinson Stephen C: Pragmatics, Cambridge University Press, 1983. -
- Raphael Salkie: Text and discourse analysis, Routledge, 1995.-
- Reckendorf, Hermann: Arabische Syntax, C. Winter, 1921. -
- Renate Steiniz: Nominale Pro – formen, 1968.-
- Richards, J.: Longman Dictionary of Applied Linguistics.-
- Robins, General Linguistics: An Introductory survey. 2nd Edn. Longman. London. -1978.
- Ruqaya Hasan : Grammatical cohesion in spoken and written English, Longman -London. 1968.
- Sandra Stotsky: Types of lexical cohesion in expository writing: implications for -developing the vocabulary of academic discourse. College composition and communication, vol. 34, no. 4, Dec 1983, pp. 430-447.
- Stalnaker R.C.: Assertion in (ed.) P. Cole. (1978) -
- The Concise Oxford Dictionary, "Pronoun"-
- Ullmann, Stephen: Meaning and Style, Oxford, 1973.-
- Van Dijk, Teun A. : La ciencia del texto. Trad. Barcelona, -1984.
- Venneman, T.: Topic, Sentence accent, and ellipsis: a proposal for their (1975). formal treatment in (ed.) E.L. Keenan.

٣ - الموضوعات

ص	الموضوع
	مقدمة
	الخط الأول: علم اللغة النصي
٤١	المبحث الأول: مفهوم النص لغة واصطلاحاً
٤١	النص لغة
٤٤	الربط بين المعنى اللغوي للنص والمعنى الاصطلاحي
٤٧	مفهوم النص في الثقافة العربية
٥٢	مفهوم النص في الدراسات الغربية
٥٤	مفهوم النص اصطلاحاً
٥٦	١- تعريفات بنوية
٥٨	٢- تعريفات سيميائية
٦٢	٣- تعريفات علماء اللغة الاجتماعيين
٦٦	٤- تعريف لسانيات النص وتحليل الخطاب
٨٣	المبحث الثاني: نحو النص
٨٣	ضبط المصطلح
٨٤	تعريف نحو النص ونشأته
٩٠	وظيفة نحو النص
٩٣	المبحث الثالث: التماسك النصي
٩٣	مفهوم التماسك النصي
٩٣	التماسك لغة
٩٥	الربط بين المعنى اللغوي للتماسك والمعنى الاصطلاحي
٩٧	التماسك النصي عند النحويين العرب
١٠٥	التماسك النصي في الدراسات الغربية
١١١	التماسك النصي في الدراسات العربية الحديثة

ص	الموضوع
١١٤	أدوات التماسك النصي
١١٧	أولاً : وسائل التماسك الشكلي
١١٩	القسم الأول : أدوات التماسك الشكلي النحوية
١١٩	١ - الإحالة
١٢٠	٢ - الاستبدال
١٢٤	٣ - الحذف
١٣٣	٤ - التبعية
١٣٤	أولاً : دور التعت في عملية التماسك
١٣٦	ثانياً : دور التوكيد في عملية التماسك
١٣٦	ثالثاً : دور العطف في عملية التماسك
١٤٢	رابعاً : دور البديل في عملية التماسك
١٤٤	٥ - الربط بالأدوات
١٥٠	أولاً : الربط بحرف الجر
١٥١	ثانياً : الربط بأداة الشرط
١٥٢	القسم الثاني : أدوات التماسك الشكلي المعجمية
١٥٢	١ - التكرار
١٥٣	٢ - التضام
١٥٥	ثانياً : وسائل التماسك الدلالية
١٥٩	أهمية الانسجام
١٦٠	وسائل الانسجام
١٦١	١ - الفصل والوصل
١٦١	٢ - علم المناسبة
١٦٢	أولاً : مناسبة اسم السورة لمضمونها
١٦٤	ثانياً : مناسبة أول السورة لآخرها
١٦٥	ثالثاً : مناسبة آيات السورة لبعضها
١٦٦	٣ - وسائل أخرى تعمل على انسجام النص

	المبحث الثاني : الإحالة وظيفتها وأنواعها وأثر السياق فيها
١٦٩	المبحث الأول : مفهوم الإحالة لغة واصطلاحاً
١٦٩	مفهوم الإحالة
١٧٠	الإحالة لغة
١٧١	الربط بين المعنى اللغوي للإحالة والمعنى الاصطلاحي
١٧٢	الإحالة اصطلاحاً
١٨٠	الإشارة والإحالة
١٨٣	الفرق بين العنصر الإشاري والعنصر الإحالي
١٨٧	المبحث الثاني : وظيفته الإحالة
١٩٣	المبحث الثالث : أنواع الإحالة
١٩٥	أولاً : الإحالة الخارجية (المقامية)
١٩٦	التماسك النصي في الإحالة الخارجية
٢٠٣	ثانياً : الإحالة الداخلية (النصية)
٢٠٣	الثنائية الأولى : من حيث اتجاه المحال عليه
٢٠٣	١- الإحالة القبليّة
٢٠٥	٢- الإحالة البعديّة
٢١٨	الثنائية الثانية : من حيث نوع العنصر المحال عليه
٢١٨	١ - الإحالة المعجمية
٢١٩	٢ - الإحالة المقطعية
٢٢٥	الثنائية الثالثة : من حيث المدى الإحالي
٢٢٨	١ - إحالة قريبة المدى
٢٢٩	٢ - إحالة بعيدة المدى
٢٣٢	الثنائية الرابعة : من حيث الوجود الذهني
٢٣٢	١ - إحالة بناء
٢٣٣	٢ - إحالة تعيين
٢٣٧	الإحالة الذهنية وطبيعة المحال عليه
٢٣٨	أنواع الإحالة في الدراسات الغربية

ص	الموضوع
٢٣٩	أولاً: الإحالة الاسمية المكررة
٢٤١	ثانياً: الإحالة الضميرية
٢٤٢	ثالثاً: الإحالة الترادية
٢٤٦	رابعاً: الإحالة التبعية
٢٤٧	خامساً: إحالة التساوي
٢٤٨	سادساً: إحالة التضاد
٢٤٩	سابعاً: إحالة إعادة الصياغة
٢٥٥	المبحث الرابع: أثر السياق في دراسة الإحالة في القصة القرآنية
٢٥٥	أولاً: النص والسياق
٢٦٨	ماهية السياق
٢٧٧	خصائص السياق
٢٨٠	عناصر السياق
٢٨١	أولاً: المرسل / المخاطب
٢٨٥	ثانياً: المتلقي / المخاطب
٢٩٣	ثالثاً ورابعاً: المكان والزمان
٢٩٧	عناصر السياق القرآني
٣٠٠	ثانياً: أثر السياق في تماسك النص
٣٠٥	ثالثاً: أثر السياق في فهم الإحالة في القصة القرآنية
٣٠٩	رابعاً: عناصر السياق في القصص القرآني
٣١٠	١- المخاطب
٣١٣	٢- المخاطب
٣١٦	٣- موضوع الخطاب وغرضه
٣١٩	٥،٤- مكان النزول وزمانه
٣٢١	٦- سبب النزول
٣٢٤	أثر السياق في فهم الإحالة
٣٢٤	مثال تطبيقي (١) قصة البقرة
٣٣٦	مثال تطبيقي (٢) قصة ابني آدم عليه السلام
٣٤١	مثال تطبيقي (٣) قصة النبي ﷺ مع عبد الله بن أم مكتوم (الأعمى)

المبحث الأول : الإحالة بالضمير

٣٤٨	تعريف الضمير لغة
٣٥٠	تعريف الضمير اصطلاحاً
٣٥٤	وظيفة الضمير وأهميته عند النحويين القدماء
٣٥٩	وظيفة الضمير وأهميته عند العلماء الناصيين
٣٦٦	الإحالة بالضمائر
٣٧١	أقسام الضمائر من حيث الإحالة
٣٧٤	أسباب تميز الإحالة بالضمير عما سواها من أدوات الإحالة
٣٧٩	أثر الإحالة بالضمير في تماسك النص
٣٨١	صور التماسك النصي في الإحالة بالضمير
٣٨١	١- الضمائر المنفصلة والضمائر المتصلة
٣٨٢	٢- المطابقة بين الضمير ومرجعه
٣٨٦	الاستثناء الوضعي في استخدام الضمير
٤٠٠	الاستثناء البلاغي في استخدام الضمير
٤٠١	شرط الالتفات
٤٠٦	وظيفة الالتفات
٤٠٧	أولاً : المخالفة في الجهة
٤١٥	ثانياً : المخالفة في العدد
٤١٦	مرجعية الضمير وإزالة اللبس
٤١٧	القرائن المعينة على تعيين مرجعية الضمير وإزالة اللبس
٤٢٤	الربط الإحالي عملية آلية
٤٢٥	صور الإحالة بالضمير
٤٣٤	أثر السياق في تحديد مرجعية الضمير
٤٤١	أثر السياق في حل مشكلة عدم المطابقة بين الضمير ومفسره
٤٤٧	البنية الإحالية لضمير الذات
٤٥٧	البنية الإحالية لضمير الفصل

ص	الموضوع
٤٥٨	تعريفه ، وشروطه
٤٦٣	أ - وظيفة ضمير الفصل في الدراسات القديمة
٤٧٠	ب - وظيفة ضمير الفصل في الدراسات الحديثة
٤٨٠	البنية الإحالية لضمير الشأن
٤٩٣	المبحث الثاني : الإحالة باسم الإشارة
٤٩٤	تعريف أسماء الإشارة
٥٠٠	مفهوم الإشارة في الدرس اللغوي الحديث
٥٠٦	أركان الإشارة
٥٠٨	وظيفة أسماء الإشارة
٥٢١	البنية الإحالية لاسم الإشارة
٥٢١	المدى الإحالي في أسماء الإشارة
٥٢٩	الانحراف الاستعمالي في أسماء الإشارة
٥٣٥	نيابة اسم الإشارة (ذا) عن الضمير وعن الاسم الموصول
٥٣٥	أ - بين اسم الإشارة والضمير
٥٣٧	الضمائر في الإنجليزية
٥٣٩	نيابة ضمير الفصل الغائب عن اسم الإشارة
٥٤١	نيابة ضمير الشأن عن اسم الإشارة
٥٤٢	ب - بين اسم الإشارة والاسم الموصول
٥٤٣	الاتجاه الإحالي في أسماء الإشارة ونوع المحال عليه
٥٥٥	المبحث الثالث : الإحالة بالموصول
٥٥٥	تعريف الموصول
٥٥٦	الاسم الموصول بين الإبهام والتعريف
٥٥٨	وظيفة الاسم الموصول
٥٧٠	شروط جملة الصلة
٥٧٢	الضمير العائد (الرابط)
٥٧٤	أنواع الإحالة بالاسم الموصول
٥٧٧	المبحث الرابع : الإحالة بالتكرار
٥٧٩	التكرار لغة

ص	الموضوع
٥٧٩	التكرار اصطلاحاً
٥٨١	الربط بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للتكرار
٥٨٢	وظائف التكرار
٥٩١	الإكثار من التكرار في الخطاب
٥٩٤	التكرار في قصص القرآن
٦٠٥	صور الروابط التكرارية
٦٠٥	أ - التكرار الكلي
٦٠٧	ب - التكرار الجزئي
٦٠٨	ج - الترادف أو شبه الترادف
٦١٠	د - شبه التكرار
٦١٠	هـ - التكرار التركيبي (التوازي)
٦١٣	و - التكرار الإسنادي
٦١٥	ز - الكلمة الشاملة
٦١٧	ح - الكلمات العامة
٦١٩	أمثلة تطبيقية على الإحالة بالتكرار في القصص القرآني
٦١٩	مثال تطبيقي (١) قصة أصحاب الكهف
٦٣٣	مثال تطبيقي (٢) قصة شعيب مع قومه
٦٣٧	المبحث الخامس : الإحالة بـ (أ ل) التعريف
٦٤٠	وظيفة أداة تعريف الاسم وتنكيره
٦٤١	التعريف والتنكير وجهة تداولية
٦٤٤	أنواع الألف واللام
٦٤٥	أ . أ ل العهدية
٦٥٣	ب . أ ل الجنسية
	أمثلة من القصص القرآني على الإحالة بأداة التعريف (أ ل)
٦٦٠	مثال (١) قصة امرأة عمران
٦٦١	مثال (٢) قصة يوسف عليه السلام
٦٦٥	مثال (٣) قصة يوسف عليه السلام
٦٦٧	مثال (٤) قصة موسى والعبد الصالح

ص	الموضوع
٦٦٩	المبحث السادس : الإحالة باللفظ الواجب
٦٦٩	مفهومه
٦٧١	أثره في التماسك النصي
٦٧٢	أمثلة عليه
٦٧٤	الفرق بينه وبين الإحالة بالتكرار
٦٧٥	الخاتمة
٦٨٤	المحتوى
٦٨٧	المصطلحات
	المصادر والمراجع
	الموضوعات

